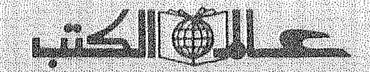
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مباحث فى التاريخ

محمد لطفى جمعه

إعداد ومراجعة
رابح لطفى جمعه





Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مباحث فى التاريخ

محمد لطفى جمعه

إعداد ومراجعة
رابح لطفى جمعه

عالم الكتب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م



الإدارة : ١٦ شارع جواد حسني - القاهرة ت : ٣٩٢٤٦٢٦ فاكس : ٣٩٣٩٠٢٧
المكتبة : ٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة - ت : ٣٩٥٩٥٣٤-٣٩٢٦٤٠١
E.mail: alamalkotob59@hotmail. com

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديم

—

المؤرخ العربى الكبير
الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان

—

يسرنى أن أقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب المهم ، الذى يتضمن أعمال الأديب والمفكر الكبير الأستاذ محمد لطفى جمعه فى التاريخ ، وقد جمع هذه الأعمال ابنه الوفى المستشار رابح لطفى جمعه ، وتتكون من مقالات ودراسات ومحاضرات منشورة وغير منشورة .

والمرحوم محمد لطفى جمعه يعدّ واحداً من الرواد الأوائل الذين أثروا الحياة الفكرية والأدبية من موقعه كأديب وصحفى ومفكر كبير ، وهو ينتمى للحزب الوطنى القديم ويحمل مواقفه السياسية ورؤيته لعصره ومجتمعه ونضاله السياسى .

والأعمال التى بين أيدينا تحمل رؤية المرحوم محمد لطفى جمعه للتاريخ ، التى تنكر على التاريخ أنه علم ، وإن لم تنكر أهميته فى تربية الشعوب ، كما تنعى عليه أنه يركز على تاريخ الحكام ، ويهمل تاريخ الشعوب !

وهذا النقد ، الذى شاطر المرحوم محمد لطفى جمعه فيه الكثيرون ، ربما كان أحد الأسباب التى جعلت المؤرخين المحدثين يركزون اليوم على تاريخ الشعوب ، وعلى التاريخ الاجتماعى بالدرجة الأولى .

كما لعله أحد الأسباب التى أدّت إلى اهتمام المؤرخين « بالمادية التاريخية » ، ومنهم صاحب هذا القلم ، الأمر الذى ترتب عليه ظهور دراسات مهمة فى التاريخ الاجتماعى كانت جديرة بأن تغيّر رأى المرحوم محمد لطفى جمعه .

كذلك فإن إنكار الأستاذ محمد لطفى جمعه على التاريخ أنه علم ، يمثل قضية علمية كبيرة ، تصدّى لها المؤرخ الإنجليزى الكبير هارنشو Hearnshaw

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى مبحثه المهم عن « علم التاريخ » ، الذى ظهر على هيئة فصل من كتاب (Outline of modern Knowledge)

وكان البروفسور هارنشو قد تولى من المناصب العلمية أستاذية التاريخ الوسيط بجامعة لندن من عام ١٩١٢ إلى عام ١٩٣٤.

ولعل المرحوم محمد لطفى جمعه لو كان قد قرأ هذا الكتاب لغيّر رأيه .

وقد جمع المستشار رابح لطفى جمعه هذه المقالات والدراسات والأبحاث المهمة المنشورة وغير المنشورة التى كتبها والده فى التاريخ على مدى أربعين عاما (١٩٠٩ – ١٩٤٩) . وهو جهد جبّار ، لأنه تطلب رجوعه إلى صحف ومجلات النصف الأول من القرن العشرين ! ولكنه جهد مثمر لأنه أسفر عن هذا الكتاب القيم الذى نرحب به فى المكتبة التاريخية العربية لأنه يحمل رؤية أديب وسياسى ومفكر كبير ، أثّر فى تاريخ مصر الفكرى تأثيراً إيجابياً على مدى نصف قرن .

والله الموفق .

أ.د. عبد العظيم رمضان

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

بجامعة المنوفية

الهرم فى ١٥/١١/٢٠٠٠م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديــم .

—

رابح لطفي جمعه

—

عرّفـوا التـاريخ بأنه علم مـعـرفـة أحـوال الطوائف وبلدانهم ورسـومـهم وصـنائع أشـخصـائهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك ، وموضـعه أقوال الأشـخاص الماضية من الأنبـيـاء والأوليـاء والعلمـاء والحكمـاء والشـعـراء والملوك وغـيـرهم ، والغـرض منه الوقوف على الأحوال الماضية ، وفائدته العبرة بتلك الأحوال الماضية والتنصّح بها وحـصـول ملكة التـجارب بالوقـوف على تقلبات الزمن ليـحـترز من أمـثـال مـا نقل من المضـار ويسـتـجلب نظائرها من المنافع ... وأنه علم يسـتـمـتع بسـمـاعـه العـالم والجـاهل ، ويسـتـعـذب مـوقـعـه الأحـمق والعـاقل ، ويأنس بمكانه وينزع إليه الخـاص والعامّى ، ويميل إلى روايته العربى والعجمىّ ، وفن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيـال ، وتشـد إليـهـا الركـائب والرحـال ، وتسـمـو إلى مـعـرفـتـهـا السـوقـة والأغفال ، وتتنافس فيها الملوك والأقيال ، وتتسـاوى فى فهـمـها العلماء والجهال ، إذ هو فى ظاهره لايزيد على أخبار عن الأمم والدول ، والسوابق من القرون الأول ، وفى باطنه نظر وتحـقـيق ، وتعليل للكائنات ومـبـادئهـا دقـيق ، وعلم بكيـفـيـات الوقـائـع وأسـبـابـهـا عـمـيق . وإن فـحـول المؤرخين فى الإسـلام قـد اسـتـوعـبوا أخـبـار الأيام وجمعوها ، وسطروها فى صفحات الدفاتر وأودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها ، وزخارف من الروايات المضعفة لفّقوها ووضـعـوها ، واقـتـفـى تلك الآثار الكثـيـر من بعدهم واتبـعـوها ، وأدّوها إلينا كـمـا سـمـعـوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقـائع والأحـوال ولـم يراعـوها ، ولا روّضـوا ترهات الأحـاديث ولا دفعوها .

وعن شـروط التـاريخ قـالوا « إن باشـرت بكتـابة تاريخ عـام فـتكلم على دولة دولة بمجموع ما حصل ذهنك من الهيئـة الاجتماعيـة التى أفادتك إياها مطالعـة السير

والتواريخ وذكر كيف كان ابتداؤها وانتهاءها ، وطرفاً ممتعاً من محاسن ملوكها وأخبار سلاطينها ، ثم إذا ذكرت دولة دولة ، تكلمت على كليات أمورها ، ثم ذكرت واحداً واحداً من ملوكها وماجرى فى أيامه من الوقائع المشهورة والحوادث المأثورة، فإذا انقضت أيام ذلك الملك ، ذكرت وزراءه واحداً واحداً وطرائق ماجرى لهم ، فإذا انقضت أيام الملك ووزرائه ، ابتدأت بالملك الذى بعده وبما جرى فى أيامه وسير وزرائه كذلك إلى آخر تلك الدولة ... »[١].

ويستخلص من هذه النبذة أن التاريخ يعرف بأنه « علم » و« فن » ، وأنه قد خالطه كثير من الأوهام والأغاليط والخرافات والترهات ، وأن « موضوعه » ذكر تاريخ الدول والحكام والوزراء .

أما أن التاريخ قد خالطه كثير من الأوهام والخرافات ، فهو أمر لا محاجة فيه وهو مشاهد وملموس فى كثير من واقعات التاريخ قديماً وحديثاً ، ولا يكاد يختلف عليه اثنان .

أما أن التاريخ علم وفن ، فهذا ما لا نتفق فيه مع ماجاء بالنبذة التى اقتبسناها لأسباب يطول شرحها ، أهمها أن العلم بالمغنى المقصود من ذلك ، له قوانين وقواعد وتخضع تجاريبه للاستقراء والاستنتاج والاستنباط ، وتقام الأدلة على صحة نظرياته أو فسادها ، وليس كذلك شأن التاريخ .

ونعتقد أن التاريخ نوع قائم بذاته من الكتابة يمكن أن نطلق عليها وصف «النثر السردى» ، ونقصد بذلك أنه نوع من النثر الحكائى ، لا هو قصة ولا هو رواية ولا ترجمة ولا سيرة ، وإنما هو نوع من الكتابة قائم بذاته يتفاوت الكتاب والمؤرخون فى صياغته وأساليبه بقدر حظ كل منهم من العلم والمعرفة والرؤية الشاملة والفكرة الثاقبة والنظرة الفاحصة والدراسة المتعمقة والتمكن من اللغة والأسلوب ، وهذا

---

(١) من كتاب « علم الأدب » للأب لويس شيخو اليسوعى ، ج ١ ، ص ٣٣٦ ومابعدها ،بيروت ، سنة ١٨٨٧ .
والجدير بالذكر أن بعض ماجاء بهذه النبذة مقتبس من مقدمة ابن خلدون بنصه وحروفه ، وقد عقد ابن خلدون فى المقدمة فصلاً فى « فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بمغالط المؤرخين » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللون من الكتابة لا يقصد به بطبيعة الحال إلى التسلية وتزجية أوقات الفراغ ، وإنما يهدف إلى قياس الحاضر بالماضي لاستخلاص العبرة والموعظة واستشراف المستقبل للجماعات والأفراد .

أما قولهم عن « موضوع التاريخ » – سواء فى ذلك التاريخ القديم أو الحديث – إنه سيَر الحكام والملوك والسلاطين والوزراء ، فهذا أمر يلمسه كل مطالع لكتب التاريخ ، ومن هنا فإننا نفتقد فى كتب التاريخ بعامة والتاريخ العربى بخاصة ذلك الجانب من حياة الشعوب ، فلا نكاد نجد فى هذه الكتب صورة عن حياة أفراد الشعب الذين يقعون فى أدنى درجات السلم الاجتماعى ، فهؤلاء الناس البسطاء من النادر أن نتصل بهم مباشرة ، وكل ما نعرفه عن حياتهم إنما نعرفه من خلال حديث المؤرخين عن حياة الحكام والأمراء والوزراء والأعيان ، وبالجملة من خلال الكلام على الطبقة الأروستقراطية الحاكمة أو المالكة لمقاليد الأمور فى الدولة .

ومن هنا كان الوقوف على التاريخ الاجتماعى للشعب من خلال تلك المعلومات القليلة التى نعثر عليها هنا أو هناك فى المجلدات الضخمة المدونة فى تاريخ الملوك والحكام والوزراء ، وفى تاريخ الحروب ، معلومات ضئيلة لاتكاد ترسم لنا صورة معقولة عن حياة الشعب وأفراده فى مختلف طبقاته الوسطى أو النازلة .

ألا ترى معى أن تاريخ مصر القديم وتاريخ الرومان وتاريخ أوربا العصور الوسطى يكاد ينحصر فى ذكر تاريخ الفراعنة والأباطرة والملوك والأمراء والنبلاء وتاريخ الكنيسة والبابوات وتاريخ الحروب الطاحنة التى قامت عبر هذه العصور الطويلة ، وكذلك الأمر لا يختلف بالنسبة لتاريخ الدول العربية والإسلامية فى مصر والعراق والشام والمغرب والأندلس ، فقد انحصر هو الآخر فى تاريخ الحكام والخلفاء والملوك والسلاطين والوزراء[١] ، فتسأل نفسك متعجباً وأنت تقرأ مئات الصفحات

---

(١) ولا أدل على ذلك من أننا نقرأ عناوين بعض كتب التاريخ فنجدها تحمل العناوين التالية : «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» لأبى المحاسن بن تغرى بردى ، و« السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزى ، و«النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية » لحسن بن الطولونى و« اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا» للمقريزى أيضا وغيرها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من هذه التواريخ : وأين الشعوب وأبناء الشعوب من كل هذا المعمعان ؟ أين الفلاحون والعمال والصناع وأرباب الحرف والتجار والباعة والسوقة والعوام ؟ وأين الجنود والأبطال الميامين من أبناء الشعب ؟ وأين المرأة وأين الناس البسطاء من أبناء هذه الشعوب ؟

والجواب لا شيء أو في أحسن الأحوال معلومات قليلة ونذر يسير لا يكاد يغني ولا يسمن من جوع .

ومن هنا فإنني لا أكاد أتصفح بعض صفحات من كتاب من كتب التاريخ حتى يتطرق الملل والسأم إلى نفسي - إلا في الندرى - فأنحيه جانباً متسخطاً متأسفاً على الجهد والوقت الذي بذل في تأليفه والمداد والورق الذي أنفق في تصنيفه .

وقد لمس لطفي جمعه مؤلف الكتاب الذي نحن بصدده هذه الناحيات جميعها في بعض مقالاته لمساً مباشراً ، فانتقد تعريف التاريخ بأنه « علم » وذلك في دراسته عن « الفلسفة والتاريخ » ، كما تحدث عن خلو كتب التاريخ من الكلام على أبناء الشعوب على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية وأساليب حياتهم وطرائق معايشهم ومظاهر حياتهم الاجتماعية والفكرية والأدبية وتقاليدهم وأعرافهم واقتصار كتابة التاريخ على الحكام والملوك.

كذلك ندد المؤلف في غير موضع من مقالاته بإهمال المصريين لتاريخهم القديم والحديث .

وبعد ...

فهذا كتاب محمد لطفي جمعه « مباحث في التاريخ » وهو عبارة عن مقالات كتبها المؤلف في مختلف موضوعات التاريخ قديماً وحديثاً في الشرق والغرب ونشرها على مدى أربعين عاماً (١٩٠٩- ١٩٤٩) في الصحف والمجلات التي كانت تصدر في النصف الأول من القرن العشرين .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأستاذ الدكتور عبد العزيز شرف يقول في كتابه القيّم « أدب المقالة » إن الأستاذ سوارس في كتابه « مقدمة لدراسة الأدب » قد قسّم

المقالات إلى قسمين ، الأول مقالات فى موضوع من الموضوعات كالعلم أو الفلسفة أو التاريخ أو النقد ، ومثل هذه المقالات قابلة لأن تكبر حتى تصبح بحوثاً ، والثانى عبارة عن قطع تشتمل على وجهة نظر الكاتب ، وهذه لا يمكن أن تكبر لتصبح بحوثاً[1] .

ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول إن الكتاب الذى بين يدى القارىء الكريم هو نوع من المقالات الموضوعية التى تنتظم بحوثاً فى التاريخ القديم والحديث سواء فى الشرق أو الغرب .

ومن هذا المنطلق أيضاً فقد أطلقت على هذا الكتاب عنوان « مباحث فى التاريخ» ، ولا أزعم أننى حصلت على جميع المقالات التاريخية التى يتضمنها هذا الكتاب لتعدد نطاق نشرها فى الدوريات وتعذر الحصول على بعضها ، على أننى قد أضفت إلى هذه المقالات بعض الدراسات المخطوطة التى كتبها المؤلف فى بعض موضوعات التاريخ ولم يقدر لها أن تنشر حال حياته وأهمها دراسته عن «الفلسفة والتاريخ» وبحثه عن « لورانس والثورة العربية » وكتاباته عن تاريخ الاغتيال السياسى فى مصر ، ومحاضرته التى ألقاها سنة ١٩١٢ عن عصر الإحياء والنهضة فى إيطاليا وغير ذلك .

وقد انتهجت فى ترتيب هذه المقالات منهجاً أرجو أن أكون قد وفقت إليه ، ذلك أننى جعلت لكل جانب من جوانب التاريخ السياسى والاجتماعى التى تناولها المؤلف فى مقالاته – قسماً مستقلاً ، مثال ذلك المقالات التى تتحدث عن الحضارات قديماً وحديثاً فى الشرق والغرب ، والمقالات التى تتكلم على تاريخ مصر القديم وتلك التى تتكلم على بعض واقعات تاريخنا الحديث ، كما جعلت قسما للمقالات التى تتكلم على بعض أحداث التاريخ العربى والإسلامى ، وقسماً آخر للمقالات التى تتناول بعض الشخصيات التاريخية قديماً وحديثاً وهكذا .

---

(١) الدكتور عبد العزيز شرف ، « أدب المقالة » ، ص ٧ ، ٨ ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان ، سنة ١٩٩٧ .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد أن لطفى جمعه ليس غريباً عن ميدان التاريخ والكتابة والمحاضرة فيه ، فقد سبق له أن ألقى سنة ١٩١٧ دورساً فى التاريخ على طلبة الفرقة الثانية بكلية الحقوق بالجامعة المصرية القديمة ونشرهاسنة ١٩١٧.

على أن أهم ما يلاحظه القارىء على هذا المجموع من المقالات التاريخية مايلى:

(١) أن المؤلف لم يقتصر على مجرد سرد بعض واقعات التاريخ فى الشرق والغرب قديماً وحديثاً ، وإنما عمد إلى استخلاص العبرة من الماضى والإفادة منها فى الحاضر والمستقبل ، وبعبارة أخرى تناول الدروس المستفادة من بعض وقائع التاريخ.

(٢) أن المؤلف - كما يقول المرحوم الدكتور على زكى فى إحدى رسائله إلى لطفى جمعه - إنه « توفر على الجمع فى نظرة شاملة لمسرح التاريخ من الماضى إلى الحاضر أو كما يسمونه : "Sens et Philosophie de L'histoire" فلا يحفل بسرد الوقائع فى تواريخها المضبوطة قدر ما يحفل بالتنويه بمغزاها على مر الزمان وبالقياس إلى الأحقاب الأخرى والأمم المعاصرة وغير المعاصرة ، أعنى أن كتبه تجعل القارىء يلمس التاريخ كجسم حى ويشعر بأنه مرتبط بذلك الجسم لا مجرد واقف من بعد يتفرج... »[1].

(٣) تحدث المؤلف عن بعض الشخصيات التاريخية التى تركت بصماتها على حياة شعوبها سواء فى النواحى السياسية أوالدينية أو العسكرية أو الاجتماعية أو الفكرية ، فتحدث عن هذه النواحى جميعها من خلال حديثه عن تلك الشخصيات .

---

(١) انظر الرسالة فى كتاب « حوار المفكرين ، رسائل أعلام العصر إلى محمد لطفى جمعه خلال نصف قرن ١٩٠٤ - ١٩٥٣ » ، ص ٥٢٧ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٩ - ٢٠٠٠ م .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٤) عنى المؤلف فى بعض مقالاته بالحديث عن بعض المظاهر المادية والمعنوية فى حياة الشعوب ، كحديثه عن الديمقراطية عند المصريين القدماء ، وحديثه عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فى مقالاته عن نكبة البرامكة على يد الرشيد .

(٥) تناول المؤلف بعض أحداث تاريخ مصر الحديث وخاصة فيما يتعلق بالسياسة الاستعمارية التى انتهجتها إنجلترا إبان احتلالها لمصر ، كحديثه عن ضرب الإسكندرية ، وتطرق من ذلك فى بعض المقالات إلى ظاهرة الاغتيال السياسى فى الشرق بعامة وفى مصر بخاصة ، وأرجع تفشى هذه الظاهرة الخطيرة إلى سياسة إنجلترا الاستعمارية فى مصر ، وأكد على أن كل ما أصاب مصر من كوارث وأحداث الاغتيالات إنما يرجع فى الأساس إلى تلك السياسة ، وتحدث من خلال ذلك على اغتيال بطرس غالى ومصرع السردار السير لى ستاك وقضية القنابل الكبرى وغيرها .

كما تناول فى مقال له الحديث عن زوال الإمبراطورية البريطانية مقرراً أنه «حقيقة تاريخية طبيعية كانقراض جرم من دورة الفلك أو انطفاء كوكب بلغ غايته وأمسى صخرة مظلمة بعد انعدام الحياة من عناصره التكوينية ، وقد جاء أجله فلا يستقدم ولا يستأخر » ، وقد حققت الأيام ماجاء بهذا المقال ، فانحسر المدّ الاستعمارى البريطانى عن أملاك الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس !

(٦) لم يغفل المؤلف فى بعض مقالاته الكلام على بعض ألوان من الفنون المعمارية كحديثه عن قصر لوخياس بالإسكندرية وحديثه عن كتاب الفنون الإسلامية فى عهد الأمويين والعباسيين وبنى طولون ، وحديثه عن مدينة الفسطاط وعجائبها وغير ذلك .

(٧) تحدث المؤلف فى العديد من المقالات عن حضارات الشعوب بعامة والحضارة المصرية بخاصة ، مثال ذلك مقاله عن « الهجرة المحمدية وأنها أساس الحضارة الإسلامية » ، ومقاله « تغلغل العرب فى الحضارة الغربية » ومقال « ظهور الحضارة العربية وأثرها فى العالم » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما تناول فى أحد المقالات الكلام على الأمم الإسلامية وأسباب ركودها[١] ، وأكد فى بعض مقالاته على عروبية مصر ودحض دعوى الفرعونية وتكلم من خلال هذه المقالات على الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط على مر العصور ، كما أكد فى مقال آخر على أن المدنية المصرية أصيلة غير مكتسبة ، كأنى به يردّ على بعض الدعاوى التى راجت فى هذه الآونة الأخيرة والتى تزعم أن الحضارة المصرية القديمة حضارة مجلوبة غير أصيلة وأنها تعزى إلى شعب أو شعوب غير الشعب المصرى العريق إلى آخر تلك المزاعم الباطلة والتخرصات المشبوهة والدعاوى الداحضة .

(٨) حاول المؤلف فى بعض المقالات أن يبرز دور مصر الحضارى على مر العصور وأن يشيد ببعض أمجادها التاريخية والقومية والعسكرية ، كحديثه عن المعارك المصرية فى القرن التاسع عشر وحديثه عن نهضة مصر والشرق وغير ذلك .

ولا يسعنى وأنا أختتم هذه الأسطر إلا أن أتقدم بأجزل الشكر والامتنان للأستاذ الفاضل والمؤرخ العربى الكبير الدكتور عبد العظيم رمضان على تفضله بتقديم هذا الكتاب .

وإننى أترك القارىء الكريم مع هذا المجموع الشيّق من المقالات التاريخية راجياً أن يجد فيها متعة وفائدة ، وأن يكون المؤلف رحمه الله قد سدّ بكتابه هذا بعض الفراغ فى المكتبة التاريخية .

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل .

رابح لطفى جمعه

العجمى هانوفيل فى ٢٩ سبتمبر سنة ٢٠٠٠ م ٢١ ش أمين الخولى مصر الجديدة

---

(١) للمؤلف كتاب لايزال مخطوطاً تحت الطبع عنوانه « كيف السبيل لإحياء الشرق والإسلام ؟ » ، تناول فيه أسباب ما وصلت إليه أحوال المسلمين من تدهور فى مشارق الأرض ومغاربها ووسائل إحيائهم وإنهاضهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فائدة وقيمة التاريخ وغايتى من الكتابة فيه (١)

« فائدة التاريخ هى معرفة العوامل الأولية التى كانت سبباً فى المظاهر القومية الكبرى ، وكل ماعدا تلك العوامل من العوارض لا قيمة له ، وقيمة التاريخ فى أنه يفيدنا دروساً ننتفع بها لا أن نسمع قصصاً تسلينا ، وغايتى من الكتابة فى التايخ هى أن أشرح العوامل الأولية التى أدت إلى مدنية أوربا وسعادتها الحاضرة لتستنير البصائر ولنأخذ فى طرق العمل الحقيقى الموصل إلى المجد القومى متعظين بأخبار من سبقونا من الأمم .

وأخص ما فى كتاباتى التاريخية هو بيان فضائل الشعوب والأفراد وما أدى إليه العمل بمقتضى تلك الفضائل ، ولم أطل القول ولن أطيلة فى رذائل الإنسانية ونتائجها لاعتقادى بأن الفضائل هى الباقية وأن الرذائل عرضية زائلة وأن الفضائل هى مظهر عواطف الإنسانية ، لذا كانت كل الأعمال الكبرى التى تمت قائمة على الصفات الجليلة أى الفضائل البشرية كالأخلاق والصدق والتفانى فى النفع العام وبذل النفس والنفيس فى خير الوطن . أما الأعمال التى قامت على الرذائل كإهراق دماء من يخالف جماعة فى دينهم أو عرفهم أو جنسيتهم أو إقامة حرب ظالمة ، فقد عادت بالشر والوبال على أصحابها .

وقد قصدت بكتاباتى فى التاريخ قصدين ، الأول أن أغرس بعض بذور التاريخ التى استقيتها من أوثق المصادر بكل إيجاز ليتمكن القارىء من مراقبة الكتب المطولة ، والقصد الثانى أن يستنتج القارىء بنفسه من الحوادث والوصول من

---

(١) من مقدمة « دروس فى التاريخ » ألقاها المؤلف على طلبة الفرقة الثانية من قسم الحقوق بالجامعة المصرية سنة ١٩١٧م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ الأمة ضميرها الحى (١)

« إن الأمة التى لاتعرف تاريخها فى ماضيها لاتدرك حقيقة حاضرها ولاتملك الاستعداد لمستقبلها ، فأنا أنظر إلى التاريخ من ناحية المنفعة للأمة ، لا لمصر وحدها بل كل الأمم . وقد أهملت مصر تاريخها ألوف السنين حتى أصبحت أمة لاتعرف ماضيها ، ولما كان التاريخ بالنسبة للأمم كالضمير الحى ، فهى تعيش بلا ضمير ، لأن الفرد إذا فقد وجدانه حصر حياته فى الحاضر ، والرجل الذى لا يفكر ولا يعقل ، لا يعرف الماضى ولا المستقبل ومثله فى ذلك كالأنعام ، فإن أنواع الحيوان لاتعرف الماضى ولا المستقبل ومعرفتها محدودة بالحاضر .

ولما كانت الجماعات غير الفرد وأثبتت المشاهدة أن لها أحوالاً وتأثرات تخالف أحوال الفرد وتأثراته وتفكيراً يخالف تفكير الأفراد ، فلا وسيلة لجذب المجموع إلى الماضى والمستقبل إلا بالتاريخ مع كل معايبه ، فهو بمثابة الضمير للأمم ، ومن هنا اهتمام الأمم الرشيدة بالتاريخ للمجموع ، وهذه قيمة التاريخ الصحيحة لأنه يعين المجموع على إلقاء نظرة على سير الأمة وأهم أحداثها وأخبار أعظم رجالها ، وربما كان اهتمام الأفراد بالتاريخ راجع إلى هذا الشعور الدفين فى دخيلة أنفسهم .

ألا ترى المصريين سجلوا تاريخهم بالحفر فى الحجارة وإقامة النصب والتماثيل ليكون عبرة لأهل المستقبل وليكون محسوساً ملموساً للمعاصرين أنفسهم ، وكذلك فعل البابليون والآشوريون ، وقد سرت فكرة النقش إلى الرومان فكتبوا قوانينهم على الجمادات ، ومايزال أهل العصور الحديثة ينقشون أهم الحوادث وتواريخ المشاهير على لوحات من المرمر ».

محمد لطفى جمعه

---

(١) من دراسة المؤلف المعنونة « الفلسفة والتاريخ » ، ص ٣٢ من هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفلسفة والتاريخ (١)

لاشيء يستهوى الفيلسوف ويغريه بالاستقصاء مثل التاريخ ، لأن الفيلسوف مشاهد ومتفرج على الكون وعلى العالم في حاضره ، والتاريخ يوهمه بأنه سجل للحوادث والمرئيات والمعقولات والمنقولات السابقة على الحاضر وهى نفس المعلومات التى يتوق الفيلسوف إليها والتى يرى أمثالها فى زمنه ، وأحب شيء إلى نفسه تمكنه من المقارنة والمعارضة والتثبت من الأشباه والنقائض ليستنبط القوانين العامة ليثبت فى ذهنه الأشياء والحقائق الجديرة بالثبوت وينفى منها ماليس جديراً بالثبوت ويمحوه ٠

ولكن بحث الفيلسوف فى التاريخ يفقد كثيراً من قيمته ، وآماله التى ظن أنها تكافأ بالثمرات تنتهى بالخيبة لأسباب كثيرة، أولها أن التاريخ مكون من حوادث وواقعات لاعدد لها ولا يمكن إحصاءها ولا حصرها ولا التأكد من صحتها صحة علمية إلا نادراً جداً ، ولاختلاف طبائع الشاهدين والنظارة والناقلين والرواة وتباين مواهبهم العقلية ، تختلف جهات نظرهم وطرائق إدراكهم للأشياء ، فلا يجمعون على أمر واحد حتى ولو كانوا متعاصرين ومعاصرين للحوادث وخالىّ الغرض ولا غاية لهم إلا تقرير حقيقة ما رأوا وسمعوا ولا بسوا بأنفسهم ، فيندر أن تتفق الأهواء والميول أو تتجه فى ناحية الحق المطلق ٠ وقد شوهد هذا فى ساحات العدل حيث يختلف شهود الرؤية اختلافا عجيبا مدهشا ٠ وهذا النوع من المعرفة الذى يصل إلى الإنسان عن طريق حاستى النظر والسمع خاضع لقوانين نفسية متعددة ٠ وإن رغبة شاهد الرؤية والعيان لشديدة فى أن يفهم ويعى ويتذكر ليعيد وصف ما رأى وسمع لتعلق حقوق الغير فى عنقه وذمته ٠ وقد يكون الشاهد حسن الفهم وسليم النية

(١) دراسة كتبها المؤلف تحت هذا العنوان سنة ١٩٤٣ ولم تنشر ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكنه قد يخطىء أو ينسى أو يسىء فهم ما رأى وسمع ، فتأتى شهادته مخالفة للحقيقة والواقع .

وإذن تكون شهادة العيان عرضة للشك وهى أعلى درجات التاريخ أى أنها أصدق المصادر فى ظاهرها وأحقها بالاحترام ولكنها لا تأتى وفق المقصود إلا فى أندر الأحوال ، وإذن تكون كتب التاريخ كلها أو معظمها موضعاً للشك وينبغى الحذر فى الاعتماد عليها، ولا أحب أن أجزم بأن أضرار التاريخ المدون أكثر من منافعه إذ يجب علىّ أن أحترس قبل أن أصدر هذا الحكم على المجلدات الضخمة التى قضى رجال فضلاء أعمارهم فى تدوينها .

ولكن فكرة قوية تدفعنى إلى التشكيك فى قيمة التاريخ ولهذه الفكرة مصادر شتى، منها ما شاهدته بنفسى من تشويه الحقائق فى كتب التاريخ المغرضة ومقارنتها، ولست فى حاجة إلى ضرب الأمثال فهى كثيرة جداً ، ومنها وجود الصحف وهى سجلات التاريخ الحديث العصرى ومعظم ما يجىء فيها مخالف للواقع تمليه المنافع والمخاوف إلا فيما يتعلق بصغار الواقعات والتى لا تحتمل الشك كأوقات شروق الشمس وغروبها ودرجة الحرارة والبرودة وأخبار الكسوف والخسوف والزلازل بعد وقوعها ونعى الموتى وأخبار الزواج التى شهدها شهود عيان ووصف الكوارث الطبيعية المؤكدة الوقوع كانقضاض الصواعق وهطول الأمطار ومقاييس الأنهرإلخ.

وما بالك بتاريخ يكتبه أشخاص تقتضى صنعتهم البراعة فى الاختراع والاختلاق والمبادرة إلى إذاعة كل ما يكتبون ، ومقياس نجاحهم السرعة وإدهاش القارئين مذ كانت المبالغة والإغراق أولى درجات النجاح ، وإثارة العواطف أهم ما يرمون إليه . فالذى يتخذ من معظم الصحف العالمية مرجعاً للتاريخ دون تحقيق وتدقيق يضيع الوقت فيهما ، يكون قد ارتكن على قصبة مرضوضة . ولا شىء أسهل عند هؤلاء الصحفيين من تكذيب ما كتبوا ونشروا وأذاعوا بالأمس .

وعلى كل حال فإن هؤلاء الناس يمكن مراقبتهم ومراجعتهم وتصحيح ما كتبوه. وكذلك ما ينشر من الكتب فى العصر الحديث يمكن تصحيحه أو تعديله ، فما قولك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى كتب التاريخ القديمة المعروفة بأنها اتباعية وثابتة القيمة (كلاسيك) مثل كتاب هيرودوت الذى يسمى والد التاريخ وقد نشرت وذاعت وتبادلتها الأيدى قبل الطباعة بألفى سنة ، وبلوطرخ وتوسيديد اليونانيين . وهذه الكتب ما عدا الثانى منها محشوّة بالغلط والخطأ والخرافات والأساطير التى لا يقبلها العقل السليم ، لأن مصادر المؤرخين كانت محدودة والرقابة معدومة وكانت عقول معاصريهم وأخلاقهم تقبلها .

وإذا اتجهنا إلى الشرق لم نجد إلا كتباً نادرة يمكن التعويل عليها فى مجموع الأمور ، ولذا جعل ابن خلدون أكبر همه فى وضع مقدمته التى هى نوع من فلسفة التاريخ والاجتماع وقوانين السياسة والاقتصاد ، ولما كان الاجتماع والاقتصاد علمين لاشك فيهما وكان ابن خلدون نفسه عالما ولم يكن التاريخ علماً ، فقد نجح المؤلف فى المقدمة وفشل فى التاريخ نفسه ، ودهش الناس من توفيقه فى المقدمة وخيبته فى التاريخ لأنهم لم يفطنوا إلى أن موهبة الرجل العلمية حالت دون اتخاذ الصفات اللازمة للمؤرخ وأهمها سعة الخيال وعدم التثبت .

أقول ليس التاريخ علما كالعلوم الأخرى كعلم الرياضة والفلك والنبات والحيوان لأنه محروم من الصفة المميزة للعلوم وهى إخضاع ماهو معلوم ومطاوعته ولا يعطينا غير المساواة فى الدرجة بين المعلومات التى تكونه وتجعل له قواما ، فهو مصدر معرفة معقولة أو سديدة أو موافقة للصواب وليس علما بالمعنى الذى كان به الطب علما والهندسة علما إلخ .

فإن العلوم الخليقة بهذه النسبة والتسمية تملك زمام المفردات وتقسمها وتبويبها وتجعلها أجناساً وأنواعاً مهما كثر عددها . وتنتقل بها فى بحوثك من الخاص إلى العام وتخضع تلك التفصيلات إلى قواعد وقوانين ثابتة ، ففى الرياضة مثلاً إذا وعيت جدول الضرب وجدته صحيحا إلى الأبد وفى كل شيء ، وفى الطب إذا عرفت أعراض المرض أمكنك تشخيصه وعلاجه ، وفى الكيمياء تنتظر دائما نتائج معينة من امتزاج العناصر وانفصالها . ولكنك فى التاريخ لاتجد شيئاً من هذا ، بل كل

حادثة قائمة بذاتها وظروفها ويمكن أن تتشابه في أحوال نادرة كما يمكن أن يتشابه الأفراد والمدن والعصور مشابهة بعيدة أو قريبة ولكنها ليست هي .

وقولهم إن التاريخ يعيد نفسه نكتة سهلة المقال مستحيلة التحقيق ، ولأجل هذا لايوجد للتاريخ نظام كما توجد نظم للعلوم ، لأنك لا تهتدى فيه إلى الخاص بمعرفتك العام . إذا عرفت شيئاً كثيراً عن الحروب الماضية لا يمكنك أن تستدل به على الحرب الحاضرة أو التى تتلوها ، وإذا درست الثورة الفرنسية ووقفت على كل تفاصيلها لا يمكنك أن تعرف الثورة الروسية قبل حدوثها . ولذا يقال عن الدليل التاريخي بعد حدوث الأشياء لا قبل وقوعها . فالتاريخ زاحف على أرض التجربة والاختبار ، والمؤرخ يعلم ويدرك الحوادث مباشرة بملابستها ولا ينطق عليها بحكم إلا بعد حدوثها ومرورها . أما العلوم الأخرى فمشرقة بقوانينها الثابتة ومبادئها العامة على مفرداتها وخصوصياتها ، فالعموم حاكم الخصوص . وفى معظم الأحوال يطمئن المختبر لنتيجة العلم المنتظرة فى الأمر الخاص وقد يكون متأكداً كما يحدث فى التنبؤ بحدوث الكسوف والخسوف من وقوعهما أو أحدهما فى يوم معين وساعة محددة ، لأن التنبؤ بهما مبنى على علم ثابت ثبوت اليقين وهو الحساب. أما التاريخ فمن من أصحابه يتنبأ بحرب أو ثورة أو تغيير نظام الحكم ثم يصح تنبؤه؟.

ففى العلوم يكون العموم سائداً والخصوص مسوداً والخصوص خاضعا والعموم حاكما . ففى الطب إذا حملت امرأة وثبت حملها وعرف تاريخ إخصابها بالدقة ، أمكن القول بأنها تلد في يوم كذا وقد يفرق الأمر ساعات أو يوماً ، ولكن إذا شاهدت أمة ودرست أحوالها فلا يمكنك أن تجزم بأنها تثور أو تعلن الحرب أو تجوع أو تفني بوباء جارف فى شهر كذا أو سنة كذا . وكل ما تستطيعه أن ترتب أحوالها وتشاهدها وتصفها وتسجلها يوما فيوما وعاماً فعاماً وجيلا فجيلا وهكذا ... فالعلوم تتكلم عن الأصناف والأجناس والأنواع ، أما التاريخ فيتكلم عن الأفراد . علم النبات يصف الشجرة ولا يقف عند شجرة الكافور أو الخابور أو

الفروع ، ويتكلم عن الزهرة فلا يقف عند الورد أو الفل أو الزنبق . ولكن التاريخ يتكلم عن الأفراد فيقف عند بوذا والإسكندر وقيصر وبونابرت لأن هؤلاء الأفراد هم الذين صنعوا التاريخ ويصنعونه وسوف يصنعه أمثالهم ، وهذا الاشتغال بالشخصي دون العمومي أعطى للتاريخ صبغته ، ولو أن التاريخ تكلم عن قيصر بوصفه رجلاً ، دخل في الاجتماع أو في الطب أو في الاقتصاد أو في الأخلاق ، ولكن قيصرا بوصفه الشخصي يرغم الكاتب على البقاء في حيز التاريخ .

ولم تراني لا أكترث بقولهم إن التاريخ يعيد نفسه ؟

لأن حوادث التاريخ لا تقع إلا مرة واحدة منذ الخليقة إلى آخر الدهر ، وأن محاولة التشبيه خيالية . فقيصر عاش ومات ولم يتكرر بذاته وبيئته وعصره وأهله وعقله وأصدقائه وأنصاره وأعدائه . وموقعة أكتيوم وقعت مرة واحدة ولم تتكرر . وحروب الإسكندر ودارا بدأت وانتهت مرة واحدة ، أما قولك خمسة في خمسة تنتج خمسة وعشرين فهي تحدث وتتكرر بذاتها ملايين المرات في كل يوم وليلة في كل بقاع الأرض ، سواء أكان العددان رجالاً أو نساء أو مالا أو فاكهة أو معدنا أو زمنا أو دجاجاً ، وكذلك قسمة أربعين على ثمانية وكذلك جمع سبعة على خمسة وطرح خمسة من سبعة . وكذلك بقية العلوم كالكيمياء والطبيعة والفلك .

ولا يفوتنا أن التاريخ لا يمكن أن يلم بكل الأفراد والشخصيات والحوادث لكثرتهم وتعددها وعدم خضوعهم وخضوعها للمشاهدة والاختبار . وإن الذي يقع فعلاً في العالم في ساعة واحدة لا يمكن حصره ولو تضافر ملايين الرجال على تدوينه ، فالذي يدون أو تعيه الذاكرات لايزيد على جزء من ملايين الأشياء ، والذي يدون لا يصل إلينا منه إلا جزء من ملايين الأجزاء ، والذي يصل إلينا لا يمكننا تحقيق جزء من ملايين من أجزائه . ولو تعمدنا تسجيل كل ما يعمله رجل واحد في عمره من ميلاده إلى موته وتسجيل أفكاره وأقواله وكل ما طرأ عليه احتجنا إلى مئات المجلدات وألوف أقراص الفونوغراف وهذا بالطبع مستحيل ، فما بالك بتاريخ أسرة أو جماعة أو قبيلة أو أمة ؟ ونحن لا نقصد إلى القول بأن هذا أو ذاك مستطاع ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن نقوله لنثبت أن المعرفة التى تصل إلينا عن طريق ما يسمى تاريخا معرفة ناقصة حتى ولو كانت صادقة أو موافقة للصواب والسداد ٠

من حسن الظن بالتاريخ أن تقول إنه توجد حروب وثورات وحكومات وأوبئة ومجاعات ونهضات وتقلبات وبدايات ونهايات ٠ وهذا صحيح ولكن هذه مدركات نفسية لا موضوعية ، تدل على أنك تعلم بهذه الأشياء بسماعك أو قراءتك ٠ ولكنها فى نفسها أجزاء من كليات لا حالات تطبق عليها قواعد ٠ فإن أطول فترة فى التاريخ كعهد الرومان من ٧٥٣ ق ٠ م ٠ إلى سقوط القسطنطينية فى ١٤٥٣م، ماهى سوى حوادث جرت على أفراد فى مختلف بقاع الأرض ، ولكنها غير خاضعة لقاعدة عامة ، أى أن الذى وقع فيها لا يشبه ما وقع فى عهد اليونان ولا فى عهد الفرس ولا فى عهد الحضارة المصرية ، ولن تتكرر حياة الرومان مرة أخرى حتى ولو نشأت دولة جديدة وترسمت خطوات الرومان الأقدمين من تشريع وتقنين وفتوح ٠ وإذن تكون تلك الحادثة الفذة جزأ من كل ـ الكل هو تاريخ الدنيا إلى عهدنا هذا ، أو تاريخ الدول المماثلة لها لا أكثر ولا أقل ٠

خذ علم الحيوان : كل أنثى لها ثديان كأنثى الإنسان أو أكثر كأثداء القطة والكلبة ، فإذا رأيت أنثى من ذوات الثدى فأنت تعلم يقينا أن لها ثديين فأكثر دون أن تراها ، وإذا كنت طبيباً وشرعت فى تشريح حيوان فأنت واثق قبل أن تقدم على أن له قلبا وكبدا ورئتين ومعدة ومخاً إلخ ٠ وأنت تعلم هذا علما يقينياً ، فلا تستفيد من تنفيذه إلا إذا كان أحد هذه الأعضاء مشوها أو عليلاً ، ولكنك إذا ذكرت أمامك الحروب الصليبية وهى فى مجموعها أهم بكثير من تشريح جثة إنسان أو حيوان ، فلا تعلم عنها أكثر من أنها حروب قامت فى القرون الوسطى بين الشرق والغرب ودامت قرنين أو ثلاثة وكانت سجالاً بين الفريقين ، ومن أبطالها قلب الأسد وصلاح الدين ، ولكن ماذا تعلم عن حقيقة أسبابها ودوافعها وخططها وأبطالها وصروفها وظروفها ؟

ولذا ترى من أهم سجلاتها مذكرات الكونت دى چوانڤيل لأنه صحب لويز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التاسع فى حملته على مصر وكان شاهد عيان وملازماً للملك ، فقيّد الحوادث يوما بيوم وذلك أنه اقتصر على ركن صغير من حوادث إحدى تلك الحروب فى مكان محدود وهو الضفة الشرقية للنيل وحسب . ولكن لو قرأت كتب المؤرخين المعاصرين من المصريين أنفسهم تجد العجب والتناقض ، لأن چوانڤيل كان مع الفرنسيين ومؤرخو مصر كانوا مع أعدائهم مع اتحادهم فى الزمان والمكان والموضوع والأشخاص . .

العلوم حياتها التعميم أو القواعد العامة والمفردات لا أهمية لها إلا فى استنباط القواعد وخضوعها لتلك القواعد ، ولكن معرفة المفردات والوقائع مؤكدة وثابتة لأنها خاضعة أيضا للفحص والتجربة ، فالطب لا يتعلمه طالبه إلا إذا بدأ بالتشريح ، والنباتى يتناول الجذور والفروع والوريقات ويقطعها ويراها ويلمسها ويكبرها ويصورها ويشهدها أثناء حياتها وتغذيتها وتنفسها ، وهذه أهمية كبرى للمفردات ، وقد تأتى بعض القواعد العامة بغير ما ينتظر فى بعض الأحيان . أما فى التاريخ فالعام مؤكد أكثر من الخاص ، فالثورات والحروب والأسر المالكة ومعاهدات السلم قلنا إنها مؤكدة لأنها مشاهدة ، فمما لا ريب فيه أن أسرة بوربون كانت حاكمة فرنسا عندما قامت الثورة . وكان لويز السادس عشر وزوجته مارى أنطوانيت النمسوية جالسين على العرش وقد حوكما وحكم عليهما بالإعدام وقطعت رأسهما فى ميدان الثورة – ولكن كيف تمت محاكمتهما وأين ذهب ولى عهدهما ولم لم يتمكنا من الفرار ومن كان أعداءهما فى ثياب الأصدقاء ؟ إن هذا التفصيل يدخل فى باب القصص . كذلك الحروب تعرف بدايتها بإعلانها ونهايتها بالهدنة ونتائجها بأراضى الغزو والفتح ، وهذه أمور ليست جوهرية بالنسبة للثورات والحروب نفسها ولكن الجوهرى هو حقيقة ما حدث فيها جميعا بالتفصيل الدقيق والوصول إليه صعب جداً، وتزداد الصعوبة كلما توغلت فى التحقيق ، مع أن هذه أهم وظائف التاريخ وهى الاشتغال بالمفردات.

وتزداد أهمية التاريخ كلما أمعن المؤرخ فى التفصيل ، اقرأ حياة القياصرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لسوتيون فتخرج بصورة عامة ، ولكن اقرأ حوليات تاسيت عن تيبريوس تجد لذة عظيمة تكاد تقودك إلى عالم الخيال والقصص ، فالثقة فى سويتون أعظم منها فى تاسيت مع الاعتراف بقدرته . وينتج من هذا أن إيمانك يتزعزع فى التاريخ كلما أمعنت فى درس تفصيله ودرس مفرداته وهى أهم ما فيه ووجه امتيازه .

ولا نذهب بك بعيداً فعليك أن تحاول أن تدون تاريخ شخصك على الطريقة التى اتبعها كثير من أهل العصور بتدوين المذكرات اليومية . إنك ستدهش كما دهشنا عندما تعجز عن فهم تاريخك وارتباط حوادثه وتسلسلها ودوافعك على الأقوال والأفعال ودواعى سعادتك وشعورك وقد مضى عشرون أو ثلاثون عاماً قبل أن تدرك حقيقة الحوادث التى وقعت منك ولك وحولك ، مع أنك قد استجمعت جميع العناصر وعندك علم اليقين بأيامك وتواريخ أحوالك وأنت مدرك الأسباب والنتائج تمام الإدراك والمقاصد ، ولكنك تبقى جاهلا أصول الأشياء وفروعها وعاجزا عن إيجاد الروابط الصحيحة بين الواقعات ، فكيف يمكن لأجنبى عن الملوك والأمراء والساسة والعلماء والقواد والحكماء والوزراء والجواسيس والكتّاب والجناة والقضاة أن يروى أعمالهم وأقوالهم رواية تقنعك بأنها وفق الحقيقة ؟

عندما وضع والدى كتاب هيرودوت فى يدى مهدياً لا متعمداً إذ كانت سنى دون البلوغ ، بدأت أقرأه وهو يفتتح سفره بقصة امرأة مختفية وراء باب مخدعها لتخدع الملك وهو زوجها ولتقتل آخر أو تخفيه وهو عشيقها . صدقت كل ماجاء فى هذه القصة البابلية (لأن هيرودوت بدأ بتاريخ بابل وآشور ولم يقنع بتاريخ بلاده).

ولما قرأت بعده قصصاً أخرى لا تمتّ إلى التاريخ بأية صلة ، لم أجد فرقاً كبيراً بينهما ، بل وجدت كتاب هيرودوت أقرب إلى الخيال من قصص أخرى ، ولم أكن أعلم أنه والد التاريخ وأنه قضى فى رحلاته ثلاثين أو أربعين سنة يجمع خلالها أخبار الأمم ، قضى منها فترة طويلة فى مصر فى عشيرة الكهنة لتلقى العلوم منهم، بينما كان القصاص لا يكلف نفسه إلا الورق والقلم والمداد والجلوس وترك حبل الخيال على غاربه يسرح به ويمرح فى كل واد وسهل وجبل ... لا أقلل من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قدر هيرودوت ولكن أذكر أن مزجه الحقيقة بالخيال أفسد كثيراً من بضاعته ، وقد عرفت بعد ذلك بثلاثين عاما أن هيرودوت كان ناقلا لكثير مما قاله فى تاريخ مصر عن سلف يونانى مطمور هو هيكاتى دى ميليه من أهل القرن الخامس قبل المسيح ، زار مصر وكتب عنها قبل والد التاريخ ، وهيرودوت يناقش كتابه ويحاول أن يحط من مقامه مع أن هيرودوت سرق عبارته « مصر هبة النيل » وانتحلها ولم يذكر مصدرها ، هذا السر أفشاه ليجراند فى مقدمته لترجمة فرنسية لكتاب هيرودوت نفسه ص ٢٢ ، وأبو التاريخ زار مصر بعد هيكاتى بعشرين عاماً وأقام فى منفيس وهيلوبوليس (حيث نكتب هذه الصفحات) وطيبة ، ويقول إنه ركب النيل إلى قصر أنس الوجود (فيليه) ، ولكن النقاد العصريين يشكون فى وصوله إليها ٠٠٠ ونحن لا ننتقص قدر هيرودوت الذى تكبد هذه المشقات فى زيارة مصر وعبد إيزيس وترك ملته وعقيدته وألف عن إلهته الجديدة كتاباً ٠ ولكن نذكر أنه على علو كعبه وشرف مكانته لم يتحر كل الحقائق وهو والد التاريخ ٠

ولما شببت واشتغلت بالدرس لفتنى اسم كتاب هيجل « فلسفة التاريخ » ، فقرأته وندمت على الوقت الذى قضيته فى قراءته ، ثم قرأت فلسفة هيجل فسمعت صلصلة الأجراس ودق الطبول وضوضاء المعركة بين الألفاظ وجلبة الخبط والتخبط ، وكنت أظن خيبته فى فلسفة التاريخ ناشئة عن خطئه فى إدخال التاريخ فى حومة الفلسفة ولكل جواد كبوة ، ولكن لما رأيته فى ميدان عمله وصميم تخصصه ، عذرت الذين نقموا عليه ونقدوه أمرّ النقد وأقذعه ٠

إن الذى دعانى إلى كتابة هذا الفصل حنقى على المؤرخين وعلى التاريخ ، فأردت أن أستبين لنفسى مكانته من الفلسفة وقيمته فى نظر العقل البشرى ، وتذكرت كلمة أرسطو أن الشعر أفاد الإنسانية أكثر من التاريخ ، وقد شعرت بهذا الفكر يملكنى عقيب كل مطالعة تاريخية محيرة ٠ لاشك أن التاريخ معرض للحوادث ، بل معرض لا ينتهى ولا نعرف بدايته ٠ غير أنك كلما توسطته رأيت وراءك أجيالاً لا تعد وأمامك أجيال لا تحصى ولا تعلم متى تنتهى ، فالتاريخ طويل عريض لا يمكن

حصره بالقياس ولا الإحصاء ، ولأجل أن يؤرخ الرجل حادثا أو رجلا في عصرنا هذا ، لابد له إن أراد الكمال أن يعود القهقرى إلى طوفان نوح إن لم يره قريبا ، وخليقاً بأن يتعداه إلى خالق السموات والأرض ، فالتاريخ سلسلة ذو حلقات لا تعد، وكل حلقة مباينة للتي قبلها وللتي بعدها ، ولكنها في الواقع متكررة في نوعها ، فهذه حروب وهذه ثورات ومواكب من الملوك والوزراء والقادة والساسة والجناة والظالمين والهداة والمرشدين والأنبياء وسيول منهمرة لا تقف ولا تني تكر وتمر ولكن لا يشبه أحدها غيره ولا بعضها بعضاً إلا في الاسم والنوع وكونها من فريق معين من الحوادث والشخصيات ، وكلما خرج واحد من باب مسرح الحياة ينفلت ويختفي ثم لا يعود ، ولكن يعود سواه قد يقلده أو يترسم خطاه أو يتتبع خطته وقد ينجح أو يفشل ويطول عهده أو يقصر ، ولكن ليس هو هو ولا عمله ولا قوله ، فيصح أن تقول الحروب الحاسمة في التاريخ ، ولكن كل حرب منها تباين الأخرى ، فموقعه بليسى مهزلة بجانب وترلو ، وهذه مضحكة إذا قيست بحرب طروادة ، وقد تقول الثورة الفرنسية وثورة المكسيك والثورة العرابية وثورة الروس وثورة كرومويل وكل من هذه لايداني الأخرى ولكنها متحدة في الاسم والوصف والعاطفة ، ولكن لا الزمان ولا المكان ولا الأبطال ولا المقدمات والنتائج ولا الجوهر والعرض متماثلة أو حتى متقاربة، وإذا استحضرت جمهرة من القواد والطغاة كبونابرت وفرعون والإسكندر وقيصر ودارا وقمبيز ، رأيت صوراً متقاربة ولكن لكل ظروفه وأخلاقه ومطامعه وحروبه واتجاهه وهكذا .

فإذا صحّ أن الفلسفة علم العلوم ورئيستها والمسيطرة عليها ، كان التاريخ والفنون الأخرى المماثلة له خارجة على هذه السيطرة ، لأن الفلسفة تنظر إلى الأشياء والموجودات من الناحية التعميمية ، بل إن التعميم هو غايتها ومقصدها لأن من طبيعة التعميم الوحدة والاتحاد في الصفات والذاتية المطلقة وتحقيق الشخصية ، والفلسفة لا ترى في المفردات إلا ما له صلة بالتعميم وليس في حظيرتها موضع للانفراد أو التخصيص ، ومقصدها أن تعرّف ربيبها أن الشيء هو الشيء بذاته

وعلى حقيقته فى كل زمان كان ويكون وسوف يكون لأنها وسيلتنا للاتصال بالأزل والأبد وبكل شيء ثابت لا يتغير . فالطبيعة وحياة الإنسان نشاهدهما كاملة أمامنا محضرة لدينا فى كل وقت حاضر . ولأجل فهمها لا نحتاج لأكثر من بعد النظر وعمق التفكير – الوحدة والذاتية والبقاء الشخصى هى غاية الفلسفة وموضوعها فى أى لحظة ترى الطبيعة والحياة الإنسانية ماثلتين لديك بأكمل جواهرهما وأعراضهما ، وترى الوحدة الكاملة والدورة الكاملة . ولكن المؤرخ يسلينا والفيلسوف يعلمنا ، المؤرخ يروى ويحكي ويبدىء ويعيد ويكرر ويصفّ الألفاظ صفوفاً متتالية كما فعل جيبون فى تاريخ روما وهيرودوت والد التاريخ الذى سجل قصة الملك إميسينيت واللص ورواها فى كتابه على أنها تاريخ وأن حوادثها وقعت وأنها جزء متمم لتاريخ هذا الملك ، كما فعل بأساطير بابل وآشور حيث حكى قصص الغرام والمغامرات والمؤمرات وجرائم الحب وحيل النساء على أنها تاريخ وقع فعلاً ، مع أنها لاتعدو القصص الخرافي الذى تنسب فيه الحوادث الخيالية لأشخاص تاريخيين لتزيدها ثقة ورونقا فى نظر البسطاء .

فإن يكن هيرودوت والد التاريخ فإنه والد التاريخ المروى على هيئة الروايات ، هيكله قريب من الحقيقة ولحمه ودمه وأحشاءه من نسج الخيال . وكأن هيرودوت استعاض التعمق بالطول والعرض ، فالفلسفة كالبئر والتاريخ كالماء الضحل البعيد المدى ، ولذا وجب أن يكون للتاريخ رجال وللحكمة آخرون ، والعقل التاريخى يخالف العقل الفلسفى ، ولهذا كتب ابن خلدون مقدمته وأبدع وأحسن وأتقن لأن عقله فلسفي، فلما دنا تدوين التاريخ نفسه تحيّر وعجز وتلعثم فجاء كتابه رديئاً . وكذلك أحسن ماكياڤيلى فى كتابه الأمير وأساء فى تاريخ رومه ، لأنه بنى كتاب الأمير على القواعد العامة فجعل من سياسة الأمم علماً ودرس عقول الرجال ونفسياتهم وحالات الأمم الثابتة التى لا تتحول ولا تتغير .

وكانت فكرتى من أول أمرى أن التاريخ أقل قدراً من أن يبذل فيه العقل مجهوداً . لأن العقل الإنسانى من دأبه التنقل والتحول ، فوجب أن تسعى لإدراك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثابت الذى لا يتزحزح ولا يتزعزع وهو ما تقدمه إلينا الفلسفة لأن الجمع بين متنقلين متحوّلين (كالعقل والتاريخ) خسارة فادحة ، وخير لنا أن نعوّض ما نفقده بالتنقل والتحول الذى منيت به الطبيعة الإنسانية ، بالوصول إلى ما هو مستقر ثابت حتى نركن إليه وهو ما تمنحنا الفلسفة إياه ، خصوصا وأن العمر الإنسانى قصير وعهد النضج العقلى لكل إنسان أقصر وقدرته على الإفادة فى فترة النضج أقصر الأقصر ، فخير له أن يصرفها فيما هو محقق الفائدة وهو البحث الفلسفى ، أما التاريخ فتسلية وملهاة ، إلا فيما يتعلق بحياة الأفراد لأنها هى الحقيقة الثابتة المهمة، أما ما يسمى بتاريخ الدول وحياة الأمم فلهو ولعب .

إنك تعرف العربى الجاهلى بشعره وحوادث ثأره ، ووقائعات كرمه وعشقه، ولكن الحياة الجاهلية ما هى ؟ وما مقوماتها ماجوهرها ؟ لا شىء . اسمع إلى الشاعر:

إن بالشِّعْب الذى دون سلْع ... لقتيلاً دمــــه ما يطـــلّ

خلفّ العبء علىَّ وولـــــى ... أنا بالعــبء له مستقـــل

ووراء الثأر منى ابن أخــت ... مصع عقدته ما تحــــل

مطرق يرشـــح سما كما أط ... ـرق أفعى ينفث السم صبلّ

فلما أدرك ثأره قال :

حلّت الخمر وكانت حرامــا ... وبلأىٍ ما ألمــــتْ تحــل

فاسقنيها ياسواد بن عمرو ... إن جسمى بعد خالى خــل

تضحك الضبع لقتلى هذيل ... وترى الذئب لها يستهـــل

وعتاق الطير تغدو بطانــــا ... تتخطاهم مما تستقــل [١]

وفيها أبيات أخرى جميلة وقد سميت هذه القصيدة العصماء نشيد الثأر ، ونقلها جوته شعراً إلى لغته . وهذه الأبيات الثمانية من عشرين بيتا أبلغ وأصدق من كتاب تاريخ كامل إذا لم يحتوها بين جلديه . لأن هذا الشعر حقيقة ولكن تاريخ

---

(١) من حماسة أبى تمام ، ص ٢٤٥ - ٢٤٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجاهلية معظمه خيال وتصوير وتلوين ، فلفتت القصيدة نظر فيلسوف عظيم كجوته لصدقها وقوتها ، لأن القتل والثأر والصوم عن الخمر والملذات حتى يأخذ بثأر قريبه حقائق دائمة ثابتة لا تتغير ، فهي تليق من هذه الناحية بالذهن الفلسفي وتسمو على التاريخ الذى يشبه رياسة المسرح فى تسجيل أسماء الممثلين وصفة ثيابهم وخلاصة أقوالهم .

وفى عالم الذهن شيئان ، الفكرة والإدراك ، فمادة الفنون فكرة ومادة العلوم إدراك واستيعاب ، وكلاهما مشغول بالثابت المستقر - فمن الفنون الموسيقا والشعر والتصوير وهى ثابتة ، أما مادة التاريخ فمتقلقلة متنقلة لأنها تابعة لأهواء الدنيا وتقلبات الحياة البشرية التى تشبه تحول الغمام وتغير السحاب وتشكله فى الإسراع والإبطاء والقتوم والجلاء والخفة والثقل ، ولذا لم تكن دراسة التاريخ غاية العقل الناضج المتعطش للجمال والحق . وما التاريخ سوى سرد الأحوال الظاهرة فى الفرد والمجموع كما فعل والد التاريخ ، ولكن فى محاولتنا تفسير العالم لاتهمنا الظواهر ولاتكرثنا المظاهر لأنها فى الغالب كاذبة أو مبهمة أو خادعة . والذى يهم الفلسفة حياة المرء الداخلية كتلك التى وصفتها قصيدة تأبط شرا ذلك البطل الجاهلى الذى عبر عن خفايا وجدانه حيال حادث معين وهو مصرع خاله . ولو أن مؤرخا راقب تأبط شراً منذ نعى إليه قريبه وشهد استعداده للثأر وشهد القتال بين الحيين ثم رأى فرح ابن الأخت ووصف هذه الأحداث كلها ، لا يمكن أن يقف على دخائل نفسه كما وقف عليها صاحبها واستعان بالبلاغة والنظم للتعبير عنها .

إن المؤرخ الماهر قد يفسر الأشياء بغير حقيقتها مثل المنافقين فى حاشية همليت عندما وصفوا قطع السحاب بأشباح الناس والحيوان مستعينين بالخيال لتمليق بطل القصة الذى تظاهر بالبلاهة وهو يبطن الخداع ليرفع براقع النفاق عن وجوههم .

التاريخ أحلام الإنسانية على مدى عصور طويلة مؤلة وإنها لأحلام مزعجة ورؤى ثقيلة على صدر رائيها وراويها - فما أعقم من يظن فلسفة التاريخ غاية كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلسفة وما أضيق الذهن الذى يقنع بظواهر الأمور دون بواطنها وبالثياب دون لابسها وبالمتحرك المتنقل دون الثابت المستقر ·

لأجل هذا فضلت مقدمة ابن خلدون على فلسفة التاريخ لهيجل ، لأن ابن خلدون استنبط القواعد العامة والقوانين الثابتة وحاول استدراج نتائج التاريخ لحظيرة الفلسفة ليجعلها علما خاضعا لنظام العلوم · أما هيجل فقد سحب ما حسبه فلسفة، سحبها مكبلة إلى حظيرة التاريخ وتوهم ذلك وأوهم غيره ، مع أن غاية الفلسفة ومقصدها وحقيقتها الشيء الذى يبقى ثابتا بذاته فى كل زمان · أما ما كان متغيرا ومتحولاً كتاريخ الأمم والدول فمتحول ، ومن المؤرخين الذين أدركوا هذه الحقيقة ابن خلدون ، ولكن بعده بمئات الأعوام - فوستل دى كولانج فى كتابه المدينة القديمة (أى أثينا) وممسن في تاريخ رومه لأنهما أرخا المؤسسات والنظم والقوانين فلم يفوزا إلا بعد أن تركا لب التاريخ المعروف وهو تاريخ الأفراد والخصوصيات ، وخير منهما أوزوالد شبنجلر لأنه تبع حياة المدنيات والحضارات وتطور العصور ، وهكذا نرى المؤرخ كلما نأى عن التاريخ المعروف بطرائقه ، دنا من التفكير الفلسفى، وإنك تدهش عند المقارنة بين بلوطرخ وجيبون وممسن وكل من هؤلاء كتب تاريخاً لرومه منذ تأسيسها · فبلوطرخوس ترجم للعظماء متبعا طريقة معاصريه وأسلافه · وجيبون فاض وطفح ورشح ونضح بصفحات لا تحصى حتى أضجر قراءه وأحنقهم وضيّق صدورهم وتمنوا ظهور الجزء الأخير كما يتمنى الصائم موعد الإفطار أو يرقب الطفل هلال العيد ، أما ممسن فلم يعنه الأفراد والخصوصيات وصفحات المجد ولم يعبد الأبطال ولم يمجد القاتلين والطغاة ولم ينس اتزانه حيال عظمة القواد المستفادة من مدح الشعراء وتمليق عبيد البلاط ورواد حلبات المصارعة والحمامات العامة ، بل درس كل رجل دراسة الجنس والنوع لا دراسة الشخص والفرد ، ولذا يصح أن يقال إن ممسن ليس مؤرخاً ولكنه ناقد متفلسف وباحث فى علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد وفنون الحرب والنظم النيابية وطبائع الشعوب · ولم يقع فيما وقع فيه هيجل وقد جعل التاريخ الإنسانى غاية الفلسفة أى سخر أشرف شيء فى

الإنسان وهو العقل لأحقر ما فى الوجود وهو تمجيد الأقوياء بعد أن تصور أنهم صنعوا التاريخ وإن يكن التاريخ فى ظنه سلسلة حوادث معدة من قبل ومجهزه لتتم على صورة معينة ، فخلط بين نظرية القضاء والقدر وبين أعمال الرجال ومصادفات الحوادث . ولذا جاء كتابة ثقيلا متعبا .

إن هذا الفيلسوف الألمانى وأمثاله الذين انتحلوا الأيديالزم والأويتمزم (المثالية والتشاؤمية) ظنوا الحياة الإنسانية مسرحية محبوكة الأطراف مدونة ومبوبة ومقسمة فى فصول ومواقف مسرحها قشرة الأرض مزخرفة بهذا الزخرف الباهر ، بدايتها خلق الإنسان ونهايتها يوم القيامة ، ونقشوا صفحات كتبهم بمزيج من الألوان البهيجة البراقة ، ولسنا بسبيل مناقشتهم هنا ولكن بسبيل وصف ما شعرت به من الضيق والضجر والفتور عند قراءة كتاب أستاذهم ومقدّمهم وباقعتهم هيجل الذى اضمحل وذاب هو وفلسفته فى بضع سنين ، ولست أبالى أن يكون صوت هذا الرجل وعصابته قد دوّى فى جامعات ألمانيا وأن صيته قد علا وشهرته تفاقمت ، فقد كان طوراً كالطبل الفارغ وطوراً كالماء الضحل ، ولذا لم يطل عهده فى وطنه ولا فى أوطان غيره .

نعم كان كتاب هيجل جزءاً من فلسفته القائمة على نظرية « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » وأنا لا أتعرض هنا لإبرام هذه النظرية أو نقضها ، ولكن أقول إنه أخطأ فى جعلها عماد فلسفته ، ولو كانت النظرية صحيحة فقد أساء استعالهما وإن فهمها وهو تلميذ خائب لإبيقور الذى اتخذ السعادة الأرضية غاية لكل حي ، ولأجل أن يموه على مستمعيه الكرام ، سخر الفلسفة لنظرية نجاح الفرد والدولة وهو لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم أن السعادة الأرضية لا يصح أن تكون غاية الحيوان فضلا عن الإنسان ، وأن كل ما يتراكم من النعيم المادى والكماليات الوهمية لا يغنى عن حالة الدنيا فتيلاً ولا يغير حظ الإنسان التى وصفها الملك سليمان بأنها باطل وباطل الأباطيل وقبَض الريح وهو الذى كان ملكا ونبيا وغنيا وزوجاً سعيداً وسيداً حكيما وقاضيا مشهورا بعدل الأحكام .

كنت منذ بضع سنين أميل للخضوع لآراء بعض الفلاسفة الغربيين وإن لم أقتنع بها تبعاً لشهرتهم ولوهمى أنهم فوق التنازع ولكننى عدلت عن هذا الخضوع وحتى المسايرة بعد أن قرأت أفلاطون وشوبنهاور فأعجبت بهما وكأننى تلميذهما الذى عاصرهما ، وبعد أن زهدت فلسفة هربرت سبنسر وليبنتز ، كنت حينا أسىء الظن بنفسى حتى أعثر على من يؤيدنى فى استسخاف هذين الرجلين وثالثهما هيجل وزمرته . أما الآن فصرت أستقل برأيى وإن لم أجد من يؤيدنى قديما أو حديثا . وكنت دائما على فكرة واحدة فيما يتعلق بالتاريخ . وهو أن الذى أنفق عليه من ورق ومداد ومال خسارة جسيمة وكان أولى أن ينفق على العلوم الحقة والفلسفة لأن الذى يقرأ التاريخ ويهمل الفلسفة كالذى ينزل إلى السوق بمال ويترك له الخيار فى شراء ما يحسن فى نظره فيغفل أشهر الأشياء وأمتعها وأشرفها وينكبّ على توافه الأمور وأشدها بوارا ، مع أن ماله لا يعوض وفرصته لا تكرر .

لقد قرأت التاريخ فى كثير من كتبه وفى مقدمتها هيرودوت أبو التاريخ الذى ألقت به الأقدار بين يدى فى مقتبل عمرى وعدت إليه رجلاً فقرأته بلغة أو لغتين أوروبيتين فماذا وجدت ؟ غير قليل من الخير عند الإنسان وكثير من الشر ، وهذا يكفى ، فهو الممثل دائما للمهازل والمآسى وهو الذى يستدر عطفنا ودموعنا حينا وحينا يهرق دماءنا ويسوقنا سوق الأنعام.وهو الذى يضحكنا يسيرا ويبكينا كثيرا. ثم تتجدد هذه الألعوبة على مدى الأجيال فوجدتها أرخص من أن تبذل الأعمار فى سبيلها أو تشعل الشموع لأجلها حتى تنزف فتيلها وبياضها . وهذه هى فلسفة التاريخ لأن التاريخ مادة غزاها الفن على أيدى رجال أمثال إميل لودفيج وستيفان زفايج وجورج لينوتر وأقصاها العلم ودحضها ماكس نورداو . ولكن ليس التاريخ كله بين مغزو ومقصى.

ومهما يكن نظرى إلى هيجل لا أنكر أننى معجب بتاريخ الحضارات القديمة ولا سيما مصر ، لا لأنني مصرى ولكن لأن تاريخ هذه البلاد ارتقى إلى مرتبة الضمير القومى فصار وجدانا حياً لأمة معاصرة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن الأمة التى لا تعرف تاريخها فى ماضيها لاتدرك حقيقة حاضرها ولا تملك الاستعداد لمستقبلها ، فأنا أنظر إلى التاريخ من ناحية المنفعة للأمة ، لا لمصر وحدها بل كل الأمم ، وقد أهملت مصر تاريخها ألوف السنين حتى أصبحت أمة لا تعرف ماضيها ، ولما كان التاريخ بالنسبة للأمم كالضمير الحى فهى تعيش بلا ضمير ، لأن الفرد إذا فقد وجدانه ، حصر حياته فى الحاضر . والرجل الذى لايفكر ولا يعقل ، لا يعرف الماضى ولا المستقبل ومثله فى ذلك كالأنعام ، فإن أنواع الحيوان لا تعرف الماضى ولا المستقبل ومعرفتها محدودة بالحاضر .

ولما كانت الجماعات غير الفرد وأثبتت المشاهدة أن لها أحوالاً وتأثرات تخالف أحوال الفرد وتأثراته ، وتفكيراً يخالف تفكير الأفراد ، فلا وسيلة لجذب المجموع إلى الماضى والمستقبل إلا بالتاريخ مع كل معايبه . فهو بمثابة الضمير للأمم . ومن هنا اهتمام الأمم الرشيدة بالتاريخ للمجموع وهذه قيمة التاريخ الصحيحة لأنه يعين المجموع على إلقاء نظرة على سير الأمة وأهم أحداثها وأخبار أعظم رجالها ، وربما كان اهتمام الأفراد بالتاريخ راجعاً إلى هذا الشعور الدفين فى دخيلة أنفسهم !.

ألا نرى المصريين سجلوا تاريخهم بالحفر فى الحجارة وإقامة النصب والتماثيل ، ليكون عبرة لأهل المستقبل وليكون محسوساً ملموساً للمعاصرين أنفسهم، وكذلك فعل البابليون والآشوريون . وقد سرت فكرة النقش فى الحجر إلى الشريعة الموسوية نقلا عن المصريين فجاءت على ألواح من الحجر ، وإلى الرومان فكتبوا قوانينهم على الجمادات وما يزال أهل العصور الحديثة ينقشون أهم الحوادث وتواريخ المشاهير على لوحات من المرمر . فأصل الكتابة نقش وحفر وتعميق فى الصخور ثم جاءت الكتابة على البردى والورق . لأن حياة الفرد قصيرة ولا يتمكن الجدّ أن ينقل أقواله للحفيد بالكلمة الناطقة ، فابتكر التدوين والتسجيل على الصخور والعظام وجدران الكهوف لأنها أثبت وأطول مدى وأبقى على وجه الزمان . وإن لم تكن هذه الفكرة دافعة للأمم القديمة فما الذى اقتضاهم أن يسخروا ألوف الرجال على مدى مئات السنين فى قطع الحجارة ونقلها وبنائها وحفرها ونقشها ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنها رغبة هؤلاء الأقدمين فى أن يتصلوا إلى أبعد الأجيال وأقصى الأحفاد والبنين المتسلسلين من أصلا بهم . وقد نقل اليونان والرومان هذه الفكرة عن المصريين والبابليين ، فشيدوا المعابد والهياكل والتماثيل ونقشوا عليها ما شاءوا من تاريخهم وصلواتهم وأمانيهم ، وكلما اتسع نطاق الأفق العقلى فى أمة ، كلما رغبت فى التغلغل فى المستقبل آمنة مطمئنة إلى أن الأخلاف يحتفظون بتراث الأسلاف . فمقدار عظمة هذه المبانى ذات النقوش هو مقدار الاتصال بالمستقبل من ناحية الشائدين لها ومقدار الاتصال بالماضى من ناحية المشاهدين لها ، وقد سنوا القوانين لعقاب من يشوه تلك الآثار أو يزيلها وعابوا الملوك الأقدمين الذين انتحلوا لأنفسهم تماثيل أسلافهم كما فعل بعض ملوك المصريين وشاهدناه فى معبد رمسيوم، فكان الملك يهدم رأس خلفه ويضع رأسه على سماوة الملك الراحل ليخدع الناظرين . ولكن رأس السلف ماتزال راقدة تحت أقدام التمثال بعد أن تدحرجت شاهدة بجريمة الخلف . وكأن الملك كان لا يبالى بآثار الجريمة أو أنه أمر أتباعه بإزالتها فتركوها مكانها لأنها لاتزال ماثلة شاخصة بأعين عمياء سامعة بآذان صماء معفرة فى رمال الصحراء . وقد طالت آجال هذه الآثار بفضل جفاف الهواء وحرارة الشمس وندرة الأمطار وامتناع الرطوبة امتناعا تاماً .

ولكن القبائل المتوحشة التى كانت تغزو الأمم المتمدنة كانت تهدم وتمحو النقوش فصار عملها علما عليها واسمها وصفا لمن يفعل فعلهم مثل الفاندال ، فنحت أهل اللغات لفظ ڤندالزم وصار مدلوله انتهاك حرمة الآثار . وقد كان المصريون أحذق من سواهم لاختيارهم أقصى أرضهم لتشييد آثارهم ، وأقصى الصعيد أرض لايكاد الأجنبى المتوحش يصل إليها وإن وصل إليها فقد تهوله العظمة والكثرة فيرتد خاسئا ، ولم يكتفوا بالحفر بل رسموا نقوشا بالألوان خشية أن يأتى زمن تنسى فيه اللغة المحفورة . وقد شاءت الأقدار أن يكون خلفاء البناة والحافرين والناقشين هم أجهل الناس بآثار آبائهم وأجدادهم وهذا من سخريات وتهكم الحياة!!

ولعل إنساناً حسن النية يتساءل عن تعرضنا بالنقد لناحية من ناحيات التفكير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفلسفى لهيجل الفيلسوف المثالى الألمانى على بعد المسافة بينه وبيننا فى الزمن وتقدم التفكير وضخامة الاسم وبعد الصيت ٠

لقد وجدنا الغموض والإبهام والتناقض تكتنف آثار هذا الرجل الذى كان أستاذاً للفلسفة وناظراً لمدرسة ومؤلفاً وخطيباً فصيحاً وكاتباً ماهراً ومنطيقاً نابغاً فملأ الدنيا ضجيجاً وعجيجا ونشر عشرين مجلداً ، ولكن هذه الضجة لم يطل أمدها أكثر من خمسة عشر عاما ثم خبت نارها وانطفأت شعلتها وكأنها لم تكن ولم يبق منها إلا أثر تاريخى ٠

ولكن نبادر بالقول إن هذا الرجل أخضع الفلسفة للمنصب وأخضع الحقيقة للمادة ، فناصر طول حياته فى كتبه وفى دروسه الاستبداد الديواني وغلظة الحكومة، وكان فى صف نابليون أثناء فتوحه واحتلاله ألمانيا ، ثم ناصر حكومة بروسيا – وهى فى الحكم – على مذاهب الحرية الناهضة وأعان المحافظين الإنجليز ضد الأحرار وساعد دعاة الحرب على دعاة السلم ، فكان رجعياً على طول خطوط تفكيره ودائماً على المحافظة على مصلحته فى زمن كان وطنه يعانى أشد المحن ، كان نصير الظلم على العدل والباطل على الحق والاستبداد على الحرية ٠

وأهم عيوبه الفلسفية أنه كان أرسطى النزعة معادياً لأفلاطون ، وكل الفلاسفة المدركين المنورين يفضلون أفلاطون على تلميذه ، لقد كان أفلاطون مثاليا (أيديلليست) ، وكان أرسطو عملياً ، أى كان أفلاطون حراً وأرسطو محافظاً ، فمال هيجل لأرسطو لالتصاقه بالمادة والمشاهدة الملموسة وآثار الحواس ، مع أن الحق فى جانب أفلاطون ، لأن اتساع أفقه جعله يشرف على المستقبل ، وجعل أفكاره شاملة للماضى والمستقبل ، وفلسفته صحيحة نافذة فى عصرنا هذا كما كانت نافذة فى عصره ٠

أول كتب هذا الرجل وأهمها كتاب « ظواهر العقل » فينو منيولوچى ٠٠٠ وصف فيه وتتبع الحالات المتتالية للعقل منذ البداية الغير الواعية وفترات الغموض والإبهام الفكرى إلى حالة البروز والإدراك الذاتى ، وهى الحالة التى يشعر فيها العقل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنسـاني ، علـى تحقـيق العلم المطلق ، وهـذا الرأى الذى يملك ذهن هـيجل هو الذى جـعله يزعم أن التـاريخ هو غـاية الفلسـفـة وغـاية الإنسـان ، فقـد زعم فى كـتـابه الذى أودعــه كل أفكاره ، أن كل فــرد بشــرى يمر فى تطوره بكل الأدوار التى مــرّ بـهــا الجنس الإنسـانـى من فطرة ووحـشـيـة وبداوة وإشـراق فـجـر الإدراك وتنبه ويقظة ثم وعي وإدراك ، وهـى نظرية عتـيقة احتمـالية لها أشبـاه فى الطب ، فقد زعم طبيب أن الفرد الإنسانـى فى طفولته يعانى الحميات وأن هذه الأمراض قد أصيب بها الجنس البشرى كله وأصبحت ديناً مفروضاً على كل فرد يعانيها ٠

فهذا الكتاب وهو خير ما أنتجته قريحة هيجل لا يتجاوز حدود تاريخ الحضارة الإنسانية ٠

والتاريخ فى نظره هو «ترقى العقل فى الزمـان » وهو تاريخ الحرية وانتشـارها ، ويقـسمـه ثلاثة أقسـام ، تاريخ الشرق وهو تاريخ الاسـتـبداد أو حرية فرد واحـد وهو الحـاكم المطلق ، وتاريخ الرومـان واليونان وهو حـرية جـزئيـة ومـعـارضـة الطبـقـات والعـبودية ، والعـهـد الجرمـانـى وهو عـهـد التـحرير المتدرج وإحـيـاء العلوم والإصـلاح اللوثرى والثورة ، ولما تخطّى هذه الدرجـات ووصل إلى عصـره ، تذكر أن الدولة فكرة ولابد للفكرة من ممثل ، فـمـمثلها هو الملك الجرمـاني ، فـأوجب أن يكون حكمـه مطلقا وأبى أن يفصـل بين السلطات ليمكن ملك پروسـيـا من السـيـادة المطلقة وحصـر القوة فى يده ٠

لم أذكر هيجل هنا إلا عرضاً بمناسبة نظريته فى التاريخ ٠

وخـلاصـة رأيـى فى التـاريخ العـام والخـاص فى الشـرق والغرب فـيمـا عدا أنه وسيلة لإشعـار الأمم بضـمـيرها بإيصـال حلقات الماضى بالحاضر والمستـقبل كما بينتـه بإشارة وجيزة عن مصـر وبابل وآشـور واليونان والرومان ، أن تدوين التاريخ مـجـهود ضـائع وأن تكديس مئات ألوف الكتب فى موضـوعه عبث ضـائع وقوى مبذولة على غير طائل وبلا فائدة ٠ فلم يكن على مدى عشرين قرناً أو خمسة وعشرين قرنا سـوى تمجيد للقـوة وتـأريخ لأعـمـال الأقـويـاء والسـادة والطغـاة والغزاة والحـقـيقـة أن

هؤلاء العظماء حكما لم يكونوا إلا ظاهر الزخرف ، أما حقيقة التاريخ ففى حياة الشعوب نفسها وهى غير صاخبة ولا براقة ولا تثير الإعجاب .

فتاريخ مصر القديمة تاريخ أسرها المالكة وحروبها وتاريخ الآلهة والمعبودات ، ولعلنا نعلم عن العجل أبيس أو عن القطط المحنطة والطيور المقدسة أكثر مما نعلم عن حياة الأمة المصرية التى بنت وتعبت فى الزراعة والصناعة وحاربت فى الميادين وحولت جسور النيل وشيدت المعابد والهياكل والقصور .

وبعد أن تنبه السادة إلى أهمية التاريخ ، جعلوه على مدى أربعمائة عام مؤامرة واسعة النطاق ضد الحقيقة والأمانة ، وهذا فى الحضارة الحديثة ، أما إذا رجعت إلى القديم فملوك مصر وملوك بابل وآشور وأمراؤهم كانوا يدونون تاريخهم بأنفسهم على الصخور وفى مقابرهم فيقول أحدهم أنا رمسيس الثانى والآخر أنا حامورابى ، ولما صار الملوك عجزة عن الإنشاء استخدموا الكتاب والشعراء فى الوصف والإشادة بأمجادهم والمبالغة فى عدلهم وكرمهم وبذخهم وذكر حسناتهم ومنحهم وهباتهم بملايين الدنانير كما هو منسوب الى بعض الخلفاء العباسيين والأندلسيين .

ومن الأدلة الناصعة على انتشار الكذب وسوء النية أنك عاصرت الحرب العالمية من ١٩١٤ - ١٩١٨ وقد انتهت ووضعت أوزارها ومضى عليها ربع قرن ولا تجد لها تاريخا مدوناً صادقا ، بل تجد مئات التواريخ المغرضة التى أملتها المصلحة . ولا يدخل فى هذا الباب ترجمة رجل مثل هربرت سبنسر التى كتبها بيده ليسجل بها تطوره العقلى واعترافات چان چاك روسو وهى لا تعد فى نظرى تاريخا ولكنها جزء متمم لفلسفة كل منهم ، ومثلها ترجمة داڤيد هيوم بقلمه وتاريخ حياة بنيامين فرنكلين وكتب الغزالى فى وصف تعليم نفسه ، فهذه وتلك ليست تاريخا ولكنها أجزاء متممة لفلسفة هؤلاء الرجال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهجرة المحمدية أساس الحضارة الإسلامية [1]

---

(١)

دعا نبينا محمد عليه الصلاة والسلام العرب فلبى دعوته الكثير ، وتلكأ القليل ممن أعمتهم الأغراض والمنافع وأضلّهم تنازع السلطان والسيادة . وقد أتى محمد بكتاب وآيات بينات ومبادىء كانت عقول العرب وطبائعهم مستعدة لقبولها وفهمها قبل نقدها نقدا ينتهي بالقبول والانضمام إليها . وكان نبأ ظهوره (عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون !) النبأ الأعجب ، مما سجل فى تاريخ الإنسانية. ولم ينقض عليه جيل من الزمان حتى ثلّ عروشا كانت ثابتة الأركان ، وحطم دولا عالية البنيان ، واكتسح ممالك وإمبراطوريات رفيعة الذرى مترامية الأطراف ، ومحا معتقدات عريقة فى القدم ، وهدم ديانات مرت عليها الأجيال والحقب ولم تنل منها ما ناله الإسلام فى عشرين سنة . ويدهش المؤرخ العصرى أن يعلم أن سائر الأديان نمت وترعرت فى ظل حاكم ناصر أو ملك قاهر ، اعتز به الدين وتأيد حتى رسخت قوائمه وثبت سلطانه ، ماعدا الإسلام . فكان الملوك والأمراء والأقوياء يقاومونه فيتغلب عليهم ، ثم يحمي المنسوبين إليه فيعتزون به ويستظلون بظله ويعظمون فى أكنافه . وكان أول من علا شأنه بذلك الدين العرب أنفسهم ، فلم يكونوا قبله فى المكان الأرفع ولا المنزلة السامية من الوجود التاريخى فنصرهم نصرا خارقاً ، حتى أصبح علمهم عاليا خافقاً ، فى آسيا وإفريقية وأوربا . وإن سر هذا النجاح وسببه وأساسه هو الهجرة المحمدية التى انتقل بها محمد من مكة الجامدة الآسنة الراكدة العاصية المستغرقة فى الماديات المتشبثة بالسلطة الدنيوية

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة الرسالة ، العدد ٢٤٧ ، السنة السادسة ، ٢٦ محرم سنة ١٣٥٧ هـ - ٢٨ مارس سنة ١٩٣٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآخذة من الملذات والأسمار بأوفر نصيب ، إلى المدنية الهادئة الهينة اللينة التقية العفيفة المتعلقة بالمعاني والأرواح والمثل العليا الطاهرة :

يفنى البرايا ويأتي الوقت مختلفا   ليخرج الدهر تاريخا من الأمم

(٢)

يدل استقراء التاريخ الخاص والعام على صدق القانون السبعي ، ومقتضاه أن تكون الفترة الفاصلة بين جسام الحوادث سبعمائة عام تقريبا[١]. وقد حددت أعمار تلك الفترات تحديدا دقيقا في كثير من كتب التاريخ كتجارب الأمم لابن مسكويه ، ومروج الذهب للمسعودي ، ومقدمه ابن خلدون ، وابن الأثير ، ومن كتب الإفرنج حوليات تاسيت الروماني وتاريخ انحلال رومه لجيبون . ومن قبل هذه التواريخ العالمية أشارت التوراة والتلمود والمشناة وتفاسير الأحبار إلى هذا القانون . يقول بلاكنهيم « إن تاريخ العالم مقسم إلى فترات قد تدوم الواحدة منها حوالي سبعة قرون ، وقد تنقص أو تزيد قليلا . فقد أسست روما قبل المسيح بسبعة قرون ودام سلطانها ونفوذها سبعمائة عام ، وفي نهايتها ظهر المسيح بدين جديد ينطوي على حياة جديدة ، وكان ظهوره مؤذنا بزوال تلك الدولة الرومانية العظمى التي حكمت العالم بالحديد والنار بعد أن فتحته بالقوة والحيلة . وظهر الإسلام في نهاية القرن السابع المسيحي ودامت عظمة الدول الإسلامية سبع قرون . وفي سنة ٧٥٠ م نقلت الخلافة إلى بغداد بقيام دولة بني العباس ، ثم هاجمها المغول وقضوا عليها وعلى حضارتها » اهـ.

ولم يظهر المغول وحدهم لمناوئة الإسلام ، فقد ظهر الصليبيون ونهضت أوروبا الحديثة تلك النهضة التي دامت سبعة قرون كانت نهايتها الحرب العظمى في أوائل هذا القرن ، وقد بدأت نهضة الإسلام الحديثة في أوائل القرن الرابع عشر للهجرة .

---

(١) انظر ما كتبه المؤلف عن هذا القانون في كتابه « حياة الشرق ، دوله وشعوبه وماضيه وحاضره » ، ص ٣٣ ، ٣٤ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٣٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن العجيب أن تطبيق هذه النظرية السبعية أو القانون السبعى صحيح فى حياة الأمم إذا أخذت كل منها على حدة ، فقد استمرت عظمة الإغريق الحربية والبحرية وعهد الفلاسفة سبعمائة عام ، ودولة الفرس عمرت سبعة قرون من أول تأسيسها لعهد كسرى ، ومضى على حكم الملوك فى إنجلترا سبعة قرون ، وبقيت أيرلاندا تحت الإنجليز مثلها . ونحن نذكر هذا القانون السبعى لا لأهمية خاصة به، وإن كان فى ذاته ظاهرة تاريخية عجيبة تدل على دقة نظام الكون والعالم وخضوع حياة الأمم لمقاييس من الزمان وموازين فى الأعمال ، ولكن نذكره لعلاقته بظهور الإسلام ونهضته وهبوطه ، ثم بداية عهد الإحياء الذى ينبىء بالتجدد والبعث فى المائة الرابعة عشرة . وقد أوضح صحة هذا القانون أوزفالد شبنجلر فى كتابه «انحلال الغرب » وهستن شمبرلين فى « أسس القرن التاسع عشر » ، وولز فى كتابه « صورة العالم فى المستقبل » فليرجع إليها من يشاء من القراء .

(٣)

إذن كانت بعثة الرسول وهجرته حادثين محتمين ، فكتب لهما التوفيق والنجاح على الرغم مما اكتنفهما من مظاهر الضعف . وقد أخطأ من ظن عدواة قريش للنبى وصحابته هزيلة أو وهمية ، أو أن زعماء الوثنية كانوا ضعفاء النكاية ، فقد كان المجتمع القرشى تام التكوين الاقتصادى والسياسى بالنسبة لحالة الحضارة المعاصرة ، وذا نظم حكومية وإدارية بارعة [١] ، من ذلك أنهم جعلوا جائزة مالية لمن يطارد المهاجرين ويظفر بهما وهو ما تلجأ إليه شرطة الحكومة الغربية الحديثة . ومن الثابت أن محمدا وأبا بكر كانا منفردين لا ثالث لهما بعد أن تركا بطل الإسلام وسيفه ولسانه على بن أبى طالب فى فراش النبى ليخدع المتآمرين بأن النبى مازال فى داره ولم يغادر فراشه . وإن شجاعة على فى إيثاره وإقدامه على التضحية

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام تأليف كوصان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنفسه لا تقل عن شجاعة أبى بكر فى مصاحبته . وكان من المستطاع أن يغتال على فى فراش محمد ظنا من أهل الوثنية أنه المقصود بأسيافهم وخناجرهم . ولكن حياة على كانت ضرورية للإسلام فأنقذه الله وهو الفرد الراقد المستسلم لقضائه وقدره ، أما محمد وأبو بكر فلم يكونا هاربين ولا مدبرين لينجوا بحياتهما من أخطار محققة محدقة ، ولكنهما كانا قاصدين إلى طيبة ليفتحا عهداً جديدا ويستهلا عصر كفاح وجهاد وجلاد وسلسلة انتصارات لم يسبق لها مثيل فى تاريخ المعتقدات الدينية.

(٤)

فطن القرشيون بما ركب فى غريزتهم من الذكاء وبعد النظر وسعة الحيلة إلى أن ظهور هذا النبى قرين زوال دولتهم المدنية التى نظموها على نسق يشبه نسق المدن الإغريقية ، وكان اليونان زعماء النقل البحرى كما كان العرب زعماء النقل البرى وحلقة الاتصال بين الشرقين الأقصى والأدنى ، وإبلهم سفائن الصحراء حقيقة لا مجازا ، كما كانوا مخالطين لكل شعوب البحر الأبيض وشواطىء المحيط الهندى والخليج الفارسى والبحر الأحمر ، ومطلعين على شؤون الأمم . فلما أدرك سادتهم وحكامهم أن دولتهم قد آذنت بزوال ، حصروا همهم فى ملاينة النبى وإغرائه، فلما لم ينفع الإغراء والاستدراج ، لجأوا إلى التهديد والوعيد ، ثم إلى المقاطعة والتضييق فى شعاب مكة وغيرها ، ثم إلى التآمر والانتقام ، فهاجر النبى من مكة ، لأن الله هداه إلى أن ما بقى من عمره المبارك كاف لتعميم الدعوة ومقاومة ذلك البلد القوى الشكيمة الذى تألب نساؤه ورجاله على النكاية به ، ليحتفظوا بكيانهم القومى.

كان المكيون محافظين ورجعيين فلم يرقهم أن يسلموا قلوبهم للأحرار والمتطرفين من حزب محمد وأبى بكر وعلى وعمر وعثمان . وقد تعجب الأجيال التالية وأنسال المستقبل وأخلافهم كيف لم يقبل عرب قريش وخصوصا أهل مكة على العقيدة

الجديدة . والسر فى ذلك أن أرستوقراطية مكة حرصت على مالها وسلطتها ونفوذها وقوتها ، ورأت فى القرآن والدعوة المحمدية ما يزعزع أركان كيانهم الاقتصادى ويهدمه وهم أصحاب رؤوس أموال وعباد للمادة ، حتى إن معبودهم هبل لم يكن يتكهن إلا بعد أن يدفع السائل لسادنه سلفاً دراهم معدودة . وكان للمال وأرباح التجارة وفوائد الربا واكتناز الذهب والفضة أكبر الشأن ، ولكن محمدا وأصحاب محمد جعلوا المال فى الدرجة الأخيرة من الاكتراث ، واتخذوه وسيلة لا غاية (وقد روى عن حاتم الأصم تلميذ شقيق البلخى أنه سار إلى المدينة فاستقبله أهلها ، فقال أين قصر رسول الله حتى أصلى فيه ، قالوا ما كان له قصر ، إنما كان له بيت لاطىء بالأرض . قال فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم ؟ قالوا ما كان لهم قصور ، إنما كان لهم بيوت لاطئة بالأرض) .

وكثير من المؤرخين يغفلون العامل الاقتصادى فى حياة العرب قبل الإسلام وبعده ، مع أنه بجانب الثورة الاجتماعية التى أحدثها الإسلام قلب نظام المال رأسا على عقب ، وحارب الرأسمالية ، وحرم الربا ، وقدح فى البخل ، وشرع الصدقة والزكاة ، وحفز على صلة ذوى القربى ونظم المواريث ورتب حقوق المرأة ، وألف القلوب بالبذل وبسط اليد للبعيد والقريب . وبالجملة أوجد طبقة جديدة من أوساط الناس لمقاومة عبادة المال ، وحطم المثل العليا التى كان المكيون يمجدونها . ولم يكن هذا الانقلاب بالشىء القليل . والذى غاظ أهل مكة وأحنقهم وأحرق أكبادهم أن محمداً بلغهم أن هذا التبديل ليس من عنده ، ولكنه من عند الله ، فهو أمر محتوم واجب التنفيذ ، لأن إرادته أقوى من إرادة كل هذه الأوثان المعسكرة فى الكعبة والمنتشرة فى الحواضر والبوادى العربية .

(٥)

يدهش المؤرخ من قدرة محمد على مواجهة الشدائد والاضطلاع بأعقد المشاكل، فهذه المدينة التى هاجر إليها ولم يكن يعرفها من قبل إلا بالوصف ثم بعد زيارته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأولى وهو طفل في حضانة أمه ، كانت تضم إلى جانب الأنصار عناصر قوية وعنيدة من اليهود والمنافقين والمعادين من المترددين وغيرهم ، وهي طبقات ثلاث يستطيعون أن يتغلبوا على المهاجرين والأنصار . وكان المنافقون واليهود والمعادون من حلفاء قريش أقوياء وأغنياء ، والمهاجرون والأنصار ضعفاء وفقراء ، حتى اضطر محمد لوضع نظام المؤاخاة ، وقد اضطر بعض المهاجرين للعمل البدنى لقاء أجور من التمر ، ولكن محمدا رأى أشد الخطر فى اليهود الذين جمعوا بين المال والذكاء والجمال ودين منزل سابق لدين محمد ودين سلفه الناصرى ، إلى حيلة واسعة ، ثم خيبة أمل يعقبها حقد دفين ورغبة شديدة فى الانتقام . فقد عرف اليهود فى محمد النبى المنتظر ، ولكن كبرياءهم أبت أن يطأطئوا رؤوسهم أمامه ، لأن القرآن أذاع حقيقتهم فامتدح أنبياءهم وانتقد أطماعهم وعرض بأخلاقهم وقد أعماهم مالهم وأضلتهم شهواتهم ، وأصبحوا لا يقدرون الرجال إلا تبعاً (للرصيد) الذى يملكه أحدهم . ولم يكن محمد عميلا لهم إلا فى الاقتراض منهم ولو برهن بعض دروعه ، ولم تكن له فى صناديقهم وخزائنهم ودائع ضخمة ولا هزيلة ، لأن كل ما كان يصل إلى يده ينفقه فى سبيل الله وفى حشد الجيوش وإعداد الحملات الموفقة ، فمازال يمالئهم حسب أمر ربه وطاعة لوحيه ، حتى حاربوه فى السر والعلن ، فدسوا له السم، وأعانوا عليه أعداءه ، وحرضوا جيشه على الفتنة ، وألفوا حزبا من (دعاة التردد والهزيمة) وهم المنافقون ومن لف لفهم وتواطأوا على خذلانه ، فلم ير بداً من ضرورة طردهم من الجزيرة وإقصائهم وقطع دابرهم ، فسبق فى الوصول إلى الحقيقة المطلقة، وهى أن العنصر المعادى فى الوطن يعمل على تدميره وتخريبه ويعطل حياته بعرقلة التعاون . فكانت موقعة خيبر موقعة حاسمة فى تاريخ الإسلام بل فى تاريخ العالم . أما النصارى فقد أوصى بهم خيرا . وكانت بيت المقدس فى أيدى المسلمين منذ الفتح العربى -وكان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره وسننه .

قد ندهش لتسامح الإسلام مع المعتقدات الأخرى فى حين أنهم لم يألوا جهدا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى النيل منه . وفى الحق أن محمدا جاء بالقرآن مصدقا للتوراة والإنجيل وقال الله عنه إنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، وقد أمر باحترام النصارى واليهود وسماهم أهل الكتاب تمييزا لهم عن عبدة الأوثان ، وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، وكان ضلع المسلمين فى صدر الإسلام مع النصارى بالتخصيص بدليل آية (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) ، وقد نال اليهود ما استحقوا بعد أن خانوا أمانة الله ونكثوا بالعهود وحاربوا نبيه .

حرّمت الشريعة الإسلامية الربا كما أن الشريعة المسيحية حرمته تحريما لا يوصف وكانت متشددة فى ذلك ما استطاعت ، فكانت النتيجة أن اليهود انبروا فى الميدان وظلوا قرونا عديدة محتازين التجارة يجنون ثمارها ، لايشاركهم فى ذلك مشارك ولا يزاحمهم مزاحم . وكانت الشريعة الإسلامية قائمة على تكريم العلم ، والقرآن حافل بالآيات التى تحث عليه ، وكذلك الحديث ، فقد جاء فيه (اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد . واطلبوا العلم ولو فى الصين . والحكمة ضالة المؤمن . ويوزن مداد العلماء بدم الشهداء يوم القيامة . والعلماء ورثة الأنبياء . وما خلق الله شيئا أفضل من العقل).

(٦)

من أعمال نبينا عليه الصلاة والسلام تأسيس الرابطة الإسلامية التى جمعت بين قلوب المسلمين فى أنحاء العالم جمعا إنسانيا ، فجعل العقيدة الروحية فوق الرابطة الجنسية ، وجعل للإنسانية مثلا أعلى بجانب حب الوطن ، فقال إنه من الإيمان ، وحضّ على الإخاء وحب البشرية ، وما كانت تلك الجامعة الإسلامية سوى الشعور بالوحدة العامة المتفقة مع فكرة التوحيد ووحدة الوجود . نعم كانت الجامعة الإسلامية العروة الوثقى لا انفصام لها ، وقد أنشأها النبى منذ شرع يجاهد بالمدينة، فالتف حوله المهاجرون والأنصار والمؤمنون من كل طبقات المجتمع ، ففيهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرقيق أمثال بلال ، والسادة الأعيان كعثمان بن عفان ، والأبطال كخالد بن الوليد ، وقد ولدت تلك الجامعة التى ربطت بين قلوب المسلمين فى المدينة المنورة وهى التى أعانت على هزيمة المشركين بعد قتالهم وتأسيس الحضارة الإسلامية التى يفخر بها العالم.

وفى أثناء الهجرة المحمدية أعد محمد وسائل الاستيلاء على مكة ، فقبل صلح الحديبية ونفذ بنوده بالدقة ، ونغص حياة القرشيين بالحرب والحيلة ، وقلب هزيمة أحد انتصارا سياسيا باهرا ، واستعمل سلاح الدعاية فغزا عقولهم وقلوبهم وأخلاقهم قبل أن يغزو بلدهم ، وهزم إرادتهم قبل أن يهزم جنودهم ، وهدم حصون نفوسهم وحطم مثلهم العليا البالية قبل أن يهدم قلاعهم أو يحطم أصنامهم وأوثانهم طائعا للوحى الإلهى ، وتابعا للمشورة الحسنة من صحابته حتى الأجانب منهم كسلمان الفارسى الذى وهبه لقب الإمارة ، كما فعل بعده ملوك أوربا إذ جعلوا بيسمارك (برنسا) أو أميرا ، فقال محمد : سلمان منا آل البيت ، وكان فى كل هذا إنسانا سامى الأخلاق كيّسا ، مهذبا ناضج الرأى لين العريكة سمحا ، لم يجد فيه خصومه عيبا . وهكذا شهد له الأغيار بعد انقضاء الأجيال فقال ولز فى تاريخه العام « كان محمد أكثر الأنبياء نجاحا » ، ولا عجب ولا غرابة فمحمد هو الإنسان الكامل .

(٧)

كان محمد عليه الصلاة والسلام نبيا مرسلا ومصلحا ومشترعا ، وجاء دينه وهو الأوحد الذى انطوى على شرائع وقوانين سياسية واجتماعية واقتصادية تقوّم اعوجاج الفطرة البشرية وتؤهل الفرد للعيشة فى المجتمع الإنسانى فى عيشة راضية راقية ، ومكنت لتابعيه تأسيس أعظم دولة عرفها الشرق والغرب . وقد طبقت قواعده وظهرت مزاياه الصالحة فى الحروب والمعاهدات والمعاملات الدولية وأثناء السلم ، ولو نفذ بنصوصه لأغنى العالم عن نزاع الرأسمالية والعمال ، ولانمحت المشاغبة من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوجود ، لأن أحزاب الشمال في أوربا ولا سيما روسيا لا يعملون إلا ببعض قواعده التى تقر العدل والرحمة والمساواة وضمان حرية الفرد وسعادته .

وما كان محمد يبغض شيئاً بغضه الشرائع والقوانين الجامدة التى تقيد العقل فتقوده صاغرا أعمى . وليس القرآن إلا كتاب هدى للمؤمنين ورحمة وليس عثرة فى سبيل ترقى المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية . ونحن الآن فى القرن الرابع عشر الهجرى ومتى وضع الإسلام فى البوتقة وأخرج منه ما علق من الأباطيل الخداعة ، عاد إلى أصله وهو توحيد الله تعالى والإيمان بأن محمدا هو رسول الله عليه الصلاة والسلام [١].

---

(١) أهم المراجع :

سيرة النبى تأليف بوله ، دستور المدنية : لولهاوزن ، انحلال الغرب : لشبنجلر، العرب قبل الإسلام : برسيفال كوصان ، الطبقات الكبرى : لابن سعد ، السنة المحمدية : جولد زيهر ، كتب السيرة وتاريخ مكة : للأزرقى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلسلة التاريخ الإسلامى

أبطال الإسلام من محمد إلى صلاح الدين (١)

شغل كاتب هذه الأسطر منذ عشرات السنين بدراسة التاريخ الإسلامى ولا سيما تاريخ رجل الإسلام الأعظم ، وبطل الأنبياء ، أبى القاسم محمد بن عبد الله(٢)، فلم يقصر فى درس كل ما كتب عنه فى اللسان العربى ومعظم اللغات الأوربية وقد وصل هذه البحوث العزيزة على نفسه المغذية لروحه فى دور الكتب الغربية فى باريس وليون وفلورنس وجنيف واستعان بجميع المراجع والمصادر التى وضعها كبار المؤرخين ونظموها حتى أصبحت سهلة المأخذ على كل دارس قريبة المنال من كل راغب ، وقد خرج من الدرس الطويل بعد استقصاء المواد وتحرى الحقائق بثمرة المقارنة والمعارضة حتى تمكن إنارة كل ناحية من ناحيات التاريخ المحمدى بما أقنعه إجمالا وتفصيلا بعظم شأن الرسول ، وكانت غايته منذ بداية العمل وأمنيته العزيزة وأمله الغالى وهدفه الأسمى أن يعثر على ترجمة لرسول الإسلام تملأ فراغا وتسد ثغرة وتغنى الشباب المثقف وجمهرة أبناء البلاد العربية وتشبع رغبات جمهور القراء فى مصر وفى العالم الإسلامى ، ذلك المحيط الذى شعر منذ ثلاثين عاما بالحاجة إلى الإلمام بحياة النبى بأسلوب جديد على طراز يتفق والمعقولية الحديثة ، ونسق يلتئم وحاجة العصر الحاضر .

ولم تتولد تلك الغاية فى نفسه إلا لاعتقاده أن لكل زمان تفكيراً خاصا ولكل عهد ثقافة تمثله وتغذيه ، تأخذ منه خططه التى ألفها وتعطيه ثمرتها المنشودة . وأن

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ١١٨ فى ١٩٣٨/٩/٢١ .

(٢) كتب المؤلف كتابه « ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله » ، وقد صدر الجزء الأول منه عن مطبعة الحلبى سنة ١٩٤٠ ، ثم صدر هذا الجزء مضافاً إليه باقى الأجزاء كاملة عن مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شخصية عظمى كشخصية محمد لجديرة بهذا الاهتمام لأنها أجل الشخصيات وأبرزها وأكملها وأجملها وأسماها وأعلاها وأنبهها ذكرا وأحفلها مجدا ، وأقواها أثرا وأبهرها نوراً ، وأخطرها شأنا وأعمقها روحاً وأنفذها عملا وأوسعها علما وأرقها جانبا وأشدها جاذبية ، وأحلاها ذوقاً وألذها طعما . اقتنع كاتب هذه الأسطر واعتقد أن مثل هذه الشخصية المنفردة التى حيرت فى تحليلها أكبر العقول وأوسع المدارك وأرسخ الأقدام فى الدرس والبحث شرقاً وغربا ، لابد أن تختلف الوسائل فى دراستها وتلمس الحقائق المحيطة بها وإزالة الأوهام التى تراكمت حواليها ، لا عليها ، باختلاف الأزمان والأماكن والمعقوليات ، سواء فى ذلك أرباب العبقريات والنوابغ والموهوبون وسواء كذلك المؤرخ المؤمن والمفكر الحر ، والكاتب المتحيز المغرض ، والآخر المنصف العادل ، وإذن يكون قد آن الأوان لإظهار الصورة المحمدية الكاملة على طريقة أقرب إلى الكمال ، كما تمثله كاتب هذه الأسطر وعلى صورة أقرب إلى أذهان المتعلمين فى الأوساط الراقية الذين عليهم المعول فى الفهم والإدراك ، وتوصيل الحقائق إلى من دونهم فى المعرفة .

ولما كانت اللغة العربية على غناها فى مناحى العلم والأدب أفقر اللغات فى تنظيم المراجع والمصادر ، فقد ترك حبل القراء على غاربهم فى كل العصور الماضية وفى عصرنا الحاضر حتى سار قولهم « أى كتاب تقرأ تستفد » مسير المثل وغدا من جوامع الكلم مع مخالفته للواقع والحقيقة . فقد تمكن أحد علماء العربية من أصدقاء كاتب هذه الأسطر من تقسيم الكتب القديمة والحديثة التى تشرّف أصحابها بادئا بما احتوى منها على سيرة الرسول أو ترجمته أو تاريخ حياته ، وماهى فى الواقع إلا نسخ طبق الأصل من القديم البالى أو صور مزيفة من الكتب الإفرنجية ، وفى كثير منها تشويه للحقائق وجرى وراء الإكثار من المطبوعات وتقليد غير بصير لما دونه علماء المشرقيات عن علم محدود فى النادر ، وعن إعجاب ومحاولة النصفة فى الأقل ، وعن تعصب وجهل وتعمد للانتقاص والاستهتار فى الغالب . وإن لدينا أدلة علمية وأدبية تثبت رأينا تؤيدها أسماء الكتب والمؤلفين ومواضع الخطأ والسهو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والغلط المقصود بالسطر والصفحة ، ولكن مجال سردها هنا يطول ، وقد ورد ذكرها بنصوصها فى صلب البيان العلمى ومتنه وشروحه وهو الذى وضعه صاحبى حتى لا يطمع طالب فى الاستزادة .

هل كانت حملة بل حملات مدبرة ضد نبى الإسلام أم مؤامرة محبوكة الأطراف على ذاته الفذة المقدسة وحياته المنفردة فى سجل التاريخ ، أم كانت فاكهة مرة لشجرة مسمومة ، زرعها الجهل وسقاها الغرور وتعهدتها الدعاية الظالمة ونمتها الأحقاد ؟ لقد حاول العالم الشرقى الذى أشرنا إليه أن يجيب على هذه السؤالات ليستنير أولا حتى يرضى بالجواب المقنع ، وقد علم بالاختبار أن من أشد العبث ضررا وأعمق الغرور غوراً أن يحاول المرء تعليم الغير أو إقناع السوى دون تعليم النفس وإقناعها بالرأى الصائب والفكرة الحق ، حتى رأينا تلك السلسلة المفيدة التى تنشرها دار الثقافة العامة بادئة بسيرة الرسول ومنتهية بتاريخ الإمام على[1] ، ومن أغنى الأمور عن البيان وأبعدها عن الحاجة إلى برهان أن الباحث لا يحاول الانتقاص بحال من الأحوال من قدر ما سبق نشره من التواليف والتراجم فى أية لغة وبقلم أى كاتب ، لأن هذه الفكرة بعيدة كل البعد عن مبدأ العلماء وخططهم ، بل بعيدة البعد كله عن مبدأ البحث العلمى الذى أساسه احترام الآراء وتقديس الحرية وتقدير الأعمال ، فإن أخبث الناس من يبخس الناس أشياءها أو يقلل من قيمة جهود الغير ليعظم من جهده . بل يجب الإقرار بفضل السابقين ولا سيما المخلصين منهم الأقوياء الذين جمعوا بين مؤهلات الذكاء وخصال الصبر على الدرس لاستخلاص البياض من السواد والحق من الباطل والصدق من الكذب والتاريخ الصحيح من الأساطير الموهومة .

نقول « ما سبق نشره » ولا نقولها عبثاً ، إنما نقصد إلى كل ما تحمله تلك الكلمة من المعانى وما تحتمله من المدلولات . فقد كان لأحد الفضلاء أثر السبق فى

---

(١) هى السلسلة التى كان يصدرها محمد صبيح .

إعداد أطروحة الدكتوراه فى الحقوق موضوعها « دستور المدينة »[١] وهو بحث من أخص بحوث الترجمة النبوية من ناحية التشريع السماوى والتقنين الأرضى ، وإن يكن كتاب العرب قد مروا به كمغمضين لحداثة عهدهم بالبحوث القانونية والاجتماعية حتى ليدهش الناقد الحديث من سلامة نياتهم لدى إسراعهم فى التنقل من فترة إلى فترة ، فى حين أن كل فترة حبلى بالمواقف الكبرى التى هزت العالم هزا ٠ وطالما أفاضوا وأسهبوا حتى أملوا فى تفصيل خرافة أو سرد أسطورة أو فكرة مدسوسة ، وأوجزوا واختصروا وقصروا حتى أخلوا فى ذكر أمر ذى بال ٠ فكأنهم فقدوا وأسفاه قانون التناسب ، الذى يشمل الأعمال الأدبية والفنية حتى تظهر بمظهرها اللائق بحذق الكاتب أو مهارة الصانع وقوة الجمال ، فليس الإبداع فى الأدب والفن سوى مراعاة التناسب ، والكتاب كالصورة والتمثال واللحن لا يستحق التقدير الذى يورثه الخلود إلا إذا تناسبت أجزاؤه كالجسم الإنسانى لا يحسب على الجمال إلا باستكمال هذه الصفة أو بالقرب منها ٠

ولكن لهؤلاء الكتاب والمؤرخين من السابقين والقدامى أو اللاحقين المتساهلين عذرهم ، فإن القراءة وسعة الاطلاع وتكديس المواد شىء ، والفحص والغربلة والاختيار والتمييز والتكوين على النسق الأكمل شىء آخر ٠ ولكن بعض كتاب الإفرنج لم يقعوا فيما وقع فيه كتاب العرب لاختلاف الزمان وتمتعهم بالحرية فى الكتابة ، وامتلاكهم ناصية الطريقة أو « الميتودة »[٢] الشهيرة عند الألمان ، والمنقولة عنهم إلى بقية الأمم الناطقة بالثاء كالإنجليز والراء كالفرنسيين والخاء كالتيوتون ٠

---

(١) يقصد المؤلف نفسه ، انظر كتاب « شاهد على العصر ، مذكرات محمد لطفى جمعه » ، الجزء الأول ، ص ٢٤٧ ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ١٨٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٠ م ٠
وكذا الفصل المعقود فى دستور المدينة فى كتاب المؤلف « ثورة الإسلام وبطل الأنبياء » ، المرجع السابق ، ص ٧٠٢ – ص ٧٢٠ ٠

(٢) Methode

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لعل بعض الكتب الطيبة فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام التى نشرت فى هذا العقد لم تكن فكرتها قد ولدت فى أذهان أربابها عندما كان بوله عالم الدنمرك قد سلخ عشر سنين أو أكثر فى دراسته ، ولعل بعضها كان وليد حالة نفسية طارئة ولكنها محمودة الأثر ، ولعل بعضها كان ثمرة إيحاء من كتاب غربى أو شرقى ظهر فيها ، وإنه لعمرك من بضاعتنا التى ردت إلينا ، ولكن صنعة الاختصار والتبويب وحسن التقديم وبراعة السبك قد نفت عنه الزغل . ولعل رغبة المنافسة والتسامي قد أوعزتا إلى غير هذا وذاك فلنشكر لتلك السلسلة باكورة أعمالها التى سدت فراغا وثغرة كان لابد من سدادهما ، كما أننا نحمد لهذا وذاك ونفرح بها ونغتبط بكتبها لأن المورد العذب كثير الزحام ، وأى مورد أعذب من مورد ابن مكة وضيف المدينة ثم فاتح الأولى وسيد الثانية بل سيد العالم كله ولا نقول الأكوان لأن هذا ليس مجاله .

وقد كان موقفنا كلما بدا نور أحد هذه الكتب موقف المستبشر بنور الهلال قبيل التمام .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب أوربى جديد عن الإسلام والعرب
نظرة عامة فى الحضارة الإسلامية ماضيها وحاضرها [1]

وضع مؤرخ من أشهر مؤرخى بريطانيا كتابا حديثاً عن الإسلام جعل عنوانه A Suvery Islam ومعناه المجازى إلقاء نظرة عامة دقيقة على أحوال الأمم الإسلامية فى العصر الحاضر .

١ - الثروة العامة
أسباب الفقر فى الشرق

قال فى هذا الباب إن الثروة التى كانت بها خزائن الشرق عامرة قبل الهجوم الأوربى ، والصناعات الوطنية الدقيقة ، والمتاجر التى اختص بها الشرق ، فقدت بسبب المصنوعات الغربية ، فى حين أن عدد السكان قد زاد وتضاعف فى عشرات السنين الأخيرة ، كما دلت عليه قوائم الإحصاء الأثنولوجى والأثنوغرافى ، وبذلك توزعت تلك الثروة التى أمست ضئيلة على عدد كبير من الأهالى ، وكانت يجب أن تكون تلك الثروة مضاعفة لتكفى للقيام بأودهم ورجوعهم إلى شىء من الرخاء الذى كان سائداً ... وهكذا انتشر الفقر بالتدريج وعم معظم الطبقات ، ماعدا طبقة ملاك الأطيان والعمارات الضخمة والمصانع الذين هم ورثة (الملتزمين) فى العهد الإقطاعى (الفدنية) ، فإن هؤلاء الملتزمين المقنعين يستغلون الطبقات الوسطى والفقيرة أسوأ استغلال وأفظعه وأقساه ، ولا يساهمون فى المشروعات العامة ولا يبذلون فى الخيرات ، مظهرين منتهى الطاعة للحكومات المطلقة التى تمالئهم لتركن إليهم عند الحاجة وليساعدوها فى إرهاق الطبقات النازلة ، وهكذا انتشر الفقر بجانب أسباب الإسراف الأخرى ، فى حين أن مبادىء الدين تأمر المسلمين بالقصد

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية ، العدد ٧٦ ، فى ١٩٣٧/١١/١٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والاعتدال فى الإنفاق وتنهاهم عن التبذير ، ولكن الدين فى الشرق أصبح حبراً على ورق ، وكل المتعلمين ينظرون إلى تعاليمه بغير مبالاة ، لأنهم تحرروا من عقيدة القضاء والقدر (فتاليزم) التى حكمت أجدادهم وآباءهم أجيالا .

٢ - الحوادث الكبرى فى الشرق

إن المشاكل والحروب التى حدثت فى الشرق أعظم مما حدث فى الغرب إذا نظرنا إلى النتائج النهائية ، وقد تسبب عنها نكبات كبرى فى الهند والعراق وشمال إفريقية ومصر ، ومن الحوادث المهمة تطور تركيا الحديثة ، فإنها بعد أن كانت مركزاً لأعظم دولة إسلامية أصبحت دولة (لايقية) [١] ولم يعتورها تغير ولا تحول ، وأن التطورات الحديثة لا تجعل للدين الشأن الذى كان له فيما مضى ، وأن ما خسره الدين فى الشرق الأدنى ربح أضعافه فى الشرق الأقصى - فإن فى تلك البلاد النائية معركة حامية بين الدين والوطنية ، ولكن رجلا اسمه دكتور صومانا اختط خطة جديدة ، فقد انتهز فرصة نفى الوطنيين إلى (دوجل) والحكم عليهم بأحكام رادعة فى ذلك الجحيم الآسيوى فألف كتاباً يقول فيه :

« إن (دوجل) مقر الحميات الفاتكة والغابات المظلمة حيث تسرح الوحوش وتنساب الأفاعى لتنهش لحوم المحكوم عليهم من الوطنيين ، إن دوجل هذه لأفظع مكان فى (غينيا الجديدة) وقد صح لنا أن نسأل (مكة أم دوجل) ، إننا ندفع الضرائب لمكة، أما (دوجل) فهى مهبط الأبطال الذين ضحوا بأنفسهم ، وبعبارة أخرى هل يجب على مواطنىّ أن يولوا وجوههم شطر الكعبة وقبلة الإسلام أم شطر المنفى الجهنمى الذى يضحون فيه بأنفسهم لأجل الوطن » .

---

(١) laique أى علمانية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإن المعركة لحامية بين صوماتا وسوكارنا ، فإن سوكارنا أسس حزبا جديداً، وقد تذبذبت الحركة السياسية بين الثورة البيضاء والشيوعية الحمراء • وإن الاستعمار الهولندى لا يقل عن أى استعمار آخر ، والهولنديون فى إندونسيا يبلغون ١٥٠ ألف بين رجال ونساء وأطفال يحميهم جيش عدده ٣٥ ألفا ماعدا الأسطول والطائرات وزعماء الجاويين خطباء لا رجال أعمال وأهم مظاهرهم الخوف الشديد من الأجانب • وعدد الجزائر يبلغ ألفا وسكانها ستون مليونا (١) •

٣ - الفرق بين حضارة أوروبا والشرق

إن أوربا اكتفت قديما بعقائد دينية قليلة ومنذ ألفى عام تقريبا اكتفت بدين واحد مع تعدد أهلها وممالكها ، وكذلك الحال فى أمريكا ، ومما نلاحظ أن الروس وعددهم نحو مائة وستين مليونا تركوا الديانات بتاتا • أما فى الشرق فإن الأديان كثيرة ، فأوربا لم تشغل نفسها بما وراء الطبيعة وعالم الروحانيات والميتافيزيقا ، بقدر ما اشتغل به الشرق ، إن التفكير الدينى ينهك القوة أحيانا ويقيد أعمال البشر ويجعل الذهن منشغلا بصور متناقضة بين الجائز وغير الجائز والمحظور والممكن والمنوع والمباح ، فتكون قيوداً فوق القيود الأخرى • إن الاختلاف فى الأديان فى أوربا أوجد بعض الحروب بين الكاثوليك والبروتستنت وبعض التعصب الذى أدى بنا إلى محاكمات جائرة ، وذبح الأبرياء ، إلا أنها كفّت عن التدخل فى شئون الأمم ولكنها فى الشرق سببت التأخر بين بعض الفرق ، ولاتزال متحكمة فى أحوالهم المعاشية من مولدهم إلى موتهم •

---

(١) نرجو ممن يقرأ هذا الموضوع من السادة الأندونوسيين أن يجلو لنا غامضه •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ - أسباب خيبة
العرب والشرق

من قديم الزمان ومنذ عهود الخلفاء فى بغداد ودمشق وقرطبة والقاهرة والقيروان كانت سلطة الخلفاء والأمراء والزعماء سبب سقوط الشرق وانحلاله ، فإن كل مصائب تلك الدول خرجت من قباب الملوك العالية ، ومن حول أعمدة القصور الشامخة . فإن إرادة الملوك أفنت إرادة الشعوب وجذبت إلى ناحيتها عقول النوابغ وأرباب المواهب ومن لم تكن لديهم أخلاق قوية تحميهم وتكفيهم للمقاومة ، وهؤلاء النوابغ تغلبوا على أحكام الشرائع وعلى مقاومة الشعوب ، ومهدوا السبيل للأحكام المطلقة . والشعوب في الشرق ولا سيما فى عهود الإسلام لم تتمتع بشىء من الحقوق التى تمتعت بها شعوب أوربا فى أظلم الأزمنة وأحلك العصور . وترى الشرقى خاضعا لأوامر الدين، ولسلطان الحكام الزمنيين ، فى حين أن الأوربى حر فى عبادته ومستقل فى تفكيره ، والشرقى يحسب للرأى العام حسابا والأوربى لا يفعل ذلك أبدا ، أما انحطاط الأمم الإسلامية فراجع إلى كثرة العبادات التى جعلت الأفكار الدينية ماثلة باستمرار لذهن المسلم ، والمسلم دائما محتاج لاستفتاء فقيه ، وبذا يتدخل الدين فى كل شىء فيعطل التصرف وقالوا إن القرآن شامل لكل ما يهم البشر (وما فرطنا فى الكتاب من شىء) ومع التسليم بصحة هذه النظرية التى لا تكفى الأعمار لدرسها فإنها صرفت أذهان المسلمين عن البحث والاختراع .

ولعل هذا هو السبب فى أن جميع الاكتشافات والاختراعات صدرت عن بلادنا (أوربا وأمريكا) ، وشعوبنا – التى لا تعتقد أن فى كتبها المقدسة بحثا عن كل شىء – تميل إلى القول بأن الإسلام أرغم على النضوج قبل الأوان كالفواكه العجر التى تسوى على نار صناعية ، وبيان ذلك أن الفترة بين ظهور الإسلام وبين الفتوح الكبرى وظهوره بمظهر الدول كانت قصيرة جدا ، فلم تتمكن الدولة الإسلامية من التأسيس والنمو وكمال النضج فى عناصرها كما كانت الحال فى أوربا وأمريكا حيث انقضت القرون قبل استتباب الأمور فمرت بهم عصور البطولة وعصور الشعر

وعصور الظلام وعصور الإحياء والفنون وهكذا ، وهذه عصور لم يتمتع بها الإسلام، فنما بسرعة وسار بخطوات واسعة نحو الشباب ، وكذلك شاخت الدول العربية بسرعة وسارت بخطوات واسعة نحو الفناء ، وكان أبطال الإسلام فى أول عهده عباقرة وقديسين وشهداء ، أما خلفاؤهم فكانوا أقزاماً فى الفضيلة والمواهب العقلية بل فى كل شىء ، كان الخلفاء المشهورون بالأربعة يشرعون ولا يترددون وقد فهموا المبادىء المحمدية على حقيقتها ، أما الذين جاءوا بعدهم فقد حكّموا المنافع والدسائس وجعلوا أشخاصهم فوق كل شىء وسخروا العلم والقانون لمنافعهم فغرقوا هم وشعوبهم .

٥ - هل الإسلام تداعى أو تزعزع ؟

يزعم بعض المفكرين أن الإسلام لم يتداع ، ولكنه متداع !! ويدّعون أن قفل باب الاجتهاد اتقاء تغيير نظم الخلافة من أهم أسباب التداعى فى الإسلام ، وحكومة الفرد المطلق هى التى سببت هذا الرعب ، وفى أبحاث المستشرقين الموثوق بهم أن الدين الإسلامى عبارة عن عقائد وتشريع ، والتشريع ينطوى على القابلية للتجديد وهنا تلعب نظرية عدم التفريط فى الكتاب من شىء دوراً إيجابياً لأن المشترع الإسلامى يجد فى الدين مصادر كثيرة لوضع القوانين التى تلائم كل زمان ومكان ، ولهذا كانت لدى نبى الإسلام الشجاعة الكافية والثقة بالنفس اللتان جعلتاه يقول (إنه خاتم النبيين) وهذه عبارة لم يقلها نبى من قبل ... إن الإسلام لم يقم على مبادئه وحدها بل قام على الأسس التى تركتها المدنيات القديمة ، ولكن لابد من نهضة علمية لأنه لاتوجد حياة سياسية وحربية بدون حياة عقلية وعلمية ، ولا يتهيأ هذا النهوض للشرق الإسلامى إلا إذا تنحت أوروبا عن التألب ، وهذا ليس بالمستحيل فإن روسيا بعد أن كانت دولة استبدادية ومستعمرة ومعادية للشرق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والإسلام انقلبت (لادينية) وتنحت عن فكرة الاستعمار وانفصلت عن جميع دول البلطيق .

٦ - سبب العداوة بين الشرق والغرب

هو تألب أوربا على دول الإسلام ، فإن أوربا لا تغتفر للإسلام وصوله فى فتوحه إلى كولونيا ووصول جنكيز خان إلى هولاندا وامتلاك إسبانيا ، أما الحروب الصليبية فكانت حروبا سياسية ذات صبغة دينية وقد سيرت الملوك والجيوش نحو الشرق بقوة ، وكما وقف مستوكليس فى أثينا ضد الفرس ، كذلك وقف شارل مارتل فى بواتييه ضد العرب ، وقد تمكن البابوات ولا سيما (إيربان الخامس) من حشد جيوش أوربية لمحاربة الإسلام والشرق من عرب وترك فكانت جيوشا لا تفنى لكثرة عددها فى حين أن جيش الترك كان واحداً .

وإن أوربا عندما تتغلب على دولة شرقية تخنقها خنقاً تاما وتسد فى وجهها أبواب العلوم والصناعات والفنون والغنى حتى لا تقوم لها قائمة ، فقد أمر لورد ماكولى أن لا يتجاوز تعليم الهندى فى الطب درجة (تمورجى) أو ممرض وحذرنا من نشر التعليم العالى فى المستعمرات ، ولكن التيار كان جارفا فلم يقو أحد على منع التنقل والاستزادة والسفر من أجل العلم .

٧ - الدور الذى لعبه العلماء المسلمون فى سقوط الشرق

إن علماء الإسلام أفتوا لكل حاكم مستبد ولكل أمير مطلق بما يتفق وهواه وتملقوهم وسهلوا لهم الظلم ووضعوا أنظمة تسهل عليهم ابتلاع الأمم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن دراستنا للاتجاهات الحديثة فى الشرق تدل على نقمة الأجيال الناهضة على هذه الخطط التى أدت بالأمم إلى الهاوية ٠ إن الدين المسيحى منطو على التسامح والتسامح أساس غريب للدين لأن الدين يجب أن يوافق الطبيعة والطبيعة تحتم تنازع البقاء ، صار الإسلام آلة فى أيدى الحكومات ، وكان المقصود أن تؤخذ منه مواضع الإصلاح وأن يتوسع فيها ، ومسألة القضاء والقدر من اختراع العلماء نمقوها وطرزوا حواشيها لمصلحة الظالمين ولإخضاع الأمم لترضى بنصيبها فى المظالم والمغارم ولكن الذى يقول بهذا الرأى يعد محتجا إسلامياً ، إن لم يوصم بالإلحاد وهذا أخوف ما يخافه المفكرون [1].

---

(١) نحن بالطبع لا نوافق على كل ماجاء فى هذا الباب ، ولكننا ننقله للتنور (المؤلف).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تغلغل العرب في الحضارة الغربية
وأسرار عظمة الشعوب الإسلامية
ومستقبلها
من كتابي المستشرق جولدزيهر « السنة المحمدية » و « محمد » [١]

ما كاد المسلمون يخرجون من فيافي جزيرتهم ، وينسلون من مهامه صحرائهم، حتى وجدوا أنفسهم حيال مباهج الحضارة الإغريقية ، وبدائع المدنية الرومانية اللاتينية ، ومشاهد العظمة المصرية الفرعونية ، ومفاخر الأمجاد الفارسية والإيرانية الآرية الأصل ، وما كان أغرب هذه المناظر لأنظارهم ، وأجذبها لأفكارهم ، وأشدها أخذا بمجامع قلوبهم ، ولكنهم وإن وقفوا إزاءها مشدوهين مدهوشين ، لم يضعوا أيدى التراخي على صدور الإهمال [٢] ، بل أعملوا الفكر في تفهمها وتعليلها للخروج من تأملهم بنتيجة عقلية يحسن السكوت عليها ، وسرعان ما استبانوا التفوق الذهني الذي ساعد تلك الشعوب على تأسيس حضارتها ، كما استبانوا من قبل تفوقها الحربي ، فلم يركنوا إلى مجدهم العسكري ، ولا للأفكار الدينية التي انطوى عليها دينهم ، بل جاهدوا في مضاهاة تلك الحضارات العريقة المجيدة في الغرب والشرق ، ودأبوا في مساواتها ومجاراتها . فكان أول عنصر ساعدهم على بلوغ غايتهم أن زعماءهم وساساتهم لما فتحوا البلاد ، فطنوا ببديهتهم السياسية إلى أن دينهم أبعد الأديان حاجة إلى الإكراه وأعفها عن أن يرغم الناس على الدخول تحت لوائه . وأنه وإن كان دين قوة روحية وسلطان أدبي على النفوس ، إلا أنه ينهى عن العنف والإرغام ، فكانوا في كل بلد فتحوه وفي كل مصر دخلوه سواء أكان في الشرق أم في الغرب ، يعاملون المغلوبين بالحسنى ، ويأخذونهم بالمعروف ،

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ٩٧ ، في ١٩٣٨/٤/٢٧ .

(٢) مثل فارسي لمن لا يكترث للأمور المهمة .

ويداورونهم بأعظم اللين ، وأحسن الوداعة ، تاركيهم أحرارا فى البقاء على شرائعهم وأديانهم ، وعاداتهم وعرفهم ، غير فارضين عليهم لقاء السلم [١] التى ضمنوها لهم والأمن الذى حاطوهم به ، سوى أتاوة زهيدة وجزية طفيفة . وحتى هذه الجزية لم يكن أمراء المؤمنين ليتمسكوا بها تمسكا شديدا . روى بطلر فى كتابه « تاريخ فتوح العرب فى مصر » عن الكندى فى كتاب القضاة والولاة طبع لندن « أن الخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فطن إلى قلة الخراج من مصر ، ولا سيما جزية النصارى التى يدفعونها عن كل رجل ديناراً ، فسأل ابن العاص واليها فى ذلك فأجاب أن معظم النصارى يدّعون الإسلام ، فإن أمر الخليفة فهو يكشف عنهم ليتبين ختانهم ، فأجابه ابن الخطاب منتهراً :

« كلا ! كلا ! ياعمر إن الله بعث محمدا هاديا لا جابيا ! .. » اهـ.

وإذن لم تشهد مصر ولا غير مصر فاتحين بهذا التسامح ولا غزاة بهذا اللين ، وذاك الحدب على الرعايا . ولا عرفوا من قبل دين العرب وأخلاق العرب دينا بهذا التساهل وتلك العذوبة المطلقة .

ولكن المؤرخين من كل الملل أغفلوا وصف هذه الحالة وأهملوا تقريرها ، وإليك الأسباب : كان مؤرخو العرب لا يشعرون بحالة شعبهم التى كابدها من نعومة أظفاره ، والرجل الغارق فى النعمة لا يعرف قدرها ولا يميزها عن نقيضها الذى لا يتذوقه . ومنهم مؤرخون أمثال ابن خلدون الذى لا ينكر فضله ، ولكنه كان متحاملا على العرب تحاملاً شديداً ، لأنه من أصل البربر ، ولأنه يبغض البداوة ويبدل حسناتها سيآت وفضائلها نقائص ومعايب [٢] ، أما مؤرخو الإفرنج فقد تجاهلوا فضائل العرب وتسامحهم وعدلهم وبالغوا فى إنكارها لأسباب لا تخفى على فطنة اللبيب ، فإن مؤرخى الإفرنج ناصبوا العرب العداء منذ الحروب الصليبية التى لم

---

(١) السلم بكسر السين وسكون اللام مؤنث يقال « سلم المؤمنين واحدة » .

(٢) راجع الفصول الأولى فى مقدمته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكن حروبا دينية كما زعموا باطلا وكذبا ولكنها كانت حروب هجوم على الحضارة الصناعية والعلوم والفنون الناشئة فى عواصم الإسلام الجديدة (دمشق - بغداد- القاهرة - القيروان - قرطبة) [1] فكان من أعظم ما اتجهت إليه إرادة هؤلاء الإفرنج إعداد جو المعاداة والاضطهاد للإسلام فى الأذهان الغربية ، فجعلوها حروبا بطانتها محاربة الحضارة العربية وظهارتها التعصب الدينى المسيحى ضد الإسلام.

ولكن تسامح الإسلام ولطف ساسته وأمرائه كان سببا من أسباب السرعة التى امتدت بها فتوحات العرب ، وداعيا من أهم الدواعى التى ذللت فى كل مكان انتشار دينهم وشريعتهم ولسانهم ، ومازالت تلك المعتقدات والقوانين واللغة والآداب عالية المنار مرفوعة الذرى ، حتى بعد أن ذهبت ريح العرب وولوا عن مسارح العالم فى الشرق والغرب .

وقال العالم جولدزيهر فى كتابه « محمد » وهو مجموعة فصول عن سيرة النبى العربى وتاريخ الحضارة وتعليل قواعد السنة المحمدية : إن العظمة الإسلامية ظهرت ثابتة على قوائم متينة من المبادىء التى رسمها النبى لأمته ، فقد روى فى الحديث الصحيح أن محمدا جلس على أحد المنابر وجلس حوله الصحابة كما كانت عادتهم وقال[2] « إنى أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل: أو يأتى الخير بالشر يارسول الله ؟!

فسكت عنه رسول الله ، ورأينا أنه ينزل عليه ، فأفاق يمسح عنه الرمضاء وقال: أين هذا السائل وكأنه حمده ! فقال : إنه لا يأتى الخير بالشر . وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر ، فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت ، وإن هذا المال خضرة حلوة . ونعم صاحب السلم هو لمن أعطى المسكين واليتيم وابن السبيل أو كما قال

---

(١) أصل الحروب الصليبية (هاولز ، الفصل الثانى ص ٧٥) ، طبع لندن .

(٢) قد صححنا هذا الحديث ورددناه الى أصله كما ورد فى الكتب الستة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسول الله . وإن من يأخذه بغير حقه فهو كالآكل الذى لا يشبع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة » ا.هـ. الحديث المحمدى .

قال جولدزيهر فى شرح السنة المحمدية (جزآن طبع فينا ويعد من أمهات كتب المستشرقين): لقد ضرب النبى العربى فى هذه الرواية الدينية مثلين ، الأول لمن يُفْرِط فى جمع المال والإكباب على تكديس الدنيا مع منع ما جمع من حقه ، والمثل الآخر جعله للمقتصد فى جمع المال ، وبذله فى حقه ، فإن أجزاء العشب التى يحلو طعمها للأنعام هى الأرباح الطائلة التى تستكثر منها الماشية كما يستكثر أرباب رؤوس الأموال وعبدة الذهب ، حتى تنتفخ بطونهم ويهلكون ، أما آكلة الخضر فهم من يقتصدون فى أخذ الدنيا وجمعها وعدم الإسراف فى قمّها والحرص عليها فينجون من وبالها . وقد وصف الرسول العربى هذا المال الحلال بأنه خضرة حلوة وناعمة غضة وحث على إعطاء المسكين واليتيم منه مع حلاوته ورغبة الناس فيه ليقيهم الله وبال نعمتها فى دنياهم وآخرتهم .

وإن التخريج الجليل الذى خرجه المستشرق النمسوى لينصبّ على صميم المسائل التى يعالجها العالم المتحضر الآن ، فإن داءه كامن فى الاستماتة فى حب المال ، وبذل كل جميل وشريف وغال فى سبيل الحصول عليه والاستكثار منه وتكويمه وتكديسه حتى أصيب العالم بالتخمة . فكان للعفة العربية التى نصح بها النبى تأثير فى حياة الإسلام فى الأمم التى أخضعها العرب . فإن الفرس واليونان والرومان تسوّدوا تقريبا على البلاد التى فتحها الإسلام بعد ذلك ، وبسطوا فوق أراضيها أروقة نفوذهم ، ولكنهم لم ينجحوا وقتا ما فى هدم مدنية الفراعنة العتيقة ولم يتوفقوا إلى إسقاطها وإقامة حضارتهم على آثارها ، ولكن الإسلام والعروبة نجحا حيث فشل الفرس والإغريق والرومان .

ومن أسرار عظمة الإسلام وحسن توفيقه ، أن نظمه السياسية والاجتماعية كانت من السهولة بحيث توافق حاجات الطبقات الوسطى فى الأمم التى استكانت للغرب ، وهذه الطبقات الوسطى هى العمود الفقرى لكل الأمم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال جولدزيهر : يحدث أن النظم الإسلامية لم تكن ملائمة كل الملائمة لحاجات الطبقات المتوسطة فى البلاد المفتوحة ، فكان العرب أعلم بتحويرها وتذليلها لما تقتضيه الضرورات ، ولذلك نرى بين النظم الإسلامية فى الهند وفارس وبلاد المغرب ومصر فروقا ، هى فى بعض الأحيان كبيرة ، وإن كانت ترجع إلى قرآن واحد ، وتأتم بهدى رسول واحد . وأبهر مثل على تلك القدرة على التحوير والتحويل وتذليل القواعد للزمان والمكان والبيئة ، ما فعله قديما الإمام الشافعى ، فقد كان له فى العراق مذهب ، فلما ورد مصر وولى القضاء فيها جعل لأهلها مذهبا ينطبق على أخلاقهم وطباعهم ولا يخرج عن شرع الله وسنة رسوله . وهذا العمل كان مؤسساً أيضاً على أصل من أصول الشريعة من قول الرسول فى أحد أحاديثه (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى !) ، وهذا هو نفس ما فعله المصلحون فى الإسلام ، فقد ساروا فى أعمالهم برفق وبلغوا الغاية القصوى بالرفق واللين لا على سبيل التهافت والخرق ، ولم يحملوا على أنفسهم ولا نفس الرعية ، ولم يكلفوها ما لا تطيق فتعجز وتترك الدين والعمل .

ومن المبادىء الاشتراكية النبيلة التى أقرها الإسلام وهى روح الإنسانية ولباب النصفة ومحور العدل ، قول على بن أبى طالب وهو أمير المؤمنين ومن دعائم الدولة والملة : (لو شئت ، لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبنى هواى ، ويقودنى جشعى إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز وباليمامة من لا طمع له فى القرص [١] ولا عهد له بالشبع . أو أبيت مبطانا ، وحولى بطون غرثى ، وأكباد حرّى ؟. أأقنع من نفسى بأن يقال هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم فى مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم فى خشونة العيش ؟ فما خلقت ليشغلنى أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة ، همها علفها، أو

---

(١) رغيف العيش العادى ، أو الخبز القفار أى لا يجوز لى أن آكل أطيب الطعام أو ألبس أفخر الحرير وفى الرعية من لايجد الكفاف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرسلة شغلها تقممها تكترش من أعلافها ، وتلهو عما يراد بها ، أو أترك سدى أو أمهل عابثا أو أجر حبل الضلالة أو أعتسف طريق المتاهة ؟!).

وهذا الكلام لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يجمع بين صدق أبي بكر وعدل عمر وإباء على نفسه وحدبه على رعيته وعطفه على أمته منذ ألف وأربعمائة سنة . في حين أن الحضارة الغربية المادية الجامدة الجافة قد أنجبت رجالا كامبراطور ألمانيا غليوم أو ويلهلم الثاني الذي سجل عليه التاريخ أنه قال : « ليس في هذه المملكة إلا سيد واحد ... هو أنا ، ولن أسمح لنفسي بوجود سيد آخر ! ليس في ألمانيا إلا قانون واحد ، هو قانوني ، هو القانون الذي وضعته بنفسي . إن الاشتراكية سحابة صيف عما قليل تنقشع ، إن لفظة اشتراكي لهي عندي مرادفة للفظة « عدو للحكومة والوطن » ، إن الحزب الاشتراكي الذي يجرؤ على مهاجمة نظم الحكومة وأسسها والخروج على الدين والانشقاق على العقيدة وتبلغ منه الجرأة أن يتجاسر حتى على شخص الملك ، يجب أن يبيد ، إني لأبتهج أن أرى يد كل فرد في يدي مادام يبايعني على هذه الحرب » . انتهى كلام غليوم .

ولم تكن كلمات غليوم إلا صورة طبق الأصل من كلمات الظالمين السالفين من ملوك أوروبا أمثال إمبراطرة الرومان ، وبعض ملوك فرنسا وإنجلترا ، ولكن ملوك الشرق ولا سيما العرب والمسلمين منهم كانوا دائما يسيرون وراء مثل عليا ، من التي خطها لهم قرآنهم ورسولهم وأخلاق خلفائهم الراشدين ، ولاتزال هذه الخطط كامنة في حنايا ضلوع الإسلام ، تعين على نهضته الحاضرة نهضة يحوطها العدل وتعضدها الرحمة الإنسانية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمم الإسلامية وأسباب ركودها فى العصر الحاضر
لمعات ولمحات ونفحات
من كتاب العالم النمسوي المستشرق إجناز جولد زيهر [1]

حمل إلينا البريد بضعة مكاتيب عن المؤلف الجليل الذى وضعه العلامة الأستاذ الدكتور زكى على المصرى وطنا والمقيم باختياره فى جنيف عاصمة عصبة الأمم . وذكر أحد المكاتبين أنه حصل على نسخة منه وأشار بإعجاب شديد إلى الفصل التاسع « ١٩٥ - ٢٢٠ » الخاص بموضوع اصطدام الإسلام بالغرب . فرجعنا إليه فإذا به ينطوى على الأسباب الجوهرية التى أدت إلى وقوف نهضة الأمم الإسلامية . وكان العلامة جولد زيهر المستشرق قد تناول هذا البحث الجليل فى كتابيه اللذين نوهنا بهما فى فصلين سابقين فى الرابطة[2]، فإن سير الإسلام المحفوف بالنصر منذ ظهوره فى القرن السابع المسيحى أدى إلى احتكاكه بالغرب واصطدامه بالمسيحية السمحاء (!) ، وكان هذا الاصطدام أول ما صادف المنافسة بالقوى بين الشرق وأوربا . ولكن فات بعض المؤرخين أن الاصطدام بين الشرق والغرب قديم ، وكان أول عهده على ما يذكر المؤرخون حروب شعواء قامت بين اليونان والفرس فى مواقع عدة أشهرها ترموبوليس التى هزم فيها القائد اليونانى ثمستوكليس أسطول زاكزيس إمبراطور إيران الشهير ، فصار مؤرخو أوروبا يصفون هذا الانتصار بأنه إنقاذ الحضارة الأوربية من البربرية الشرقية ، واتخذوا منه سلّما لتبرير هجوم أوربا على الشرق وابتلاعه . وكان بعد ذلك هجوم الإسكندر المقدوني على الأناضول وسورية ومصر والهند وبلاد الفرس نفسها ، وقد قضى نحبه فى سهولها وهو لم يتخط العقد الثالث .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية ، العدد ١٠٢ فى ١٩٣٨/٦/١ .

(٢) انظر صفحة ٥٩ من هذا الكتاب .

وقد فات المؤرخين المتحيزين أن الفرس من جنس آرى فهم أبناء عمومه اليونان وليسوا من الجنس السامي . والدليل على آريتهم أن هؤلاء الفرس أنفسهم بقيادة قمبيز هجموا على الشرق الأدنى ومن بين ممالكه التى افتتحوها وأذلوها مصر . وكان الهجوم الأوربى على الشرق بعد ذلك على أيدى البورتغال الذين فتحوا الهند الصينية للبحث عن البهار والتوابل [١] . وادعى المؤرخ اليهودى ستيفان زفايج وهو مؤلف ماكر ، أن أهل أوربا مذ تذوقوا الفلفل والشطة وجوزة الطيب والحريفة وفواتح الشهية ، لم يستطيعوا عنها صبرا ، فحشدوا الأساطيل للفتح ومازال أساطيل التجارة تحملها من مزارعها تحت خط الاستواء إلى يومنا هذا ، وهو فى ذلك يذكرنا بالمثل الهندى « من أكل الأنبـا والبـان ودخل أرض هندوستـان نسى الأهل والأوطان».

فهؤلاء الأوربيون الجائعون دخلوا أرض الشرق وأكلوا البهار فنسوا أهلهم وأوطانهم واستعمروا أوطاننا باسم البهار . وفى هذا الرأى اليهودى تدليل على نهم أوربا واتباعهم أهواء بطونهم ، وفى الحق أن البهار والحبهان وجوزة الطيب لم تكن وحدها هى التى حرضت شهيتهم على الغزو والاستعمار ، فإن الشرق يحتوى على كنوز أغلى وأغنى وأضخم من البهار ، ففيه الجواهر واللؤلؤ ومناجم البترول والعاج والأبنوس والعنبر والمسك والأرض الخصيبة التى تنبت ذهباً وفضة ومئآت بل ألوف من الخيرات التى أسالت لعاب أوربا .

ولم تنته غزوات الغرب بعد البورتغال ، فإن العصور الحديثة ، حنت علينا بالحروب الصليبية ، فجردت أوربا باسم الدين جيوشاً جرارة عقدت ألويتها للملوك وأمراء تركوا عروشهم وتيجانهم للأوصياء والنساء « ريكاردوس قلب الأسد ولويس التاسع وغيرهما » ليهجموا على الشرق ويعودوا بخيراته إلى أوطانهم ، وقد أخفوا أغراضهم الحقيقية تحت رايه الصليب منقادين إلى القساوسة والرهبان ، وما كان

---

(١) راجع سلسلة مقالات لستيفان زفايج فى جريدة كانديد سنة ١٩٢٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هؤلاء الرهبان إلا طائفة من المغامرين لبسوا مسوح الزهد وهم إلى قطاع الطرق أقرب ، وجمعوا فى صفوف جنودهم طوائف اللصوص والمقطوعين والمتمردين والمتشردين وجندوهم بالتطوع مقابل القوت الضرورى ٠

وقد بدأ النزاع بين الإسلام والنصرانية قبل الحروب فى شكل مجادلات دينية٠ ولكن المسلمين تبعاً لكتابهم المنزل أحاطوا شخصية المسيح بكل أنواع التبجيل والتمجيد والاعتراف برسالته ومولده المعجز وانفراده بين الأنبياء بالوجاهة فى الدنيا والآخرة ، والرفعة إلى السماء « إنى متوفيك ورافعك إلىّ » وهو أمر لم يذكر فى القرآن عن محمد وهو النبي الذى نزل عليه الوحى صلى الله عليه وسلم ٠ ولكن النصارى الأقدمين قابلوا هذه الكرامة بالنيل من النبى ، والتشنيع عليه فى كتبهم واختراع المساوىء الباطلة ، وكتبوا ذلك وخطبوا به وعلموه أولادهم وهيجوا العامة والدهماء على المسلمين كما فعل اليهود حذوك النعل بالنعل ، فإن القرآن الشريف مجّد موسى عليه السلام تمجيدا كبيرا فى مئات الآيات بل جعل سوراً بأكملها وقفاً على تاريخ حياته ونشأته وأخلاقه وزواجه « سورة القصص والبقرة إلخ » ، كل هذا لم يعجب اليهود ولم يطفىء من نار أحقادهم ٠ كما لم يعجب النصارى تمجيد عيسى ابن مريم ولم يكن يرضيهم إلا تفضيل مذهبهم على كل مذهب والإقرار بعبودية العرب والمسلمين لهم فيرضوا عنهم ٠

فنحن لا نلوم الشعوب المسيحية بقدر ما نلوم رجال الكنيسة الأرثوذكسية والكاثوليكية ٠ لأن القسس سمموا أذهان الشعوب ضد المسلمين ونبيهم وكتبهم منذ ثلاثة عشر قرنا ٠ ولهؤلاء القسس وسائل جهنمية فى تنفير الناس عن خصومهم ، فلما ارتفعت الغشاوة عن أبصار العلماء الأوربيين فى أواخر القرن التاسع عشر بعد أن تعلموا العربية وقرأوا كتبنا وفهموها كما فعل جولد زيهر ونولد كه وويلهاوزين وجريمه ونيكولسون وإدوارد براون وهويار وريان ، أرغموا على النصفة ولم يراعوا خاطر الدول المستعمرة التى أفادت كثيرا من الدعاية المعادية للإسلام فى أذهان الأمم الغربية ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان بطرس الراهب الذى دعا إلى الحروب الصليبية بأمر البابا أوربانه يعتلى صهوة بغلة فرهة ويدعو إلى محاربة الإسلام فتبعه فى ضلاله من تبع من اللصوص والمحرومين ، واقتفى أثر حوافر بغلته لفيف من الفلاحين البلهاء الذين بخلت عليهم أراضيهم المجدبة بالقوت الضرورى . فذهبوا إلى الشرق فى « حملة الجوع » وكان البابا أوربانه ينادى بضرورة استرداد القبر المقدس من أيدى المسلمين ، فوجدت هذه الدعوة الظالمة صدى فى أنفس أمراء الإفرنج الطامعين فى المستعمرات والتجار المتربصين لأسواق الشرق والجائعين الذين لايجدون فى أوربا الخبز القفار ، وكان من أوائل المنصفين للعرب جوستاف ديركس [١].

ومن أعجب الأمور أن المسلمين كانوا أكثر أمانة على قبر المسيح من سواهم ، لأنهم يحترمون صاحب القبر ولأنهم يمنعون تنافس الشيع والمذاهب والفرق والنحل المسيحية عن التزاحم والتناحر . وقد أظهر عمر بن الخطاب وخلفاؤه تبجيلهم للقبر ، فلما وصل هارون الرشيد العباسى إلى عرش بغداد وأراد ربط أواصر المودة بينه وبين شارلمان ، بعث بمفاتيح الضريح المسيحى إليه باعتباره ممثلا للسلطة النصرانية فى الغرب [٢].

ويعد كتاب جولد زيهر عن الإسلام من أصدق الكتب وأنصفها لأنه درس الإسلام فى مصادره الأولى بغير وسيط . وقد ظهر فضل هذا المؤلف عند ما دافع عن الإسلام بوصف كونه عقيدة . فقال « إن كثيرين يردون ركود الإسلام الحالى إلى الدين نفسه ، وهذه فكرة خاطئة ، فقد درسنا شؤون المسلمين فى أنحاء العالم وفى كل العصور فثبت لدينا أن الإسلام براء من كل عناصر التأخر والركود ، وأن سبب الاضمحلال راجع إلى أمور خارجة عن الدين نفسه ، أهمها طبيعة الشعوب

---

(١) Gustave Diercks : Die Araber in Mittelater und ihr Einfluss auf die Cultur Europas.

(٢) ويلسون كاش فى كتاب « ثورة العالم الإسلامى » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى انتحلته ، ووراثتها السابقة ، فإنها لم تتغير ولم تتبدل وبقيت على فطرتها . ومنها الترف والرفاهية والرخاوة التى اندفع بعض الخلفاء فى تيارها فأهملوا الشعوب والعدل واكتفوا بالراحة الذاتية وكفوا عن الجهاد والنضال والمكافحة ، ومنها هجوم أوربا على الشعوب الإسلامية بحجج مختلفة كلها واهية ومنطوية على المصالح»[١] .

وهذا الكتاب الذى نذكر اسمه فى الهامش بالألمانية هو نفسه الذى نقل إلى الإنجليزية باسم « محمد » ونشر فى لندن سنة ١٩٢٢ فليرجع إليه من يشاء ، وقد حشد الدكتور زكى على طائفة كبرى من المراجع الأوروبية عن موضوع هذا البحث فى هوامش كتابه القيم وفى صفحات ٤١٩ - ٤٢٨ ومن بينها كتاب جولد زيهر المذكور .

(١) Ignaz Goldziher -Vorlesungen uber den Islam, Heidelberg 1910.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحضارة المصرية وأهم مقوماتها
اللغة العربية والدين الإسلامى
والمنازع الفطرية القومية (قديما وحديثا) (١)

يوشك أن يبدو هذا البحث الاجتماعى سهلا ، لكثرة ما تستأذن على أسماعنا أمهات مسائله ، نعم إنه سهل ولكنه من السهل الممتنع لتضارب آراء المفكرين والقراء فى تقدير هذه العناصر الثلاثة وأثرها فى تكوين وحدة الأمم وتقويم حياتها ، حتى دعا بعضهم دعوة تشكك فى قيمة تلك العناصر وتنزع إلى توهينها وإضعاف شأنها مرتكنا على أن الدين وحده كاف لإيجاد الحضارة وتكوينها .

ولكن الكاتب المحقق حين يبحث فى المعانى وتعريفاتها لابد أن يقوده البحث إلى النتيجة الصحيحة التى اتخذها علماء الاجتماع الحديث مبدأ لاستنتاجهم المؤسس على الاستقراء والاستنباط .

وقد يميل الكاتب لدى معالجة هذا الموضوع لاستعراض المعانى والتعريفات التى تنطوى عليها مبادىء الدين الإسلامى واللغة العربية والمنازع الفطرية ، ولكن الذهاب مع هذا الميل قد يصغر من شأنها نوعا ولكن النظر إليها جملة يقنعنا بأن الدين الإسلامى واللغة العربية هما من الروابط الفطرية والاجتماعية والمعنوية والمادية التى تجمع الجنس أو الأمة وهما من القوة والصدق بحيث يعيش المرتبطون بهما سعداء ويغضبون إذا فرق بينهم ويثورون ولا يصبرون على الإذعان لقوة لا تشركهم فى هذه الروابط كما هو مشاهد فى الوقت الحاضر فى فلسطين ، فاللغة العربية والدين الإسلامى رابطتان للألفة والتفاهم والتعاون وقد تعدلان الوحدتين الجغرافية والأثنوغرافية (٢) أو تربو عليها قوة ، فإن حب التربة والمشاهد الطبيعية ، وهو الحب

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة الرابطة العربية ، المجلد الثالث ، العدد ٧٥ ، فى ١٩٣٧/١١/١٠ .

(٢) الأثنوغرافية خاصة بحياة الشعوب .

الذى ألف فيه الجاحظ رسالته البديعة « الحنين إلى الأوطان » ، وذلك الحب الذى نشعر به للأرض التى درجنا عليها والمناظر التى ألفناها ، ليس شرطاً جوهريا فى تكوين القومية . لأن الأرض والمشاهد الطبيعية ليست سوى المكان الذى تتجلى فيه الحياة والأفكار والعواطف والآمال ، فما قيمة المسرح مهما كان فخما جميلا إذا خلا من الممثلين ؟؟ ومن المؤكد أننا نرى أمما مبعثرة المواطن فى بقاع تختلف أشد الاختلاف كالشعب اليونانى وهى مع هذا على شعور قوى بالوطنية ، وكذلك الأمة اليهودية المشتتة فى سائر أنحاء العالم تربط أبناءها اللغة العبرية والدين الموسوى فهم من أشد الأجناس البشرية تلهفاً على الوحدة القومية ولم يطمعوا فى التربة واختلاق الوطن إلا بعد أن سنحت لهم فرصة لم تكن تخطر لهم على بال منذ قرون.

وإذن تكون الوحدة الجغرافية ليست بالضرورية ولا هى بالزم أو أهم العناصر. وكذلك الوحدة الجنسية فليست بأقوى العناصر . لأننا لا نرى أمة من أمم الأرض تخلو من خليط من الأجناس أفلح فى ضم أفراده جميعاً إلى آصرة قومية واحدة سوى الأمة الصينية ، وقد هيأت لها الطبيعة ظروفا ومقتضيات لم تهيأ لسواها ، بيد أنها لولا الدين الكونفشى واللغة القديمة الفطرية ما أفلحت فيما وفقت إليه على جمودها .

أما اللغة فرابطة من الروابط لأنها وسيلة التفاهم والتعبير عن الأفكار والآمال والآلام وأداة التعارف النفسانى والجنسى وحبل الاتصال بين الأفراد والجماعات وحلقة قوية وعروة وثقى ولا سيما من حيث أن لملامح اللغة وشياتها سلطاناً كبيراً فى ملامح الأفكار وشيات الميول بين الذين يتكلمون بها ، دع عنك أن اللغة المشتركة معناها الآداب المشتركة والمطامح الفكرية المشتركة وميراث مشترك من الفولكلور (علم الشعب) وهو الأغانى والقصص والأمثال والألغاز والملاحن Argot التى تضمن الروح القومى وتنفثه فى كل جيل وقبيل كما كانت الحال فى الجاهلية العربية، ويعيش الإنجليز فى جزيرتهم أربعين مليونا ولكنهم متصلون أشد اتصال وأتمه بأهل كندا والولايات المتحدة وأستراليا وهم يعدون بمئات الملايين وقد ساعدهم العلم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحديث على القضاء على الأبعاد والأزمان .

وقد بذل المستعمرون فى كل جيل جهوداً كبيرة فى سبيل نشر لغاتهم والقضاء على لغات الأمم المغلوبة عالمين يقيناً أن فى محو اللغة القومية محواً لشخصية الأمة المغلوبة ، وللقرآن الكريم أكبر فضل فى حفظ كياننا ، وفى مستهل هذا القرن قام الإنجليزى ويلمور (أحد قضاة المحاكم الأهلية إذ ذاك بمصر) يبشر باللغة العامية وينصح باستعمالها ويدّعى أنها أجمل من الفصحى وأسهل و« أنكت » أى أنها تطاوع الدعابة وتنطوى على اللعب بالألفاظ (١).

ولو كان لأمة أن تقدس لغتها وتدفع عنها وتفاخر بها فالأمة العربية الناطقة بالضاد ، لأن تلك اللغة الفصحى تحفظ بين برديها جوهر الدين وهو الرابطة الوثقى .

يفخر الإنجليزى بشكسبير والألمانى بجوته واليونانى بهوميروس والأسبانى بسير فانت والإيطالى بدانتى والفرنسى برابليه وبوالو ، لأن كلا من هؤلاء أفرغ شعره أو فكره أو خاطره أو حكمته فى قوالب لغته فأحيا الاثنتين اللغة والفكرة .

أما اللغة العربية فقد تقبلت أمانة القرآن وناهيك بهذا الكتاب الكريم الذى لم يفرط فيه مرسله من شىء .

***

قلنا إنه فى مستهل هذا القرن قام الإنجليزى ويلمور يبشر بالعامية ويناصرها على الفصحى ويطبل لها ويزمر ويصفها بالليونة والسهولة والحلاوة والغنى والقدرة على صياغة النكتة البلدية والاستعارة والكناية والإلمام بأنواع المحسنات اللفظية ورمانا بخطل الرأى لأننا أغفلنا كنوزها الزاهرة بصنوف الجمال وتعلقنا بأهداب الفصحى التى وصفها لجهله بالموت وجمع بينها وبين الإغريقية المهجورة واللاتينية

---

(١) انظر ردّ المؤلف على كتاب « الحروف اللاتينية لكتابة العربية » لعبد العزيز فهمى فى كتاب المؤلف المعنون « فى الأدب والنقد » ، ص ٥٩٨ ومابعدها ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآفنة فى قبر واحد . فكان نصيبه الفشل على أيدى العلماء والكتاب واتهمه بعضهم بالمكيدة والدسيسة والرغبة فى القضاء على لغة القرآن خدمة للأغيار ، ولكن حقيقة أمره أنه كان بسيط العقل بدائى التفكير Primitif .

ولقد تسمع الآن من المصريين أنفسهم من يبشر باللغة العامية ويحب أن تكتب بها روايات المسارح وتبسط بها مواقف الروعة والإحساس ، وقد درسنا هذه المسألة من جميع ناحياتها فثبت لنا أن القول بأن أطوار بعض الناس لا يعبر عنها بلغة فصيحة قول ينم على جهل وعجز وتقصير وقصور ، ولئن أنطقنا عامياً أو عامية بالفصحى البليغة خير من إنطاق جميع الناس بلغة العامة والسوقة ، وكتب أديب شهير فى مجلة أسبوعية أدبية (الأدب الحى) يصف إحساس الحزن والألم الذى يعتريه كلما قلب صفحات كتاب أدب عتيق كالأغانى !!

ثم إن الكتابة بالفصحى أسهل على الكاتب من الكتابة بلغة العامة والجهلاء، أما سهولة الفهم فحسبك منها أن لهجة القاهرة العامية قلما تفهم فى بعض قرى الصعيد ، وأن عامية مصر لاتفهم فى تونس ودمشق وبيروت وبغداد وصنعاء ومكة، ولكن العربية الفصحى مفهومة فى مراكش واليمن وبطاوى وبكين وكلكتا لمن يقرأون القرآن والحديث ويصلون ويصومون ويتعبدون على قواعد الإسلام ولمن يفهمون أدب المتنبى والبحترى وأبى تمام ، وقد يسافر العربى من الدار البيضاء غربا إلى الكويت والموصل شرقا فلا يجد صعوبة فى الفهم والتفاهم إذا تكلم بالعربية الفصحى ، ولكنه إذا ركن إلى اللهجة العامية وقع حتما فى حيص بيص !

ولكن لم كل هذا الاكتراث وفيم هذه المعركة بين القديم والجديد والفصيح والعامى ؟

الجواب أن غاية الغايات هى التدليل على قيمة اللغة العربية وأثرها فى تقويم الحضارة العربية ، فهى أحد الأعلام التى تلتف حولها حياة الأمة . فقد وضعت الطبيعة فى الكلام والتعبير اللفظى بها من القوة والجلال والجمال ما يكاد يعدل قوة الخلق ، وقد صارت كل كلمة ننطق بها ذخيرة لاتذهب هباء لأنها إحدى قوى هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكون ولأنها تحدث معرفة ثم عاطفة ثم رغبة وتنقل إلى ذهن السامع لذة أو ألما فتصور أملا أو يأسا وتمثل خيرا أو شراً وتفيد فكرة أو انفعالات ، وكانت الحجة البالغة للغة العربية أن اختارتها العناية الربانية وسيلة لنشر الدين فأفرغتها فى كتب وعبرت عنها باللغة ، وكان الأنبياء خطباء فصحاء أثروا فى شعوبهم باللغة وكذلك الزعماء والقواد والمؤلفون والحكماء لولا اللغة ما قضوا لبانة ولا أصابوا هدفا ولا جمعوا كلمة الأقوام .

انظر إلى أثر اللغة العربية وتأثيرها فى ربط قوميتنا وتقويم حضارتنا تراها أقوى من الأسبانية الفاشية فى أمريكا الوسطى والجنوبية كما ترى ملايين تلك الجمهوريات يجنحون أبداً إلى القومية الإسبانية كمجموعة الأمم الأنجلوسكسونية ، فإنه عندما نفخ نفير الحرب هب الأمريكيون الشماليون والأستراليون هبة رجل واحد تلبية لنداء القومية الإنجليزية التى تربطهم بها اللغة الأنجلوسكسونية ، وإن نأت بهم الدار وشط المزار ، فأين كندا من أستراليا وجنوب إفريقية من قلب لندن عاصمة الامبراطورية ؟

وباللغة توضع المبادىء وتذاع الفكرة وتنتشر الدعاية وتتغلغل الآراء فى ثنايا الأذهان فتمحصها وتفحصها وتنشرها وتطويها وتستوعبها وتهضمها فتفعل الكلمة الواحدة المفهومة من الملايين فعل السحر كما هو مشاهد فى ألمانيا النازية بعد خلاصها من العنصر اليهودى . وقد يكون أثرها أقوى من الحديد والنار . لأن كلمة حرية أو وطن أو استقلال تدفع بالأمم إلى ميادين الحرب وإلى استقبال الموت بفرحة المستشهد السعيد . وعندنا أن للغة العربية اليد الطولى فى تحريك عواطف الأمم العربية نحو فلسطين فى محنتها . فإن القومية العربية تكاد تخفق بقلب واحد فى جميع أركان المعمورة أو من ذا الذى يستطيع أن يستهين بأربعمائة مليون من البشر المتحضرين يتبعون ديناً واحداً ويكتبون أحرفا واحدة وينطقون بلهجة فصحى ، خصوصا وأن البلاد المسكونة بأهل تلك اللغة تكاد تكون متصلة اتصالا جغرافيا تاماً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الدين العربى فمن أقوى عوامل القومية ومقومات الحضارة العربية ، لأنه انطوى على فكرة الوطنية والدولة والتشريع ، وفى الأثر أن النبى قال « حب الوطن من الإيمان » فجعل الوطنية والاستقلال جزءا من الدين . وتجلت أعمال محمد أظهر ما تكون فى تحرير وطنه ومكافحة الدولتين العظيمتين اللتين كانتا سائدتين لعهده (روما وإيران) وأجلى اليهود عن الجزيرة العربية ، وإذن وجب أن يكون الدين فى الحضارة العربية أداة من أدوات التقدم لا الرجعية ولا الجمود لأنه موافق للعقل والمنطق فى سائر ناحياته . وهذه وجهة النظر الوحيدة التى تنظر إلى الدين من ناحيتها هل عامة الشعب متدينون أم مرتابون أم غير متدينين أم غير مكترثين؟ هذا ما لا يحسن بنا التعمق فيه . وقد أميل إلى الظن بأن الإيمان الصحيح المتين والتفكير الدينى الهادىء العميق أمور بعيدة عن نفسية العوام . وأكبر مايعوزهم هو ذلك الروح الجدى والخلق الهادىء العميق الذى يكسبه المرء من الإيمان .

معنى الدين نظرة جدية فى الحياة والغاية منها ، والتفكير فى الناس وفى معاملتهم . ولاتزال الكثرة من الأمة العربية متحمسة للدين . وتعلن تمسكها به بكل ما أوتيت من قوة . فيستطيع الزعماء العقلاء أن يستثمروا هذا التعلق فى خدمة الحضارة والمدنية إذا قرنوا العزة القومية بالإيمان والمعتقد بدون جمود ولا ميل إلى التعصب الممقوت . وقد أظهر المرحومان الأفغانى والأستاذ محمد عبده مهارة فى الانتفاع بهذه الناحية ، فقد كانا زعيمين دينيين وقامت دعوتهما للحرية والحضارة على العاطفة الدينية ، ومقالاتهما فى العروة الوثقى وغيرها تؤيد هذا الرأى .

وفى بلاد أسكوتلاندا تعزى النهضة القومية إلى جون نوكس (١٥٠٥ - ١٥٧٢) وصفوه بأنه لم يخش إنسانا قط وقال كارليل ليس فضله مقصورا على وطنه بل يمتد إلى العالم فقد حرر بلاده على الدين .

وكان محمد أول من توفق إلى بناء الوحدة السياسية على أساس الوحدة الدينية فثبت البرهان التاريخى بفلاح الدولة الإسلامية التى جمعت شتات أجناس مختلفة فى بقاع الأرض .

وقد كان تفرق المذهب هو العقبة الكبرى فى طريق الحركة الوطنية فى إرلندة كما كان تفريق المذهب بين الكاثوليك والمنشقين فى الأمة البولونية أحد الأسباب التى هوت بتلك الأمة .

وقد عرف دعاة الصهيونية الطامعة أهمية الدين فى تكوين القومية الذى هو مقدمة الشخصية الشعبية ، فزعموا أن اليهودية وطن للإسرائيليين وجامعة قومية لا دين ولا نحلة فحسب ، وقد كان هذا المطمع وحده دافعا لفكرة « الوطن القومى » فقام الدين وحده مقام الوطن الطبيعى فى محاولة إيجاده على الرغم من وجود شعب متحضر متمتع بلغة واسعة الانتشار ودين ثابت الأركان فى أنحاء العالم .

وكتب بعض اليهود الإنجليز بعد الحرب يطلبون أن تعتبر لهم فى إنجلترا جنسيتان إحداهما دينية قومية والأخرى وطنية مدنية لأنهم حرموا الوطن السياسى فصار لهم من الدين وطن معنوى ينوب عن معالم الأرض وتخومها ، وثبتت قوة الدين فى إذكاء نار الوطنية حين تصدت طائفة من العلماء الملحدين لقيادة الدعوة الصهيونية وكان على رأسها ماكس نورداو (المتوفى سنة ١٩٢٢ فى إسبانيا) وهذا الرجل كان ملحداً وكان هداما للحضارة الأوروبية الحديثة ولكن إلحاده كان مقصورا على كتبه ليشك أهل النصرانية فى عقائدهم ليمكن لليهود من السيادة العالمية عن طريق التفكك الذى يعرو العناصر الأروبية وهذا ما فطنت إليه ألمانيا النازية فأجلت اليهود عن أراضيها .

وإذا انتقلنا إلى أمثلة أقرب إلى مصر وأحدث عهداً فى الدولة العثمانية نجد أن الوحدة الدينية كانت عاملا لا غنى عنه فى إنشاء القومية ، إذ أن المدارك الأدبية والعقيدة الأساسية عن الإنسان فى هذا العالم وواجباته لجيرانه يجب أن لا تكون من التفرق بحيث يستحيل معها ويصعب التفاهم جدا بين أبناء الأمة الواحدة ، ولهذا كان الخلاف الجوهرى بين نظر المسلم ونظر المسيحى فى الدولة العثمانية حائلا جعل نمو الروح القومى بين أبنائها من الأمور التى لا تحتمل الحصول (راجع كتاب رامزى مور فى الوطنية والقومية ، راجع تاريخ السلطان عبد الحميد للورد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رانسوم) ولكن هذه العقبة زالت بعد الحرب وبعد ظهور الصهيونية ·

ليس الدين عبادات وكفى ولكنه مظهر إجماع أتباعه على طريقة واحدة فى التفكير فى أهم ما يشغل الإنسان فى حياته الحاضرة ومابعدها · فلا توجد رابطة أقوى من هذه الرابطة ولعلها فى الشرق أكبر مصدر لتغذية الروابط الأخرى · وإذا أردنا أن نعرف هل الدين نافع للحضارة العربية أم لا ، فالمحك الذى لا يكذب هو أمل الرفعة ، فإن كان الدين يدع للخاضعين له أملهم فى الرفعة والتسامى والتقدم وتمجيد الوطن والاستقلال فهو نافع ، أما إن كان يحرم الأمة أن تسمو إلى مقام فوق مقامها ويحتم عليها أن تدين لغيرها بالسيادة والتفوق فهو غير نافع · وقد دلت التجارب السالفة على أن الدين قد كان له خير الآثار فى حضارة الأمم ، لأنه كان لها بمثابة المصباح تهتدى به إلى مواقع أقدامها خطوة بعد خطوة فى شعب السراديب وأتياه الظلام (جمع تيه)·

وكانت اللغة العربية الفصحى كالحبل المشدود بين تلك الشُعب يهديها إلى الوجهة فى مفترق كل طريق · فلا تستغنى عن المصباح ولا عن الحبل المشدود بحال· وبالدين وباللغة نياط أشرف أسباب الحياة وهو الأمل فى السمو والارتفاع، وإن الاندماج الناشىء من تبادل الأفكار والقراآت لأقوى من كل معاول الهدم التى يلجأ إليها الأغيار ، لأن فيه تجديدا مستمراً للعلاقات وإحياء ميت الآمال · ثم إن فى كل وطن شيئاً مشتركا نعلمه ونحس به وهو الشعور بفخر واحد وإهانة واحدة تميز كل وطن عن سواه ويأتى هذا الشعور ويتغلغل فى الأفراد من وحدة الدين ووحدة اللغة ومن تراث ثالث ورابطة قوية أخرى هى المنازع الفطرية ·

وكلما اتسعت دائرة علمنا وازدادت خبرتنا بالحياة ظهر لنا أن أصعب ما فيها إنما هو تغيير منزع فطرى ، والحياة بحذافيرها ماهى سوى جملة منازع فطرية تجسمت فى بنية واحدة ·

إذن النزعة الفطرية قوة نفسانية وأثر تاريخى ووحدة وطنية ومظهر حيوى لوحدة الأخلاق والميول فى الأقوال والأفعال ووحدة الملبس والطعام والنوم والصحو

والفرح والحزن والزواج والطلاق ومرآة صادقة لكل ما يتجلى فى حياة الأمم من الصور فى الحقيقة والخيال ، حتى الأمة الغربية لم تخلص من نزعات الجاهلية التى كانت شبه تركة الأمم المأثورة وميراث الشعوب المشتركة وثروة القبيلة وعدة العيلة ومظهر حياة الفرد ولسان الغريزة الناطق وقلب الوجود الآلى النابض ومدى صوت العقل الباطن ·

وغنى عن البيان أن النزعات الفطرية تشمل التقاليد التى تركزت وتقدست بمضى الزمان · وأظهر ما تكون عليه التقاليد من قوة مشاهد فى بلاد الإنجليز الذين يستمدون معظم شؤون حياتهم القومية من تقاليدهم الموروثة والمكتسبة كما ظهر فى حفلات تتويج مليكهم التى لم تتغير من مئات السنين[١] .

روى لنا أحد الثقاة أن دولة أجنبية استولت فى وقت ما على بلاد إيران وكانت تعلم ما لشاهنامة الفردوسى من شأن ، فهى إلياذة إيران ومجمع تقاليدها ورمز مجدها يقدسها الفارسى المسلم بعد القرآن ، فأنفقت مالا كبيرا فى شراء ما استطاعت شراءه من نسخ الشاهنامة ثم أعدمتها محاولة بذلك القضاء على الكتاب الأوحد الذى يذكّر الفارسى بمجد أجداده وأعمال ملوكه ·

فما بالنا باللغة العربية والكتاب العربى والتقاليد العربية وهى أقوى مظاهر حضارتنا قديماً وحديثا ؟·

---

(١) انظر مقال المؤلف « حفلة التتويج » ، صفحة ٥٧٣ – ٥٨٣ من هذا الكتاب ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نصيب الشرق فى نهضة الإنسانية
فى المستقبل
انهيار صرح الحضارة المادية، وانتعاش الحياة الروحية (١)

كان هذا التعبير(٢) يقابل منذ ثلاثين عاما بالابتسام والسخرية ، وقد يرمى صاحبه بالكهانة الآفنة ، ويتهم بالشعوذة والدجل . لأن الإنسانية فى مجموعها قصيرة النظر وبحكم تركيب الفطرة البشرية ضعيفة الإيمان بكل جديد من الأفكار ، لنبوّها عن قبول كل رأى حديث وتمسكها بكل عتيق ولو كان بالياً بائداً ، وقد ثبت فى نفوس الكثرة الغالبة أن صرح الحضارة المادية الحاضرة أعز من أن ينال وأمتن من أن تصيبه معاول الهدم والفناء .

كان ذلك صحيحا فى الظاهر لأن القوة المادية والاختراعات الآلية وسيادة المال على الأذهان ، وابتذال كل ما هو سام وشريف فى سبيل المادة والملذات ، وخضوع القوى المعنوية للقوى المادية المحسوسة ، أقنع الناس بأن دولة المادة والقوة والمال تدوم إلى يوم الساعة ، وأن كل ما ورد فى الكتب عن الفضائل والآداب والعواطف والمعانى الثابتة ليس إلا أساطير وقصصاً ، وغالى بعضهم فزعم أن النظم المعنوية وكل ما له علاقة بالخير والفضيلة والعدل والمساواة والصبر على الشدائد وانتظار الجزاء ليس إلا نظاما محكم التدبير وضعه طلاب السلطة وأنصار الاستبداد مستعينين برجال الدين ورجال الفكر لاستعباد الأمم والجماعات حتى يفوز الأقوياء بالنفوذ فى كل ناحيات الحياة ، حتى إن كاتباً يهودياً قوى الشكيمة ، ماكر الحجة قوى المنطق ، متقن الحبك انبرى لتأييد هذه النظرية الأخيرة فى كتاب ضخم اسمه

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية ، ٨ أغسطس سنة ١٩٣٧ ، المجلد الثالث ، العدد ٦٣، ص ١١ - ١٤ .

(٢) يقصد المؤلف بذلك عنوان المقال .

« الأكاذيب المتواطأ عليها في المدنية الحديثة »[1] وهو ماكس نورداو الذى مات في أثناء الحرب العظمى فى إحدى مدن أسبانيا . وقد ترجم هذا الكتاب إلى كل اللغات الأوروبية وصار شبه إنجيل جديد فى نظر الملحدين والمجددين وأصحاب فكرة الحقيقة الراهنة realists لأن نظرياته تنطوى على جذور الشيوعية .

ولما كانت هذه الفكرة فى ذاتها تنفع المستعمرين وخاطفى الأمم من أجل المطامع الغربية ، وكانت أنظارهم متجهة نحو شعوب الشرق وأقطاره الغنية بالكنوز والثروات والخصوبة ، وكانت خطتهم أن يغزوا الأفكار قبل غزو الأمم ، فقد أبدعوا فكرة اختلاف الأجناس البشرية وتفاضلها واستكمال بعضها عدد الحياة والقدرة على السيطرة دون البعض حتى يكونوا قواماً وأوصياء على الأمم الضعيفة ، فاخترعوا نظرية الجنس الأبيض والآرى والسامى والأصفر والأحمر والأسود إلى آخر الألوان والأشكال .

ويحضرنى هنا رأيان علميان لعالمين عاشا فى مصر خاصين بأصول الأمم، أولهما رأى العالم الألمانى شفانيورث[2] الذى استنبط وسيلة للاهتداء إلى أصول الأمم عن سبيل نباتهم ، فقد زعم هذا الرجل أن المصريين يرجعون إلى الجنس العربى السامى النازح من اليمن ، وحجته فى ذلك تقديسهم الحاضر لشجرة الجميز ولأنواع النبات العطرى (البخور) وكلاهما يزرع فى اليمن .

والثانى سير ويليام ويلكوكس المهندس الشهير ، فقد خطب منذ كان موظفا فى الحكومة المصرية خطبة رنانة جاء فيها « إن العنصر المصرى منحدر من نسل أمه من أشرف الأمم فى العالم » وأنه يرى له مستقبلا زاهراً على الرغم من أنه لا يمت إلى الجنس الأبيض بقرابة ، فوجب عليه أن يعرف ذلك وأن يؤيده بأعماله ، فإنه لا ينقصه فى هذا إلا استقلال الأفكار والثبات على عظائم الأعمال التى تحقق أمانى

---

(١) Convetional Lies of our modern civilization

(٢) كان نباتيا قديما وأقام حينا فى حلوان وله مجموعات نباتية فى الجمعية الجغرافية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمة وأنصارها ومعينيها من الأمم الشرقية الموالية الصديقة ، وأنه لا يجوز للمصريين أن يتأثروا بما ادعوه من أن الجنس الأبيض هو المختار للسيادة وحكم العالم ، وما استشهدوا عليه بأن الأمم الضعيفة إن لم تخضع لسلطان الأجناس القوية فإنها تهلك وتفنى عن آخرها كما حدث لأهل جزر أوشانيا وهنود أمريكا الحمر[١] وجاءوا بأسانيد علمية ولغوية .وكان أول من طرق أبواب هذا البحث عالمان أوروبيان وهما ماكس مولر الألمانى وإرنست رينان الفرنسى ، وليس هنا مجال الإفاضة فى نظريات هذين العالمين ، ويكفى للتدليل على تساهل بعض أدبائنا (ولا نقول غفلتهم) أنهم أقاموا حفلة تكريم وإحياء لذكرى رينان الذى قال عن الجنس السامى ما قال من المعايب والنقائص فى أخلاقه وآدابه !!

وتبعهم ثالث سكسونى الأصل ألمانى النشأة وهو هوستون شامبرلين[٢] فألف كتاب « أسس القرن التاسع عشر » وقد حمل فيه على كل الشعوب القديمة والحديثة ماعدا الجنس التيوتونى وقال إنه هو الجنس الأفضل والأذكى والأشجع والأحكم والأقدر على سيادة العالم ، وقد استقرت هذه الفكرة فى رأس زعماء ألمانيا الحديثة ولا سيما غليوم هوهنزولرن (صاحب الجلالة الامبراطورية سابقاً) فكانت من أهم أسباب استعداده للحرب لاكتساح أوربا والقضاء على السكسون والبقية الباقية من اللاتين والسلافيين ، ولو اقتضى ذلك تحالفه والترك والعرب والمصريين ، ولكن هذه النظرية لم تؤيد وتلك الآمال لم تتحقق .

وكان عالم ألمانى آخر يعمل فى هدوء وثبات ليخرج للعالم نظرية جديدة مدعمة بأدلة العلم والاجتماع والسياسية والاقتصاد مؤيدة بالإحصاء والتعداد ومنطق الأرقام الذى لا يخطىء، هذا العالم هو « أوزفالد شبنجلر » صاحب كتاب « انهيار

---

(١) مع أنهم هم الذين أفنوهم بالخمر ورصاص البنادق .

(٢) هوستون شمبرلين لايمتّ لأسرة شامبرلين السياسية المعروفة بإنجلترا وهو ابن أمير بحرى بريطانى هاجر منذ نعومة أظفاره وأقام فى ألمانيا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صرح الحضارة الأوربية » وهو كتاب ضخم في أكثر من ثلاثة آلاف صفحة . وقد نقل من الألمانية إلى الإنجليزية ولم يتم نقله الى الفرنسية فيما نعلم . وإن كان البلاشفة الروس قد نقلوه إلى لغتهم ليأخذوا منه دليلا على فساد الحضارة الرأسمالية وأن بيدهم وحدهم إنهاض الإنسانية تبعا لمذهبهم وخططهم فى العمران ، لأن كتّاب روسيا البلشفية لا يعتقدون أن الإنسانية تفنى عن آخرها لتبعث يوم القيامة ، ولكن يعتقدون أن لكل أمة قيامتها تقوم عند ما تتلاشى قواها وتنحل بالتدريج بعد القوة والسلطان ، ويضربون لذلك أمثال الحضارة اليونانية والرومانية (كتاب جيبون، تدهور وانحلال الرومان) ومونتسكيو (روح الشرائع) وفوستان دى كولانج (المدنية العتيقة)[١]. وقد صح فى زماننا الحاضر انهيار دول كانت قوية (الدولة العثمانية) والقيصرية الروسية ، كما انهارت معظم الدول الإسلامية فى بغداد والأندلس ومصر واليابان القديمة (قبل زيارة الأسطول الأمريكى بقيادة الأميرال بيرى) ودول الهند البرهمية والبوذية والإسلامية . وكانت أوربا بالمرصاد لكل من هذه الدول لتستولى عليها بالحرب أو بالحيلة ولم يفلت من أظفارها الناشبة إلا سيام وكوريا (التى التهمتها اليابان تطبيقاً لمبدأ حسن الجوار على النمط الحديث !) .

وفى أثناء هذه العواصف التى اجتاحت الشرق كان بضعة رجال متمسكين بأهداب الأمل ومستنيرين بشعاع ضئيل من نور الحكمة الإلهية فقالوا وكتبوا وخطبوا بأن الحضارة المادية آيلة إلى الزوال وأن يوم الشرق مقبل لاشك فيه وأن الظواهر خادعة ، ولابد أن تختلف دول الغرب فيما بينها على الأسلاب فتتقاتل وتتطاحن حتى تزول وتعود كالعرجون القديم . وفى مقدمة هؤلاء الرجال المرحومون الأفغانى والكواكبى ومحمد عبده ومهاتما تيلاك ولذا فإنهم وقفوا أعمارهم الغالية على العمل لتحقيق هذه الأحلام العليا[٢].

---

(١) هذه الكتب الثلاثة اتبع مؤلفوها طريقة البحث التحليلى والدرس التعليلى فى أسباب انهيار المدنيات الأوروبية القديمة .

(٢) لم يحاول أحد من الكتاب تحليل سقوط الدولة الإسلامية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد قضى بعضهم نحبه وهو لم ير فجر هذه النهضة لأنهم لم يدركوا الحرب العظمى وما تلاها من الويلات التى هى فى خير الشرق ، فنهضت اليابان والهند وفارس والعراق ومصر وسوريا وأفغانستان وبعض بلاد أفريقيا الشمالية (تونس والجزائر) ، وهذه بلاد كانت أوروبا (وكثير من أهل البلاد أنفسهم) تعتقد أن قيامتها قد قامت ولن تبعث أبداً ولن تعود مطلقاً إلى سجل الحياة .

ومهما تكن نتائج الحرب العظمى ومهما يكن الذين أشعلوا نارها وأثاروا نقعها كاذبين فيما ادعوه عند تورطهم (أنهم سينصفون الأمم المغلوبة من ظالميها) ، فقد تحققت وعودهم بالرغم من أنوفهم ، فإنهم وإن أعانوا على هلاك بعض الدول الشرقية فقد حلت محلها بضع دول فى مجموعها أقوى من الدول الذاهبة لو أنها خرجت من الحرب ظافرة ، على رأسها العراق والحجاز واليمن وسوريا وجمهورية تركيا الحديثة فى آسيا وأوروبا وبلاد العرب ، وانقسمت أوروبا على نفسها وتمزقت أعضاء امبراطورية النمسا (وهى بقية الدولة الرومانية الغربية) واستقلت بولونيا وفنلندا ، وخرجت روسيا من وصاية أوروبا وأعلنت عليها حربا شعواء لأنها تريد أن تقضى على حضارتها الرأسمالية .

وإذن تكون أوروبا قد خرجت من حرب الأربعة عشر بعد التسعمائة والألف أضعف مما دخلتها حاملة فى أحشائها أجنة من المتاعب والمشاكل والحروب سوف تقضى كما قال « أوزفالد شبنجلر » على حضارتها التى هى بمثابة عملاق يترنح alottering giant بفعل الخمر والمرض والفاقة ، ومن أكبر الدول الشرقية التى تستعيد حياتها الهند ، فقد قرر أخيرا حزب المؤتمر الوطنى الهندى الاشتراك بنصيب فعلى فى إدارة شؤون الهند وهو حدث من أعظم الأحداث فى تاريخ نهضة الشرق ويرجع معظم الفضل فيه إلى قوة شخصية غاندى التى لايكاد يصدقها عقل ، وسوف يستطيع الهنود الآن أن يظهروا مزايا الحكومة الديمقراطية فى إحدى عشرة نقطة مختلفة على الرغم من أن دستور الهند الجديد بعيد عن الكمال لانطوائه على أخطاء مقصودة كان يمكن تجنبها ، وأهمها سلطة الإلغاء التى يتسلح بها حكام

الولايات Droit de Veto ،.ولكن قليلا من التفكير العملى سوف يتغلب على هذه الصعوبة التى وضعها مشترع الدستور بمثابة الشوكة الغليظة فى حلق البرلمانات الهندية . فإن الحيلة القانونية والتفسير الملائم ولين العريكة تارة والصلابة طوراً سوف تفوز فى النهاية على مكر البيون الشهير .

فإذا ألقينا نظرة فى سنة ١٩٣٧ أى بعد مضى حوالى ربع قرن من تاريخ الحرب العظمى على العالم وجدنا أمرين مدهشين يؤيدان قولنا ، الأول اختفاء الديمقراطية فى إيطاليا وألمانيا . وفى إنجلترا أطلت الرجعية برأسها وسببت إبعاد إدوارد الثامن[١] .

أما فى أسبانيا فلا يزال مصيرها معلقا فى يد القدر ، فنصف أوروبا واقع تحت يد الرجعية الحديدية التى تخلع فى كثير من الأحوال قفاز المخمل الذى تخفى وراءه أظافرها الفولاذية (سقوط وزارة ليون بلوم) ، وإن هذه الرجعية إثمها أكثر من نفعها على الأمم الخاضعة لها ، فإيطاليا نظمت شؤونها الداخلية ولكنها خالفت شروط الإنسانية والقانون الدولى فى اغتصاب الحبشة وقد حمل زعيمها الدوتشى حملة شعواء على جمعية الأمم وهى البقية الباقية من تركة المأسوف عليه وودرو ويلسون (راجع مقالا للدوتشى فى جورنال إيطاليا ٢٤ يوليو سنة ١٩٣٧) .

أما فى ألمانيا فإن الرجعية النازية استطاعت حيال ضعف أوروبا وعجزها أن تمحو معاهدة فرساى من سجل السياسة الدولية . فهذه حسنة سياسية عادت على الشعب الألمانى وحده ، ولكن محو هذه المعاهدة لم يمنع أوروبا من التسلح الجنونى والاستعداد للحرب من جديد ولكنها أى حرب ؟ حرب فناء بلا ريب .

الثانى - الشرق كله يتقدم نحو الديموقراطية فى فارس وتركيا والعراق وأفغانستان وسوريا ومصر والهند .

---

(١) انظر عن تنازل الملك إدوارد الثامن عن العرش ، بحث المؤلف المعنون « توديع رجل عظيم كان ملكاً » ، صفحة ٥٨٤ - ٥٨٨ من هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذه الدول تسير سيراً حثيثاً نحو الحرية والمساواة ، وإذن يكون دور نهوض الشرق قد حل على الرغم من أوروبا التى تسير نحو الرجعية والانحلال • لأن الفاشية والنازية نظامان يشعران بالعجز ، فالعالم كان يسير بطبيعته نحو الانطلاق من القيود والتحرر من السلاسل التى كبلته بها المنافع المادية والمعتقدات التى تلابس الأديان وليست منها فى شىء والسلطات المصطنعة التى يتحكم بها الأفراد فى أعناق الشعوب ويستغلونها لمصلحتهم ولو إلى حين • وكل ما كان معاديا أو معانداً ومعرقلا للسير فى طريق الحرية فهو بطبيعة المنطق والحق والتاريخ معطل لسير الإنسانية ومعاكس لها • وإذن يمكن التفاؤل بأن ديموقراطية الشرق سوف تنقذ شعوبه وتنهضها وتقيل عثرتها وقد تنقذ ديموقراطية أوروبا من الخطر •

ولكن الخبيرين بأحوال الشرق والغرب والمخلصين للشرق والأمم المتحالفة ينصحون لنا بأن لا نتعجل وأن لا نغتر فإن العجلة والغرور من أدوات الهلاك وأن نزن خطواتنا على قدر قوتنا ، وأن ننزع من رؤوسنا الاعتقاد بهلاك تلك الشعوب ذات الحضارة العريقة بين عشية وضحاها فإنها لاتزال قوية وقادرة على النضال ، وطائلة اليد فى السلم والحرب ، وأن أقصى ما يمكن أن توصف به فى حالتها الحاضرة ، أنها فى حالة سبات أو إنهاك ، لا فى حالة ضعف أو هلاك ، فإن دولا أخرى بدت عليها علامات الضعف ولكن قوتها الكامنة وتشبثها بالحياة واحتفاظها بكرامتها نفخت فيها روحا جديداً وبأساً وبطشاً لم يكونا لها من قبل ، فالذى يفتى بالفناء يجهل شروط الحياة فى الأمم ، ولعل الوقت الذى يقتضيه إصلاح شؤوننا واستعدادنا للنهوض ، أطول مما يحتاج إليه الدهر فى طور الانحلال والاضمحلال لتلك الحضارة الضخمة ، والعقل يقتضى أن نتجه نحو صلاحيتنا ، لا أن نترقب هلاك الآخرين ، فإن الذى يترقب هلاك الآخرين ويبنى آماله على انتهاب تراث الموتى قد يهلك قبل أن يرى نهاية غيره •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب الإسلام فى العالم
باللغة الإنجليزية تأليف الدكتور زكى على [1]

لم يضع كاتب حديث ولا قديم بلغة غير لغته كتابا على النمط العالى كما صنع الدكتور زكى على نزيل جنيف وخادم العلم والوطن والملة . وإذا كان هذا الرجل الفذ لايزال فى منتصف العقد الرابع ، كما علمنا من بعض عارفيه الثقاة ، فلا يعلم إلا الله ما يصل إليه بعد عشرين عاما من الدرس والتنقيب والتأليف . فهو يمتاز قبل كل شيء بالصدق والأمانة فى النقل كما يظهر ذلك جليا فى الفصلين اللذين عقدهما لحضارة الإسلام ولتوسع الإسلام أو امتداد نفوذه Expansion of Islam ، ويمتاز بخلة ثانية نفيسة وهى قدرته على سرعة الإلمام بحقائق العلم ووقائع التاريخ وسهولة اهتضامها وصياغتها فى أفضل قالب وأبلغه وأوضحه . وقد سبق له أن كتب عن الطب فى الإسلام وذكر من نبغوا من أطباء العرب فى مصر والشام والعراق والأندلس وعواصمها القاهرة ودمشق وبغداد وقرطبة وطليطلة ، ولم تكن مراجع الطبيب المؤلف مقصورة على ما كتبه العرب أمثال ابن أبى أصيبعة والقفطى (جمال الدين) فى معاجم العلماء (عيون الأنباء إلخ) ، ولكنه رجع إلى مدونات مخطوطة ومحفوظة فى مكاتب أكسفورد وباريس ومارسيليا ومدريد وسالرنو وفيرنزه وغيرها من مراكز الحضارة التى أفادت من علوم العرب فى القرون الوسطى، وذكر أن كثيرين من علماء أوروبا سواء فى إنجلترا أو فى إيطاليا وفرنسا تركوا أوطانهم وهاجروا إلى الأندلس ليتعلموا اللغة العربية ويحذقوا علوم العرب التى كانت شائعة كالطب والرياضيات والكيميا واللوغارثيم (وأصل اسمه نسبة إلى الخوارزمى) . ولم يهمل الاستقاء من مصادر قديمة محترمة مثل لوپس فياردوت وكوسان دى پرسيفال وسدليو .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية ، العدد ١٠١، فى ٢٥/٥/١٩٣٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فمن العلماء الإفرنج الذين نزحوا إلى بلاد الأندلس ليتعلموا على العرب بتروس ألفونسى (١٠٦٢) فتخرج فى الطب على أيدى العرب وعاد إلى إنجلترا فعينه الملك هنرى الأول طبيبا له ثم تلاه أديلارد الحمامى (نسبة إلى مدينة Bath فى إنجلترا التى يعيش فيها النجاشى هيلاسلاسى الآن) ثم هاجر من إنجلترا إلى قرطبة ميخائيل سكوت وروجر باكون (من ١١٧٥ - ١٢٣٢ ومن ١٢١٤ - ١٢٩٤) وهما من أكبر علماء الغرب والفضل فى علمهما راجع إلى العرب الذين علموهما فى مدارس الأندلس ، فتخرج سكوت فى جوامع طليطلة فى الفلسفة العربية والطب والرياضيات والطبيعة والفلك ، أما روجر باكون فصار عالما كونيا كحملة دوائر المعارف وله شهرة عامة . ثم تلاهما روبرت أوف إنجلاند (١١٤٣) أول من نقل القرآن من العربى إلى الإنجليزى ، ودنيال مورلى وألبرت ماجنوس وفنسنت بوفيه وقد عولا فى كتبهما على مؤلفات جابر بن حيان .

وأغرب طالب أوروبى ورد سجلات المعاهد العلمية العربية فى الأندلس جيربرت أوف أورليلاك (٩٣٠ - ١٠٠٣) وقد صار فيما بعد رئيس العالم المسيحى لأنه انتخب بابا باسم سيلفستر الثانى سنة ٩٩٩ ، فقد سافر هذا الرجل من القاهرة واخترق جبال البيرنيه إلى طليطلة ليحصل من مدارس العرب على العلوم التى كانت مفقودة فى أوربا القوطية . فارتشف من تلك المناهل ما شاء له الشوق والقدرة على التحصيل ثم عاد إلى وطنه فرنسا فنشر فيها ما كسبه من علوم العرب فى الطب والعلوم Science وألقى دروساً بنجاح عظيم فى مدينة Rheims (رايمس التى دمرت فى الحرب) وقد قيل عنه بحق إنه بفضل ما حصل من علوم العرب هيأ نهضة إحياء العلوم فى القرن الحادى عشر فى الدين والأدب والعلم ، فنقل العلم العربى من الأندلس إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا عندما صار بابا وزعيما للكنيسة الكاثوليكية ، وهو الذى نقل إلى أوروبا عن العرب الأرقام الحسابية المعروفة إلى الآن باسم الأرقام الغربية وهى ١ - ٢ - ٣ - ٤ إلى ٩ .

وفى سنة ١١٣٠ أسست أكاديمية الترجمة فى طليطلة لنقل العلوم العربية إلى

اللغات الإفرنجية ومن دعائمها الأسقف رايموند ٠ وكانت اللاتينية هى أهم اللغات التى نقلت إليها تلك العلوم ٠ فكان نجاح الترجمة عظيما جداً حتى قيل إن عالما جديداً فتح فى وجه الغرب ، وأشهر المترجمين جيرار دى كريمونا (١١١٤ - ١١٨٧) فقد نقل ٧١ كتاباً فى الطب والرياضة والفلك والكيميا والطبيعة والفلسفة وطبقات الأرض ٠

وأول جامعة أوروبية أسست فى القرن الثالث عشر أنشئت فى سالرنو Salernn حيث كانت كلية الطب العربية فهى إذن نواة الجامعات الأوروبية ، ويوجد فى كلية باريس عن سنة ١٣٩٥ قائمة بأسماء اثنى عشر مؤلفاً عربياً فى الطب ٠ ولما كان لويس الخامس عشر شديد الحرص على صحته ، فقد طلب أن تكون فى مكتبته مؤلفات الرازى ولم يكن منها سوى نسخة واحدة مخطوطة فاستعارها من كلية باريس بضمان قوى ليتمكن أطباؤه من الرجوع إليها كلما أصابه مرض ، وترجع شهرة مونبلييه إلى أن مكتبتها كانت تحوى أعظم مجموعة من المؤلفات العربية ففاقت بذلك مكاتب العواصم حتى باريس نفسها ٠

إن الدكتور زكى على مؤلف كتاب الإسلام فى العالم ، لم يرم إلى تمجيد الإسلام وحسب ، بل رمى إلى حل مشاكله المعاصرة ٠ فقد شرح النضال الحامى بين الغرب والشرق فى فصل ممتع ألم فيه بكل ما يهم العرب أن يعرفوه عن تاريخ النزاع بينهم وبين أوربا المجتاحة الغاصبة ، وفى الحق إن هذا النضال من أغرب حوادث التاريخ الحديث ٠ فإن آسيا وإفريقية إذا صح التشبيه تزاوجا وأنتجا فتاة طائشة قاسية هى أوروبا ، تلك القارة الغشوم الطامعة التى قابلت والديها بنكران الجميل والجحود المطلق ٠ فهذه آسيا قد قدمت للعالم سلسلة من الحضارات العريقة فى المجد والقدم كالحضارة الأكادية والشمرية والبابلية والأشورية واليمنية والهندية والصينية ، كما قدمت للإنسانية جميع الأديان المشهورة كالبوذية والبرهمية واليهودية والنصرانية والإسلام ٠ وأبرزت آسيا العلوم والفنون والآداب ، وأنبتت الشعوب القوية المثقفة ، واللغات البليغة الفنية ، وفيها نشأت الشعوب الآرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(كالفرس والهنود) ، وفى إفريقية قامت حضارة بذّت سائر الحضارات وديانة حيرت عقول العلماء وهى الحضارة المصرية والمعتقدات الفرعونية ، وفى تلك الهياكل الضخمة ذات الأعمدة التى لا يرتد البصر عنها إلا وهو كليل وحسير ، وحيث كان الكهنة يحتفظون بأسرار الخليقة ويطالعون علومهم فى كواغد ملفوفة من البردى ، فى هذه الهياكل فى هليوبوليس وصان الحجر ودام - ن - هور وطيبة ، ورد إبراهيم الخليل ، وموسى ويوسف وأيوب وعيسى بن مريم . ولم يظهر نبى لم يقض فترة فى وادى النيل ماعدا محمداً بن عبد الله . وقد كانت لكل منهم مكانة وأثر فى الدولة . ولم تظهر رسالتهم إلا بعد خروجهم من وادى النيل، ماعدا يوسف الذى جلب قومه إلى وادى النيل . فهذه إفريقية وفضلها على العالم وهى التى اجتاحتها أوروبا ووصفتها بأنها القارة السوداء واقتسمتها فيما بينها كالغنيمة الباردة من أوائل القرن الماضى إلى منتصف هذا القرن .

وكان أعظم الكيد والغيظ والغل والحقد الذى يغل فى صدور أوربا هو ما أفرغته ضد العرب والإسلام منذ الحروب الصليبية إلى وقتنا هذا . ولم تنج الوثنية من أيديهم فى آسيا . وقد ساعدهم ما اعتقدوه فى البوذيين والبراهمة وأتباع كنفز من البساطة وسلامة النية . هذا كان جزاء آسيا وإفريقية من بنتهما أوروبا « الشقراء » اللعوب التى ورثت العلم وطبقته شر تطبيق ، لجلب الدمار والهلاك والفوضى باسم الحضارة . هذا هو الأثر الذى يبقى فى ذهن المؤرخ الذى يتتبع سير الحوادث فى القرنين الماضيين ، وهذا ما يحاول المؤلفون المنصفون فى الغرب والمتنورن فى الشرق أن يثبتوه ويظهروه للشعوب المخنوقة الجاهلة على ضفاف الأنهار وشواطىء البحار وفى بطون الوديان لعل أصوات النذر تصل إليهم وتنبههم وتيقظهم .

و إننا نثنى على الدكتور زكى على مؤلف كتاب الإسلام فى العالم لأنه أضاف إلى الأدب العالمى والبحث التاريخى ثروة جديدة بهذا الكتاب النادر الثمين ونحث كل ملم بالإنجليزية أن يقتنيه ويدرسه ويحتفظ به [١].

(١) Islam in the World , Dr Zaki Ali, Genva eaux vive.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تطورات العصر الحديث فى الخلق السياسى [1]

نشرت مجلة أوربا التى يشرف على تحريرها الأستاذ رومان رولان أشهر كتاب فرنسا المقيم فى بلده نيوفيل على شاطىء بحيرة ليمان بسويسرا ، دراسة مستوفاة عن حوادث السياسة التى استجدت فى أوربا بعد ظهور الفاشية والنازية ، وألم فيها ببحث جليل عن حياة هتلر وموسولينى بقلم كاتبة أسواره سنيوريتا ليندا ريتالدى وهى التى خدمته بضع سنين ، فآثرنا تلخيصها لمجلة الرسالة التى يعد دخولها فى عاملها السابع فتحا جديدا فى العلم والأدب والثقافة العصرية . (ل . ج)

***

فى تاريخ الأمم وأخلاقها ساعات حاسمة ومواقع فاصلة فتتميز عن الأخرى وتفضلها بالطريقة التى تقابل بها صروف الدهر فى تلك الساعات وهاتيك المواقع . ومثلها فى ذلك مثل الأفراد لدى الملمات والشدائد ، فترى أمة يهولها الاعتداء الأجنبى عليها ويفتّ فى عضدها ويضعف من نخوتها وينهك من إرادتها ، ومانزال تنحط وتتهالك وتنحل عناصرها حتى تتوارى وتهلك . وهذه عاجزة عن الكفاح فى سبيل الوجود وهى أمة كتب عليها الفناء . ولا فرق فى ذلك بين أمة قديمة وأخرى حديثة ، عريقة أو طارئة ، متدينة بدين منزل أو وثنية ، شرقية كانت أو غربية . وهناك أمة تزداد قوة كلما تعرضت للآلام ، وتنمو فيها الفضائل الدفاعية والهجومية كلما اعتدى عليها الأغيار أو قبض على خناقها الغرباء والغرماء ... تتيقظ فيها فكرة المجد كلما حاقت بها الأخطار ، وتدب فيها حيوية جديدة كلما حاول عدوها إدناءها من الموت ، وتسرى فى أعضائها دماء جديدة وتجرى فى أعوادها أمواه الحياة .

لانريد أن نعرض للنظامين النازى والفاشى بخير أو بشر ، لأننا لا نريد أن

---

(1) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة الرسالة ، العدد ٢٨٩ فى ١٩٣٩/١/١٦ .

ننزل بهذا البحث إلى مستوى الجدل ، فإننا نحب أبدا أن نحلّق فوق الحوادث الراهنة [١] وإن كنا نحترم السياسة ونقدرها ، ولكننا نعلم أنها كثيرة المزالق ، ومواطن التحليل فيها تدنى من الخطأ الذى قد لايغتفر .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن النظام الفاشى الذى ابتكره السنيور بنيتو موسولينى المعروف فى العالم باسم دوتشى أى الزعيم ، اتبع آثاره هير أدولف هيتلر المعروف فى العالم بالفوهرر أى الزعيم أيضا ، وقد أثبت وجوده وقدرته على الحياة فقدم بذلك البرهان التاريخى الذى لابقاء لنظام اجتماعى أو سياسى بدونه ، كما قدمت حكومة السوفيت برهانها منذ سنة ١٩١٧ إلى يومنا هذا . وفوق هذا قد أثبت هذا النظام والقائمون به أنه أدى لوطنهم خدمة جلى وقضى على شرور كثيرة وجلب خيرا وفيرا ودل بذلك على أنه النظام الصالح للوطن الإيطالى ، نظام المستبد المحب للخير ، وقد أثنى عليه كل من شهده وجنى شيئا من ثماره داخل إيطاليا ، وقد قلب إيطاليا رأسا على عقب ، وقال بعض محبذيه إنه جعل من بلادهم جنة على الأرض ، وأن الذين زاروا إيطاليا قبل تفشيه يكادون لا يتعرفونها بعد انتشاره وقيامه وتسلطه ، لأنه صبغ كل شيء بصبغته التى أساسها النظام المطلق والأمن المطلق والأمانة المطلقة ، ولكن هذا النظام العجيب الذى وحّد كلمة الأمة وجعلها كرجل واحد وأخضعها لرجل واحد وعلق سائر آمالها برجل واحد ، قد حكم عليه ذووه بأنه نظام قومى ، حتى خطب الدوتشى نفسه فقال « إن الفاشية بضاعة للتصدير لا تصلح ، ولا تضمن أرباحها خارج حدود إيطاليا » ولا نعلم إن كان قال هذا القول تواضعا أو حثا للأمم على الاقتداء به ، ولكن وجب علينا أن نصدقه لأن رب الدار أدرى بما فيها .

وإن كان هذا النظام قد انتحله هيتلر بتحوير كبير وطبقه فى بلاده حتى بذ التلميذ أستاذه . ولم نسمع بصاحب مذهب سياسى أو اجتماعى قبل الدوتشى

---

(١) يشير إلى كتاب فوق نطاق المعركة الذى ألفه أيام الحرب الكبرى .

يحجر على مذهبه ويحرم عليه الخروج من كسر بيته ، بل تعود أصحاب المذاهب أن ينسبوا إليها الصلاحية المطلقة والقدرة والنجاح فى كل زمان ومكان ، وإذن لابد أن يكون سنيور موسولينى قد ذكر هذا الرأى عن مذهبه لحكمة خفيت عن ساميعها فى حينه . وإلا فكيف كان اغتباطه بالنازية واتحادهما وابتكارهما محور برلين روما ، ثم تشجيع فرانكو فى وطنه حتى ذاق الأسبان بأس بعض وخربت بلادهم حتى صارت يبابا باسم مناصرة الفكرة الفاشية النازية ؟. وأظن بعض الناقدين ألمعوا فى كتبهم فقالوا إنه نظام يعلق الأمة بأهداب رجل بعينه ، فإن شاخ أو مرض أو مات تعطلت الإدارة الحكومية وتلكأت فى انتظار ظهور خير خلف لخير سلف ، فى حين أن الواجب يقضى بأن تكون القوانين العامة والخاصة هى الأداة الصالحة للحكم بدون اعتبار الأشخاص .

ومهما يكن حكم المستقبل على الفاشية فإن الكثرة من الكتاب الموالين لها أجمعت على نفعها فى مسقط رأسها وخالفها القلة المدركة من خصومها . ومنهم من أوذى وهاجر باختياره أو نفى مرغما ، ومنهم من ألف كتبا صوّب فيها سهام نقده إلى الفاشية ، وإن يكن فى المظاهر ما يوهم بأن النازية الألمانية تقليد للفاشية الإيطالية فلا يصح القول بأن الهتلرية نوع من الفاشية أو تقليد لها ، وإن كانت تشبهها فى تفرد رجل واحد بالسلطة . ولكن الذى يفرق بينهما هو أن الأولى قامت باسم الإصلاح الداخلى ونصرة ذوى رؤوس الأموال ومقاومة الاشتراكية ومطاردة العمال الذين احتلوا المصانع الإيطالية فى سنة ١٩٢٢ وقدم زعيمها فروض طاعته للملك وجامل الكنيسة الكاثوليكية وانضوى تحت لوائها . أما النازية الهتلرية فاشتراكية وطنية دينها عظمة دويتشلاند ومجدها فى غلبة الرايخ الثالث ، وقامت باسم حماية الوطن من الاعتداء الأجنبى والخلاص من قيود معاهدة فرساى وتنفيذ خطط بسمارك القديمة ، من التوسع فى أوربا والشرق وتحطيم الشيوعية . وإذن قامت الهتلرية لتكون وسيلة لها غاية تخالف غاية الفاشية . دع عنك الاختلاف فى أخلاق الأمتين وتاريخهما وعناصر حياتهما . وكلتاهما قد هضمت حقوق الفرد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجعلت الدولة هدفا أسمى وإن كان فى ذلك تأخير « المواطن » والتضحية به ، مما يختلف عن المدى الذى وصلت إليه الحضارة الحديثة فى تفكيرها وسياستها ومجموع مبادئها ، ولا سيما عند الشعوب الأنجلو سكسونية والتيوتونية .

وإذن لاتكون الهتلرية وليدة الفاشية ولا شقيقتها الصغرى ، لأن الهتلرية ثمرة التاريخ الحربى والسياسى فى ألمانيا ، وخلاصة نوع من الفلسفة الروحية أو التصوف السياسى منشأه مجامع ميونيخ السرية التى بدأت أثناء الحرب . أما الفاشية ففكرة مبتكرة قامت فى ذهن رجل واحد نتيجة لإدمانه قراءة كتابين : « وعود الزواج» لما تزونى [1] وكتاب الأمير لنيكولا ماكيافيلى .

وقد صدق حسبانه أنه يصلح شعبه بتنفيذها ووجد معونة كبرى من الأسرة المالكة ومن أصحاب المصانع والكنيسة ، وتشجيعها من الشباب الطامحين إلى الحلول محل كهول السواس وشيوخهم ، وكانوا إذ ذاك متلهفين على القوت والمجد ، وكان بعضهم يرقبون المنقذ المنتظر يظهر فجأة فى أفق الوطن وكان إذ ذاك خاليا فى تلك الفترة من العظماء القادرين على حمل أعباء الزعامة . فوقع اختيار الحظ على موسولينى .

كان بنيتو موسولينى فى أول أمره صحفيا اشتراكيا متطرفا ، يحرر فى مجلة «أفانتى » أى إلى الأمام ، لسان حال الحزب الاشتراكى وزعيمه فيرو أحد أساتذة الجامعة . ولما أعلنت الحرب ساهم فى أوائلها ، ثم لم ترقه فهاجر إلى سويسرا حيث ذاق مرارة الفاقة والتسكع ، وعاد إلى وطنه يجرر أذيال الخيبة فحدث له ما حدث لإسكندر كيرنسكى فى بطرسبرج سنة ١٩١٧ . غير أن الفرق بينهما أنه استمر ونجح حيث تردد كيرنسكى فخاب . فهو ابن ثورة اقتصادية قلب ظهر المجن لحزبه فى اللحظة الأخيرة .

ولا يفوتنا أن أوربا أصبحت بعد الحرب مباشرة نهبا بين الديكتاتوريين فظهر

---

(١) لايزال الدوتشى يحتفل كل عام بموعد ظهور هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من طرازهم بريمو دى رفيرا فى أسبانيا ، ويانجالوس فى اليونان ، وبلودوسكى فى بولونيا ، وتحدثوا عن ديكتاتورية مزمعة فى فرنسا ورشحوا لها أنديه تارديو الذى كان رئيس وزارتها . ففى ظلال هذه الديكتاتوريات وفى مثار النقع الذى طاف بالأجواء قامت الفاشية وأضافت إلى قميصها الأسود درع الديكتاتورية الفولاذى .

وتضافرت بعض الظروف التى لم تكن فى الحسبان وهى نتيجة الحالة السياسية العامة فى أوربا فجعلت لإيطاليا وألمانيا مكانة توشك أن تضع فى يدها ميزان السياسة الدولية ، ولا سيما بعد فوزهما الأخير . وتراخت إنجلترا وفرنسا فى تأييد نفوذهما لانشغالهما بالمسائل الداخلية . وجدّت فى الشرق حرب الصين وتفوق اليابان فانضمت إليها ألمانيا نكاية فى روسيا . ورجعت أوربا فى غير وعى إلى سياسة الاتفاقات السرية . ولعل التناطح بين الشعوب ليس إلا تطاولا بين الزعماء ومظهرا لقوة إرادتهم ودليلا على رغبتهم فى الفوز والانتصار على مزاحميهم فى ميادين المجد وعلو الصيت وضخامة الشهرة .

ولدى كل أمة من الأمم مؤثرات وعوامل فكرية تؤثر فى نفوس بنيها ولاتكون الزعامة الصحيحة إلا لمن يعرف استعمال هذه المؤثرات والعوامل التى تتحكم فى النفوس ، فإذا ما اهتدى الزعيم أو المرشح للزعامة إلى تلك العوامل تمكن بسهولة من جمع الأفكار وتوحيد الإرادات الفردية حول فكرته الخاصة وإرادته . وهيهات أن ينجح الزعيم ما لم يكن مفتونا بالفكرة التى صار داعيا إليها حتى تستولى عليه استيلاء لا يرى معه إلا الفكرة التى ينادى بها ، وبدون هذا الاستيلاء لا يمكنه أن ينجح فى التأثير فى أذهان الجماهير ، لأنه لا شىء يحرك همتها مثل مظهر الإيمان الذى يبدو على شخص الزعيم . وإن يكن بعض الزعماء أو قادة الفكر ليسوا من النوابغ فى صدق الآراء وصحة النظر ، إلا أنهم من أهل الهمة وذوى الإقدام .

والفرق بين الفيلسوف والزعيم أن الفيلسوف كثير التأمل ، والتأمل يؤدى إلى الشك والشك ينتهى بصاحبه إلى السكون دون الحركة ، أما الزعيم فلا يتأمل لأنه يشك وحينئذ لا يركن إلى السكون ، وإذن تكون قوة الإرادة للزعيم أنفع من سلامة

الرأى وصدق النظر وحسن التبصر فى العواقب ، وإذن الذى يفقده الزعماء من تلك الناحية تعوضهم عنه قوة اعتقادهم فى سلطاتهم على المجموع وتلك الجموع لا تصغى إلا لذوى الإرادة النافذة الذين يتسلط عليهم العقل الباطن ويملك زمامهم . فإذا ما أصبح صوت الزعيم مسموعا من جماعة ، اندمجت إرادتها فى إرادة الزعيم وتناست شخصيتها والتفت حول الزعيم ذى الإرادة المتحدة .

يسألون عن الطغيان والجبروت والاستبداد كيف نمت فى البيئات الدكتاتورية والزعامة فى أول أمرها لا تحتاج إلى الاستبداد أو الطغيان ، والمشاهد أن الذين قاموا بأدوار الطغاة أفراد من المؤمنين الضعفاء الذين ليس لهم حول ولا طول سوى العقيدة والإيمان . فإذا ما وصل الزعيم إلى غايته احتاج حتما إلى الاستبداد ليستبقيها .

ويعتمد الزعماء من هذا الطراز فى تبليغ دعوتهم على الكلام والخطابة والكتابة، وزعماء العالم اشتهروا بالفصاحة وقوة التأثير فى الجماهير وعمدتهم على تكرار جوامع الكلم لترسخ فى أذهان سامعيها .

وإذا رجعنا إلى خطب زعماء الفاشية والنازية فلا نجد إلا نفس المعانى أفرغت فى قوالب شتى لعلمهم بغريزتهم وإدراكهم الباطنى أن التكرار يترك أثرا عميقا فى أذهان الخاصة والعامة على السواء . فالزعيم حاذق فى حفر فكرته فى أذهان أتباعه .

وتبدأ الأفكار فى الطبقات النازلة ثم ترتقى إلى الطبقات الوسطى فالعليا مثل انتشار أفكار الثورة الفرنسية وارتقائها من طبقات الشعب إلى الوزراء والعلماء .

وكذلك الأديان فإنها تنتشر أولا عند المظلومين والمحاويج والمحرومين والمعوزين إلى استعادة الكرامة والحقوق ، وهذا سر انتشار النصرانية والبوذية بين الضعفاء والفقراء ، وقد سادت الاشتراكية أولا طبقات العمال حتى وصلت إلى العظماء فصار منهم اشتراكيون متطرفون .

وكان عدد الذين دخلوا فى زمرة الإسلام من الأغنياء والكبراء محدودا ثم أقبل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليه الفقراء فى الجزيرة العربية وعاصمتها الوثنية (مكة) لأنه كان فى أول أمره دين مساواة فاستظلوا بسلطانه . وقد أدت الأحوال الطارئة فى أوربا ، وضعف الحكومات فى بعض الممالك بعد الحرب وسقوط العروش وتزعزع الثقة فى الآراء القديمة إلى حلول بعض الزعماء محل السلطات الحاكمة ومحو تلك السلطات وتلاشيها فى أشخاصهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انحدار حضارة الغرب
فى فلسفة أوزفالد شبنجلر [1]

امتياز القرن العشرين وميراث القرون السالفة :

يمتاز القرن العشرون الميلادى بأنه جمع تركات القرون السابقة والحضارات السالفة والفلسفات القديمة بخيرها وشرها .

فقد كان القرن السابع عشر عصر أدب وأناقة ورشاقة وتعبد للجمال ، ومن رجاله فردريك الكبير وكاترين الثانية ولويس الرابع عشر وشارل الأول وأوليفر كرومويل ومدام دى ستايل وسفينى وتركزت الحضارة فى غرب أوربا ولا سيما فى فرنسا وإنجلترا .

وبينما كانت فرنسا تسير فى طريق الفنون ولا سيما العمارة والأدب والشعر والتأليف المسرحى والبلاغة الخطابية ، وألمانيا منشغلة بعواقب الإصلاح الدينى على أيدى مارتن لوثير وكالفن وإيزانجفيل ، وسويسرا مهتمة باستقلالها وتحصين بلادها وجبالها ، وإيطاليا مشرفة على الموت السياسى والأدبى بعد الشوط الطويل الذى قطعته فى عصر الإحياء ونهضة العلوم والفنون فى مدنها الكبرى مثل فلورانس (فيرنزة) وبولونيا وجنوى والبندقية وليفورنو وبيزا وروما مقر السلطة البابوية والملك الدنيوى بعد أن أنتجت قرائح مفكريها كتباً عجيبة مثل « الأمير » تأليف نيكولو مكيافيلى و « فنون النقش » لليوناردو دافنشى ، و « ديكامرون » لبوكاتشيو و«تاريخ الحياة » لبنفنتو تشيللينى ، كانت قلوب بعض الرجال تغلى برغبة الإصلاح مثل جيرولومو سافونارولا الفلورنتى الذى أسموه بالراهب المفتون لأنه ثار على فوضى الأخلاق واحتج على مفاسد المجتمع وحاول حكم وطنه (فيرنزه) بالفضيلة

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة اللطائف المصورة ، ع ٣٨ ، س ٣ ، فى ١١ أغسطس سنة ١٩٤١ ، وأيضاً فى جريدة فتى النيل فى ١٦ أغسطس سنة ١٩٤١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والقوة ، فكانت عاقبته الصلب وتقطيع الأعضاء ثم الإحراق وتذرية رماد جثته في نهر الأرنو الشهير .

وكان الشعب الذي أراد له هذا الراهب الدومينيكاني الخير والمصلحة محتشداً ليشهد مصرعه الأليم ومصرع تلاميذه الثلاثة بين الضحك وغمز الأعين وتبادل عبارات الغرام وتحديد مواعيد اللقاء بعد المجزرة في « أعشاش الحب » المنتشرة في فيا مارمارا وضاحية فيزوليه ولونجارنو [١].

بينا هذه الأحداث تجري في أعنتها كانت الثورة على العرش واستبداد الملوك المطلقي الحرية تتأهب لتقييد الملك شارل الأول في إنجلترا ووضع حدود وسدود لإسرافه وتبذيره وعبثه بأموال الشعب . فقاوم الملك مقاومة عنيفة وانشق الشرفاء عليه ، ثم أسفرت المعركة عن محاكمته والحكم بقطع رقبته ببلطة الجلاد في «وستمنستر آبي » على قيد خطوات من البرلمان الإنجليزي ومن القاعة التي يتوج فيها الملوك ، وبها العرش والحجر الموروث من عهد إدوارد الثالث !!

وانفرد أوليفر كروموبل وأصحابه ذوو الرؤوس المستديرة Round heads بالحكم فأذاقوا الشعب ألوانا من العذاب بعد أن طردوا ممثلي الأمة من مجلس النواب.

فلاسفة فرنسا في عهد الاستبداد :

في ذلك الوقت العصيب كانت فرنسا رازحة تحت أعباء الحكم الاستبدادي في عهد لويز الخامس عشر خليفة الرابع عشر المسمى بالملك الشمس Le roi soleil، وهو أشبه بالفراعنة المصريين الذين اتخذوا عبادة الشمس واندمجوا في نورها ونارها .

---

(١) عن سافونارولا ، انظر دراسة المؤلف عن « تاريخ إحياء العلوم والمدنية بإيطاليا » ، صفحة ١٤٠ من هذا الكتاب .

وفى الحق كان الترف الذى يعيش فيه هذا الملك الشمسى لم يسبق له مثيل فى تاريخ العالم ، ومازال أزياؤه وطراز قصوره فى البناء والأثاث قدوة فى أنحاء العالم حتى هذه الساعة بقوة الاندفاع والاستمرار التى تلازم كل جديد ٠

كانت الأنانية والأثرة هما السائدتان فى هذا العصر ، فكان الملك يتيقظ فى الصباح فى حضرة كبار الوزراء والأمناء « والتشريفاتية » على أنغام الموسيقى ، ثم يلبس ثيابه الملكية فى موكب أشبه بزفاف العروس ٠

ولكل شريف ونبيل وشريفة ونبيلة خدمة معينة وقطعة من الثياب يتعهدها بوصفه «شماشرجى» الملك ٠

فهذا يتولى تقديم الجورب والحذاء ، وتلك القفاز وزراير القميص ، ونبيلان لتقليده العقود والقلائد والأوسمة ٠٠٠

ثم يشرفون على إفطاره وبعده يقدمون له أنواعا من الاحترام لا تقل عن العبادة التى كانت تقدم منذ ألوف السنين للعجل أبيس !!

ولم يكن نصيب الملكة بأقل من نصيب الملك ٠

فنهض فولتير وروسو ومالبى وكوندورسيه وديدرو ووثبوا وثبة خطيرة ٠ فاتجهوا إلى إنجلترا وقرأوا كتبها ودرسوا نظمها وتشبعوا بروح الثورة فيها ودهشوا إذ رأوا الإنجليز يقطعون بقسوة فادحة رأس ملكهم بمحاكمة وجيزة لم تتجاوز ربع ساعة وهم الذين كانوا يحوطونه بالاحترام ٠

ولكن كل واحد من هؤلاء الحكماء اختط لنفسه خطة نفذها لآخرها ٠

تطبيق الآراء الجديدة على السياسة :

اتخذ فولتير التهكم والنقد الجارح واتصل بالبابا وبالملك هنرى الرابع وبالملك فردريك الكبير فى بروسيا ونظم الشعر فى مدح الملوك تقرباً لينال القوة فى وطنه وألف كتاب « كانديد » أو الرجل العبيط الذى يسام أنواع العذاب وألوان المظالم وهو راضٍ قانع يرى أن الأمور تسير على أحسن منوال فى خير العوالم ، وعبارته

الشـهيرة Tout va pour le mieux dans le meilleur de mondes فـأثر بتهكمه تأثيرا كبيرا فى الشعب ٠

أما جان جاك روسو الفيلسوف الشارد فقد طعن فى الصميم بصراحة منزهة عن اللف والدوران فـألف « أسـباب التـفاوت بين البشـر » و« العـقـد الاجتمـاعى » و«مـلاحظات قـسـيس من سـافـوا » و« لا نوفـيل هيلويز » و« إمـيل القـرن الثـامن عشـر» وختـمهـا باعترافـاته ، فـهدم بهـذه المعاول القوية أسس الاستبداد وأقـام بناء الحرية فى وطن غارق فى الفوضى ٠

بوادر الثورة العالمية :

فى سنة ١٧٨٩ استـحكمت حلقـات الأزمـة السـيـاسـيـة واشـتـعلت نيران الثـورة الفرنسوية على نسق الثورة الإنجليزية وقتل الملك والملكة والنبلاء ٠

وكان السبب المباشر فى الثورة غفلة الملك لويس ١٦ وعناده وضيق صدره وجبن مـسـتـشـاريه الذين كـفـوا عن إبداء النصح إليـه ٠ دع عنك إسـراف الملكة وفـضـائح القصر كقضية العقد وجوع الشعب وفاقته وأنانية الأغنياء والسراة ٠

وقـد غـرقت فـرنسـا وأوروبا فى بحـار من الدمـاء وظهـرت المحكمـة الثـورية Tribunal revolutionnaire التى أجـهـزت على كل مـفكر وأديب وعـالم لأبسط مخالفة ، فلما أعوزتها الأدلة على الاتهام كانت تلفق الأدلة تلفيقا ظاهرا لتقضى على البقية الباقية ٠

يقول أوزفالد فى كتابه « انحدار الغرب » The decline of the West «إن الفـرق بين الثـورتين الفـرنسـيـة والإنجليـزية هو نفس الفـرق بين أخـلاق الأمـتين، فـالفـرنسـيـون يكثـرون من الكتـابة والكلام والتـهـويش والجـدل والنقـاش البـيـزنطى والخطب، والإنجليز أهل صمت وسكون وتدبير وأفعال لا تسبقها أقوال البتة ، أو ما تقـتـضـيـه الضـرورة القـصـوى ٠ وأن مـا اتبـعـه الشـعـبـان بعد الثـورتين ينطبق على ثقافتهما وحضارتهما المختلفة انطباقا تاماً » ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإيثار خير الفضائل الواقية من الفتن :

تمتاز حضارة الشرق ولا سيما العرب بكثير من أفانين الفضائل الاجتماعية.

فقد اشتهر الشرقيون بالكرم والتعاون وتوزيع الصدقات والبر بالأيتام والمساكين ، كما أنهم يدعون فى بعض معتقداتهم وتقاليدهم القومية إلى الإيثار Altruism .

ولو أن الإيثار وجد فى الحضارة الفرنسية لما جاع شعب باريس ذلك الجوع المحرق الذى ساقهم إلى « موكب الفاقة » (الذى سار نحو قصر فرسايل فلما رأتهم الملكة مارى أنطوانيت وسألت عن سبب ضجتهم وضوضائهم وقالوا لها إنهم يطلبون الخبز دقت يدا بيد وقالت : يا لهم من مجانين ! لم لا يأكلون الفطائر والمرقات (gateaux .

وقد كان المبدأ السائد فى الشرق فى أعلى أوقات حضارته هو القول الثابت «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » أى أن الشرقى يعطى المحاويج وإن كان محتاجا لما يعطى ويبذل ، وإن كان الذى يملكه قليلا .

قال أوزفالد شبنجلر إن الحضارة العربية المشرقة الفتية عندما جاءت إلى العالم ، كانت حضارة رومة وأثينا قد تطورت إلى مدنية Civilisation فخنقت الحضارة العربية فمنعتها النور والهواء وكادت تقضى على إنتاجها الحديث .

الفرق بين الحضارة والمدنية :

لقد انفرد أوزفالد شبنجلر بالتفريق بين هاتين الظاهرتين الكبريين ، فالحضارة Culture فى نظره هى النهضة الروحية التى يتشكل بها الشعب فى نهضته ولا يصل إلى درجة المدنية Civilisation إلا بعد أن ينتهى من هذا الدور الأول فيبدأ انحلاله ، ولكن هذا الانحلال يأخذ قرونا طويلة وفى معظم الأحوال تبدأ المدنية وتنتهى فى قرنين كما حدث فى مصر الفرعونية والدول الإسلامية فى بغداد والأندلس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد وضع قانونا بالأرقام والأعداد (وهو الذى خصص له الفصل الأول من كتاب) وهذا القانون يدل على أن حياة الأمم ذات الحضارة والمدنية تشبه حياة الأفراد . فلها ربيع وصيف وخريف وشتاء أى فتوة وشباب وكهولة وشيخوخة وقد تعمق فى هذا البحث تعمقاً شديداً .

ويجب هنا أن نفرق بين هربرت سبنسر وأزفالد شبنجلر .

فهربرت سبنسر الفيلسوف الإنجليزى الشهير كان من أصحاب النظم System ، ولكن شبنجلر من أصحاب النظر الكونى Vision universelle .

يرى سبنسر أن المجتمع كالكائن الحى له رأس ومناكب وأيد وأرجل وقلب خفاق إلخ .

ولكن شبنجلر يصف الجماعات الإنسانية الكبرى فى سير حياتها والفرق عظيم بين الرأيين ويحتاج إلى دقة فى التمييز .

نهاية الحضارة وما يترتب عليها :

فإذا انتهت الحضارة ونضب معين الروح وجف عود التفكير الدينى والعقلى، جاءت المدنية بالفنون والاختراعات والاكتشافات واتساع الآفاق الحيوية وأفلست النظم العادية التى ابتكرتها الأمم أثناء طور الحضارة .

ثم قامت ثورات سياسية واجتماعية منها حروب الطبقات التى بدأت من القرون الوسطى بسبب حياة المدن المستقلة التى أسستها طبقة البورجوازية ثم طبقة العمال الذين نشأوا فى المصانع بعد أن سلبت منهم الأراضى الزراعية .

واتجه الشعب إلى الإلحاد والكفر بنعم الحياة الهادئة البريئة وتطاحنت الأمم بعد تطاحن الأفراد والجماعات ، وقل الوفاء وانتشرت الشكوك والريب وانحطت الأخلاق ، وأصبحت الكلمة النافذة للمال لأنه مجمع الشهوات وأداة الأغراض ووسيلة الوصول إلى الشؤون المالية التى تضخمت واتخذت شكلا مخيفاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى رومة ظهرت فكرة « القيصرية » وهى انفراد رجل ظالم بحكم الشعب فقضى المتآمرون على يوليوس قيصر ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء على من تلاه من القياصرة ٠

فيرى أوزفالد شبنجلر أن حياة المدنية الحاضرة تمتد إلى بضعة قرون حتى تصل إلى هذا الدور الأخير ، ولكن بوادر كثيرة ظهرت له وعوارض خطيرة تجلت فى كتابه ٠ وفوق كل ذى علم عليم ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العصر الحديث
بالنسبة إلى عصور التاريخ
وارتباط الحروب الحديثة بالحروب القديمة (١)

لم يتخذ هذا العصر الحديث أسماء ، ولم يتصف بعد بالوصف الأصيل الذى سيلازمه ويلصق به على مدى العصور المقبلة .

فقد عرفنا العصر الحجرى والعصر البرنزى والعصر الحديدى ، كما عرفت الإنسانية فى إحدى الفترات حينا من الدهر وصفته بأنه العصر الذهبى !! وكذلك عرفنا عصر الظلام أو القرون الوسطى فى قارة أوروبا ، ونحن نهتم بتقسيم العصور وتسميتها لنصل إلى تحديد بعض معالم الطريق فى تاريخ الإنسانية الذى تشعبت مسالكه وتنوعت طرائقه .

لقد بدأنا منذ نصف عام العقد الخامس من القرن العشرين ، والعالم فى غليان كالقدر على النار ، وثورة لها فورة وأوار ، وحروب طاحنة وشرور ظاهرة وأحقاد كامنة ، وشعوب تائهة ضالة وحكومات تحاول إرجاع الحقوق إلى نصابها ، وأخرى تريد قلب الأشياء رؤوسها على أعقابها .

غير أن رجل المستقبل لن يستطيع أن يقف على حقائق التاريخ الراهنة . لأننا لم نتصل بتواريخ الأمم البعيدة والقريبة اتصالاً يؤدى بنا إلى الرجوع بآدابنا وحضارتنا إلى ماضينا ، وكل الذى نعثر عليه فى سجلات تاريخنا وحضارتنا لا يتعدى بضعة مؤلفات من نوع المدونات والمذكرات ، أقرب إلى سرد الحوادث منها إلى التاريخ ، وبعضها من مؤلفات نشرت فى تراجم مشاهير الرجال الذين عرفوا فى

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة اللطائف المصورة فى ١٩٤١/٦/١٠ ، وأيضاً فى جريدة « فتى النيل »، العدد ٣٨ فى ١٩٤١/٨/١٦ .

الحروب أمثال الإسكندر ونابوليون وصلاح الدين وجنكيز خان [١] وهنيبال وتيمورلنك وغيرهم .

وكان علماء التاريخ ورجال السياسة يظنون حياة السلم والأمان القاعدة وأن الحروب استثناءات ، فإذا البحوث الدقيقة التى قام بها سينيوبوس فى فرنسا وماكس نورداو ودويش فى النمسا وبرين فى بلجيكا ومومسن فى ألمانيا أثبتت أن الحروب هى القاعدة ، وفترات السلم والأمان هى الاستثناءات .

فإذا أراد القارىء أن يقف على الأسباب التى تحفز الأمم والحكومات على النهوض بأعباء الحروب الطويلة المهلكة ، منذ واقعات طروادة إلى واترلو ، وشاء القارىء أو الدارس أن يرد هذه الأسباب إلى مصادرها الأولى ، من مسالك السياسة والاقتصاد والاجتماع والدين ، فإنه يعجز عن أن يصل إلى مراجع كاملة شاملة تتصل بتلك الأسباب أو تحيط بها إحاطة الإلمام التام ، ويصعب عليه إن لم يستحل أن يعثر على ما يعلل الحوادث والواقعات تحليلا منطقيا مرتكنا إلى حقائق ثابتة .

فإن الحروب فى حقيقتها تكون العصور وتميزها وتفرغها فى القوالب التى تراها، وما هى إلا قصص دامية من قصص الدنيا القديمة أو الجديدة ، وهى فى مجموعها وحدات العصور التى تقدر قيمتها التاريخية .

أما فهم تاريخ العصور ، ولا سيما العصر الحديث الذى مازال فى نظر المؤرخ الإنسانى نكرة مبهمة ، فيقتضى بحث نشأة الأمم العظمى من بدايتها وكيفية ترك أمورها إلى الزمن وأفاعيل أفرادها وجماعاتها ، قادتها وعامتها ، سادتها وزعمائها، سراتها ودهمائها ، وهى يوما تسمو ويوما تنخفض ، حينا تعز وحينا تذل ، واستعراض فلسفى دقيق للأدوار الفعالة التى قامت بها الأخلاق ومثلتها منازع النفس

---

(١) الذى اكتشفت رفاته منذ بضعة أيام فى العصر الذى تدوى فيه المدافع وتحلق فى سماء الدنيا طائرات حرب البرق أو الخاطفة ، فيالها من مصادفة !!

ودوافع العقل وشهوات الغرائز الجامحة . فهذه الحضارة الأوروبية الحديثة التي وفّاها «أوزفالد شبنجلر» حقها من البحث والفحص والدرس في كتابه «غروب حضارة الغرب»، هذه الحضارة التي نمت وترعرعت وشبت وأخصبت وأثمرت وبسقت فروعها، وخيمت ظلالها أكنافا عميقة، وسترت ظلالها آفاقا بعيدة، هل بلغت كل هذه النعم عن طريق المجد الصحيح والعدل الصادق والجدارة الوافية والإنسانية الكاملة ؟

نريد أن نتفهم حقيقة العصر الحديث لنحلّه مكانته في تاريخ العالم . وينبغي لنا أن نتساءل هل حرصت الحضارة العالمية الحالية على البناء المهول الرفيع العماد الذي رفعت قوائمه ؟ وهل حاولت حفاظ المجد العظيم الذي أحرزته، وهذا المجد وهذه الشهرة من أسباب الشموخ الوطني والعزة القومية والرسالة الإنسانية ؟.

هل استمسكت الحضارة بكل هذه المقومات حتى يستطيع أن تثبت أمام زعازع الحوادث وعواصف الدهور مهما بلغت في عتوها وطغيانها ومهما بانت نواجذها وأنيابها وأنشبت فينا أظفارها ؟

هل يفوز المؤرخ العصري بإدراك لمحات تضيء له ظلام الحوادث وتلقي شعاعا هاديا على سوادها، فتطلعه في بريق لامع على أسرار الهبوط كتلك المحاولات الموفقة التي حاولها ابن خلدون في مقدمته وابن مسكويه في «تاريخ الأمم» وجيبون في سرد أسباب انحلال رومه وسقوطها وموير في تاريخ الخلافة الإسلامية ؟

إن ما بين أيدينا وعلى «رفوف» مكاتبنا من كتب التاريخ (ماعدا عشرات نادرة من الكتب كالواحات الخضراء في وسط الصحارى القاحلة)، لا تبدأ أبدا من حيث يجب أن تبدأ، ولا تنتهي إلى حيث يجب أن تنتهي، لأن كلا منها يتخصص في تدوين واقعات جرت بها المقادير في بضع سنين أو بضعة عقود من السنين هي بمثابة حلقة تفصم من سلسلة يجب أن تظل متصلة الحلقات .

إنك أيها القارىء المجتهد إذا سألت نفسك عن الحرب الحاضرة والحرب التي سبقتها أتعرف أسبابها الظاهرة والباطنة ؟

تدهش لو علمت أن كبار المؤرخين يبدأون بدرس تاريخ الغرب فى العصور الوسطى وكيف سقطت روما ولم هبطت القبائل الهمجية المستوحشة على أوربا يتمون بقسوتهم وجهلهم خراب الدنيا اليونانية والعالم الرومانى ويقضون على حضارة الإغريق وفنونهم وعلومهم وفلسفتهم وأدبهم ، وعلى قوانين الرومان ونظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وطرائقهم فى الحروب · ويبدأ كبار المؤرخين كذلك بما كان من الفتوحات الإسلامية وكيف وقفت ومنعت عن أن تشمل أوربا عمومها وخصوصها ، وكيف كان النزاع بين المسلمين أنفسهم على تقسيم الغنائم التى غنمها الإسلام بفتوحاته العلة الأصيلة فى صد تيار فتوحاته التى نشرت المبادىء العربية فى العالم بسرعة فائقة وقدرة نادرة أقلقت عقول ملوك أوربا وقادتها وزعماء أديانها فى رومة وبيزنطة وفرنسا وإسبانيا·

فإذا انقلبت إلى العصر الحديث الذى يبدأ بالثورة الإنجليزية ومصرع الملك شارل الأول وصعود كرومويل إلى منصب السلطان المطلق والحكم الديكتاتورى ، وانتقلت على مدى السنين إلى الثورة الفرنسية ونهضة المدن الكبرى وظهور البورجوازية ، رأيت بعينى الخيال حلما بعيداً من أحلام البشر كان له وجود حقيقى فى عالم الحضارة وكان مسرحا قائما لألوان البذخ والترف والرفاهية والنضال بين الرجال والمذاهب والعراك الاقتصادى العنيف بين الفقر والغنى وتكوين رؤوس الأموال وما يتبع تلك المعارك والملاحم من إهراق الدماء والقضاء على الحريات واندثار الزراعة ونشأة التجارة ، ومن أسباب إشباع الشهوات والغرائز ولا سيما غريزة الحكم والسيطرة على الأمم بالوسائل الاستبدادية والسيادة المطلقة ·

هذه هى الوسيلة والأداة لدرس العصر الحديث وبحث مقوماته ومقوّضاته · وعندنا أن «جنتر» الأمريكى قد وفق إلى حد بعيد فى كتابيه « فى أحشاء أوربا » و«فى أحشاء آسيا » إلى درس الوقائع والرجال واستطاع أن يخلق فى أذهان قرائه تلك الطريقة الثقافية المسبِّبة التى تتصل فيها الأسباب بالمسببات والنتائج بالعلل ، تلك الطريقة الثقافية المنتجة المتزنة وهى خير مقدمة للبحث لبلوغ خير خاتمة·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشعوب السامية
مقوماتها وعناصرها [1]
(١)

إن الجنس السامى مع كونه أعرق فى القدم من الجنس الآرى وأرسخ قدما فى الحضارة إلا أنه ضيق العطن قصير النظر ضعيف الخيال ، راكد الهمة إلا فيما يهمه مباشرة كالحب والأخذ بالثأر ، وقد تجلت هذه الخلال أو المعايب فى أدبه المكتوب والمحكى فى نثره وشعره . فالسامى يصوغ الحكمة ويعى المعنى الرائع فى العبارة البليغة الموجزة وينظم الشعر الغنائى القصير النفس الذى يعبر عن حالته فى الفخر أو الرثاء أو الغزل . وقد يكون ذا أثرة ظاهرة ، فيفضل نفعه على المنفعة العامة ، ويقيم الدنيا ويقعدها وراء كل أمر خاص بشخصه . وتراه لا يخضع للقوانين ونظم الحكم خضوع ولاء وطاعة ولكن خوفا ورهبة . قد ينتقل من مكان إلى مكان فى سبيل الرزق أو المرعى أو خوفا من عدو يهاجمه أو يقتفى أثره أو يتربص له، ولكنه لا يكبد نفسه مشقة الانتقال للمغامرة فى سبيل المجد أو اللذة فلا يحب أن يخرج للصيد للذة الصيد المجردة كما يفعل الآرى ولكنه يصيد ليأكل الصيد ويحظى بالغنيمة ، ولكنه إذا أكل وشبع ثم صار الصيد على قيد شبر منه فلا يعرض له ، لا حنانا ورحمة وتورعا عن إراقة الدم البرىء ولكن لعدم الحاجة إليه .

ولعله بعيد عن الشفقة بعده عن المغامرة والمجازفة بحياته ، فهو يقتل المسافر الذى يلقاه فى الطريق منفرداً ثم ينزع ثيابه ويسرق ما يحمل من متاع وعتاد ويذبح الحاج الذى يتكبد المشقة فى سبيل الوصول إلى الأماكن المقدسة ليسلب ماله غير مفكر فيما يلقاه أهله من ألم وحسرة لدى نعيه ، وغير عابىء بالذنب الذى يقترفه فى

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ١٤٣ فى ٢٩ مارس سنة ١٩٣٩ وهو بحث علمى تاريخى من كتاب ألفريد كنج مؤلف تاريخ شمر وأكاد كما جاء بالمقال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجه آلهتـه وأربابه ، ولما كـان الاعـتداء على القريب والغريب شـائعاً ، أرغـموا على وضع نظم تكفل حـيـاة الغـريب واللاجيء وابن السـبـيل ولتكون سـيـاجـاً يذود عن الضحـايا ويدفع عنهم بعض الأذى ، وقد كـان هذا البـدوى يقـتل فى ظل الكعبـة ولا يراعى للغريب حـرمـة مـادام هذا الغريب يحـمل فى ثنايا ثيـابه نقـوداً يحـتـاج إليـها البدوى . بل إن من هؤلاء البدو من يعتدى على ضيفه فيجرده من مـاله وثيابه وإن قـاومـه قتله . لقد كـانت القـاعدة الظاهرة الكرم والإكرام والإحسـان إلى الضـيف وحمايته ، ولكن هذه الفضائل كانت أظهر ما تكون فى الأشعار والأخبار والقصص. ولكن بين الأشعار والأخبار والقصص والحياة الحقيقية بوناً شاسعاً وفرقا فسيحاً .

وإذا تأملت فى حب البـدوى الذى سـار مـسـيـر المثل ونظم فى وصـفـه الشـعـراء ألوف القـصـائد والمقطعـات ، وجـدته ككل شىء فى حـيـاته الأدبيـة ، فـهـو حب شـديد سريع كالعاصفـة التى تظهر فـجأة ثم تختـفى وفى أثناء تلك العاصفـة يجن العاشق ويصير شـاعراً وخطيبا وتشـحذ مـواهبه ويحتد ذكاؤه وينتقل من الفتوة الطائشة إلى الرجولة الكاملة ، ولكن بعـد هذه العاصـفة لا يبقى شىء كـالنار التى تنطفىء وتتـرك وراءها رمـاداً لا يعود إليه الوهـج مـهمـا نفخت فيه ، وقد تصبح تلك التى كانت موضع حـبـه وإعـجـابه وهى أبغض الناس إليـه ، ولهـذا ضـربوا المثل بوفـاء جـمـيل وبثـينة ومـجنون ليلى لندرة الوفـاء فى الحب ولأن هذا الوفـاء أدهش المعـاصـرين إن كـان قـد حدث حقاً حتى رأوا وجوب تخليده بالشعر والنثر والرواية .

أما الحب عند الآريين فقد يبدأ هادئاً ومطمئنا ولايبدو لهيبه المشتعل الذى يدعو الشـعـر والنثـر ولكنه يبـقى ويسـتـمـر على وتيـرة واحـدة وإن هو هبط أو ضـعـف فـإنما يتـخلف وراءه مـودة ورحـمـة وحنان وصداقة قد تكون أبقـى من الحب وأجدى على ذويه من الشعلة الأولى التى تخبو عند السامى ولاتوجد عند الآرى إلا نادراً .

ويمتاز السامـى ولا سيما البدوى بالتردد فى أفكاره ، فهو فى المجتمع أقرب إلى الرياء منه إلى الصراحة لأنه بحكم حياته مـحتـاج للموارة والمجاملة ، فـهو أبداً فى رعب ، ولأنه لا تـحـمـيه قـوانين منظمـة مـحـترمـة تراه لا يأمن عـاقـبة العداء الخـفـى أو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الظاهر ، فهو يخشى الغدر ويخاف الخيانة ولا يطمئن إلى العهود ، وفى الأدب السامى ولا سيما العربى فى الجاهلية أنهار متدفقة من قصص الغدر والوقيعة والانتقام بعد التأمين والتطمين وتبادل العهود والمواثيق .

ومن هنا جاءت الفطنة التى اشتهر بها البدوى ، فهو شديد الحذر والحذر يورث المكايد ويولدها ، فالبدوى يقضى معظم حياته كما يقضيها الطائر الذى يخشى نبل الصائد ومن هنا كانت سعة الحيلة ، فالرجل الذى فى خوف دائم على حياته والذى يرى فى كل شخص آخر عدوا والذى ينتظر مزاحما فى شربة الماء ورغيف الخبز والذى يخشى الاعتداء على زوجته وأخته وبنته لأنه يرى فى ذلك الاعتداء عاراً لا يمحى ، لا يمكن أن يعيش هادئا ولا يمكن أن يكون صريحا ولا يستطيع أن يمضى شطراً من حياته مطمئناً .

ثم إن هذا البدوى تراه فى معظم الأحيان فريسة الوحدة ، فهو فى قلب الصحراء الواسعة التى تكاد تكون لا نهاية لها ، أمامه الرمال والسراب وعلى مقربة منه الجدب والظمأ وبينه وبين الماء والعشب أميال لا عدد لها ، وبينه وبين الموت الذى تعددت أسبابه وطوارئه أقرب مما بينه وبين الأمل فى الحياة .

ألهذا كانت الحياة هنيئة لديه ؟

ألهذا اشتهر بالشجاعة والمخاطرة أحياناً ؟

هل شجاعة البدوى ثمرة اليأس من الحياة ؟ وهل سهولة زوالها جزدتها من قيمتها وجعلتها من النعم التى يستهان بها ، وأن حياة العربى ترتفع قيمتها فى نظره كلما اكتسبت سبباً من أسباب التأمين والضمان ؟

هذا البدوى الذى بدأ من فجر التاريخ يرحل ويهاجر فى سبيل القوت وفى سبيل الغزو والنهب قد آن له أن يمثل دوره فى التاريخ وأن يأخذ بنصيبه فى دورة الحياة الإنسانية وأن يشاطر الأمم الأخرى عظمتها وآلامها . لقد آن له أن يخرج من أوكاره لا خروج الطيور الجارحة ولا يزحف زحف الأفاعى وراء الحدود فى طلب القوت والرعى ، بل خروج الشعوب القوية التى تحمل فى كنانتها رسالة للإنسانية ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسالة تنطوى على السعادة والأمل .

لم تكن جزيرة العرب تشبه بقعة أخرى من بقاع الدنيا . وقد تمكن العلم الحديث من تقييد رحلات أسفار القبائل وهجرتها فى سجلات العلوم التاريخية والأنثوغرافية . فهناك قبائل هندوروبية نزحت من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال ، وهناك قبائل نورسية نزحت من الشمال إلى الجنوب واجتاحت سهول أوربا الشرقية ، وهناك الفيزيقوط والفندال والهونز والجرمان التى أغارت على ألمانيا وسهول لومبارديا ووديان إسبانيا وفتكت بالمدنيات الرومانية واليونانية ، وهناك قبائل تيمورلنك وجنكيز خان التترية والطورانية والموغولية التى هجمت على الحضارة الإسلامية فى القرن السابع فاقتلعتها وابتلعتها فى العراق والشام ، وقد انتهت حياة تلك القبائل بمجرد اتصالها بالأمم المغلوبة واندمجت فيها وختمت قصة حياتها ، فهؤلاء النورسمان الذين انحدروا من الشمال على إنجلترا قضوا عليها وحلوا محل شعبها وهكذا كانت قصة سواهم .

أما جزيرة العرب فكانت وسطاً بين الحضارات الكبرى ومركزاً لدائرة العمران، فكانت محاطة بالرومان والمصريين والفرس والبابليين والأحباش والكنعانيين، وكانت طبيعة الجزيرة نفسها متفاوتة كما أثبتنا من الخصوبة التامة إلى الجدب العقيم المزعج ، فلم تملك تلك القبائل العربية أن لا تحتك بتلك المدنيات فى بعض أسفارها، ولم يكن من المستطاع أن يلتقى بهم فى واحاتهم أو فى مرابط خيولهم وطرق قوافلهم رجال من أهل هذه البلاد النائية ليشتروا من خيلهم أو من سيوفهم ورماحهم أو ليبادلوهم المتاجر فى سلع يحتاجون إليها .

وقد يكون حب الاستطلاع قد تحرك فى نفوس هؤلاء العرب ولكن الضنك والضيق والأزمات المتتابعة كانت تدفع بالبدوى أكثر من كل شىء وفى سبيل الهجرة المنظمة تارة والمضطربة المرتبكة طوراً ، ولكن هذا العربى لم يكن يملك صناعة ولا فناً ولا علماً ولا ثروة يتاجر فيها . كان لا يملك إلا سيفه وغنمه ووراءه حريم وولد ، وفى الحريم العجوز الحجمرش والفتاة الناهد التى يطمع فيها ولا ينتظر أن تخدم

الأسرة. فكان العربي يتشاءم لميلاد البنت وهو يعلم أنه بدونها لا يولد الذكر ولا تقوم للرجل قائمة ، ولكنه كان غارقا في الحاضر ، والحاضر وحاجة الحاضر وشقاء الحاضر تعمي وتصم ، فهو يحمل هم الحاضر ولا يعمل حسابا للمستقبل فهو في غنى عن تلك العجوز وعن لهاتها المفتوحة لابتلاع الغذاء وهو يرقب موتها بفارغ الصبر وقد يقتلها أحيانا إذا أمن الانتقاد أو الأخذ بالثأر .

أما البنت الصغيرة فهي ابنته وهي ملكه وهي التي ستنمو فتصير عروسا ذات خطورة تعرض شرفه حينا للابتذال وتعرض سمعته للقيل والقال، فهو يقضي عليها ويقتلها ولكنه قتل قاس مؤلم وقضاء غادر لا تحتمله النفس البشرية . إنه يئدها ويدفنها حية بعد أن يزينها ويحلّيها ويخلع عليها أجمل الثياب وأغلى المصوغ فيهيئها الموت. ويقدمها ضحية على مذبح الظلم والقسوة والأثرة [(١)] ... وإن الأم التي تلبس ابنتها أفخر الثياب وتزينها أجمل الزينة وتسلمها للوالد الوحش لتعلم مصير ابنتها وإنها لتودعها في سكون وخضوع كما تودع أم المحكوم عليه بالإعدام دون أن تخبره أن منيته قد دنت خوفا عليه من خوف الموت الذي سيلاقيه بعد ساعات. فهذه الأم العربية تسلم بنتها وفلذة كبدها والبنت تجهل مصير نفسها وقد تكون على أشد ما تكون من الفرح بالزينة والشباب ، وهي لا تقرأ في عين أمها صورة شبح الموت الذي سيلقاها بعد برهة قصيرة ، فتترك الخيام وتسير آمنة إلى أخدود مهيأ فيوردها والدها مورد حتفها ويدفنها حية ويخمد أنفاسها قبل الأوان ، تلك الأنفاس التي قد يطول ترددها قبل أن تصعد الروح إلى بارئها .

هذه صورة من صور القسوة في حياة الجاهلية وصفحة سوداء من صحفها السود . فلا عجب إذا كان الجوع وخوف الجوع الذي يفرق بين الولد ووالده هونفسه الذي يدفع بالبدوي إلى الهجرة والارتحال وترك الوطن .

---

(١) قضى الإسلام على هذه العادة الذميمة ونهى عن قتل الأنثى في أكثر من آية في القرآن.

غير أن هذا البدوى الذى ينزح ويحتك بإحدى الحضارات المجاورة له ، بعد أن ييأس من التنقل فى الجزيرة نفسها ، قد يتغلب عليها بالحرب والغزو كما فعل العرب فى مصر قبل مينا وكان الملك مينا نفسه من الساميين ، وقد يكون البدوى مسالماً فيتغلب على الأمة القوية المتحضرة المتيقظة بسلاح أقوى من سلاح الحرب وهو سلاح الاندماج .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خواص الجنس السامى [1]

(٢)

من الغريب أن يبقى العنصر العربى متغلبا فى حياة الأمة مهما كانت قوتها السابقة وتبقى خصائصه ومناقبه ومعايبه ظاهرة فى حياة الشعب أيما ظهور وهذا ما نشهده لعهدنا هذا فى سورية ومصر والعراق وشمال إفريقية وبعض جهات الأندلس ، ولكن أمامنا فى التاريخ وقائع هجرة ونزوح وارتحال لا يمكن تعليلها بسهولة ، فإنه من المعلوم أن الحضارة تتبع الخصب وجنوب جزيرة العرب كانت ولا تزال أخصب بقعة فيها ، ولذا قامت فيها مدنيات عظيمة كالمدنية الحميرية وقامت فيها أسر مالكة شادوا قصورا وحصونا .

وفى الحق قد ثبت علميا وتاريخيا أن الهجرات السامية بدأت من بلاد العرب إلى البلاد المجاورة (العراق وكنعان ومصر والحبشة أخيراً) ثم توالت تلك الهجرات وتتابعت إلى الموطن الأصلى السامى (جزيرة العرب) ثم منها إلى تلك البلاد ثانية وثالثة .

ولم تخل جزيرة العرب من سكانها مطلقا كما أن تلك المهاجر لم تخل فى وقت من الأوقات من العرب . وفى رأى بعض الباحثين أن القبائل القديمة التى قيل عنها إنها فنيت وأخنى عليها الدهر قد نزحت بأكملها إلى مواطن أخرى .

وليس فى النصوص الحميرية التى اكتشفت حديثا فى بلاد اليمن ولا فى الآثار المسمارية (الآتية من بلاد شمر وأكاد) ما يفسر لنا ألغاز هذه الهجرة ، فهؤلاء اليمنيون هاجروا فى فجر التاريخ إلى بابل وآشور لأسباب لا نعلمها لأن هجرتهم لم تكن بسبب الفاقة ، فإن الخصب لم يفارق بلادهم والخيرات مازالت نعمها عميمة من

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ١٤٤ ، أول إبريل ١٩٣٩ وهو تتمة للمقال السابق عن كتاب ألفريد كنج مؤلف تاريخ شمر وأكاد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقصاها إلى أقصاها وموقعها على شواطىء البحار وفى مناخ معتدل يجعلها بمأمن من تقلب الجو الذى يفسد أمزجة السكان ويعرضهم للأدواء والعلل . ولعلهم نزحوا مرغمين لتغلب شعب قوى هاجر إلى بلادهم فزحزحهم عنها إلى العراق فقضوا أجيالا طويلة ثم عادوا إلى بلادهم ، فهل عادوا بقوة الحنين إلى الوطن أم عادوا بعد أن تقووا فى المهجر ليغزوه من جديد ويطردوا الذين اعتدوا عليهم وطردوهم ؟

ليس فى النصوص الحميرية ولا فى الآثار المسمارية ما يفسر لنا ألغاز هذه الهجرة المزدوجة للآن ، بل إن هذه الآثار نفسها إن وجدت فقد حرص الإمام يحيى وحيد الدين وهو إمام الزيود باليمن على أن يحول بينها وبين العلماء ومنعها عن كل قارئ وباحث وناقل وترك تاريخ بلاده فى زمن النور لغزاً معقداً ومعمى لا يحل .

وبعد أن تهدم سد مأرب هاجر اليمنيون هجرة ثالثة أو رابعة إلى شمال جزيرة العرب نفسها مخترقين الربع الخالى والدهناء إلى الحجاز فأرض كنعان ، ومنهم العمالقة الذين نزحوا إلى مصر باسم الرعاع أو الهكسوس وأسسوا ملكا ومدناً فى أواسط بلاد العرب فى تهامة وفى نجران وامتزجوا باليهود . ولعل هذه الهجرة الثالثة أو الرابعة هى التى نقلت بعض اليهود ونثرتهم فى أنحاء الجزيرة نثراً ، فقد كان من هؤلاء اليهود ملوك فى بلاد اليمن نفسها وأسسوا أسراً وجلسوا على العروش ولبسوا التيجان وقبل أن يصلوا إلى أرض كنعان استوطن الكثير منهم الجهات الوسطى والشمالية من الجزيرة وأسسوا ملكا عظيما فى بلاد كنعان ، والمناذرة فى بلاد العراق منهم أى من اليمانيين وملكهم فى كنعان المعروف بملك بنى غسان .

كيف كانت عقائد هذه القبائل والشعوب المتباينة ؟ وكيف كانت درجات إيمانهم ؟ وهل تفاوتت أو تشابهت ؟ الجواب سهل وهو مأخوذ مما سبقت الإشارة إليه.

إن أهل الجزيرة كلهم من الجنس السامى ، بل إن الجزيرة هى المهد الأول لهذا الجنس نفسه ومقره ومسقط رأسه وموطنه الأصلى ، وإن فروع هذا الجنس وإن اختلفت فى بعض تفاصيل خلقتها وأخلاقها إلا أنها متشابهة فى أهم ما يردّها إلى

أصل نشأتها ، فهم متشابهون في تكوين الرؤوس والجماجم وفي استطالة الوجه ونحافة الأبدان وحدة البصر والقناعة في القوت عند الاضطرار والميل إلى الترف والجرى وراءه متى وجدوا له سبيلاً ، وشدة الطمع في متعة هذه الحياة الدنيا ، وتفضيل الذات على الغير .

وكان دينهم واحداً وهو الدين الوثني (تعدد الآلهة) وكذلك اللغة ، وهنا يجب التمييز . فاللغة العربية التي نقصد إليها ليست هي اللغة العربية التي نتكلمها الآن أو التي كان يتكلمها أجدادنا ، ولأجل هذا التدليل يجب أن نعلم أن أولى المدنيات في الجزيرة المدنية البائدة التي كانت لتلك القبائل التي زالت من الوجود كعاد وثمود وطسم وجديس وعمليق ، فإن هذه القبائل أو الشعوب قد عاشت فعلا وأسست حضارات عظيمة وورد ذكرها في التاريخ وفي القرآن والكتب المقدسة وفي الأساطير ولاتزال لها أماكن معلومة يشار إليها كانت مقر تلك الأمم ، وأن العلم الحديث أثبت وجود هذه الشعوب ولم ينفها . فقد طاف فريق من السائحين الأوروبيين ببيوت تنسب إلى بعض تلك القبائل ووصفوها وحاولوا أن يخرجوها عن طبيعتها ويقولوا إنها مقابر منحوتة في الصخور ، وسواء أكانت تلك المباني المنحوتة في الصخور بقايا قصور أو حصون أو قبور ، فهي دليل على شعب كان يقطن تلك الأماكن ، وهذه قبور قدماء المصريين لا تقل فخامة عن قصورهم (١) ، والهرم الأكبر نفسه كان مقبرة، وللطليان في عصرنا هذا مقابر يطلقون عليهم اسم « الوادى المقدس » أو كامبو سانتو فيها جماع حضارتهم وفنونهم الرفيعة ونقوشهم البديعة وهي تدل بذاتها لو بقيت بعدهم على مدنية عظيمة رائعة ومن أشهرها مقبرة جنوى وميلانو ونابولي .

وغني عن البيان أن أرض جزيرة العرب لاتزال بكراً لم يحفر فيها أحد ولم تمتد إلى رمالها المتراكمة أيدى العلماء والمنقبين لأن الأديان السماوية جعلت العرب

---

(١) وادى الملوك أو تل العمارنة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يظنون مثل هذا التنقيب محرماً . دع عنك أن الرياح والإعصار تسفى الرمال فتدفن الآثار وتطمرها وتمحو آثار الطرق وتطمس معالم المدن والقرى .

وفضلا عما تقدم فإن طيارين فرنسيين صمما على اكتشاف مدينة بلقيس تلك الملكة الجميلة الغنية القوية التى ورد ذكرها فى التوراة والقرآن والتى نقلت من مقر ملكها إلى مقر ملك سليمان بفنون خفية نسبت إلى الجن فزارت عاصمة ملكه وجلست على عرشه وتهادت بمحاسنها بين أعمدة هيكله فكانت معه رمزاً خالداً للجمال والقوة[١] وكانت أقوال العلماء عن عاصمة تلك الأمبراطورة الفتانة متضاربة ، فقالوا إنها فى الحبشة أو فى غرب الجزيرة . فلما صحت عزيمة هذين الطيارين الفرنسيين اتخذا لذلك الأمر عدته وتزودا بالخرائط والمعلومات من القاهرة والحبشة ثم طارا حتى بلغا آثاراً وخرائب بيضاء لامعة عالية تغمرها الرمال تارة وتنكشف عنها طوراً ، فحلقا فوقها وعادا بغنيمة الاكتشاف العلمى وهما يجزمان بأنها عاصمة ملك بلقيس ، ووافقهما على ذلك فريق من العلماء العرب والإفرنج .

وهكذا ينكشف الستار شيئاً فشيئاً عن أسرار هذه الحياة فى ماضيها البعيد والقريب ، وهكذا يتغلب العلم الحديث على خفايا الدهور المستغرقة فى القدم ، وهذه الأخبار التى كانت أشبه الأشياء بالأساطير والقصص والتى لم يكن أحد ليؤمن بها أو ليصدقها لولا ورود ذكرها على صفحات الكتب المقدسة ، قد أصبحت حقائق ثابتة واجبة الاحترام . وأعجب من هذا أن هؤلاء العلماء يعتقدون أن تلك الخرائب لا تنطوى على فوائد تاريخية فحسب ، بل إنها تخفى فى أحشائها كنوز بلقيس وسليمان من الدر والجوهر والذهب والفضة وكنوزاً أغلى وأثمن ربما كانت فى صفحات بعض الكتب المنقوشة بأخبار ترفع الستار عن أسرار عظمى تقلب تاريخ العالم رأساً على عقب.

إذن كانت هناك أمم أو شعوب أو قبائل اسمها عاد وثمود وطسم وجديس وقد

---

(١) سورة النمل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسست حضارة وبنت مدنا وكانت لها لغة أو لغات وعقائد أو عقيدة مشتركة .

وكل ما يهم أمرها أننا لم نعثر حتى هذه الساعة على الأدلة العلمية التى تعطينا الوصف التام وليس لدينا من سند عليها إلا ما ورد فى الكتب المقدسة . ولكن هناك استنتاجات وقرائن قد تكون فى بعض الأحيان أقوى من الأدلة تجعلنا نعتقد بوجود العرب البائدة بحضارتها ولغتها ومعتقداتها التى هى اللغة العربية الأولى التى لم تصلنا نصوصها .

والأمة الثانية التى كانت لها حضارة هى الأمة أو الأمم التى سكنت جنوب بلاد العرب أو اليمن وهى السعيدة برخائها وخصوبتها وجمال مناظرها وحسن جوها واعتدال هوائها ونقاء مائها . وهذه الأمة كانت لها حضارة أو سلسلة حضارات وكان لها لغة بل لغات هى القحطانية أو العدنانية لغة العرب الذين عادوا من بلاد العراق إلى الموطن الأول وعنهم نشأت قبائل بلغات كثيرة كالقحطانيين والحميريين والسبأيين والمعينيين ثم التبابعة .

وكانت لهذه القبائل معتقدات وطقوس وشعائر كما كان لها ملوك وعروش وتيجان وجيوش وفتوح وغزوات كما تطورت عندهم اللغة العربية .

والأمة الثالثة التى ترقت إليها مدنية العرب هى الأمة القرشية أو مجموعة القبائل التى كانت تسكن وادى الحجاز فكانت لها حضارة وكانت لها لغة أو لغات ومعتقدات وطقوس وشعائر وعادات مرعية وآداب وعلوم وقواعد للحكم وللحياة ، وهذه الحضارة هى المعروفة خطأ باسم الحياة الجاهلية وإنما سميت كذلك لأنها سبقت الإسلام ولم يكن الاسم يدل على جهل الأمة بحال من الأحوال إنما يدل على جهلها بالعقيدة السامية .

هذه الأطوار الثلاثة للمدنية العربية تنقلت فيها الحضارة السامية الصميمة من الوسط إلى الجنوب ثم إلى الشمال الغربى ، وهذه الحضارات الثلاث التى قد تختلف فى بعض مظاهرها المادية والمعنوية كلها مرتبطة ارتباطاً وثيقا برابطة واحدة هى الرابطة السامية ، ففى الخلقة تشابه وفى الأخلاق تشابه وفى اللغة تقارب وفى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأفكار تماثل ومحاكاة ، فكأنها كلها أفرغت فى قالب واحد أو كأنها ثلاث بنات لأم واحدة مهما اختلفن فيما بين أنفسهن طولاً وقصراً ونخافة وسمنا وبياضاً وسمرة ، فإن الدماء التى تجرى فى عروق الواحدة هى التى تجرى فى عروق الثانية والثالثة ، ولو أن هؤلاء البنات الثلاث افترقن منذ الصغر وترعرعن فى أحضان غير أحضان أمهن ودرجن فى بيوت غير بيتها ورضعن لبان أم غيرها ، فقد بقيت علامات مشتركة ربطت بينهن جميعاً وتميزهن عن غيرهن . ولابد أن تمر برؤوسهن فكرات متشابهة ولن تخفق قلوبهن إلا لسبب واحد وعلة واحدة أو لأسباب وعلل متشابهة .

وإذن يجب علينا أن نسأل كيف كانت عقائد هذه الأمم وما هى العناصر التى تكونت منها أديانها ؟ هل كان الدين ضروريا لها ؟

إنك تجد عبادة الكواكب والأجرام السماوية فى كل من تلك الأجناس المتباينة. وإنك تجد الطوطم أو عبادة الوحوش أو الطيور واتخاذ أسمائها أعلاماً للقبائل.

وانك لتجد الكهان والسحرة وعلماء الفلك ومفسرى الأحلام ومدّعى العلم بالغيب. وإنك لتجد الإيمان بالجن والشياطين والأرواح الشريرة والخيرة . وإنك لتجد الطيرة والتفاؤل والتشاؤم . وإنك لتجد عبادة الأوثان والأصنام والاستسقاء بالأزلام واستشارة الأرباب عند كل من هذه الشعوب البائدة والشاهدة . وإنك لتجد تمجيد هذه الأصنام بعد اليأس من الوصول إلى عقيدة تطمئن إليها نفوسهم . ومنها تقريب القرابين على مذابح الآلهة التى من أفظعها تقريب الإنسان، وكان الآريون يقدمون الضحايا الإنسانية . ولكن ليس بنية الساميين الذين كانوا يقدمون الولد البكر (الإنسان) ، ومن ذلك حديث إسماعيل وإبراهيم وعبد الله بن عبد المطلب . وقد بدأ تغيير العقيدة فى مسألة إبراهيم الذى أنزل إليه الفداء وقد بقى هذا المذهب إلى ما قبيل عهد النبى بقليل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سياسة الدولة والملك
فى نظر الفلاسفة

كتاب التاج للجاحظ وكتاب الأمير لماكيافيلى

ومقدمة ابن خلدون (١)

لكل فن فلسفة ولا يقصد بتلك الكلمة ما ترمى إليه عند إطلاقها للدلالة على العلوم الخاصة بها ، بل يقصد بها روح الفن ومعضلاته وأمهات مسائله ، ولما كانت سياسة الدولة من أكبر الأمور شأناً وأرفعها شأوا وأعلاها قدراً ، فقد انقطع لدرسها جماعة من المفكرين فى الشرق والغرب وأولهم وأستاذهم بإجماع الآراء ابن خلدون الذى قضى شبابه ورجولته فى بلاد المغرب والأندلس وطوى كهولته وشيخوخته على ضفاف النيل فى مصر ، ومباحثه فى تأسيس الدول وسياسة الممالك وتقسيم الأمم وأنظمتها المدنية والحكومية أشهر من أن نذكرها للقارىء ، غير أنه يجمل بنا أن نشير إلى أقدميته وأسبقيته على شبيهه نيقولا ماكيافيلى الذى يعد بحق تلميذه ومقلده .

وقد نشأ ماكيافيلى فى جمهورية فلورنس فى القرون الوسطى وفى بلد كان يحكمه المال والجاه وتحيط به الأعداء من كل جانب ويتصرف بالعباد فيه أحد أفراد أسرة مديتشى الشهيرة ، وكان ماكيافيلى من نوابغ الأجيال أرباب الكفايات المتشعبة. فمن فنون التحرير والتأليف إلى وضع القطع التمثيلية ، ومن نظم الشعر الغنائى إلى درس أحوال الأمم والممالك فى التاريخ القديم والحديث ، ومازال يدأب ويعمل ويرحل ويدرس ويشاهد إلى أن وضع كتاب الأمير II Principe وهو إحدى آيات الفن السياسى ، وقد اختلف العلماء فى بيان غايته ، فادعى بعضهم أنه أراد خدمة الاستبداد بإظهار وسائله للملوك والحكام فيتبعونها فى إذلال الأمم

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٨ مايو سنة ١٩٢٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحكومة والمغلوبة ، وادعى بعضهم أنه أراد خدمة الشعوب فبصرها بمسالك الحاكم المطلق وحيل الفاتح سواء أكان الفتح بالحرب أم بالسياسة . وهو فى خلال ذلك يستشهد بنوادر التاريخ منذ بداية الممالك إلى عصره ، ويذكر أخلاق الملوك والأمراء ورجال السياسة وقواد الجيوش ، كل ذلك فى اختصار وإيجاز بكلام قليل يدل القارىء على غاية المؤلف التى يرمى إليها ، وقد يحار المطالع فى فك ألغاز تلك الجمل القصيرة البليغة المنطوية على معان عميقة غائرة . ويروى أن نابليون بونابرت كان يحمل نسخة من هذا الكتاب أنّى ذهب كما يروى أن أحد المتأدبين من حاشية حاكم شرقى قديم ذكر له كتاب الأمير وشوقه إليه وحببه فيه بالسماع فاستحضر نسخة فلما قرأوا له بعض فصولها ونقلوها إلى لغته ابتسم وقال لقارئه « عفوا يا صاح !! هذا ماكيافيلى الذى رفعته إلى عنان السماء ؟ إن عندنا من علمه وفنه أكثر مما حوى هذا الكتاب !» .

ويظهر أن سياسة الدولة شغلت كثيرين من مفكرى العرب وكتابهم وفتنت واحداً من أئمة الأدب العالى وهو الجاحظ صاحب المؤلفات القيمة فى كل علم وفن ، فقد وضع كتاب التاج ، وعندى أن لكل كتاب أخوة من نوعه يحسن بالمتأدب أن يجمع بينها لشدة التقارب بين أفكار مؤلفيها[١] ، فإنه من أنفع الأشياء لنا أن نقرأ كتاب الأمير وكتاب التاج معا ، وإليك وصف هذا الكتاب العجيب بإيجاز حاولنا به الإلمام بروحه دون التفصيل .

بدأ المؤلف العربى العبقرى بالدخول على الملوك وما يجب على الملك إذا دخل الرجل عليه .

وفى هذا الباب وصف دقيق لنظام « التشريفات » لطبقة السلاطين والطبقتين العليا والوسطى مستمدة من نظام الدولة عند آل ساسان وما زالت تلك العادات

---

(١) للمؤلف مقال عنوانه « الطرطوشى أستاذ ماكيافيللى ، ألّف قبله فى سياسة الملك وأخلاق الأمراء » ، نشر بجريدة البلاغ فى ١٩٣١/١/١١ ولم نتمكن من العثور عليه (ر.ل.ج).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والنظم فيهم حتى ملك كسرى أبرويز فغيرها . وفيها نصيحة بتقبيل الأطراف (تقبيل اليد عند الأتراك) وانخفاض الصوت وقلة الحركة وإطراق الرأس وعدم إطالة القعود وحسن الاستماع وتحاشى الكلام على قدر الطاقة ، وهذه الآداب تدل على التمادى فى العبودية والاستسلام ، ومن ضمنها أنه إذا قعد الرجل بأمر الملك فيكون مقعياً أو جاثياً ، وبعض هذه الآداب (!!) إن صحت تسميتها كذلك ، لا يزال سائداً فى بعض الأوساط الشرقية التى جبلت على الذل والخنوع لغير الواحد القهار مثل الهند الصينية .

وانتقل الجاحظ إلى مطاعمة الملوك والجلوس على موائدهم وعندهم أن حظ المدعو إلى مائدة الملك المرتبة التى رفعه إليها والأنس الذى خصه به ، فلا ينبسط بين يديه فى مطعمه ، فلعل الملك أراد أن يعرف ضبط نفس ضيفه ، وعلى الملك أن لا يخص نفسه بطعام دون أصحابه لأن فى ذلك ضعة عليه ودليلا على الاستئثار ، ولما كان آل ساسان والفرس من أضداد العرب والمسلمين فكانوا إذا قدمت موائدهم زمزموا عليها فلم ينطق ناطق بحرف حتى ترفع، وقد جاءت سنة محمد بالتحدث على الطعام ولو بثمن الأسلحة .

وأفاض المؤلف فى باب المنادمة على عطف أخلاق الملك (ويكاد القول يكون ماكيافيليا محضاً) فقال إنه لا يمن بإحسان سبق منه ما استقامت له طاعة من أنعم عليه ودامت له ولايته ، إلا أن يخرج من طاعة الله إلى معصية ، فإذا فعل ذلك فمن أخلاق الملك أن يمن عليه أولا بإحسانه إليه ويذكره بلاءه عنده وقلة شكره ووفائه. ثم يكون من وراء ذلك عقوبته بعد ما يستحق ذلك الذنب فى غلظه ولينه . ولما انتقل إلى الكلام على أخلاق الملوك قال إنها لا تكون معروفة وليست تقاس ولا يعاير عليها . ألا ترى أن الملك قد يغضب على الرجل من حماته والرجل من خاصته وبطانته إما بالجناية فى صلب ماله أو لخيانة حرمة الملك فيؤخر عقوبته دهرا طويلا ثم لا يظهر له ما يوحشه حتى يتقى ذلك فى اللحظة والكلمة والإشارة وما أشبه ذلك، فليس فى الأرض نفس تصبر على مضض الحقد ومطاولة الأيام بها صبر الملوك .

ومن حق الملك فى نظر الجاحظ أن يكتم أسراره عن الأب والأم والأخ والزوجة والصديق ، ومن لم يصلح لملكه لا يصلح لنفسه ومن لم يصلح لنفسه لا خير عنده . وكان كسرى قد نصب رجلا يمتحن به من فسدت نيته وطعن فى المملكة Agent provocateur وهو أخوه من الرضاعة وتربه فى الصبا ، ومن أخلاق الملك التغافل عما لا يقدح فى الملك ولا يجرح المال ولا يضع من العز ويزيد فى الأبهة أى أن يكون سهلا فى كل مالا مساس له بعرشه وماله ، وقد قال معاوية كلمة حكيمة جداً « إنى لأجر ذيلى على الخدائع » .

ومن واجب الملوك إكرام أهل الوفاء وبرهم والاستنامة إليهم والثقة بهم والتقدمة لهم على الخاص والعام والحاضر والبادى وأن لا يثقوا بمن يغدر بمولاه تقربا لهم وقد قال الإسكندر « من غدر بملكه كان بغيره أغدر » . ومن حق الملك أن يترفع عن الاستماع للغيبة والنميمة فلا يعاب عنده أحد صغر أو كبر .

ومن حق الملك أن يعامله ابنه كما يعامله عبده وليس لابن الملك أن يظهر دالة الأبوة وموضع الوراثة ، وليس لابن الملك أن يسفك دما وإن أوجبت الشريعة سفكه . وليس من أخلاق الملك أن يدنى من عظم قدره واتسع علمه وطاب مركبه أو ظهرت أمانته أو كملت آدابه ، إن الملك مثل الكرم الذى لا يتعلق بأكرم الشجر إنما يتعلق بما دنا منه . يقول الجاحظ « وقد نجد مصداق ذلك عياناً فى كل دهر وأخبار كل زمان » .

وقد تولى يزدجر الموصوف بالأثيم الملك ، فظلم الرعية وكان مبدأه « ليس للرعية أن تنتصف من الراعى ولا للسوقه أن تتظلم من الملوك ولا للوضيع أن يساوى الرفيع فى حق ولا باطل » ولكنه لم يطل عهده وهلك .

وقد جمع الجاحظ شروط استمرار الملك فى أربعة أمور ، الأول أن لا يرضى الملك لرعيته إلا ما يرضاه لنفسه ، الثانى أن لا يسوف عملا يخاف عاقبته ، الثالث أن يجعل ولى عهده من ترضاه وتختاره رعاياه لا من تهواه نفسه ، الرابع أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضع عن منام رضيعها . وقد ضرب الجاحظ

المثل ببعض الملوك الذين اشتهروا بالأمر الأخير وهم أردشير بن بابك ، وعمر بن الخطاب ومعاوية وزياد وعبد الملك بن مروان والحجاج والمنصور والرشيد والمأمون ٠

ومن أخلاق الملك إذا دهمه أمر جليل أن لا يجعل للتسويف والتمنى وحسن الظن بالأيام نصيبا ٠ قال معاوية « ماذقت أيام صفين لحما ولا شحماً ولا حلواً ولا حامضاً ، ما كان إلا الخبز والجبن وخشن الملح إلى أن تم لى ما أردته !!»

وينبغى للملك أن يجعل المحاربة آخر حيله فأسعدهم من غلب عدوه بالحيلة والمكر والخديعة و «الكلمة الخفية أنفذ من الرمية!!» ٠

ومن المصادفات أن ما كيافيلى أهدى كتابه إلى أمير وهو لورنزو دى مديتشى ، كذلك أهدى الجاحظ كتابه إلى الأمير الفتح بن خاقان ٠

هذا ما أردنا ذكره من كتاب التاج لمعارضته بكتاب الأمير تدليلا على أن الغرب لم يفضل الشرق فى قليل أو كثير وأن العقل العربى لم يقصر عن العقل الأوروبى فى معالجة سائر الشؤون وممارسة العلوم والفنون كافة ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة ابن خلدون لساطع الحصرى
نقد وعرض وتقدير [1]

—

لا ريب فى أن سائر قراء العربية والذين قرأوا مقدمة ابن خلدون لوقوعها فى أيديهم مصادفة أو بنصح ناصح وأتيحت لهم فرصة الاطلاع على بعض كتاب التاريخ نفسه أو كله وهو الموسوم باسم (كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) قد شعروا بخيبة الأمل للفرق العظيم الشاسع بين المقدمة والكتاب ، فإن قارىء المقدمة ينتظر بطبع الأشياء أن يكون التاريخ على نسقها وأسلوبها وقوتها فى الاستنتاج واستخراج المعانى العالية ولا سيما وأن المؤلف رحمه الله قد أشاد بعلم التاريخ نفسه عندما قال فى المقدمة : إن فن التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال ، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال ، ويتساوى فى فهمه العلماء والجهال ، إذ هو فى ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمى فيها الأقوال وتضرب فيها الأمثال ، ويطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال ... إلخ .

والسبب فى هبوط مستوى التاريخ عن المقدمة ليس راجعا إلى عجز المؤلف العظيم أو تقصيره عن الإلمام أو ضعف اجتهاده عندما فرغ من المقدمة وتصدى إلى تدوين التاريخ ، وإنما السبب الأول والأخير فى قصور التاريخ عن المقدمة وظهور ذلك لكل قارىء مميز ، كائن فى مواهب ابن خلدون نفسه ، فقد كان عالما وفيلسوفا وكان مفكرا متعمقا ومن أصحاب البصائر المستنيرة ، فبعد أن كتب المقدمة المنطوية على المبادىء الفلسفية والاجتماعية وعلى دراسة الطبيعة الإنسانية ومقدار تأثرها بالبيئة الجغرافية ووراثتها الفضائل والرذائل ، وتغلغل فى فحص النظم السائدة التى

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة الدستور فى ٥ يوليه سنة ١٩٤٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنتجتها الضرورة بالطبع والتى أشار باتباعها العقل ، نظر إلى التاريخ فى ذاته فإذا هو مجموعة أخبار لم تكن تؤيدها فى عصره إلا الرواية والقصة والأحاديث الإنسانية وهذه يعتورها التشويه والغلط وقد تمليها الأغراض والمصالح وتنقص وتزيد بفعل صاحبها متعمدا أو منساقا لضعف الذاكرة أو تقادم الزمن ، ولا سيما وأن كثيرا من الكتاب ارتجلوا القيام بهذا الفن بدون تخصص ولا دراسة سابقة وبالغوا فى الخلط ومزجوا بين التاريخ والقصة واتبعوا بعض قواعد علم مصطلح الحديث ، ولكن عنايتهم برواية الحديث فى العصور الأولى كانت عظيمة جدا بالنظر لمقام النبى محمد عليه الصلاة والسلام وللعلاقة المتينة بين حديثه وبين أحكام الشريعة ونظام حياة المسلمين فى بقاع الأرض ، ومع هذا وذاك فإن الحديث الشريف لم يخل من الزيغ والوضع والخديعة والجهل ، وحسبنا دليلا على هذا أن كتب الحديث وهى ستة لم يصح منها صحة مطلقة إلا كتابا الشيخين الصحيحان (البخارى ومسلم)، وكان ابن خلدون رحمه الله يعلم هذه الأمور بحكم علمه وصناعته ، ولذا أقدم على كتاب التاريخ متكلفا ، وفى ظنى أنه لو بدأ بكتابة التاريخ لما شرع قط فى كتابة المقدمة لأنهما عند الظهور تناقضا ، فالمقدمة علم ، وفلسفة ، ومنطق ، واستنتاج وهى أمور خاصة بالإدراك والذهن والفهم والمنطق ، أما التاريخ فقصة كبرى تتفرع عنها قصص صغرى . وكاتب المقدمة كالواقف على الصخر والمتشبث بأمراس كتان شدت إلى صم الجنادل ، بينا كاتب التاريخ يشبه النازل فى قارب النجاة تتقاذفه الأمواج وتعبث به الرياح .

ولو أن ابن خلدون رحمة الله عليه إكتفى بعد كتابة المقدمة ببعض المثل العليا والواقعات الثابتة التى لا يأتيها الباطل ليقدم الأمثال ويقيم الأدلة على صدق نظرياته فى المقدمة ، لكانت ثمرة أعماله أشهى وأحلى وادخر قوته التى ضيعها فى التاريخ فى استكمال هذا البحث النفيس العالى .

وليس هذا الرأى منا نقدا لهذا العالم الجليل ولكنه أمنية ترددت فى النفس من زمن طويل بعد أن قرأنا المقدمة ودخلنا فى التاريخ وقد جاهرنا بأن ابن خلدون لم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكن مؤرخا ولكنه فيلسوف وعالم اجتماعى .

وقد رأينا أمرا مماثلا وقع فيه هيجل الفيلسوف الألمانى بكتابه « فلسفة التاريخ» فجاء فيه من الخلط والتهويش والغموض ما زعزع مكانته ، لأن التاريخ ليس له فلسفة غير ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته ، ومع أن هيجل كان مدرسا للفلسفة ومدعيا تلمذته على كانط وزاعما أنه مكمل لمذاهبه ، فقد أخفق إخفاقا شنيعا وجعل نفسه أضحوكة العلماء فى القرن التاسع عشر [1].

ولا يمكن أن يكون الفيلسوف مؤرخا لأن طريقة تفكيره وتصوره وإدراكه وتعلقه بالمقدمات والنتائج والمسببات والأسباب والزمان والمكان ومابعد الطبيعة ، تعوقه عن الاكتراث بالواقعات وتعدم قيمة الحوادث المروية وتحمله على الشك فى صدق الحكاية والقصة ، وهو بطبيعة الحال لا يمتلىء بالإعجاب الواجب على المؤرخ بالشخصيات الفذة ، فإن نظر إلى الرجال الذين يوصفون بالعظمة حكماً واعتباراً فإنما يكون هذا النظر من باب التعليق على العبقرية أو مواهب العقل الممتازة ولا تدهشه حوادث الدنيا ولا يستخرج منها عبرة لأن كل حادثة مهما عظمت فإنها لاتخرج فى نظر الفيلسوف عن حلقة من سلسلة ما يقع على قشرة الكرة الأرضية وهى أحد الكواكب السابحة فى الفضاء اللا نهائى ، ومثل الفيلسوف الذى يشتغل بالتاريخ كمثل ابن الهيثم وهو رياضى كوفى إذا اشتغل بعدّ البرتقال أو الليمون ليقدم عنهما حسابا ، فعلم التاريخ بالإجماع علم وضيع بالنسبة للفلسفة وأشخاص العظماء أقزام بين يدى من ينظر فى الكون محاولا تفسيره وتعليل وجوده .

نعم كان توماس كارليل فيلسوفا ومؤرخا ولكن انظر كيف كتب التاريخ ؟! فإنه وضع تاريخا للثورة الفرنسية وكتابا فى عبادة الأبطال ، ولأجل أن ندلل على صحة الرأى نلفت نظر القارىء إلى ما كتبه هيبوليت تين المفكر العظيم الفرنسى نقدا على كارليل فى كتابه الأدب الإنجليزى ، فإن تاريخ الثورة ليس تاريخا ولكنه سلسلة

---

(١) انظر بحث المؤلف عن « الفلسفة والتاريخ » ، ص ١٧- ص ٢٧ من هذا الكتاب .

فصول يمليها العقل الباطن على الكاتب بل هى تأملات عقل مضطرب إذا صح الجمع بين الاضطراب والتأمل ، واهتزازات عصبية سببها إهراق الدماء وزفرات خارجة من صدر ضيق ينفث اللوعة تلو اللوعة ويرجع الحوادث للقضاء والقدر ويجزم بأن دانتون وروبسبيير وكاميل دى مولان والملك والملكة وميرابو وجيوتين مخترع المقصلة لم يكونوا إلا ألاعيب فى يد القدر ، ولا يستطيع قراءة ذلك التاريخ إلا مؤرخ ملم بالحوادث والأشخاص صبور على الشدائد حلال للألغاز والأحاجى والمعميات ، وهذا ما أبرزه تين خير إبراز فى كلامه عن كارليل ، أما كتابه الآخر عبادة الأبطال وهم أمثال محمد عليه الصلاة والسلام ونابليون بونابرت ، فقد اتخذ عبقرياتهم نماذج لأممهم ووصف تأثر الأمة بالفرد سواء أكان نبيا أم سياسيا أم محاربا أم شاعرا أم كاتبا ، وليس هذا من التاريخ فى شئ بل هو تحليل لأثر الفرد فى المجموع لا يتعرض فيه كارليل للحوادث إلا نادرا ، وشغله الشاغل هو الصورة الذهنية الكبرى التى يرسمها عن حياة الأمة التى ينتمى إليها البطل قبل ظهوره وبعد ظهوره ، ولا شك فى أن دراسته لتاريخ الثورة الفرنسية هو الذى أوحى إليه كتاب الأبطال .

أدرك ابن خلدون بقريحته الوقادة وفطرته السليمة هذه الأمور فى المقدمة فأشار إليها فى فصل عنوانه (ومن الأخبار الواهية للمؤرخين - ما ينقلونه فى أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى إفريقيا والبربر من بلاد المغرب وأن إفريقش بن قيس بن صيفى من أعاظم ملوكهم الأول وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل غزا إفريقيا وأثخن فى البربر وأنه سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة ، فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به حينئذ ، وأنه لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم صنهاجة وكتامة ...) قال ابن خلدون تعليقا على هذه النبذة (وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة فى الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة) ، ثم قال فى ص ١١ : « وانظر ما نقله ابن عبد ربه فى مفاوضة الرشيد عم جده داود بن على فى شأن نكبة البرامكة وما ذكره فى باب

الشعراء من كتاب العقد فى محاورة الأصمعى للرشيد والفضل ابن يحيا فى سمرهم، تتفهم أنه إنما قتلتهم الغيرة والمنافسة فى الاستبداد من الخليفة فمن دونه ، وكذلك ما تحايل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على إسماعه الخليفة وتحريك حفائظه لهم وهو قوله :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد	وشفت أنفسنا مما نجــــد
واستبدت مرة واحــــدة	إنما العاجز من لا يستبــد

وأن الرشيد لما سمعها قال أى والله إنى عاجز ، حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال ، وأما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاش لله ما علمنا عليه من سوء ، وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاورته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمرى ومكاتبته سفيان الثورى وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة فى طوافه وما كان عليه من العبادة ». انتهى عن المقدمة ص ١١ .

وظاهر تمام الظهور من هذه النبذة وما سبقها وما تلاها أن ابن خلدون رأى عيوب التاريخ والمؤرخين وعلم أن الذين يستحقون صفة المؤرخ على الرغم مما فى مؤلفاتهم من المطاعن والمغامرة قليلون جدا وأنهم لا يكادون يتجاوزون عدد الأنامل وحركات العوامل ، وأما البقية فهم من الهمل الذين ليس يعتبر لهم مقال وينعتهم بأقصى النعوت مثل بليد الطبع والعقل وقوله إن الأخبار والحكايات مظنة الكذب ومطية الهذر ، والكذب متطرق للخبر بطبيعته ، وقد وضع شبه قواعد لنقد الخبر رقمها الأستاذ ساطع بك الحصرى فى كتابه عن مقدمة ابن خلدون من ١ إلى ٧ ص ٢٢٥ ، وعلى الرغم من هذه المهاوى كتب ابن خلدون تاريخه .

للكلام بقية (١).

---

(١) لم نتمكن من العثور على هذه البقية (ر.ل.ج).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ إحياء العلوم والمدنية بإيطاليا [1]

—

تاريخ الإحياء :

يصعب على المؤرخ أن يعيّن بالدقة تاريخ بداية عهد إحياء العلوم والمدنية بإيطاليا وتاريخ نهايته ، لأن البداية وإن كانت فى عرف المؤرخين ترجع إلى القرن الرابع عشر للمسيح عليه السلام لظهور علائم الإحياء ونبوغ بعض رجاله فى هذا القرن ، إلا أن هذه العلائم يرجع أصل معظمها إلى ماقبل هذا القرن ، فكأنها ثمار غرس القرون السابقة نضجت فيه . ولو أردنا الرجوع إلى تاريخ ذلك الغرس اضطرنا الاستقراء للعودة للقرون الأولى واختلط تاريخ غرس بذور نهضة الإحياء بتاريخ الترقى الإنسانى ، وهذا لا بداية له .

أما فيما يتعلق بتحديد تاريخ نهاية عهد الإحياء فليست الصعوبة بأقل مما ذكرنا عن تحديد تاريخ البداية ، لأن نهضة الإحياء ابتدأت واستمرت ولاتزال إلى الآن سائرة فى طريقها وهى بطبيعتها مختلطة بتاريخ التقدم البشرى وهو لا آخر له ولا نهاية إلا بنهاية البشر .

معنى كلمة الإحياء :

الإحياء يشمل بيان ماتم من التغيير والتقدم فى فروع الحياة العقلية والاجتماعية والفنية فى ثلاثة قرون بإيطاليا .

فقد حدث فى الفنون الجميلة تغيير تام من حيث ظهور بعض الفنون التى لم تكن معروفة من قبل ومن حيث إدخال طرق جديدة فى بعض الفنون المعروفة وظهور

---

(١) محاضرة ألقاها المؤلف مساء السبت ٢٨ يناير سنة ١٩١١ فى نادى المدارس العليا بمصر .

آثار جليلة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الفنون ، ونبوغ رجال لايزالون إلى الآن أقطاب دائرة تلك الفنون ، وظهور مذاهب جديدة فى النقش والنحت والعمارة انتشرت فى أنحاء العالم المتمدين وأصبح ما نراه فى العالم الآن أثراً من آثارها ، وكذلك بدأ فى عهد الإحياء عهد درس فنون الأدب وتبويبها وتخرج فطاحل فى الشعر والنثر وضعوا كتباً نسج على منوالها الخلف ولاتزال عمدة المتأدبين فى هذا الزمان .

وامتاز عهد الإحياء باهتمام الأدباء والعلماء بدرس آثار السلف ، فعنوا بجمع كتب اليونان وتفهم الآداب اللاتينية وهذا ما يسمى عندهم بحب القديم أو التراث «أمورى دلنتيكيتا» .

كذلك امتاز هذا العهد بتحرير الضمير الإنسانى بما أظهره المصلحون المسيحيون أمثال مارتين لوثيروس وزنجويل وكالڤين وآراز موس من المبادىء الدينية الجديدة .

وامتاز هذا العهد أيضا بظهور قوانين حديثة للعلوم واكتشاف قواعد ثابتة كان علماء الأرض فى غفلة عنها مع شدة أهميتها بين علوم البشر ، منها ما اكتشفه كوبرنيك فى علم الهيئة وما قال به جاليليو فى دوران الأرض وما أثبته فرساليو فى علم التشريح وهارڤى عن الدورة الدموية .

كذلك ظهرت تغييرات مهمة فى الحياة السياسية ، فاختفى نظام الالتزام (الإقطاع) الذى كان سائداً فى القرون المظلمة ، وبدأت الأمم الأوربية تحيا واحدة بعد أخرى وتطالب بالاعتراف بوجودها وبسلطتها .

كذلك امتاز عهد الإحياء بتحديد سلطة الكنيسة وإيقاف نفوذ البابا عند حد معلوم .

وظهرت مبادىء الحرية العامة وتمتعت بها سائر الطبقات الوسطى والنازلة ولم تختص بها الطبقة العليا دون سواها .

ثم اكتشف فى هذا العهد العالم الجديد (أمريكا) ، وقد فُتح بهذا الاكتشاف للإنسان ميدان واسع للرقى المادى والأدبى وكان بداية ظهور مدنية جديدة لاتزال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى الساعة فى عنفوانها .

واكتشفت الآلات الحديثة التى خدمت العلوم خدمة جليلة منها التلسكوب الذى يقرب البعيد من المناظر وغيره .

فتعريف الإحياء يستنتج مما سبق . فالإحياء هو حركة طبيعية لا يمكن تفسيرها بمظهر من المظاهر البسيطة والدلالة عليها بتعريف سطحى ، إنما هى قوة من قوى الإنسانية ظهرت آثارها فى كل شىء ولاتزال حتى الآن تسير فى تيارها .

فى القرن الرابع عشر للميلاد اهتز العقل البشرى فى الأمم الغربية ونهض من سباته الطويل وعاد إلى النشاط والعمل . فالإحياء والإصلاح والتغييرات السياسية لم تكن أشياء يمكن فصلها عن بعضها البعض ، إنما هى حلقات فى سلسلة متصلة، إنما يمكن رد بعض مظاهر الإحياء إلى حوادث كبرى حدثت فى القرون الخالية ، فإن ظهور حب الأوطان وتعلّق كل أمة بأرضها ومحاولتها إثبات شخصيتها وسلطتها، كل أولئك يرجع إلى إغارة البربر من قبائل الشمال .

إيطاليا أول أمم الإحياء :

وأول أمم الأرض التى ظهر فيها بشائر الإحياء وقام بأعبائه رجال من أبنائها هى الأمة الإيطالية ، وكان لذلك أسباب مهمة ، منها استعداد اللغة الإيطالية للآداب لكونها سليلة اللغة اللاتينية أولاً ، ولكونها صقلت بأقلام فحول الشعراء والكتاب الذين افتتحوا عهد الإحياء الأدبى أمثال دانتى اليجرى وبترارك وبوكاتشيو .

ومن تلك الأسباب أيضاً جمال جو إيطاليا وخصب أرضها وتوسطها بين أمم الغرب وكونها محط رحال العلماء ولما كان بينها وبين أمم المشرق من العلاقات التجارية.

ومن هذه الأسباب أيضا ظهور الحرية السياسية فى جمهوريات إيطاليا ومدنها المستقلة قبل ظهورها فى غيرها من الممالك . ومنها إثراء إيطاليا من تجارتها مع الأمم الأخرى ، ولأن إيطاليا كانت أولى الأمم الخمس التى تكونت فى ذلك العهد

وهى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وإنكلترا وجرمانيا • ثم إن إيطاليا كانت أولى الأمم التى ظهرت فيها مظاهر عهد الإحياء بقوة ، وتلك المظاهر كانت فى مجموعها ثلاثة ، الأول حرية الأمم ، والثانى الإصلاح الدينى ، والثالث التغيير السياسى •

بعض رجال الإحياء :

قبل ظهور حركة الإحياء بما لها من القوة - ظهر رجال فى بعض ممالك أوربا غرسوا مبادىء وأفكاراً جديدة كانت من أهم المصادر لما تلاها ، فمنهم أبلاردو الذى امتاز بأبحاثه المنطقية وهو إيطالى ، وباكون الذى امتاز بأبحاثه الفلسفية والأناليثيقية (التحليلية) وهو إنكليزى ، ومنهم دانتى الذى وصل إلى الجمع بين جلال السلف فى الأفكار وبين النظم والنثر باللغة الإيطالية الحديثة ، وقد وجدت إيطاليا فى دانتى وبترارك وبوكاتشيو أبطال الحرية العقلية الذين فكوا قيود الفكر الإنسانى •

سقوط إمبراطورية بيزنطة :

ثم إن سقوط الدولة البيزنطية عام ١٤٥٣ كان دليلاً على انتهاء عهد المدنية القديمة واجتماع قوى تعمل لإحياء عالم جديد وخلق مدنية حديثة ،ولم يكن من المستطاع ظهور تلك المدنية الحديثة إن لم تثق العبقرية الإنسانية بقوتها ، لذا نرى فى تاريخ الإحياء ظهور ثقة العبقريين والنابغين بأنفسهم وبمواهبهم •

اكتشافان :

وقد كان من أسباب تلك الحركة الجديدة اكتشافان عظيمان ، الأول اكتشاف الإنسان الإنسان ، والثانى اكتشاف الإنسان العالم (الكون)•

أما اكتشاف الكون فكان بظهور مبادىء كوبرنيك وجاليليو وباكتشاف أمريكا، واكتشاف الإنسان الإنسان فهو عبارة عن اهتمامه بحياته الدنيوية وعودته إلى عهد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المدنية القديمة ثم اهتمامه بحياته الدينية ومحاولة الرجوع إلى مبادىء الكنيسة الأولى ، ثم اهتمام الإنسان بالحياة العقلية وذلك ظهر بإكباب العلماء على درس آثار السلف ، ثم اهتمام الإنسان ببدنه ، فظهر المتفننون الذين اشتغلوا بنقش الصور وصنع التماثيل منقولة عن الأبدان العارية ، وقد اقتضى هذا درس علم التشريح .

وقد نتجت عن الاهتمام بالجسم البشرى نتيجتان ، الأولى اشتغال المتفننين بتصوير تاريخ الدين المسيحى ومزج العقيدة النصرانية بالعواطف البشرية التى قاعدتها حب الجمال ، والنتيجة الثانية تقدير الإنسان جسمه حق قدره واعترافه بأن للأبدان على أصحابها حقوقاً .

علوم الأقدمين :

أما الإكباب على علوم الأقدمين وهو ما يسمى بالأيطالية « إيرويزيونى » ، فقد أظهر للعلماء ثروة عقول الأقدمين وجلال أفكارهم ، ونتج عن ذلك تقدير الحياة الإنسانية قدرها منفصلة بذاتها بقطع النظر عن الحياة والتعاليم الدينية .

ثم إن إكباب علماء إيطاليا فى ذلك العهد على علوم الأقدمين أخرج للعالم الحديث كنوز العلوم والآداب اليونانية واللاتينية .

وقد ميز المؤرخون فى تاريخ تحصيل علوم الأقدمين ثلاثة نقط مستقلة :

الأولى : نقطة الشوق والتعلق بعلوم الأقدمين ، ورجال هذه النقطة بترارك وبوكاتشيو .

الثانية : نقطة جمع الكتب وتأسيس المكاتب العامة التى أسست فيها كمكتبة الفاتيكان ، وغيرها أسسه كوزيمو دى مديتشى فى فلورنسا . وتمتاز هذه النقطة بجنون الأدباء الإيطاليين بالبحث عن الكتب الثمينة وجمعها ونسخها .

النقطة الثالثة : نقطة الفحص والتحقيق والنقد وحلّ قيود الفكر البشرى ، وقد ساعد انتشار العلوم وتبحر الناس فيها على تخليص العقيدة المسيحية مما دخل عليها من الشُبَه ، وعلى تحرير الناس من سلطة القسيسين المطلقة والذين كانوا من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسببى الحرية الفكرية التى أدت إلى خروج الناس من تحت نفوذ الكنيسة أمثال ديكارت وباكون وسبينوزا ولوك من جهة ولوثيروس من جهة أخرى ، لذا كان من الخطأ القول بأن حركة الإصلاح الدينى (بروتستانتيزم) كانت حركة قائمة بذاتها ، لأن الإصلاح الذى هو انقلاب فى الفكرة الدينية لم يكن من نوع ما تم فى حياة الأمم من الوجهة السياسية وفى العلوم والفنون من الوجهة العقلية ، أو بعبارة أخرى هذه كلها كانت مظاهر مختلفة لحركة واحدة .

وقد عم الإحياء سائر أمم أوربا ، ولكنه كما ذكرت ظهر لأول الأمر فى إيطاليا ثم سرى منها إلى ألمانيا ففرنسا فإنكلترا .

تاريخ فلورنسا :

عهد الظالمين :

يجدر بالقرنين الرابع عشر والخامس عشر أن يسمّيا بعهد الظالمين فى تاريخ إيطاليا ، فقد كانت إيطاليا خلال هذين القرنين محرومة من حكومة مركزية ، وكانت حريتها بالنسبة لنظام الالتزام حرية نسبية ، ولم يكن بإيطاليا كذلك سوى حكومة واحدة تعاقب على رئاستها أفراد أسرة واحدة ، وهذه هى حكومة صقلية ، وكان بإيطاليا كذلك ثلاث جمهوريات كبرى هى جمهوريات البندقية وجنوا وفلورنسا ، وكان الظالمون الذين اكتسبت الأيام نسبتها إليهم سائدين فى المدن ، وكانوا على أنواع شتى ، فالنوع الأول كان من الظالمين الذين ورثوا السلطة خلفاً عن سلف عن بعض الأمراء الالتزاميين (الإقطاعيين) والأمراء الذين بقوا من هذه البيوتات هم أمراء بيت مونفراتو ثم أمراء بيت سافويا . ومن الصعب تحديد الفرق بين أسرة وراثية مثل أسرة إستا وبين أسرة سوّدتها رغبة الشعب .

والنوع الثانى من الظالمين يشمل الأشراف الذين أسسوا فى ظلال سلطة الإمبراطور ممالك فى لومبارديا غير قائمة على دعائم شرعية مثل أسرتى سكاليجرى وأسرة فيسكونتى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والنوع الثالث هو جماعة أشراف المدن الحرة وكلت إليهم السلطة الحربية أو السلطة المدنية مثل القواد وأصحاب العهود ، فسلبوا السلطة وتمكنوا بها من إذلال مدنهم التى وكلت إليهم حكوماتها ، ومنهم كاراريسى ببدوا وطورياني وفيسكونتى بميلانو .

والنوع الرابع مؤلف من القواد المأجورين الذين وكل إليهم قيادة جيوش المدينة فى بعض المواقع ، فتمكنوا بقوة الجيش من الاحتفاظ بسلطتهم وأسسوا على ذلك الأساس ملكاً ، ومنهم أسرة سفورزا بميلان وحنا هوكوود بأجتو .

والنوع الخامس هو من أبناء البابوات أو أبناء إخوتهم وأخواتهم أمثال رياربو بفورلى وديلا دوڤرى بأوربينو وبورجيا بروما نيا .

والنوع السادس من المستبدين الإيطاليين وهو أكثر الأنواع عدّاً وأهمها ، فقد كان مكوناً من بعض أعيان المدن أمثال أسرة مديتشى بفلورنسا وبنيڤولو ببولونيا وجمباكورتى ببيزا ، وقد انتفعوا بنفوذهم فى خلق سلطتهم ثم استبدوا بالأمر فى مدنهم ، وفى أغلب الأحيان كانت الثروة سبب بلوغ هؤلاء الأعيان شأو الأمراء (راجع ماكياڤيلى « كتاب المقالات » الجزء الأول ص ١٧٠ نسخة إيطالية ، وراجع فى تاريخ الجمهوريات كتاب سيسموندى).

والغريب أن الاستبداد فى إيطاليا كما كان فى بلاد اليونان فى العهد القديم -استبداداً ديمقراطياً يرضى به الشعب ويقبله ، فقد كان هذا الاستبداد قائماً على سلطة الشعب وبها ، ومع هذا كان يسحق الشعب سحقاً ويذيقه صنوف الهوان وهو يستمد منه نفوذه !

أما حياة هؤلاء المستبدين أنفسهم فقد كانت مملوءة بأنواع الخوف والجزع مما يمكن أن يلحق بهم ، وقد أصيب معظمهم بداء الوجل من الذات (مونومانيا) ، فإن ألفونسو الثانى كان يرى أشباح فرائسه وأعدائه الذين فتك بهم ، وقد قضى بعضهم مما كانوا يخافون أن يكون إذا فقدوا حظوة الشعب الذى رفعهم ، كذلك مات جيرولومو رياريو بفورنى عام ١٤٨٨ وهلك فرنسيسكو ڤيكو دى بزمتى بكنيسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القديس سيستو بفتربو علم ١٢٨٧ ٠

ومما يذكر أن هذه الأسر المستبدة كانت كلها تريد أن تؤول إلى الفناء وذلك لأسباب الفساد الناشيء عن طبائع الاستبداد (راجع مقالة ماكولى عن ماكيافيلى)٠

قال چيوڤانى ڤيلانى المؤرخ الإيطالى (١٢٧٥ - ١٣٤٨) فى الفصل الأول من الكتاب السابع من تاريخه المتع إن أعمالهم الدنية كانت ترمى دائماً إلى محاربة الخير والفضيلة ، وأنهم كانوا شغفين باستبدال العادات الحسنة بغيرها سيئة ٠ وقال جوتشاردينى فى كتابه تاريخ إيطاليا (أربعة أجزاء) « إن ممالك المستبدين قائمة على دماء الشعب المتجمدة » ٠ ونظم الاريوسطو الشاعر الإيطالى الذى اشتهر فى القرن السادس عشر قصيدة (الأغنية الخامسة) مطلعها :

إذا حسنت أخلاق الملك ، حسنت أخلاق شعبه ٠

مؤرخو فلورنسا :

اشتهرت فلورنسا فى العصور الحديثة بأنها مدينة الذكاء والعلم ، وكان مركزها بالنسبة لبقية المدن والشعوب كمركز أثينا فى العهد القديم ، وقد اعترفت إيطاليا بأسرها بأسبقية أهل فلورنسا فى فنون الأدب والفنون الجميلة وعلم القوانين والشرائع ، ومن يشاهد هذه المدينة ويرى آثارها وبدائعها يثبت له لأول وهلة أنه لم يجتمع لأهل بلد من الذكاء وحب الفنون وثروة الفكر وكبر النفس وحب الحرية من عهد أهل أثينا إلى الآن بعض ما اجتمع لأهل فلورنسا وحدها[١]٠

ويرجع تاريخ نهضة فنون الأدب فى فلورنسا إلى أواخر القرن الثالث عشر ، إذ ظهر فيها كاتبان عظيمان وهما دانتى اليجرى وچيوڤانى ڤيلانى ، وقد وضعا بما

---

(١) عن فلورنسا وآثار فنانيها ورسّاميها ومثّاليها وأدبائها وشعرائها ، راجع كتاب المؤلف « تذكار الصبا ، ذكرى ١٩ مارس » ، عالم الكتب ، سنة ١٩٩٩٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ألقاه من الرسائل ودّوناه من الكتب والشعر أساس نهضة العلوم والآداب فى إيطاليا، ولاتزال كتب ڤيلانى آثاراً خالدة ، ومن يقرؤها يرى أدلة ساطعة على حبه للعلم وإكبابه على طلبه بدون انقطاع وصبره على شدائد الدرس وممارسة الاطلاع ، كما أن كتبه تدل على ما كان لأهل إيطاليا فى ذلك العهد من الفضل على سائر أهل أوربا .

أما دانتى اليجرى فقد كان فيلسوفاً وأديباً عم فكره سائر فروع المعلومات البشرية وامتاز شعره بالاقتدار على تقييد وتخليد العواطف سريعة الطيران وتدوين الإحساسات الوقتية ، وفى هذه القدرة فضله وإن كان لا يضارع من سبقه من الشعراء الذين اشتهر شعرهم بتحليل العواطف وبوضع الحكمة فى قوالب الشعر .

ومن مؤلفاته الكثيرة كتابه فى سياسة الملك واسمه « موناركيا » أى الملكية المطلقة ، وهو أول ما دوّنه أهل أوربا المحدثون فى سياسة الممالك وأول كتاب أساسى فى علم السياسة ، والكتاب عبارة عن بحث مستفيض فى فلسفة القوانين النظامية ، ويدور محوره على ضرورة وجود حكومة عامة منظمة غايتها الوصول بالإنسانية إلى أسمى درجات الكمال والسعادة ، وأن هذه الحكومة تسير بمقتضى قوانين الطبيعة.

ثم ألف دانتى أيضاً كتاباً اسمه « دى ڤولجارى إيلوكيو » بحث فيه عن قيمة اللغة المحكية بعد أن أتى على تاريخ اللغة الإيطالية وردها كفرع من الشجرة اللاتينية ، وذكر أنواع لهجاتها وأثبت نفع انتشار اللغة الإيطالية الحديثة فى سائر أنحاء إيطاليا ، ثم دون قصيدته المشهورة « ديڤيناكوميديا » وهى أشهر من نار على علم فلا لزوم للكلام عليها فى هذا المجال (١)

ومن كبار الكتاب والمؤرخين دينوكومبانى الذى وضع تاريخاً يوميا (كرونيك)

---

(١) عن قصيدة « ديڤينا كوميديا » أو الكوميديا الإلهية ، انظر مقال المؤلف « جحيم دانتى اليجيرى » فى كتابه « فى الأدب والنقد » ، ص ٨٠٧ – ٥ ٨١ ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

لفلورنسا ذكر فيه الوقائع والحوادث يوماً بيوم كما فعل الجبرتى فى تاريخ مصر وقد اختلف الكتاب فى صدق هذا الكتاب ومصادره ، ولكن أجمعوا على علو كعب مؤلفه ورشاقة أسلوبه وحذقه فى الرواية ٠

وامتاز أيضا من المؤرخين فى القرن الخامس عشر « ليوناردو برونى دارتزو » «ويوجيز بروتشيلونى» ، وكان كل منهما وزيراً للجمهورية فعنيا بتدوين تاريخ أهل فلورنسا من بداية تأسيس المدينة إلى يومهما ٠

ولما حل عام ١٤٩٤ ظهرت روح الحرية القديمة أبلغ مظهر فى خطب الخطيب المصلح المتنبىء چيوررو لومو ساڤونارولا الذى كان معاصراً للورنزو الفخيم (مانيفكيو)، وكان عهد لورنزو هذا زاهياً زاهراً بالأدب والأدباء وأرباب الفنون البديعة والفلاسفة حتى أنه شاد لهم بيتاً يأوون إليه ويواصلون دروسهم فيه على نفقة الأمير٠

كان تاريخ فلورنسا حافلاً بالحوادث الكبرى ، وأهم تلك الحوادث ما حصل بين ١٤٩٤ و ١٥٣٧ ، فمنها تعذيب الأخ ساڤونارولا الذى قضى ضحية مبادئه بواسطة دسائس البابا إسكندر السادس وخيانة مجلس السنيوريا ٠ ومنها طرد اثنين من أسرة مديتشى وهما إيبوليتو وإسكندر ، فقد دسّ إسكندر السم لإيبوليتو وخلص منه، ولكن لم يطل عهده حتى قتله الإسكندر ٠

ومنها استيلاء فرع من أسرة مديتشى على السلطة فى فلورنسا فى شخص كوزيمو وهو الأمير الذى أرغمتْ دولة إسبانيا أهل فلورنسا على قبوله بالرغم عنهم ، وغير ذلك من حوادث تاريخ فلورنسا كثير سيأتى شرح بعضه بالتفصيل فى هذه المحاضرة ، وبعضه يضيق عنه نطاق الكتب الصغرى ويرجع فيه إلى أمهاتها [١].

---

(١) أورد المؤلف جدولاً بأسماء مشاهير المؤرخين الذين ألفوا كتباً فى تاريخ إيطاليا وفلورنس وأمام كل منهم بيان السنين التى امتدت عليها حياته :
ماكياڤيلى (١٤٦٩ - ١٥٢٧) - ناردى (١٤٧٦ - ١٥٥٦) - جويتشارديني (١٤٨٢ - ١٥٤٠) - نارلى (١٤٨٥ - ١٥٣٦) - چيانوتى (١٤٩٢ - ١٥٧٢) - ڤاركى (١٥٠٢ - ١٥٦٥) - سنى (١٥٠٤ - ١٥٨٨) - پيتى (١٥١٩ - ١٥٨٩) ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والذى يلفت أنظار المطلع على تاريخ فلورنسا هو انطفاء شعلة الحرية فى مدة قرنين من الزمان بحيث لم يبق منها إلا رغبة فيها ، وكانت هذه الرغبة فى أول الأمر ضعيفة ثم قويت ، وكل ما كتبه المؤرخون عن تاريخ تلك المسألة يمتاز بصفتين ، الأولى أنهم كانوا يكتبون نوعين من التاريخ ، الأول لأنفسهم بصفة مذكرات لا يقصد منها وقوف العامة على ما يدونونه ، والنوع الثانى للجمهور ، والصفة الثانية هى امتداد الزمن الذى دونوا حوادثه .

ساڤونارولا :

كانت نهضة إيطاليا فى القرن الرابع عشر حافلة بالمتناقضات وذلك شأن كل الحركات الكبيرة ، وأكبر هذه المتناقضات ظهور رجلين فى وقت واحد وفى وسط واحد وفى هيئة واحدة ، وهما البابا إسكندر السادس وچيوروولومو ساڤونارولا . فإن ساڤونارولا كان فى طليعة نهضة الإصلاح الدينى الذى أتمه بعد ذلك لوثيروس وغيره ، وكان إسكندر السادس الذى وصل بالكنيسة إلى الهاوية ، كان ساڤونارولا أول شعاع فى فجر الإصلاح والتقدم والخلاص وكان إسكندر السادس يمثل أفظع المظالم وشر أنواع الفساد ، كان ساڤونارولا يرى بعين فكره حوادث المستقبل ويقيس المآل على الحال وينذر أهل إيطاليا بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وإسكندر السادس يعيش هادئاً ساكناً مرحاً فى بساتين الفاتيكان ممتعاً نفسه بالحور والفتيان ، كان ساڤونارولا ينهى الناس عن المنكر ويحرم عليهم مظاهر الغرور ويقنع بشظف العيش ، وكان إسكندر السادس يولم الولائم للمئات ويدسّ السم للكرادلة ليرث أموالهم !

ولد چيورولومو ساڤونارولا بمدينة فرارا عام ١٤٥٢ ، وكان أبوه طبيب البلاط الدوقى ، وكان ينوى له أن يكون مثله طبيباً وأن يعيش فى خدمة الملك ، ولكن الفتى كان منذ نعومة أظفاره يبغض عيش البذخ ويكره الأغنياء والسادة وينفر من حياة القصور لأنه شعر بسليقته أنها حياة نفاق وخداع وختل ونميمة ، وأن المنافع

الذاتية سائدة على المصالح العامة . وكانت الأسرة المالكة فى ذلك العهد بفرارا هى أسرة دسته D'Este التى اشتهر أفرادها بالثروة والبطش والمنعة وعلو الجاه ، فحصنوا مدينتهم وجعلوها مظهرا لأنواع الثراء والسعادة ، وكانت أفراحها لا تفرغ، ولياليى صفائها لا فجر لها ، وكانت حياة العصر كأنها حلم من الأحلام ، إلا أن تلك المظاهر كانت تنفر ساڤوناارولا ، وكان كأنه يسمع صوتا خفياً فى نفسه يناديه بأن اذهب وسر فى الأرض واضرب فى مناكبها وخلِّ تلك الأبهة الفارغة لأصحابها . ومما زاد نفوره من قصر الملك أن الدوق كان يسجن أعداءه تحت القصر ، فكان هو فى طرب وفرح دائم ، وخصومه - وقد يكونون أقرانه - يعانون أنواع الآلام ويتضورون جوعاً ويعالج بعضهم سكرات الموت ولا يفصله عنهم إلا سقف القصر ! فكانت هذه المناظر البشعة مما زاد بغض ساڤوناارولا لهذه الحياة الباطلة الكاذبة .

وكان ساڤوناارولا محباً للعزلة والانفراد يلتمس الوحدة ليخلو بذاته فيتأمل فى الكون وعجائب الخلق ويقرأ الكتب المنزلة ويصوم أياماً معدودة ، وكان تومه قليلاً وبكاؤه كثيراً وحزنه عميقاً .

وأخيراً عزم يوماً على هجرة بلده إجابة للصوت الخفىّ الذى يناديه ، وكان يتقن التوقيع على أداة من أدوات اليد ، فأخذها فى حضرة أمه وأخذ يوقع عليها أنغاماً محزنة . فبكت أمه وقالت له : إن نفسى تحدثنى بأن يوم الفراق دنا . فأطرق وترك التوقيع . وفى غداة هذا اليوم اختفى وكتب إلى أبيه بعد ذلك يقول : إنه ترك الأهل والوطن فى سبيل البحث عن الحقيقة وأنه رأى مظالم الحياة فلم يرقه إلا أن يعمل فى طريق الإصلاح .

ثم عاش فى بعض المدن متنقلا بعد أن دخل فى دائرة القسيسين الدومنيكان، وأخذ يخطب فى الكنائس ولكن لم يعجب به أحد لصباه وقلة تدربه ، فكان يخلو بنفسه لممارسة الخطابة ولتنقية نفسه بالصوم والعبادة والتأمل . وبقى كذلك إلى أن دعاه لورنزو دى مديتشى إلى مدينة فلورنسا ، فبدأ يخطب فى كنيسة القديس مرقص

وينذر الناس بالأهوال القادمة عليهم لما هم فيه من الانغماس فى أنواع الشر والفساد ، وكانت خطبه ذات أثر عظيم فى الناس حتى إنهم كانوا إذا سمعوه أخذوا يجهشون بالبكاء وسالت عبراتهم كلما سالت الدرر من فيه ، بل كان تخرج منه نار تحرق الكبرياء والغرور ، فكان الرجال يرمون بنقودهم تحت أقدامه وكذلك النسوة والعذارى يخلعن حليهن ويقصصن شعورهن إرضاءً للرب الذى كان ينطق هذا القسيس بلسانه .

وقد دهش الذين كانوا يسمعون خطبه عندما بدأت تتحقق المصائب والكوارث التى تنبأ بها ، فقد مضى على خطبته الأولى التى ألقاها فى كنيسة القديس مرقص ثلاث سنين عندما دخل كارل الثانى بلاد إيطاليا ، كذلك كان قد مات لورنزو دى مديتشى ، وقد شعر المشتغلون بشئون البلاد وكأن عهداً جديداً قد ابتدأ فى تاريخ العالم ، وكان إصلاح الكنيسة قد قرب عهده ، فإن سيكستوس الرابع قد توفى وخلفه أنوسنت الثامن ، وخلف هذا إسكندر السادس ، وباعتلاء هذا البابا على عرش الفاتيكان وصلت الكنيسة إلى قاع الهاوية .

وقد نظم ليوناردو داڤنشى المتفنن الشهير إحدى خطب ساڤونارولا فى شكل أغنية هذا نصها نثراً :

إذا سألتنى عن نتيجة حروبنا
فأقول لك إنها النصر إن كان سؤالك عاما
وإن كنت تسألنى عن نفسى
فإن عاقبتى الموت أو التمزيق إربا
هذه هى عقيدتنا . هذه هى غايتنا . هذه هى مكافأتنا
ونحن لا نطلب أكثر من هذا
فإذا رأيتنى ميتاً فلا تنزعج
فكل من تنبأ تعذب وذبح
ولأجل أن تعلو كلمتى ، لابد من إهراق دماء كثيرين !

والعيب الوحيد الذى ينسب إلى ساڤونارولا بصفة كونه وطنياً هو الاستمرار فى خطأ الإيطاليين الأول فى الاعتماد على الأجانب . فلو أنه علّم الإيطاليين أن يعملوا لرقيهم وخلاص أنفسهم من الداخل بدلاً من أن يعدهم لقبول سيادة الأجنبى ، لكان نصيبه من المجد والنجاح أضعاف ماهو عليه الآن .

ونحن نؤكد أن ساڤونارولا كان يعتقد فى صدق تنبؤاته ، فقد صرخ مرة فى إحدى خطبه « إن ناراً داخلية تحرق عظامى وتضطرنى للكلام » .

وفى سنة ١٤٩٠ بدأت أعماله كرجل عام يقود ، ذى قوة كبرى فى إيطاليا .

فإن لورنزو دى مديتشى هو الذى دعاه فى تلك السنة إلى فلورنسا وكان هو أبلغ قسيس فى إيطاليا . ففى شهر أغسطس سنة ١٤٩٠ ألقى خطبة شرح فيها بضع آيات من حلم القديس توما ، فتأثر بها أهل فلورنسا تأثراً كبيراً ، ولذا انتقل من كنيسة القديس مرقص إلى كنيسة الدومو التى هى أكبر كنائس فلورنسا .

ومن هذا التاريخ بدأت سيادته وسيطرته اللتان دامتا إلى موته . وقد بدأ كذلك لورنزو يخشى عاقبة نفوذ هذا القسيس الذى أخذ يتنبأ بقدوم فاتح أجنبى وبسقوط لورنزو الفاخر ذاته وبالأخطار المحدقة بالبابا وبخراب مملكة نابولى ، ولكن كان القضاء على ساڤونارولا كذلك من الصعوبة بمكان عظيم ، فقد كان مديراً حاذقاً وقد أحسن إدارة أديرة الدومنيكان . وفى سنة ١٤٩١ انتخب رئيساً لدير القديس مرقص الذى كان لورنزو ينفق عليه لأن أباه هو مؤسسه فلم يحفل القسيس بالتقرب إلى لورنزو ولم يزره مرة ، فأراد لورنزو نفسه أن يتقرب من القسيس وكان يحضر خطبه مراراً ويجود بالذهب الكثير على صندوق الإحسان فى كنيسة القديس مرقص، ولكن ساڤونارولا لم يحفل به مطلقاً.وكان يعطى ذهبه لفقراء المدينة . فلم يطق لورنزو هذا الجفاء فحرّك على ساڤونارولا قسيسا اسمه ماريانو دا جنازانو وكان عدو ساڤونارولا القديم ، ولكن هذا القسيس لم يكن ليجارى ساڤونارولا الذى أصبح فحلاً من فحول البلاغة لا ينال . ثم إن ساڤونارولا كان قد قوى وتشجع واعتقد أنه بمحاربة السلطة إنما يحارب فى شخص لورنزو الظلم والفساد والجحود.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولما حان حين لورنزو شعر بحاجته إلى الغفران وإلى التوبة ، فبعث وراء ساقونارولا يدعوه ، فلما جاء وقف بجانب فراشه فاعترف لورنزو بذنوبه على يد ساقونارولا ، فقال له القسيس إنه يُطلب منك ثلاثة أمور تنال بها الغفران ، الأول أن تعتقد تمام الاعتقاد فى رحمة الله التى تسع كل شىء ، والثانى أن ترد ما أخذت بالحرام إلى أصحابه ، والثالث أن تعيد الحرية إلى فلورنسا .

فقبل لورنزو الأمرين الأولين ولكن لدى الطلب الثالث أدار وجهه نحو الحائط وصمت . فتركه ساقونارولا بدون غفران فقضى .

وقد بحث المؤرخ فيلارى عن مكان هذه الرواية من الصحة ، وبعد مناقشة طويلة وبعد أخذ ورد قال إن هذه الرواية التى رواها برلاماكى وبيكو ورازى وغيرهم من المؤرخين صحيحة . ويظهر أن الطلب الثالث الذى طلبه ساقونارولا من لورنزو هو الأمر الذى كان من ذلك الحين غاية يسعى هو لتحقيقها طول حياته ، فصارت حياته من ذلك العهد حياة سياسى وخطيب دينى ، وقد شعر أنه لايوجد أمل فى إنهاض إيطاليا إلا فى الشعب ، فأخذ يعمل طول حياته لنشر المبادىء الجمهورية والآراء الحرة ، وقد ختم أعماله بأن ذهب فريسة لمبادئه ، وأى مصلح لم يكن موجداً ومعدماً للملوك والنظامات الحكومية ؟

وقد كلف لورنزو - بطرس دى مديتشى الذى سلم حصن تسكانا للجيش الفرنسوى ، فدخل كارل الثامن على رأس الجيش إلى فلورنسا ، فدعى ساقونارولا لقيادة الشعب .

وفى سنتى ١٤٩٣ ، ١٤٩٤ عندما كانت إيطاليا محاطة بأفظع الأخطار ، لم يسكت صوت ساقونارولا لحظة واحدة . وعندما طردت أسرة مديتشى عام ١٤٩٥ وسار الجيش الفرنسوى فى طريقه إلى نابولى طلب إلى ساقونارولا أن ينظم الحكومة ، فأمر الناس أن يتركوا نظام البرلمان القديم والباليا وألف مجلساً كبيراً يشبه مجلس حكومة البندقية ، وفرض أن المسيح هو رأس حكومة المدينة ، ثم بدأ بإصلاحات دينية واجتماعية ، فنهى الناس عن الفخفخة والغرور ، وأمرهم بالابتعاد

عن المنكرات وألغى الربا ، وكان كلما أمر بشيء أطاعته فلورنسا مختارة. وكان نظام الحكومة نظاماً بديعا مقبولاً عادلاً حتى إن السياسيين المحنكين والمؤرخين الصادقين جويتشارديني وماكياڤيلي نصحا بعد ذلك بعدة سنين إلى المدينة للعودة لهذا النظام المسمى بنظام كونسيليو جراندى . إلا أن ساڤونارولا قد بالغ في بعض الأمور ، فقد ألف جيشاً من الأطفال لإتلاف مايرونه أنه من مظاهر الفخفخة . ثم إنه جمع ما كان بالبلد من الآثار والتحف والكتب الخطية والصور البديعة وأمر بوضعها على شكل هرم سماها هرم الغرور ثم أمر بإحراقه !! ، فذهبت أموال كثيرة قدرت ثمناً لهذه الأشياء ، عدا عن ثمرات أفكار عدد عظيم من الشعراء والكتاب والمتفننين . وقد أنتج هذا التطرف في التقوى نتائج سيئة ، لأن إيطاليا كانت في بداية نهضتها الأدبية والفنية ، ومثل هذا العمل هاج سخط المتفننين وغيرهم ممن كانوا يقدرون الفنون البديعة قدرها ، وكان لا بد بعدها من حدوث حركة رجعية .

وكانت أعمال ساڤونارولا لا تستلزم الدهش لأنه صعد مرة واحدة من إدارة دير إلى تدبير شئون جمهورية كبرى ، ولم يسلك في ترقيه سبيل الترقي الطبيعي ، كذلك لم يكن عنده ما يكفي من الخبرة الحكومية التي تؤهل الرجل لإدارة شئون الأمم ، لذلك تنبأ المفكرون بقرب انقضاء عهد سلطته ، وكذلك بدأت الأحزاب تتألف وتجتمع، وبدأ الناس بإظهار عدم رضاهم عن أعمال ساڤونارولا ، وكذلك ظهر السخط في رومة لما كان يقاسيه البابا إسكندر السادس من مطاعن ساڤونارولا وذمه ، فحاول في أول الأمر الحصول على سكوته بالحيلة واجتهد في دعوته إلى رومة فلم يقبل ، فأمر البابا بإيقافه عن الخطابة فأطاع الأمر ثم خالفه واستمر في خطبه ، فحاول إسكندر السادس أن يفسد الرجل الذي لم يستطع إرهابه ، فقال ساڤونارولا إنه يفضل تاج الشهداء الأحمر على قلنسوة الكرادلة ، وقد بلغت بلاغته منتهاها وقوته أعظمها في عيد الصوم عام ١٤٩٦ عندما خطب شارحا بعض آيات من النبي زكريا مع أن مركزه كان في غاية الضعف والخطر في فلورنسا وفي رومة معاً . وكان ذاكراً معايب البابا ومن حوله من القسيسين في رومة ويأتي على مثالب أسرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مديتشي وذنوب أهل فلورنسا أنفسهم ، ولم يترك ظالماً من الظالمين دون أن يعطيه نصيبه من الذم والطعن والتعيير ، وبذا كثر أعداؤه حتى أصبحوا جيشاً عرمرماً ، ولم يكن في طاقة فرد أن يقف في وجه هذا الجيش ، فأراد البابا أن ينتقم منه انتقاما شديداً فأصدر أمراً بمقاطعة تجار مدينة فلورنسا ، فصارت متاجرهم خارج القانون وأصبحت أموالهم مباحة يسلبها وينهبها من يشاء في الأسواق الأجنبية ، ثم إن البابا منع البركة عن موتى المدينة ، فلم يكن يمكن دفنهم حسبما تقتضيه رسوم الكنيسة ، وكان قد تألف ضد سافونارولا عصابة من الصبيان الأشرار أطلقوا على أنفسهم اسم كومباجراي ، كلهم مأجورون من أعدائه ، فكانوا يسبونه ويشتمونه ويلحقون به سائر أنواع الأذى .

وفي عام ١٤٩٨ ضجر الشعب من معاداة البابا ، فرأى مجلس السنيورى أن يوقفه عن الخطابة إرضاء للبابا ، فلما رأى سافونارولا أن هذا المنع صدر عن مجلس السنيورى الذى كان أعضاؤه من أخلص القوم له ، شعر بأن الساعة الأخيرة قد دنت ، ولم يكن هناك إلا خطوة واحدة إلى الأمام وهي عقد مجلس عام للفصل بينه وبين البابا ، فكتب إلى سائر ملوك أوروبا وإلى البابا نفسه وختم كتابه إليه بهذه العبارة « لم يبق لي أمل في قداستك ، ولذا أرفع وجهي إلى الله أن يختار ضعاف هذه الأرض ليوقعوا بالأقوياء في الأجيال الفاسدة وإن الله سيساعدني لأثبت للعالم كله قداسة العمل الذى أتألم لأجله ، وسيوقع بالذين يعذبونني عذاباً عادلاً لأنهم يمنعون الخير ، أما أنا فلست بباحث عن مجد دنيوى ، إنما أطلب الموت بشوق عظيم ، ولعل قداستك لا تطيل الانتظار وتسرع إلى إصلاح نفسك وخلاصها » .

وهكذا أخذت الأحداث تسرع الخطا نحو النهاية المحتومة ، وصمم سافونارولا على القيام بمجهود أخير لإنقاذ الموقف بالدعوة إلى عقد مؤتمر دينى عام يدافع فيه عن نفسه ويشرح جرائم البابا وآثامه وأنه السبب الرئيسى لكل المفاسد التى أحاطت بالكنيسة في ذلك الوقت ، وحاول الاتصال بملوك أوربا وأمرائها ودعاهم إلى

عقد هذا المؤتمر الدينى العام على وجه السرعة ، إلا أن بعض رسائله إليهم وقعت فى يد البابا نفسه فأصبح تحت يده الأدلة الثابتة على نيات ساڤونارولا الحقيقية وضاع بذلك أمل ساڤونارولا المرتقب !

وتتابعت الأحداث بعد ذلك بسرعة وحاول خصوم ساڤونارولا التآمر عليه لمصلحتهم ، فهاجمه رجال الفرنسيسكان فى فلورنسا وطعنوا فى نبوته واتهموه بأنه مثير للفتن ، وطلب إليه الراهب فرانسيسكو دى بوليا الفرنسيسكانى إثبات صحة تعاليمه بالدخول معه فى تجربة النار ، إلا أن ساڤونارولا رفض ذلك التحدى فى حين قبل الراهب دومنيكو - وهو من أنصاره - هذا التحدى إلا أن التجربة لم تتم ، وفى اليوم التالى هاجم الشعب دير سان ماركو وأخذوا يقذفونه بالحجارة وحاصروه وأشعلوا النار فى أبوابه فأبدى رجال الدير شجاعة فائقة فى الدفاع عن معقلهم وسقط القتلى والجرحى من الجانبين ، ولم يفلح ساڤونارولا بالرغم من محاولاته المتكررة فى وقف القتال ، وجاء أمر من السنيوريا بطلب حضور ساڤونارولا وبعض أنصاره إلى مقر الحكومة مع تأمينهم على حياتهم ، فعزم على تسليم نفسه وقال لرهبانه : « إننى أترككم مع الأسى والألم لكى أسلم نفسى إلى أعدائى ولا أعلم هل سيقتلوننى إلا أنى واثق أنهم إذا قتلونى فسأساعدكم فى السماء بخير مما فعلت فى الأرض ! » .

وغادر الدير هو والراهب دومنيكو فقابلهما الجمهور بالسباب والاعتداء ، وبذل الجند مجهوداً شاقاً فى حمايتهما ليمنعوا وصول الجمهور إليهما . وهكذا سقط الرجل الذى كان له فى فلورنسا سلطان أعلى من سلطان الملوك .

وبدأت المحاكمة باستجواب ساڤونارولا وتعذيبه بعد القبض عليه كما حوكم الراهبان دومنيكو وسلفسترو ماروفى أحد أنصاره وصدر الحكم بإعدام الثلاثة واقتيدوا إلى ساحة الإعدام حيث تم تنفيذ الحكم فيهم مع إحراق جثثهم وألقيت رفاتهم فى مياه نهر الأرنو .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجب أن لا نخلط بين عصر النهضة أو الإحياء فى إيطاليا وبين عصر ساقونارولا عصر الثورة والانقلاب ، فقد ذهب البعض إلى أن الرجل كان من رجال عصر النهضة الذين تنبأوا بتقدم الحضارة وكشف عوالم جديدة كان من أهم مظاهرها ونتائجها انبثاق عصر الحضارة الحديثة فى أوربا ، فى حين ذهب آخرون إلى أنه كان عدواً لأكثر المبادىء التى تجسدت فى عصر النهضة الأوربية ، كما كان عدواً للمذهب الإنسانى الذى كان يدعو إلى تمجيد الإنسان والحياة الإنسانية بما فيها من علوم وفنون وآداب وطلب للقوة والسعادة الدنيوية ، فقد حمل حملة شعواء على إحياء آداب اليونان والرومان وفلسفتهم وفنونهم وعلى الاهتمام بالشعر والفن لما فى ذلك من وثنية وصرف للناس عن عبادة الله إلى عبادة الجمال واحتقار الدنيا وسحق الجسد والإعراض عن كل القيم الدنيوية وإعداد الروح فى كل لحظة للحياة الآخرة .

ومع ذلك كله فقد كان لساقونارولا تأثير كبير على بعض أساتذة الفن فى عصره وبعد عصره أمثال ميشيل أنجلو وبوتشيللى وغيرهما ، وقد تجلى أثره العميق فى أعمالهم الفنية الخالدة .

إننا لا نكون مخطئين إذا قلنا إن ساقونارولا كان رائداً من رواد حركة الإصلاح الدينى التى كانت جزءاً لايتجزأ من عصر النهضة وداعيا إلى العودة إلى المسيحية فى نقائها الأول أو إلى المدينة الفاضلة ، حيث لا ملك إلا الله ولا واسطة بين الله والإنسان، وهذه هى فكرة الإيمان التى أصبحت أساس المذهب البروتستانتى كما عبر عنها مارتن لوثر فيما بعد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المدنية المصرية أصيلة غير مكتسبة (١)

يسير جيش الاستعمار الأوربى فى الشرق ، وفى مقدمته جيش من العلماء ، وكان أعظم مظهر لهذه الحالة حملة نابليون بونابرت على مصر ، فإنه لم يأت وحده، ولم يكتف بجنوده وقواده وأسلحتهم الفتاكة ، بل اصطحب فيلقا من المؤرخين والرياضيين وعلماء الحيوان والنبات ليدرسوا الطبيعة والأرض والبيئة والوسط من جميع ناحياته .

ولم يقصر هؤلاء العلماء فى واجبهم بل قاموا به خير قيام ، وكان من آثار تلك الرحلة العلمية التى انطوى عليها الفتح الفرنسى تأليف كتاب وصف مصر الشهير وتأسيس متحف الفن الفرنسى فى شارع مونج وتكوين المجمع العلمى المصرى ونقل مئات بل ألوف من التحف المصرية من أرض الفراعنة إلى متاحف فرنسا .

فلما دخل الإنجليز مصر فى ١٨٨٢ لم يكن عندهم من العلماء من يضارعون الفرنسيين فى حب البحث عن الحقيقة لخير البلاد المقهورة ، ولكن كان عندهم رحالون يجوبون الأقطار لينقلوا أخبارها ويمهدوا السبل للتغلب عليها ، ويكتشفوا منابع الأنهار ورؤوس الجبال لمقاصد حربية وسياسية ، فكان منهم ستانلى وسبيك وغيرهما ممن أطلقوا على منابع النيل اسم فيكتوريا وألبرت وادعوا امتلاك أعالى النيل .

ولا ننكر فضل عالم أو عالمين من علما الآثار ، ساروا على خطة بروكش باشا النمسوى وماربيت الفرنسى ومنهما سير فلندرز بترى ، وإن كنا نعيب على الحكومة المصرية وعلى الشعب المصرى إهمالهما تاريخ بلادهما ولا سيما بعد أن كشف شامبوليون عن أسرار الهيروغليفى بعثوره على حجر رشيد .

أما سير فلندرز بترى فقد كان مجتهداً حقا ولكنه نفع بلاده ونقل إليها أحجار

(١) مقال بهذا العنوان نشر بعامود المؤلف « خواطر المساء » بجريدة المساء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تل العمارنة ومازال يعمل تقريبا فى مصر منذ خمس وأربعين سنة ٠

والذى يهمنا من ذكره ظهور حقيقة علمية تاريخية لها أعظم شأن فى تقدير المدنية المصرية القديمة ، فقد كان فريق من العلماء يظن أن تلك المدنية مفادة من مدنيات قديمة أو حديثة مجاورة أو نائية ، وأن مصر فى ماضيها كانت عيالا على سواها من الأمم ، وإذا أثبتت هذه النظرية بالحق أو الباطل يصح للإفرنج أن يدّعوا أن حاضرنا كماضينا وأننا سنبقى عيالا على أوربا فى سياستنا واجتماعنا وماليتنا وعلومنا وآدابنا كما كان أجدادنا أو أسلافنا فى الماضى ٠ وناهيك بهذه الدعاية السيئة ضدنا ٠

أما الآن فقد ثبت عكس ذلك ، وأقره سير فلندرز بترى فى مقال كتبه فى جريدة التيمس قال :

«أخذنا نتتبع صلة مصر بالغرب فى ثنايا العصور السابقة للتاريخ اليونانى، وفى مصر نفسها الآن سلسلة متصلة للتاريخ مبسوطة أمام أعيننا حتى أن طرائف الملكية الأولى البديعة أصبحت معروفة لدينا خيرا من طرائف السكسون فى إنجلترا ٠ وعندنا الآن معلومات مفصلة عن مدنيات أربع متتابعة ظهرت فى مصر قبل ظهور أى تاريخ مكتوب لها ، وهناك مدنية خامسة بدأت تتجلى لعيوننا ٠

ولابد من التسلم بعد الذى رأيناه من المدنيات الأخر التى اكتشفت بأن الفن المصرى فن محلى غير مقتبس من أى بلاد أجنبية وذلك بالرغم مما نجده هنا وهناك من الآثار الخارجة عن المألوف والعرف المتبع ومنها ما هو تابع لعصور متقدمة مثل تمثال مسيختى والنقوش الموجودة على جدران المقابر المفقودة فى جهة بنى حسن » ا ٠هـ ٠ كلام بترى ٠

وهذا هو بيت القصيد فمصر ذات مدنية مستقلة ، ولما دخل الإسلام صبغت مصر فنونه بصبغتها وطبعته بطابعها ، وهكذا لاتزال تلك البلاد المجيدة تجاهد فى إيجاد شخصية لها فى حياتها حتى تتبوأ مكانتها بين الأمم العظمى التى لم ينقطع حاضرها عن ماضيها ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هل مصر فرعونية
لحما ودما أم هى عربية قلباً وقالبا ؟

يدور البحث منذ بضعة أيام بين أديب سيوطى هو الفاضل ناشد سيفين ، وشيخ صوفى هو الأستاذ التفتازانى ، فالأديب السيوطى ينادى بأن مصر فرعونية لحما ودماً ولو كره التفتازانى ، والشيخ يصر على أنها عربية قلبا وقالباً ولو كره سيفين . فالأول بطل الفرعونية الأولى ونصيرها والثانى زعيم العروبة ومعضدها ، وقد تقدم كل بأدلته يدحض بها حجج خصمه ويردها وقد يتحامل أثناء الجدل شأن كل متشدد فى فكره .

وفى ظنى أن الأديب السيوطى كيمائى صيدلى وهو يحسن مزج الكلام بقدر ما يحسن صنع الدواء ، وهو متحمس لفرعونية مصر التحمس كله ، فهو تارة يلجأ إلى أدلة علمية مبسطة من تحليل دماء المصريين ليثبت وجود التحاليل فى النسب المئينية والدليل الشعبى فى جهات القطر المختلفة ووحدة النسب بين القبط ومجموع السكان ، وطورا يؤكد أن الثابت من التاريخ ومن الدليل العلمى أنه لم يحصل اختلاط بين المصريين والعرب إلا قليلا ... وأنه ليس لهذا الاختلاط أثر باق إلا فى القليوبية والجيزة والقاهرة .

وقد يزداد أسلوب ناشد غلياناً فيرمى الشيخ بالجمود وينعى عليه تسمية الآثار أطلالا وثنية وأعلاما كفرية . أو يشبهه بعبد اللطيف البغدادى الذى كانوا يطلقون عليه وصف « التيس الملتحى » لكثرة ما افتراه على مصر والمصريين منذ زارها فى عهد الملك الكامل .

ولم يقصر الشيخ فى مجادلة الفاضل الكيمائى بما يقرب من هذا أو أشد فقال

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بعامود المؤلف « خواطر المساء » بجريدة المساء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

له : « لو كانت هذه الآثار مدعاة لنسبة الأمم لأصحابها لكانت الشام مصرية فرعونية أيضا لأن آثار جبيل وغيرها من المكتشفات في لبنان وسوريا تثبت أنه كان هنالك مجد مصرى فرعونى » .

وفى رأينا أن كلا المتناظرين مخطىء لأنه متعصب لفكرته . فالأديب السيوطى يريد محو النسب العربى مع أنه هو والسادة آباءه وأجداده نشأوا فى المدنية العربية وأكبر دليل على ذلك أنه الآن يكتب ويفكر باللغة العربية بل يحسن التفكير والإنشاء بها كأحد الأدباء المتمكنين .

ولست فى حاجة إلى التدليل على مكانة اللغة من عقل الرجل المتعلم .

كذلك الشيخ الصوفى متعصب لأنه لا قيمة لأمة شرقية كانت أو غربية بغير ماضيها ، وماضى مصر من مفاخر الدنيا لأنها مهد الحضارة ومعلمة الأمم وفيها بزغ فجر المدنية .

والحقيقة أننا لسنا فرعونيين ولا عرباً ولكننا مصريون قبل كل شيء . الوطنية المصرية ديننا والاستقلال حياتنا . نتخذ من ماضينا الفرعونى وأسلافنا العرب ما ينفعنا في حاضرنا .

إن الفرنسيين وهم مزيج من الفرنك والغولوا والجاسكون والباسك والرومان والنورمان والبرتيان لا يبحثون الآن عن حقيقة أصولهم في « نهر الأنساب » ليلبسوا قبعة خضراء أو حمراء ، ولكنهم ينادون بوطنيتهم الفرنسية التى هى فوق التاريخ وفى أعلى ذروة فى جبل مجدهم الشامخ .

وهكذا ينبغى أن نكون نحن أيضا « مصريين قبل كل شيء » إلى أن يجيء الأوان فنقول : « فوق البلاد بلادنا » !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر
بين العروبة والفرعونية
آخر آراء المحققين [1]

أبادر فأصرح بأننى أدين بعروبة مصر ، لا من حيث خلقها وعاداتها وأدبها ولغتها وعقيدتها فحسب ، بل من حيث تاريخها الحديث وتكوينها العصرى ، وإننى لا أكره أن يتذكر المصريون من حين إلى آخر أنهم يعيشون فى بلاد ذات تاريخ مجيد عاش فيها شعب أسير تحت سيطرة ملوك أقوياء وأن آثار هذا الشعب فى العلم والدين والآداب والحروب والحضارة المادية وفنون العمارة تذكر فتشكر .

ولكن لايجوز للأحياء والمعاصرين أن يتفانوا أو يتلاشوا فى الفكرة الفرعونية ، لأنهم ليسوا محتاجين فى استيحاء العظمة القومية إلى ذكريات الفراعنة ، لسبب هين سهل الإدراك وهو أن الشعب كان فى العهود الفرعونية ذليلا مهضوم الحقوق . وإليك ما رفع العلماء المحدثون ومحققو التاريخ عنه اللثام ، ولا سيما وينود ريد مؤلف كتاب استشهاد الإنسان (أو التضحية بالجنس البشرى) ، فقد ثبت أنه فى أيام الملك إيسو – سى آخر ملوك الأسرة الخامسة ظهرت نهضة علمية وأخرى سياسة ، لأن ملوك تلك الأسرة تنازلوا عما كان عليه أسلافهم من البطش والتفرد بالسلطة المطلقة وأذنوا لكبار وزرائهم باقتسام نفوذهم ومشاركتهم فى تدبير الملك ، فوصل الأمر بالوزراء إلى أنهم انتحلوا لأنفسهم لقباً ثابتا هو لقب (فتاح – حوتب)، فكان فرعون فى الملك وفتاح حوتب فى الوزارة ، ثم أن الوزير الأكبر كان يترك منصبه لابنه يرثه من بعده كما كان الملوك يرثون الملك أبناءهم . فكانت البلاد محكومة بأسرتين متضامنتين متكافلتين ، ومنشأهما من الكهنة ورجال الدين الذين

---

(1) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية ، ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٧ ، المجلد الثالث ، العدد ٧١ ص ١٢ – ١٤ .

تغلبوا على أذناب الأسرة الرابعة فغلبوهم على أمرهم وانتزعوا الملك من أيديهم ثم اقتسموه بينهم ، فكان العرش نصيب كهنة هليوبوليس (مدينة الشمس) والصدارة العظمى نصيب كهنة فتاح وهم أضعف من كهنة عين شمس وأقل نفوذا وأحط شأناً وشأواً .

وهذه الحقيقة التاريخية تعلل تساهل ملوك الأسرة الخامسة مع رجال الدين واستسلامهم لهم تعليلا حسنا ، لأنه لولا ذلك اللين وتلك المحاسنة ، ما استطاع فريق من رجال الدين أن يستقل بالملك مادام الكل يطمع فيه والشعب المصرى المسكين يرسف فى قيود الظلم ويمرح فى نعيم الجهل بعد أن حجب هؤلاء الخونة المستبدون من رجال الدين وغيرهم عنه نور العلم وضياء المعرفة وحرموه نعمة الحرية وخلّوه يضطرب فى أغلال الهوان والمذلة ويعمه فى دياجير من الغفلة ، ولولا ذكر بعض حسنات الكهنة فى كتب فئة قليلة من المؤرخين (جورج بريس وهيرودوت) ونسبتهم إلى مكارم الأخلاق ، لكان الرأى العلمى مجمعاً على فضح شرورهم فى كل نواحى الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية وإفساد المجتمع المصرى جلباً للمنافع لأشخاصهم وأنسالهم .

بيد أن القوة الكبرى الساهرة على حياة الشعوب والتى لا تأخذها سنة ولا نوم ولا تغفل عما يعمل الظالمون سواء أكانوا كهنة أم غير كهنة ، انتقمت للضعفاء من الأقوياء وانتصفت من الباطل للحق ، فحدث ما كان فى الواقع نتيجة منطقية لتلك المقدمات وهو أن عمال الحكومة كبارهم وصغارهم رأوا كيف انتزع الكهنة الملك من أيدى أصحابه وتعلموا على أيديهم طرق الاغتيال ، فسنوا لأنفسهم سنة جديدة وهى أن يورثوا أولادهم مناصبهم من بعدهم ، فكان كل عامل يخلفه ولده ليكون خير خلف لخير سلف ، وكان من نتائج ذلك أن شعر الشعب الذليل ببعض نعمة الحرية بعد أن ذاق صنوف المذلة والهوان على أيدى جبابرة الأسرة الرابعة أمثال خوفو وخفرع ومنقرع القساة القلوب الغلاظ الأكباد العتاة الظالمين الذين سجلوا على أنفسهم ذنوبا لاتمحوها الدهور ولاينسخها مر العصور ، بل مادامت الأهرام الكبرى تناطح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السماء وتقاوم طوارىء الحدثان وتهزأ بتعاقب القرون والأزمان وتشهد بأن كل صخر من صخورها هو دمع متحجر من دموع الشعب الذليل الذى سيق رغم إرادته والشمس المحرقة ترشقه بسهامها والصحراء الحامية تدمى أديم أقدامه بجمر أديمها والسوط المثلث الأذناب مصوب إلى ظهره والسيف المرهف مكان الغلالة من نحره ، سيق هذا الشعب المظلوم على تلك الصورة المفزعة تنفيذا لرغائب عتل زنيم ، ومعتد أثيم أصابه مس من الجن فظن نفسه الخبيثة لا يليق بها إلا ذلك الهرم الجسيم ، أو أراد أن يخلد ذكره على صفحة مصر ، فسفك دماء أبنائها ليكتب بها سطرا فى الصحراء لابد أن يمحوه الزمان وما زوال ذكر الظالمين وآثارهم على الظالمين بعزيز[1] .

ولهذا عندما حاول ملوك الأسرة الخامسة تشييد الأهرام مجاراة للسلف الطالح فى الجيزة وأبى صير وصقارة ، جاءت كلها مثل كهوف القرون الأولى . وهذا الضعف فى البناء لا يؤخذ دليلا على تقهقر فن العمارة فى مصر فى عهد تلك الأسرة، إنما يؤخذ دليلا على انتشار روح الحرية الشخصية لحد محدود وبرهانا على ضعف نفوذ الملك بحيث صار عاجزاً عن سوق الشعب لتشييد جبال الظلم كما تساق الأنعام للذبح . قال جيمس هنرى بريستد فى كتابه « فجر التاريخ » : «إن مصر تقدمت فى عهد الأسرة الخامسة تقدما مادياً وأدبياً ، وأن الصنائع والفنون ارتقت ارتقاء باهرا كما أن الآداب نهضت نهضة كبرى ، فألفت الكتب وصنفت الرسائل فى مختلف العلوم ودونت المقولات الطوال والبحوث الشائقة » ، وقال فى ص ١٠٧ من كتاب تاريخ مصر القديم طبع نيويورك « إن النهضة الأدبية كانت ثماراً من ثمار شعور الشعب ببعض الحرية مع ضيق نطاق اللغة عن التعبير عن أفكارهم كافة » .

وإذن يكون الزعم بعدل هؤلاء الملوك خرافة ، وكذلك كانت عظمتهم مقصورة

---

(١) من الأدلة على ذلك أننا رأينا فى آثار مصر العليا تماثيل مزيفة خلعت رؤسها ووضعت غيرها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أنفسهم وعلى أسرهم وعلى مصالحهم الذاتية ، فقد اعتبروا مصر « أبعدية » لهم وجعلوا الشعب عبدا ورقيقا وضيقوا عليه الخناق من كل جانب سواء بتقسيم الطبقات أو سيادة البيروقراطية أو طغيان الضرائب .

لقد ثبت لنا أنه من واجبنا نحو العروبة أن ننصرف عن ذلك الماضى السحيق الذى يمتد إلى أربعين قرنا كما قدره علماء الآثار وأن نغلق كتاب الذكرى بأفراحها وأتراحها لنبحث بعين الحقيقة فيما توحيه عظمة العرب من نضارة وتألق ، فإن لنا منها ماضياً جليلا ومستقبلا حافلا بالآمال ، ونرى لزاما علينا أن نرجع بالوطن إلى الأصل العربى . فإن اندفاع الأمة وراء الفرعونية الظالمة إنما هو جرى وراء سراب لا يمكن أن يكون فيه الغيث . إن الفرعونية دفنت واستقرت فى جوف الأرض ولن تبعث إلا على أفواه المؤرخين وفى صفحات الكتب .

وإننا الآن نتكلم بالعربية ونكتب بها وندين بالدين العربى ونمرح فى بحبوحة الحضارة العربية ونتلو قرآنا عربيا ، حتى الذين يزعمون أنهم من نسل رعايا الفراعنة ، لولا العربية لغة وأدبا وحضارة ما كان لهم الآن وجود مادى ولا معنوى . فإن اللغة الهيروغليفية اندثرت والديموطيقية دفنت وما تلاها من اللغات ضاعت إلا من أفواه المتمسكين ، كما أن الدين ضاع كله !

أية عظمة فى تاريخ مصر القديمة تفيد الشعوب المظلومة فى ضوء عصور الحرية الحديثة ؟

لقد كان الفرعون أو الملك مصدر السلطات وصاحب الأمر وحده ، ونحن نقول الآن إن الأمة مصدر السلطات وهذه فكرة عربية (وأمرهم شورى بينهم ، لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، أكرمكم عند الله أتقاكم) . وكان الفراعنة يطالبون الشعب بأن يعبد كلا منهم طول مدة حكمه بوصفه إلها .

لولا هذا السلطان الواسع للفراعنة على الشعب لم يمكن لهؤلاء الظالمين استخدام الأمة بأسرها فى بناء الأهرام ، لا لشىء إلا لمواراة أجسامهم بعد موتهم، ولا من إرسال جيوش جرارة إلى الأقطار المجاورة يقطعون الصحراء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الواسعة للفتح ، وفوق هذا فقد كانت المراكز الكبيرة في يد نفر من الناس ذوى الثروات الواسعة ، وبقيت من بعدهم لخلفائهم ، وفي كثير من الأحيان كان بعض هؤلاء يرثونها ضمن ما يرثونه من آبائهم من ضياع وأموال ٠

طالما تغنوا بالرخاء واليسر وكثرة السكان في عهد الفراعنة ، ولم يكن هذا كله أو معظمه إلا مغالطة ٠ فإنهم بطبيعة أرضهم وجوهم لا يحتاجون إلا للطعام الرخيص كالحنطة والحبوب والجذور والأعشاب ، ومن البديهيات أنه كلما كان الطعام بخس الثمن ازداد عدد السكان بنسبة تطرد مع كثرته ورخصه ، والطعام تحدده الأرض بقدرتها على الإنتاج ، فإذا تعطلت الأرض حينا عن الإنتاج قلت كمية الطعام عن حاجة الأهلين ٠ ولم يكن لهؤلاء الفراعنة الطغاة أى فضل على الرعية البائسة لأن خبز الشعب كان موقوفاً على حالة الفيضان الذى يعم أرض الوادى ، وهذا الفيضان يرجع بطبيعته إلى أمطار المنطقة الاستوائية في هضبة إثيوبيا ٠ وهذه المياه لم تكن تصلح إلا إذا اكتسحت في طريقها نصيباً وافراً من الطمى (الغرين) الذى هو أصل الخصوبة ، وهو يجلبها من جبال طينية تعوضها الطبيعة من جوف الأرض عاما فعاما بمقدار ما يسلخه المطر من قممها وجوانبها ٠ فإذا كانت كمية الأمطار في هضبة إثيوبيا قليلة ، فإن النهر يعجز عن أن يمد الوادى بحاجته من الماء ، وإذا كان الماء غزيراً فإنه يجور على المدن والقرى فيجعل عاليها سافلها ٠ فمصر مهددة بالشَرَق والغَرَق حتى يومنا هذا ، فإن فيضان سنة ١٩٣٥ أقلق بال الأمة والحكومة وكنا نوشك أن نعود إلى عهد السخرة الذى هو من بقايا مظالم الفراعنة ولم يمحه إلا إلحاح ويلكوكس على كرومر بعد الاحتلال ٠ فمصر تتأرجح منذ القدم بين فوضى الفيضان ووباء القحط (مذكرات ويلكوكس عن الشرق في ٦٠ عاماً) ، وإن كل ما نسب للمصريين القدماء من علوم الزراعة وهندسة الأرض ودراسة السوائل وحركات الكواكب وتصريف المياه المرتدة من الحقول وتخزينها قبل الرى ونظام المناوبات ومسح الأراضى وتحديدها ، كل هذا وأكثر منه أتقنه السومريون ونبغوا فيه قبل المصريين بمئات السنين وهم شعب عربى صميم

نازح إلى جنوب العراق من صميم العروبة . فلو فرضنا أن المصريين نقلوه عنهم فإنهم يكونون تلاميذ العرب قديما وحديثا فضلا عن أنهم لم يدخلوا عليه تحسينا ما .

في عهد الفراعنة انقسم الشعب إلى قسمين أولهما الحكام من المحاربين والكهنة، وثانيهما الرعية من زراع الأرض ، وأتم الظلم ما افتتحته الحرب والقحط ، فإذا ما أمر الكهنة حشدت الجنود وتحركت الجحافل وخضع الشعب للقدر المحتوم ، وبذا أرغم الشعب على عبودية خرساء دامت آلاف السنين .

لم تكن حياة الشعب الخاصة على شيء من مفاخر الأسرة العربية سواء في الجاهلية أو في الإسلام ، فقد كان تعدد الزوجات عند المصريين مشروعا وكانت المرأة تخضع لشقيقها ليضاجعها وينسل منها ، ولذا تسمى سراريه شقيقات (أختي!) ، وكانت الفوضى ضاربة أطنابها في الوظائف الحكومية ، وكانت المحسوبية هي الواسطة الأولى للتوظف ، والكثيرون من الموظفين مدينون بوظائفهم لأقربائهم من الرؤساء (كتاب ريد) وكانت كل طبقة مرغمة على أن لايتعدى أفرادها أعمالا معينة ، فلا ابن النجار يصير جنديا ولا ابن الجندي يكون كاهنا . وهذا ضغط على الحرية وتقييد للنبوغ ودفن للعبقرية لم يوجد له مثال في التاريخ القديم أو الحديث . فأي فخر لنا في الفرعونية العقيمة الظالمة المبهمة المتجنية على الأخلاق والفضائل والعدل ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المدنيتان الفرعونية والإسلامية
الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط
وحقيقة فكرة الدعوة إلى الفرعونية (١)

في الشرق العربي ، وفي مصر خاصة ، نزاع بين فكرتين ، فكرة النزوع إلى المدنية العربية ، وفكرة الرجوع إلى المدنية الفرعونية ، وأصل هذا النزاع حديث فإن الأمة المصرية مؤلفة من عنصرين متآخين متضامنين منذ أكثر من ألف سنة هما العنصر القبطي والعنصر العربي ، يدين أولهما بالنصرانية والثاني بالإسلام ولم يسمع أحد أن روابط المحبة بينهما قد تراخت في يوم من الأيام أو أن أحدهما أضمر للآخر عداء أو بغضاً ، بل إن القبط أنفسهم الذين كانوا يرزحون تحت ظلم الرومان هم الذين استنجدوا بالعرب واستنصروهم وسهلوا لهم فتوح مصر في خبر طويل رواه أكثر المؤرخين ، وقد أوصى النبي محمد عليه الصلاة والسلام بالقبط ودعا على من يظلمهم .

ولما قامت الحركة الوطنية الأولى في عهد المرحوم مصطفى كامل كان نوابغ الأقباط أمثال المرحوم ويصا واصف (توفي في ٢٧ مايو سنة ١٩٣١ ، وكان المسلمون المشيعون لجنازته يهتفون بأعلى أصواتهم « إلى جنة الخلد يا ويصا » وهو نداء يدل على مكانة الفقيد وعلى عدم تعصب مشيعيه وأنصاره من المسلمين) والأستاذ مرقص حنا وغيرهما .

ولما نشب نزاع بين بعض الكتاب المصريين وكتب كاتب قبطي في جريدة الوطن مقال « الإنسانية تتعذب » يدّعي فيه أن الأقباط مضطهدون ، وانبرى له المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش بمقاله « الإسلام غريب في بلاده » الذي نشر في جريدة

---

(١) مخطوط كتبه المؤلف حوالى سنة ١٩٣٢ ثم سجل نبذة منه في مذكراته سنة ١٩٤٢ وقد نشرت هذه النبذة بجريدة الأخبار في ١٨/٦/١٩٩٣ بمناسبة مرور أربعين عاماً على وفاته في ١٥/٦/١٩٥٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللواء ، وذلك بعد وفاة المرحوم مصطفى كامل ، وكان المقال شديداً إلى درجة الرعونة حقاً بإحداث ثغرة بين صفوف الأمة وخشيت الفتنة وخيف الانشقاق الذى لا التئام بعده ، كان الفضل الأكبر فى إصلاح هذه الهفوة وتخفيف وطأتها والحفاظ على الوحدة الوطنية للأمة للأقباط أنفسهم ، فإن أعضاء اللجنة الإدارية للحزب الوطنى من الأقباط اتفقوا مع إخوانهم على محو المقال من سجل الجريدة وسحب العدد الذى نشر فيه من المجموعة وحل محله عدد آخر وقبلوا هذه الترضية وزال سوء التفاهم . ولكن ظهر لنا فيما بعد أن هناك خطة مدبرة من ألدون جورست وأعوانه غايتها التفريق بين المسلمين والأقباط ليجد الإنجليز مبرراً لبقائهم فى مصر باسم حماية الأقليات ، وقد استأجروا فعلاً بعض الكتاب واستكتبوهم المقالات فى مصر وإنجلترا تضرب على هذه النغمة ، والعجيب أن هذا العهد قد سموه عهد سياسة الوفاق ، يقصدون الوفاق بين قصر الدوبارة وقصر عابدين ، وهو فى الحقيقة كان عهد الشقاق بين المسلمين والأقباط وبين الخديوى السابق والأمة .

وقد بلغت تلك الحركة أقصاها عندما دعا لفيف من الأقباط إلى عقد مؤتمر فى أسيوط برياسة المأسوف عليه أخنوخ فانوس خطيب الصعيد المصقع ، فى خريف سنة ١٩١٢ . وقد قوبل مؤتمر أسيوط بمؤتمر القاهرة الذى عقد فى ساحة سكاتنج الملحقة بلونا بارك بمصر الجديدة . وكان المؤتمر برياسة المرحوم مصطفى رياض باشا (١٩١٢) وقد اختير للرياسة لمصاهرته لمحمد سعيد باشا الذى كان حينذاك رئيس الوزارة المصرية ، وقد خطب فى هذا المؤتمر فريق من المصريين المسلمين وكان أشدهم تحمساً المأسوف عليه الشيخ على يوسف ، وقد قيل فى ذلك الوقت إنما أراد براءته من نسبته إلى عبد النور الذى ورد ذكره فى حكم المحكمة الشرعية بتطليقه من السيدة صفية السادات.

وكان المسلمون والأقباط جميعا فى هذين العملين المرذولين يخدمان مصلحة الإنجليز ، ويمدان جورست وكتشنر بالمواد لحشو تقريرهما عن مصر بأنها بلاد منشقة على نفسها ، وأهلها متعصبون تعصباً دينياً ، وهم يعيّرون بعضهم بعضا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمعايب كثيرة إن صحت دلت على انحطاط فى الأخلاق وعجز عن الإدارة وعدم استعداد للحكم الحر المستقل.

ولم يكن النصح ممكنا أو مسموعاً فى تلك الظروف، فكل من بذل النصيحة والمشورة الحسنة اتهم بالضعف أو بالخيانة ورمى بالنقص فى الأخلاق وخور فى الإيمان والمروءة ، وكان كل قبطى يظهر بمناصرة الوطنية يرمى من قومه بالكفر والخيانة والتزلف للمسلمين لمنفعة وطنية .

فانقلبت مصر مقاطعة هندية وأوفد الأقباط من يدعى قرياقص ميخائيل إلى لندن ليلبس قبعة عالية ويطعن فى المسلمين والوطنية المصرية بصفة عامة . كل هذا حدث فى مدى أربع سنين ، لأن العنصرين كانا على أتم وفاق إلى وقت وفاة المرحوم مصطفى كامل وقد اشتركت الأمة كلها فى تأبينه ورثاه على القبر مرقص حنا وويصا واصف ، فانظر إلى ما تفعله السياسة الاستعمارية فى حياة أمة فى بضع سنين !!

فلما اشتعلت نار الحرب الكبرى ، كانت مصر منشغلة بمصائبها العامة عن مشاكلها الخاصة ، ووجد الأقباط والمسلمون من الإرهاق الأجنبى والظلم ما ألهاهما عن الشغب الأهلى . وقد كان فى حوادث الحرب ومواعظها وعجائب ما وقع فيها للأمم ما أنار بصيرة الجهال والحمقى والمأجورين من العنصرين ، فكفوا من تلقاء أنفسهم عن المنازعة والتقّوا حول علم الوطن المتحد ، وكان أعوان سعد زغلول من الأقباط والمسلمين معا ، وكان عدد الأقباط الذين نقلوا إلى سيشل ومن حكم عليهم بالإعدام يربو على عدد المسلمين بكثير من حيث النسبة العددية بين مجموع العنصرين ، وكان الأقباط يعملون بوطنيتهم المصرية فاستحقوا محبة المسلمين وثناءهم وجعل منهم وزيران فى كل تشكيل وزارى بعد أن كان الأمر مقصورا على وزير قبطى واحد ، وكان المرحوم بطرس غالى باشا أول وزير قبطى تولى رئاسة الوزراء فى عهد عباس حلمى ، وهو الذى أمر بالاحتفال بعيد رأس السنة الهجرية وجعله عيداً رسمياً ، وقد قتل غيلة وثبت على لسان قاتله أنه إنما فعل ذلك لأسباب

سياسية خمسة ذكرها بالتفصيل وليس للدين فيها أثر وكان ذلك فى فبراير سنة ١٩١٠[(١)].

وقد ظهر من رجال الأقباط أبطال وطنيون على أكبر نصيب من الثقافة والأدب وبعد النظر فى الشئون السياسية ، ونبغ منهم خطباء وكتاب يملكون زمام اللغات الأجنبية كأبنائها وقد يفوقونهم ٠

ولما شرع فى بناء ضريح سعد زغلول وطرحت فكرة اختيار المثال الذى يتخذ ، رجحت فكرة النمط الفرعونى على النمط العربى ، وعندما صنع محمود مختار تمثال سعد باشا استوحى الفن المصرى القديم ونحت التمثال على خطته ، ومن هنا بدأت تتسرب إلى الأفكار روح الاقتداء بالمثل الفرعونية واتخاذ المدنية المصرية القديمة مثلا أعلى ، وكان فى اكتشاف قبر توت عنخ آمون وظهور عجائبه بعث جديد وتأييد قوى لتلك الفكرة ٠واتجهت الأفكار إلى أن الوفد المصرى هو صاحب هذا الرأى لأن الأقباط الفضلاء من أعضائه يريدون إعلاء كلمة المدنية الفرعونية على المدنية العربية لأنها ترجع إلى التاريخ القديم قبل ظهور الأديان المنزلة فهى أقرب إلى التسامح والحرية وعدم التعصب من المدنية العربية التى تنتمى بطبيعتها إلى الإسلام وربما كان فيها ما يشعر بتعصب المصريين المسلمين لدينهم الذى هو دين عربى ٠

غير أن هذا الرأى خطأ ومخالف للواقع ، فإن أول من قال باستيحاء الفرعونية فى النهضة المصرية الحديثة هم جماعة الأحرار الدستوريين ومن كتابهم الأستاذ محمد حسين هيكل الذى كتب سلاسل من المقالات والمباحث فى هذا الموضوع ونشرها فى السياسة اليومية والأسبوعية ، وأسس فريق منهم « جمعية الخيال » للمصورين وجعلوا شعارها الفكرة الفرعونية والإله توت رب الحكمة عند المصريين القدماء ٠ فليست الفكرة التى تريد تحويل النهضة المصرية الحديثة نحو الفرعونية فكرة وفدية ولا سعدية ولا صادرة عن زعماء الأقباط الذين يضمهم الوفد ، ولكنها

---

(١) انظر مبحث المؤلف عن الاغتيال السياسى ، ص ٥٢٩ - ٥٥١ من هذا الكتاب ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكرة ابتدعها كتاب الأحرار الدستوريين وعملوا لها وشجعوها فى صحفهم وكتبهم ، لا بدافع دينى ولا بدافع وطنى ولكن تقليداً لفريق من مصورى الإفرنج الذين وجدوا فى الفن المصرى القديم بساطة وسذاجة تتفقان مع استعدادهم الفنى ، ولذا تراتى أعجب من فكرة دفن سعد زغلول فى بناء ظاهره كظاهر الكرنك أو الرامسيوم فى حين أن العالم الأوروبى يعجب برشاقة المبانى العربية والمبانى الشرقية الحديثة مثل ضريح « تاج محال » الذى يعد أبدع آية فى البناء . وإن المبانى المصرية إن كانت تذكرنا بعظمة الملوك الذين أمروا بتشييدها ، فهى تذكرنا أيضا بالمظالم التى اقترفها هؤلاء الملوك .

قلت إن الفكرة نشأت عند الأحرار الدستوريين ، ولذا ترى أحد زعماء كتابهم يدافع عنها فيقول « إن بعض أهل الشرق العربى يحسبون العمل الجد للكشف عن تاريخ الفراعنة متنافيا مع ارتباط الأمم العربية بأمتن الأواصر ، وهؤلاء على غير حق فى مخاوفهم . فهذه الأمم التى تحيط بالبحر المتوسط والبحر الأحمر معا لم تكن روابطها مقصورة على ما كان منذ قيام الحضارة الإسلامية ، بل إن هذه الأمم لترتبط بروابط أبعد فى أعماق أقدم من ذلك بكثير . ويوم كانت مدنية الفراعنة قائمة، كانت هذه الأمم نفسها كما كان اليونان والرومان يغترفون من علوم مصر وحضارتها ، وكانوا لذلك على أوثق الاتصال بها . وقد ذهب المغفور له أحمد كمال باشا إلى نظرية فى أصل اللغة العربية ماتزال قيد البحث وماتزال ممكنة التحقيق، تلك هى أن اللغة العربية ترجع فى أصلها إلى اللغة الهيروغليفية . فإذا صح هذا كما صح أن موسى نبىّ بنى إسرائيل ولد وتربى وتعلم فى مصر ثم خرج منها إلى فلسطين ، كان ذلك كله قاطعا فى الدلالة على أن الصلة ما بين مصر وجاراتها التى تتكلم العربية اليوم أقدم بكثير وأوثق بكثير مما يراد ردها إليه من ألف وثلثمائة سنة . والواقع أن هذه الأمم المتجاورة خضعت فى التاريخ لحظوظ متشابهة بل لحظوظ واحدة تجعلها وحدة لا تفصل بينها الأحداث ولا مد السياسة وجزرها بل تجعلها حين تنظر بعضها إلى بعض على أنها شعوب أخوة أقوى إيمانا بهذه الأخوة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحرصاً على أن تقوى أواصرها ! » أ٠هـ ٠ كلام الكاتب وفيه الصواب وفيه الخطأ، فصوابه خاص بما قاله عن علاقة الأمم الشرقية وبعض الأمم الغربية بالأمة المصرية من قديم الزمن ، ولكن خطأه خاص بنظرية أحمد كمال باشا الذى وضع قاموساً هيروغليفيا عربيا كبيراً وزعم فيه أن كثيراً من الألفاظ العربية أصلها هيروغليفى وضرب مثلا بكثير من الكلمات الشائعة فى العربية المحكية ، وقد علم أحد الفضلاء من المرحوم كمال باشا نفسه أنه وضع أكثر من ثلاثين جزءاً ضخماً من هذا القاموس وعرضه على وزارة المعارف لطبعه فترددت ثم رفضت ، وكتب بعض الباحثين من علماء المصريات فى مجلة المجمع العلمى ينتقد نظرية كمال باشا فى أثناء حياته ولعهد رياسة ماسبيرو ، وبيّن أن نظرية كمال قائمة على الحدس والظن أكثر منها على التحقيق والتمحيص وذلك لأن المرحوم كان مؤرخاً أكثر منه لغويا فيلولوج ، وأن هذا البحث يحتاج إلى علم الفيلولوج أكثر من حاجته إلى حماسة المؤرخ ٠

ويؤيد نظرية هذا المنتقد فى أن كمال باشا كان مؤرخا أكثر منه فيلولوجا أو عالما لغوياً محاضرة ألقاها أحمد كمال باشا نفسه فى خريف ١٩٠٧ فى نادى المدارس العليا عن عقيدة التوحيد عند المصريين القدماء ٠ قال: « إن صيغة التوحيد عند المسلمين وهى « الله أحد ، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»٠ موافقة تقريباً للصيغة التى كان يدين بها المصريون قبل عصر الملوك وهى :

« الله وحده لا ثانى له يودع الأرواح فى الأشباح ، أنت الخالق تخلق ولا تخلق خالق السموات والأرض » ٠ وقال : إن الأرواح يرمز لها عند المصريين القدماء بثلاثة طيور وذكر الحديث المعروف «أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر» ، وقال: « إن الأوربيين كانوا يعتقدون إلى قبل عشر سنين أن قدماء المصريين وثنيون ولكن هذا الاعتقاد زال باكتشاف هذه الصيغة التى يعززها عدم وجود الأصنام فى مقابر ذلك العهد القديم ، وقال إن التوحيد جاء للمصريين من نوح عليه السلام الذى كان موحداً بدليل قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » ، والخطاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للمسلمين الذين جاءتهم شريعة التوحيد .

وهنا اعتراض وجيه على هذا الكلام وهو أن الشرك كان شائعا فعلاً عند قدماء المصريين بدليل قوله تعالى حكاية عن يوسف « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ومعلوم أن يوسف كان سجينا عند فرعون مصر .

ويجيب كمال باشا على هذا الاعتراض بأن عقيدة الشرك لم تدخل مصر إلا مع العرب الذين دخلوا مصر فى العهد القديم قبل عصر الأسرات ، ولذا كان المصريون يطلقون على بلاد العرب اسم بلاد الوثنية . والوثنية سليلة بلاد العرب بدليل أن محمداً صلى الله عليه وسلم وجد بالكعبة ٣٦٥ صنما فهشمها .

ثم أكد الخطيب أنه جمع أسماء هذه الأصنام العربية فوجد أسماء تشبهها فى اللغة الهيروغليفية مما دله على نقلها من العربية ، وضرب مثلاً بصنم اسمه « بوانه » الذى حرفه الفرنج فجعلوه « فنكس » لأن الباء تنطق فى الهيروغليفى كالفاء ، وذكر العرب هذا الصنم باسم فقنس ، وقال أصحاب الأساطير إنه طائر يأتى من جزيرة العرب ويقف على معبد عين شمس ثم يرفرف بجناحيه فيتقد ناراً تلتهمه ، ثم يخلق منها ثانية ، وما نقله العرب من هذا الخبر حديث خرافة كالأساطير اليونانية . ومن هذه الأصنام العربية أيضاً اللات والعزى ومنات ، وأن لها ذكراً فى الهيروغليفية مع بعض التحريف . وسئل الخطيب (المحاضر) كيف تغلب الشرك على التوحيد ؟ فقال إن ذلك راجع إلى قوة المتغلب والناس على دين ملوكهم » .

هذه هى طريقة أحمد كمال باشا وهى خليط من الدين ومن الاستنتاج والتقريب فلا يمكن أخذها قضية مسلمة ، ولا يمكن للعلماء أن يتفقوا عليها بمجرد ذكرها .

أما ما بقى من كلام الأستاذ حسين هيكل فهو أيضا افتراض تاريخى ولا علاقة له بلب المسألة . ربما كانت العربية والهروغليفية من أصل واحد وربما كانت بين الاثنين أواصر قرابة جنسية ولسانية ودينية . ولكن الأمة العربية قد تميزت بعد ذلك بلغة من أفصح لغات الأرض وأجملها وظهر فيها دين عظيم وانتشرت منها حضارة هى أم الحضارات الغربية الحديثة بلا نزاع وقد سادت لغة تلك الأمم وحضارتها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثقافتها جميع الأمم التى فتحتها فى الشرق والغرب ، فلا معنى إذن للقول بأن الأمم الليڤانتية أو المشرقية تدين بمصر قبل التاريخ وقبل ظهور الإسلام ، ولأجل هذا يجب علينا نحن المصريين المعاصرين أن ندين بالفرعونية ونتخذها مثلا أعلى لحياتنا فى العلوم والفنون لأن هذه الأمم نفسها التى يذكرها الأستاذ هيكل وهى المحيطة بالبحر الأبيض والبحر الأحمر تأبى اليوم أن تقتدى بالفرعونية وترفض رياسة مصر القديمة ، ولايمكنك أن تقنع العراقى والسورى والحجازى والفلسطينى والتونسى والمراكشى بأن يتخذ رمسيس أو إخناتون أو فتاح حوتب أئمة وهداة فى العلم أو الثقافة أو الفنون لأن الدنيا قد تبدلت فى نظره وما كان يستهوى ألباب الفنيقى والصورى والإثينى والقرطاجنى والبابلى والأشورى عندما كانت مصر فى إبان عزها ومجدها وسؤددها ويجعل أحد ملوك هذه الممالك يكتب إلى ملك مصر قائلا « إننى أمرغ وجهى فى تراب نعليك » كما ثبت من آجر تل العمارنة التى اكتشفها فلندرز پترى بجوار ملوى ، كل هذا قد زال وتبدل وحلت محله مدنية أخرى وأمم أخرى وفنون ومعتقدات وعلوم حولت أفكار الشعوب إلى نور جديد ، فالشرقى العربى اليوم « لايحسب العمل الجد للكشف عن تاريخ الفراعنة متنافيا مع ارتباط الأمم العربية بأمتن الأواصر » بل تراه يعجب بتاريخ الفراعنة وآثارهم ويسر باكتشافها لأنها على الأقل تدل على عراقة الشرق فى المدنية وتفقأ بجمالها وجلالها أعين المكابرين الذين قالوا إن عصى الملك توت عنخ آمون (المصنوعة منذ أربعة آلاف سنة) تشبه عصى الملك جورج الخامس (المصنوعة منذ ثلاثين عاما !!) ، نقول إن الشرق العربى يفاخر بالمدنية المصرية القديمة أو المدنية البابلية أو الفينيقية ، ولكنه لا يؤمن بها ولا يأتم بها ولا يجعلها مهما عظمت وجلت قبلته التى يتجه إليها .

ومن هذا النزاع الفكرى تكونت نظرية التمسك بإحدى المدنيتين وكتب الكتاب فى الصحف يتناقشون ويتجادلون إلى أن رأت الجامعة المصرية حسماً لهذا النزاع طرح المسألة على بساط المناقشة العلنية بين عالم عربى وبين مفكر مصرى .

وقد لحظ أحد المتناظرين أن مجلس اتحاد الجامعة قد أخطأ فى وضع السؤال

فقال : « هل يجب على مصر أن تتمسك بالمدنية الفرعونية أم بالمدنية العربية ؟».

ووجه الخطأ فى هذا السؤال هو أنه لاتوجد مدنية فرعونية لأن فرعون هو اسم الملك الذى كان يحكم هذه البلاد وقد حكمت مصر فى عهودها المختلفة بملوك وجمهوريات وولاة وسلاطين وخديويين فلا يمكن أن تقول إن مصر كانت لها مدنية ملكية أو خديوية أو عثمانية أو سلطانية بل تقول كانت لها مدنية مصرية ، كذلك العرب قبل الإسلام لم تكن لهم مدنية بالمعنى المعروف لدينا لأنهم يعرفون فى القرآن والحديث ومؤلفات السلف الصالح فى التاريخ وغيره بأنهم كانوا أمة جاهلية ، فكل ما يقال عنه مدنية عربية يقصد به المدنية الإسلامية لأنها هى التى جعلت للعرب شأنا فى جميع أنحاء العالم وحينئذ كان ينبغى أن يكون الوضع الصحيح لموضوع المناظرة هو الآتى :

هل يجب على مصر أن تتمسك بالمدنية المصرية أم بالمدنية الإسلامية ؟

فيكون السؤال واضحاً ليس فيه مداجاة ولا رياء ولا لبس .

ولا يضير مصر أن نتمسك بالمدنية المصرية فإن ذلك لا يتنافى مع الإسلام، فنحن مصريون وطناً وجنسا ومسلمون عقيدة وعرب لغة وشرقيون انتسابا وكان العرب الأقدمون ينسبون إلى أجناسهم وقبائلهم . وبعد ظهور الإسلام أصبح الانتساب إليه ، لابكونه معتقداً ، بل لكونه حضارة ومدنية انتشر ظلها فى جميع أنحاء العالم ، فيقال مسلم كما يقال أوروبى أو أمريكى ، وقد عاشت أمم كثيرة تخالف الإسلام فى العقيدة ولكنها احتمت به فأظلها ، وعاش فى كنفه وتحت رايته - كثيرون من النصارى وكل اليهود تقريبا عاشوا وترعرعوا فى ظلال الإسلام من أوائل ظهوره إلى العهد الأخير ، فإن اليفتريوس فينيزيلوس الوزير اليونانى المعروف نشأ محاميا فى جزيرة كريت وولد فى عهد سيادة الأتراك وطلب العلم فى مدارس الأتراك وكان يترافع بالتركية أكثر من مرافعته باليونانية ، وكان ينظر إلى الأستانة كما ينظر الفرنسى القاطن فى جزيرة مدغشقر إلى باريس ، وهذا الرجل الذى خلق وتربى وتمرد فى عهد الأتراك المسلمين وفى ظل خلافة السلاطين من آل عثمان ، فكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دليلا على تسامح الإسلام ، وحبه المساواة والإخاء بين جميع عناصر الرعايا الخاضعين له، هو نفسه الذى شن الغارة على الدولة العثمانية وحرض عليها شعوب البلقان الغادرة حتى تألّبت عليها وكادت تبيدها من قارة أوروبا طاعة لأوامر المستعمرين من دول أوروبا الكبرى الذين استعملوا فنزيلوس وفردنيان البلغارى وأمثالهما لهذه الغاية. ومازال فنزيلوس يحارب العثمانيين حتى أطاع لويد چورچ (الذى يشبهه بعض كتاب بلاده بمفستوفيليس)[1] وحارب جمهورية الترك فى الأناضول سنة ١٩٢٢ فكان نصيبه الفشل والسقوط هو ومولاه چورچ . هذه كلها أعمال رجل واحد رومى الأصل مسيحى الدين كريتى الجنس عثمانى النشأة ضد دولة الإسلام العظمى ، ولو كان المسلمون متعصبين لما جعلوا لمثل هذا الرجل مجالا ينشأ فيه وينمو ويناصبهم العداء حتى يطمع فى أخذ الآستانة وإعادة كنيسة أياصوفيا فى المسجد الشهير بهذا الاسم .

لأجل هذا وغيره كثير من يقول «إسلام » يقول حضارة وتسامح وحرية وعفو ، إلى درجة البله والغفلة !

فنحن إذن مصريون ومسلمون وشرقيون وعرب ولا نتمسك إلا بالمدنية التى أساس العقائد فيها التوحيد وبالتوحيد لايخضع البشر ولا يذلون إلا لله تعالى خالقهم ورازقهم وقابضهم إليه .

والإسلام ينطوى على التوحيد فى العبادات كما ينطوى فى الشريعه على مبدأ الإقرار بالسلطة للأمة ، أى أن الأمة مصدر السلطات ، وكان النبى والخلفاء الراشدون يشاورون الناس ويعملون برأيهم وقد صرح أبو بكر بأن للأمة الحق فى تقويم حاكمها إذا اعوج وخالف . وقد بلغ احترام القرآن لحرية الرأى والاحتفاظ بكرامة الأمة مبلغا كبيراً فجاءت فيه آيات بينات هذا بعضها :

« فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر »

---

(١) اسم الشيطان فى رواية « فاوست » للشاعر الألمانى جوته . (ر.ل.ج).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« وما أنت عليهم بجبار »

« إن عليك إلا البلاغ وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيراً »

« لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى »

فبهذه العقائد وهذه الحكم وبأمثالها كثير ، ظهر المسلمون وفتحوا الممالك بالعدل والفضيلة وهذبوها ومدنوها ولم يرغموا أحداً من أهلها على الدخول فى دينهم، فإنه لما فتح العرب مصر ودخل فى الدين الجديد من دخل من المصريين ، حظر امتلاك الأراضى على المسلمين ، خشية استيلائهم عليها وحرمان المالكين من أهل البلاد من أقباط وغيرهم من أملاكهم ، كما أن سياسة العرب العامة فى أول الأمر كانت ترمى إلى استبقاء الغزاة الذين فتحوا مصر جنوداً لا أن تجعل منهم ملاكاً وزراعاً كأهل البلاد . فلما تحقق احتلال البلاد وأصبحت إقامة العرب فى مصر مؤكدة وغير مهددة خفّت وطأة المنع وأبيح امتلاك الأراضى للعرب من فاتحين وغيرهم ولزمتهم ضريبة الأرض التى يملكونها ولم تكن تلك الضريبة لتتغير سواء أكان المالك مسلما أم قبطيا ، وإذا انتحل القبطى دين الإسلام لم يكن هذا ليخفف عنه ضريبة الأرض .

أما الضريبة الشخصية (الجزية) فقد رفعت عن الأقباط الذين أسلموا .

وقد تمكن ابن حجارة من إقناع عبد العزيز بن مروان بالمثابرة على هذا الإعفاء لمن دخلوا فى الإسلام وقال له : « خير لنا أن نفرض الجزية على الرهبان والقساوسة، من أن نفرضها على الذين دخلوا فى دين الله » . ولما شكا ابن شريك إلى الخليفة عمر من أن هذا الإعفاء سبب عجز عشرين ألف دينار فى ميزانية الدولة من مخصصات الموظفين ، أرسل إليه عمر بن الخطاب كتاباً يؤنبه فيه ويأمر الرسول بضرب ابن شريك عشرين جلدة على أم رأسه ويحتم عليه إبقاء القديم من إعفاء الذين دخلوا فى الإسلام من الجزية وجاء فى كتابه « إن رأيك بغيض إلى الله، لأن الله بعث محمداً هاديا ورسولا ولم يبعثه جابيا ومحصلاً » .

وقد ظن المقريزى أن المقصود بكتاب عمر ، إدخال الناس أفواجا فى الإسلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(خطط ج ١ ص ٧٨) لأن عمرا جعل الإعفاء من الجزية بمثابة مكافأة لمن ينتحل الإسلام من الأقباط وقد ضمن العرب عند فتح مصر حرية الاعتقاد لأهل البلاد . وقد عاب بعض مؤرخي الإفرنج على العرب هذه الخطة وانتقدوها وظنوا حرية الاعتقاد كانت مكفولة نظريا لا عمليا لأن بقاء المصرى على دينه كان قرين عبوديته واضطراره لدفع الجزية ، وكلما انتشر الإسلام كلما ثقل الحمل على كاهل الأقلية المتمسكة بعقيدتها والتى لم تقبل الرشوة ، وانتقد بعض المؤرخين هذه الخطة لأنها أدت إلى عجز الخزانة ، وادعى بعض المؤرخين أن خراج مصر فى عهد عمرو بن العاص كان ١٢ مليون دينار وفى عهد عبد الله بن سعد ١٤ مليون وهبط فى حكم معاوية إلى ٥ مليون وفى عهد هرون الرشيد إلى ٤ مليون ونزل إلى ٣ مليون واستمر عليها لآخر القرن التاسع المسيحى ، ويستنتجون من ذلك أن العجز راجع إلى كثرة الداخلين فى الإسلام من الأقباط الذين فرطوا فى دينهم الأصلى تحت تأثير الرغبة فى الفرار من دفع الجزية أو تحت تأثير الضغط الأدبى الناشىء من بقاء القبطى فى حالة تشبه المذلة مادام محافظاً على دينه الأصلى (اليعقوبى ، ص ٣٣٩ ج٧).

على أن مؤرخى العرب وغيرهم مختلفون فى هذه النقطة ولم يجمعوا على تحديد الخراج (راجع ابن صالح ، ص ٨٢، وابن رسته وبطلر ص ٤٦٣) وليس من المعقول أن يهبط الخراج من ١٥ مليون إلى ثلاثة ملايين بسبب الإعفاء من الجزية . وفى عقيدتنا أن بعض المؤرخين مبالغون أو متعصبون أو غير متثبتين ، ومهما يكن عدد الأقباط الذين دخلوا فى الإسلام فلم يكونوا ليضيعوا على الخزانة فى مدى ١٥٠ عاماً (الفترة بين عبد الله بن سعد وهرون الرشيد) ١١ مليون دينار . ولا نظن أن دخول الأقباط فى الإسلام كان بهذه الكثرة ولا بهذه السرعة .

وقد روى الأستاذ ستانلى لين پول فى كتابه تاريخ القاهرة ص ٦٠ « أن دخول الأقباط فى الإسلام كان بطيئا وطبيعياً فإنه بعد الفتح بتسعين عاماً رأى أحد حكام العرب قلة عدد الأقباط الذين دخلوا الإسلام ، فاضطر إلى ترحيل ٥٠٠٠ عربى إلى الدلتا . ولم تتحول البلاد إلى الدين الجديد إلا بالانتقال البطىء والمصاهرة بين

العرب وأهل البلاد والهجرة المحلية » .

وفى رأى بطلر أن هذا النص الذى كتبه لين پول يؤدى إلى الاعتقاد بأنه لم يكن هناك ضغط على الأقباط ليتحولوا عن دينهم (ص ٤٦٤).

ولم يكن العرب ليملكوا طريقا أخرى غير إعفاء الأقباط الذين يسلمون من الجزية وهم الذين خيروا أهل البلاد المفتوحة بين الإسلام والجزية ، فإذا أسلم الرجل فليس من الإنصاف أن يستمر على دفع الضريبة التى كان يدفعها ثمنا لبقائه على عقيدته الأولى .

والحقيقة أنه لم يكن هناك (بعد رأى بطلر ولين بول) إرهاق ولا توريط ولا ضغط أدبى ولكن هناك ظاهرة غريبة وهى أن نفراً من عرب الصحراء الغزاة تمكنوا فى بضع سنين بفضل حماستهم المكتسبة من دينهم الجديد من ابتلاع الدين المسيحى والثقافة البيزنطية وهما خلاصة المدنيات القديمة الثلاث ، مدنيات اليونان والرومان والمصريين القدماء .

وقد تمكن الإسلام فى فترة قصيرة من نشر اللغة العربية فى أكثر من نصف المعمور ، والبلاد التى تتكلم العربية وتكتبها هى نصف إفريقية الشمالى من مملكة مراكش إلى مصر والشطر الغربى من سواحل البحر الأحمر إلى العراق وعمان ومسقط - كل قطر منهم ينتسب إلى بلده كما ينتسب المصرى إلى قطره ويعدون الرابطة الجامعة بينهم هى اللغة العربية والثقافة العربية على اختلاف مشاربهم وعقائدهم ، ويعدون مصر رأساً لهذه الشعوب ويتمنون لو تكون كل هذه البلاد ممالك متحدة مركز ها مصر ، فبقاء انتساب مصر للعربية إنما يحفظ لها هذه الرياسة على هذه الشعوب الكثيرة وتبرؤها من العربية ونسبتها إلى الفرعونية ليس فيه أدنى فائدة لمصر لا مادية ولا معنوية .

فهل من مصلحة مصر أن تتخلى عن مركز الزعامة والسيادة على تلك الأمم الشرقية العربية ، لتكون فرعونية النسب ؟ وماذا ينفعنا أن يقال عنا أبناء الفراعنة وأحفادهم ، ونحن فى الحقيقة لسنا كذلك بل نحن أحفاد عبيد الفراعنة وبقايا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشعب الذى أذله الفراعنة وليس لنا أبداً أن نفتخر بالآثار المصرية ، بل يجب علينا أن نمقتها ونبكى دماً من ذكراها .

فقد شيدت هذه الآثار كلها بفعل الاستبداد والظلم ، وكانت تشاد لتعظيم شأن الملوك الظالمين وتخليد ذكرهم والإشادة بأعمالهم الحربية فى أنحاء مصر . وقد ذاق الشعب المصرى صنوف المذلة والهوان على أيدى الجبابرة من الملوك لا سيما أفراد الأسرة الرابعة أمثال خوفو وخفرع ومنقرع هؤلاء الملوك العتاة الطغاة الظالمون الغلاظ الأكباد الذين سجلوا على أنفسهم ذنوبا لا يمحوها كر الدهور ولا مر العصور مادامت الأهرام الكبرى تناطح السحاب وتقاوم طوارىء الحدثان وتهزأ بتعاقب القرون والأزمان وتشهد بأن كل صخر من صخورها هو دمع متحجر من دموع الشعب الذليل الذى سيق مرغما والشمس المحرقة ترشقه بأشعتها وسهامها ، والصحراء الحامية تدمى أديم أقدامه بجمر حصاها ورمالها والسياط المثلثة الأذناب مصوبة إلى ظهره والسيوف المرهفة مكان الغلالة من نحره ، سيق هذا الشعب المظلوم على تلك الصورة المفزعة تحقيقا لرغبة عتل زنيم ، أصابه مس من الجنون فظن أن نفسه الخبيثة لا يليق بإيوائها إلا ذلك الهرم الجسيم أو أراد أن يخلد ذكر نفسه على صفحة مصر فسفك دماء أبنائها ليكتب بها سطراً فى الصحراء لابد أن يمحوه الزمان ومازوال الظالمين وآثارهم وذكرهم على الله بعزيز .

فأنت ترى يا أخى أن مفاخر مصر إنما هى مذابح الشعب ومظالم الملوك . فكيف يصح لنا أن نتمسك بالفرعونية وكان فرعون يقول للشعب « أنا ربكم الأعلى». ولما أعان يوسف ملك مصر ، كنز الأرزاق والأقوات وجوّع الشعب وأذلّه ، لأنه كان يبيعهم القوت الضرورى بأغلى الأثمان ، فلسنا من الملوك الأقدمين وليس الملوك منا بل كانوا أعداء شعبنا وكانوا له ظالمين مرهقين ، بل قد ظلموا أنفسهم فاغتصبوا العرش من بعضهم بعضاً كما صنعت حتشبسوت مع إخوتها ، وكانوا يمحون آثار أسلافهم ليضعوا آثار أنفسهم ويقطعون رؤوس آبائهم وإخوتهم من التماثيل الصخرية ليضعوا رؤوس أنفسهم !!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الديموقراطية المصرية
فى عهد الفراعنة[1]

كان من حسن حظى أن تلقيت مبادىء اللغة الهيروغليفية على الأستاذ فيكتور لوريه (الذى كان مديرا للمتحف المصرى قبل المأسوف عليه ماسبرو) وذلك منذ عشرين عاما فى كلية الآداب بجامعة ليون[2] ، ولكننى لم أظفر من تلك اللغة العريقة فى القدم بما ظفر به الأخصائيون فيها ، على أنها أفادتنى حب البحث فى تاريخ مصر القديم ، وقد رأيت من أحوال هذا الشعب الذى كان يعيش على ضفاف النيل مايجدر بإعجابنا نحن ورثة تلك المدنية النبيلة ، فإنه منذ ستة آلاف سنة كان يسكن وادى النيل شعب سن لنفسه شرائع وقوانين لا تقل عن الشرائع والنظم التى جاء بها بعض الأنبياء بعد ذلك بأجيال عدة ، فبينما كان الإنسان فى القرون الأولى من تاريخه الفطرى يضرب فى ظلمات الجهالة والوحشية ، لا يكاد يكون بينه وبين الحيوان الصامت فرق ، كانت الأمة المصرية تنشر المدنية والحضارة اللتين ينشدهما الشرق فى عهدنا هذا ولا يزال بعيدا عنهما بمراحل ، وهما اللتان سار عليهما العالم الأوربى منذ قرن بعد قيام ثورات سفكت فيها الدماء أنهاراً . فما أعظم تلك الأمة التى نهضت وتعلمت بغير وحى سماوى وأدركت قيمة المرأة فوضعتها فى المقام الأول !

ولم يكن احترام المرأة قاصراً على الملكات والأميرات كما هو المشاهد فى آثار توت عنخ آمون لا سيما صورة الملك وزوجته المثبتة فى ظهر عرشه وهى من أدل الصور على العطف والمساواة والمودة الزوجية ، بل كان الاحترام شاملا نساء

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٩.

(٢) انظر مذكرات المؤلف المعنونة « شاهد على العصر ، مذكرات محمد لطفى جمعه » ، ص ١٤٧ ، ١٤٩ ، رقم ١٨٢ من سلسلة تاريخ المصريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٠ م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشعب والطبقة الوسطى ، وقد استدل علماء الآثار على ارتفاع مكانة المرأة المصرية مما شاهدوه فى المدافن وصفائح القبور ونقلوه عن الكاغد (البردى) ٠

وقد دلنا الأستاذ ليفقر أمين المتحف فى زيارة لدار الآثار المصرية على الصندوق حرف B فى الغرفة حرف B بالطبقة الأرضية وبه تمثال مصنوع من الحجر الجيرى للمصرى « سابوتى » وزوجته وولده ٠ والمتأمل فى هذا التمثال المصنوع على نمط أوربى (أستغفر الله بل إنه كان نموذجا للنمط الأوربى) يرى الزوجين جالسين على مقعد واحد ويد السيدة اليسرى فى يد زوجها اليمنى يربطهما الحب ، والابن واقف وراء أمه فى أدب جم وحياء جديرين بيافع ألمانى ، وقد أشار الأستاذ ليفقر إلى أن جلوس الزوجين فى مقعد واحد لم يكن عفوا وإنما قصد به المثّال التدليل على المساواة بين الرجل والمرأة مساواة سببها المحبة والإخلاص بين الزوجين وهى ليست مساواة مصطنعة يحتمها القانون ولكنها مساواة يمليها القلب وتأمر بها العواطف ٠ وكان فى وسع المثال أن يصور المرأة تحت قدمى زوجها لو كانت الحقيقة تدل على خضوعها أو نزولها عن درجته ، كما أن لوقوف الابن وراء أمه معنى احترامه إياها أكثر من احترامه أباه وهذا برضى وقبول من الوالد وهو رب الأسرة وعائلها ٠

ولم تكن السيدة سابوتى من المتحجبات بل كانت سافرة وقد صففت شعرها تصفيفا حسنا وشقته من الوسط ومازال هذا النوع من زينة الشعر معمولا به فى أوربا إلى أن حدثت عادة القص الذميمة التى سلبت المرأة نصف جمالها وأنوثتها وجعلتها شبه ولد مخنث لا تعرف رأسه من رجليه !!

ولم تكن عادة تزيين الشعر وشقه فى وسط الرأس مجهولة عند المصريين بل كانت العادة المتبعة ، ولا تجد فى المتحف تمثال امرأة خالياً من هذه الحلية الجميلة التى اتخذها الأوربيون عنا فكنا نفرق شعورنا فى الوقت الذى كانوا يهيمون فيه على وجوههم ، وشعورهم الملبدة بأنواع الشحم والدم مدلاة على جباههم وأقفيتهم كأنهم وحوش كاسرة ٠

ثم انتقلنا إلى الصندوق حرف E فى نفس الغرفة حرف B وبه تمثال « ميسر بيس » وزوجه وهما واقفان جنباً إلى جنب وقد طوقت السيدة « ميسر بيس » خصر زوجها بذراعها الأيمن . وإننا لندهش إذا سرنا فى طرق باريس أو برلين أو لندن أو جسنا خلال إنتردن لندن (تحت ظل الزيزفون) أو غابة بولونيا أو هايدبارك ورأينا شابة وشابا متخاصرين ، وقد ننسب ذلك إلى الإغراق فى الحرية الجنسية وعجائب الاختلاط بين الذكر والأنثى ، ولعمرك إنها لعادة مصرية قديمة جميلة لا غبار عليها تدفع إليها الطبيعة ويقرها العرف ويخلدها المتفننون بتماثيلهم وصورهم .

وكان يحلو للأعاظم من المصريين القدماء أن يباشروا أعمالهم الخاصة فى صحبة نسائهم وأولادهم . وقد رأينا فى الدهليز الموصل للطرقة الغربية من الدور الأول لوحاً حجريا يمثل المحافظ إيوى وبجانبه زوجته وابنته وهو يباشر زراعته وأمامه الأنعام التى تعمل فى الأرض بإشراف الأسرة . وفى نفس هذه الطرقة يرى الزائر كما رأينا تمثال الأمير « أكو » وزوجته الأميرة « حتيوحن نفريت » وألطف ما يشاهد فى هذا التمثال تعانق الزوجين وهما على أتم ما يكون من البشاشة والهناءة الزوجية ، وقد لفت نظرنا إلى زىّ الأميرة وهو ثوب من الكتان الأبيض يستر ما تحت نهديها البارزين ثم ينعطف برشاقة وحلاوة على كتفيها العاريتين الملوعتين بشرائط كالحمالات التى تستعملها السيدات المحدثات وقد تحلت الأميرة الكاعب ذات العينين الدعجاوين بعقد عريض من حجارة كريمة لعلها الفيروز والزبرجد ، وأرسلت شعرها الأسود اللامع على عنقها وكتفيها كأنه قطعة من الليل ، ولكنه لا يحجب ضياء ووجهها اللامع .

وكانت المرأة المصرية تعين زوجها فى جميع أعماله كالزرع والصناعة فضلا عن تدبير المنزل وتربية الأولاد والقيام على خدمته خير قيام ، وهذا ظاهر من التماثيل والألواح فى الطرقة الغربية من الدور الأول ، وفى الصندوق الزجاجى حرف D وفى درج السلم الموصل للطبقة العليا أوراق بردية فيها صورة امرأة تبذر القمح ومعها زوجها يحرث الأرض .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكانت المرأة المصرية القديمة متمتعة بالعلم والمعرفة ولها حق الوصول إلى الدرجات العليا فى الكهنوت وهى أسمى من وظائف الجندية بل أسمى مناصب الدولة. وكان المصرى القديم لا يقسو على زوجته إذا هفت هفوة ، وقد قرأ لى الأستاذ كاغداً حرره الكاتب « كيبى » إلى زوجته عنخازى هذا نصه :

عزيزتى المحبوبة عنخازى !

مذ ارتبطنا بعقد الزواج المقدس لم أفعل منكراً تخجلنى إذاعته ، أما أنت .. ولكن يكفى ... هل تستطيعين الجواب إذا وقفنا معاً فى محكمة أوزيريس فأصف حسن معاملتى إياك ؟ ماجوابك إذا شكوتك إلى الآلهة فقضوا بعقابك لسوء سلوكك معى ؟ زوجك المحب

وكان الزوج هو الذى يدفع صداق زوجته وهى قاعدة أقرتها الشريعتان الموسوية والمحمدية (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) وكان الصداق عقاراً كقطعة من الأرض الزراعية أو بيتاً مؤثثاً ، وكان العرس (الزوج) يقدم لحميه ووالد العروس (الزوجة) هدية تعادل قيمة الصداق ، فإذا دخلت الزوجة بيت زوجها ضمت إليه الأرض التى أخذتها صداقا وعاشا معاً تحت نظام الشرك " La Communauté des biens" الذى اتخذته القوانين الفرنسية كأحد أنظمة الحياة الزوجية الحديثة، فإذا رزقت إناثاً وهبتهن أرضها فلا يطول بقاء الأرض فى أيد قليلة بل توزع الثروة العقارية على التوالى بين أفراد الأسرة الواحدة ثم يملكها أفراد يؤسسون عائلات جديدة فلا تتراكم الثروات تراكما مضراً كما نراه الآن .

وكان الفراعنة يجلبون أبناء الأعيان والأمراء لتربيتهم فى عواصم ملكهم مع أبنائهم (وعلى هذه الخطة سار بعض أفراد الأسرة المحمدية العلوية فأسسوا مدارس لتعليم أولادهم وأولاد العظماء فى الدولة) فإذا أتم هؤلاء الشبان تعليمهم عادوا إلى بلادهم وامتزجوا بالشعب وأزالوا الفروق بين الطبقات ، وكان الفرعون إذا رضى عن أحد رعاياه زوّجه من أهل قصره وأقطعه الإقطاعات فيبقى الاتصال دائما بين العرش والرعية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان تعدد الزوجات من مستلزمات الديمواقراطية ، وقد كتب أحد الأعيان يصف حياته الزوجية وكان اسمه بالمصادفة « بابا » وقد كان بابا بحق ! :

« كنت ذا قلب رحيم لا يعرف الغضب فأكرمتني الأرباب وأنعمت عليّ بالخير الجزيل في هذه الدنيا . وكان أهل بلدى « كاب » يهنئونني بالصحة والعافية ويدعون لى بزيادة الخير والعطاء من الآلهة . ولكنني لم أقصر في الاقتصاص من أهل السوء دفاعا عن نفسي ، كنت أحب جارى وأحسن إليه وأخلص للشعب وأعطف على الفقير وأسعده على قدر طاقتي وأعطيه مما منحتنى الآلهة ! وقد رزقت باثنين وخمسين ولداً ذكرا وأنثى وجعلت لكل منهم سريراً ومقعداً ومائدة و كانوا يأكلون كل يوم مائة وعشرين مدا من القمح والحبوب والبقول وكانت لهم ثلاث أبقار تحلب لهم اللبن واثنتان وخمسون ماعزاً وثمانية حمر ، وكانوا يحرقون من البخور « هينا » وزيادة (والهين مكيال مصرى قديم يعادل كيلتين تقريباً) ويصرفون ماشاءوا من زيت الزيتون والفاكهة » ا.هـ . كلام بابا .

وكان تقسيم الشعب إلى طبقات كالجند والكهنة والصناع والمزارعين تقسيما نظريا محضاً يقتضيه القيام بأعباء الوظائف الحكومية ، أما حياة الشعب فكان أساسها الإخاء والمساواة والحرية . وقد لاحظ الأستاذ أن الفنون المصرية القديمة كصنع التماثيل والتصوير بالألوان والموسيقى والغناء لا تنمو في غير الديموقراطيات العظمى ، وأن بلاد اليونان ذاتها مدينة بأنظمتها السياسية للمصريين القدماء .

وقد قال هيرودوت إن علم الكهانة كما كان سائداً فى بلاد اليونان منقول عن مصر وكذلك طريقة تقرب الكهنة من معبودهم ومخاطبتهم إياه ، وقد وجد العلماء فى اليونان آثاراً مصرية قديمة ووجد المنقبون فى جزيرة كريد أوانى مصنوعة فى وادى النيل .

فمصر بحق صاحبة المدنية الأولى ومنشئة الديموقراطية القومية فنحن إذا تحلينا بها فإنما هى بضاعتنا ردت إلينا .

حفريات

توت عنخ آمون ، وقبر الإسكندر وتنيس ، ومقبرة رع ور ، وسادوم وعمورة !![1]

أسماء نطقت في العهد الأخير ، فكان لكل منها قيمته وأثره فى النفوس ، وكأن أنظمة القدر أرادت أن تظهر هذه العجائب كلها فى وقت واحد أو فى أوقات متقاربة .

أما قبر توت عنخ آمون ، تلك المعجزة الحافلة بآثار أجدادنا ، فقد علمت بشأنه أمراً غريبا ، وروى لى أحد السائحين الأجانب عبارة لفتت أنظارى ولعل فيها حلا لبعض ألغازه .

كنا ثلاثة خرجنا من فندق ونتر بلاس نقصد زيارة وادى الملوك و « شيخ عبد القرنا » ووادى الملكات والدير البحرى ومدينة هابو والرامسيوم وتمثالى ممنون : المستر باركر الأمريكى من مدينة فيلا دلفيا ، والأستاذ بيرانجيه محامى من ديجون وكاتب هذه الأسطر .

فلما بلغنا وادى الملوك ورأينا مدخل توت عنخ آمون تحوطه الجند ويعد مندوب الآثار زائريه فرداً فرداً ولا يسمح لهم بأكثر من دقيقة واحدة فلا يلبثون أن ينزلوا ويمسحوا عرقهم حتى يصل إلى آذانهم صوت صفير المفتش فيبادرون إلى الصعود وهم يلهثون ، فلما فرغنا من الزيارة وقصدنا قبر رمسيس الرابع وأمنيوفيس الثانى تكلم الأمريكى فقال :

— لست أفهم كيف قضى المنقبون ست عشرة عاما فى البحث عن هذا القبر ، وإنى أعتقد هذا الحديث خرافة .

قلت له : كيف ذلك لقد صرفوا ست عشرة عاما بالضبط وأنفق اللورد كارنارفون أكثر من ثلاثين ألفاً من الجنيهات ردتها إليه مصر .

أجاب باركر : ياسيدى ! يجب أن يكون لنا عقول ندرك بها الأشياء كما أن

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ١٩٣٠/٥/٢١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لنا أعينا نرى بها المرئيات ...

قلت : صحيح !

قال : انظر ! هذه نصف دائرة من الصخور فى بطن الجبل ينتهى إليها وادى الملوك أو وادى الموت كما تريد أن تسميه ، وهو فى الحقيقة ليس إلا «كامبوسانتو» أو مدفن رسمى للملوك وقد حفر فيه القبر بجوار أخيه ، وليس بينهما إلا بضع خطوات ، فهنا قبر هور محب وهنا قبر رمسيس الرابع وهنا قبر أمنوفيس الثانى ويجب أن يكون هنا أيضا قبر توت عنخ آمون ، مادام ملوك كل أسرة معروفين وأسماء الذين دفنوا فى طيبة معروفة للمؤرخين ، وكان توت عنخ آمون أول ملك بعد أخناتون ، وقد انتقل إلى طيبة وترك تل العمارنة وعاد إلى العقيدة القديمة عقيدة الإله آمون رع بعد عبادة قرص الشمس . إذن كان البحث والتنقيب محصورين فى هذا المكان ، فإن قضيت ست عشرة سنة أو ستة عشر شهرا ، فهذا شأنك ليس شأنى ، إنما أنا أقول لك إن المنطق والعقل والتاريخ كلها تدلنا على أن قبر توت عنخ آمون فى هذه البقعة ، وكانت هذه المدة تطويلا بغير فائدة .

فضحك الفرنسى بيرانجيه وقال : أنتم أيها الأمريكان أمركم عجيب ، أتظنون الاكتشاف العلمى كالاختراع الكهربائى ؟ اعلم يا سيدى أن للتنقيب الأثرى شروطا وظروفا خاصة به ، وليس لهوا ولا لعبا ، وكان اللورد كارنارفون يوشك أن يترك الحفر قبل العثور على المقبرة بيوم واحد ..

أجاب الأمريكى : هنا مفتاح المسألة ، لماذا عثروا على القبر عندما أرسل اللورد كارنارفون خبر عدوله عن الاستمرار فى الحفريات ؟

فضحك الفرنسى وقال : أنتم دائما هكذا أيها الأمريكان ! تبحثون عن النقطة الغامضة أو « حل المعجزة » ... أتريد أن تقول إن محل المقبرة كان معلوما للباحثين من رجال اللورد وأنهم استمروا يحفرون إلى أن شاءوا أن يذيعوا خبر الاكتشاف فأذاعوه وأعلموا اللورد به .. هذه خرافة يا سيدى لا أومن بها . إن قصة أحمد عبد الرسول قد دفنت معه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكنا فى تلك اللحظة نتسلق هضبة عالية تنتظرنا الأنعام فى قمتها ، لتصل بنا فى منحدر وعر إلى الدير البحرى ، فأشرفنا على وادى طيبة الرهيب ، وضاع جواب الأمريكى بين الضحك والاندهاش والإعجاب والروعة لدى رؤية تلك الآثار وذلك الوادى العجيب .

* * *

قبر الإسكندر ! هل كانوا فى نوم عميق ؟

لقد مضى على موت الإسكندر أكثر من ألفى عام !

مات الإسكندر فى بلاد الفرس ، وقيل إنه مات مسموما وقيل إن المنية قصفت غصن شبابه فى الثلاثين من عمره وهذا عمر العباقرة لدى موتهم ! ويعدون منهم لفيفا ، وقيل إنهم نقلوه ليدفنوه فى البلد العزيز على قلبه الذى أحبه وشاده وأعطاه اسمه واختاره مرقداً أخيراً لوفاته . وقد حقق المؤرخون موضع دفنه بالدقة ، وروى محمد بك مسعود فى كتابه « تاريخ الإسكندرية » الذى نشره من نحو أربعين عاما أن قبر الإسكندر يوجد حيث يوجد مسجد النبى دانيال ورسم لذلك رسما تخطيطيا وقال إن الجثمان كان فى تابوت من ذهب ثم نقل إلى تابوت من بلور ، وعلى مقربة منه أعمدة، هى التى اكتشفت أخيرا بلا ريب ، فليس هناك ما يصح أن يدعى اكتشافا ، إلا إذا ظهر أن مقر النبى دانيال ليس هو القبر المقصود بالذات .

أما « تنيس » وهى المدينة العجيبة القائمة فى وسط بحيرة المنزلة ، والتى قيل إنها كانت عاصمة كبرى ، وأن مجمعا كبيرا لأحبار اليهود عقد فيها .. فلاتزال بلدا بكراً ، لم تمسها أيدى الباحثين . وقد بدأ بالحفر فيها صديقنا ورفيق دراستنا فى كلية الآداب بجامعة ليون الأستاذ مونتيه ، أحد تلاميذ الأستاذ لوريه مدير المتحف المصرى الأسبق (قبل ماسبرو) وأستاذ التاريخ المصرى القديم بجامعة ليون ، وقد عرفنا مونتيه وعاشرناه فى سنة ١٩٠٩ بليون [١] وعلمنا أنه التحق

---

(١) أنظر مذكرات المؤلف « شاهد على العصر » ، المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالمعهد الفرنسى بمصر بعد ذلك بعامين أو ثلاثة أعوام وقد وفق فى الحفائر التى قام بها فى سوريا منذ سبع سنين وهو شاب مقدام شجعه فقره على الاجتهاد واقتحام الصعوبات فنال نصيبا من المجد بفضل حبه للعلم ، ولد ببلدة فيلفرانش بجوار ليون، وقد تعلق بتاريخ مصر لميل فطرى فى نفسه مع أنه منحدر من عنصر قروى محض ، وليس بين أهله علماء . ومدينة تنيس التى بدأ مونتيه بالحفر فيها حافلة بالآثار وربما يكشف لنا عن عجائب لم تخطر على عقول المؤرخين والمنقبين من قديم الزمان .

وفى هذا الوقت نفسه يتولى بعض رجال الدين من محبي التاريخ البحث عن آثار سدوم وعمورة المدينتين الفاسقتين اللتين ورد ذكرهما فى التوراة وهما موطن لوط وقومه الذين بعث لهم فكان منهم ما كان فى حق الملائكة والمرسلين .

وقد عثر الباحثون على آثار تشبه الأهرام فى مكان شمالى الأردن ويظن أنه هو المكان الذى يخفى فى ثناياه آثار تينك المدينتين .

سدوم وعمورة ! ومن يذكر هاتين البلدتين ولايذكر مدينتى بومبىء وهيركيولا نيوم فى سفح بركان فيزوف الرهيب !؟ وهاتان المدينتان ، لم تكونا فاسقتين ، ولكن كانتا معجبتين بجمالهما وبما جمعتا من مظاهر الفخامة والرفاهية والترف ، فلم يسكنهما إلا أرباب النعمة ، وقد اتخذوا لأنفسهم القصور الفخمة والحدائق الغناء ذات النوافير والمياه الجارية وزينوا جدران غرفهم بالصور البديعة الجميلة كما جملوا أرضها بالفسيفساء .. ولانزال نذكر جمال مسكن فيتى Casa Vetti ذلك الغنى البومبيئى الشهير الذى رأينا فى بعض مخازن بيته غرفا أعدت لحفظ النبيذ والزيت وأخرى جعلها للطعام والشراب وحفلات السرور ، وقد زين بعض الغرف بصور يعف القلم عن وصفها ، لذا جعل لها سدنة الآثار خزائن من الخشب بأقفال من حديد وجعلوا رؤيتها قاصرة على الرجال والنساء البالغين والذين لا يخشى على عفتهم ، ومقابل جعل معين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والآن فى هذا العام بل فى هذا الشهر وافتنا الأخبار بأن المنقبين قد عثروا على بيت سيسيليوس جوكندوس كورنيليوس تاجوس أشهر المرابين الذين عاشوا فى بومبىء منذ ألفى عام ، وظهر من كشف آثار هذا « الفايظجى » العتيق أنه نشأ فى الأرياف ونمى ثروته بالطريقة التى يتقنها أمثاله ولايزال يتقنها أحفاد أحفاده فى أرجاء العالم ، ثم هبط على مدينة بومبىء كما يهبط الطير الجارح على فريسته الضعيفة الهادئة وكان أهل بومبىء فى تلك الفترة (حوالى ظهور السيد المسيح) فى أعلى ما يكونون حبا فى المال والترف والشهوات ، وكانت بومبىء فى أوج عزها وعظمتها وقد اتخذت كامل زينتها واستعدت والعياذ بالله للخراب الداهم الفظيع .

وكان المرابى شديد المكر واسع الحيلة وهما خلتان يحتاج لهما أمثاله ، فقد اتخذ بيته ومصرفه الذى فيه خزائنه فى أهم شارع فى وسط المدينة فى « عين العمران » حتى يكون بمأمن من هجوم الهاجمين ، وجعل للبيت مخرجا سريا يسهل عليه الفرار فى الوقت الحرج ، أما باب بيته فقد اتخذ له رتاجا من الحديد وآخر من الخشب كما اتخذ كتلة من الخشب الضخم يجعلها بين الباب والجدار لمقاومة المهاجم من الخارج، ولم يحرم هذا المرابى نفسه من التمتع بلذات الخلوة الصحيحة فى مقصورة جميلة متصلة بالطريق مباشرة ومنتهية إلى حديقة صغيرة ، ولعل هذه المقصورة تحفظ أسرار غرامه مع من كن يقصدنه من الفاتنات المضطرات للاقتراض .. أما حجرة نومه فتدل على مقدار الغنى الذى كان يرتع فى بحبوحته وقد نمت ثروته بسرعة عظيمة فاشترى قصراً مجاوراً لبيته وجعل بينهما ممراً سريا، وجعل هذا القصر الجديد مسرحا للهوه . فزين جدرانه بصور من الفسيفساء تمثل الزهرة إلهة الحب مع إله الحرب فى أوضاع تنبو العين عن رؤيتها فى عصرنا الحديث ، وزين جداراً آخر بزهرة البحر على حالة من التهتك والفجور لاتقل عن الأولى وجعل اسمها Venus Maritime .

وكان الرجل فضلا عن ثروته ومهارته فى جمع المال وصره وكنزه حاذقا فى التكهن ، ثابت الجأش لدى الملمات ، فإنه لما رأى إنذار الكارثة ، وأيقن أن بومبىء

هالكة لا محالة ، بادر إلى نقل خزائنه وأمواله وتحفه وما خف حمله وغلا ثمنه من الأثاث والرياش والموجود « تعريب صحيح لموبيليا » والتماثيل النفيسة والطنافس النادرة ونقل كل ما هو مصنوع من ذهب وفضة ونحاس وبرنز ولم يترك «مليم خردة» ولعله نقل ذلك كله إلى شاطىء البحر أو إلى نابولى أو رومة ذاتها . ولم يترك وراءه إلا كل ما لا يستطاع حمله ولا يخشى عليه من اللصوص إذا هم داهموا بيته فى فترة غيابه التى ظنها قصيرة فكانت إلى الأبد .

وقد بلغ به حرصه أن نقل المأكولات فلم يعثر فى بيته على قنينة نبيذ ولا آنية زيت ولا قارورة عطر .. وقد أغلق الأبواب والنوافذ فعثروا على باب حديقته الخلفى وهو موثق برتاجين من حديد ، محكم الغلق كأنه باب الباستيل قبل سقوطه ! ولكنه ترك تمثاله المصنوع من البرنز (ولعله هدية من أحد العملاء من أهل الفنون) ولم يكن سيساليوس تاجوس يحلم بأن اسمه ورسمه سيظهران فى عالم الوجود بعد موته بألفى عام .. وأن الباحث والمؤرخ سيستدلان من سحنته ووصف بيته على أخلاقه وبخله وشحه وانحطاط ذوقه فى شهواته وشدة حرصه عند دنو النكبة أو الكارثة الكبرى التى حلت ببلده ، فكان أول الهاربين بعد أن امتص دماء أهلها بالفوايظ الفاحشة .. واستدللنا من طريقة إغلاق بابه على جبنه وخوفه من مهاجمة المهاجمين من لصوص أو خصوم . فها نحن ننشر صورته وصورة بيته ولسان حالنا ينادى :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين الماضى والحاضر
من فتاحوتب إلى تتنخمن
الملك والعرش والسرير[1]

الملك

الملك – للملك توت عنخ آمون فى المتحف الآن تمثالان الأول نصفى والثانى كامل بطوله ولكنه صغير . أما التمثال النصفى وهو ما يسميه الإفرنج Buste فهو الذى قيل عنه أولا إنه نموذج خشبى لقياس الثياب وتفصيلها عليه بصفة Mounguin وظهرت حقيقته الآن أنه صنع لوضع العقود حول عنقه إما للعرض وإما للحفظ والصيانة ، وتلك العقود كانت من الذهب والجواهر واسمها بالمصرية القديمة « أوشخت » وموجود منها أنواع كثيرة فى غرفة الحلى والجواهر ، أما التمثال ذاته فهو على الرغم من أن هيأة الوجه فيه كانت ثانوية ، فإن الحفار بذل جهداً عظيما فى إتقان التصوير . مصنوع من الخشب العادى ومطلى بطلاء بنى والوجه فى غاية الجمال والإفصاح تكاد تقاطيعه تنطق دون تصنع ولا تقليد . وأتقن ما فى الوجه صنعة الفم والشفتان والذقن ، والوجه فى مجموعه يدل على الشباب والقوة والجمال ورقة الحاشية ، ويمتاز الوجه بكبر الأذنين ودقة القسم الأسفل مما يدل على ميل إلى الفنون الجميلة وانصراف عن الشهوات ، وقد يظن الذى يراه أنه وجه رجل من شمال أوربا ، اتساع فى الرأس والجبين وضيق وصغر فى الذقن والفم ورقة فى الشفاه .

أما التمثال الكامل فلا يزيد طوله عن قدمين وهو يسمى بالهيروغليفية (أوشبتى) أى بديل النفس وكان يوضع فى القبر لينوب عن الروح عند سؤال القبر ومحاسبة الآلهة عما فعل صاحب الروح من الخير والشر . وقد حافظ المتفنن الحاذق على شبه

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة الأهرام فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٢٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوجه وسائر تقاسيمه على الرغم من صغر حجمه فى هذا التمثال حيث لايوجد فرق بين الوجه فى التمثالين ولكن زاد أن الناظر يرى طول العنق وامتلاء البدن وكبر الرأس بالنسبة لبقية الجسد ، وقد وقف الملك واضعا يديه على صدره وفى كل يد منهما سوط يرمز به للقوة وعلى رأسه تاج وقد برز منه صورتان الأولى تمثل الصل المقدس والثانية تمثل العقاب وهما رمز للجمع بين الوجهين القبلى والبحرى (ونزيت ونخبيت) ومن جمال الصناعة أن جسم الملك قد نقش بكتابة هيروغليفية هى عبارة عن كلمات مصنوعة من العاج ومطعمة تطعيما دقيقا يدل على حذق فائق ، ومعنى هذه النقوش دعوات صالحة ترافق الروح فى سياحتها الأخيرة وتنقذها وقت الحساب.

العرش

العرش العظيم ! عرش مصر العليا والسفلى ! الذى جلس عليه توت عنخ آمون فى قصره وحضر حفلات الملك أثناء دولته وصولته وهو الوحيد فى نوعه وفريد فى صنعه ، فهو من خشب الأرز الجيد ومصفح بالذهب الوهاج بحيث لا يرى أثر للخشب ويظن الرائى أنه مصنوع من سبائك الذهب وهو فى شكله وحجمه يدل على رقة الجالس عليه وظرفه وأناقته ، وقد قال لنا المسيو ليفڤر الذى تفضل بمصاحبتنا فى هذه الزيارة أنه لو تضافر جملة صناع من أعظم عواصم أوربا وعملوا جملة أشهر فلعلهم لا يصلون إلى صنع مثله . تخيل كرسيا فخما دقيقا مصنوعا من الذهب متكأته رؤوس أسود وأرجله الأربع أظفارها وقد حلى مسنده الذى يضع الملك عليه ظهره بصورة من أجمل الصور التى فى الدنيا . الملك جالس على مقعد آخر بهيأة رفع التكليف كأنه فى منزله وقد وضع إحدى يديه على المسند ومد يده الأخرى لزوجته الواقفة أمامه فى ثياب بيتية جميلة التطريز ومحلاة بشرائط تشبه آخر أزياء باريس فى هذا العام !! وهى واقفة أمامه موقف المودة والحنان والصداقة وقد وضعت يدها اليمنى على كتفه رمزاً للمحبة ، وعلى رأس الملك تاج يدل على سلطته وسيادته على أنحاء القطر المصرى ووراءهما تمثال قرص الشمس الذى كان يعبده خوناتون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعبده توت عنخ آمون حيناً وقد انبعثت منها الأشعة وانتهى كل شعاع بيد إنسانية رمزا إلى أن الشمس توزع الخير على الدنيا بحرارتها ونورها ، والصورة مرصعة بالفيروز والميناء على هيأة تأخذ بالقلب وتبهر البصر وتحير العقل ، وفى هذا العرش مسألة مهمة تدل على أن الملك عبد فى عهده إلهين وتقلب بين مبدأين واتبع مذهبين، فإن الصورة الكبرى التى وصفتها تدل على عبادة قرص الشمس وهى عبادة خوناتون ٠ ثم إن على المتكأ الأيمن كتب اسم الملك هكذا « توت عنخ آتون » أى آتون الحى وهذا اللقب يدل أيضا على عبادة قرص الشمس ، أما المتكأ الأيسر فعليه اسم « توت عنخ آمون » ، فالاسم الأول اسمه فى تل العمارنة عاصمة سلفه خوناتون، والاسم الثانى اسمه فى طيبة عند ما جعلها مقر ملكه وعاد إلى دين آمون، ويجب على علماء الآثار أن يفحصوا هذه النقطة ٠ هل صنع العرش فى مدة طويلة تناولت العهدين أم صنع قصدا ليدل على الحالتين اللتين تقلب عليهما الجالس على العرش ؟ وأمام العرش كرسى صغير لوضع قدمى الملك وعليه رسم أسرى من أهل آسيا وأواسط أفريقا ومكتوب عليه هذه العبارة « كل البلاد الأجنبية تحت قدميك » فتأمل أيها القارىء المصرى النجيب وقارنْ بين هذا الماضى السحيق والحاضر القريب !

السرير

كان الملك ينام على سرير صغير مصنوع من خشت الأرز وهو يشبه أسرة الميدان وهو لشخص واحد وقد حليت رأسه بتماثيل متكررة للإله « بس » إله الضحك وهو إله مخيف الهيأة سمين له ذيل فاغر فاه كالتنين وله أنثاه بجواره ولكن إذا حضرت الأرواح الشريرة لتؤذى الملك ورأته فإنها تضحك فينصرف شرها عملا بالمثل الفرنسوى de rire desarme أى أن الضحك ينزع السلاح - سلاح القادم على شر ، وكتب بجوارها « هذا سرير توت عنخ آمون ملك الوجه البحرى والوجه القبلى الطيب القلب الفرح القلب له الصحة والحياة إلى الأبد » ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصر لوخياس بالإسكندرية
الذى ولدت فيه كلوبطرة (ست الكل) وعاشت
وصف تاريخى ممتع دقيق [1]

قصر « لوخياس » أو قصر الأسرة المالكة لعهد البطالسة كان من أشهر قصور الدنيا بجمال موقعه الطبيعى وجلال هيأته وفخامة مبانيه وغلاء رياشه وأثاثه .

كان هذا القصر قائما فى آخر لسان من الأرض ممتد فى البحر إلى مسافة بعيدة ، وأهل الإسكندرية الذين يعرفون موقع « طابية القضاء » المخربة الآن ، والتى لعبت دوراً مهما فى الحرب العرابية (١٨٨٢) يمكنهم أن يدركوا تماما موقع هذا القصر الفخم ، فقد كان يشغل موقع تلك الطابية أو الحصن على ما حققه بعض المؤرخين وفى مقدمتهم فيجال ودرسلر ودينو ستتنر .

مكان جميل جدا طلق الهواء من جميع الجهات يملك البحر الأبيض فى بقعة من أبهى البقاع وألطفها ، لا ينقطع عنه تيار الهواء العليل ، ولا تهب فيه رياح قواصف ، بل يمر به نسيم لطيف مستمر .

وقد بنى القصر بناء فخما على صخور قائمة فى البحر وجعلت له نوافذ وأبواب فى كل جهة من جهاته الأربع ، وكان القصر على النمط اليونانى ، جلال فى العمارة ورقة فى أسلوب البناء، أساس متين وأعمدة بديعة الصنع ، وفسحات يتخللها الهواء وتظللها الأشجار الجميلة وتخترقها أشعة الشمس ، وتماثيل فخمة لآلهة مصر وأرباب اليونان لا سيما منرفا آلهة الحكمة والزهرة آلهة الحب ، وصور لعظماء اليونان أمثال الإسكندر والبطالسة الأول حتى بطليموس الزمار والد كلوبطرة. وقد بنى القصر بالمرمر الجميل منه ماهو أبيض وما هو معرق وملون مجلوب من سيراقصه وإيطاليا وقبرص وكريت ، وبعض مناجم اليونان ومصر .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٢ إبريل سنة ١٩٣٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد رصفت أرضه بالفسيفساء الثمينة ، على صور تمثل الصيد فى البحيرات والأحراش ، وكذلك كانت جدرانه مزينة بصور بعض الكواكب السيارة ومناظر سماوية مثل جبال أولب حيث تقيم آلهة اليونان فى عرف أساطيرهم المقدسة .

وكان فى القصر غرفة زينت بصور مصرية فيها رموز للآلهة والفراعنة ليذكر أهل القصر (ولو على سبيل المجاملة) أنهم فى أرض مصرية وفى وادى النيل الذى أسس مجده هؤلاء الأبطال العظام أصحاب مصر العليا والسفلى ، ولا غرابة إذا أراد البطالسة رؤية الغرفة وأحبوا الجلوس فيها ، فهم خلفاء هؤلاء الفراعنة وقد حلوا محلهم فى السيادة على مصر بحق السيف والنار وإن كانوا لم يعتنوا حتى ولا بتعلم اللغة المصرية التى كان يتكلم بها هؤلاء الملوك الذين زينت الغرفة بصورهم .

وكانت السقوف والنوافذ وحواجز الدرج والأبواب مصنوعة من خشب الأرز المجلوب من سوريا وجزر البحر الأبيض لا سيما قبرص التى كانت تابعة لمصر ، وتلك الأخشاب كلها مطلية ومدهونة بألوان ذهبية ووردية ، تبعث بالبهجة فى نفس الناظر إليها .

وكانت للقصر شرفات جميلة متعددة يصلح بعضها للصيف وبعضها للشتاء وبعضها للصباح وبعضها للمساء وبعضها يجلب نور الشمس وبعضها يجلب نسيم الغروب .

وكانت أركان القصر مزدانة بتماثيل الآلهة العظام ومحاطة بالحرس من كل جهة لا سيما جهة البحر ليخبروا أهل القصر خبر كل سفينة قادمة أو ذاهبة .

أما أثاث القصر فكان عبارة عن مجموعة يقصر اللسان عن حصر عددها ، فمن سجاجيد وبسط عجمية إلى دستور دمشقية وعراقية ، ومن سرر يونانية إلى طنافس وحشايا فارسية ، وقد فرشت بعض الغرف بالرياش التى تنطبق على نوع زينتها، فقد كانت هناك غرف يونانية وأخرى رومانية وقد جمعت فيها أفخر الأمتعة وأغلاها، وكان البطالسة أهل ذوق رقيق فكانوا يكلفون التجار بجلب الأمتعة النفيسة من سائر الأقطار ويدفعون ثمنها غاليا ، حتى يتمتعوا بأجمل الأثاث

وأفخره.

فلم يدخروا وسعا في إحضار كل ما سمعوا بحسنه من البلاد الأجنبية ، فمن فراء من الشمال إلى جلود وحوش من الجنوب إلى صناديق عظيمة مصنوعة من خشب الصنوبر الثمين ودواليب وموائد من خشب البلوط والليمون والزان ، وقد زينت الغرف بتماثيل من العاج والذهب تمثل الآلهة وهيرقل وإيزيس .

وكان في القصر قاعة للطعام يقصر العقل عن تقدير قيمة ما فيها ، وتكفى الإشارة الآن بالقول إن جميع ما فيها من الأوانى كان من الذهب الخالص وبعضه مرصع بالجواهر الكريمة ، فمن صحائف وأطباق إلى ملاعق ومدى وأوانى للحلوى والفاكهة وأقداح للشراب صفت كلها من العسجد الخالص الذى أنفقت على صياغته الأموال بغير حساب .

وكان في القصر حمامات جهزت بأكمل الأدوات وأجمل العدد من «حنفيات» فضية إلى أحواض مرمرية إلى جهاز للبخار مصنوع من النحاس والصينى على طريقة مبتكرة وغيره جهاز لتبريد الماء في طرفة عين حتى يصير في درجة الجليد، وأداة أخرى لصب الماء على الرأس والجسم صباً سريعاً من أعين صغيرة ، إلى نافورة ينحدر منها الماء بعد الاختلاط بأنواع العطور المختلفة كأنه منحدر عن شلال فيكسب البدن قوة ونشاطاً .

وكان الحمام مبنيا بحيث يدخله النور دون أن تدخله أشعة الشمس الوهاجة ، وكان هواؤه يتجدد والذى فيه لا يشعر بتيار أو مسهك . كما أن فيه نافورة جميلة يتجدد ماؤها ويمتزج ببعض الأملاح والعقاقير التى يشير بها الأطباء مثل ملح البحر والقطران والكبريت ، وكان فيه مغطس من الفضة خاص بالسيدات وآخر من المرمر الشفاف المزين بالفيروز والفسيفساء .

وكانت أبواب مقاصيره من خشب الصندل وغيره من الأخشاب العطرية التى يفوح عبقها كلما اشتدت الحرارة عليها .

وكان المنوطون بالحمام عبيداً وجوارى قد تمرنوا على التغميز (التدليك)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتكبيس والتليف والتكبيس ، بحيث صاروا أساتذة فى تلك الفنون وقد أخذوا بنصيب من علمى التشريح ووظائف الأعضاء فكانوا يتناولون المستحم ضعيفا هابطا أو مخمورا متألما من معدته وأمعائه ومفاصله فيردونه بعد بضع ساعات وقد استعاد قوته وبعض شبابه .

وكان ملحقا بالحمام مقاصير للراحة والنوم ، وتناول المعرقات والمنبهات قبيل الحمام وفى أثنائه وبعده حسب ما تقتضى الحال .

وكانت فى القصر مخازن للخمور المعتقة من كل الأقطار وقد خزنت فيها منذ أجيال يستنزفها الأضياف ويضيف إليها سادة القصر ، فلا تنفد كأنها نهر جار ، أو نبع لا يغيض .

أما مطابخ القصر فحدث عنها ولا حرج ، فقد كانت أشبه الأشياء بدائرة خاصة بموظفيها ورؤسائها ومرؤوسيها من متعهدين ومفتشين وطهاة وطاهيات وأخصائيين فى صنع الحلوى والفطائر ، وآخرين ماهرين فى حشو الديكة وشى اللحوم وتنسيق الموائد وخلط الأشربة ومزجها وإعداد الجداول بألوان الطعام ، وفلكيين ونباتيين وعلماء فى الحيوان يعينون ما يؤكل وما يترك على مر الليالى والأيام بحيث لا يختلف الطعام مع مزاج الآكلين . وكان ملحقا بالمطابخ حياض خاصة لتربية ثعابين البحر لشغف بطليموس الثالث عشر بها واعتقاده أنها تقويه فى حياته التناسلية ، وكان ملحقا بها بستان صغير لزرع كشك ألماظ وعش الغراب والكرفس والكريسون لما كان يظن فيه من هذه الخواص السالفة الذكر . أما الفواكه فكان يؤتى بها مباشرة من قبرص والشام فى سفن خاصة فلا تخلو مائدة الملك منها ولو فى غير الأوان .

وكان بالقصر مكان فسيح للألعاب الرياضية يتعهده فرسان من اليونان والعرب يدربون الأمراء والأميرات على السباحة وركوب الخيل وضروب الفروسية وضرب السيف والملاكمة والمصارعة ، ومن أغرب ما يروى أنهم كانوا يصنعون قفازات ضخمة للملاكمة ، وقد قلدها أبناء هذا الزمان ولكنهم كانوا يتعلمون ضرب السيف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد عريت وجوههم دليلا على الشجاعة والإقدام ، وكان هناك أساتذة يونانيون يعلمون الرياضة البدنية على الطريقة التى نسبها الآن أهل السويد لأنفسهم وهى المران بغير أداة بل الاعتماد على تحريك أعضاء البدن ليتم كل عضو دورته ويؤدى وظيفته على أحسن حال ٠

وكان بين المعلمين سيدات لتعليم الأميرات وسيدات القصر وتدريبهن ليستطعن الاطلاع على أبدانهن عارية وذلك الأمر لا يليق أن يترك للمعلمين من الرجال ٠

وكانت اللعبة الشائعة قبل التمرين القفز بالحبل حتى يتمكن اللاعب من جمع أعضاء بدنه وتوجيه همته إلى حركات الصعود والهبوط ٠ وبالجملة كانت الألعاب مستكملة تامة ٠

وكان بالقصر دار فسيحة للكتب والأوراق العلمية والأدبية للمطالعة والدرس والتعليم يتعهدها موظفون عالمون بصناعة حفظ الكتب أعظم علم ٠

وكان فى القصر قاعة للعرض وقاعة لمجلس الأحكام وقاعة لمجلس الشورى وقاعة لاجتماع الكهنة بأمر الملك ، عدا عن الغرف الأخرى التى ينتفع بها للنوم والراحة والتمتع بالغرام ٠

أهل القصر

أولهم هو الملك بطليموس الثالث عشر وكان رجلا قصيرا بادنا أعرج مدمنا على شرب الخمور وغارقا فى بحر الشهوات ، وقد ماتت زوجته الشرعية من زمن طويل واكتفى بالمحظيات من جميع الأجناس لا سيما الروميات والشركسيات والسوريات ، وكان رجلا نهما أكولا شديد الغيرة على محظياته ، ولكنه معدوم الغيرة على بناته وأولاده ٠

ويتلو الملك أولاده الأربعة وقد رزقهم من امرأة مجهولة ، وقد قيل مجهولة لأنها لم تكن زوجة شرعية ، والحقيقة أنها كانت محظية رومية من مقدونيا وكانت سمراء سوداء العينين جذابة النظرات شديدة الشبق وقد تمكنت فى زمن قصير من

الاستيلاء على إرادة الملك بعد موت زوجته الشرعية التى كانت عاقرا وكانت ذات عفة لا تطابق ميول هذا الملك السكير الفاجر . وكانت هذه المحظية واسمها «استابيكا» ذات ثروة طائلة تمكنت من جمعها من هدايا الملك وأنفقت بعضها فى شراء ذمم الحاشية لتتمكن من السيادة .

أما الأولاد الأربعة ومنهم كلوبطرا وأختها الصغرى « أرسينو » وولدان ذكران اسم كل منهما بطليموس الرابع عشر وبطليموس الخامس عشر وكانت البنتان كبيرتى البيت الملكى وكانتا نافذتى الكلمة مسموعتى القول إلا أنه كان بينهما غيرة وحسد يدهش الناظر فى الأخلاق لصغر سنهما .

أما الولدان فكانا أقوى من البنتين خلقا وأحدهما أشد تعلقا بأخيه من الأختين كأنهما كانا يشعران بما ينتظرهما من الشقاء والآلام على يد أختهما الكبرى .

وكان فى القصر كما قدمت عدد عظيم من المحظيات وكلهن من الجوارى اللواتى اشتراهن البطالسة وعشن فى القصر سنين وتناسلن جيلا بعد جيل فانقرض منهن من انقرض وبقى من بقى ، وكن من سائر الأجناس المعروفة ، فمنهن التتريات ذوات الوجوه العريضة والأنوف الفطساء والشعور الناعمة السوداء، والشركسيات المشهورات بالجمال فى الشباب والدمامة فى منتصف الأعمار ، ذوات الغدائر الطويلة والأنوف المستقيمة ، ومنهن الأرمنيات ذوات القدود المعتدلة والحواجب المقترنة والأعين الجذابة والجفون الساحرة والأصوات الرنانة المحركة للشجون ، والسوريات الخفيفات منهن والثقيلات ، والروميات من بلاد الملك (مقدونيا) ومن بلاد اليونان وجزر بحر إيجه وجمالهن أشهر من أن يذكر ، وكان بين الجوارى مصريات من صعيد مصر ، بنات طيبة وسيوت وأفروديتوبوليس ، وفتيات من منفيس وبسطة وسمانود ، وبينهن سودانيات وحبشيات وأفريقيات من برقة وحدود الأطلس .

(لها بقية) [١]

---

(١) انظر المقال التالى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصر لوخياس بالإسكندرية
الذى ولدت فيه كلوبطرة (ست الكل) وعاشت
وصف تاريخى ممتع دقيق (١)

وكان لكل عدد من الجوارى مقصورة خاصة للرقاد وأخرى للطعام والجلوس ما عدا أخص المحظيات ، ولكل فريق منهن رئيسة تشرف على أمورهن وتدير شؤونهن وتراقب أخلاقهن وسيرهن وتخرجهن للنزهة والرياضة ، وكن على أحسن حال من حيث الغذاء والزينة والراحة ، وكانت بعضهن على اتصال دائم بأهلهن فى بلادهن الأصلية ، فلم يكنّ رقيقا بالمعنى الصحيح ولكن بين بين .

ومما يذكر من العادات الرديئة أن بعض الجوارى اللواتى كان الملك يزهد فيهن ويأبى بيعهن ولا يستحل دماءهن ، يرسل بهن إلى مدينة الغرام خارج مدينة الإسكندرية حيث يبقين تحت رحمة الإلهة أفروديت ، فيتصرفن فى أجسادهن للعاشقين بأجر أو بغير أجر !!

وكان فى القصر فريق من الخصيان وقد وكل إليهم أمر حراسة النساء ولكنهم توصلوا بدهائهم وذكائهم للسيطرة على كل شىء ، وكان على رأسهم الخبيث بوتونيوس الذى كان أقرب أهل القصر إلى أذن الملك وقلبه فيتجسس ويشوه الأخبار ويوقع الفتن ويفرق بين الجميع ليسود .

وكان فى القصر فريق من الفلاسفة والحكماء أمثال ديمتريوس ولوسيوس وأفلاخيوس بينوس وإيبنابيت ستراتوس وكانت وظيفتهم تعليم الأمراء ومنادمة الملك فى أوقات صحوه النادرة، أما ندمان المعاقرة والمدام فكانوا فريقا من أهل الدعارة والخلاعة من أهل سوريا والعراق واليونان وكل منهم خبير بالنكات اللطيفة والقصص

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٩ إبريل سنة ١٩٣٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الظريفة يرويها للملك وبعضهم يقلد الطيور والحيوان وبعضهم يقلد النساء فى الكلام والرقص والغناء والمغازلة وبعضهم مخنثون يلبسون ثياب الجنس اللطيف ويرقدون رقادهن ، وبعضهم يغنى بصوت رخيم ويعزف على آلات الطرب فيصنعون للملك «صهبة» خمرية تدوم من وقت الغروب إلى الشروق .

وطالما كان الملك وحاشيته يواصلون الشرب ثلاثة أيام وقد يخرجون فى سفائن صغيرة للنزهة البحرية على مقربة من القصر ومعهم آلات الطرب وأنواع المآكل والمشارب.

وكان فى القصر فريق من المنجمين والمنجمات والناظرين فى الحظ بأحكام النجوم والكواكب السيارة والضاربات بالأصداف (الودع) والسحرة والساحرات لتجهيز مشروبات سحرية تنتج الحب والبغض والغيرة والفرح والغضب والألم والارتياح ، ومنهم من يكتب أوراقا برموز وتعاويذ ضد الأدواء والأمراض ، ولكن الملك لم يكن مع اعتقاده بالسحر والتنجيم ليهمل الطب والعلاج ، فقد كان فى خدمته ثلاثة من أكابر الأطباء والجراحين وعلى رأسهم أوليميوس الشهير الذى كان يعالج الملك ونساءه ويولدهن عند الوضع ، ويشرف على غذاء الملك ويجهز ما يطلبه الملك من مختلف السموم من الأعشاب والأفاعى فيعدها الملك لمن يشاء قتلهم بلطف ولين.

ومن هذه الأفاعى وسمومها اتخذت كلوبطره وسيلة انتحارها بعد ذلك بستة وعشرين عاما

وكان فى القصر فريق من الرجال يتعهدون الأمراء بالتربية البيتية عدا الخصيان وعدا القهرمانات من النساء وهم أقرب أنواع الخدم من (اللالات) ينتقيهم بوثونيوس نفسه من أهل الأخلاق الفاضلة لاصطحاب الأمراء فى أوقات راحة الآخرين .

وكان فى القصر فرق شتى من أرباب الفنون الجميلة لتمثيل الروايات المضحكة والمحزنة و مهرجون يضحكون الثكلى بأصواتهم ومسخ وجوههم وفرقة موسيقية يضرب أفرادها على الدفوف والعيدان وينفخون فى النايات والمزامير وفرقة من

النساء الضاربات على الصنوج والنافخات فى الأبواق ٠

وكان فى القصر عدد كبير من الغلمان ذوى الحسن العظيم وهم أقرب إلى البنات منهم إلى الفتيان فى كل شىء حتى أن بعضهم كان يلبس سراويل ويتمنطق ويصفف شعره ويصبغ وجهه ويزجج حواجبه بمختلف الأصباغ والألوان كما يصنع النساء ٠ وكانت وظائف هؤلاء الغلمان متعددة وبعضها مبهم وبعضها معلوم ، فكان بعضهم يسير بين مقاصير المحظيات برسائل غرامية وبعضهم يقف بين يدى الملك كأنهم اللؤلؤ المنظوم وبعضهم يشرف على خدمة الأميرتين والأميرين وبعضهم يغمز (يدلك) أقدام بوثونيوس وقت النوم وبعضهم مشاع للجميع يقسم وقته بين الندمان والفلاسفة والمنجمين ٠

وكان بطليموس الثالث عشر يحب الفسحة فى العجلات تجرها كرام الخيل وكان يحب الركوب قبل أن يصاب بالعرج وقبل أن يفرط فى سمنه ، وقد علم أولاده ركوب الخيل والفروسية ليبث فى قلوبهم حب الشجاعة ٠

وكان فى حديقة القصر عدد كبير من الوحوش الضارية كالأسود والفيلة والنمور والغزلان والنعام ٠

وكان فى تلك الحديقة قطيع من القردة العجيبة الشكل وأغربها قرد من نوع شمبانزى كان يجالس الملك على المائدة ويأكل معه من وعاء واحد ، ويشرب الخمر أيضا ، فإذا زاد منها سكر وقلد الملك فى حالة سكره فيحملونه إلى محل نومه بعد أن يضحك الملك منه ضحكا شديدا ويعاكسه ، ولكن القرد كان مسنا وكان أليفا فلا يخشى من معاكسته ، وكان اسمه نفريت وكان الملك قد عنى به عناية عظيمة وصنع له ثيابا خاصة وزينها بالفرو وزركشها بخيوط الذهب ورصعها بالأحجار الكريمة وصنع له قلادة من اللؤلؤ والفضة وصنع له قبعة تشبه التيجان وألبسه إياها فى حفلة حافلة وشرب نخبه باسم « ملك القرود » ، والعجيب فى أمر هذا القرد أنه كان يفهم النكتة ويضحك لها مقهقها وقد يدرك بعينه وأذنيه مالا يدركه بعض رجال من الطبقة الوسطى ٠

فإنه فى ليلة حفلة القبعة أظهر الافتخار بها ودخله الغرور بحالته وصار يتيه على الجميع حتى على الملك نفسه ٠

وكان نفريت أو ملك القرود نظيفا للغاية فلا يمد يده إلى الطعام إلا بعد غسلها وتنظيفها وتضميخها بنوع من العطر الخفيف ثم لا يمد يده إلى جسمه فى أثناء الأكل ، وإذا انتهى منه يلح فى غسلها حتى تغسل وتعطر وكان يقوم بخدمته رجل وامرأة من السودان فيمشطان شعره ويغسلانه فى كل يوم مرتين وينيمانه فى فراش وثير ٠

وكان القرد نفريت أو ملك القرود شديد الحياء فى الأمور التى تستوجب ذلك وشديد الصبر على المكاره حتى أن ديمتريوس الفيلسوف قال مرة « إن هذا القرد أفضل من مولاه وأعقل ! فإن الملك يغنى لنفريت ويطربه بالنفخ فى المزمار ، ولو كان نفريت يتقن العزف على آلة موسيقية لما اعتنى بأن يدخل السرور على قلب الملك» ٠

وكان فى القصر ببغاءات عدة بعضها ناطق لتقليد الأصوات وذكر الأسماء وبعضها صامت للزينة وبعضها يحفظ الشعر والحكم والأمثال ويروى التاريخ ٠ وكان الملك ينفق عليها مبالغ طائلة من المال ٠

كان القصر كما قدمنا عالما مصغراً جمع العجائب والغرائب وكانت الإسكندرية لاتقل فى أحوالها المدهشة عن القصر ، لأن الناس على دين ملوكهم٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مفتاح كتاب الحياة

مبحث علمي تاريخي يحاوله قاض مصرى[1]

قضيت بضعة أيام فى قراءة هذا الكتاب العجيب .

ويقصد المؤلف من مفتاح كتاب الحياة ، أنه وقف على أسرار الكتاب الهيروغليفى المعروف بكتاب الأموات ، المنقوشة فصول منه فى مقابر الملوك بطيبة ، وقد أراد المؤلف أن يجعل كتابه شاملا لطريقة حل العبارات الرمزية وبعض الأساطير المصرية ، ولمحة من وجوه الحكمة القديمة وأسانيدها وترجمة بعض نصوصها .

ويتكلم المؤلف عن كتابه بلهجة الواثق من الظفر بالثمرة المرغوبة فهو يقول « إن الجهد الذى بذلته لم يثمر فقط بل إننى حللت الطلسم الذى ظل عشرين قرنا صامتاً »، ولما كان هذا المبحث طريفا ، وجديداً فى بابه ، عنينا به ، لنرى مدى تحقق الأستاذ صالح هيكل من نظريته .

وقد لفت نظرى قبل كل شىء الصلاة البديعة البليغة الصادرة من قلب المؤلف ونفسه وشعوره (ونقصد بالصلاة هنا صرخة صادقة لا علاقة لها بالعاطفة الدينية) إلى المعبودة نيخيبيت التى كانت رمزا للإبصار والبصيرة ، عساى لا أكون مخالفا لرأى المؤلف فى وصفها بالربوبية ، فقد كانت حقا كذلك . بل كانت من الآلهات ذوات الدرجة العليا ، فكما كان هاتور فى دندرا ونيت فى سايس ، كذلك كانت الربة المقدسة نيخيبت فى إل - كاب ، وقد عثر ماسبرو على خرطوشها فى خرائب معبد الآلهة فى فيله سنة ١٨٨٢ (ص ٧٥٣ من تاريخ أمم الشرق لماسبرو) وقد كان من بر الملك تيكتانيو الأول أنه عمر ذلك المعبد كما عمر معبد هورس فى أدفو ، ولكن

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة المساء فى ٢٢ مارس سنة ١٩٣١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المؤلف يصفها بأنها «نبى العبادة» ... إذن تقدم الأستاذ صالح هيكل إلى الربة نيخبيت بصلاة كما تقدم رينان إلى منرفا فى الأكروبول بصلاة . ولكن رينان وصفها بأنها صلاة ، وصالح هيكل يقول إنها نداء ولو وصفها بأنها « تحية » لكان أقرب إلى مقصوده . ولكننى لا أرى ما يضيره لو أنه سماها صلاة :

أى نيخبيت ! ياسيدة الإبصار والخيال والإلهام والوحى ، ومستقر أحلام الإنسانية ، حيث تتردد ألوان الكمال بين توثب وتراخ ووضوح وإبهام .

يا حديث الفوز فى ديار الهزيمة ونشوة الروح فى ديار الغربة حيث تمشى وادعة الخطا مفتحة العينين تنعم بالحقيقة وتسعد بالمعرفة أو تجرى عمياء تصدمها الخيبة ويصول عليها الحرمان ويذلها الندم .

يا دليل الفتنة ونبى العبادة وسبيل الحكمة .

يا من شاء لك القدر الرحيم أن يسدد خطاك عهدا ما فى قديم الزمن فأشرقت راضية مرضية .زهرا ناعما بين أجمل ربوع فى ديار الندى البراق والتربة الفيحاء، وسماء الفيروز وروضة الماء .

أتذكرين أول ما حللت بوادى القداسة عند أول عهدك بالحياة ، والعقل داج وطوفان الجهل شامل ، وقد أضناك المضى فى تجاويف الفكر الباكر فجلست حيرى تتقلبين فى ألوان الطيف على تاج زهرة - قطرة ندى على عرش الجمال - واليأس يعقد أجفانك بما يشبه الوسن ، ثم إذا يد رحيمة هى يد جدنا الأول تمتد فوق عرشك تحملك والزهرة معا فتنعم فيكما بروعة اللون ورى الملمس ولعب الضوء وتنهل منكما عبير الطهر وغذاء النفس وجنة العلم .

ثم كيف أصبحت بعد ذلك نهباً يتلقفك الأهل ويقيمون لك حرما بعد حرم ، وكيف حللت من الوادى المفتون بك محل التقديس وتناقلت المدائن أخبارك وتحدثت بغزواتك الموفقة فى سبيل الكمال ، ثم كيف كنت داعى السلام فجمعت الشتات ونفخت فى مصر روح العزة وخلقت الملك والعبادة وجعلت لواءك الوحدة واهتديت إلى الخالق جل جلاله نعمة منه ورضوانا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حدثيني ورددي على مسمعي قصصك المقدس وكيف ابتكرت العلم الخالد ألوانا وسميت الأسماء ووضعت قاموس الاصطلاح وطبعت العالم بطابع واديك الجميل وجعلته له حرما وقدسا ٠

وحدثيني كيف ابتنيت للحكمة بيوتا من الصخر كرواسي الجبال وفي بطون الأرض نقبت خزائن للعلم ومن صفوه ، وعلى جدرانها نقشت حديثك الممتع ضنا بالرسالة أن تموت ويلحقها الفناء ٠

وكيف صنعت فيما صنعت علم الرموز وفي ظله الوارف خلدت جهودك يعلوها الزبد وفي أعماقها الدر ٠

وكيف أقمت في هذا الجلال تنعمين دهوراً وألوف السنين والعالم حولك يتحرق من الحسرة ٠

حدثيني يا من جعلت قدميك على الذهب وأرسلت جناحيك في الفضاء إيذانا منك يا رسول الكمال بأن ليس لكمال نهاية ٠

ثم حدثيني كيف طغى الويل على واديك وسطا عليه المخربون ينبشون ذهبه من بين ماخربت أيديهم ويسلب الأفاقون حكمته الوضاءة وهم الذين ليست لهم الأيدي الرحيمة ولا القلوب الواعية فذهبوا يخمشون منها خد الزهر ويلوثون نفح الطهر ويدعون منها لأنفسهم ما أبقى الجهل من أشلائها كما لو كان صنع أيمانهم العاجزة ويتقدمون به للعالم قربانا على مذبح الغرور والخطيئة ٠

حديثني بكل هذا وفي ظل صخرة العرفان المقدسة ، صخرة أبي الهول ، تعالى معي أناجي ماضيك ، وأبث حزني فيك ٠

ونبكي معا ما جنيناه يوم التجربة الكبرى ، يوم بهرت بصر الجند خدعة التماسيح والهررة وزيوف الآلهة منشورة على رماح العدو ، فترددوا وتوانوا وحلت اللحظة الحاسمة في تاريخ الإنسانية فجرد الخراب على واديك سيفا أذل الجند والملوك والشعب والكهنة والدين والعلم والحقيقة ، ثم نبكي عشرين قرنا ظلها العالم يجهلك بعد أن انطفأ مصباحك ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونبكى معا يا أماه ، عسى تنبت من ندى أحلامك ودموع لهفتى وحنينى زهرة ذكية تعطر أنفاس واديك من جديد وتحتل مكانها الخالد من تاج فرعون » .

وأنت ترى أنه لم يكن على السيد صالح هيكل من ضير ، إذا سماها صلاة لأنه ذكر الخالق جل جلاله نعمة منه ورضوانا ، وجعل نيخيبت واسطة لمعرفته ، ووسيلة للاتصال به .

ومن صفات الله جل جلاله أنه (بصير) وخبير ، فلا تزيد نيخيبيت عن كونها (صفة البصيرة الإلهية) فلا تثريب فى تمجيدها .

وقد روى المؤرخون وفى مقدمتهم بدج الذى اعتمد عليه المؤلف كثيرا من أسماء كتاب أرباب المصريين ، وقاموسه المفيد ، أنه بجوار مدينة بيربوانشيت فى الوجه البحرى كانت توجد جزيرة خيبيت ومعناها المخبأ ، وأصل الكلمتين واحد فكلمة خيبيت بمعنى المستكن وكلمة خبأ أو أخفى ترجع كلاهما إلى (خب) الإخفاء أو الستر ومنها كلمة خباء وخب الرجل الماكر الذى يخفى نيته ويستر قصده ، وفى تلك الجزيرة استكملت الربة إيزيس حملها حتى وضعت ولدها هورس الذى لقحها به أوزيريس ، وهؤلاء الثلاثة يكونون الثالوث المصرى المقدس .

ولاتزال ترى فى الآثار صورة رمزية لتلك الأسطورة المقدسة فترى الإلهة إيزيس جالسة فى الجزيرة وخلفها زهر البشنين أو البردى ناميا نموا هائلا ليخبئها ويخفيها عن أعين ست إله الفناء أو الهلاك ، وتعد تلك الصورة بنيفر آمنت من أجمل الصور وأوضحها لأنها جمعت بين إيزيس وفى حجرها ولدها هورس الحديث الولادة كأنها عذراء بيت لحم ، وقد قامت حولها الإلهة نيخيبيت (البصيرة) وان نيفر (رمز النور) وتوت وبوانشيت .

وقد وفينا الكلام عن نيخيبيت التى كان رمزها أنثى النسر ، أما بوانشيت فكانت تعبد فى صورة ثعبان ، وكانت ترسم وفى يدها ثعبان ملتف حول عصا ، وفى اليد الأخرى مصباح وهى متوجة بتاج الشمال . وكانت توصف بأنها سيدة السماء

ورئيسة الألهة · بيد أنها لم تكن منفردة لحمل الثعبان والمصباح ، بل كانت الإلهة نيخيبيت أيضا تحملهما ولكن تاج كل منهما يخالف تاج الأخرى ، فنخيبيت تلبس تاج الجنوب وبواتشيت تلبس تاج الشمال وكانت رمزا للحكمة والحقيقة المطلقة.

ويظهر للناظر إلى الرسوم التى لاتزال على جدران المعابد ، أن نيخيبيت وبواتشيت كانتا أختين توأمين واحدة للشمال وأخرى للجنوب وواحدة للبصيرة والثانية للنور والحكمة ·

وكان يطلق على معبد نيخيبيت أنه بيت النار وعلى معبد يوانشيت أنه البيت العظيم ، وينفى الأستاذ المؤلف ربوبية نيخيبيت مع أن المؤرخين كلهم يصفونها بالألوهية ، ويظن هو وحده أنها اصطلاح للإبصار والبصيرة والخيال والإلهام والوحى ، ذلك الجلال المتوطن فى النفوس الذى يحتضن السماءين بجماله وبأشعة نوره ، ص ٧ من الكتاب ·

غير أن انحراف الأستاذ المؤلف عن إجماع المؤرخين ثابت بما حدث فى تاريخ مصر نفسه نقلا عن بدج وغيره ·

فقد انتصر رأى الجنوب على رأى الشمال فى اجتماع الكهنة وسدنة الهياكل فى المجمع المقدس أو المؤتمر الدينى الأعلى الذى وصف بأنه « ليلة اجتماع أعوان كل إله وإلاهة » وقد استقر رأى هؤلاء الكهنة المجتمعين على تحتيم تتويج كل فرعون على مصر المتحدة شمالها وجنوبها ، أولا بمعبد نيخيبيت ربة الإبصار والبصيرة والإلهام المستقرة فى قدس «العقل » ·

وبعد ذلك يتوج الفرعون فى معبد يواتشيت فى إحدى مدن الشمال ، ولعلها بير يواتشيت بالإقليم السابع من الوجه البحرى ، وقد ثبت إخاء الآلهتين على شرط تقديم نيخيبيت وتعظيمها وفى كل معبد مصرى ، اختصت هذه بالجانب الغربى ، كما اختصت يواتشيت بالجانب الشرقى ·

لا يدعى المؤلف الفاضل أنه يقرأ الهيروغليفية أويحل رموزها، ولكن كل اعتماده

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على كتب المؤرخين الإفرنج وعلى صبره وبحثه وطول أناته . فكان يبحث فى حكمة الوجود فلم يجد فى نفسه إلا إيمانا يطمئن له القلب ولكنه لا يشبع العقل فهو إن تغلغل فى أعماق النفس لا يسبرغور الروح ، وفى سنة ١٩٢٣ اطلع للمرة الأولى على كتاب آلهة المصريين تأليف واليس بدج ، فلم يجد فيه كفايته . ثم أعقب ذلك غمرة هدمت النفس والجسد واضطربت لها روح المؤلف وطالت كأنها ليلة نسيها الصباح إلى أن كان صيف سنة ١٩٢٨ حين انجلت الغمرة بعض الشيء ، فسافر إلى أقصى مديريات الجنوب وحط رحالة بقنا فأخذ فى صحبة صديقة توفيق بولس يطرق المعابد والأجداث .

ووقع له كتاب الأموات ، وكان هذا محتما لأن الكتاب منقوش فى كل القبور ، ولمح فيه لمحات من التفكير العميق ولكنها متقطعة كبصيص النار من حجاب التراب.

وأخيرا اهتدى إلى أن أسماء الآلهة المحشودة فى هذا الكتاب ليست سوى اصطلاحات وضعت للدلالة على أشياء معينة ، ثم درس الأساطير فى كتب بدج ونافيل السويسرى وبدأ بأسطورة مولد هورس بن إيزيس وأوزيريس التى وصفنا بعضها عند الكلام على جزيرة خيبيت التى وضعت فيها إيزيس ولدها هورس بعيدا عن أعين أرواح الهلاك .

إن أهم شيء فى كتاب صالح هيكل هو أنه رأى أن كثيرا من الأساطير المصرية القديمة غير مفهومة وتبدو لمفسرها تافهة سخيفة ولا يمكن أن يجتمع الحكمة مع السخف ولا العلم مع التفاهة ، وهداه العقل والبحث وسكناه فى مدينة الشمس (هليوبوليس) حيث كان مقر الكاهن الأكبر أتوم مكتشف نظرية الجوهر الفرد - إلى ماذا ؟

هداه ذلك كله إلى أن لأسماء الآلهة مدلولات رمزية أو لغوية تعبر تعبيرا دقيقا وصحيحا عن حكمة وعلم خالصين لا تشوبهما أية شائبة تضعف من قدرها .

فإذا أمكن الاهتداء إلى مفتاح لحل هذه الرموز حلا علميا اتضحت لنا الفلسفة المصرية القديمة والعلم المصرى القديم والحكمة المصرية القديمة وما وصل إليه كل

من هذه الناحيات للتفكير الإنساني في بلاد تشهد آثارها بما بلغت من رقى وحضارة ٠

فقد اهتدى المؤلف إلى أن الكهنة كانوا يجتمعون ويتناقشون فى المذاهب والنظريات التى يختلفون عليها ويقرون بعد البحث النظرية التى ترجح عندهم صحتها ثم يدونون هذا على أوراق البردى بلغة رمزية وينقشه الملوك المعنيون بالعلم منهم على أحجار الأهرام المختلفة بلغة رمزية كذلك على نحو ما فعل يوناس بهرم صقارة ٠

وكانوا يدونونه بلغة رمزية وعلى أحجار الأهرام مخافة الغزاة من ناحية ، وسموا بالعلم عن أن يجرف به الجهال من ناحية أخرى ، فقرأ رع اسم الإله المعروف على أنها (الشمس) فاستقامت مع المعانى وتكشفت رموز كتاب الموتى عن حقائق مدهشة ، وتبين له ، كما سيتبين للقارىء ، أن قدماء المصريين قد استغلوا قوى الطبيعة عن طريق العلم بخير مما استغلها من خلفهم من سائر الأمم ٠ فإذا قرأت كتاب الموتى وبعض الأساطير على طريقة صالح هيكل المفضال الذى صبر وجاهد وعانى أشد المعاناة ، حتى وصل إلى حل تلك الرموز العجيبة ، فسوف تبلغ الدهشة منك أعظم مبلغ حين تعلم أن قدماء المصريين وصلوا فى علم العدسات إلى أبعد مما وصل إليه العلم فى عصرنا الحاضر ، وأن المنظار المقرب (تلسكوب) والمجهر (ميكروسكوب) قد بلغا من القوة فى تلك العصور الفانية حتى كان العلماء فيها يرون أكثر من ذرات المادة وذرات الكهرباء، ثم تقرأ عن صلة الشمس بالأرض ويغيرها من الأفلاك واستدارتها استدارة البيضة (راجع شكل نمرة ١٨ الذى يمثل بتاح إله مدينة منفيس وهو رمز القدر يصنع الأرض على شكل بيضة الأوزة على دولاب صانع فخار) ٠

ويعترف الدكتور محمد حسين هيكل وهو ابن شقيق المؤلف ورفيق صباه فى دور التعليم لتقاربهما فى العمر ، بأنه إذ كان يتلو بعض فصول الكتاب كان يقف حائرا حتى ليكاد يرتاب فى صحة الالفاظ التى قرأها ، لكنه كان يعود فيسلم بنظرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المؤلف كلما ذكر ما لا يزال باقيا من آثار هذه المدنية مما لا يضارعه شىء فى القوة على البقاء ومما يدل على علم واسع وإدراك للحقائق بالغ غاية العمق .

وسنعالج فى عجالة أخرى بقية الأساطير التى تصدى المؤلف لشرحها مع عظيم تقديرنا لعمله واحترامنا لرأيه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مفتاح كتاب الحياة
تأليف القاضي المصري صالح سالم هيكل
هل تمكن من حل لغز تاريخي عظيم ؟

كتاب الموتى : The Book of th Dead الذي سماه المؤلف كتاب الحياة . ويعتبر من المعروف خطأ بين العلماء بكتاب الأموات ، هو كنز مصر العظيم وتراثها الخالد وقبلة الملوك والأمراء والعلماء في كل أرض مصر القديمة حيث كانوا يعملون له مدى آلاف السنين فيزيدون ولا ينقصون .

يقول المؤلف إن خزانة الكنز هي الأساطير وهراء القول مما يزخر به كتاب الأموات وغير كتاب الأموات زبد يخفي الدر ، كتاب الحياة والأساطير المصرية هي تلك الثرثارة الخداعة التي لا تلبث أن تدرك فيها طرف معنى حتى تضل في تيه من السفسطة التي لا تثمر شيئاً .

فما هو المفتاح الذي اهتدى إليه المؤلف بعد عمل دام بضع سنين حتى تمكن من اكتشاف الدرر المختفية في ثنايا كتاب الحياة ؟

لقد وصف الدكتور محمد حسين هيكل الذي قدم للكتاب ، وقدمه لجمهور القراء ذلك المفتاح بمايأتي :

« حيث وجدت في كتاب الحياة أو في غيره من الكتب الرمزية كلمة رع ولو كانت مكتوبة على أنها اسم للإله ، فاجعلها الشمس ، تستقم لك العبارة بأكثر مما تستقيم إذا أنت عالجت فهمها على أن رع هو الإله الأكبر . فإذا أتيح لك أن تترجم عن المعاني التي تنطوي عليها أسماء سائر الآلهة وأن تستبدل بأسماء الإله في النصوص هذه المعاني ، تكشفت لك النصوص عن علم جم وحكمة رائعة وتبين لك أن قدماء المصريين استغلوا قوى الطبيعة عن طريق العلم بخير مما استغلها من خلفهم

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة المساء في ٢٩ مارس سنة ١٩٣١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من سائر الأمم ، وتبينت من خلال هذه النصوص أنهم بلغوا فى بعض الأحايين مدى لم تبلغه الإنسانية الحاضرة ، ومن يدرى هل تبلغه يوما من الأيام !!»

فلنهرول إذاً مسرعين إلى كتاب الحياة ومفتاحه لنرى مقدار تحقيق هذه النظرية .

وقد رأى المؤلف فرضا عليه أن يورد نصهم بذاته وترجمته العلمية حتى ينقطع كل شك فى حقيقة ما كانوا يعلمون . وهذا النص الهيروغليفى المترجم إلى اللغة الإنجليزية نقله المؤلف صالح سالم هيكل بك عن ترجمة العلامة بدج ، نقلا عن بردى الأستاذ (نو) المصرى المحفوظ بدار الآثار البريطانية تحت نمرة ٤٧٧ - ١ وجه١٢ .

الفصل الثالث والستون من كتاب الحياة :

وهذا الفصل مزين بصورة رمزية تمثل شخصاً فتيا جالسا على مقعد ويرى شكله من الجهة اليمنى (بروفيل) ويده اليمنى على مسند المقعد اليسرى ، وبيده اليسرى زهرة اللوطس بحجم كبير يدنيها من أنفه كأنه يشمها وأمامه مائدة مستديرة ثابتة على قدم مخروطى الشكل أسفله أكثر سعة من أعلاه ، وعلى هذه المائدة أربعة أشياء ، الأول وعاء بشكل قدح متصلة حافته بشكل بيضاوى فى وضع عمودى وعليه أداة تشبه القرن وتنتهى بشعبتين فى اتجاه الجالس وتحت الشعبتين كرة معلقة فى الفضاء لا تلمس المائدة وهى بين جانب البيضاوى من اليمين وتحت شعبتى القرن من أعلى وبجانب فرع زهرة اللوتس من اليسار ، والناظر إلى هذا الشكل يعتقد حتما أنه صورة رمزية ، ولكن المؤلف لم ينشر شيئا من الكتابة التى حوله ، والتى قد تفسر بعض معانيه . وهو يزعم أن هذا الشكل يمثل فيض الكهرباء الصادر من الشمس لإدارة الأرض .

وبتحقيق هذا الشكل على طريقة هيكل يتبين أن نظرية الجاذبية المعروفة نظرية عتيقة لا تصلح للبقاء فى عالم النور والعرفان ، وأنها مهدومة بوجود دورة الفيض بين الشمس وسياراتها وما تحمله من شحنات المادة إيجابا وسلبا وأنه ينزح بها من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيارات للأجواء المحيطة بها ما يعادل مايرد إليها من الشمس فى اطراد لا يسمح لنظرية الجاذبية بالبقاء • ويقول المؤلف إن العلم الحديث لا يعرف حتى الآن كيفية دوران السيارات فى الجو بفعل الشمس •

يقول ناظر القصر - ناظر نيت ناظر الختم (نو) - له النصر • والحديث منسوب لكهرباء الشمس •

وهذا نص الترجمة الحرفية عن الأصل الهيروغليفى للأستاذ (نو) نقلا عن الإنجليزية لبدج إلى العربية لصالح هيكل :

« أنا المجداف المهيأ للتجديف الذى نقل به رع القارب المحتوى على الأسلاف المقدسين ورفع به بقايا أبخرة أوزيريس من بحيرة النار ولم يحترق • إنى أهبط كروح القدس ومثل خنيمو الساكن بين السباع - تقدم وامح المقاومات من الذى يمر بجانب هذا الطريق واجعلنى أرجع بواسطته »•

المعنى العلمى الذى اهتدى إليه المؤلف صالح سالم هيكل :

أنا موجب الكهرباء المهيأ للعمل الذى تنقل به الشمس شحنة الفيض وترفع به بقايا أبخرة المادة من أتون الشمس من غير أن يتأثر بذلك • إنى أندفع خفياً قويا كالقضاء المحتوم بين أخطر أنواع المادة - فأصيب السيار من جانبه وأمحو مقاومته فيدور وأدور معه فأرجعه بواسطته •

وهنا يبسط المؤلف نظرية النور والظلام والألوان ، بحسب علم الطبيعة الحديث (ص ١٠٠ و ١٠١) وهى التى تدور حول كون الجو مظلما بطبيعته ولا يستنير بفيض الشمس ذاتيا ، ولكنه فى حاجة دائما إلى وسائط ثلاث يتحقق بها وجود النور وتتم عن طريقها الرؤية ، وهى كهرباء شمسية سارية فى الجو من الشمس أو مختزنة فى أشكال المادة المتجمعة كالعناصر الذرية أو الخلايا الجسمية وهى الوسيط الأول ، ومادة مركبة غير فطيرة (والكهرباء مادة فطيرة لذلك لا يمكن رؤيتها وإن أمكن رؤية آثارها فى غيرها من أنواع المادة المركبة)- والمادة المركبة هى كل مادة تقوم على نظام فلكى صحيح - وهى الوسيط الثانى ، وعين حية كعيون الحيوان أو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنسان أو صناعية كآلات التصوير تتحول بها انعكاسات الكهرباء على المواد المركبة إلى صور يمكن إدراكها أو تثبيتها فى المخ أو صحف الإثبات كألواح الفوتوغرافيا .

وبغير اجتماع هذه الوسائط الثلاث وقيام الكهرباء بالتفاعل مع الأجسام المركبة وانعكاس طيوفها التى يستبعدها التفاعل (لأنها غير لازمة فيه) عن تلك الأجسام وقيام العين أو العدسة بنقل تلك الانعكاسات إلى المخ أو لوح الإثبات لايقوم النور والضوء والرؤية فى الوجود .

ومن ذلك يتبين بجلاء أن الكون والجو تبع له مظلم لا نور فيه وأن النور أثر لقيام عيوننا وعقولنا بوظيفتها التى خلقت لها ، أو بعبارة أخرى أن النور لا وجود له إلا فى العقول ، كما يتبين أن الألوان التى نراها والتى من اجتماعها تتكون الصور والمرئيات ليست هى ما تتشبعه المادة من ألوان الطيوف الشمسية ، بل هى ما ترفضه من تلك الطيوف ولا تتشبعه ، وقد أدرك المصريون هذه الحقائق منذ آلاف السنين وأوردوا لها نصا .

والذى يدهشنا فى نظرية الأستاذ هيكل بك المؤلف المصرى هو أنه ارتكز فى تفسير نظرية المصريين القدماء المزعومة على حقائق العلم الحديث الذى يتهمه بعدم الوصول إلى تلك الحقائق .

فنظرية النور والظلام مستفادة من علم الطبيعة الحديث ونظرية الألوان كذلك، والذى أورده الأستاذ عنهما أقل بكثير مما يلخص فى كتب المدارس الثانوية (قسم علمى) دع عنك أن نظرية الألوان قد ألف فيها شوبنهور كتاباً ضخما ، لم يلمّ الأستاذ بأحد أطرافه وإن كانت لديه فكرة مبهمة من الحقيقة العلمية ، فكيف ندعى أن المصريين القدماء وقفوا على أسرار تلك المسائل وكشفوا عنها الغطاء ، وأن العلماء فى الوقت الحاضر لم يوفقوا إلى الوقوف على حقيقتها وفى الوقت نفسه نحتاج إلى آراء صغار العلماء المعاصرين (أى أساتذة الطبيعة فى المدارس الثانوية) لشرح نظرية المصريين القدماء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الذى لفت نظرى فى مبحث الأستاذ هيكل ، وإليك الفكرة الثابتة فى ذهن هيكل بك القاضى وهو يريد حتما أن تنطق بها النصوص القديمة .

يقول ناظر بيت الخم (نو) له النصر ، ويريد المؤلف أن يكون المتكلم ليس هو (نو) ولكن المتكلم هو الكهرباء الشمسية (نقلا عن صفحة ٧ من بردى لندن).

الترجمة الحرفية :

مرحبا بفحل الامنتيت – إنى أحضرت معك – أنا مجداف رع الذى طوف به فوق كبار السن المقدسين – خلنى لا أحترق ولا أتلف بالنار – أنا بب (أو بت) ابن أوزيريس البكر الذى يقابل كل إله فى هيكل عينه فى أنو – أنا الوارث القدس – الواحد – المعبود – الواحد القوى – الواحد المطمئن أنا الذى جعلت اسمى يزدهر وقد أصدرته عنى وإنك سوف تحيى فىّ يوما بيوم .

المعنى العلمى الذى يريده هيكل بك :

أن فيض الشمس الذى يربط الفلك يحوى تيار كهرباء يطوف على أجساد المادة المركبة فإذا لم يتحول إلى شرر أو يتلف بالتفاعل والانفجارات ، ازدهرت به المادة وسرت به صورها فى العيون إلى المخ الذى تنقلب فيه رؤية متناسقة قوية مطمئنة ، فالرؤية ناشئة عنه لأنها تزدهر به ثمرة لتحوله إلى سالب تتم به دورة الفيض وحياته الخالدة .

نقول من أين لحضرة وصاحب العزة المؤلف هذا التفسير ؟!، إنه يقول فحل الأمنتيت معناه رباط الفلك علميا . وبب أو بت معناه الازدهار وأوزيريس المادة وأنو المخ .

ويقول المؤلف إن المعنى سهل الإدراك كما يرى من مطابقة الترجمة الحرفية للمعنى العلمى مع استبدال أسماء الآلهة بمعانيها العلمية وتحويل عبارة الحديث من المتكلم إلى الغائب .

فنقول أولا إن المفتاح الذى شرحه الدكتور هيكل فى ص ١٣ من المقدمة هو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استبدال (رع) بالشمس على سبيل المثل ، وأشار إلى وجوب استبدال اسم كل إله بمعنى علمي ، ولما كانت أسماء الآلهة التي وردت في كتاب الحياة بعدد ذرات الرمل كما يقول المؤلف نفسه فكيف يمكن إيجاد معان علمية لكل تلك الآلهة وماهو الضابط والرابط لذلك التحديد ، فإننا إذا قلنا إن (رع) معناه الشمس ، وإن إيزيس (ربما كان الحياة أو البعث الحي والانتعاش) صفحة ٣٤ من الكتاب تأليف هيكل بك . لاحظ قوله « ربما كان » كذا أو كذا ، فإذن هو لجأ إلى الحزر والتخمين ولم يركن إلى أساس علمي أو تاريخي ، وكذلك كان هورس رمزاً للتجدد أو ثمرة البعث لأنه ابن إيزيس وأوزيريس وأن أوزيريس معناه المادة ، أي أن المادة (ذكر رجل) وإيزيس (الحياة أو البعث) عندما اتصلا أوجدا الجديد . وقد وجد المؤلف صدق تطبيق نظريته في أسطورة هلاك البشر .

ولكن الدكتور هيكل بك نفسه يرى أن معالجة أسماء الآلهة جميعا على هذه الطريقة تحتاج الى عناء أشد العناء لأن هذه الأسماء منها ماهو مركب من مقاطع عدة ولكل مقطع منها معنى خاص ، كما أن منها مايحتمل معاني عدة فكيف يمكن تحديد المعنى الوارد بالنص تحديدا علميا مضبوط الدقة العلمية الوافية بدون تقليب جميع هذه المعاني مع مقتضى السياق تقليبا لا ينتهي ؟

صحيح أن بدج وهو عمدة المؤلف قال في قاموسه إن لبعض أسماء الآلهة إذا جردت من صفتها الربانية معاني خاصة ، وليكن هذا قاصر على بضعة آلهة ولا سيما المشهور فيها جدا مثل رع الذي نعلم أنه يدل على الشمس منذ تلقينا الدروس الأولى في المدارس الابتدائية وآمون وهكذا ، ولكن كيف توصل هيكل بك إلى أن فحل الامنتيت معناه رباط الفلك وأن بب أو بت معناه الازدهار ، حقا إن نظرية المؤلف ينطبق عليها ما كتبه الدكتور حسين هيكل في ص ١٦ « أعترف أنني كنت إذ أتلو بعض فصول الكتاب أقف حائراً حتى لأكاد أرتاب في صحة الألفاظ التي أقرأ» .

ونحن كذلك ، لأن المؤلف يقول بعلم المصريين القدماء بالإذاعة اللاسلكية عن طريق المسلات المغطاة قممها الهرمية بالنحاس ، مع أن بعض المؤرخين قد علل وضع النحاس على رؤوس المسلات بالرغبة فى حمايتها من التآكل أو فى تحليتها ، وإن كان المقصود بها الإذاعة اللاسلكية فكان يجب وضعها فى أماكن صالحة لذلك من حيث الارتفاع والتوسط ، ولكن المسلات جعلت لتدوين تراجم الملوك وتخليد أعمالهم ولم تكن كلها محلاة بالنحاس بل القليل منها ، القليل جدا ، فإن مسلة الأقصر التى لاتزال باقية ليس على رأسها نحاس ولم يثبت أن أحداً نزعه ، كذلك مسلة المطرية وجميع مسلات الكرنك ليس برأسها نحاس ، والمسلات الموجودة فى أوربا (باريس ولندن وروما) ليس بأعلاها نحاس . وقد علمت الغاية من تلك المسلات وهى الكتابة المحفورة على جوانبها الأربع وقد فضلت على الأعمدة لموافقة شكلها للحفر الهيروغليفى ، ثم كيف كانت الإذاعة اللاسلكية حاصلة بدون أدواتها العلمية التى لم توجد فى أى قبر من القبور ولم يرد لها وصف فى الآثار يدل عليها ؟

على أننا إذا تركنا تلك الاعتراضات جانبا وأخذنا فى تلاوة الترجمة الحرفية للفصل الثالث والستين من كتاب الأموات . فماذا نجد ؟

نجد عبارة مستقيمة منسقة متصلة بما قبلها تمام الاتصال .

فإن الإله يتكلم عن نفسه ويصفها بأنها المجداف المهيأ للتجديف .

والأستاذ هيكل لم يكتف باستبدال أسماء الآلهة بأسماء علمية من عنده ، بل إنه تعدى ذلك إلى أسماء الأشياء (النكرات) كالمجداف ورأى حتما بطريقة تعسفية أن يكون المجداف معناه موجب الكهرباء وصار التجديف معناه العمل وصار القارب المحتوى على الأسلاف المقدسين ، هو شحنة (الفيض) . وهكذا وضع ترجمة لكل كلمة وحرف ولم يكتف باستبدال أسماء الآلهة كما وعد فى المقدمة .

وإليك البيان ص ٩٨ : اهبط - اندفع كروح القدس وكخسينمو الساكن بين السباع قويا خفيا كالقضاء المحتوم بين أخطر أنواع المادة .

أى أن السباع أصبح معناها أخطر أنواع المادة .

وزاد من عنده عبارة • فأصيب السيّار من جانبه ، وهى ليس لها بديل أو مقابل في الأصل الهيروغليفى أو الترجمة الحرفية •

تقدم وامح المقاومات من الذى يمر بجانب هذا الطريق واجعلنى أرجع بواسطته وأمحو مقاومتة فيدور وأدور معه فأرجع بواسطته •

وظاهر أن كلمة (سيّار) هى التى حشرها الأستاذ هيكل من عنده إذ ليس لها مقابل فى الأصل وذلك ليكسب فى الترجمة العلمية ما يرشح استعارة إصابة السيار من جانبه ليدور ويدور معه ويرجع بواسطته ، وهذا تفسير كما يقول الفرنسيون مشدود الشعر Tiré Les Cheveux • أى أنه حادث على الرغم من الألفاظ والمعانى ومدلولاتها •

وفى النبذة الثانية حيث يستقيم المعنى الهيروغليفى الأصلى حيث يصف بب أو بت نفسه بأنه ابن أوزيريس البكر (يعنى هورس رمز التجدد والبعث) وأنه يقابل كل إله فى هيكل عينه واختاره فى نو - أنا الوارث القدس - الواحد القوى المعبود المطمئن وجعلت اسمى يزدهر وسوف تحيى فىّ يوما بيوم •

ينقل المؤلف هذا الكلام الذى يصف أنه الإله نفسه بصفات القدرة والاطمئنان والوراثة المقدسة والازدهار وامتزاج الذات بالصفات (جعلت اسمى يزدهر وقد أصدرته عنى) ، ينقله المؤلف بنظرية رؤية النور والألوان فيقول :

« وازدهرت به المادة وسرت به صورها فى العيون إلى المخ الذى تنقلب فيه رؤية متناسقة قوية مطمئنة ، فالرؤية ناشئة عنه لأنها تزدهر به ثمرة لتحوله إلى سالب تتم به دورة الفيض وحياته » •

لقد سرنا شوطاً بعيداً جدا من نظرية المفتاح إلى التطبيق ، فإن فى رأس المؤلف العالم الفاضل فكرة ثابتة يريد شرحها وهى التى يكتبها تحت عنوان الترجمة العلمية ، فهو يضعها بجانب الترجمة الحرفية ، دون ركون إلى المفتاح الذى ابتدعه ووعدنا باستعماله فى أول الكتاب •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رفع النقاب عن وجه الحقيقة
في معابد المصريين القدماء(١)

لقد رحبنا بكتاب الأستاذ صالح بك هيكل القاضى المصرى بالمحاكم الأهلية وأعرناه جانب الالتفات (٢) ، لأنه من أعمال الإحياء التى تؤثر فى نهضة الأمم وتدل على اتجاه ثقافتها . فهو من هذه الجهة عظيم فى نظرنا ويستحق صاحبه التشجيع والإكرام ، نعم إنه كتاب فيه بعض الغموض ونظرياته يكتنفها الإبهام فى بعض الأحيان ، ولكنك تلمح فى بعض ناحيياته آثار الجمال والعلم والنور وربما كان الكتاب منطويا على أمل لم يتحقق ، أو فكرة لم تنضج ، أو لعله يحوم حول سر لم يوفق المؤلف لحله . ولكنه على كل حال يعد عملا جليلا جديرا بالشكر والتقدير والثناء .

ومهما يكن رأينا فى هذا الكتاب ، فنحن نتمنى لو أتقن مؤلفه المحترم اللغة الهيروغليفية. وهو يعرف الكثير ولم يبق عليه إلا القليل من النحو والصرف وتركيب الجمل . ثم يمكنه الاعتماد على كتب الإفرنج ماشاء مادام يشاركهم فى فهم اللغة المصرية القديمة . وهو بعد ذلك ملزم بنقل الفكرة الأساسية فى كتابه إلى إحدى اللغات الأوربية ليطلع عليها علماء الإجيبتولوجيا ويبدوا رأيهم فى نظرياته، فإن الأستاذ هيكل فى ص ٦٦١ أثبت صورة بتاح إله مدينة منفيس « وعلميا بمعنى القدر يصنع الأرض على شكل بيضة الأوزة على دولاب صانع فخار » بينما المصريون نسبوا هذه العملية نفسها إلى غيره من الأرباب مثل « خنومو » إله الشلال ، فقد صوروه وهو يشكل الأرض ، فإنه لا يخفى أن الآثار المصرية أثبتت لنا من عهد

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة البلاغ فى ٣ مايو سنة ١٩٣١.

(٢) انظر مقالتى المؤلف عن هذا الكتاب ، ص ١٩٧ - ٢١٢ من هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأسر الأولى أن كل مديرية كان لها آلهتها الخاصة بها والتى لا تزال مجهولة لدى العلماء فى معظم الأحوال، فكان خنومو معبودا فى مديرية الشلال عند أسوان. وكان عنحورى معبود تنيس ومحلها الآن بحيرة المنزلة . وكان رع إله هليوبوليس ، وأوزيريس فى منفيس .

وإن حالة هؤلاء الأرباب حيرت عقول العلماء ، فهل أحضرها المصريون معهم من وطنهم الأول أم أن بعضها تكوّن فى وادى النيل أم أنها تطورت حسب أحوال الزمان والمكان وتغيرت عن طبيعتها الأولى ؟

بيد أن الأبحاث الحديثة التى قام بها بروكش ونافيل ودومنجن وروجيه وماسبيرو أثبتت أن الآلهة عند المصريين القدماء كانوا مقسمين إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول آلهة الأموات والثانى آلهة العناصر الطبيعية والقسم الثالث آلهة الشمس.

القسم الأول : سوكاريس وأوزيريس وإيزيس وأنوبيس ونفتيس وقد اختصوا بحماية الموتى .

أما آلهه العناصر فهى تمثل الأرض جابو والسماء نويت والماء نو والنيل هابى وبضعة آلهة أخرى يجهل العلماء طبيعتها وانتسابها وهى سوفكو وست تيفون - وهاروبريس وفتاح . ماعدا الثانى (ست تيفون) الذى هو شقيق أوزيريس فى أسطورة الثالوث (أوزيريس وإيزيس وهورس) وهو الذى قتل أوزيريس ويمثل الشر أو الشيطان .

أما آلهة الشمس فهم رع وأتونو وشو وعنحورى وأمون ، وربما كان بعد رع الشأن الأعظم لأوزيريس وإيزيس الأنثى وهورس الولد وست - تيفون الشيطان أو قوة الشر ، فقد كانت إيزيس أعظم آلهة المصريين ، وقد قيل إن النيل تكون من دموعها لدى حزنها على زوجها أوزيريس الذى تصداه وحسده أخوه (ست تيفون) ثم قتله فانبرت إيزيس لنجدة زوجها وإعادته إلى الحياة فرفعت شكوى إلى مجلس الآلهة الأعلى الذى حكم بإعادته إلى الحياة على شرط أن يبقى فى العالم السفلى

مسيطرا على الأموات ، وهذا استدرجنا إلى الاستطراد فى معتقدات المصريين القدماء فى الموت . فقد كان الإنسان فى عقيدة القدماء مكونا من اسم ثم من شخص ثان اسمه (كا) وهذا الشخص الثانى كأنه نسخة مكررة من الشخص ولكنها أقل كثافة من الإنسان كأنه ظل أو خيال أو شبح ملون ولكنه هوائى وهو شبيه الشخص جزءا بجزء ، فهو طفل للطفل وامرأة للمرأة ورجل للرجل ، ثم تعدلت هذه العقيدة وصار الشخص المكرر عبارة عن طير (بى أو باى) أو شعلة من النور واللهب أطلقوا عليها اسم (خو) ، ومن هنا نجد العوام فى مصر إذا سقط طفل يقولون له (إسم الله على أختك وللبنت اسم الله على أخوك قبلك) والمقصود كلمة (خو) أى الشخص المزدوج ، وإذا سألت العوام قالوا لك إن لكل طفل (أخو) من الجن ، يسقط هو الآخر عند سقوط الطفل ولكنهم يظنون أن للولد أختا وللبنت أخا ، وهذا تغيير بسيط ولكنه راجع إلى كلمة (خو) ، أما صب الماء فى موضع وقوع الطفل فهو لإطفاء النار التى تشع من (خو) وتهدئة للهب المندلع ، فإذا مات الشخص الإنسانى سكن رفيقه أو أخوه فى داخل القبر ولم يغادره ، أما (بى أو باى) الطائر فيطير نحو العالم الآخر أو الأرض الأخرى (؟) كأنه نسر أو عقاب له ذراعا رجل ورأس إنسان ويمكنه أن يخرج من القبر أو يعود إليه ، أما (خو) فكان لعلمه بالسحر والطلاسم التى يمكنه بها أن يتغلب على القوى الخارقة للطبيعة ، كان يهجر هذا العالم إلى الأبد، ويطير إلى أن يتصل بموكب آلهة النور والضياء .

وقد تغيرت معتقدات المصريين القدماء فى الحياة المقبلة حسب تقدير عقائدهم فى خلود الروح ، فكانوا يعتقدون أولا أن النفس تحيا فى القبر تحت الأرض فظنوا أن « الخو» يحتاج فى حياته المقبرية إلى ما يحتاج إليه الكائن الحى على سطح البسيطة من طعام وشراب وحبوب وفاكهة وحلوى وأدوات للزينة والتبرج وعطور وحلى وحلل وجواهر وتيجان وأدوات منزلية من أوعية وآنية وما إليها . ولما كانت الأخطار تتهدد هذا المكان المزدوج وتخشى عليه من الموت الثانى الذى يعقبه العدم الأبدى والفناء النهائى ، اخترعوا الصلوات والتعاويذ والرقى والتمائم ليتمكن بها من النصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى المعارك السفلية تحت الأرض وفى القبور ، فكانت تلك الصلوات والتمائم تجعل له جيشا من الحراس يحمونه من آلهة الشر التى ترغب فى أذاه والتغلب عليه .

ولم يكن لأعمال الميت فى الدنيا من خير وشر وعدل وظلم وحسنات وسيئات أقل تأثير فى مصيره فى العالم الآخر مادام مسلحاً بالصلوات والدعوات وما دامت الشعائر قد أديت بالدقة على قبره ، وقال بعض المؤرخين إن النفس كانت تنتقل إلى عالم آخر حيث تلقى الجزاء الحسن على الخير ، والجزاء الشر على السيئات التى اقترفها الميت فى العالم الأرضى .

وقبل أن تعرف الروح مستقبلها كانت تتقدم إلى محكمة يرأسها أوزيريس سيد المغارب وهو جالس على عرش وحوله اثنان وأربعون عضوا من محلّفى الجحيم فيقول الروح مخاطبا قلبه ، وفيه إشارة إلى شهادة جوارح المرء عليه يوم الحساب : أيها القلب يا قلبى الذى ورثته عن أمى يا قلبى الذى كنت لى منذ عشت على الأرض لا تشهد علىّ ، ولا تصارعنى أمام الهيئة المقدسة فى المكان الإلهى ، أمام محكمة الرب الأعظم ، ولا تتهمنى ، ولاتوجه إلىّ ذنوبى فى حضرة الإله الكبير .

أما أسطورة أوزيريس وإيزيس وست تيفون التى أدت بسيادة أوزيريس على مملكة المغارب ، فخلاصتها أن أوزيريس كان الإها يمثل الخير وأن أخاه ست تيفون يمثل الشر ، فغار منه وحقد عليه وعمل على قتله وتربص له حتى قضى عليه فقامت إيزيس زوجة أوزيريس ورفعت الدعوى ضد ست تيفون أمام محكمة العظماء ولمت أشلاء زوجها بفعل السحر، فحكمت المحكمة بإعادة أوزيريس إلى الحياة على شرط أن يبقى فى جوف الأرض تحت الطبقة السادسة من طبقات الأرض تحت مجرى نهر النيل وهناك يترأس محكمة الجحيم ذات الاثنين والأربعين عضوا . ولما كان أوزيريس يمثل الخير المحض فيفحص أوزيريس حياة الروح وتاريخه وحينئذ تنطق سريرة الميت أو قلبه بما له أو عليه وهذه الشهادة تؤدى إلى الحكم عليه أو إلى براءته، ثم توزن أعماله بميزان دقيق منزه عن الخطأ يزن الحق والعدل كما يزن الباطل والظلم فإذا رجحت كفة الخير حكمت المحكمة برئاسة أوزيريس لمصلحة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الروح والعكس بالعكس ، فيقع الروح الشرير في الجحيم حيث لا يجد غذاء ولا شرابا سوى المواد العفنة القذرة وحيث تقتفى آثاره الأفاعى والحيات ، وبعد التعذيب بألوف الأنواع من العذاب تذوق الروح مرارة الهلاك الأبدى ، أما الروح الفاضل أو الخيّر أو العادل بعد أن يحاكم لم يكن لينجو من العذاب والخطر ، فكانت الروح أولا تمنح العلم والقوة لتأخذ الصورة التى تعجبها من طير أو حيوان ولكن قوى الشر كانت تقف فى طريقها وتحاول القضاء عليها بالتهديد والوعيد والتخويف والتهويل ، وكانت قوى الشر تمثل فى الآثار بالتمساح والسلحفاة وأنواع مختلفة من الثعابين . ولكن لا ينقذ الروح من كل هذه المصائب ولا يجعلها تفوز بنصيبها من الخير والجزاء الحق إلا اتصالها التام بالإله أوزيريس فيعطيها من المعونة ما أخذ هو نفسه من الآلهة الذين أعادوا إليه الحياة ومنها إيزيس ونفتيس .

وقد احتوى الجزء أو الفصل الخامس والثمانون من كتاب الأموات على قانون الإخلاص الذى ينجى الميت ويحسن خاتمته .

وكان كتاب الموت يصحب كل متوفى فى قبره كاملا أو ناقصا بحسب حاله ، وهو فى ظاهره مجموعة صلوات تنفع الميت فى العالم الآخر ، ويمكنه من التغلب على الآلهة الذين يضطهدونه وفيه أنواع من الصلوات والمرافعات يلجأ إليها الروح أمام المحكمة العليا التى يرأسها أوزيريس :

« التحيات لك يا أيها الإله الحق العدل (مكررة) لقد جئت إليك يامولاى ودنوت من عرشك لأحظى بالنظر إلى أنواع كمالك وجمالك لأننى أعرفك وأعرف اسمك وأعرف أسماء الاثنين والأربعين قاضيا الجالسين معك فى هذه الساحة العظمى ، ساحة الحق والعدل الذين يعيشون من فضلات الصيادين ويشربون دماءهم وأنا فى هذا اليوم يوم توزن الأقوال والأفعال ، لقد حملت إليكم الحق وقضيت قبل مجيىء على الباطل ، لم أقترف غشا على الناس ولا تزويرا ولم أخدع أحدا من البشر ، ولم أعذب الأرملة ولم أكذب فى المحكمة ولم أشهد الزور ولم أعرف النيّات السيئة لم أقترف أمرا محرما . ولم آت المحظورات ، ولم أكلف رئيس عمل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى يوم من الأيام قدراً من العمل لم يكن فى طاقته إتمامه ولم أكن مهملا ولا كسولا، ولم أفلس ، ولم أتراجع فى الحق ، ولم أقترف ما يغضب الآلهة ، ولم أفسد أخلاق رقيق على مولاه . ولم أجوع أحدا ، ولم أسبب بكاء أحد ، ولم أقتل ولم أحرض على القتل ، ولم أغش أحدا ولم أسرق جراية الهيكل ، ولم أختلس الفطائر المقدمة للآلهة ولم أختلس المآكل المقبرية ، ولم أفك اللفائف المحيطة بأبدان الموتى ، ولم أطمع فى أكفانهم المطرزة ، ولم أكسب كسبا حراما ولم أغير المكاييل والموازين لأغش العملاء فى الكيل والوزن ولم أغير قيراطا فى المقاييس ولم أسرق من الأرض، ولم أغير حدود الزرع ، ولم أغتصب ملك جارى ولم أغش فى ميل الميزان لآخذ لنفسى نصيب السرة ، ولم أغتصب اللبن من أفواه الأطفال الرضع ولم أطرد الأنعام المقدسة لأبعدها عن مراعيها ، ولم أصطد بالحبائل الطيور المقدسة ولم أصطد الأسماك المقدسة من أحواضها فى المعابد ، ولم أمنع الماء المقدس ، ولم أطفىء النار المقدسة ، ولم أعطل موكب أحد الآلهة » .

وفى القسم الثانى من هذا الفصل من كتاب الموتى تلقى نفس هذا الاعتراف السلبى مصحوبا بأسماء كل من القضاة الاثنين والأربعين ، والقسم الثالث من الفصل يعيد هذه الأفكار نفسها بشيء من المبالغة والتفخيم للقضاه الاثنين والأربعين والقدح فى شخص تيفون الذى ينسب إليه أنه يتغذى من أحشاء الكائنات.

أما صراع سيت ضد أوزيريس فقد انتهى بفوز سيت على أوزيريس أى بسيادة الشر على الخير ، وقد اكتشف ماربيت فى آثار تنيس مايثبت سنة ٤٠٠ من حكم الملك سيت على مصر ، وهذا الأثر من آثار رمسيس الثانى وذكره ماسبرو فى ص ٤٦٧ ج ١ من المجلة النقدية سنة ١٨٨٠ .

فقد كان أوزيريس فى أول الأمر حاكما واغتصب سيت الملك منه بعد أن قتله ولكن بعد موت أوزيريس ولدت أرملته طفلا هو هورس الذى سينتقم له وقد نقشت معارك هورس وسيت على هيكل أدفو ونشرها نافيل بعنوان أسطورة هورس ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جنيف سنة ١٨٧٠ ، وفى هذه الأسطورة يصير اسم هورس مارماخونى أو هارماخيس وله بلاط ووزراء وجيش وابنه البكر هارنوديتى ولى عهده ووارث عرشه وتاجه ووزيره الأكبر توت الإله ومخترع حروف الهجاء يتقن علم الجغرافيا والبلاغه ويدون تاريخ البلاط ، وفى سنه ٣٦٣ من عهده أعلن الحرب على سيت وحاربه فى البر والبحر حتى تغلب عليه وقهره وانتقم لوالده أوزيريس.

ولا يزال الثالوث الأوزيريسى مصدراً لحيرة العلماء لفرط ما بينه وبين الثالوث المسيحى من شدة الشبه .

فإن أوزيريس هو الأب وإيزيس الابن وهورس هو الطفل أو روح النجدة وهذا الثالوث باق فى الآثار على جملة أشكال وصور ٠

وقد نظم شيلر الشاعر الألمانى الشهير قصيدة طويلة يصف بها اكتشاف الحقيقة فى معبد صالحجر على يد طالب مصرى نابغ أتقن العلم فى مدرسة هليوبوليس ثم أراد الوقوف على أسرار الحقيقة فى قدس الأقداس فوقع مغشيا عليه جزاء إثمة برغبته فى الوصول إلى الحقيقة قبل الأوان ٠

وقد رأيت أن توت هو وزير هورس وهو برسم شكل طير على رأسه تاج وله بدن إنسان وهو قابض بيده على الإلهة إيزيس فى معجزة (تحبيت)٠

فهل توت هو العلم والحكمة ؟ أليس هو هرمس عند قدماء اليونان وأدريس عند قدماء العرب ؟ هل هو منشأ الحكمة (معت) الناشىء عن التخيل والإلهام والتحقيق، هل هو الذى كشف الحقيقة ومحصها وعرف الحكمة ، ولهذا جعله هورس وزيره ومؤرخ عهده وحكيم بلاطه ؟

لقد كان توت يعبد بمدينة خيمنو وقد وصف بأنه سيد خمنو وخالق نفسه الذى لم يلده أحد الحاسب فى السماء محصى النجوم الذى يعد الأرض وما فيها ٠

وهكذا تجد معجزة من كبريات المعجزات الدينية تنتهى إلى العلم والتاريخ وتدور حول أربعة من أشهر أرباب مصر أوزيريس وإيزيس وهورس وسيت !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلوبطرة وعهدها النارى
يونانية تتمصر، وتدعى عشق القياصرة
لتحتفظ باستقلال مصر (١)

لقد ألقت المؤلفات الحديثة فى تاريخ كلوبطرة أشعة جديدة على خلقها ، ومقاصدها ومراميها .

وبعد أن كانت هذه الملكة مثال الخلاعة ، ومضرب الأمثال فى حيل النساء وانتهاب الملذات ، صار العالم المتأدب ينظر إليها نظرة الاحترام والتقدير .

لقد كانت حقا جميلة ، وذات دلال وخلاعة ، ولكنها لم تكن شهواتها لتعمى أعينها عن سعادة وطنها وسؤدده . وقد تشبه فى التاريخ بضع نساء لهن ذكر يشبه ذكرها أو أنها تشبههن ، منهن سميراميس فى بابل ونينوى والزباء فى تدمر ، ونيتوكريس فى مصر وهتشبسوت فى طيبة ، وفى الأجيال الحديثة إليزابث الإنجليزية ومارى أنطوانيت النمسوية وأوجينى الإسبانية وشجرة الدر الشركسية ، وهؤلاء ثمان من النسوة القادرات أثبتن بعقولهن وقلوبهن وأعوانهن أنهن لسن أقل من الرجال بحال فى تدبير الملك والاستبداد بالسيطرة ، والإيقاع بالأعداء وحب الانتقام والأخذ بالثأر!!

ليس الدور الذى لعبته كلوبطره مع إخوتها بالغامض على المؤرخين ، فقد كانوا أزواجها بالتتالى وكانوا شركاءها فى الحكم ، ولم تجد فى واحد منهم ما يشفى غلتها ، ولم تكن نظرية الدم المحفوظ التى شرحها الأستاذ توماس مان فى قصته الأخيرة قد اختمرت فى نفسها(٢) ، فلم تستطب هذا السفاح المشروع ولم تجد لذة فى

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة البلاغ فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٣١ ، ثم أعيد نشره بالجريدة ذاتها فى ٢٩ يوتيه سنة ١٩٥٢ بمناسبة وفاة المؤلف فى ١٥ يونيه من تلك السنة .

(٢) انظر مقالتى المؤلف « الاختلاط المحرم بين الأقارب ، كتاب الدم المحفوظ تأليف توماس مان » ، و« العلاقة المحرمة بين الأقارب فى الأدب والقانون » ، المنشورتين بكتاب المؤلف « فى الأدب والنقد » ، ص ٥٢٠ – ص ٥٣٦ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ٢٠٠٠ م .

معاشرة الصبيان ، فكانت تقتلهم تقتيلا إما بدس السم أو بتدبير المؤامرات ، ومازالت تلك العذراء المجنونة تتلمس الرجل الذى ينيلها من العشق أمنيتها ثم هو يساعدها على الاحتفاظ بالعرش . مازالت تتلمسه وتنتظره حتى طالعتها الأقدار بيوليوس قيصر ، وقد قضى ليلته الأولى وهى فى أحضانه بعد أن روت له تاريخ حياتها وشرحت له السياسة المصرية بعد موت أبيها بطليموس الزمار ، وقد استطاع فى تلك الليلة الأولى أن يدرك معانى جمالها ، ونشأت فى معقوليته فرصة الجمع بين عشقها والاستيلاء على مصر فى وقت واحد ، وقد وصف برناردشو هذا المنظر وصفا فكها فى روايته التمثيلية ، ولكن المؤرخين المنقبين يؤكدون أنه كان حقيقة لاشك فيها .

وقبل أن يطلع فجر تلك الليلة الأولى حكم قيصر لصالحها ، وحرك أهواءها ، وكان مما شكته إليه مخالفة أخيها الأخير وزوجها الأخير وصية والدهما ، وأنه أقصاها عن العرش ، فاستدعاه قيصر فلما استأذن عليه وجده جالسا بجوار أخته، فأمره قيصر بعقد الصلح وتقديم فرائض الطاعة لأخته ، فبكى الصبى ، بعد أن أيقن أن حقوقه قد ضاعت وضحى به على مذبح الغرام الرومانى .

وكان قيصر فى العقد الخامس ، ولم يجد فى كل من عرفهن من النساء من تطفىء نار غرامه مثل تلك الصبية القصيرة البادنة التى كانت أشبه بدجاج الفيوم اكتنازا ودسما ، فصمم على أن يتمتع بها ... فكان أول من ابتدع فكرة السياحة فى النيل من الأجانب قبل أن يظهر كوك فى الوجود بخمسة عشر قرنا ، ولكن كانت رحلة النيل فى الربيع وقد ولدت كلوبطرة ليوليوس قيصر ولدها الأول قيصرون واسمه بطليموس السادس عشر ، وقد أثبت المؤرخون أن حملها به كان فى ٥ أكتوبر وهو أول يوم لقاء بينهما !

وقد رأيت بعينى فى صعيد مصر هياكل بنتها كلوبطره وقد نقشت عليها صورتها وصورة ولدها وبعض هذه الآثار فى الكرنك وبعضها فى دندرة .

قلنا إن بطليموس الخامس عشر لقى أقسى المعاملة على يد قيصر فتأكد أن

الخصم هو الحكم وأن آماله قد ضاعت وأن الذى كان يجاهد فى سبيله هو ومستشاره قد ذهب أدراج الرياح ، وكلوبطره التى كانت منذ لحظة مقصية ومرتعبة وخائفة ومهيضة الجناح ، صارت قوية عزيزة الجانب ، وعادت إلى عرشها بعد أن كان أخوها قد تغلب عليها ، وصارت ملكة مصر وكسبت احترام قيصر ، كما كسبت قلبه ، وقيصر هو أعظم رجل فى الدنيا فى ذلك العهد .

وكان بطليموس الصغير قد اهتاج الرأى العام خارج القصر ، وأحدث فتنة فهجم العامة على القصر فخرج قيصر وتمكن بحزمه من تهدئة الفتنة وأمر بقراءة وصية الوالد وأظهر رغبته فى عقد صلح شريف بين كلوبطرة وأخيها ولكن الصلح لم يتم ، ورسم قيصر خطة لتهدئة الخواطر فى مصر فأعطى جزيرة قبرص لأصغر الشيقيقين لأن أهل مصر كانوا يحبون تلك الجزيرة وقد وضعوا أيديهم عليها ، وقصر الديون التى اقترضتها كلوبطرة على عشرة ملايين دينار وتساهل فى البقية ليخفف حمل الدين عن كاهل مصر ، ولم يفرض على مصر ضريبة ولاجزية ولا غرامة .

وكان الجيش المصرى بقيادة أخيلاس وهو ضابط مصرى شاب يلتهب وطنية وإخلاصا . وكان يعسكر خارج المدينة ، وكان بوثينوس الخصى شديد الوطنية وكان خبيثا ولئيم الطبع كسائر الخصيان ، لكنه كان يحب مصر ويفتديها بنفسه وقد حاول وضع العراقيل فى سبيل قيصر ، فلما طلب ذلك الفاتح الغاشم الفاسق مالا كان فى مقدور الخصى أن يمده بما يشاء من الأموال ولكنه أخذ طقوم السفرة الذهبية وأمر بتسييحها وجعلها سبيكة ثم أمر بضربها نقودا وقدمها لقيصر ، ثم وضع على السفرة الملكية أطباقا من الخشب والخزف ، وأعطى عسكر الرومان قمحا رديئا ، ولما اعترضوا على ذلك قال : ليس لكم حق فى أخذه فاحمدوا الله على حصولكم على هذا الكشكار ! وكان يغلظ القول لقيصر ، ويقول له لا يليق بمقامك أن تصرف وقتك فى مسائل مصر الحقيرة ، ووراءك فى روما مسائل مهمة تقتضى العمل المهم والتفكير العميق ، وكان هذا الخصى المخلص على اتصال دائم بأخيلاس قائد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجيوش المصرية ، وعلم قيصر أن المصريين يعدون أسطولهم لمحاصرته ، فأرسل من أحرقه خفية وكان الأسطول المصرى مؤلفا من خمسين بارجة واثنتين وعشرين طوافة وثمان وثلاثين فرقاطة .

وهذه الحريقة هى التى سببت إحراق مكتبة الإسكندرية الشهيرة ، الذى عزا إحراقها عبد اللطيف البغدادى فى كتابه أخبار مصر إلى عمرو بن العاص وثبت كذبه . إذ كانت تلك المكتبة قد أحرقت قبل الإسلام بسبعمائة سنة تقريبا (راجع تاريخ جيبون).

واستولى قيصر على المنارة والجزء الشرقي من جزيرة المنارة وحفظ لنفسه خط الرجعه أو التقهقر ، ولايزال محل معسكره فى الإسكندرية معروفا باسم كامبوسيزرى، وهو المحطة الثانية من محطات الرمل ، وقد حصن نفسه من ناحية البر وأمن الطوارىء الحربية ولكنه كان يقضى معظم لياليه يقظا خوفا من الهجوم المفاجىء والقتل ، وقد تمكن فى تلك الفترة من إفساد أخلاق كلوبطرة التى كانت لاتزال بكرا فدخل بها ، وبعد أن كان حبهما مبنيا على المصلحة صار حبا قائما على العواطف الصادقة لأنه لم يكن يعشم العثور بفتاة ذات جمال غض وذكاء نادر مثلها ، وهى كذلك وجدت فيه الرجولة الكاملة الناضجة ، وكان قيصر يعيش إذ ذاك عيشة الرجل العظيم الذى يقضى أجازة الفراغ بعد جهود مضنية وقد بلغه من روما أنه انتخب حاكما مطلقا لروما عن سنة ٤٧ ق . م فلم يكترث لذلك بقدر اكتراثه للتمتع بمحبوبته الجديدة .

وحدث فى تلك الأثناء أن أرسينو أخت كلوبطرة الصغيرة قد فرت من القصر الملكى، وكان اسمه لوخياس [١] ، كما تقول قصر فونتنيلو ، أو قصر يلديز ومعها مربيها « اللالا» كما يسميه الأتراك وكان اسمه جانميديس ، فرا معا والتجأ إلى الجيش المصرى المرابط خارج المدينة ، وكان مع الأميرة مال متوفر أخذ الخصى

(١) انظر عن هذا القصر مقالتى المؤلف ، ص ١٩٣ - ٢٠٤ من هذا الكتاب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يبعثره ويوزعه بين الضباط والجند لينادوا بخلع كلوبطره التى استسلمت للغاصب ، وبتولية أختها أرسينو مكانها ، ولكن أخيلاس لم يوافق على هذه الخطة ، ولم يقبل الرشوة وكان كل قصده إنقاذ مولاه بطليموس الخامس عشر الذى كان يعيش فى قصر لوخياس فى وسط الدسائس والمفاسد كأنه أسير حرب لا أكثر ولا أقل .

ولما علم الخصى جانيميديس الخبيث بقصد أخيلاس ، ورأى خيبة أمله فى تنصيب ربيبته أرسينو على عرش الفراعنة ، اشتبك مع القائد أخيلاس فى معركة وقتله. وكان الخصى بوثينوس قد تآمر على إنقاذ بطليموس فعلم قيصر بمؤامرته وقبض عليه وأمر بقطع رأسه . وقد نجحت أرسينو فى تسميم المياه التى يشربها الرومان ، ولكن قيصر اهتدى إلى عين ماء عذب فنجا من الموت هو وجنوده ثم استتب الأمر لقيصر فى مصر بعد أن هزم الملك الشاب ودعا معشوقته الجديدة ليريها مجده وعظمته ، فوصلت إلى روما وكان قيصر ولدهما فى السنة الأولى من عمره وكان قيصر قد ضرب نقودا رومانية عليها كلمة « فتح مصر » وأحضرت كلوبطره معها حاشية كبيرة بينها أخوها الأصغر وعدد من العبيد والخصيان والجوارى والوصيفات . وكان قيصر قد مضى عليه ثلاثة أعوام وهو يشغل فى وطنه مركز الديكتاتور فأنزلها قصرا فخما ذا حدائق غناء فى الضفة الغربية لنهر طيبر ، وذلك لتكون بعيدة عن زوجته الأولى كالبورنيا (وهى السيدة الرومانية التى يعزى إليها فى رواية شكسبير أنها رأت رؤيا مخيفة ليلة مصرع قيصر ، فهى تحذره وترجوه أن لا يخرج إلى مجلس السناتو فيعصاها وتجرى الأقدار بأن يتحقق الحلم ويلقى حتفه).

والغريب فى أمر قيصر أنه كان على تقدم فى السن قد ترك لنفسه حرية الهوى، فتعلق منذ عام واحد بعيون زوجة ملك موراتانيا واحتظى بها وأعاشها هى الأخرى فى روما .

وقد أحدث وصول كلوبطرة فضيحة اجتماعية فى روما ولهجت الألسن بذكر نقائص قيصر فى حياته البيتية ورثى الناس بإخلاص لكالبورنيا الفاضلة التى كانت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى حكم المهجورة من زوجها الجبار . وكانت حياة الأسرة قد انحطت بالنسبة لقيصر ، لضعف صحته وشيخوخته ولا سيما أنه قضى فتوته وشبابه فى اجتلاء أوجه المسرات واقتناص صنوف الملاذ بأنواعها سواء فى روما أم فى أسبانيا أم فى جوليا أم فى إنجلترا .

وقد زاد تذمر أهل روما من كلوبطرة لأنها كانت مصرية وأجنبية عن البلاد ولم يخدعهم أنها جاءت بحيلة أنها أسيرة حرب هى ومن معها ، فإن معاملة قيصر لها لم تكن معاملة الفاتح المنتصر لأسرى الحرب .

غير أن كلوبطرة قد حافظت على حشمتها ووقارها ولم يبد منها ما يطلق ألسنتهم فى عرضها ، ولكنهم انتقموا منها بإظهار الشفقة نحو أختها أرسينو التى صحبتها وهى فى حكم السجينة لتآمرها على كلوبطرة ، وقد أقام قيصر أربع حفلات لكلوبطرة دلت على ضعف عقله وطراوة مخه وتصلب شرايين دماغه ، فقد كان مصابا بالصرع وكان مبالغا فى الغرور بنفسه ، وقد بلغ به الجنون أن بنى فى روما هيكلا للآلهة « زهرة التناسل » ووضع فى الهيكل تمثال كلوبطرة من صنع المثال الرومانى أرخسيالوس ، وقد أطعم فى بعض الحفلات أكثر من عشرين ألف ضيف . ولم تكن حياة قيصر كلها لهوا ولعبا ، فقد أحضر سوسليجن الفلكى المصرى إلى روما وكلفه بإصلاح التقويم ، فاشتغل بذلك ووضع التقويم القيصرى وهو الذى يسير العالم بمقتضاه الآن (راجع كتاب آرثور فيجال فى تاريخ كلوبطرة).

ويظهر أن الفترة التى قضاها قيصر مع كلوبطرة فى روما قد أغرته بالملك ، ففكر فى تغيير نظام الجمهورية لتكون له الكلمة العليا وربما كان لإغواء كلوبطرة إياه نصيب من التأثير فى ذهنه ، ولا سيما وقد كان فى أيامه الأخيرة فريسة لمرض الفخامة وهو آخر دور من أدوار الداء السرى الخبيث الذى أصابه فى صباه .

وقد زاد حقد الرومان على قيصر أنه استخدم كثيرين من نوابغ المصريين فى أعمال الدولة المهمة ، فقد عين مصريين فى إصلاح التقويم كما ذكرنا ووضع مصريا على رأس خزانة الدولة واستخدم مصريا فى رياسة مضرب النقود وجعل وكيله فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إدارة شؤونه الخاصة مصريا من حاشية كلوبطرة وآخر جعله يقوم بإحياء الأعياد والحفلات وينظم المقابلات والمواكب ٠

وربما كانت كلوبطرة تحدث نفسها بأن تصير ملكة مصر وإمبراطورة روما ، ولأجل هذا كان يفكر فى حرب بارثيا ومن هناك يصل إلى الهند فيفتحها ويتصل بالشرق الأقصى ويحكم العالم من أدناه إلى أقصاه وكان قد بلغ الستين من عمره وأضعفته الأعوام الطويلة ، وأنهك خلالها قواه بعبادة فينوس جنتركس ، أكثر مما يجوز لمثله ٠٠٠ وكان قيصر شديد الثقة بنفسه وبقوة نجمه وحسن طالعه ، فكان يمنى نفسه بفتح الشرق كما فعل الإسكندر ، ثم يعود ملكا متوجا على العالم ويعلن زواجه بكلوبطرة رسميا ، أما هى فكانت تخشى عليه الهلاك فى حملة لشرق ، ولا ندرى سر خشيتها ولكن غريزة امرأة مثلها لا تخونها ، ولربما اطلعت من خفايا الرجل على ما جعلها تسىء الظن بطول حياته ، وصحت كهانتها وصدقت ، فقضى قيصر نحبه ولكن بأيدى أصدقائه ورفاقه وصبيانه الذين تبناهم واصطفاهم لا بأيدى المقاتلين من الشرق الذين أراد أخذ بلادهم ، وقد كان يوم مقتله مشهودا كما وصفه شكسبير وبلوطارخوس فى مؤلفاتهما ٠

ولما كان الرجل الذى حل محل قيصر هو أنطونيوس ، فقد حل أيضا محله من قلب كلوبطرة لأنها بعد مقتل قيصر حاول الرومان إماتتها ولكنها تمكنت من العودة إلى وطنها فى خفاء تنتظر حكم القدر ٠ وهكذا كان لكلوبطرة نصيب ولو صغير فى القضاء على عاهل الرومان ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هل عبد العرب والمصريون معاً أربابا بذاتها ؟

مبحث اشترك لفيف من علماء الإچيبتولوچيا فى وضعه واستيفائه وهم : (١) ماسبرو (٢) مارييت (٣) سيديو (٤) أحمد كمال باشا (٥) مجدى باشا (٦) شامبوليون فيجياك[١]

ظن بعض العلماء الملمين بتاريخ العرب والمصريين القدماء أن الأمتين عبدتا آلهة مشتركة بينهما ، وسبب ظهور هذه الفكرة اختلاط العرب والمصريين اختلاطا شديداً فى ظروف كثيرة من تاريخهم ، فكان اختلاط تجارى إما عن طريق خليج السويس ، وإما عن طريق النيل وبلاد الحبشة ، وقد ذكر بعض المؤرخين فى تاريخ الأسرة المالكة المصرية الأولى ، مهاجر قبيلتين من جزيرة العرب إلى البلاد المصرية وهما قبيلة « بنى كلب » وقبيلة « بنى صخر » ، وقد انفرد المرحوم كمال باشا بالتنبيه على هذا الحادث ، وذكر أن دخولهما مصر كان عن طريق الحبشة والنيل - ويخالفه معظم المؤرخين ، وكان المرحوم يرمى بنظريته إلى تأييد فكرته اللغوية التى أظهرها فى قاموسه الكبير ، الذى حاول أن يثبت به وجود ألفاظ كثيرة جداً من اللغة المصرية القديمة فى اللغة العربية الفصحى والمحكية ، ونظرية المرحوم كمال باشا منقوضة لأنه يفرض نشوء المدنية المصرية بفضل القبيلتين العربيتين، مع أن إجماع المؤرخين على أن المدنية المصرية قائمة بذاتها Suis generis [٢]، وأنها نشأت فى البيئة المصرية بطبيعتها وصفاتها المادية والأدبية ، ويعتقد كثير من العلماء أن المدنية المصرية تحمل طابعها الوطنى « ولونها المحلى » وروحها المصرى المستقل ، وأنها ليست أثرا من مدنية قبائل رحالة دخلت مصر بعد الطوفان أو وطأت أرضها

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ١٧ يوليه سنة ١٩٢٩ .

(٢) انظر مقال المؤلف « المدنية المصرية أصيلة » ، ص ١٤٩ من هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قادمين من الشرق أو الجنوب ، وقد عاشت تلك المدنية عشرات من الأجيال وألوفاً من السنين على ضفاف النيل كما نشأت على ضفافه ، فلم تكن مصر فى حاجة إلى مدنية خارجية ترد إليها كبعض السلع الأجنبية . وقد استمرت تلك المدنية وأزهرت من عهد مينا أو منيس إلى عهد نيختنبو الثانى المنحوس طالعه .

ولاشك فى أن الأعمال التى نفذها منيس تدل على رسوخ قدم المصريين فى العلوم الرياضية والهندسية ، فقد حول نهر النيل عن مجراه الأصيل الذى كونته الطبيعة إلى مجرى آخر صنعه منيس رغم العقبات والشدائد التى أقامتها الطبيعة فى وجهه ، وتمكن من تجفيف مستنقعات مهولة المساحة ، وبنى مدينة وجعل فيها عمائر وقصوراً تكاد تخلد ولا تبلى ، فمن علوم هندسة الرى إلى الهندسة الصحية إلى فنون العمارة والتشييد . هذا عدا عن أنه قنن القوانين ودوّن الدواوين وفتح للرفاهية والترف أبوابا فى الحياة المنزلية ، مما دل على حالة اليسر والرخاء فى أنحاء القطر لعهده .

ولم يكن خلفاؤه أقل منه سعياً فى خير مصر ، فقد كان أحدهم « أنانيس » أستاذاً فى علم الطب وألف رسالة فى تشريح الجسم البشرى . كما أن « أونمفيس » وهو من ملوك تلك الأسرة أيضاً شاد أهرام دهشور الشهيرة .

وقد ثبت مما تقدم أمران :

الأول : أن قبائل كثيرة جاءت من آسيا وتوطنت فى مصر فى العهود الأولى قبل فجر التاريخ .

الثانى : أن المدنية المصرية نشأ معظمها فى مصر ونمت وترعرعت على ضفاف النيل حيث استمرت قرونا طويلة .

فإذا افترضنا مجئ العرب إلى مصر فلاشك أنهم احتفظوا بلغتهم ومعتقداتهم ومجدوا أربابهم التى عبدوها فى أوطانهم الأولى ، كما أنهم لا ريب تأثروا بلغة المصريين ومعتقداتهم ولو عن طريق المعارضة والموازنة . ومن ذا الذى ينكر صدق هذه النظرية إذا ذكر رحلة إبراهيم ودخول يوسف فى مصر وإقامة اليهود وموسى

على ضفاف النيل وهجوم الهيكسوس وغزوة الأحباش ؟ إن تلك حوادث دامت مئات من السنين حدث فى أثنائها امتزاج تام بين قبائل آسيا وبين الشعب المصرى .

ويظهر للعلماء أن الهيكسوس تركوا للمصريين عبادة « قرص الشمس » وهى العبادة التى بلغت أشدها فى عهد الملك إخناتون الشهير ، ولكن الهيكسوس أنفسهم بدأوا يقدمون القربان على الطريقة المصرية فكأنهم تبادلوا المعتقدات مع المغلوبين .

واليهود أنفسهم بعد خروجهم من مصر وفى غيبة موسى أرادوا أن يعودوا إلى الطقوس المصرية وكثيرون منهم عبدوا « العزير » فى الصحراء على شكل العجل آبيس وليس العزير سوى أوزيريس الإله المصرى Ousir, Osiris وقد غضب موسى لهذه الردة غضباً شديداً وأشار القرآن الكريم إلى هذا الحادث فى سورة التوبة. « وقالت اليهود عزير ابن الله » الآية .

قال ماربيت باشا عن تمثال رمسيس الثالث الموجود فى مدينة هابو إن الآثار المحيطة بذلك التمثال ليست آثار قصر أو قصور قديمة إنما هى آثار هيكل قديم ، وكان غفر له يشك فى ذلك ولم يذهب بعيداً ، ولكن عالما مصريا ولعله المرحوم مجدى باشا بحث وتقصى إلى أن وصل إلى أن الأثر المذكور الذى يرجع عهده إلى القرن الثامن عشر قبل الهجرة ويعرف الآن لعلماء الآثار باسم « مجدل » أو « المجدل » ويكتبونها هكذا Mygdol, Almygdol وتفسيرها فى المخصص صفحة ١٢٦ «قصر » إنما هو هيكل .

ولما كان كثيرون من علماء التاريخ المصرى يعتبرون كلمة « لقصر » المدينة التى بها الآثار المصرية Luxor هى صيغة الجمع للفظ « قصر » ، فتكون محرفة عن قصور ، ولكنها فى الحقيقة تنطق « أقصر » ، فإن بعضهم شذ عن هذه القاعدة وعاد إلى القاموس فإذا للعرب فى وثنيتهم إله « اسمه أقيصر » وهى صيغة التصغير لكلمة « أقصر » ، ولعل فى هذا دليلا على أن العرب والمصريين اشتركوا فى عبادة إله واحد على درجتين ، فكان المصريون يعبدونه حق عبادته فى الهيكل الملكى الذى لا يدخله إلا الواصلون والواقفون على الأسرار الخفية ، كما أن العرب عبدوه فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صورة مخففة أو فى الدرجة الثانية التى لم تبلغ الأولى .

أما الكرنك وهى قريبة من لقصر فقد لفت اسمها نظر العلماء فبحثوا فى آداب العرب لعلهم يهتدون إلى مايدل على علاقة بين الاثنين ، فوجد بعضهم فى تفسير القرآن كلمة «غرانقة» وقد ذكرت هذه الكلمة بمناسبة تمجيد الثالوث العربى الشهير وهو:

(١) اللات Allat

(٢) العزة Osah

(٣) مناة Manat

وقصة ورود هذه الكلمة مشهورة ، فإنها لم تذكر فى القرآن الشريف ولم ترد على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ولكنها ذكرت على ألسنة بعض الأشخاص فقيل « الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » ، فلاشك فى أن « غرانيق » و «كرنك» كلمة واحدة ، وكلمة كرنك المصرية هى عربية الأصل والتركيب ، وهذه الكلمة تدل على تمجيد الثالوث المقدس فى « طيبة » وفى « الكعبة » التى كانت تشمل ٣٦٥ صنما أو وثنا معبوداً كما رواه المؤرخون لا سيما سيدليو فى تاريخ العرب ص ٤٢، وقد ذهبت قيمة كلمة « كرنك » من اللغة العربية بذهاب الوثنية وانمحاء آثارها .

أما الإلهة « خونسو » التى يوجد هيكلها فى الكرنك فقد وجد اسمها فى بعض المعاجم العربية مثبتاً هكذا : « خنس » ومن معانيه الغزالة التى تنفر من الإنسان وتختفى عن نظره ، أو الكواكب التى تختفى نهاراً وتبدو ليلا أو الملائكة . وخرج بعض العلماء أنها أصل لغوى لكلمة « الكنيسة » والفرق بين خنس وكنيسة ليس بعيدا ، ولأجل التقريب نلفت القارىء للمقارنة بين الكلمات الأربع الآتية :

خونسو : بالمصرية القديمة اسم إلهة عبدت فى الكرنك .

خنس : اسم يدل على الكواكب أو الملائكة .

كنيسة : معبد النصارى .

كنيس : معبد بنى إسرائيل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما كلمة كا أو حرف «ق» فنجدها فى أول إحدى سور القرآن الشريف وفى هذه السورة مبحث فى الروح ، كذلك نجدها فى اللغة الهيزوغليفية ، وقد قال بعض المفسرين إن «ق» معناها الروح .

ولعل الحروف التى توجد مفردة فى أوائل السور تدل على رموز عبادات قديمة كان يعرفها رجال متميزون ، كما أن جاكين وحيرام الواردين فى التوراة هما ياسين وطه الواردين فى القرآن الشريف (راجع محاضرة لمجدى باشا ألقاها فى الجمعية الجغرافية الخديوية فى ٢٨ مارس سنة ١٩٠٨) ، وأن كلمة طه ربما كانت ترجمة للكلمة اليونانية Théos ومعناها إله أو معبود ، وقد قال العلامة شامبوليون فيجياك فى كتابه « مصر بلد العجائب والصور » إنه بعد جبل الطارة يوجد على قرب من النهر مكان اسمه « طه » أو « طهى » و« أموك » وكان فى عهد مراد بك مكانا ذا شأن يقيم فيه ولىّ عظيم ، ويظهر أن محلة « طه » هذه تشغل عين المكان الذى كانت فيه المدينة القبطية تيودوسيوم أى مدينة Théos (ص ١٩٢ الكتاب المذكور آنفا).

وكان فى جزيرة أنس الوجود هيكل مخصص لآلهة الحكمة التى كان اسمها «صا » أو « صالات » أو « صاد » وهى حرف « ص » ، ولم تكن الحكمة إلا إحدى صفات الله يدلل عليها بحرف « ص » فى مستهل بعض السور فى القرآن الكريم ، ولعل القارىء يدهش إذا علم أن المدينة المنورة التى هاجر إليها محمد صلى الله عليه وسلم ودفن بها اسمها أيضا طيبة وطيوة Thébes ويثرب ، ومما يلفت النظر أن طيبة اسم لعاصمة مصر كما أن يثرب تقرب جدا من « يتريب» التى توجد آثارها بجوار مدينة بنها ولاتزال معروفة عند الفلاحين باسم « تل أتريب » ، كذلك كلمة سيت أو شيت أو ست تدل على إله الشر ، وهذه الكلمات كلها مصرية قديمة وقد أخذ منها ساتان عند الإفرنج Satan وهو شيطان باللغة العربية .

وكلمة طوت Thot التى صارت طاغوت وآمون صارت آمن وآمين وفتاح Phtah التى صارت فتاح وSakkt أو الباسطة التى صارت الباسط ، وKab المصرية «كاب» ومنها الكعبة مجمع الأرباب .

ومما هو جدير بالذكر في ختام هذه العجالة أن زواج الملك سليمان من بنت فرعون (سفر الملوك في التوراة) من الأسرة العشرين ، كذلك زواج الخليل إبراهيم من السيدة هاجر الذى تم بعقد صحيح ، وكلا الزوجين أجنبى عن مصر وكلتا الزوجتين مصرية . ومعنى هذا أنه لابد من تفاهم دينى بين الشعبين الإسرائيلى الذى منه الرجلان والمصرى الذى منه المرأتان ، لأن الزواج كان طقسا دينيا محضا يتم أمام الآلهة ولابد أن يكون دين الزوجين واحداً أو على الأقل لايوجد بين دينهما تناقض يحرم الارتباط الجنسي ويقطع علاقة النسب ، ومن هذا ينتج أن تلك القبائل أو الشعوب التى منها سليمان وإبراهيم عبدت عين الأرباب التى عبدها المصريون ، لأن زواج الأفراد من قبيلتين أو طائفتين مختلفتين كان محرما ، فما بالك بعقيدتين متناقضتين ، فلابد من أن العرب والمصريين فى فترة من تاريخهم القديم كانوا يتكلمون لغة واحدة أو لغتين متقاربتين ويدينون بعقيدة واحدة أو بعقيدتين شقيقتين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب الإكليل للهمدانى
تأليف أبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف [1]

إن الذى بين أيدينا من هذه التحفة الغالية ، هو الجزء الثامن من الكتاب الذى توفى مؤلفه فى سجن صنعاء فى الثلث الأول من القرن الرابع الهجرى (حوالى نصف القرن العاشر المسيحى) وقد أخرج هذا الجزء إلى الطبع وصحح الأغلاط التى أوقعها فيه النساخ وعلق حواشيه اللغوية والبلدانية والتاريخية والإخبارية الأب أنستاس مارى الكرملى البغدادى ، وقد ألحق به خمسة عشر فهرسا مما لم يسبق له مثيل فى التحقيق والتدقيق .

وغنى عن البيان أن صديقنا وزميلنا الأستاذ الكرملى هو صاحب مجلة لغة العرب ، وله على اللغة والأدب أياد بيض لا تنكر . والجزء الثامن من الإكليل الذى نحن بصدده يتضمن محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ، ومرائى حمير والقبوريات ، ومما لفت نظرنا وكان له وقع فى نفسنا أن الأب أنستاس أهدى الكتاب إلى تلميذه النجيب وصديقه الصادق يعقوب إسحق شغو ، وقد جرت العادة أن يهدى التلميذ إلى أستاذه ، ويتقرب إليه بثمرة جهده ، ولكننا فى هذه المرة حيال حادث جديد فى الأدب ، حالة بر أستاذ بتلميذه فنعم الخطة التى اختطها الأستاذ لأدباء العربية ومؤلفيها .

وكل من قرأ تاريخ العرب فى كتبهم وفى كتب المستشرقين (لاسيما نيكلسون) يذكر أن كتاب الإكليل فى المقام الأول بين كتب التاريخ التى سجلت أخبار بلاد اليمن السعيدة وهى الجزء الجنوبى الغربى من جزيرة العرب والتى يحكمها الآن الإمام يحيى حميد الدين وعاصمتها صنعاء ، ومعظم أهليها من الزيود ولانزال نذكر بيت الشعر الذى حفظناه فى المدرسة للتمثيل به فى علم البيان :

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة البلاغ فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لابد من صنعا وإن طال السفر وتحت كل عود ووبـــــــر

وأصل كتاب الإكليل فى عشرة أجزاء فقد منها ثمانية ، ولم يبق منها إلا الثامن والعاشر . قال مراد البارودى فى مجلة الكلية مجلد ٣ ص ١٨٨:

« الذى نعلمه أن المكاتب العمومية والخاصة فى كل أقطار المعمورة لايزينها سوى مجلدين منه فقط من المجلدات وهما الثامن والعاشر إلخ » وهذه النسخة هى التى أخذ عنها الأب أنستاس الكرملى ، أما الأجزاء العشرة فكانت محتوياتها كمايلى :

الأول : مختصر من المبتدأ وأصول الأنساب ، الثانى نسب ولد الهميع بن حمير ، الثالث فى فضائل قحطان ، الرابع فى السيرة القديمة إلى عهد تبع أبى كرب، الخامس فى السيرة الوسطى من أول أيام أسعد تبع إلى أيام ذى نواس ، السادس فى السيرة الآخرة إلى الإسلام ، السابع فى التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة ، الثامن فى ذكر قصور حمير ومدنها ودواوينها وما حفظ من شعر علقمة والمرائى والمساند ، التاسع لم نعلم محتوياته ، العاشر فى معرفة جاشد وبكيل .

أما المؤلف فينسب إلى همدان إحدى القبائل العربية لا إلى همذان فى إيران ونسبه ابن الحائك ، والذين ذكروه بهذه النسبة أرادوا تحقيره ، ويظهر أن العرب كانوا يعيّرون الناس بصناعة آبائهم أو بصناعتهم ، ولاتزال طائفة من العوام وبعض الخواص فى مصر والشرق العربى يحقرون أهل الصناعات ، ويعزى إلى خالد بن صفوان أنه قال لإبراهيم بن مخرمة يريد تحقيره ، حين افتخر إبراهيم باليمن ، وكان إذ ذاك بين يدى السفاح :

« فما منكم (يقصد أهل اليمن) إلا دابغ جلد ، أو ناسج برد أو سائس قرد أو راكب عرد » .

وقد ولد الهمدانى فى صنعاء فهو يمنى صميم ، ونشأ فى عاصمة اليمن وبها تعلم حتى غدا أعلم علماء زمانه وقبض على أعنة اللغة والفلك والرياضيات وقرض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشعر ، ومعرفة الأنساب والحديث والتفسير والفقه والفرائض إلى غيرها من العلوم الشائعة فى عصره . وترجم له السيوطى فى كتابه « بغية الوعاة » طبع القاهرة ص٢١٧ نقلا عن الخزرجى أن الهمدانى « كان الأوحد فى عصره ، الفاضل على من سبقه ، المبرّز على من لحقه ، لم يولد فى اليمن مثله علماً وفهماً » .

ولما ترعرع ابن الحائك سافر إلى مكة وجاور بها وتعرف فيها برجال من جميع البلدان ومن جميع الطبقات ثم أقام فى صعدة ، وسبب سجنه أنه كانت له صلة برجلين من أعوان الناصر ، وعصيان أهل العشة .

ولم يقنع الهمدانى بتأليف كتاب الإكليل ، بل وضع أيضا كتاب « صفة جزيرة العرب » بعد الإكليل ، وكتاب سرائر الحكمة وكتاب القوى وكتاب اليعسوب وكتاب الحيوان المفترس . والممالك والمسالك فى عجائب اليمن وجزيرة العرب وأسماء بلادها ، وديوان شعر فى ستة مجلدات .

هذا الرجل كان رحمه الله أقرب مؤلفى العرب إلى الجاحظ فى سعة علمه ، وقوة مواهبه واشتمال عبقريته على ناحيات كثيرة من الفكر الإنسانى ، ولكن الذى خدم ذكرى الجاحظ بقاء كل مؤلفاته بين أيدينا ، أما الهمدانى فقد فقد معظم تواليفه ولم يطبع منها إلا « صفة جزيرة العرب » والجزء الثامن من الإكليل ولايزال العاشر مخطوطا ومحفوظا فى خزانة لندن .

ومما يؤسف له أن فى دار الكتب المصرية الجزء الثامن من الإكليل ، ولم يعن أحد بطبعه ، فقد جاء فى فهرست تلك الدار ص ٤١٠ ج ٥ طبع ١٩٣٠ مانصه :

« الإكليل فى أنساب حمير وأيام ملوكها .

تأليف أبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى اليمنى المعروف بابن الحائك وهو كتاب كبير عظيم الفائدة يشتمل على عشرة فنون ، الموجود منه الجزء الثامن أوله باب ماجاء من ذكر قصور اليمن فى مجلد مخطوط بخط القاضى حسين عبد الله الأتربانى فرغ من كتابته فى المحرم سنة ١٠٣٥هـ » .

وفى كل من عواصم أوربا نسخة مخطوطة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكتب العلامة شكيب أرسلان فى ص ٤٣٩ من المجلد العاشر أنه سأل حضرة العلامة شيخ العروبة أحمد زكى باشا فقال له : « إن كتاب الإكليل مفقود وأنهم بحثوا عنه كثيرا فلم يجدوه حتى هذه الساعة ، وكانت منه نسخة (الجزء الثامن فقط كما أسلفنا) بمكتبة دار الفنون تحت نمرة ٦٢٤٢ من كتب خالص أفندى فى قسم التاريخ منها ».

وجاء فى مقالة الأمير شكيب نفسها أن الأستاذ داود هنريك مولر أستاذ الألسن الشرقية في دار الفنون فى مدينة فينا طبع هذا الإكليل وأتم طبعه فى سلخ شهر آيار سنة ١٨٨٤ ، ومولر هذا هو نفسه الذى طبع كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، ورمز لنفسه بنسب ابن الطحان فى مقدمة الكتاب . ولكنه لم يوفق فى طبع الإكليل ، فإن الذى نشر منه يبلغ زهاء عشرين صفحة وقد أحدث هذا النشر فى وقته نقدا حديدا بقلم الكونت دى لندبرج ، فلما اطلع مولر على هذا النقد عدل عن إكمال عمله وترك ما شرع فيه من طبع الإكليل ، ويقول الدكتور ف. كرنكو إن مولر اعتمد فى الطبع على نسخة لندن .

أما الجزء الثامن الذى نحن بصدده فمقسم إلى قسمين ، قسم موقوف على محافد اليمن وقصورها ومساندها والقسم الثانى مرصد للقبوريات .

ولم نر قبل هذا الكتاب أن ناشره قد عنى به العناية التى رصدها عليه الأب الكرملى ، فقد جعل له ثمانية عشر فهرسا ، الأول للفصول والثانى للقواعد العربية والثالث للمعمرين من العرب والرابع للشعراء والخامس للقوافى والسادس للمحدثين والرواة والسابع فهرس عمرانى والثامن للأسداد (جمع سد) والتاسع للقبور والمدافن والحادى عشر للحصون والقلاع والثانى عشر للقصور وهكذا .

وقد خدم العلامة الكرملى اللغة العربية والتاريخ العربى خدمة لاتقدر ويشكر عليها الشكر كله .

وكان أول ما ورد فى الكتاب من ذكر القصور ، الكلام على قصر غمدان وهو أول قصور اليمن وأعجبها ذكرا . ولكن الحسن الهمدانى مؤلف الكتاب يخلط العلم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالأساطير ويمزج بين الحقائق والخرافات ، فمن ذلك قوله إن الذى أسس غمدان سام بن نوح ٠٠٠ ودام هذا الأساس فى تزايد مع الملوك قدر أربعة آلاف سنة قمرية، وكان المؤلف شديد الشغف بالفلك والطوالع والتنجيم ، فلذا تراه ترك ذكر القصر من ناحية التاريخ وأخذ يسهب فى وصف طالع الساعة التى وضع فيها أساسه فقال: «إن الطالع كان ساعة بنائه الثور وفيه الزهرة والمريخ ويوجد طبائع هذا البرج فى ثبات الأشياء بها وقلة تغيرها وتوجد طبائع الزهرة والمريخ فى طباع أهل صنعاء وتتجلى الزهرة لأنها تستولى على الطالع بأكر الحضيض أى بأفلاك الحضيض » ٠ وتطرق من ذلك إلى ذكر طوالع أهل صنعاء فقال « وأما الذى يشرك فى مواليدهم المريخ من أهلها ، فإنه يكون من شأنهم العشق والزنا واللهو والطرب والغناء والجنون والعربدة والطعن بالسكاكين وحمل النساء وغير ذلك » ٠ «وليس يلحق بحسناء صنعاء امرأة من العالم ولا يلحق بسرعتهن وظرفهن امرأة وفيهن غيرة ولهن شكل ودلال وملق »٠

وكان غمدان عشرين سقفا غرفا بعضها على بعض وكان فيما بين كل سقفين عشرة أذرع ، وكانت إلى جنب القصر نخلة تسمى اليانعة سحوق تطرح بعسبانها إلى بعض أبهائه ٠ ولم تزل حمير تنزله وتزيد فيه حتى أخرب فى أيام عثمان أكمل ما كان ، ولما بنى غمدان صاحب غمدان وبلغ غرفته العليا أطبق سقفها برخامة واحدة وكان يستلقى على فراشه فى الغرفة فيمر بها الطائر فيعرف به الغراب من الحدأة من تحت الرخامة ٠ وكانت حروفه أربعة تماثيل أسود من نحاس مجوفة فإذا هبت الريح فدخلت أجوافها سمع لها زئير كزئير الأسد ، وكان يصبح فيها (أى يشعل فيها) بالقناديل فتُرى من رأس عجيب (وهو أحد الجبال المشهورة) فارتفاع القصر على التحقيق مائتا ذراع ٠

وغمدان الذى بنى القصر هو أبو شرح بن يحصب وقد عزى إليه شعر بالحميرية :

وإنى أنا القيل اليشرح حصنك غمدان بمبهمات

يعنى أنا الملك أبو شرح قد حصنت قصرى غمدان بالأسود .

أما عن القبوريات فقد روى المؤلف عن ابن الكلبى أنه كان مع مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية ، فهدم ناحية من تدمر فإذا فى أساس الحائط جرن من رخام طويل ، فاجتمع قوم على قلبه فقلبوا الطين وظن مروان أن فيه كنزا فإذا فيه امرأة على قفاها عليها تسعون حلة منسوجة بالذهب . جربانها واحد ، وإذا لها غدائر فى رأسها إلى قدمها ، فذرعت قدمها فإذا هى ذراع وإذا صفيحة من ذهب فى بعض غدائرها فيها مكتوب « أنا تدمر بنت حسان بن أذينة الملك خرب الله بيت من خرب بيتى » وتقصد بيتها قبرها هذا ، قال الراوى : فوالله مالبثنا إلا قليلا حتى جاء عبد الله بن على وعامر بن إسماعيل الحارثى المسلى فقتل مروان » .

وروى للحارث بن مضاض الجرهمى الأبيات من الشعر المكتوبة الآن (عصر المؤلف) فى مقام إبراهيم عليه السلام :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى ، نحن كنا أهلها فأزالنا ... صروف الليالى والجدود العواثر

فهل فرح آت بشىء نحبه ... وهل حَزَن ينجيك مما تحاذر

وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بذاك البيت والعز ظاهر

وقد أتى المؤلف على ذكر قبور كثيرة منها قبر فى حراء فيه صفيحة من نحاس مكتوب عليها « أنا ذو شلم الملك ملكت ألف سنة وافتتحت ألف مدينة ونكحت ألف عاتق ثم صرت إلى الأرض ، فراشى التراب ووسادى الحجر ، وجيرانى الدود فمن رآنى فلا يغتر بالدنيا بعدى » .

وقد رأى الأب أنستاس أن ينتقد صاحب الإكليل على إيراد الخبر على هذه الصورة فقال فى ص ٣٠٩ تعليقا على ما نقلناه :

« وليس فى تاريخ الأعارب والأعاجم ملك ، ملك هذه المدة المتطاولة ومن غريب الأمر أنه يذكر أنه ملك ألف سنة لا أكثر ولا أقل وافتتح ألف مدينة لاتسعمائة وتسعا وتسعين ولا ألف مدينة ومدينة واحدة ونكح ألف عاتق بلا زيادة ولا نقصان واحدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

. . . والمعلوم المشهور أن شلم أو سلم اسم مدينة القدس فى قديم الزمان لا اسم رجل ، ولم نجد فى جميع الكتب ملكا بهذا الاسم » .

وقد استحق الهمدانى من الأب أنستاس أن يصفه بأنه ضعيف البصر فى النقد قد لايتجاوز بصره طرف أنفه ، تعليقا على النحاسة التى روينا كتابتها . فى حين أن الهمدانى فى ص ١٩٥ قد لاحظ ما فى الخبر من المبالغة فأبدى رأيه قائلا :

« إنى لا أرى هذه الأشياء المستنكرة فى الزبر القبورية إنما يكون من الذين يكتبونها ، فيزيدون فى الشىء فيه ليعظم ذلك عند من بعدهم فيزهدوا فى الدنيا ويعلموا أنهم دون من فرطهم »، يريد أن قول الرجل فتحت ألف مدينة عدداً كبيرا من المدن وألف عاتق نكحها عددا وفيرا من العواتق . وهكذا ، وقد عقّب على شلم وهو يعلم أنها اسم بلد ، ونحن نعلم قوله أنا ذو شلم أى صاحب شلم ، فقال الأعشى :

وقد طفت للمال آفاقه ... عمان فحمص فأورشلم

وقال بعض القدسيين هى بورشليم . « صفحة ١٩٦»

وجاء فى ص ٢٤٢ عن قبر بلقيس : « بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل ، قبرها بمأرب قال أبو محمد : لم تلبث بعد أن قتل ولدها رحبعم بن سليمان بأنطاكية إلا سنة واحدة ثم ماتت ، فقال النعمان بن الأسود بن المقرف بن عمرو بن يعفر الحميرى يرثى بلقيس :

أخرج الموت من ذرى قصر بينو ... ن هماما على الجماد يدور

إن بلقيس قد أذل لها الملك ... سليمان واصطفاها قدير

أبصرت فى الكتاب بلقيس عجبا ... فأتى منظر مهيب كبير

كل عمر وإن تطاول دهرا ... بعده الموت ذاك عمر قصير

* * *

ونحن نشكر الأب أنستاس ونثنى عن علو همته ، ونسجل له بمداد الفخر تلك الخدمة الجليلية التى أداها للعربية ونرجوه هو وتلميذه الفاضل أن يتضافرا على طبع الجزء العاشر وليس الأمر على همتهما بعزيز .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفسطاط وعجائبها
عاصمة الفتح الإسلامى، والقطايع عاصمة ابن طولون
والقاهرة مدينة الفاطميين [1]

بنى عمرو بن العاص الفسطاط سنة ١٢١ هجرة واندثرت بحريق فى سنة ٥٦٧ هجرية ٠

ثم بنى الأمراء مدينة العسكر سنة ١٣٣ هجرية وسكنوها وجعلوها ضاحية للفسطاط ٠

وأنشأ ابن طولون مدينة القطايع سنة ٢٦٥ هجرية فى حدود مدينة العسكر وسكنها الأمراء إلى سنة ٢٩٢ ، وأحرقها محمد بن سليمان فى تلك السنة وكانت شبه ضاحية للعسكر ٠

وفى ٣٥٧ دخل الفاطميون مصر وشادوا القاهرة التى لاتزال إلى الآن عاصمة الديار المصرية ٠

كانت مدينة الفسطاط مقسمة تقسيما دقيقاً ، إلى قسمين جنوبى وشمالى ٠ ويسمى القسم الجنوبى « عمل فوق » ويقصد بكلمة « عمل » هنا ، أحد مراكز الحكم أو الإدارة التابعة للسلطلة العامة ٠ و« عمل أسفل » ٠

ولعمل فوق قسمان قسم شرقى وقسم غربى ، والشرقى يبدأ بالقرافة الكبرى وينتهى إلى مدينة العسكر ، والغربى يبدأ من ضفة النيل فى الجهة الجنوبية عند أثر النبى إلى القرافة الكبرى ٠

والشمالى وهو« عمل أسفل » يشمل بقية البلد إلى حدود القاهرة من ناحية شارعى تحت الربع والدرب الأحمر ٠

* * *

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٢٦ مارس سنة ١٩٣٠٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أراد عمرو بن العاص تقليد السنة النبوية الكريمة ، فبنى المسجد وبنى بجواره دارا له أولى ، ثم دارا ثانية ، وقد صارت تلك الدار الثانية ضريحا لولده عبد الله ثم أضيفت الداران إلى بناء الجامع ·

والجامع كما تراه الآن بناء واسع مملوء بالأعمدة الضخمة التى جلبت من ناحيات شتى ، وقد اتجهت نية السلطات العليا فى مصر إلى تجديده وعملت عن ذلك مسابقة منذ ثلاث سنين ونشر عنها فى سائر أنحاء العالم ووضعت للفائز فى وضع التصميم الأفضل جائزة ثمينة ، ووعد بتعيين صاحبها مشرفا على تنفيذ تصميمه ·

وقدمت رسوم عدة من شركات مهندسين أجانب ومصريين ومن أفراد مصريين وأجانب كذلك وعرضت تلك الرسوم فى قبة الغورى ، التى بها ما يسمونه بالمكتبة الزكية ، وزرنا هذا المعرض وقضينا فى درس رسومه ردحاً من الزمن ، فوجدنا المهندسين الفرنسيين قدموا رسوما أقرب إلى فن العمارة المغربية فى المساجد (تونس والجزائر ومراكش) وتلك الرسوم تمتاز بحذق خاص فى إسقاط النور من نوافذ المسجد ، وإيجاد روح النعومة فى داخل المسجد بعد تشييده ومعظم اعتماد هذه الفئة على « الترف البنائى » الذى أسرفوا فى تمثيله مستعينين بدهن رسومهم بالألوان ·

أما المهندسون الإنجليز فيدهشنا أنهم جمعوا بين فكرتين ، الأولى فكرة تمثيل الوقار الدينى الذى يشاهد فى الكنائس البروتستية ، والثانية إعادة « اللازمة البنائية » التى توجد فى كثير من مساجد القاهرة العربية ، ولكن بغير تقيد بالعصر العمرى (نسبة إلى عمرو) لأن الأصل فى فكرة الجائزة هو إعادة الجامع إلى ما كان عليه فى أبهى وأفخر أوقاته Reconstitution ، ويظهر لنا أن الكابتن كريزويل الذى يعد ثقة كبرى فى الآثار العربية كان من العارضين القريبين إلى الصواب فى تنفيذ الفكرة الأصيلة ، وقد اشترك مع أحد المهندسين أو مع فريق منهم فى تقديم رسم يجمع بين الفكرتين السالفتين، ولكنه راعى ما كان عليه المسجد بقدر الاستطاعة ·

وقدم مهندسون مصريون تصميمات كثيرة ، ومعظمها ينطبق على شروط

الجائزة ولكنه خال من التنميق والتزيين بالألوان ، وقد لفت نظرنا بصفة خاصة تصميمان قدمهما مهندسان مصريان وهما أفضل الرسوم وأتقنها وأصدقها ، ولكن للأسف لم يكن لهما نصيب فى الجوائز ، وأظن أن الجوائز قد نالها مهندسون أجانب ، وقد قيل فى ذلك الحين كلام كثير إن صدقا وإن كذبا ، ولكننا فى الحق نعتقد أن حيفا وقع على اثنين من المهندسين المصريين ولم ينصفهما أحد ، وللجان الفحص فى مثل هذه الأحوال شؤون مثل الشؤون التى لله فى خلقه ، أى أنها لا تفسر ولا تعلل ولا يمكن مسها بثناء أو بضده .

ولا نعلم حتى الساعة ماذا تم فى تنفيذ هذا المشروع الجليل ، كيف يكون ومتى يكون ؟

نقول إن عمرو بن العاص لما بنى داريه ، وقفت القبائل خلفه وتنافسوا فى المواضع كما رأينا فى شريط « الهجوم على الذهب » التى مثلها تشارلى ، وكيف تصنع الحكومة فى كلونديك ، لكبح جماح المهاجمين على أرض المناجم للمبادرة إلى وضع اليد عليها ، كذلك كانت حيرة عمرو عظيمة عندما رأى هجوم القبائل على الأرض يضعون أيديهم عليها وهى بخصبها وخضرتها وجمال موقعها وقربها من نهر النيل ، الذى هو من أنهار الجنة فى نظر هؤلاء « الغزاة الجفاة » العراة أصحاب المجد العريق كما يسميهم وشنطون إيرفنج فى كتابه عن العرب فى الأندلس، وخاف عمرو الفتنة والتقاتل فى « موقعة وضع اليد » ، فقسم عمرو الأرض إلى أربع خطط (أو أخطاط كما يقول العامة) وجعلهم بمثابة « مشايخ الخط » وقد استمر هذا النظام إلى يومنا هذا ، فيقال شيخ الخط ، ويقال فى بعض بلاد الريف « شيخ الربع » تمشيا مع سنة عمرو .

أما مشايخ الخطط العرب الأول فكانوا من كبار القادة وفحول الزعماء وهم :

(١) معاوية بن خديج النجيبى .

(٢) شريك بن سمى الغطيفى .

(٣) عمرو بن قحزم الخولانى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٤) حويل بن ناشزة المعافرى .

فترأسوا الناس وفصلوا بينهم بالمعروف وأنزلوهم منازلهم ، وجعلت لكل قبيلة جهة أو خطة فكان مجموعها « خطط الفسطاط » .

وليس هذا مجال ذكر الخطط والإفاضة فى نسبتها إلى أربابها ، فكتب التاريخ العربى كفيلة بذلك ، ولكن الذى لفت نظرنا أن هذه الطريقة من تسمية أقسام المدن فى أوربا ومصر لم تتغير، فقد كان يقال فى الفسطاط مثلا خطة لخم وخطة السلف ابن سعد كما يقال الآن فى باريس بولفار فوجيرار ويقال فى الإسكندرية حى محرم بك.

وبمناسبة ذكر خطة لخم أو خطط لخم أذكر أن خطة بنى عبد ربه بن لخم كانت فى زمن المقريزى ومشغولة بمصانع للورق قال المقريزى : « وهذا الموضع اليوم، وراقات يعمل فيها الورق بالقرب من باب القنطرة خارج مصر » .

ويقصد بوراقات ما يقصده أهل باريس الآن بقولهم Papeterie.

وكانت المدينة قد امتدت إلى مايقرب من عين الصيرة ومقابر آل طباطبا ، فإن خطة وعلان صارت تطل على قبر القاضى بكار ، وأكتب هذا لمن يعرفون آثار القاهرة وضربوا فى مناكبها وتعرفوا على تلالها وهضابها ، ومقابرها ومساجدها وطرقها المتشعبة فى الجبل والتلال ، فليس ألذ عند هؤلاء من مقارنة الخرائط القديمة بالخرائط الحديثة ، والعثور على أماكن تعد « علائم للتعرف » Landmarks .

وأول « بلكون » أو « فراندا » فى الإسلام بناها خارجة بن حذافة فى الفسطاط، فإنه خالف الصحابة الذين كانوا يبنون بيوتهم من طبقة واحدة فابتنى غرفة علوية أو « فيراندا » فبلغ عمر بن الخطاب أمرها ، وأبلغه الواشى أن خارجة أراد أن يطلع على عورات جيرانه فكتب إلى عمرو بن العاص يقول : ادخل غرفة خارجة وانصب فيها سريراً وأقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير فإن اطلع من كواها فاهدمها.

وبعبارة أخرى عين ابن الخطاب عامله وقائده خبيراً فى هذه الدعوى للانتقال والمعاينة ، وإجراء التجربة المادية ليتثبت بنفسه من صحة الشكوى . ففعل عمرو ما أمره به الخليفة ، فلم يبلغ الكوى ، فأقرها ، وأباح لخارجة أن يتمتع بشرفته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولخارجة هذا خبر غريب فى تاريخ الإسلام ، فإنه كان رئيس شرطة عمرو بن العاص ، وكان محبوبا لدى عمرو ومشهوراً بطاعته ، وقد أوردته طاعته لمولاه ، موارد الحتوف بغير ذنب ولا جريرة فذهب فدى لسيده ٠

وتفصيل ذلك أن ثلاثة من الفوضيين تآمروا على قتل ثلاثة من أكبر زعماء الإسلام وهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه رابع الخلفاء الراشدين ومعاوية بن أبى سفيان مزاحمه وكاتب الوحى ومؤسس الأسرة الأموية وعمرو بن العاص فاتح مصر وواليها رضى الله عنه وأحد دهاة الإسلام وبواقعه المقدمين بإقدامه وذكائه وعلو همته ٠

وقد اختار الفوضيون الثلاثة ليلة ١٧ رمضان سنة أربعين للهجرة أى بعد فتح مصر بعشرين عاما لينفذوا مؤامرتهم بقتل الثلاثة فى وقت واحد ، وحجتهم فى ذلك أن قتلهم ينقذ الإسلام من الفتن ويضع حداً للحروب الداخلية ولو أن هذه المؤامرة نفذت إذن لحرم الإسلام من ثلاثة من خيرة رجاله ٠

ولما كانت الأمور مرهونة بأوقاتها ولكل أجل كتاب ، لم يخرج عمرو بن العاص لصلاة صبح الجمعة ١٧ رمضان وأرسل بدلا منه خارجة الذى كان رئيس شرطته ، وكان ضابطا شجاعا مجيداً ، فظنه الفوضى الموكول إليه قتل ابن العاص أنه هو فقتله ٠ فقبض عليه وأدخل على عمرو ورأى الناس يسلمون على ابن العاص بما يدل على أنه أميرهم ، فسأل عنه فقيل له هو ابن العاص فسأل من قتلت إذن فقالوا : قائمقامه خارجة !

فقال لعمرو : أما والله ما أردت غيرك

قال عمرو : أردت عمراً وأراد الله خارجة !

ثم قتله ٠ والعجيب فى الأمر أن معاوية هو الآخر نجا من هذه المؤامرة وأرسل نائبا قتل مكانه٠

أما على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو خير الثلاثة وأفضلهم فقد ذهب ضحية المؤامرة ، ولم يكن نصيبه من النجاة نصيب ابن العاص أو معاوية ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدينة الفسطاط

بمناسبة صلاة الجمعة اليتيمة « بجامع عمرو »

والمطالبة بنقل كتاب المرحوم بهجت بك إلى اللغة العربية (١)

لقد فقدت مصر منذ بضع سنين عالماً فذاً فى الآثار العربية والإسلامية ، هو المرحوم على بهجت بك ، الذى خلق موفقا لإحياء ذكرى السلف الصالح من الجهة الفنية ، حتى تكاد دار الآثار العربية تكون غرس بنانه . وكان يتقن قراءة سائر الخطوط من الكوفية فما دونها سواء أكانت منقوشة على جريد النخل أو قطع العظام، أو محفورة فى الأحجار الصم أو مسقطة فى مختلف المعادن النفيسة وغيرها ، أو مدونة فى الكاغد والبردى أو مكتوبة فى القرطاس والورق .

كما أنه رحمه الله كان يتنسم ريح الأثر الصحيح الصادق ، ويدرك كنهه بمجرد النظر إليه فلا تخدعه الظواهر مهما كانت متقنة أو مشابهة للحقيقة .

ومن نوادره اللطيفة رحمه الله أنه كان يشترى لدار الآثار بضع قطع معدنية من أحد تجار « خان الخليلى » ، وقد لمح أثناء المساومة « مقلمة ودواة » من نحاس ، فأخذ يحتج لدى التاجر لغلاء الصفقة ، ويشكو عدم مجاملة التاجر للدار وهى قائمة للمنفعة العامة حتى شعر التاجر بضرورة إكرامه فى أمر من الأمور ، فطلب على بهجت بك أن يفحص المقلمة ، فلم يكن من التاجر إلا أن قدمها إلى الدار هدية ليزيل ما علق بنفس « أمين الدار » من التذمر من الغلاء . ولم تكن تلك المقلمة سوى مقلمة الإمام حجة الإسلام الغزالى !!

ولاتزال تلك المقلمة محفوظة بين الآثار فى المكان اللائق بها .

هذا الرجل الفذ ، أدى للعرب والإسلام والتاريخ ومصر والعلم خدمة لا تقدر بمال .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٢٩ فبراير سنة ١٩٣٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقد اكتشف بمحض جده واجتهاده ومثابرته على العمل « مدينة الفسطاط » وخلد اكتشافه بكتاب نفيس جداً ، أعاد مبانيها وعمائرها وسبلها وطرقها وأزقتها وميادينها وبساتينها وأسواقها وقيصرياتها (تكتب خطأ قيسارية) إلى سالف عهدها، فالناظر في هذا الكتاب ، الذى طبع فى باريس ويباع بخمسمائة قرش ، وأتيح له زيارة خرائب الفسطاط ، فقد رأى المدينة على حقيقتها ، وتجلت له عروس الفتح الإسلامى كما رسمها واختطها الصحابة عليهم رضوان الله .

بقيت مدينة الفسطاط مدفونة تحت أكوام وتلال من « السباخ الكفرى » وهو الوصف الذى يطلقه الفلاح المصرى على التراب القديم الذى يصلح سماداً لكثرة ما يحتويه من المواد العضوية .

ولم يعلم الناس سواءاً كانوا من الحكومة أم من الأمة أن بها كنوزاً وذخائر ذوات قيمة بالغة حتى وفق المرحوم على بهجت بك أمين دار الآثار لكشف الستار عن هذا المنظر التاريخى البديع ، فأضاف بذلك ثروة جديدة للعلم وللتاريخ والفنون والأدب ونقل إلى دار الآثار تحفا جديدة جعلتها تضيق على رحبها وسعتها ، عن احتوائها جميعها .

بدأ ذلك الاكتشاف فى سنة ١٩١٢ وبقى أمره سراً مكتوماً ، وقبل ذلك ببضعة أعوام كان الناس يعثرون فى الأكوام المكدسة على قطع ذهبية من نوع الدينار ، فسميت إحدى السنين ، « عام الدنانير » ، لكثرة ما وجد من هذا النقد الثمين تحت الردم وفى الطريق الموصلة إلى الفسطاط ، وطبعا كانت هذه النقود من الأموال المدخرة فى أوانى الفخار المدفونة تحت الجدران وفى حنايا الدور وخبايا القصور.

ومن العجب العاجب أنك تسأل الآن لفيفا من المتأدبين والمثقفين عن الفسطاط ، فلا يذكرون لك إلا ما قرأوه فى المقريزى وابن دقماق وابن الساعى وصبح الأعشى وابن إياس وغيرها من كتب الأدب والتاريخ العربى المصرى .

على أن كثيرين من السائحين الإفرنج جعلوا زيارة الفسطاط قبلتهم لدى بلوغهم القطر المصرى ، لمعرفة قدر تلك الآثار العربية الثمينة ، ولا سيما تلك المدينة

التى اختطتها جماعة من الصحابة وفى مقدمتهم أميرهم وقائدهم عمرو بن العاص فى مستهل العقد الثالث الهجرى .

وقد دامت هذه المدينة سبعة قرون ، أورقت فى أثنائها وأزهرت ، واستكملت زينتها واتسع نطاق حياتها وأصبحت مرتعا خصبا للمقيمين بها ، وموردا عذبا لقاصديها من مختلف الأقطار والممالك .

ثم أدركها الفناء والزوال وهو داء كل عاصمة إسلامية كبغداد وقرطبة وطليطلة ودهلى والقسطنطينية ، فقد اندلعت فى جوانبها ألسنة اللهيب بفعل حاكم ظالم ، ودامت تلك النار شهرين ، تأكل الرطب واليابس وتلتهم العمار والخراب وتقضى على ما خلفته يد الخلفاء والأمراء وأرباب الفنون والصناعات من مدهشات العمارة العربية وبدائع الفنون الإسلامية ، ودفنت كل ذلك محطما مهشما تحت أطلال من الحجارة وتلال من التراب .

ومازالت تلك المدينة فى الشرق كبومبىء فى الغرب ، تلك أهلكها بركان فيزوف الغادر ودفنها تحت حممه ، وهذه أهلكتها النار التى أطلقها حاكم غشوم مستبد لا رحمة عنده ولا عدل[1] ، فخرب تلك المدينة الفخمة التى كانت تمتد من جامع عمرو شرقاً إلى سفح المقطم ، وشمالا إلى « فم الخليج » وغربا حتى النيل وجنوبا إلى ساحل « أثر النبى ».

---

(١) هو شاور الذى تقلد منصب الوزارة بمصر فى أواخر أيام الدولة الفاطمية ، فقد أمر سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠م) بإحترام النار فى الفسطاط لما غزا عمورى ملك بيت المقدس الديار المصرية وعجز شاور عن الدفاع عنها وأراد أن يتجنب وقوعها فى أيدى الصليبيين .

يقول المقريزى فى النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٨١ ومابعدها :

« بعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرّقت فيها ، فارتفع لهيب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظراً مهولاً ، واستمرت النار تأتى على مساكن مصر لأربعة وخمسين يوماً ، ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان مصر » . (ر.ل.ج).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم تكن مدينة الفسطاط عاصمة مصر الإسلامية دون سواها ، فقد بنيت بعدها مدينة العسكر (وموقعها الآن ناحية زين العابدين والمذبح) وكان ذلك فى العقد الرابع من القرن الثانى الهجرى .

وفى أواخر القرن الثالث بنى الأمير ابن طولون مدينة القطايع ، على مقربة من « العسكر » وقد دام مجد هذه المدينة الأرستقراطية ثلاثين عاما من ٢٦٢ - ٢٩٢هـ .

وفى أواسط القرن الرابع أسس الفاطميون مدينة القاهرة ، وسكن الأمراء قصراً فى حى الجمالية (نسبة إلى الوزير جمال الدين) وبقيت الرعية والشعب فى الفسطاط .

ولأجل تقريب هذه الحوادث إلى ذهن القارىء نضرب له مثلا بخروج أهل القاهرة إلى ضاحية الزيتون والمطرية وتعميرها بالقصور والمنازل والبساتين النضرة، ثم هبوط تلك « المودة » واتجاه الأعيان والأجانب نحو الزمالك وبر الجيزة وبناء العمائر الجميلة الغالية واتخاذها مسكنا للأمراء وذوى المكانة، ثم إنشاء ضاحية مصر الجديدة وتحول فريق عظيم من السراة إليها ، وهكذا تنمو المدن ويتصل العمران كما هى العادة فى كل العواصم الكبرى ، غير أنه لاتوجد من هذه المدن كلها، بلد أسوأ مناخاً ولا أردأ موضعا وأفسد هواء وأجلب ضررا للصحة وأبعد عن القواعد الصحيحة فى اختيار المواقع من مدينة القاهرة المبنية فى حضن الجبل ، تهب عليها ريح السموم صيفا والأهوية الغربية شتاء ، ويذر اختناقها فى جوف الوادى ، وجوه أهلها صفرا فاقعة ألوانها ، وأمزجتهم عكرة بغير صفاء فى سائر فصول العام، ولم نجد مؤرخا ولا رحالة أدرك هذا السر فى تدهور صحة أهل القاهرة وانقباض صدورهم وفساد أذواقهم غير عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر فى عهد الملك الكامل منذ ثلاثين وتسعمائة عام ، وأدرك سوء اختيار البقعة لبناء القاهرة، سوء اختيار عللوه أسوأ تعليل ، ولا مبرر له فى نظرنا إلا جهل المهندسين بطبيعة البقاع ، ومجارى الرياح .

مسكين عمر بن الخطاب ، لقد احتسبوا عليه كلاما من أسخف ما سجله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التاريخ على عظيم ، فقد نسبوا إليه أنه أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية اكتفاء بالقرآن الشريف ، وقد ظهر فساد هذه الخرافة التى دفع على إذاعتها تعصب أعداء الإسلام ، وكان أول من أثبت بطلانها جيبون المؤرخ الإنجليزى الشهير فى الجزء الثانى من كتابه « اضمحلال دولة الرومان وسقوطها » .

ونسبوا إليه بشأن بناء الفسطاط وتعميرها كلاما سخيفا لا يمكن أن يصدر عن عقله وحكمته ، فإن ابن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب فى زعمهم يستأذنه فى سكنى الإسكندرية وجعلها عاصمة القطر المصرى كما كانت قبل الإسلام ، لأنه لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها همَّ بأن يسكنها وقال « مساكن قد كفيناها » أى أنه لن يحتاج إلى تأسيس مدينة جديدة ، وكان رسول ابن العاص إليه فى هذا الاستئذان معاوية بن خديج الكندى .

ولما كان من القواعد التى سار عليها عمر ألا يكون بينه وبين حاضرة من حواضر الإسلام ما يحول بينه وبينهم ، سأل رسول ابن العاص إليه :

- هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟
- نعم يا أمير المؤمنين ! إذا جرى النيل

فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص الكتاب الآتى :

« إنى لا أحب أن ينزل المسلمون بمنزل يحول فيه الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف ! فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتى ، متى أقدم عليكم قدمت ! » .

فتحول عمرو والمسلمون من الإسكندرية إلى مصر .

وهذه الرواية مكذوبة ومختلقة لأسباب :

أولها : ليس لدينا الثبت أو الوثيقة ، وهو كتاب عمر إلى عمرو ، ليكون بداية ثبوت بالكتابة فالخبر فاقد للدليل المادى .

ثانيا : بنى المؤرخ اختيار عمرو الإسكندرية على أنه وجد بها مبانى ومساكن ، فقال « مساكن قد كفيناها » وأنه اكتشف تلك المساكن بعد فتح الإسكندرية مما يدل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أن ابن العاص كان جاهلا بعمار الإسكندرية ، وهذا ينقضه ما أثبته بطلر المؤرخ الإنجليزى فى تاريخ « فتوح العرب لمصر » من أن ابن العاص ورفيقا له زارا القطر المصرى قبل الفتح مستكشفين وأنهما أقاما بالإسكندرية أياماً وغشيا مجالسها ومعاهدها وملاعبها وملاهيها ، وكان ابن العاص يمنّى نفسه بفتحها ، وهذا كاف فى أنه رأى مساكنها ومبانيها ، فلما دخلها فاتحا لم يكن جاهلا بما فيها من القصور والمبانى حتى يقول « مساكن قد كفيناها » .

ثالثا : أن العرب لايتخذون العاصمة على شاطىء البحر وهم لا أسطول لهم ، ويتركون الأماكن التى دخلوا منها البلاد وهى بمثابة المعاقل للدولة ، فقد تؤتى مصر من موضع غزوتها إذ يكون العرب فى الإسكندرية بعيدين عن وسط البلاد وروحها ، كما كان الرومان لدى دخول العرب .

رابعا : استحالة صدور هذا القول عن عمر ، لأنه يدل على الجبن والجهل والغفلة ، والرضى بدون القليل من الغزوات ، لأن أعظم المدن وأكبرها يفصلها الماء عن جزيرة العرب . وما حاجة أمير المؤمنين بركوب دابة من مكة إلى بغداد أو الإسكندرية أو كلكتا أو طهران ، وهل كان عمر من السراة الذين يشترون الضياع ويشترطون سهولة المواصلات إليها « على السكة الزراعية » أو « بالعربية الملاكى»؟!

وإذا كان أصغر جندى ، وأضعف بدوى فى حملة ابن العاص قد بلغ مصر وخاض عباب النيل فى زورق أو مركب أو على جسر ، فهل يعجز أمير المؤمنين عن الذى قدر عليه شريك الغطيفى ، وعمرو بن قحزم الخولانى ؟

ولكن بعض مؤرخى العرب ميالون لتعليل كل شىء ولو تعليلاً فاسداً غير معقول، فقد أرادوا تعليل تسمية الفسطاط ، فادعوا أن ابن العاص لما أراد التوجه لفتح الإسكندرية أمر بنزع فسطاطه ، فإذا فيها يمام قد فرخ ، فقال عمرو « لقد تحرمت بجوارنا ! أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها ! » .

وحقيقة الأمر أن عمرو بن العاص إنما اختار موضع الفسطاط لأن به حصنا (هو الآن قصر الشمع والمعلقة) وكان ينزل به المندوب السامى الرومانى المتولى

مصر من قبل القياصرة ملوك الروم في طريقه من الإسكندرية ، وكان الحصن مطلا على النيل وتصل السفن إلى بابه القبلي الذي كان يعرف بباب الحديد ، ومن هذا الباب ركب المقوقس (؟ !!) ومعه حاشية من الأقباط سفينة حين استولى المسلمون على الحصن ، ولجأ إلى جزيرة الروضة .

وقد كشفت لجنة الآثار العربية عن هذا الباب أثناء اشتغالها بالبرج الاثرى ، وهو يوجد حيال محطة « مارجرجس » على خط حلوان .

فيرى مما تقدم أن ابن العاص اختار موضع الفسطاط لموقعه الحربي وقربه من النيل وتوسطه بلاد القطر المصرى ، وجودة المناخ ، فقد كان المكان فضاء رحبا بين النيل والجبل ، وكان في شمالى الحصن (بحرى) أشجار وكروم ، وأرض المكان وما حوله في أعلى درجات الخصوبة .

ولما كانت البقعة حافلة بالديرة والبيع والكنائس والديارات ، رأى عمرو بسبب النعرة الدينية أن يشيد له جامعا كما فعل النبي لدى دخول المدينة فاختط مسجده الجامع واختطت قبائل العرب من حوله فصارت « مدينة الفسطاط » ... وبعد الجامع ، بنى عمرو داره والدار التي بجوارها ، وبنى ابنه عبد الله لنفسه داراً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سفينة الإمام الشافعى وقارب آمون (١)

أرسل إلينا أديب يقول إنه منذ فترة قصيرة من الزمن قرأ مقالنا عن السفينة التى لمحناها بأعلى قبة ضريح الإمام الشافعى وهى من نحاس وما دار بشأنها من حوار عن الحكمة فى وضعها فوق قبة الضريح(٢) . وما كان من أمر الأستاذ الذى تطوع بالجواب فقال : « إن السفينة فى أعلى الضريح رمز على أن صاحبه بحر فى العلوم » وهو تعليل خيالى طريف لا نظنه دار بخلد الذى شاد الضريح ووضع السفينة بأعلى القبة !

ولو كان ضريح الإمام رضى الله عنه هو الوحيد الذى تفرد بوجود السفينة لصح فى الأذهان أن يكون ما أدلى به الأستاذ هو التعليل الصحيح ، ولكن أمثال هذه السفينة كثير فى أضرحة الأولياء ، فلابد إذن لوجودها من سبب غير الذى تطوع الشيخ بذكره .

إن أكثر عاداتنا وتقاليدنا الدينية ترجع إلى عهود الفراعنة وقد غرست بذورها فى الوثنية الأولى ، وعندى أن عادة وضع القوارب فى المساجد والأضرحة هى من هذا القبيل وهى أثر من معتقدات الأقدمين بأنه منذ خلق العالم ، خلق نهران أحدهما النيل فى مصر والثانى فى السماء ، وأن لآمون رع إله الشمس سفينة تمخر به عباب نهر السماء من الشرق إلى الغرب ، فإذا بلغت المغرب انحدرت من ثم إلى عالم الظلمات وعليها الإله مسجى فى أكفانه ويلبث كذلك طول رحلته فى مناطقه الاثنتى عشرة حتى ترد إليه الحياة فيكون بعثه مؤذناً بشروق الشمس من جديد !

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى عامود المؤلف بجريدة البلاغ « لعل وعسى » .

(٢) من الآراء التى قيلت فى تعليل وضع هذه السفينة فوق الأضرحة أنها كانت وعاء توضع فيه الحبوب لتلتقطها الطير فى غدوها ورواحها (ر.ل.ج).

كان ذلك منشأ عقيدة البعث عندهم ، فقد ذهبوا إلى القول بأنه كما تغرب الشمس ثم تبعث ، هكذا يموت الناس ثم يبعثون ، وجعلوا مقابرهم إلى الغرب من مساكنهم ، وتتميز سفينة آمون رع بألوان شتى فى خطوط أفقية منها الأبيض والأحمر والأزرق والأصفر ، وكان المصريون يرون فيها رمزاً للألوهية ويحيطونها بضروب من التقديس ولكنهم لايعبدونها .

فأضافها الناس إلى مظاهر تكريم الأولياء بعد زوال الوثنية لتبقى لها حرمتها فى النفوس ، ولاتزال إحداها حتى يومنا محاطة ببعض ما كان لمثيلاتها من العناية والتكريم فى ضريح سيدنا العارف بالله أبى الحجاج الأقصرى المدفون بأحد أركان معبد الأقصر ، ففى يوم مولده تحمل السفينة بعد أن تطلى بثلاثة ألوان أفقية أزرق وأبيض وأحمر على مركبة ، والناس من خلفها ينادون « آمون يا آمون !» وهم يحسبون ذلك النداء نداء تكريم ليس عليهم فيه من بأس ، وهم إنما يحيون سنة أسلافهم الأقدمين الذين كانوا يكرمون السفينة . وإذا علمت أن الأقصر تضم أكبر معابد آمون رع وأن مسجد أبى الحجاج نفسه قائم على جزء من أحدها ، أدركت معنى هذا الهتاف وانكشف لك السر فى بقاء هذا الاحتفال رغم تغير الدين وكر الأجيال والسنين .

وقد شهدنا لدى زيارتنا الأخيرة للأقصر مسجد سيدنا العارف بالله أبى الحجاج الأقصرى وهو مدفون بالزاوية الشرقية لمعبد الأقصر وقد قامت مأذنته بجمال وجلال وشجاعة حيال الأعمدة الضخمة الشامخة التى تزين أركان المعبد وساحاته ، ولما تبعنا وصف دليل بديكر درنا حول الحائط الشمالى إلى أن بلغنا موضع المسلة والتمثالين الغائر أحدهما فى التراب ، فرأينا باب المسجد وبجواره سفينتان ملونتان بالأبيض والأحمر والأزرق ، وقد كتب على كل منهما « هذه سفينة سيدى أبى الحجاج » وعلى إحداهما « مدد ! » ، فسألت رجلا رأيته فى حرم المسجد فأقر بأنهما سفينتا الضريح وأنهما تزفّان يوم المولد فى نصف شعبان من كل عام ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتشعيان بالأغانى والأناشيد [١] ، وقد أبى أن يعيد على سمعى الألفاظ التى تقال فى الاحتفال ، وعلى مسافة ضئيلة من المسجد ثلاثة معابد أعظمها لآمون والآخر لمت والثالث لخنوص (إله القمر) وقد زين معبد آمون بالقارب الإلهى الذى ورد ذكره فى مستهل هذه العجالة ، فلا أعلم إن كان ذلك امتداداً للوثنية فى هذا العصر أم أن أبا الحجاج كان ملاحا أو رئيسا للملاحين ! ولعل العلماء يزيدوننا إيضاحا فى هذه النقطة .

---

(١) انظر مقال المؤلف « أعياد الأمم ، أعياد مصر قديما وحديثاً » فى كتابه « مباحث فى الفولكلور » ، ص ٧٢ - ٧٨ ، طبعة عالم الكتب ، سنة ١٩٩٩ ، وكذا طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سنة ١٩٩٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب جديد قيم فى « الفنون الإسلامية » فى عهد الأمويين والعباسيين وبنى طولون (١)

يقيم فى القاهرة منذ بضع سنين عالم إنجليزى هو القبطان ك . أ . كرزويل ، وقد انقطع للبحث فى الفنون الإسلامية لاسيما فن العمارة وانبرى للتأليف فيه فوضع كتابا أثريا خالداً جعل عنوانه « العمارة الإسلامية فى العصور الأولى لعهد بنى أمية والعباسيين وآل طولون » .

وقد بدء فعلا بطبع هذا الكتاب ورأينا أكثر من مائة صفحة منه مطبوعة بالقطع الكبير ، وسيكون الكتاب فى ٣٢٠ صفحة شاملا لمائة وأربعين صورة كبيرة تمثل مناظر المبانى الإسلامية فى تلك العصور . وسيكون الجزء الأول مقصوراً على عهد بنى أمية أى من سنة ٦٢٢ إلى ٧٥٠ بعد الميلاد ، والمؤلف الذى انقطع لهذا التأليف يبلغ الخمسين من عمره وسبب اشتغاله بالفنون الإسلامية أنه حصل على كتاب «ألف ليلة وليلة » لما كان عمره ست سنين وقرأه فشغل بحب الفنون الشرقية والآداب الإسلامية وشعر بميل شديد نحو الشرق والشرقيين .

واقتضت ظروف الحرب الكبرى أن يزور مصر فزارها منذ أربعة عشر عاما ، وفى سنة ١٩١٩ اشتغل بزيارة سوريا وفلسطين ورؤية آثارها ، فلما كان فى أنحاء سوريا وفلسطين ورأى الآثار الإسلامية ، صحت عزيمته على التأليف فى هذا الموضوع الجليل ، فجمع شتات الكتب التى لها مساس بآثار الإسلام والشرق ، وقرأ أكثر من مائة وعشرين كتابا عن آثار العمارة الإسلامية فى بلاد الفرس وكتب أكثر من ألف ومائتى صفحة بأسماء الكتب التى يجب الرجوع إليها وجمع ١٤٠٠٠ مذكرة بما ينفعه لدى التأليف ، وقد عضدته بعض الجهات العليا فى خطواته الأولى ، ولما كانت غاية المؤلف هى وصف الآثار الإسلامية فى مصر ، لم يكن له بد من التأليف

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٧ مايو سنة ١٩٣٠.

فى الفنون الإسلامية عامة ليكون ذلك مقدمة تسهل للقارىء فهم الآثار الإسلامية ، ولذا قد بدأ بدراسة فن العمارة الإسلامى منذ ظهور الإسلام ، فبدأ بمسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة وبالمساجد التى شيدت بعد الفتح الإسلامى فى سوريا والعراق وبلاد الفرس .

وقد قضى المؤلف أكثر من عشر سنين فى الاستعداد لكتابه وجمع مواده وتصوير مناظره ورسم خططه وقد لمَّ شتات ألف وخمسمائة كتاب باللغات الأوروبية التى يعرفها وهى الإنجليزية والفرنسية والألمانية ، وتلك الكتب تشمل مباحث فى الشرق الأدنى والأقصى ، حتى بلاد الهند وشمال أفريقيا .

ويستنتج من آراء المؤلف أن الفن الإسلامى فن مزدوج ، فإن المسلمين حيث حطوا رحالهم شادوا مبانى تشبه المبانى القديمة التى يجدونها فى البلاد المفتوحة ، ففى الشام أبقوا على الطراز الشامى أى المبانى التى بعضها رومانى وبعضها بيزنطى أو إسرائيلى ، وفى العراق أبقوا على الطراز العراقى ، وفى بلاد الفرس احتفظوا بالخطوط والمربعات والدوائر الفارسية .

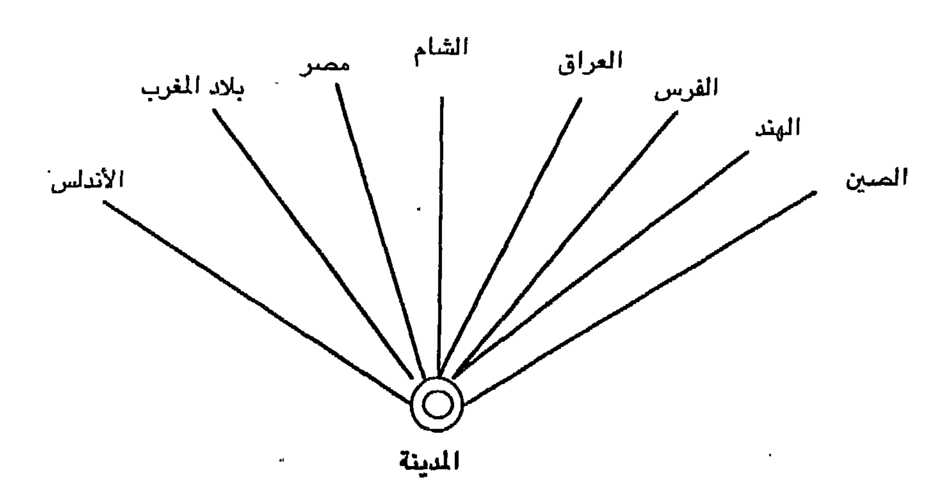
ولأجل أن يضرب لذلك مثلا روى قصة المسجد الذى بناه فى الكوفة زياد بن أبيه فقال إن أول مسجد بنى فى الكوفة كان دليلا على البساطة الفطرية ، فقد وقف رجل فى وسط قطعة أرض فسيحة ورمى عن قوسه أربعة أسهم أمامه وخلفه وذات اليمين وذات الشمال وحيثما وقعت تلك السهوم أمر الوالى بحفر خنادق مستطيلة ثم جعل المحراب فى موضعه وجعل فوق رؤوس المصلين سقيفة صغيرة . وكان هذا أول مسجد للمسلمين فى الكوفة ، قطعة أرض محدودة بأربعة خنادق .

أما المسجد الثانى الذى بناه ابن أبيه فقد جاء من أعظم المساجد وأفخمها ، والسر فى ذلك أن زياداً دعا كبار المهندسين والبنائين لزيارته ، فلما حضروا أعرب لهم عن رغبته فى تشييد مسجد ، وكان هؤلاء المهندسون حديثى عهد بتشييد المعابد الكبرى وعندهم علم عظيم بفنون بناء القصور والقلاع ولديهم قواعد علمية محفوظة من أسلافهم وأساتذتهم وهم يكتمونها فى صدورهم ويعتبرونها ذات قيمة عظمى

ويحرصون عليها فلا تذاع ، فأخذوا يشرحون للحاكم المسلم طريقة بناء المسجد ويظهرون له مهارتهم ، وهم يظنون أنه يعلم مايقصد إلية ويريد الوقوف منهم على قدر معرفتهم ، فكانوا كلما قالوا شيئا أجابهم بقوله « هذا هو الذى كنت أريده وأنا عاجز عن الإفصاح عنه » ، فأخذوا فى تشييد المسجد كما أراد فنهم الدقيق وهم يعتقدون أنها رغبة مولاهم ، والحقيقة أن علمهم هو الذى أوحى لهم طريقة البناء .

وكلما قلبنا أجفاننا فى السبعين صفحة التى نجز طبعها ، أدركنا أن المؤلف حاول أن يجعل كتابه أجمع الكتب لفن العمارة الإسلامى فى الثلاثة القرون الأولى للمدنية العربية .

وغنى عن البيان أن العرب لم يكن لهم فن فى العمارة ، وإن كانت لهم بعض المبانى المشهورة قد شيدت على هيئة الحصون والقلاع والقصور ولكنها فى الواقع كانت مبانى فطرية ، ولم تدان شيئا من المبانى الفخمة التى قامت بعد ظهور الإسلام ! ، وهذا لا ينقص من قدر العرب مطلقا لأنهم قوم رحالة ينزلون الوديان ويألفون الخيام وبلادهم شديدة القيظ قليلة المطر فلا حاجة بهم إلى الجدران ، ولكن لما انتشر الإسلام على هيئة مروحة كما يصفه علماء الإفرنج ويمثلونه هكذا :



احتك بفنون للعمارة مختلفة ومتباينة ، ففى يساره سوريا بمبانيها الهيلانية

ودقة عمائرها المتقنة ، وعن يمينه بلاد العراق وبلاد الفرس وهى تمثل دولة آل ساسان القديمة بقبابها وأقواسها وبوائكها المصنوعة من الطوب ، ولما كانت سوريا مركز الخلافة ومقر السلطان لعهد بنى أمية ، كان الطراز السورى هو السائد فى المبانى ، فلما انتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد انتقل معها الذوق والطراز وصارت الغلبة للطريقة الفارسية والعراقية كما حدث فى تاريخ الرومان عند انتقال العاصمة من رومة إلى بيزنطة .

وعند ذلك ولدت الفنون العباسية وأخذ الفن الإسلامى للمرة الأولى يتخذ شكلا قائما بذاته وشخصية مستقلة .

وقد انتشر الفن الإسلامى العباسى شرقا وغربا فظهر فى فارس ثم أدخله أحمد ابن طولون إلى القطر المصرى .

وقد يتناول المؤلف كل أثر من تلك الآثار الإسلامية ويبحثه من ثلاث جهات : فهو يسرد تاريخه معتمداً على أوثق المصادر العربية والإفرنجية ، ثم ينتقل إلى وصفه وصفا تاما وتحليل ما بقى منه ، ثم ينتقل إلى الكلام على دواعى الإيحاء والإبداع الفكرى التى أخرجت الأثر من حيث التصميم إلى حيز التنفيذ المادى . وهو لا يكتفى بالرسم الهندسى الذى يبين أصول الأثر ، بل يزيد عليها الصور الفوتوغرافية المتقنة ، فقد أخذ لمسجد الصخرة نحو تسعين صورة شمسية وبعضها خاص بنقوش الفسيفساء التى لاتجارى والتى لاتزال محفوظة من العطب حفظا مدهشا ، وللمرة الأولى يرى القراء صور الفسيفساء للمسجد الأعظم بدمشق .

فبينا القارىء يقرأ فصلا عن مساجد المدينة والبصرة والكوفة ومبحثا عن القبلة والمنبر ، إذا هو ينتقل إلى الكلام على مساجد أورشليم والفسطاط ومباحث عن المقصورة والمأذنة وعن مسجد الصخرة أو قبة الصخرة وجامع دمشق الأعظم ومأذنة القيروان وقصر عمر أو حمام الصراخ ومسجد قصير الحلابات وقصر الطوبة وتأسيس بغداد وبناء مسجدها وقلاعها وقصر الأخيضر وجامع قرطبة الكبير (وهو من عجائبها الأربع) وجامع عمرو بالفسطاط وسمرا (سر من رأى) ومقياس النيل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالروضة وجامع الثلاثة أبواب (ثلاث بيبان) بالقيروان وساقيات البساتين بمواسيرها الأكوادوكية وجامع ابن طولون وجامع دير السرياني وجامع حماة وتفسير انقلابه من كنيسة إلى مسجد .

ومما يعجبنا في مباحث المؤلف أنه في كثير من الأمور الأساسية تعمق إلى درجة بعيدة حتى رد الأمور إلى أصولها ، فمن ذلك محاولة مراجعة مؤلفات العلماء في هندسة البناء التي يرجع جمال المباني في بعض الممالك إلى الأشكال الهندسية الأساسية التي جعلت مصدراً أوليا لتلك المباني ، فقد قال بعضهم باتخاذ المثلث قاعدة لكثير من الآثار الكبيرة وأن هذا كان هو السر في ظهور تلك الآثار بمظهر الجمال في عين الرائي وما ذلك إلا لوجود نسبة معينة بين رأس المثلث وضلعيه وقاعدته ، وقد أثبت ذلك ديولافوا في كلامه عن المقبرة التي بناها الشاه محمد خودا بندا في السلطانية في سنة ١٣٠٧ وفي المسجد الكبير الذي بني في رباط ما بين ٥٨٥ و ٥٩٥ هجرية ، وربما توجد هذه الفكرة في غيرهما من المباني الإسلامية لو تحرينا البحث عنها ، وقد أظهر بابان أن نظام المثلث الأساسي في المباني قد استعمل في الهياكل الإغريقية وأن ارتفاع الوجهة وعمق العتب والفرجة ما بين الأعمدة تؤيد تلك النسبة تأييدا حسابيا . وأثبت ديهيو بأبحاث واسعة النطاق أن تلك الطريقة بنسبتها قد استعملت عند اليونان والرومان والبيزنطيين والقوطيين ، وهذه الفكرة قديمة جداً وظاهرة في أهرام الجيزة حيث توجد أدلة فنية تثبتها ولا سيما النسبة بين الارتفاع وبين محيط القاعدة ، فهي كالنسبة بين الخط الذي يقسم الدائرة إلى قسمين مارا بمركزها وبين محيطها .

وهذه الفكرة لم ترد في الكتب ، وهذا لا يقلل من قدرها لأنها تعد من أسرار الصناعات التي لم يكن يبوح بها الأساتذة لتلاميذهم إلا بعد الأقسام والأيمان المحرجة .

ولا يخفى أن الاحتفاظ بهذه النسبة الدقيقة في المباني ينقلها من صخريتها الصماء إلى معان موسيقية جميلة تطرب لها النفس بعد انتقال صورتها إلى العقل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بواسطة العين كما تطرب لأنغام الموسيقى التى تمر بالأذن .

وإننا ننتظر ظهور الكتاب بفروغ صبر لننقل منه إلى قراء العربية ما ينفعهم عن آثار أجدادهم العظماء .

ومما يزيد فى قدر هذا الكتاب أن مؤلفه الأستاذ كريزويل يعد فى نظر العلماء الأخصائيين فى الآثار الشرقية أكبر ثقة فى العمارة الإسلامية ، فقد ندبته شركة طبع دليل بديكر الشهير لوضع الفصل الخاص بالعمارة الإسلامية لطبعة ١٩٢٩ فجاء فى ثلاث عشرة صفحة بالحرف الصغير حوت كل ما يهم الاطلاع عليه من تاريخ آثارنا الإسلامية المجيدة . كما أنه واضع قائمة الكتب الخاصة بالعمارة الإسلامية فى الهند وقد بلغت مائة صفحة بالقطع الكبير وضمتها معلمة الآثار الهندية The Indian Antiquary فى المجلد الواحد بعد الخمسين فى الصفحات ٨١ - ١٠٨ و ١٦٥ - ١٧٩ وطبعت فى بومباى سنة ١٩٢٢ ، وقد ألف رسالة فى المسجد الأقصى نشرته مجلة بيزانطيون فى المجلد الرابع (١٩٢٧ - ١٩٢٨) وقد نقلت تلك الرسالة من الأصل الإنجليزى إلى الفرنسية وطبعت فى لياج ببلجيكا سنة ١٩٢٩ ، وقد انتهى المؤلف إلى نتيجة حاسمة فى مسألة المسجد الأقصى فجزم بأن عمر بنى مسجداً فى مكان الهيكل القديم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفسير عظمة الحجاج بن يوسف الثقفى
تعقيباً على بحث فى تفسير طغيانه (١)

كتب الأديب الفاضل الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك، فى عدد يونيو سنة ١٩٤٦ من مجلة الكتاب الغراء، بحثاً طريفاً عن الحجاج بن يوسف الثقفى، يريد به تفسير طغيان هذا الحاكم الجبار، وهو يعلل طغيانه الذى سجله بعض مؤرخى العرب بدمامته وضعف جسمه، وقصر قامته واعتلال صحته، والتواء نفسه وثورته على المجتمع ونفور النساء منه، ومرضه بالسرطان المعوى أو المعدى. ولا ندرى كيف وصل الأستاذ الأديب إلى تشخيص هذا المرض ما لم يكن مرجعه الكاتب الفرنسى چان برييه. فإذا كان الحجاج مات فى الثانية والخمسين من عمره فلا يقوم هذا دليلاً على وفاته بهذا الداء.

وإنما أراد الأستاذ الفاضل أن يبحث عن مفتاح حياة الحجاج على الطريقة الحديثة حتى اهتدى إلى تعليل قسوته وظلمه بما وصفه سيجموند فرويد بالعقدة النفسية الناشئة عن مركب النقص. وهذا فتح جديد فى تطبيقه على تراجم مشاهير العرب، وإن بعدت المسافة وتطاولت الدهور بيننا وبينهم، وقد لاح لى أن تاريخ العرب كما كتبه المؤرخون لا يصلح أن يكون مرجعاً علمياً فى مثل هذه المسألة الدقيقة، لأن تاريخ العرب انقلب فى أيدى المؤرخين لوناً من الأدب المكتوب. وقد تصلح الدراسة النفسية فى حالة الأحياء والمتعاصرين لسهولة الرجوع إلى المصادر الوثيقة، وأضرب مثلاً لذلك ما كتبه النقاد الفرنسيون فى تراجم بول فيرلين وشارل بودلير، وهما من مفاليك شعراء القرن التاسع عشر، ولم تمنعهما الفلاكة وإدمان الخمر وانحلال العصر وانحطاط الأخلاق عن بلوغ ذروة المجد الفنى وتأسيس المدرسة الرمزية فى الشعر الفرنسى، وقد نجح النقاد فى التأريخ لهما، لأن الذين كتبوا عنهما

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الكتاب، عدد أغسطس سنة ١٩٤٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عاصروهما وسجلوا سائر شؤونهما، وتحروا الحقيقة فى مصادرها، وأسهبوا إسهاباً بالغاً فى الاغتراف من بحر الوثائق التاريخية الصحيحة .

أما الكتاب المحدثون أمثال إميل لدفيج الألمانى وطناً ولغة، واليهودى جنساً وملّة، فقد أفسد التراجم حين ابتدع لون التأريخ الرومنتيكى، بسرد حياة العظماء على صورة القصة الفنية، ومن قبله صنع ذلك توماس كارليل فى حياة الأبطال، ولم يبلغ أحدهما شأو بلوطرخوس فى تراجمه لكبار الإغريق والرومان، لأنه خلط الحقيقة بالخيال، وإن لم يترك شاردة ولا واردة من أخبار عظمائه إلا أحصاها، وهذه الطريقة الأدبية الفنية فى كتابة التاريخ لا تصلح سنداً للثقافة الحديثة، مع الاعتراف بجمالها أو حذق مبتكريها. وكذلك العرب لم يحاولوا فيما أعلم تدوين تراجم دقيقة لأبطال الإسلام، ولم يتقنوا إلا تسجيل الأخبار القصيرة، وأطالوا فى رواية الشعر، فكان فى الأغلب المصدر الصحيح لسيرة الشعراء ومفتاح حياتهم، فضلاً عن أن المؤرخين أطاعوا أهواء الملوك .

*****

وأحب أن أبادر بأن بعض كتاب العرب عرفوا مركب النقص ولكنهم لم يتخذوه وسيلة لتعليل معايب الأخلاق عند العظماء، وإنما ذكروه مشفوعاً بما اتخذه العظماء من وسائل فى مقاومة عقدتهم النفسية ومحاربة مركب النقص، ليظهروا بمظاهر الكمال وتمام القدرة. ولم تكن المعايب البدنية سبباً فى إغراقهم أو التواء أنفسهم، فقد كان زيد بن جندب أشفى أفلح، ولم يمنع هذان العيبان فى فمه اشتهاره بالخطابة. ومن الخطباء من كان أروق وأشدق، أو أضجم أو أفقم، وهو اعوجاج فى الفم وركوب السن الشفة، بل كان الأحنف الكبير على كثرة عيوب بدنه حكيم العرب وخطيبهم وحازمهم وياقعتهم ومقدمهم. قال عبد الملك بن عمير : «قدم علينا الأحنف الكوفة مع مصعب بن الزبير، فما رأيت خصلة تذم فى رجل إلا وقد رأيتها فيه، كان أصعل الرأس (يعنى دقيق الرأس، ودقة الرأس تدل من يحكم بظاهر الأمور على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صغر العقل) أحجن الأنف، أغضف الأذن، متراكب الأسنان، أشدق مائل الذقن، ناتئ الوجنة (ونتوء الوجنة من أدلة الميل إلى الإجرام فى رأى لمبروزو، مع أن الأحنف كان من حماة الفضيلة) باخق العين (أى أعور) أحنف الرأس (ومن هنا كان اسمه ! ...)، ولكنه إذا تكلم أعجز وبهر، وفتن العقول وخلب الألباب، وأقر كل من سمعه عن قرب أو عن بعد بفصاحته ولباقته، وحكمته، وجلال رأيه، وجمال نفسه، وكمال عقله، وذاع اسمه فى الآفاق، وما يزال ذكره مقروناً بالحلم وبالحكمة والهمة والعدل وفصل الخطاب» .

وكان واصل بن عطاء شيخُ المعتزلة الأشهر مصاباً بلثغة شديدة فى حرف الراء ينطقها لاماً، فتجئ قبيحة، لأنها تحكى نطق الأطفال، والراء من أكثر حروف الهجاء تردداً فى الحديث والخطابة، ولكن رجاحة عقل واصل صانته عن زلل اللسان، فاستغنى فى كلامه وخطبه عن الراء بتاتاً، حتى وصفه الشاعر بقوله :

ويجعل البُرَّ قمحاً فى تصرفه — وجانبَ الراء حتى احتال للشعرِ

ولم يطق مطراً والقول يجعله — فعاد بالغيث إشفاقاً من المطرِ

وسأل أحد أتباع واصل : كيف كان يصنع فى العدد بعشرة وعشرين وأربعين وكيف كان يصنع بالقمر والبدر ورمضان ورجب (وكلها ذوات راءٍ ؟) فأجابه بشعر صفوان :

مُلَقَّن ملهم فيما يحاوله — جمٌّ خواطره جوّابُ آفاق

وقد ذكرنا هذا القليل من عيوب الذات والمنطق عند بعض فحول المشاهير، أمثال الأحنف وواصل بن عطاء وزيد بن جندب، لندلل على أن مركبات النقص كانت معروفة عند العرب، ولا سيما فى القرن الأول الذى عاش فيه الحجاج، ولكنهم لم يعيروه التفاتاً، ولم يتخذوا منه سبباً لانحطاط الرجال أو تشويه أخلاقهم.

لقد عرف العرب كل مركبات النقص التى زعم فرويد أنه اكتشفها، وفى مقدمتها زلة اللسان Lapsus Lingue وهى من أدق مركبات النقص وأكثرها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شيوعاً. كان محمد بن راشد البجلي يتغدى وبين يديه شبوطة (لون من الطعام) وخياط يقطع له ثياباً، ورآه يلحظ الشبوطة، فقال ابن راشد : قد زعمت أن الثوب يحتاج إلى خرقة (أى تكملة من القماش) فكم مقدارها ؟ فأجاب الخياط : ذراع فى عرض الشبوطة (وهو يقصد فى عرض القماش !). ودخل آخر على رجل يأكل أترجة بالعسل، فأراد أن يقول : السلام عليكم، فقال : عسليكم (لانشغال باله بالعسل). ودخلت جارية رومية على راشد البستى لتسأله عن صحة زوجته، فبصرت بحمار فى الدار فقالت : مولاى كيف ... حماركم ؟

وليست العبرة بذكر هذه الزلات الطارئة، ولكن العبرة بفطنة الأدباء إلى تدوينها واستنتاج ما يترتب عليها. وقد وصفوا الحجاج ورووا خطبه، وذكروا مظالمه وجبروته وشدته وتعسفه فى الأحكام وقوة شكيمته، ولكنهم لم يحاولوا ربط تلك المعايب بما ظهر من الغلظة فى أقواله وأفعاله. وإنما ذكروا القسوة والشدة فى مجال التنديد بقوته وهو حاكم يسوس الخلق وينظم الدولة ويطفئ ثورة الخوارج ويردع البغاة وينفذ أوامر الخلفاء ويخضع للشريعة ويطيع القانون ويعامل كل محكوم بما يستحق فى نظره. ولا يغيب عن ذهننا أن عصر الحجاج كان عصر فتنة وثورة وكان أعداء النظام والحضارة أكثر من الموالين لهما، والعرب فى عنفوانهم حديثو العهد بالإسلام، قريبو الصلة بالجاهلية والحمية والأنفة والفطرة البدوية. وإلا فأين شدة الحجاج فى القرن الأول الهجرى من شدة جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك الأعرج، بل من طغيان هتلر وموسولينى وفرنكو وعشرات أمثالهم من رجال العصور الحديثة، عصور المدنية والإنسانية ؟

*****

عابوا على الحجاج أنه كان معلم صبيان، وقد درج العامة على وصف المعلمين بالحماقة ظلماً. ومن أمثالهم «أحمق من معلم كتّاب !» وذكرهم صقلاب الشاعر بقوله :

وكيف يُرجى العقل والرأى عند من ... يروح على أنثى ويغدو على طفل ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى قول بعض الحكماء : «لا تستشيروا معلماً ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء»، مع أن رعاة الغنم من أعقل الناس، وكان الأنبياء كلهم رعاة، وفى مقدمتهم إبراهيم الخليل، ثم إسحق ويعقوب، وكذلك كان موسى، ومحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، رعى غنماً فى بطحاء مكة. ولم يبق لأمثال هذه الخرافة سبب ولا وجه يقبل، وإنما هى العداوات الشخصية وأحقاد المهنة ورغبة الانتقاص. والمعلمون فى كل وطن أعلام الزمان ومصابيح الهداية. بيد أنه لم يثبت بصفة قاطعة أن الحجاج كان معلم كتّاب، ولكن أبوه كان معلماً، ولم يصل داء التعليم إلى العدوى بالوراثة .

ثم إن كل قاض مسلم فى العصر الأول، وكل وال وكل قائد، كان فقيهاً، والفقيه معلم بطبيعته، وكان الحسن البصرى من أعلام المتصوفة والفقهاء وأهل الحكمة والعدل معلماً، وكذلك كان واصل بن عطاء، وكذلك كان سقراط وأرسطو وأفلاطون وكنت وهيجل، كما كان الغزالى وابن الهيثم أساتذة ومعلمين، وهم أئمة الفلسفة فى المدنيتين الغربية والشرقية، ولم يتهمهم أحد بالحماقة ، ولكن نار العداء التى أشعلها الحجاج بفصاحته وقوة بديهته وإقدامه وصرامة أحكامه، فى زمن كانت فيه الصرامة واجبة لاستتباب أمور الدولة، حركت الألسنة والأقلام للحملة عليه. ولم يقم أحد من المؤرخين المنصفين بردّ اعتباره كما فعلوا فى فرنسا فى حق روبسبيير ومارات، وهما من أكبر الخطباء الأحرار والمصلحين الأبرار، ولكن عصرهما كان عصر فتنة، وكان أتباع الملكية وأنصار العهد القديم، عهد الاستبداد، أعزّ مالاً ونفراً، وأقدر على الكتابة والنشر وتدويخ خصومهم وتشويه سمعتهم حتى بعد موتهم .

******

فعلينا إن أردنا النقد التاريخى، وهو خير وبركة، أن نتبع أولاً طريقة البحث Méthode كما جلاها ديكرت فى كتابه ، وأفاض فيها هيجل في « فلسفة التاريخ»، وكما فعل أستاذ الأجيال ابن خلدون وتبعه وقلده بوكل الإنجليزى فى « تاريخ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحضارة الإنجليزية». وإن كانت الشهرة العامة عن قسوة الحجاج قد غلبته أحياناً، لا يجوز لي أن أنسى أن الحجاج كان الدعامة التي قامت عليها الدولة الأموية ، وهي أعظم دول الإسلام قاطبة ، والأساس الذي كانت بدونه تنهار الدولة ولا تصل إلى العباسيين ، ولا تدوم الحضارة في الشام والعراق ومصر سبعة قرون ، إلى أن دمرها التتار بقيادة هولاكو. بيد أن الثورات التي نشبت في العراق نفسه ، ولا سيما ثورتا شبيب الشيباني (٧٧هـ) وثورة ابن الأشعث (٨١هـ) لم يقو على القضاء عليها قائد ولا حاكم سوى الحجاج .

*****

لم يعيبوا على الحجاج دمامته واعتلال صحته وسرطانه (؟!) ومهنة التعليم التي لم يمارسها وحسب، بل عابوا عليه أيضاً انتسابه إلى ثقيف ! نعم إني لم أضمر حبا لأهل الطائف عاصمة ثقيف، لأنهم أساءوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام في يوم قائظ وهو يدعوهم إلى الإسلام، ولكن لا أعيب عليهم شدتهم في دفاعهم عن وطنهم في الحروب الأولى، ولا أنتقد تمسكهم بدينهم الوثني قبل أن يتثبّتوا من حقيقة الإسلام. وعلى كل حال فلم يكونوا أكثر قسوة على النبي عليه الصلاة والسلام من أهله وقومه وبني وطنه وعشيرته الأقربين، وإن كانوا همّوا بالردة فقد ارتد قوم من قريش مسقط رأس الرسول وموطن الخلفاء الراشدين، ولكن كلمة واحدة من عثمان ابن عفان ردت ثقيفاً إلى رشدها. قال عيسى بن يزيد : « ولما همت ثقيف بالارتداد قال لهم عثمان : معاشر ثقيف، لا تكونوا آخر العرب إسلاماً وأولهم ارتداداً فسمعوا وأطاعوا ».

أما فيما خلا هذا فقد كانت الطائف وما حولها، من أخصب الأرض وأكثرها خيراً وأنبتها لنوابغ الرجال في الفروسية والشعر والشجاعة والسياسة، ولم يكن الحجاج عجباً بينهم، بل كان من أهل المواهب المعروفة، لسبب طبيعة الأرض ونقاوة الإنسان وجمال الموضع وارتفاع الجبال، وجمال النساء، وعفة الرجال وحكمتهم .

قال عثمان بن أبى العاصى الثقفى لبنيه «يابنى قد أمجدتكم فى أمهاتكم، وأحسنت فى مهنة أموالكم وإنى ما جلست فى ظل رجل من ثقيف أشتم عرضه، والناكح مغترس، لينظر امرؤ حيث يضع غرسه، والعرق السوء قلما ينجب ولو بعد حين» ، فسمعه ابن عباس فقال : ياغلام اكتب لنا هذا الحديث (رواية عيسى بن يزيد ابن دأب في الأغانى) .

ومن فحول شعرائهم أبو محجن الثقفى الشهير بقصيدته التى يقول فيها :

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا وأترك مشدوداً علىَّ وثاقيـــا

*****

وحقيقة الأمر أن الحجاج كان مكروهاً من أهل العراق وحدهم، وهم قوم ورثوا أهل بابل وآشور، وكانوا قبل الإسلام يعبدون الكواكب، ومنهم الصابئة، وبعث الله لهم أنبياء كثيرين لم يهتدوا بهم، ومنهم إبراهيم الخليل (بلده أور الكلدانيين)، ونوح الذى دعا عليهم دعوات مجلجلة، ويونس فأرهقوه حتى ألقى بنفسه في اليم فابتلعه الحوت. وكان دأب هؤلاء القوم قديماً الخضوع للقوة والشدة، كما روى المؤرخون عن ملكهم حمورابى بعد سارجون الأول، فليس عجيباً أن يبغضوا في صدر الإسلام حاكماً قوى الشكيمة ، مع قرب عهدهم بالوثنية ، وجوارهم للفرس والكلدان .

وكان يعاصر الحجاج شيخ صالح خطيب لسن، هو جامع المحاربى. قال للحجاج حين بنى مدينة واسط : «بنيتها فى غير بلدك وأورثتها غير ولدك !». ولما شكا له الحجاج سوء طاعة أهل العراق وتنقم مذهبهم وتسخط طريقتهم، قال له جامع المحاربى : «أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شنئوك لنسبك ولا لبلدك ولا لذات نفسك، فدع ما يبعدهم منك إلى ما يقربهم إليك، والتمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك » .

أى إن جامعاً المحاربى الخطيب الفطن المعاصر للحجاج لم ير شيئاً من معايب الحجاج الجسمية أو النفسية سببا في كراهة أهل العراق له، ولكن انتقد طريقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكمه، وتلك الطريقة لم يخترها الحجاج إلا بعد التفكير والاختبار. ولذا نجد الحجاج بعد موعظة جامع المحاربي يدعو الله فيقول : «اللهم أرنى الغى غياً فأجتنبه ، وأرنى الهدى هدى فأتبعه ،.ولا تكلنى إلى نفسى فأضل ضلالاً بعيداً، والله ما أحب أن ما مضى من الدنيا.بعمامتى هذه ، ولما بقى أشبه من الماء بالماء ». فهل هذا كلام الطغاة الجبابرة وأول ما يخطر ببالهم أن يجحدوا النعمة وينكروا الألوهية ، ويزعموا التحكم فى الخلائق والتصرف فى العباد ؟!

وقد ذكر الأستاذ الفاضل فريد أبو حديد بك أن الحجاج لم يعرف الإنسانية، ولم يكن له صديق، فما قوله في ذلك الحوار وتلك المناجاة والدعوة الحارة الصادقة !

لقد اكتوى الحجاج بنار العراق وملأه الغيظ، ولذا تراه فى خطبه يصفهم وصف الخبير المجرب، بل وصف عالم النفس العريق فى علم الأخلاق. فقد خطبهم بعد معركة دير الجماجم التى خذلوه فيها أمام ابن الأشعث، خطبة من نار، ولم ينس أن أهل العراق كانوا سبباً فى هزيمة علىّ ونزول الحسن عن الخلافة رغم أنفه، ثم فى مصرع الحسين بن على. قال الحجاج يشرح حاله مع الرعية : «إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة ! هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاو، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع، إلا تبعتموه وأويتموه ونصرتموه ورحبتموه ؟»

وقد ظن الحجاج من شدة ما لقى من أهل العراق أن الشيطان نفسه قد استبطنهم، فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف، ولكنه فى نفس الموقف الذى خطب فيه تلك الخطبة النارية، وقبل أن يتنفس، التفت إلى أهل الشام فى عطف ودعة وعرفان للجميل، وقال : «ياأهل الشام ! إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه، ينفى عنها المدر، ويباعد عنها الحجر، ويكنّها من المطر، ويحميها من الضباب، ويحرسها من الذئاب، يا أهل الشام أنتم الجُنَّة والرداء، وأنتم العدة والحذاء » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهل يعقل أن رجلاً واحداً يجمع بين هاتين العاطفتين فى طرفة عين، إن لم يكن شاعراً بالحنان والشكر والوفاء والأمانه والعفة لأهل الشام، وبنقيض هذه جميعاً حيال القوم الذين أذاقوه المر، وهو يريد صلاحهم وتعمير ديارهم، ونصرتهم على أعدائهم ؟. لو كان الحجاج قاسياً في خطبة أهل الشام قسوته على أهل العراق، لأمكن القول بأنه طاغية جبار لا يفرق بين قوم وآخرين، شأن الطغاة البغاة المستبدين، ولكنه حاكم حصيف مميز، لا يضع السيف موضع الندى، ولا يضع الندى موضع السيف، ولكنه يكيل لكل فريق بالكيل الذى يستحقه .

*****

ودير الجماجم الذى اختصه الحجاج بالذكر كان علماً على معركة دامية، هزم فيها جيش الحجاج بسبب تردد أهل العراق فى ثورتهم التى رفع رايتها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وهو من فضلاء الفقهاء والقواد، وقد تبعه قوم كثير، ولكن الغلبة كانت أخيراً للحجاج لثباته وحنكته. ومع تقديرنا العظيم لابن الأشعث وأسباب حركته الثورية، لا يسعنا إلا ذكر غروره وتعجله، فقد قاتل الحجاج فى المريد كما قاتله فى الزاوية ودير الجماجم، فأخذه الزهو قبل النصر، فخطب الناس فقال : «أيها الناس ! إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذنب الوزغة، تضرب بها يميناً وشمالاً، فما تلبث إلا أن تموت !» فمر به رجل من قشير فقال : «قبح الله هذا ورأيه، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس، ويعدهم الأضاليل، ويمنيهم الباطل !» .

وهذا الرجل من بنى قشير يشبه كثيراً من يسمونه فى العصر الحاضر «رجل الشارع»، الذى ينطق بالحكمة دون معرفة سابقة أو خبرة ظاهرة، وكثيراً ما يصدق ظنه وتتحقق خواطره. فقد انتصر الحجاج فى النهاية على ابن الأشعث، وانجلت المواقع عن فوز الوزغة التى لم يبق إلا ذيلها، لأن الحجاج كان بصيراً بالحرب والسياسة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم تكن خطب الحجاج كلها لاذعة محرقة كما يتوهم بعض المتحاملين عليه، ولم يكن دائماً مقذعاً، بل كان كثيراً ما يعظ الناس وعظاً عالياً، وينثر عليهم دراً غالياً. فقد روى مالك بن دينار، وهو من الشيوخ المحدثين، قال : غدوت إلى الجمعة فجلست قريباً من المنبر، فصعد الحجاج المنبر، ثم قال : «امرؤ زوّر عمله، امرؤ حاسب نفسه، امرؤ فكر فيما يقرؤه فى صحيفته، ويراه فى ميزانه، امرؤ كان عند قلبه زاجراً، وعند همه ذاكراً، امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله، فإن قاده إلى طاعة الله قبله وتبعه، وإن قاده إلى معصية الله كفه» .

وتروى هذه الخطبة بتمامها فى «فصل ما روى عن الحجاج من الكلمات النافعة» ص ١٢٨ وما بعدها من ج ٩ من كتاب البداية والنهاية فى التاريخ للإمام الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسمعيل بن عمر القرشى المعروف بابن كثير، طبع مصر. ولم يكن مالك بن دينار وحده الذى يعنى بصلاة الجمعة مع الحجاج، بل كان للحسن البصرى إمام زمانه فى الفقه والتصوف والحديث عناية به، واهتمام بأقواله وأفعاله .

*****

كتب الأستاذ الفاضل فريد أبو حديد بك أن الحجاج كان فى مسلكه مع الخلفاء الذين يستطيعون عزله يظهر نوعاً من الذلة عجيباً، يحار المؤرخ فى تفسيره، وأنه إنما كان ينبعث فى حياته عن نفس تضمر الشعور بالذلة (ص ٢١٢ ج ٨ مجلة الكتاب)، وفى تاريخ خلفاء بنى أمية أنهم كانوا يتملقون عملاءهم وقوادهم، وفى مقدمتهم الحجاج، فلما استعمل يزيد بن أبى مسلم بعد الحجاج قال : «أنا كمن سقط منه درهم فوجد ديناراً»، وفى هذه الكلمة من تمليق العامل الجديد (ابن أبى مسلم) على حساب العامل القديم (الحجاج) ما فيها، قال يزيد لابن مسلم : «قال أبى (يقصد الوليد بن عبد الملك) للحجاج : إنما أنت جلدة ما بين عينى وأنا أقول : إنك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جلدة وجهى كله». فهذا الخليفة الأموى يتقلب بين التمليق فى حضرة عامله، وبين التقليل من قدره فى غيبته وبعد وفاته. ولم يكن الحجاج على شئ من النفاق حتى يذل لهذا الخليفة الذى صعد المنبر يوماً فقال : «على بن أبى طالب لُص ابن لُص ابن لُص صب عليه شؤبوب عذاب» ! فقال أعرابى كان تحت المنبر: «ما يقول أميركم هذا ؟ وفى قوله لص ابن لص أعجوبتان. إحداهما رميه على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه بأنه لص، والأخرى أنه بلغ من جهله ما لم يجهله أحد، أنه ضم اللام فى لص» .

ولا يمكن اعتبار الحجاج عبداً ذليلاً لأمثال هؤلاء الخلفاء، كما أراد الأستاذ الأديب فريد بك أن يصوره عندما قال : «إن الحجاج لم يكن ملكاً ولم يكن له الفضل فى بناء دولة من الدول، لأنه إنما كان يسطو بسيف وضع له فى يده، ويدل بسلطان لم يكن له فضل فى بنائه». وكذلك كان الخلفاء الوارثون بعد وفيات مؤسسى الدول، كمعاوية، وحتى معاوية كان يتقرب إلى القائد النابغ الذى صان كيان دولته وهزم أعدائه وهو زيد بن أبيه، فكافأه بأن ألحقه بنسبه، أخاً لأب، ورفعه إلى درجة الإمارة وأسماه زياد بن أبى سفيان. وهذه الحال بين الملوك والوزراء والقواد ما تزال شائعة فى عصرنا هذا، فإن الملك فكتور عمانوئيل هو الذى وضع السيف فى يد بينيتو موسولينى وسلمه زمام الدولة، وأطلق عليه لقب الدتشي، وحياه بتحية الفاشست، ثم تنكر له عند هزيمته. وكذلك الرئيس هندنبرج، رفع هتلر إلى مقام المستشار، ومهد له سبيل الحكم .

فإن أردنا أن نتخذ من التاريخ أدلة على سير الأمور وتسلسل الحوادث، فلنذكر دائماً الحقائق كاملة لاستنباط النتائج الصحيحة، فنرى أن كل ما يبنى على تذلل الحجاج للخلفاء طمعاً فى رضائهم ثم انقلابه على الرعية لينتقم منهم بالقسوة وسفك الدماء تعويضاً عن مذلته لسادته، إنما بنى على تحكم بعيد عن النصفة، ولا سيما ما قاله الأستاذ فريد بك «فكانت قسوته على المحكومين مقرونة إلى جانب ذلته

أمام الخلفاء، وهما معاً يدلان على أنه إنما كان ينبعث فى حياته عن نفس تضمر الشعور بالذلة، ويلتمس الوسائل للتعويض عنها كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً» - لأن الحجاج كان فى كل أحواله صادقاً مخلصاً لمبدئه وفكرته، وكان الجد فى الحياة أظهر صفاته، شأن كل رجل يقطع العمر فى نضال عنيف، بعيداً عن العواطف الرخوة والضعف الذى تقتضيه الرفاهية والدعة والطراوة التى درج عليها كثير ممن كانوا فى مكانته أو أقل منها، سواءاً فى زمنه أو فى زمننا هذا. والدليل على جده وعدله واعتداله أن أبا الحسن الماوردى روى فى «أدب الدنيا والدين» : أن الحجاج خطب يوم جمعة فأطال الخطبة فقال رجل (وكانت للرعية شجاعة فى الحق حتى مع الحجاج) : «إن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك» فحبسه الحجاج، فأتاه أهل الرجل وكلموه فيه، وقالوا : إنه مجنون ! فقال الحجاج : إن أقر بالجنون خليت سبيله، فقيل له : أقر بالجنون ، فقال الرجل : لا والله ! لا أزعم أنه ابتلانى وقد عافانى! فأعجب الحجاج بجوابه، وعفا عنه لصراحته وإبائه أن يفترى على الله، ويتهم نفسه بالجنون باطلاً ليخرج نفسه من الحبس».

ومن أهم أخبار الحجاج عن حفيد عمار بن ياسر قال : «خرج الحجاج يريد العراق والياً عليها فى اثنى عشر راكباً على النجائب حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار، فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله، ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز، حتى إذا اجتمع الناس فى المسجد قام فكشف عن وجهه، ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفونى

إلى آخر الخبر الذى فيه قوله : «إن أمير المؤمنين عبد الله بن مروان نثر كنانته، ثم عجم عيدانها، فوجدنى أمرها عوداً وأصلبها عموداً، فوجهنى إليكم» ثم قدومه ملثماً وكشفه عن وجهه بعد ذلك، سر ذلك أن العرب اتخذوا اللثام لأنه أهيب فى الصدور، وأجل فى العيون، والمتقنع أروع من الحاسر، وطرح القناع ملابسة

وابتذال ومؤانسة ومقاربة، وقديماً قالوا من تطؤه العيون تطؤه الأقدام .

فلم يكن الحجاج إذن ظالماً ولا متعنتاً ولا متصنعاً، وإنما كان يتبع قواعد الحكم الصالح، ويترسم خطى السلف من الصحابة والتابعين .

وكان الحسن البصرى يعتبر الحجاج سيفاً من سيوف الله، يجعلها للانتقام من الأمم الظالمة، فقال عنه يوماً : «كان الحجاج يتلو كتاب الله على لخم وجذام، ويعظ عظة الأزارقة، ويبطش بطش الجبارين، اتقوا الله فإن عند الله حجاجين كثيراً». وليس فى هذا القول مبالغة لمن يعرف بنى أمية ودولتهم (انظر خطبة أبى حمزة يحيى ابن المختار أحد نساك الأباضية وخطبائهم، ص ٦١ ج ١ من البيان والتبيين للجاحظ) .

أما أسباب نجاح الحجاج وشهرته، فلا ترجع إلى قسوته وشدته أو إهراق الدماء، إنما ترجع إلى رجاحة عقله، وعدم تقيده بالأوهام، واستقلال فكره، وإقدامه وصدق عزمه وبصره بالحرب والسياسة، وفصاحة لسانه وبلاغة كلامه، وهو مدين فى هذا لجنسه العربى وثقافته واجتهاده وأدبه، فقد كان كل شئ مما له صلة بالقول والرأى للعرب بديهة وارتجالاً، وكأنه إلهام. وليست هناك معاناه ولا مكابرة ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام. وكان الحجاج فارس هذا الميدان، وبطل هذه الطريقة، وإمام الفن فى عصره، فما هو إلا أن يصرف إرادته إلى العمود الذى إليه يقصد، فتأتيه المعانى أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحداً من صحبه. وقد امتاز العرب على كل الأمم بهذه الخصوصية، فكان للهند معان مدونة وكتب مجلدة متوارثة على وجه الدهر، وللإغريق فلسفة وصناعة منطق، وقد كان صاحب المنطق نفسه (أرسطو) بكئ اللسان غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه، وفى الفرس خطباء، إلا أن كل كلامهم وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد وخلوة، وعن

مشاورة ومعاونة، وعن دراسة كتب، فكانت حكاية الثانى علم الأول، وزيادة الثالث من علم الثانى، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم ٠

فوجب على الناقد والمؤرخ أن يشيد بفضل كل عربى أحيا تلك الموهبة الجليلة، وشق لنفسه طريقاً فى الحياة بالحرب والسياسة، ثم بالفصاحة ورجاحة الرأى وقوة الشكيمة وحفظ كيان الدولة، وأن نعد الحجاج وأضرابه - وهم قليل - من مفاخر الحضارة العربية، وحماة اللسان العربى، وبناة الوحدة العربية، وأصحاب الفضل فيما نستمتع به من ثمار الأدب والبلاغة والفنون الرفيعة، مما شغف به علماء المشرقيات، وصرفوا فيه أعمارهم، وبذلوا أموالهم. ولا سيما أن الحجاج كان محسوداً من الأغيار، كالفرس والكلدان، الذين نفسوا عليه فصاحته وحصافته وسطوته وسلطانه وحسن تصريفه الأمور، فحرضوا أهل العراق على قتله، ومن هؤلاء الحساد المحرضين على عصيانه وخيانته ابن بصيهرى البابلى، حين شكا إليه الدهاقين الحجاج، قال : أخبرونى أين مولده ؟ قالوا : الحجاز، قال : ضعيف معجب (لحقده على أهل الحجاز قاطبة) قال : فمنشؤه ؟ قالوا : الشام، قال : ذلك شر وأنكى! ثم قال : ما أحسن حالكم إن لم تبتلوا معه بكاتب منكم (يعنى من أهل بابل) فابتلوا بزاذان فروخ الأعور !! ... ثم ضرب لهم مثلاً فقال : إن فأساً ليس فيها عود ألقى بين الشجر، فقال بعض الشجر لبعض : ما ألقى هذا هاهنا لخير ! قال : فقالت شجرة عارية : إن لم يدخل فى إست هذا منكن عود فلا تخفنه. أى أن الفأس وهى قطعة من الحديد لا تصلح لقطع الشجر إلا بعود من الشجر نفسه، فإن لم يوضع لها العود لتمسك به ما استطاع إنسان أن يقطع بها فرعاً. كذلك الكاتب البابلى يدل الحاكم الأجنبى على عورات أمته، فيعرف أمورها ويتمكن منها. وهذا المثل صالح فى الاستعمار الحديث، فإن معظم أعوان المستعمرين فى الشرق من أهل الشرق أنفسهم، كما كانت الحال فى أول عهد العرب بالحكم فى البلاد التى

فتحوها .

فتأمل هذه الدعاية الفارسية تارة، والكلدانية طوراً، ضد الحجاج، ثم ثورة الخوارج، وفتنة شبيب الشيباني، وثورة عبد الرحمن بن الأشعث، ورعونة بعض الخلفاء ونفاقهم، وتغلب أهل العراق وعبادتهم أهوائهم، تجده بطلاً من أبطال الحرب والسياسة ودعامة قوية من دعائم الحكم العربي، ورائداً من رواد العظمة الشرقية، ومؤسساً في مقدمة بناة الدولة الأموية .

وهذا هو الذي يعني التاريخ ويعنينا، أكثر مما لو كان بغيضاً إلى النساء، أو جميل الصورة، أو مديد القامة صحيح البدن. فإن عبرة التاريخ في حياة الرجال بجلائل الأعمال، لا بمركبات النقص التي ابتدعها أمثال فرويد ليفتّوا في عضد أهل هذا العصر الحديث، فأبت سعة اطلاع الأستاذ فريد بك وتوقد ذهنه إلا أن يطبقها على من ماتوا من أبطالنا منذ اثني عشر قرناً [١] .

---

(١) المراجع :

(١) الأغاني .

(٢) البداية والنهاية .

(٣) أدب الدنيا والدين .

(٤) البيان والتبيين .

(٥) نيكلسون تاريخ الأدب العربي .

(٦) ماسنيون «ثورة ابن الأشعث» في الجزء الأول من كتابه عن الحلاج .

(٧) مجلة العالم الإسلامي طبع باريس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حادثة البرامكة
لغز من ألغاز التاريخ [1]

- ١ -

كنا قلبنا النظر في صفحات مروج الذهب للمسعودي ج ٤ ص ٣٦١ قبل أن نكتب النبذة السالفة عن مصرع البرامكة[2]، وقد أسفنا على فقد كتاب الخلفاء الكبير كذلك كتاب التاريخ على السنين لأبي عبد الرحمن بن عدي الكرجي وكتاب الوزراء لأبي بكر محمد بن يحيى ، ولكن يعزينا عثورنا على بعض المعلومات في «الأوراق في أخبار آل عباس » وتاريخ الطبري وعبد الجليل اليزدي. على أن كتاب الخلفاء الكبير لأبي الحسن المدائني قد يكون هو وكتاب الوزراء أهم المصادر التي يركن المنقب إليها في درس تاريخ البرامكة ، ويوجد في دار الكتب المصرية مخطوط من (الأوراق في أخبار آل عباس) لأبي بكر الصولي مؤلف كتاب الوزراء (تاريخ عدد ٥٩٥ ص ١٦ ج ٥ من الفهرست العربي المطبوع طبعة أولى) وهذا المخطوط مخروم من أوله ، وقد ورد في الكتاب ذكر أبان شاعر البرامكة وفيه فصل (أخبار أبان متصلة مع البرامكة) وترجمة شعرية لكليلة ودمنة من نظم أبان وهي الترجمة التي أجازه عليها سادته البرامكة جوائز كبرى .

ولو تركنا تلك الكتب الفاقدة والناقصة جانبا ، لم نجد مصدرا لتاريخ هذه الأسرة سوى كتابي المعارف والإمامة والسياسة ثم كتاب تاريخ الرسل والملك للطبري وهو أكمل المصادر لتاريخ الدولة العباسية ولكنه خال من ذكر أصول البرامكة ، وكذلك يرجع الفضل لليعقوبي أحد معاصري الطبري في جمع بعض

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة المساء في ١٠ يناير سنة ١٩٣١ .

(٢) تجدر الإشارة إلى أن هناك مقالاً سابقاً للمؤلف عنوانه « نكبة البرامكة أحد ألغاز التاريخ » ، نشر بجريدة المساء في ١٩٣٠/٩/٢٥ ، ولكن لم نوفق إلى العثور عليه .

المعلومات عن البرامكة فى كتابى التأريخ (بالهمز) و (البلدان) ، ولعل القارىء يعلم أن مروج الذهب للمسعودى ليست سوى صورة وجيزة مختصرة لكتاب (أخبار الزمان) والكتاب الأوسط ، وقد أفرغ المسعودى جهده فى جمع كل ما وصل إليه علمه وعلم معاصريه عن البرامكة وأخبارهم وروى أنهم فى بداية أمرهم فرس وسدنة لمعبد (نوبهار) البوذى ببلخ ٠

وقد شوه التاريخ حقيقة هذا المعبد فنسبته الأساطير الأولى لعبادة النار ، وأن البرامكة أسلموا فى القرن الأول للهجرة ثم قصدوا بلاط الخلفاء الأمويين لأسباب مجهولة وكان لهم ولذكائهم وثروتهم أثر عظيم لدى الخليفة عبد الملك ومازال هذا الأثر يكبر وينمو حتى بلغ قمته فى عهد بنى العباس ، وكان من أمرهم فى الوزارة والمجد والنكبة التى تلت ما كان ٠ ولكن الكتابين اللذين اختصرهما المسعودى فى المروج مفقودان ولم يعوضنا عنهما بشىء مما ورد فى مؤلفات الجاحظ ولا فى كتاب الأغانى وإن كانت تشمل بعض المعلومات النافعة ، وقد اعتمد الأصبهانى والجاحظ على مصادر شفوية جيدة لا سيما ما تلقاه عن إبراهيم الموصلى وولده إسحق وعمران الصيرافى وابن مناذر شاعر البرامكة والحسن بن يحيى أحد أحفاد الفضل ابن الربيع وغيرهم ٠

ومن الثابت أن ابن خلكان وهو من سلالة البرامكة قد عُنى فى وفيات الأعيان بتراجم يحيى والفضل وجعفر ، هذا عدا « تاريخ آل البرامكة » لعبد الجليل اليزدى و«إكرام الناس فى تاريخ آل برمك وإعلام الناس مما وقع للبرامكة مع بنى العباس» وهو كتاب شائع وينطوى على أخبار كثيرة بعضها مرذول منبوذ ٠ وقد رأينا تاريخ آل برمك لعبد الجليل اليزدى فى المكتبة الوطنية بباريس (سبتمبر سنة ١٩٠٩)، وإليك نص صفحته الأولى «هذا كتاب تواريخ آل برمك رحمهم الله تعالى وتبارك من مؤلفات عبد الجليل اليزدى أفاض الله سجلّ مغفرته على تربة مقبرته ، بدأت كتابته لسلطان الأقاليم السلطان سليم ٠ نور الله مرقده ، وفى عيش السعداء أرغده ٠٠٠ وختمت لولده الخاقان باسط الأمن والأمان ٠ وارث ملك سليمان السلطان سليمان

طوّل الله عمره ، وبسّر أمره ، اللهم كما زينت صحايف العواطف بطغراء حمدك الوارف ، احفظ ساحة سرادق جلاله من عروض الوقائع ووقوع المخاوف، آمين بحرمة محمد الأمين عليه أفضل الصلوات وعلى آله أجمعين إلى ساعة قيام يوم الدين » .

ولو أننا عددنا المصادر السالفة الذكر من الطبقة الأولى بالنسبة لدرجة أربابها ، فلا يجوز لنا أن نغفل المصادر الأخرى التى تعد فى الطبقة الثانية أمثال الآثار الباقية ومجمل التواريخ وشرح قصيدة ابن عبدون والكامل فى التواريخ ومختصر تاريخ الدول وكتاب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق وكتاب الأنباء فى تاريخ الخلفاء ومختصر أخبار الخلفاء والمختصر فى تاريخ البشر وكتاب العبر وحبيب السير وأحسن المسالك لأخبار البرامك ليوسف بن محمد الميلاوى وقد ذكرنا المؤلف لأنه على تأخره ادعى أنه أول من دون تاريخ البرامكة حيث قال :

« ممن وصف بها فى دولة الإسلام ، وتليت مآثرهم فيها على ألسنة الأيام ، وأجمع على اجتماعها فيهم أجناس الناس ، بنو برمك وزراء بنى عباس . ومع ذلك لم يفردهم أحد بتأليف (كذا) ، ولا أعرفهم التصنيف، أما ما ذكر لهم المؤرخون أخبارا متعددة وآثارا غير منضدة ، لا يظفر بها إلا من تتبع كتب الأخبار ، وطالع تواريخ الأعصار ، فخطر لى أن أجمع ما تفرق من أخبارهم ، وأجدد ما أخلق الدهر من آثارهم».

وكذلك تاريخ سيرة البرامكة وكتاب يحيى بن خالد فى الأدب . وقد ذكرنا كتاب إعلام الناس لمحمد دياب الإتليدى الذى حاول وضع الرواية أو القصة التاريخية على أسلوب كتاب ألف ليلة وليلة الذى لم يخل من ذكر البرامكة والعباسيين ، وآخر من كتب فى هذا الموضوع المرحوم صديقنا العالم العامل الذى أحيا فخر الأوائل الأستاذ جورج زيدان ، فألف (العباسة أخت الرشيد) التى نشرت تباعا فى مجلته ثم نقلت إلى اللغة الفرنسية فى جريدة الفيجارو سنة ١٩١٢ والذى نقلها هو الأستاذ شارل موليه وأعانه الأديب بيطار وأخذتها جريدة كوميديا

ونشرتها تباعا كما فعلت الفيجارو ، وحيث ذكرنا قصة زيدان لا يفوتنا أن نذكر كتابه تاريخ التمدن الإسلامى الذى شمل كثيرا من المباحث الخاصة بالبرامكة عند الكلام فى تاريخ العباسيين .

كذلك كتاب حضارة الإسلام فى دار السلام لجميل نخله المدور طبع القاهرة ١٩٠٥، وقد لقينا جميلا هذا المنسوب إليه هذا الكتاب البديع البليغ وكان يعمل فى جريدة المؤيد لتلخيص مقالاته إعدادا للمجموعة التى عزم الشيخ على يوسف على إصدارها ، وحادثناه وأظهرنا دهشتنا للمرحوم سليم سركيس من التناقض الظاهر بين الرجل وكتابه الذى هو دائرة معارف علوم وآداب، فأسرَّ لنا المرحوم سركيس أن والد جميل نخلة هو الذى ألف الكتاب وإنما نسبه إلى ابنه تعزيزا لقدره وسعيا منه وراء منفعته . ونحن نروى هذه الرواية على علاتها ونقلا عن المرحوم سركيس ويعرفها كثيرون من الأحياء ، ويا حبذا لو تقدم أحد لكشف القناع عن هذا اللغز فى تاريخ الأدب العربى الحديث الذى يشبه ما قيل مرارا عن كتاب عيسى بن هشام وناقشناه فى بعض مقالاتنا الماضية [1].

٢ - أصل البرامكة

يظهر مؤكدا أن البرامكة ينتمون إلى أصل فارسى ، وأنهم كانوا سدنة هيكل نوبهار وهو هيكل عبدت فيه الأوثان فى بلخ ويرجع تاريخ تأسيسه إلى أجيال عديدة قبل الإسلام .

وروى عمر بن الأزرق من أهل القرن الثالث الهجرى أنه قبل ملوك الطوائف كان البرامكة سادة قومهم وكانوا يعبدون الأصنام فسمعوا عن مكة والكعبة وعن

---

(١) انظر ما كتبه المؤلف عن كتاب « حديث عيسى بن هشام » فى كتابه « فى الأدب والنقد » ، ص ٢٥٨ - ٢٦٥ ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠ م .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ديانة قريش فبنوا فى وسط مدينة بلخ هيكلا يشبه الكعبة وملأوه بالأصنام وغطوا جدرانه بالمخمل ورصعوها بالجواهر والأحجار الكريمة ، ويترجم الكرمانى كلمة نوبيهار(بالربيع الجديد) وسبب تلك التسمية أن الهيكل بنى فى وقت ظهور الريحان الذى لطخت به الجدران ٠

وقد وصفه مؤرخو العرب بالفخامة والضخامة وعظم القباب وتعدد القاعات والزوايا والخلوات وأسهبوا فى وصف ما كان يحيط به من الأوقاف والضياع التى حبست على خدمته والاحتفاظ به ، وكثرة عدد الحجيج الذين كانوا يقصدون إليه من كل فج ٠

وتضاربوا فى نوع العبادات التى كانت تقام فيه ، فقال بعضهم إنه كان هيكلا بوذياً وقال آخرون إنه كان مجوسيا لعبادة النار ، وقال آخرون إنه كان قاصرا على عبادة الأصنام تقليدا لكعبة مكة قبل الإسلام ٠

وانفرد المسعودى بقوله إنه كان هيكلا خاصا بعبادة القمر وروى أنه كان مكتوبا على مدخله العظيم باللغة الفارسية مايأتى :

(قال بودسب : ينبغى لبلاط الملك أن يتحلى بخلال ثلاث : الذكاء والصبر والمال)٠ وفوق هذه الكتابة ، وجدت عبارة أخرى بالعربية وهذا نصها (لقد كذب بودسب٠ إذا نال واحد من الخلق إحدى هذه النعم الثلاث فيجب عليه أن يفر من وجه الملوك) ٠

ويظهر أن سادن الهيكل الأعظم كان يلقب (برمك) وكان من حقوقه إدارة ثروة المعبد والملوك أنفسهم يخضعون له ٠

وتوجد مصادر صينية لتاريخ هذا الهيكل هى ما كتبه هيون سنج وأى تسنج اللذان قاما فى بلخ فى القرن الأول الهجرى وقالا إن (نوبيهار) لم يكن سوى (نافا فيهارار) السنكسريتية ومعناها المعبد الجديد ولم يكن سوى معبد بوذى ، وأتيا على وصف الهيكل ومحتوياته مما أيد بوذيّته ، وقال أحد المؤرخين الصينيين السابق ذكرهما : « إن هذا الهيكل كان ملتقى السبيل للأمم البعيدة والقريبة والرجال ذوى

المواهب وقد يصعب علينا ذكر الرجال الذين نالوا بين جدرانه درجات القداسة الأربع . ولعهدنا هذا يوجد نحو مائة عابد لا يألون جهدا فى العبادة والخدمة الدائمة » .

ولم يذكر الحجيج البوذى شيئا عن كلمة برمك . ويرجع الفضل للأستاذ كون فى تفسير الكلمة فقال إنها محرفة عن (باراماكة) السنسكريتية ومعناها الرئيس أو الزعيم . فهذا الاسم إذن يرجع إلى عهد ظهور البوذية فى بلخ . ولعل هيكل بوذا هذا بعد أن هدم أو تحطم أعيد بناؤه وتحول هيكلا مجوسيا تعبد فيه النار وبذلك يمكن التوفيق بين الأسطورتين .

وقد روى الطبرى أن أنوشروان لما وصل إلى العرش استوزر برمك سليل تلك الأسرة التى كانت تخدم الهيكل وهذا البرمك هو جد برامكة الأسرة الأموية والدولة العباسية ، وروى نظام الملك أنه منذ عهد أزدشير صار البرامكة وزراء أباً عن جد وولدا عن والد وقد انحصرت الوزارة فيهم بغير استثناء ، وكانوا يؤلفون كتبا فى فنون الحكم والإدارة ويلقنونها أولادهم فيستظهرونها لتنفعهم فى أعمالهم عند توليهم الوزارة .

قيل فلما بلغ الخليفة سليمان غاية مجده أراد أن يكون بجانبه وزير جدير به وبمكانته فنصح له عشراؤه أن يستقدم وزيرا من البرامكة فأرسل إلى بلخ فى طلب خالد بن برمك .

وقيل إن البرامكة ينحدرون من أصلاب ملوك الفرس .

أما فيما يتعلق بانتحالهم الإسلام فقد روى أن سادن الهيكل لعهد الخليفة عثمان اعتنق الإسلام . فلما عاد إلى بلخ اضطهده أهلها وخلعوه من سدانة الهيكل وعينوا ولده . فقلد أباه بعد قليل . فغضب لذلك طارخان نازك أحد ملوك الترك المجاورين له وأنّبه على ترك دين آبائه وأجداده وهدده بالزحف عليه ، فهدده البرمكى بتدخل الخليفة المسلم . فلجأ الملك التركى للحيلة وتظاهر بالابتعاد إلى أن تمكن من ذبح البرمكى وعشرة من أولاده ولم ينج منهم إلا واحد فر إلى الهند مع أمه فنزلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمقاطعة كشمير حيث شب وترعرع وتعلم الطب والنجوم والرياضيات والعلوم الطبيعة واحتفظ بدين أجداده وعاد إلى بلخ ورزق أولادا منهم خالد بن برمك الذى انتحل الإسلام وتبعه إخوته ، ويظهر أن برمك أبا خالد فى أواخر أيامه انتحل الإسلام وقصد بلاط الخليفة عبد الملك فعينه واليا على العراقين وشفا الخليفة هشام من داء فظيع لا يحسن ذكره ، ثم أراد برمك أن يعود إلى خراسان فتعلق به الخليفة وقال له (ابق بجوارنا ونحن نقوم بأودك) وأقطعه مدينتى مارحنا وجبال ، فشكا برمك من قلة الدخل فتنزل له الخليفة عن إيراد دير مارحنا البالغ فى العام مليونى درهم .

فثبت مما تقدم ومن روايات أخر ضربنا عنها صفحا لعدم انطباقها على العقل أو عدم موافقتها لحوادث التاريخ الصحيح ، أن البرامكة فارسيون أصلا وأنهم كانوا وثنيين أو بوذيين قبل إسلامهم وأنهم كانوا يشغلون أرقى المناصب فى وطنهم . فلما ظهر الإسلام انتحلوه إما اقتناعا وإما سعيا وراء منفعة . ولكن إسلامهم عن عقيدة أقرب إلى الواقع ، وأن بعض ملوك الأتراك الوثنيين من عباد الذئب الأبيض اضطهدوهم وحاربوهم ، ولكن البرامكة تمكنوا من البقاء على دينهم واتصلوا بالبلاط الملوكى العربى (ديوان الخلافة الإسلامية) حيث ارتقوا بسرعة عظيمة بفضل ذكائهم ومالهم وشخصيتهم القومية إلى مناصب الوزارة واحتفظوا بها ، وسنأتى فى نبذة مقبلة على الخطوة الثانية فى تاريخهم العجيب لعلنا نوفق إلى حل لغزهم وهو أحد ألغاز التاريخ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصرع البرامكة
على يد الرشيد
لغز من ألغاز التاريخ الإسلامى [1]

لفت نظرنا أحد كبار الأدباء إلى عبارة وردت فى كتاب التاج المنسوب للجاحظ والمطبوع فى مصر وهى تدل على أن أحد الحجيج كان يطوف بالكعبة فى سنة قبل السنة التى أوقع فيها الرشيد بالبرامكة بكثير ، فسمعه وهو ممسك بأهداب الكعبة الشريفة ، يدعو الله عليهم ويسأله التوفيق فى الخلاص منهم بعبارة تنم على غيظه وحقده ، وكان بين حين وآخر يسمع بكاءه وشهيقه وهو فى حالة الاستغاثة بالله .

نفسية الفضل بين الرشيد وجعفر :

لقد كان الفضل وزيرا للرشيد وكان لديه من الأسباب التى تدعوه للوشاية بالبرامكة ما تجمع على مدى السنين بفعل البرامكة أنفسهم ، قال يوما لصديق : قد جرت الرياح بما أشتهى وها أنا أوشك أن أفوز ببغيتى فأقضى على البرامكة وأسقطهم عن عرش عزهم وأبيد ما شادوا وشاد لهم الزمان من مجدهم وفخرهم وأبنى لنفسى على أنقاض دولتهم دولة تحجب دولة الرشيد وتخنى على ذكرى هؤلاء البغاة . من هم البرامكة ؟ أليسوا طغمة من الأعجام اندست فى صدر الخلافة العربية كالسم والتفت حول بنى العباس التفاف الأرقم فزاحمت أهل الدولة بالمناكب وتمكنت بالحيلة تارة وبالمظالم طورا من الخطط والمراتب ؟ لقد أحاطوا بالرشيد إحاطة السوار بالمعصم وتسلطوا على جميع الأعمال وسدوا فى وجهى أبواب التقدم. أيحسبنى هرون مخلصا له ؟ كيف أنسى معاملة قومك لأبى إذ كان جزاؤه من أخيك الهادى بعد الخدمة الصادقة جابية عسل مسموم فمات ليومه ! كيف

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة البلاغ فى ١٩٣٢/٧/٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنسى ذلك الشيخ المظلوم الذى لايزال منذ خمس عشرة سنة فى بئر بنيت عليه قبة يدلي عليه فى كل يوم رغيف خبز وكوز ماء (هو قوب بن داود) ؟

كيف أنسى ما صنعه ذووك وصنعته ببنى أمية وقد استأصلت شأفتهم ونبشت قبرهم .

كيف أنسى أولئك التسعين أميرا الذين علّم السفاح أعضاءهم بالعدد وبسط عليهم الأنطاع فأكل وشرب وهو يسمع أنينهم ويقول لم تطربنى قط نغمة أوتار كما تطربنى هذه الحشرجة وهذا الأنين ، ثم صلبهم فى بستانه ينظر إلى جثثهم البالية ، ولما تأذى جلساؤه من روائحهم أجاب لهذا عندى أطيب من شم المسك والعنبر .

ولما لم ينج من بنى أمية إلا الرضيع أو من هرب إلى الأندلس لم يكتف بهذا بل اتبعهم بإغراء البرامكة أصحابك وحرمت عليهم الاستقلال بالسلطة وإدارة شؤونهم ولو بعيدا عن الأوطان ! الآن فسأرد كيدك إلى نحرك ، قد أوغرت صدرك على البرامكة وهم عماد ملكك ، فإن فزت بالمراد وأهلكتهم تملكت على الوزارة ومكنت بنى أمية من الأندلس فأدركك كيفما شئت ولا عبأت بك وإنى لا أدع دماً زكيا هريق بإغراء ذويك هدرا ولا أنثنى عن الأخذ بثأرى منك وتحقيق أمانىَّ لو سفكت من الدماء أبحرا وقتلت من الأبرياء رجالا ونساء وشيوخا وأطفالا !!

من أسباب السخط تحول الشعراء عن الرشيد إلى البرامكة :

من أسباب السخط أن معظم الشعراء كانوا يقصدون البرامكة ويمدحونهم كما لو كانوا هم الخلفاء ، وكانوا يدخلون الشعراء عليهم بطريقة فيها غموض وتمثيل وإليك نموذجاً .

فيقول ياسر : مولاى بالباب أعرابى يلتمس المثول بين يدى الأمير ، فيأذن له جعفر بالدخول فتدور بينهما المحاورة التالية :

الأعرابى – السلام على أمير المؤمنين

فيرد عليه أحد أعضاء مجلس الوزير قائلا :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- اخفض عليك ماتقول

الأعرابى : السلام على الوزير جعفر سلطان الخلافة وعماد الملة

جعفر (دون أن يظهر شخصيته للأعرابى) : نحن يا أخا العرب ندماء جعفر ، لم أتيت من صدر البادية إلى الحاضرة وجشمت نفسك ؟

الأعرابى : قصدت الأماجد الأنجاد الذين اشتهر فضلهم فى الورى حتى فاق ذكرهم الخلفاء والأمراء

جعفر : ومن هم يا أخا العرب هؤلاء الذين ذكرتهم ؟

الأعرابى : البرامكة الأمجاد الذين ملكوا الرقاب بجودهم

جعفر : إنهم خلق كثير فهل أفرزت منهم أحدا ؟

الأعرابى : سلطان الدولة العباسية جعفر !

جعفر : ولم قصدته دون سواه ؟

الأعرابى : لإحسانه ومعروفه وكرمه وقد قلت فيهم شعرا لم يقله أحد قبلى

جعفر : أنشدنا أبياتك فإن كانت تصلح أن تلقاه بها أشرنا عليك بلقائه ، وإلا أجزناك سرا وصرفناك دون أن يعلم بقدومك أحد

الأعرابى : قبائل من أقصى وأدنى تجمعت فهن على آل الوزيـر كلـول

تمر ركاب السفر تثنى عليهـم عليها من الخير الكثير حمول

فأنت جبين الملك بل أنت سمعه وأنت لسان الملك حيث يقـول

وللملك ميزان يـداك تقيمـه يزول مع الإحسان حيث يزول

جعفر : أنا جعفر سل ماتشاء ، فقد أحسنت

الأعرابى : سألتك بالله إنك هو ؟!!

جعفر : أنا هو !

الأعرابى : فأقلنى يا أيها الأمير !

جعفر : أقالك الله ! اذكر حاجتك !

الأعرابى : عشرة آلاف درهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جعفر : إذ دريت بنا وبنفسك ! تعطى عشرة آلاف فى عشرة آلاف !

وكان ياسر خادما خائنا أهداه الرشيد للبرامكة يتجسس عليهم فينقل إليه هذه الأخبار ويروى كل مايراه فى بستان البرامكة وقصورهم التى كانت تتلألأ منها الأنوار فى الليل ولا ينقطع منها القادمون فى النهار للعطاء ولعب الشطرنج ، وكان الرشيد أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بنى العباس وللرشيد والمأمون أخبار ونكات كثيرة فى الشطرنج كقولهم :

أقدم الرخ . اصنع معك دورا . خذ الغزالة ثم الفرس !

قل للحبيب وقعت فى الفخّ أودت بشاهك ضربة الرخّ

انتهاز جعفر فرصة تهذيبه للمأمون :

وكان الرشيد قد اختار جعفرا لتثقيف المأمون الذى كان يقول الشعر ومنه :

« أرض مربعة حمراء من أدم » ما بين ألفين معروفين بالكرم

تذاكرا الحرب فاحتالا لها فطنا بغير أن يأثما فيها بسفك دم

هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحزم لم تنم

فانظر إلى فطن صالت بمعرفة فى عسكرين بلا طبل ولا علم

وكان جعفر يلاعبه الشطرنج ويقول : أقر لك بالغلبة . ولك الدست أى لك الفوز، وقد يقول له « غدا تقام لك البيعة بالخلافة » ، ويعزز البشرى بقوله « لقد زانك الله بالخلال الشريفة والهمة العالية والفهم الثاقب وأفاض عليك من نعمائه كنوزا لا تفنيها الأيام » .

وكان هذا التحريض بالطبع ضد الرشيد الذى جعل الأمين ولى عهده .

دخل علويه المجنون يوما على المأمون وهو يرقص ويصفق بيديه ويغنى بهذين البيتين :

عذيرى من الإنسان لا إن جفوته صفا لى ولا إن صرت طوع يديه

وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

فقال المأمون : خذ الإمارة واعطنى هذا الصاحب .

أما الأمين فقد غلت فى صدره مراجل البغضاء ضد المأمون لذكائه ، وكان المأمون أكبر من الأمين بستة أشهر ، ولكن قدّم الأمين على المأمون بإغراء أمه زبيدة، لأن المأمون أولى بالتقدم لسنه وذكائه وعظيم استعداده . وكان جعفر يؤيد المأمون ، وكل هذه الدسائس علم بها الرشيد فكانت من أهم أسباب حقده على البرامكة وحنقه عليهم .

وقد كان جعفر على حق فى تفضيل المأمون على الأمين ، لأن المأمون كان يؤثر العلم على الجهل والتحلى بالفضائل على ركوب المعاصى ، ويقضى أيام صباه فى تحصيل العلوم والمعارف ، وقد حذق النظم والنثر وارتجال الخطب .

أما الأمين فكان ينقاد إلى أهوائه ويقضى شبابه فى الهذر واللعب ومقاتلة الديكة والأكباش ، وكأنه أحد أشراف الإنجليز فى القرن السادس عشر أو أعيان الترك فى مصر ، قال إبراهيم بن المهدى يصفه : دخلت عليه يوما فإذا هو يتطلع إلى دجلة بالشباك وكان فى وسط القصر بركة عظيمة لها منخرق للماء إلى دجلة وفى المنخرق شباك حديد ، فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والغلمان قد انتشروا إلى تفتيش الماء فى البركة وهو كالواله . فقال لى - وقد ثنيت بالسلام عليه وكررت - : لا ندرى ياعماه فمقرطتى قد ذهبت من البركة إلى دجلة .

فخرجت وأنا آيس من فلاحه ، وقد صدق فأله .

ومن أقوال الأمين « شرب كاس وشم آس ونوم بلا نعاس أحب إلى من مداراة الناس » . وأظن أن هذه العبارة هى التى أضافوا إليها « نحن بنى العباس نجلس على الكراسى !»

أما أم المأمون فماتت وأم الأمين فبقيت مسلطة على الأمور ، وقد ربى المأمون فى حجر جعفر كما قدمت وكان هذا سببا فى عطف جعفر عليه وإعداده للملك ، فكان كأخيه ليبلغ غايته فى عهده .

الدور الذى لعبه ياسر :

وكان قصر الحلية قصر الرشيد ببغداد وبحذائه فى الجانب الآخر قصور البرامكة بينها وبينه عرض دجلة ، وقد زين جعفر بعض جدرانه بهذه الحكمة « وإن القرابة تقطع والمعروف يكفى ومارأيت كتقارب القلوب » .

وكان ياسر أحد خونة خدم الرشيد اطلع على كل ما كان لجعفر من الأسرار ونقلها ، ومنها أسر العلوى وهو رجل من أنصار حق الخليفة وأعوان عدله افترى عليه المغتابون ، فتقدموا إليه بطلب العفو بقول أبى العتاهية :

ألا شافع عند الخليفة يشفع ــــــ فيدفع عنى شر ما أتوقع

وإنى على عظم الرجاء لخائف ــــــ كأنى على رأس الأسنة تشرع

فهل آمن يمسى ويصبح عائذا ــــــ بعدل أمير المؤمنين يروّع

ويقوله أيضا :

كم أمنّى بغد بعد غد ــــــ ينفد العمر ولا ألقى غدا

وقيل إن الرشيد سمع صوتا يناديه :

«يا ابن هاشم هل أردتم منذ توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم!»

وتقدم إليه آخر بقوله :

يارشيد الأمر أرشدنى إلى ــــــ وجه نجْح لاعدمت الرَشَدا

أعن المظلوم وارحم صوته ــــــ رافعا نحوك يدعوك يدا

وكان لسان حال الرشيد يقول :

« أرى عقارب السعاية والحسد تدب إلى مهادنا من كل جانب ، فهذا الفضل بن الربيع عدو لنا وبنو قحطة إخواننا من أعظم الساعين بنا » .

وكان أعظم مايخافه أن يقلب جعفر نظام الملك بعد موته ويجعل المأمون خليفة.

وكان قد كلف ياسر أن يحضر إطلاق سراح العلوى ليشى بجعفر عن ذلك لديه ، فإن ياسرا وهو جاسوس الرشيد على جعفر نقل إلى الرشيد رغبة جعفر فى تهذيب المأمون على طريقة خاصة ونقل إليه بغض المأمون للأمين ، ولما أطلق جعفر سراح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العلوى كرما منه ورأفة ، صور ياسر هذه الحادثة كأنها مدبرة والمقصود منها إحداث دعوة شديدة ضد الرشيد . وأراد الرشيد أن يكون ياسر شاهد إثبات على جعفر لدى إنزال العقاب به .

وقد حاول بعض المؤرخين أن يحصى أشخاص تلك الحادثة التاريخية [١] فإذا هم:

هرون الرشيد :وهو الخليفة الذى أوقع بالبرامكة وكان فى أوج مجده .

المأمون : وكان أكبر من الأمين وكان أجدر منه بالملك وتربى عند جعفر .

الأمين : وهو ابن زبيدة وكانت مستولية على قلب الرشيد .

زبيدة : هذه هى التى أوغرت قلب الرشيد ضد المأمون والبرامكة .

جعفر البرمكى : ابن يحيى كان وزير الرشيد الأول وصديقه.

يحيى البرمكي والفضل بن يحيى : من أمراء الدولة.

أبو النواس : شاعر جعفر المنقطع له .

أبو العتاهية : شاعر كان فى أول أمره خليعا ثم تاب وتصوف وتنسك .

الأصمعى : راوية وأديب يتقرب إلى الخليفة تارة ولجعفر طوراً .

أشجع : أحد الشعراء الذين مدحوا الأمير والوزير .

مسلم بن الوليد : وكان شاعرا ونديما .

إبراهيم الموصلى : كان مغنيا وهو من أئمة الفن وهو ابن إسحق .

إسحق : وكان فاضلا حتى إن الرشيد أراد أن يقلده القضاء .

أبو يوسف : قاضى الرشيد .

جبريل بن بختيشوع : كان طبيب الرشيد وهو الذى علم أنه مريض بالسكر.

ماشاء الله اليهودى : (منجم) هو الذى كان يضع له الطوالع .

أحمد بن محمد النهاوندى : وكان عرافا ويفسر أحلام الرشيد .

---

(١) يقصد المؤلف حادثة البرامكة .

مسرور العبد : خصى رئيس الخدم والغلمان ولم يكن جلادا .

عبد الصمد على : عم العباس بن محمد .

العباس : عم سليمان بن المنصور .

سليمان : عم هرون .

عبد الملك بن صالح : من كبراء بنى هاشم .

عبد الله بن مالك : صاحب الشرطة لعهد الرشيد وجعفر .

وبهذه المناسبة نقول إن كلمة Sureté الفرنسية وهى مصلحة الأمن العام أصلها عربى وهو «الشرطة» وهم رجال الأمن .

هرثمة بن أعين : أمير جند الرشيد .

العباس بن محمد : عم أبيه جليسه ومستشاره .

مروان بن أبى منصه : شاعر الرشيد .

الفضل من آل الربيع - حاجبه ومحرضه على البرامكة .

معاوية المحدث الضرير - كان يؤاكله وتبكيه فى بعض الأحيان مواعظه لأنه كان مخلصا .

ابن أبى عيينه وابن الأعرابى - وكانا أديبين يهديان للرشيد كتبهم .

زياد بن أبى الخطاب - كان كاتب الرشيد .

يوسف بن القاسم - كان صاحب ديوان الإنشاء .

سحر وضياء وخنث : وهن جوار محظيات أهداهن الفضل بن الربيع للرشيد .

محمد القاسم بن الرشيد - وسماه المؤتمن .

محمد البيدق - وسمى كذلك لقصره وكان ينشد للرشيد أشعار المحدثين .

الفضل بن سهل - خليل المأمون وكان لا يصبر على فراقه .

حميد بن معيوب - أمير أساطيل الرشيد .

إسماعيل بن جامع القرشى : مغنى الرشيد أيضا .

فليح بن أبى العوراء - مغن للرشيد .

مخارق - مغن للرشيد .

سليم بن سلام - مغن للرشيد .

ابن محرز - مغن للرشيد .

الزبير بن رحاق - مغن أيضا .

أبو زكار - مغن أعمى للرشيد .

منصور زلزل - عواد الرشيد .

برسوم الزامر - ناياتى الرشيد .

جعفر - الطبال .

الغريض - ينقر على الدف .

عيسى أبو قريش - صيدلانى كان حجاما للخيزران .

يحيى بن ماسويه ويوحنا بن ماسويه - طبيبان للرشيد .

إسماعيل بن نوبخت -- جليس للبرامكة .

إسماعيل بن يحيى الهاشمى - من أمراء أسرة الرشيد .

وظاهر من هذا البيان أن أعظم رجال الدولة ، رجال قصر الرشيد ، قد اشتركوا فى تلك المأساة ولم تكن خالية من النساء من زبيدة فنازلا حتى المحظيات والجوارى !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصرع البرامكة
لغز غامض من ألغاز التاريخ الإسلامى [١]

على الرغم من كل ما كتبه الكاتبون العرب والإفرنج لايزال مصرع البرامكة لغزاً من الألغاز– فقد زعموا الغيرة كانت السبب فى نكبتهم فقد غار الرشيد من وزرائه وما بلغوا إليه من عظمة ووفرة الغنى وخشى أن يجرؤ أحدهم على خلعه والمناداة لنفسه بالملك ، وقد كان جعفر يدلل على ذلك فى آخر أمره ، وزعم بعضهم أن مسألة العباسة وزواجها جعفر هو السبب ، وهذه أسطورة مخترعة من أولها إلى آخرها ولايوجد فى التاريخ مايؤيدها ، وقد وضعها القصاصون ليجدوا مبرراً لإيقاع الرشيد بوزرائه أسرة جعفر، وعمله على قطع دابرهم ، وقد أردنا أن نقدم بين يدى القارىء بحث بعض معلومات قد تؤدى فى نهايتها للوصول إلى هذا السر العميق الذى طالت الدهور على غموضه ٠

١ – عظمة البرلمكة :

فأول مانراه فى التاريخ الحالة المادية والأدبية التى وصل إليها البرامكة، فقد صار الناس يرون عظمتهم ويسألون ما هذه المقاصير والمساكن والآلات والفرش والخدم والجوارى التى لاتوجد فى قصور الرشيد ، وقد بنوا قصرهم حذاء قصر الرشيد وقد يباهونه ، كأنهم يستفزونه ! وكانت حاشية البرامكة تلقبهم بالسلاطين وكان أبو نواس من شعراء الفضل بن الربيع المنقطعين إليه ، ولا يمدح الرشيد إلا عرضا ويأمر جعفر !

ولقد فوض الرشيد إلى جعفر تثقيف المأمون ، ورحل عبد الله البرمكى إلى الفرنجة ليقف على مدنيتهم وسلاحهم وطرائق سياستهم ، وكان الشعراء أمثال أبى

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى جريدة البلاغ فى ١٩٣٢/٧/١٧ ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نواس وأشجع ومروان لايذكرون محاسن جعفر ومساعيه ومآثره ومعاليه ولا يقولون شعرا أو مدحا إلا فيه ، وابن إسحق يصف غناءه قائلا :

« هى أنفاسى أهديها للخلفاء والأمراء لا أتاجر بها » ، ولكنه فى الحقيقة كان يهديها للوزراء وحدهم ٠

وكان الرشيد والفضل حاجبه ومسرور خادمه يدخلون بأمر البرامكة متلثمين ، والذى يقدمهم ياسر خادم جعفر الخئون ، ولم يقف فى كتب التاريخ على تفسير لسرّ هذا التخفى الذى لجأ إليه الخليفة عند دخول قصر وزيره ٠

ومن شعر يزيد بن خالد فى كرم جعفر قوله :

فما جعفر فى جوده حذو برمك فمجد له مستطرف وأثيل

كأن بنو الإعدام يدعون قبله إلى اسم إلى الإعدام فيه دليل

وكان إسحق يغنى لجعفر البيتين الآتيين على اللحن الماخورى :

إلى جعفر سارت بنا كل حرة طواها سراها نحوه والتهجر

إلى واسع للمجتدين فناؤه تروح عطاياه عليهم وتبكر

وناهيك بإسحق إذا غنى ، فلم يكن له فى علم الأنغام ثان ، فهو جنة الدنيا وزين الزمان إذا غنى أجابته المثانى فمنه يجنى ثمر اللهو وريحان الجنان ، وقد وصفه من سمعه بقوله : « لقد خلت العود ينطق بلسان عربى فصيح ، وذكر أغنّ مليح، حتى ظننت الأشجار والأطيار والأنهار تجيبه» ، وكان جعفر يجزل العطاء لشعرائه ولمغنيه ويقول لأحدهم :

اطلب ماتشاء ! عشرة آلاف دينار جعفرية أو عشرين ألفا إذا شئت ، ووصف الدنانير بالجعفرية دليل على أنه ضربت نقود باسمه ٠

وقد أشرفت نفس أبى نواس على المستقبل فقال :

أربع البلا إن الخشوع لباد عليك وإنى لم أخنك ودادى

سلام على الدنيا إذا ما فقدتمو بنى برمك من رائحين وغاد

ويظهر أن أبانواس أحس بما يخفيه القدر فنظم هذا وقصد التشاؤم بهم لشىء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان فى نفسه من جعفر ، وقد حرضه على نظمها الفضل بن الربيع ، فقال له جعفر «نعيت إلينا أنفسنا يا أبانواس ! » ، ولكن لم يكن فى الجو مايدعو إلى التشاؤم وذلك لأن الخليفة قد عقد للوزير على خراسان والنهروان ومايجاورهما حيث اضطربت الشيعة وقام قائم الثورة ليخمد الوزير نارها ويرد المياه إلى مجاريها ، وقد تقرب الشعراء والمغنون بنشيد خراسان ينشدونه :

« يريد الملوك مدى جعفر ... ولا يصنعون كما يصنـــــع

تلوذ الملوك بأبوابـــــه ... إذا نالها الحَدَث الأفظــــــع

فقل لخراسان تحيا فقد ... أتاها ابن يحيى الفتى الأروع»

٢ - حياة العاصمة العباسية :

كانت شوارع بغداد القديمة عظيمة ولايزال بعضها ماثلا باسمه ، وبعضها أصبح أثرا بعد عين ومنها قطيعة عيسى الهاشمي وكانت كالبولفار فى باريس سعة وغناء ومعظمها ملك له .

والميدان كان أشبه الأشياء بالساحة توصل إلى شارع أبى جعفر وقد جعله ذكرى لوالده ، وكان نهر عيسى فرعا من الدجلة ينساب ويمر فى طريقه بقنطرة الزياتين وهى أشبه بالجسر العتيق . ثم الكرخ ولايزال إلى يومنا هذا على حالته، وكان بالكرخ جماعة من الصياغ والصناع وقد صنعوا كأس الرشيد الذى يعد تحفة من التحف ، قال من رآه يصفه :

« رأيت جاما قد صورت عليه طيور تطير بأجنحتها ومن فوقها عقاب ينقض عليها ».

وقيل إن الذى أوصى بصنعه جعفر ، وأهداه إلى الرشيد تقربا .

وإهداء الكأس لايدل على أن الرشيد كان يشرب الخمر ، فلعله كان يشرب فيه الماء القراح أو شراب الفاكهة وما إليه .

وكان السائر فى تلك الطرق التى ذكرنا أسماءها يرى علائم الحياة والحركة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والرخاء ظاهرة في كل مكان ، وكانت الساحات غاصة بالناس وأكثر ما في لباسهم الأسود الفاحم تشبها بولاة الأمر من آل هاشم الذين اتخذوا السواد في شعار الخلافة حزنا على شهدائهم من أهل البيت ونعيا على بني أميه في قتلهم ، وكأن الناظر إلى تلك الثياب السود يسير في عاصمة أوربية شمالية . وما كان أجمل المقارنة بين ضوء النهار وبهاء الألوان وسواد الثياب والأعلام !

٣ - القاضي الجزئي في عهد العباسيين :

وفي مسجدها الجامع قاض يفرض النفقات ويحكم في مائتي درهم ، وعشرين دينار فما دونها تخفيفا عن الدواوين التي لا تحكم إلا في القضايا المهمة ، وهذا لعمرك نظام القضاء الجزئي بعينه ، فانظر كيف سبق العرب أهل فرنسا بألف سنة !

وبها مسجد لعلي يؤمه الفرس وغيرهم ممن يقولون بخلافة أهل البيت من العرب ويتبركون بمزاره كأن وعيد أبي جعفر لم يجد منهم نفوسا راجعة إلى غرضه فيما أوجد من الفرقة بين العلوية والعباسية ، وكان أهلها يبلغون إذ ذاك خمسمائة ألف من الرجال ومثلهم من النساء والأطفال ، وكانت المدينة مزدانة بالقصور الفخمة والمباني الغالية العالية ومنها بعد قصور الخلفاء والأمراء والوزراء قصر للأمير الهاشمي ، وكان أوقر بني العباس مالا ، وأعطاهم لشاعر نوالا ، وغلة ضياعه في كل يوم مئة ألف درهم ، وقد بناه على بعض الأنهار واستفرغ في زينته جهده واتخذ في جنانه المهى والغزلان والنعام وأنواع السباع والطيور المغردة فجمع فيه محاسن الحضارة والبداوة ، وجعل من حدائقه شبه حدائق الحيوان التي نراها الآن في العواصم الأوربية وغيرها للأمم المتشبهة بها ، وقد تكون تلك الحيوانات طليقة وغير مسجونة وراء سور أو سياج كما صنعوا أخيرا في إنجلترا وفرنسا !!

وقد وصف أحد المسافرين أخلاق أهل تلك العاصمة فقال :

« أنست من استئناس أهلها للغريب حتى أنه ينسى في جوارهم أهله بما يألف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنهم من مظاهر الأنس والصفاء ، فكانوا يحلونه محل الأهل ويجعلونه يشعر بأنه منهم على عكس أهل البصرة الذين لا يرى فيهم إلا واهن البنية سقيمها وأصفر اللون كاسفه ، وذلك ناشىء فيهم عن عفونة الماء ووقوع إقليمهم فى مهاب الرياح المختلفة ، لأن الهواء قد يتبدل فى اليوم ألوانا وضروبا فيضطرون للبس القمصان مرة والمبطنات أخرى »، كما شهدنا فى مصر فى ربيع هذا العام (١٩٣٢) ، فإن أهل بغداد كانوا أصحاء أقوياء البنية يبدو عليهم السرور والصحو والطرب والإقبال على مختلف المآكل بشهية حسنة وكذلك يقبلون على أنواع الملاذ بفرح واستبشار ٠

ولقد وقفنا على وصف طريق الغوص على الجواهر وهى الدر والياقوت والعقيق والباديج ، فإن الغواصين يشقون آذانهم للتنفس ويجعلون فى آنافهم القطن ويصطنعون وجوها كالمشاقيص ويدهنون أبدانهم بالسواد (زفت) خوفا من بلع دواب البحر إياهم ، ويصيحون عند الغوص مثل الكلاب لتنفيرها عنهم حتى إذا بلغوا القعر عصروا ، وهنا يضىء منه البحر والبر والأصداف التى يتولد فيها اللؤلؤ وتكون مدفونة فى أرض البحر رملا كان أوطينا ، وهذه الطريقة لاتزال متبعة فى مغاوص البحرين ، والذين يقومون بالغوص جماعة كانوا فيما مضى رقيقا يملكهم التاجر الذى يأمرهم بالغوص لحسابه فإن عصوه أنزل بهم أنواع العقاب ٠

٤ - كيف انتقل العرب من البداوة إلى الحضارة :

وكان الناظر فى حياة العرب بعد أن تحضروا يعجب لهم كيف تركوا حياة البداوة جملة واحدة وصاروا كأنهم نبتوا فى المدن التى بنوها ونسوا حياة البدو جملة واحدة ، قال سائح يصف البدو :

« كنت أبيت فى منازلهم وآكل من ثريدهم وأشرب من ألبان نوقهم وأجلس على الوبر والأنطاع وأعى أحاديثهم وأشهد حلقات القصّاص فيما يذكرونه من أخبارهم وأيامهم ، وهم قوم يتفاخرون بتأليف الخطب وقول الشعر والسيف والضيف ولا يهنأون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج ، وهم لا يأتون الفحشاء بل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعاقبون الزناة بالقتل ولا يباشرون من النساء إلا من حلت لهم من أهلها حتى لقد يكرهون تزويج اثنين قد انتشرت أخبارهما بالمحبة ، وهم أصح الناس أبدانا وطعامهم لا يجعل إلى سقم المعدة سبيلا - والظعن كفيل لهم بطيب الرياح وأكثرهم من صلابة الجسم وخفته بحيث يلحق الخيل والحمر الوحشية والظباء عدوا (ونسى السائح ذكر الظليم وهو ذكر النعام وأسرع الحيوان عدوا على الإطلاق) وهم يوفون بالقول من غير أن يكتبوا العهود ، ويأخذون بثأرهم أخذا شديدا ينشأ فيهم من بعدهم عن القضاء ، لأنهم لو كانوا يعانون الأحكام لفسد البأس فيهم وذهبت المنعة منهم ، ويضيّفون نزلاءهم ضيافة يوجبونها على نفوسهم ولو كان النزلاء قتلة آبائهم. ومن زعم أن حاتم الطائى أكرم العرب فقد ظلمهم جميعا .

وهم يحتسبون المدن محبسا لا صبر لهم عليه لأن الحرية عندهم أفضل ما منحهم الله ، وهم يبذلون نفوسهم ونفائسهم دون تقريرها لأنفسهم ، فإنا لا نجد فى أحاديث النقلة أن أمة استعبدتهم فى غابر الدهر قط لأنهم بمكانهم من إطلاق النفس على غير مصر وحمل بيوتهم إلى حيث يبيتون فى أمن من العدو ولو كثر :

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلىَّ من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عينى ... أحبّ إلى من لبس الشفوف

وكل هذا تغير وصار بعض رجالهم من السفاكين الذين يحبون إهراق الدماء بغير سبب معقول .

فقد رووا عن الحجاج بن يوسف الوالى الأموى أمورا تقشعر منها الأبدان، فكان الحجاج يقتل من أهل البيت جزافا على التهمة إلى أن بلغ عدد الذين قتلهم صبرا مائة ألف وعشرين ألفا ، وكان فى السجن عندما أهلكه الله أكثر من خمسين ألفا يرسفون فى سلاسل الحديد ولا ذنب لهم إلا أنهم يعادون من عاداه الله .

وكانت الناس لأيامه إذا تلاقوا فى المجالس والمجامع والمساجد والأسواق تساءلوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع ، وانتهى به الإفحاش فى الظلم إلى أن يأمر الناس بحلق لحاهم ويعاقب المخالف له بذلك بتسميره فى الحائط

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيموت جوعا وألما وهو لا يستطيع سبيلا إلى الحراك ، وكان يجد لذة فى سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ٠

حين أرسله عبد الملك أحد ملوك بنى أميه إلى العراق كان أول ما خاطب به أهل الكوفة أن قال :

« إنى والله أرى أبصارا طامحة وأعناقا متطاولة ورؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى أنا صاحبها كأنى أنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى» ٠

وقد نازل مكة وضربها بالنار ورمى الكعبة بالمنجنيق حتى تصدع جدار البيت الحرام فأقام ملك بنى أمية على هذا الظلم وقوّمه لهم ، وهناك فرق عظيم بين صراحة هذا السفاح وبين حيلة البرامكة ودهائهم ، فقد كانوا يفرغون آراءهم ورغائبهم فى قالب النصيحة كما فعل خالد بن برمك عندما طلب رأيه فى هدم إيوان كسرى وتفصيل ذلك أن أبا جعفر المنصور لما بنى البصرة حمل إليها من آجره جانبا كبيرا فعارضه خالد بن برمك وقال : يا أمير المؤمنين لاتفعل واتركه ماثلا يستدل به على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأهل هذا الإيوان وفى ذلك فخر للإسلام والمسلمين، فاتهمه أبو جعفر فى النصيحة وقال أخذته النعرة للفرس وأبى إلا التعصب لقومه ، ثم شرع فى الهدم فأدركه العجز وخاف الفضيحة وبعث إلى خالد يستشيره فى التجافى عن الهدم ، فقال : يا أمير المؤمنين قد كنت أرى أن لا تهدم فأما إذ فعلت فإنى أرى أن تستمر لئلا يقال عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإخوة المغرورون
وأسفى على أنهم لم يكونوا مستعمرين ![1]

فى سنة ١٩٠٧ ألقى أحمد زكى باشا فى نادى المدارس العليا على لفيف من الأساتذة والطلاب محاضرة غريبة فى بابها تتلخص فى أنه عثر فى بعض كتب التاريخ العربى القديم على أخبار تدل على أن العرب ذهبوا إلى القارة الأمريكية قبل خريستوف كولومب بأجيال ، وقد ذكر المرحوم مجدى باشا أنه قرأ ما يؤيد هذا الخبر منذ عشر سنين سابقة للمحاضرة . غير أنه لم يذكر المصدر الذى استقى منه فى حينه .

وجعل المرحوم عمر لطفى بك جائزة لمن يضع أبلغ تلخيص لتلك المحاضرة ، ولعل فكرة الجائزة كانت باتفاق سابق بين المرحوم والمحاضر وهى محمودة ، وقابل بعض الحاضرين تلك المحاضرة بابتسامة عريضة بلهاء وظنوها من قبيل شعوذة المؤرخين وتخريفهم ، لا سيما من كان منهم يحب الإكثار من نسبة الفضائل والمفاخر للعرب .

ولم يكن بعضنا يكترث فى ذلك العهد إلا بنيل الجائزة .

وكان كاتب هذه الأسطر من المتشككين فى نظرية (شيخ العروبة) . ولكنه كان ممن نالوا الجائزة . وكنت أحسب خبر العرب فى أمريكا كخبر عباس بن فرناس الذى حاول الطيران فى أرض أندلس ... ولكن هذه كانت شكوك الشباب ولكن الرجوع إلى الحق فضيلة . ولا سيما بعد أن بحث الموضوع جماعة من المحققين ممن قرأوا مثلنا فى جريدة (الهدى) الأمريكية وهى جريدة عربية تصدر فى نيويورك أن طائفة من التجار الأتراك عادت أخيرا من إحدى مقاطعات المكسيك فأخبرت بأنها عثرت فى تجوالها بمنطقة إيسولوتان المعروفة بوعورتها ، بقبيلة تتكلم

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى عامود المؤلف «خواطر المساء» فى جريدة المساء بتاريخ ١٦/١/١٩٣١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العربية وتحافظ على تقاليدها الشرقية ولا تختلط بمن حولها من الأقوام المجاورين لها . وأنها تسكن تلك الأصقاع منذ نيف وأربعمائة سنة ا.هـ خبر « الهدى » ملخصا .

فظن بعض المتأدبين الذين قرأوا نبذة « الهدى » أن يكون هؤلاء القوم من فلول سلالة العرب الذين عبروا المحيط الأطلنطى منذ خمسة قرون وهبطوا أرض أمريكا قبل أن يهبطها الأوربيون ، وهو ظن قريب جدا إلى الترجيح والتصديق ، وروى صديقنا الفاضل الأستاذ محمد مسعود بك (وهو من الكنوز المدفونة فى أحد دواوين الحكومة أسير المقعد والمكتب والمرتب) أنه قرأ فى كتاب « نزهة المشتاق لاختراق الآفاق » الذى ألفه الشريف الإدريسى برسم الملك رجار (روجرس) الأول صاحب صقلية (وهو أهم الكتب التى كان استشهد بها أحمد زكى باشا فى محاضرته) ما ورد من خبر الإخوة الثمانية المعروفين « بالإخوة المغرورين » وهم من أهل لشبونة (عاصمة البرتغال الآن) والتى لايزال أحد دروبها معروفا بدرب المغرورين .

فإن هؤلاء الإخوة أبناء العمومة ، خرجوا يشقون بسفنهم عباب المحيط الأطلنطى ، فضربوا فيه أحد عشر يوما غربا ثم هبطوا إلى الجنوب أربعة وعشرين يوما حتى وصلوا إلى « جزيرة الغنم » واجتمعوا إلى ملكها وقصوا عليه تفاصيل سياحتهم عن طريق ترجمان عربى كان لديه (وهذا الترجمان وصل طبعا قبلهم فيكون أسبق منهم ومن كولومبوس !) فكان فيما ترجم له من أقوالهم أنهم طال سعيهم فى كشف ظلمات ذلك البحر فلم يجدهم نفعا . وكان الملك عادلا ورحيما فلم يشأ أن يمسهم بسوء فأرجعهم عند ذلك معصوبى الأعين إلى أن وجدوا أنفسهم ببلد على ساحل البحر قيل لهم فيه إنه على مسيرة شهرين من جزيرة الغنم فهتفوا (واأسفى) فسمى المكان بذلك وهو الآن ثغر (سافى) من ثغور المغرب الأقصى [1] .

---

(١) يروى الأمير شكيب أرسلان فى تعليقاته على كتاب « حاضر العالم الإسلامى » تأليف لوثروب ستودارد وترجمة عجاج نويهض « أن إحدى جرائد أمريكا بحثت فى موضوع اكتشاف تلك =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويستنتج الأستاذ محمد مسعود بك أنه لا يبعد أن تكون القبيلة العربية التى عثر عليها التجار الأتراك فى أوعار بعض مقاطعات المكسيك من سلالة بعض البعثات العربية التى خرجت تباعا من سواحل الأندلس والبرتغال ومراكش لاستكشاف يابسة فى غربى بحر الظلمات وأن خبر هؤلاء الإخوة لم يكن إلا من قبيل نموذج من نماذج الأخبار للرحلات التى كانت من هذا القبيل ، وظاهر أن المهم فى هذه النبذة هو أن العرب كانوا فاتحين وغزاة ولم يكونوا للأسف مستعمرين ، فإن الفاتح قد ينقلب صديقا للمغلوب وقد يندمج فى عناصره كما حدث للعرب فى سوريا

= القارة فقالت : يروى أن العرب خاضوا الأوقيانوس الأتلانتيكى ناشدين البر الذى وراءه ، وسألت هل عند مؤلفى العرب شىء من هذا الخبر ، فعَربتْ ذلك جريدة النشرة الأسبوعية فى بيروت وألقت السؤال نفسه على علماء العرب وكنت فى باريز ، فلما اطلعت على القضية لبّيت ذلك النداء وراجعت فى المكتبة الوطنية كتب الشريف الإدريسى الجغرافى العربى الشهير ونقلت من كتابه نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق خبر الإخوة المغرورين الذين ركبوا سفينة من أشبونة وجعلوا فيها كل مايلزمهم من الزاد والماء وخاضوا بها بحر الظلمات إلى المغرب حتى وصلوا بعد مسيرة شهر إلى جزيرة خالية لم يجدوا بها إلا الوحوش فركبوا البحر متجهين إلى الجنوب ، وبعد نحو شهر نزلوا بجزيرة فيها أناسى وملك يحكم عليهم ، فقفلوا من عنده متجهين شرقا حتى نفذوا بعد مدة إلى مرسى أسفى بالمغرب الأقصى (هامش ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ج ١ ، المطبعة السلفية ، القاهرة سنة ١٣٤٣هـ) .

وجاء فى « مسالك الأمصار » أن ابن أمير حاجب والى مصر سأل منسى موسى بن أبى بكر أحد سلاطين بلاد التكرور عن سبب انتقال الملك إليه فقال « إن الذى كان قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك فجهز مئين سفن وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ثم عاد منهم سفينة واحدة وحضر مقدّمها فسأله عن أمرهم ، فقال : سارت السفن زماناً طويلاً حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة (دوّامة) فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتى ، فلم يصدقه ، فجهز ألفى سفينة ، ألفا للرجال وألفاً للأزواد واستخلفنى وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك فكان آخر العهد به وبمن معه » . ويعلق أرسلان على هذه الرواية بقوله « إن صحت هذه الرواية ولا يوجد دليل على كذبها فيكون المسلمون قد حاولوا اكتشاف القارة الجديدة مرتين ، أولاهما عندما أبحر الأخوة المغرورن من أشبونة عاصمة البرتغال موغلين فى بحر الأطلانتيك والثانية على يد هذا الملك الذى حاول هذا الأمر مرتين وذهب فى سبيله شهيداً » (هامش ص ٢٠٧ ، المرجع السابق) .

ر. ل. ج.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومصر والعراق ، ولكن المستعمر ينتفع ويستغل ويستثمر ولا يندمج ، والفاتح بعد فتح البلاد يلقى السلاح ويتناول المحراث أوالقلم أو الميزان أو المطرقة ليعمل فى الزراعة والصناعة والفنون . أما المستعمر فلا يلقى سلاحه بل يستبدل به غيره كما فعل الإنجليز فى الهند والأوربيون فى أمريكا .

ولو أن العرب الذين وصلوا إلى أمريكا مستعمرين مثل بيزارو وكرومويل وهستنجز وليبوتى وكتشنر وعشرات مثلهم إذن لنقلوا إلى تلك البلاد الجديدة خيلهم ورجلهم وسلاحهم وحاربوا وقهروا وأقاموا ليستعمروا ... ولكنهم عادوا بالخيبة والفشل وكان شعارهم « وآسفى » ولايزال الثغر الذى يحمل شعارهم شاخصا يذكّر أحفادهم بخيبتهم .

أما ذلك الملك الذى ردهم معصوبى الأعين . فقد كان كريما وحكيما ... وكان يمكنه أن يقتلهم أو يبقيهم أسرى وعبيدا له ، ولكنه استبان فيهم الغفلة فردهم عميانا إلى مقرهم الذى خرجوا منه عميانا أول مرة .

ولو أن بعض ممالك الشرق فعلت مع أوائل من وطئت أقدامهم أراضيهم وردوهم على الأقل معصوبى الأعين بدلا من التفخيم والترحيب ومنح الامتيازات ، لما كنا نرزح حتى الآن تحت أعباء الاستعمار ونرسف فى أغلال الإمتيازات الأجنبية ... وأسفى !!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سر قنال السويس[1]

قال هـ . ج .جرنيوال فى رسالته : أول من فكر فى العصور الحديثة فى حفر قناة السويس نابوليون بونابرت ، ليتخذها عتبة لغزو الهند . حقيقة قد فكر الفراعنة فى إيصال بحر القلزم ببحر الروم ، وشرع بعضهم فعلا فى تنفيذ هذه الفكرة ، ولكن بونابرت هو الذى نقل المشروع من التفكير إلى التنفيذ ، وخبر ذلك أنه فى سنة ١٧٩٨ سافر إلى مصر ، ليحطم الإنجليز فى زعمه ، فإذا فاز عليهم ، قام بصنع القناة ، ثم يأخذ فى الاستعداد لغزو الهند ، وقد ألف موسيو Lepére كتابا فى مشروع القناة وإمكان تنفيذه ، فوقع هذا الكتاب فى يد فردينان دلسبس وكان فى السلك السياسى الفرنسى فى مدينة الإسكندرية (١٨٥٢) فانشغل بالفكرة وأخذ فى التفكير فى تنفيذها وجعلها حلم حياته الواجب التحقيق .

ولما بلغ بونابرت مدينة السويس كانت قرية قذرة بشعة المنظر وكان أهلها على أكبر نصيب من البؤس لأنهم كانوا موضع السلب والنهب لعدة أجيال متعاقبة من القبائل المجاورة ، وكانت حياتهم أفضل منها الموت . فكانت الأوباء منتشرة بينهم وتنهشهم الأفاعى والحشرات ويأكل لحمهم الدود والذباب ، وكانت السفن لاتدنو من ثغرهم الحزين ، لأن رمال البحر الأحمر قد تراكمت عليه وسدت سبل الملاحة فى أوجه السفن . فدعا بونابرت أعيان القرية ، وكانوا لفيفا من الصيادين والحمالين وأصحاب الإبل ، فوعدهم خيراً ورسم لهم خطة مستقبل سعيد ، وبينما كان بونابرت يخدع الأعيان ، كان الأساتذة والعلماء يحفرون منقبين حول السويس لعلهم يعثرون على آثار القنال العتيق الذى قيل إن الفراعنة صنعوه ليصلوا بين البحرين الأبيض والأحمر ، فلم يوفقوا إلى شىء ، فأمر نابوليون أحد علماء حملته وهو Lepére بأن

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية ، العدد ١١٥ فى ١٩٣٨/٨/٣١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يضع كتابا فى بناء القنال ، فأطاع العالم مسرعا ولبّى متعجلا ولكنه أخطأ التقدير ، فظن البحر الأحمر أعلى من مستواه بثلاثين قدما عن البحر الأبيض مع أن البحرين فى مستوى واحد تقريباً .

وفى عام ١٨٢٥ جاء الإنجليزى واجهورن وأثبت خطأ الفرنسى Lepére الذى تركه بونابرت يعمل مع زملائه من العلماء وخرج هو ليكشف عن الحقيقة بشخصه . وكان العلماء يشكون فى نظرية نابوليون ولذا أطلق الجنود عليهم « لقب حمير مصر» ! أما بونابرت فكان يعتقد بوجود آثار لقناة قديمة ، وفعلا وفق إلى اكتشاف آثار لقناة عمرو بن العاص ، فأمر بونابرت بتجديد أجزاء هذه القناة البائدة ، وأخذ سمته إلى القاهرة ليتم أعماله ، فلقيه رسول حربى فأخبره بأن تركيا أعلنت الحرب على فرنسا فانضم أسطولها إلى الأسطول الإنجليزى وإلى هنا وقفت حركة بونابرت فيما يختص بالقنال فكان حلمه الذى لم يتحقق وحققه فرنسى آخر .

وفى سنة ١٨٣٢ جاء إلى مصر فردينان ديلسبس موظفا صغيراً فى قنصلية فرنسا بالإسكندرية ، وكان أبوه صديقا لمحمد على ، فأكرم الأمير مثواه وأحسن مقابلته ، وقدمه إلى أولاده العديدين كصديق ورفيق وكان منهم الأمير سعيد باشا الذى ألف عشرة السياسى الفرنسى الشاب وتعودا أن يمارسا معا بعض الألعاب الرياضية كالفروسية والنزال . وكان دلسبس قد قرأ كتاب Lepére ولكن الظروف لم تخدمه إلا بعد أن وصل سعيد باشا إلى الأريكة الخديوية ، فشد رحاله إلى مصر مرة ثالثة وانتهز فرصة صفاء بال الأمير وهدوء طبعه وانشراح صدره ، فبسط له مشروعه فأعجب الأمير به وصمم على تنفيذه . وسمح بالامتياز ولكنه علقه على شرط موافقة الدولة العثمانية التى كانت متبوعة مصر سياسيا . فتشتت ذهن دلسبس وضعفت قوته بعد أن رأى نفسه فريسة الدسائس فى القاهرة وفينا وباريس وإسطامبول ، وكان لورد بالمرستون ألد أعدائه وقد أراد الوزير الأكبر الإنجليزى أن يشوه سمعة القناة فوصف المشروع بأنه « نصبة كبرى » ومصيدة للمال ، وأنه ثمرة من ثمار الخيال الفرنسى الخصيب بالأوهام ، وحذر الإنكليز من التورط فيه أو مد يد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعونة بالمال له . ولعب مترنيخ دوره فى فينا ، ولكن الإمبراطورة أوجينى ساعدت ديلسبس وأقنعت زوجها الأمبراطور نابوليون الثالث بضرورة التأثير فى السلطان ليقبل الامتياز وكان الأمير زوج الملكة فيكتوريا ميالا لفكرة دلسبس ، فدعاه إلى قصر وندزور بإذن الملكة فأحسنت استقباله وأصغت إليه فى رفق ولين وغاظت بذلك بالمرستون الذى كاد يتميز من الحنق بسبب استقبال المفكر الفرنسى والاعتقاد فى خرافته .

وقد حرض نابوليون الثالث حكومة النمسا والمجر على غزو مصر نكاية فى الإنجليز وتنجيزاً لمشروع القنال ، ولكن تلك الحكومة رفضت هذا الاقتراح ، ووعدت بالمساعدة فى القنال ، وقبل أن يتم الاتفاق الدولى تألفت الشركة وجمع دلسبس عشرين ألف عامل من عمال السخرة وكانوا فى الواقع أشبه الناس بالرقيق ، وأسرع الرجل لأنه تقدم فى السن ، وخشى أن يموت قبل أن يتم العمل وكان فى الواقع قد شارف على الخمسين فى حين أنه فكر فى المشروع وهو فى العقد الثالث، وفى سنة ١٨٦٢ حفر نصف القنال من بورسعيد إلى بحيرة التمساح فافتتحه دلسبس بقوله « باسم سمو الأمير محمد سعيد آمر مياه البحر الأبيض بالدخول إلى بحيرة التمساح بإذن الله ومشيئته » .

وكان عدد العمال ستين ألفاً مقسمين إلى ثلاثة أقسام ، ثلثهم يحمل والثلث يحشد فى انتظار العمل والثلث الأخير يعودون إلى دورهم بعد أن أدوا عملهم ، واستمر العمل إلى سنة ١٨٦٩ أى قبل إعلان الحرب السبعينية بعام واحد ، وقيل فى ذلك الوقت إن بيسمارك أخر تلك الحرب عاما حتى ينتهى الفرنسويون من حفر القنال لما فيه من النفع العام لكل من دول العالم ومن بينها ألمانيا ، وقد خشى أنه لو أعلنت الحرب قبل انتهائه لقضى المشروع . وكان دلسبس يعيش فى الإسماعيلية عيشة الزهد والقناعة ولاتزال غرفته الضيقة موجودة على حالتها وليس فيها إلا سرير حديد ولحاف من قماش ، والأودة ضيقة مظلمة كأنها خلوة أحد الرهبان ، وقد مات سعيد فى يناير سنة ١٨٦٢ وسافر دلسبس إلى القاهرة ليعوده فى مرضه الأخير

راكباً على جواد من الإسماعيلية ، ولكنه لم يدركه قبل صعود روحه إلى خالقها ٠

واستعد الجميع للاحتفال بالافتتاح فى ٧١ نوفمبر سنة ١٨٦٩، ولما علمت إنجلترا بانتهاء العمل وافقت عليه بعد أن صار العمل فى غير حاجة إلى موافقتها وهى تضمر أن تضع يدها على القنال للدفاع عن الهند ، وفى سنة ١٨٧٥ علم الإنجليز بحرج موقف إسماعيل باشا وأنه فى حاجة إلى بيع الأسهم التى تخصه فى قنال السويس فاشترى ديزرائيلى ٧٧ ألفا منها بأربعة ملايين ، وبذا صارت إنجلترا ذات الكلمة العليا فى إدارة القنال ، وكان وسيط الصفقة مستر جرينود (والد كاتب هذه الرسالة ، وكان إذ ذاك رئيس تحرير جريدة بول مول جازيت) ، ولما كان البرلمان معطلا فقد تمكن الوزير اليهودى من الحصول على المبلغ من ناتنيال روتشيلد وقد وافقت الملكة فيكتوريا على هذه الصفقة لشدة ما كانت تثق بوزيرها اليهودى وتميل إلى تنفيذ آرائه ، وهكذا كان اليهود سبباً فى إذلال مصر بأن وضعوا فى يد الأسد البريطانى مفتاح القنال ومفتاح الهند وسلاسل من فولاذ لتقييد عنق مصر وأرجلها وأيديها إلى متى ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النزاع العالمى على قنال السويس (١)

كتب المحلل السياسى لجريدة « التيمس » اللندنية مقالاً عنوانه « بريطانيا لاتنوى أن تسلم قنال السويس لمصر أو تقدمه على صينية فضة ! » جاء فيه :

يشرف ثغر بورسعيد على قنال السويس جنوبا وعلى أهم نقطة استراتيجية شمالا وشرقا وليس هذا الموضع المتمايز جديدا بل إنه قديم يرجع إلى عهد الفراعنة وإن لم تكن مدينة بورسعيد ولا قنال السويس قد برزا إلى الوجود فكانت تلك البقعة مركزا حربيا خطيرا عندما كان الفراعنة يرمون إلى سيادة العالم ويحاربون الآشوريين .

وكذلك فى عصور انحلال القوة المصرية أوى إليها عدد عديد من جيوش الغزاة وزادت أهمية تلك البقعة ألف مرة فى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ عندما افتتح الخديوى إسماعيل قناة السويس البالغ طولها مائة ميل وعمقها تسع ياردات وعرضها خمسا وستين ياردة ، فربط أوروبا بالهند وأستراليا وسائر الشرق الأقصى، فاعتقد ساستنا الإنجليز ورجال الحرب والبحرية أن بقعة السويس جوهرية فى الدفاع عن كيان الإمبراطورية.

ولذلك كان تزعزع المفاوضات بين مصر وإنجلترا أمراً فى غاية الخطورة بالنسبة لسياستنا الخارجية ، وكل مدار المفاوضات كان حول نقطة واحدة وهى كيف تستطيع بريطانيا أن تجعل سيطرتها مستمرة على الطريق المائى الوجيز الذى يربطها بأملاكها وراء البحار السبعة ؟

وقد اضطرت إنجلترا أثناء الحرب الأخيرة أن تختار طريق المحيط ورأس الرجاء ، فتعلم رجال الحرب فى هويتهول « مقر الحكومة » درسا لا ينسونه فى عجلة .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة الدستور فى ٢٩ سبتمبر ١٩٤٦ .

ولعل بعضهم كان نسى أن التحكم فى مصر قد حاوله نابوليون والقيصر غليوم الألمانى ، وأن كل الفتوح الأجنبية تمت عن طريق الشرق بما فيها فتوح قمبيز والإسكندر والرومان والعرب ، وحتى نحن الحديثو العهد بغزو مصر ، دخلنا عن طريق قنال السويس والإسماعيلية ، مع أن القنال شريان بحرى دولى محفور لاستعمال كل الأمم .

ولم يحصل غزو لمصر من الغرب إلا للفاطميين فى القرون الوسطى ، وهؤلاء وفقوا لقرب الجوار من الغرب ، ولذا حاول روميل وموسوليني ذلك فمنيا بالفشل على الرغم من سلطانهم فى طرابلس ، وقرب إيطاليا لشاطئها .

ولهذه الأسباب أبدت حكومة آتلى رغبتها عن التمسك بقنال السويس بشرط ألا تملكه دولة معادية .

وقد ثبت لرجال السياسة والحرب والبحرية أنه بتغير وجه الحروب واختراع القنبلة الذرية وسهولة الطيران أصبح الاحتفاظ بالقناة عن طريقة الحاميات والثكنات، ضلالة عتيقة مضى وقتها وانقضى عهدها وتمسك بقديم بال بائد من الأفكار الآفنة .

ووقر فى أذهان ساستنا أن الجلاء التام عمل سياسى واجب ، بشرط أن تؤسس إنجلترا أمكنة ومعسكرات ومطارات فى آسيا (على الشاطىء الآخر للقنال أو قريبا منه) ، يجعل الدفاع عنه ممكنا وبشرط أن تنشىء مصر ما تشاء من المنشآت مما تحتاج إليه جيوشنا فى وقت الشدة .

ولكن هذه التحوطات اقتضت عملا سياسيا بالغا فى الأهمية ، وهو عقد محالفة بين مصر وبريطانيا ، وأن معاهدة سنة ١٩٣٦ كانت تنص على بناء ثكنات شرقى القنال ليعسكر فيها جنودنا وإنما هذه الثكنات لم تبن ولم تجهز ، لأن الحرب العالمية الثانية دهمت العالم وقطعت خطوط الرجعة فصارت القاهرة والإسكندرية أهم بقاع العالم بالنسبة لسياستنا فى الشرق الأوسط .

وبانتهاء الحرب نهض المصريون بإعادة النظر فى معاهدة سنة ١٩٣٦ وهذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حق من حقوقهم المقدسة فطالبوا بالجلاء التام الناجز ، فأعلنه الرئيس آتلى وأحسن صنعا بإعلانه ، بدلا من أن يظهر المصريون بمظهر الحصيف المقدر لحركتنا تبدّوا لنا فى هيئة المفاوض الماكر القوى الذاكرة الذى لا ينسى شيئاً فى الماضى ولا يغفل شيئاً عن المستقبل .

فسافر سفير مصر عمرو باشا وهو الشاب النشط النابه الذى عرفناه باقتراحات جديدة تجعل مهلة الجلاء ثلاث سنين بدلا من خمس .

ولكن صدقى باشا رئيس الوزارة والمفاوضة خرج من قاعة رياسته المزادنة بالمرايا والأزهار ، يلبس قميصا أخضر ورباط عنق أحمر وحذاء شاطى ذى لونين هما البنى والأبيض وقال : لا .

ويهمس بعض الواقفين على خفايا الأمور أن لفيفا من المصريين راغب فى التوقيع وقابل بالشروط ، ولكنهم يخشون جانب المعارضة المتطلعة للعودة إلى الحكم، وهى التى تمثل حزب الوفد ، ولذا فإن مظهر التشدد سواء فى أمد الجلاء أو فى حل مسألة السودان قد يعصف بالمعاهدة أو يؤجلها أجلا غير مسمى وتذهب الجهود التى بذلت فى سبيلها من مايو إلى سبتمبر سنة ١٩٤٦ عبثا .

ولا سيما وأن لورد ستانسجيت (كابتن ودجودن) رجل لين الجانب طيب القلب، له سوابق عطف على مصر وحقوق المصريين فى وطنهم وقد يتم على يده مالا يتم على أيدى غيره ، ونحن لا نتهدد من طرف خفى ولا نعلم الغيب وإنما نعتقد أن هذه فرصة سانحة لايجوز لسياسى حكيم أن يفرط فيها ، لأن العبرة فى المحالفات والعهود ليست بالنصوص وحدها بل بما يصحبها من الثقة وحسن النية وحلول الألفة والمودة محل الشك والريبة .

إن مصر لم تطلب الجلاء التام الناجز وحده ، بل طلبت السيطرة على السودان بل وادى النيل كله ، دع عنك الوصاية على طرابلس ، قطعا لكل رجاء إيطالى فى العودة إلى جوارها من الغرب .

وليس هذا الوقت بالذات وقتا صالحا للتشدد ، فإن جو العالم مظلم والأمن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مضطرب ، ويا حبذا لو لم يركن كبار الساسة إلى الرأى العام المكون من رجال الشارع وليسوا دائما واقفين على حقيقة الأمور .

إن المحالفات ينفذها رجال متمايزون وتبرمها مجالس نيابية وتمحصها صحف سيارة ، ولكن كلمة واحدة طائشة أو فكرة مبتسرة تقال فى غير موضعها قد تنقض خير ما فيها أو تقوض بناءها .

إن السودان منذ عهد المهدى وكتشنر ومنذ هزم المصريون والإنجليز جيش (الغيزى ويزى) الدراويش ووضعت معاهدة سنة ١٨٩٩ حكمت بملك البلاد حكما ثنائيا وكان كل شىء يسير على مايرام إلى سنة ١٩٢٤ عندما اغتال بعض المصريين من رجال الوفد حياة السيرلى ستاك سردار الجيش المصرى فأخطأ اللورد اللنبى بتوقيع قصاص على مصر ، وكان من بين تهديده ووعيده لزغلول باشا حرمان مصر من ماء النيل [١].

ومن تلك اللحظة بدأت مخاوف المصريين على حياتهم وأرضهم ومستقبل أنسالهم وأجيالهم الآتية وهم على حق فى هذا ، ولكن بريطانيا لا يخطر ببالها أن تقدم على مثل هذا العمل الذى كلف لورد اللنبى منصبه ، فعزل ملوما على لفت أنظار المصريين إلى هذا الخطر .

إن بريطانيا على كل حال لا تنوى أن تسلم فى السودان لمصر أو تقدمه على صينية فضية (كما تقدم الهدايا والتحف) لأنها قد تقصد إلى الالتجاء إليه وتعميره بعد أن ألمحنا لزعماء السودان بنظام الحكم الذاتى الذى يشبه حكم الدومنيون فوعى معظمهم تلك الإشارة .

ولكن عند مصر ورقة باقية فى جعبتها ، ورقة رابحة حتما وهى انتهاء امتياز قناة السويس فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨ (وكانت الشركة قد حاولت فى سنة ١٩١٠

---

(١) عن مصرع السير لى ستاك وما ترتب عليه ، انظر صفحة ٥٤٥ ومابعدها من هذا الكتاب .

مد أجل الامتياز مائة سنة ففشلت) وعندما ينتهى أجل الامتياز تتحكم مصر فى قنالها وتفرض على البواخر أعلى ضريبة وأغلا الأجوز ، وحينئذ إما تعدل السفن عن اختيار أقرب الطرق أو تردم مصر القناة ردما وتهدم ضفتيها هدما فنستريح من متاعبه إلى الأبد .

إن بناء شركة قناة السويس الذى يحتل نصف شارع أستورج فى باريس مؤسسة ضخمة وقد وصلت قيمة السهم بعد عشرة شلنات وهو الثمن الأصلى إلى ١٢٢ جنيها ، حتى أغرى الطمع بعض حذاق المهندسين والرسامين بتزوير ألوف من الأسهم ونجحوا فى ترويجها إلى أن قبض عليهم .

إن قناة السويس عمل مالى من أضخم الأعمال فى العالم ، ومجموع موظفيها فى باريس ومصر يزيد عن خمسمائة وخمسين موظفا . ومجلس إدارتها يتقاضى مرتبات ضخمة لقاء عمل قليل ، وقد شارفت الشركة أثناء الحرب على الخراب بسبب تهديد الألمان ، وقد عادت المياه إلى مجاريها وكادت نسبة المرور تعود إلى ماقبل الحرب ، وهى من ٣٠ إلى ٣٥ مليون طن فى العام بواقع ٨ شلنات للطن الواحد وهو ما يبلغ نحوا من مليون ونصف مليون جنيه قد ينصب فى خزائن الحكومة المصرية إذا رغبت فى استمرار حركة القنال للبواخر الأجنبية .

ولا يعقل أن تضحى مصر بمثل هذه الثروة الضخمة خوفا من غزو جديد إذا أنفقت ربع إيراد القناة وحده فى الاستعداد للدفاع عنها وقت الخطر فإن الشركة نفسها قد دفعت لحملة الأسهم أضعاف أضعاف رأسمالها الأصلى .

وتوجد مئات الأسر المعروفة تعيش وتموت وتورث حياتها لأحفادها على صدى صوت بعض هذه الأسهم .

فماذا يحدث فى سنة ١٩٦٨ عند ما ينضب هذا المعين ؟ إن بعضهم يزعم أن كل شىء سيعود إلى الخير فى النهاية ! ولكن هذا الخير لمن ؟ أهو لحملة الأسهم ، وجلهم من أولاد الذوات المتوكلين على شق القناة ، أم لمصر التى تترقب ١٧ نوفمبر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنة ١٩٦٨ بفارغ الصبر ؟[١]

إن تطور الحياة واختراع الطيران والقنبلة الذرية ويقظة المصريين ، كلها تنبىء بأن قناة السويس قد « عاشت » كما يقول الفرنسيون أى أنها بلغت نهايتها ولم تر قناة أو نهر من العز والسلطان ما شهدت قناة السويس وشهد ذووها .

وهذه هى القناة التى وقفت بريطانيا فى سبيل شقها منذ أول النصف الثانى للقرن التاسع عشر ، حتى تمكن نيكونسفيلد من شراء ٣٥٠ ألف سهم من أسهمها فاحتضنتها ومازالت تعمل حتى استولت عليها وانتقل الشأن والبأس من عالم المال وحده ، إلى عالم السياسة والحرب، فيالها من بقعة أرض وشريان ماء بزّتا البحور والبرور فى تاريخ العالم !!

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليه سنة ١٩٥٦ ، انظر كتاب الدكتور عبد العظيم رمضان « الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس » ، العدد رقم ١٨٠ من سلسلة « تاريخ المصريين » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٠ م ، وكتاب الأستاذ عبده مباشر « قناة السويس ، المشروع والصراع » ، من إصدارات « مكتبة الأسرة » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٠ م .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر فى الميدان الحربى
تاريخ المعارك المصرية فى القرن التاسع عشر(١)

« أفى استطاعتنا أن نكتب التاريخ ؟ وهل فى مقدورنا أن نستخلص أو نستخرج من نص أو من وثيقة أقل أثر من روحهما وحقيقتهما ؟ إنما أمرنا أن نعتمد على صيغة النص ببساطتها ونتمسك بعبارتها ، فالصيغة هنا هى التى لها القيمة والوضوح. أما روح التأليف فليس بمحدود ، وأما الأفكار والمعانى فإنما يسار فيها على الهوى ! . لابد أن تكون عظيم الغرور واسع الخيال حتى تقدم على كتابة التاريخ » .

كلمة حكيمة خطتها يراعة هونوريه دى بلزاك الكاتب الفرنسى الشهير ، رأينا الاستشهاد بها لصدقها ومناسبتها لمقتضى الحال .

ألقى حضرة الأديب عبد الرحمن زكى أفندى الصاغ بإدارة الشئون العامة بوزارة الدفاع الوطنى ، ولعله أيضاً مدير المتحف الحربى المصرى ، منذ بضعة أيام محاضرة عن بعض المعارك المصرية خلال القرن الماضى ، فتحدث عن الفائدة العائدة من وراء الكلام على حروب قديمة ذات أساليب أثرية فى السلاح والقتال والوسيلة ، إذ أن لكل أمة من أمم الغرب تاريخاً عسكرياً تنحصر بحوثه فى الأصول الحربية المتبعة فى كل دور من أدوار حياة تلك الأمة وفى حالة جيوشها والحروب المهمة التى خاضتها والقواد الذين اشتهروا فيها وما إلى ذلك من شئون لها علاقتها المباشر بحالة الأمة العسكرية ، وتحصّل من ذلك التاريخ دروس عملية يتلقاها الخلف من السلف ويتألف من مجموعها « الفن الحربى » الذى يكاد يبلغ أسمى درجات الرقى فى العصر الحاضر للتطورات الآلية التى طرأت عليه وتجديد العمل على الطريقة الخاطفة .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة اللطائف المصورة فى ١٩٤١/٨/٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما التاريخ العسكرى المصرى فما يزال حلقة مفقودة ، إذ أن الوقائع التى قام بها المصريون منذ فجر حياتهم ظلت غامضة لأن مؤرخينا لم يبحثوها ولم يدرسوها بعناية ولم تنشىء الجامعة المصرية منصباً لتدريس التاريخ الحربى البرى والبحرى . ويذكر فى هذا المعرض ثلاث مواقع كان لها فى تاريخ مصر شأن يذكر، وهى موقعة الأهرام (أمبابة) فى ٢١ يولية سنة ١٧٩١ ، وموقعة أبى قير البرية فى ٢٥ يولية سنة ١٧٩٢ ، وموقعة كانوب (الإسكندرية) فى ٢١ مارس من تلك السنة.

إن الذى يعنينا قراء وكتابا وباحثين فى تاريخ مصر الحديث من الوجهة المصرية الوطنية القومية هو أن نقرر بعد طول الدرس والتفكير أن المماليك ولا سيما الطبقة الثانية منهم كانوا سبباً فى بلاء هذه الديار وعذاب أهلها أمداً طويلا ، فقد جعلوا أرض مصر ووادى النيل ميداناً للسلب والنهب والمظالم ، لأن وطننا لم يكن وطنهم وجنسنا لم يكن جنسهم ومصالحنا ومصالحهم على طرفى نقيض . ولم تكن أعمالهم فى مصر بدعة أولى بل سبقوا إلى أحوال أخرى ، فكان ظهور المماليك على مسرح الحياة الشرقية سواء فى آسيا أم فى شمال إفريقية أصلا وسيلة وعلة فى اضمحلال النهضة المصرية والشرقية وقضاء على الحياة العلمية والفكرية التى ابتدأت فى الازدهار على ضفاف دجلة والفرات والنيل وبردى والأردن فى عهد الدول الأموية والعباسية والفاطمية وما تفرع من الدولة العباسية من الدويلات كبنى بويه وحمدان وغيرهما ...

معركة مرج دابق :

كانت سلطنة السلطان قانصوه الغورى صاحب القبة والحى المشهورين باسمه فى القاهرة آخر عهود مصر المستقلة[1] وهو خليفة السلطان قايتباى . وفى

---

(١) انظر كتاب الدكتور عبد الوهاب عزام وكتاب إلياس الأيوبى « مصر فى عهد الإسلام » وكتاب « تاريخ الخلافة » تأليف موير المؤرخ الإنجليزى، و« مصر الإسلامية » للأستاذ عبد الله عنان . وتاريخ « ابن إياس ».

أغسطس سنة ١٥١٦ وقعت معركة مرج دابق التى خرج فيها الغورى إلى شمال الشام أقصى الحدود المصرية فقتل فيها وقضى على حياة مصر وزال ملك السلطان الأشرف الغورى فى لمح البصر فكأن لم يكن ، فسبحان من لايزول ملكه . وتابع الغزاة الأتراك من جيش السلطان سليم الأول العثمانى سيرهم من مرج دابق إلى القاهرة فوصلوها بعد أربعة أشهر أى من أغسطس إلى ديسمبر سنة ١٥١٦ ، فنهض لهم طومان باى (يوجد باسمه شارع بين ضاحيتى مصر الجديدة والقبة) لمقاومة الغزاة بحماسة عظيمة وهمة عالية بعد أن أعد وسائل الدفاع فنشبت بينهما مواقع هائلة ، وكان طومان يقود جيشا من المماليك أنهكهم الترف والدعة ولعبت برؤوسهم بنت الحان ، يخبّون فى ثياب فضفاضة من الحرير والديباج ويتقلدون أسيافاً طال العهد على غمدها ويمتطون صهوة جياد عرفت الخروج للصيد والسباق ومطاردة الغزلان أكثر مما عرفت الاشتباك فى حومة الوغى ، فدارت الدائرة على جيش طومان وكان وحده بطلا مغواراً دون من معه من الغلمان والمماليك ، وعبس القدر فى وجه مصر وجندها وانتقلت الحرب إلى الدروب والحارات فى القاهرة نفسها واستمر طومان متفانياً صابراً حتى انفض من حوله أنصاره المأجورون والمختثون الذين لم يعرفوا مصر وطناً لهم بقدر ما عرفوها مزرعة ومتنزهاً ومباءة للمسرات والتفاخر بالنساء والثياب والحلى والحلل والخيل . وقد لمّ طومان باى شعثه واستجمع من الضعف قوة والتقى بالترك فى الجيزة (مايو سنة ١٥١٧) فهزم فى نهاية معارك خمس وظفر به سليم فأمر بإعدامه شنقا على باب زويلة (باب المتولى الآن) أمام الشعب الذى كان طومان باى سلطانه منذ شهور . ومع ذلك فقد كان المماليك الذين انتهى عهدهم بالفتح العثمانى هم مماليك الدور الأول .

***

معركة إمبابة :

لم يتمكن سليم الأول من الخلاص من نفوذ المماليك الذين حاربوه بقيادة قانصوه الغورى وخليفته طومان باى لكثرة عددهم فى مصر وقوة نفوذهم واستمرار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تطل عليكم » ، فأصدر مراد بك أمره للفرسان بمهاجمة المشاة الفرنسيين فى خلال سيرهم لتعطيلهم وعرقلتهم فى تنفيذ خطة فصل قلب الجيش المصرى عن جناحه الأيمن ، وانقض مراد بك نفسه بنحو من سبعة آلاف فارس من أفخر فرسان المماليك بسرعة البرق الخاطف فدخلوا بين فرقتى ديزيه ورينيه كالمرود بين الجفنين.

ولكن بونابرت ودوجا وديزيه ورينيه حصروا المماليك بين نارين - وانسحب مراد بنصف فرسانه وتبعهم آخرون ليلقوا بأنفسهم فى النيل على أمل العبور إلى الضفة الأخرى على ظهور الجياد ، فغرق منهم بضعة الآف وفر المشاة من الأنكشارية وكانوا فى الخنادق وراء المتاريس فوضعوا ثيابهم فى أفكاكهم وقالوا «إلى النجاة!!» ولو كان لهؤلاء المشاة قيادة حسنة وعددهم ثلاثون ألفاً لتمكنوا من حصر الفرنسيين بين إمبابة والجيزة · أما السفن المصرية فلم تستطع القيام بعمل ، فأمر مراد بك بإحراقها بعد أن فقد ثلاثة أرباع جيشه فى معركة دامت يوماً واحداً سكرت عقبه جنود نابليون بخمرة الظفر ورقصت على نغمة الغنائم التى غنموها من در وجوهر وذهب وطنافس وثياب فاخرة وذخائر زاخرة وأطعمة لذيذة كان المماليك مزودين بها لشدة تعلقهم بمسرات الحياة ·

*****

معركة أبى قير البحرية :

ثم وقعت المعركة التالية ·

كانت معركة أبى قير البحرية بين الأميرال نلسون الإنجليزى والأميرال برويز الفرنسى من المعارك الفاصلة فى تاريخ العالم · وقد أخطأ الأميرال برويز فى أنه لم يعمل بنصيحة نابليون بأن يذهب إلى جزيرة كورفو وأخطأ فى أنه حين أبصر بالأسطول الإنجليزى لم يقابله فى عرض البحر بدلا من البقاء راسياً فى مياه أبى قير ·

وقد استطاع نيلسون فى ليلة واحدة أن يحطم السفن الفرنسية وأن يحرق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استجلابهم صغاراً من أوطانهم وبيعهم فى مصر للأعيان والأمراء ٠ فجعل سليم الأول حكام المديريات الأربع والعشرين من المماليك وخصهم بمزية جمع الخراج ٠ وانتهى الأمر بتفشى سلطة المماليك تفشياً خطراً على نفوذ العثمانيين وكثر عدد البيكوات منهم كثرة عظيمة إلى أن ظهر منهم وعلى رأسهم وأقواهم الملوك إبراهيم بك قارضوغلى فعين نفسه شيخ البلد أى رئيس المماليك وانفرد بالحكم إلى أن ظهر على بك الذى وصف بعد ذلك بالكبير ، وليس غرضنا شرح تاريخ على بك وإنما تبيين حالة مصر عند موقعة إمبابة وعقم سياسة الترك الذين تركوا مصر ألعوبة فى أيدى أولئك المماليك الأفاقين السفاكين للدماء الطامعين فى الاستزادة من الملك والسلطان ٠

كان من بين مماليك على بك الكبير : أبو الذهب ومراد بك ، وأحدهما بطل إمبابة !

أما على بك فقد اتسع نفوذه وضرب نقوداً باسمه وأطلق على نفسه لقب سلطان البرين وخاقان البحرين وحامى الحرمين ! وكان له فى القاهرة ثلاثة قصور ، وفى سنة ١٧٦٦ (أى قبل كارثة إمبابة بثلاثين عاماً) بعث على بك بطنطاوى بك إلى إصطمبول للبحث عن والده فوجده فى بلدة أماسيا (المشهورة بالفواكه ولا سيما بنوع من التفاح) وهو قسيس اسمه داوود فجلبه ، ولما قابله ابنه وهو سيد مصر ركع وسجد له وحمله الهدايا بعد الأفراح والليالى الملاح ومات على بك سجيناً مسموما بيد مملوكه القديم مراد بك ٠

إن واقعة إمبابة على عظيم أهميتها لا تعد حاسمة فى تاريخ العالم ولكنها فاصلة فى تاريخ مصر ٠ كانت قوة المماليك من مشاة وفرسان ممتدة بين إمبابة والهرم محصنين وراء خنادق ومتاريس ولايزيد الجيش كله عن ثلاثين ألفا ومعهم أربعون مدفعاً من الطراز القديم وعدد عديد من السفن فى النيل ووقفوا وليس فيهم عسكرى مصرى ماعدا الخدم والأتباع من العرب والرحالة ، وفى ١٩ يوليو وصل الجيش الفرنسى وقال بونابرت عبارته المأثورة لجيشه « إن أربعين قرناً من الزمان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويغرق الكثير منها بحيث لم يبق من تلك العمارة الكبيرة سوى بضع سفن صغيرة بقيت في مياه أبى قير استعملها نابليون بعد ذلك فى نقل المدافع إلى يافا فى حملته على الشام ٠ وقد وجهت إلى الأسطول الفرنسى ألوان من النقد المرير ، كما انبرى بعضهم للدفاع عنه ، غير أن كلا من الإنجليز والفرنسيس أظهروا فى ذلك الموقف العصيب من صفات الشهامة والبسالة والتفانى فى خدمة الوطن ما يجب أن يبقى درساً للأجيال الخالفة (راجع تاريخ دول البحار للمرحوم إسماعيل سرهنك باشا) ، غير أن المرحوم سرهنك أخطأ فى وقعة أبى قير البرية ولم يدقق فى تحقيقها ٠

*****

قال المؤرخ المذكور آنفا فى كلامه على موقعة أبى قير البرية إن بونابرت قهر الجيش العثماني الذى نزل فى أبى قير بستة آلاف مقاتل مع أن جيشه لم يقل عن ٢٠ ألف من خيرة جنوده عدا ٣٠٠٠ من الفرسان ، وكان العثمانيون ثلاثة أرباعهم عدداً وليس معهم سوى مائتى جواد (انظر مذكرات بونابرت التى أملاها فى سانت هيلانة وأقوال كاتب أسراره بوربين)٠ وكان سبب انتصار نابوليون السرعة التى جمع بها جيشه وهاجم بها العثمانيين كما كانت تلك الخطة سر فوزه فى المواقع الكبرى التى كسبها فى أوروبا - ولم يكن الجيش العثمانى مستوفيا أسباب النصر لقلة الخيل وعدم مبادرة المماليك للمعونة ، فسرعة بونابرت فى الهجوم ومتابعة الخيالة بالمدافع والبنادق مكّنته من إغراق عشرة آلاف أنكشارى ، وروى بعض المؤرخين أن محمد علي الكبير كان من الذين نجوا من الغرق فى هذا اليوم العصيب على يد سيدنى سميث قائد البحار البريطانى ٠

أما قائد الحملة العثمانية السر عسكر مصطفى باشا كوسة (له محطة فى الرمل باسمه) فقد أسره الجنرال مورات قائد الخيالة الفرنسية وجاء به إلى نابليون، فأحسن وفادته وأكرم مثواه وفرح المصريون فى القاهرة بهزيمة الترك وصاروا يعانقون بعضهم بعضاً وأطلقوا المدافع من قلعة الجبل ٠ وقد أثرت هذه المعركة فى

تاريخ الجنس البشرى لأنها مهدت لنابوليون العودة إلى فرنسا متوجا بغار الفوز والنصر والشهرة الحربية ، فقبض على صولجان الملك وكانت شجاعة مورات وشهامته في أبى قير سبباً فى توطيد علاقة المحبة بين نابوليون وبينه ، فزوجه من كارولين بونابرت - أخته - ثم أوصله إلى ملك نابولى فى إيطاليا .

وهنا يحضرنا تعليق دقيق على علاقة نابوليون ومورات الذى أبلى بلاء حسنا فى موقعة أبى قير البرية . فقد ذكرنا فى المقال الأسبق اسم جوزفين بين النساء اللواتى لعبن دوراً فى الحياة السياسية الفرنسية أثناء الثورة وبعدها ووصلت عن طريق مدام تاليان إلى الزواج من بونابرت . لقد كانت شجاعة مورات وإقدامه سبباً فى تغاضى نابليون عما نسب إليه من العلاقة الغرامية بزوجته جوزفين أثناء غياب نابليون فى معارك إيطاليا . فقد كانت لمورات بسبب رشاقته وحلاوة شمائله منزلة خاصة عند مدام تاليان وجوزفين ، ورن فى أذن نابليون نبأ هذه العلاقات فغضب عليه وأساء معاملته فى إيطاليا ولم يقبله فى حملة مصر إلا مرغما بتأثير مدام تاليان ولم يصف له قلبه إلا بعد موقعة أبى قير التى صيرت الأول إمبراطوراً والثانى ملكا على حساب مصر .

هذه ثلاث معارك حدثت فى هذه البلاد وتلتها معارك أخر كان الحرب فيها سجالا بين مصر والحبشة والسودان كما حارب المصريون فى القريم وإقريطش واليونان وتركيا والحجاز والمكسيك .

وهكذا الأقدار !!!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حقيقة موقعة التل الكبير من رواية شاهد عيان ومعاصر صادق نقلا عن كتاب جون نينه المؤرخ السويسرى «عرابى باشا والثورة المصرية»[1]

لقد كانت موقعة التل الكبير التى حضرتها وشهدتها ووقفت على كل دقيق وجليل من تفصيلها[2] لطخة عار لا تمحى فى تاريخ الإمبراطورية ، كان حلما شيطانيا حققته بريطانيا ؛ ومهدت له ، وأعدت ما استطاعت ، وسلكت له كل السبل ، تارة الدبلوماسية السوداء ، وانتهاك حرمة القوانين الدولية ، ومقاومة فرنسا التى كانت تزاحمها مزاحمة عنيفة ، وطورا بمعاداة إسماعيل باشا خديوى مصر ، وتربصها للايقاع به ، واستدراجه إلى الاستدانة ، ومقاومة عزمه على تقوية الخطط الدستورية التى اتجه إليها لينقذ وطنه .

وقد استمرت هذه المعاداة لأحمد عرابى والبرلمان المصرى ، لأن الدستور لو توطدت أركانه فى مصر، كان خليقا بأن يزحزح الكابوس الإنجليزى الجاثم على صدر مصر ويشل يدها القابضة على عنق الدلتا .

فلما حل موعد الموقعة ، لم تركن بريطانيا إلى قواعد الحرب أو قوانين القتال ، ولم ترع حيدة القناة المضمونة ضمانا دوليا ، بل أسرجت خيول سانت جورج (عبارة مجازية عن الجنيهات الإنجليزية الذهبية) وأطلقتها فى حلبة السبق ، لتحرز النصر ، سداه الغدر والخيانة ، ولحمته الرشوة والدسيسة .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة الدستور فى ٥ إبريل سنة ١٩٤٧ .
وتجدر الإشارة هنا إلى أن لطفى جمعه زار جون نينيه فى بيته بسويسرا سنة ١٩١٠ وسجل هذه الزيارة فى كتابه « تذكار الصبا ، ذكرى ١٩ مارس » ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، عالم الكتب ، القاهرة سنة ١٩٩٩ ، كما سجلها أيضا فى مذكراته المعنونة « شاهد على العصر » ، ص ٢٢٩ ، رقم ١٨٣ من سلسلة تاريخ المصريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٠م .

(٢) المتحدث هنا جون نينه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد قام فى فرنسا نزاع خطير حول الدفاع عن قناة السويس ليبرّ دلسبس بوعده لعرابى ، فإنه تعهد لزعيم الثورة وقائد الجيش المصرى بقوة حربية فرنسية تقاوم إلى جانبه إذا أنزلت بريطانيا جنودها فى الإسماعيلية ، أو خرقت حرمة القناة الدولية .

ولم يكن دلسبس كاذبا ، ولكن السياسة تكذب ، فقد تقدم موسيو دى فريسنيه رئيس وزراء فرنسا إلى مجلس نواب باريس بفتح اعتماد لإعداد الحملة الحربية للدفاع عن القناة ، فلم يجبه المجلس إلى طلبه فاستقال فى أول أغسطس سنة ١٨٨٢ .

وتشكلت وزارة دوكلاك وقيل لنا فى المجلس الحربى المنعقد فى الزقازيق فى أواخر أغسطس إن دوكلاك ليس مواليا للإنجليز ، ولكنه تهيب بسمارك ويخشى أن يخالفه ، وأن جلادستون قد نال رضى بسمارك وحاز موافقته ، فلم يستطع الوزير الجديد أن يستمر فى الخطة التى سلكها سلفه دى فريسنيه وأدت إلى استقالته .

وقد فسرت لعرابى والبارودى وطلبة جمعة وبقية رفاقهم معنى هذه الحركة وهو أن ألمانيا وفرنسا بعد إيطاليا قد كففن أيديهن عن معونة مصر ، وتركنها لقمة سائغة للإنجليز ، وبدأت أقنعهم بضرورة ردم القناة وسدها وتعطيلها لتحول بيننا وبين نزول الجيش الإنجليزى إذا عبرت سفائنه قناة السويس ، ولم يدرك أهمية هذا العمل غير محمود فهمى باشا ويعقوب صنوع (صاحب أبو نضارة زرقا) وعبد الله النديم والأخيران لم يكونا رجال حرب ولكن صحفيان نابهان ووطنيان مخلصان.

ولكن عرابى عمى وصم عن خير وطنه ، ولو أنه أصغى لنصحى ونصحهما لنجت مصر إلى الأبد ، ولأخلد اسمه ، وصار بحق منقذ مصر ، واستحق تقدير الوطن .

كان أحمد عرابى رجلا مستقيما وخادما لوطنه ، وشغوفا بالحرية ومؤمنا بالحق، وخطيبا فصيحا ، وكانت شهرته تبلغ شأو جاريبلدى ولكنه لم يكن قائدا بالمعنى المعروف عندنا فى سويسرا على الأقل ، لم تكن عنده حرارة ديفور (محرر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقاطعة جنيف وطن الكاتب) ولا داقل ((محرر مقاطعة لوزان) ، ودع عنك غيوم تل « بطل سويسرا الأول »... .

ولكن كان حوله رجال أفذاذ ذوو شجاعة وإقدام وعقول مدبرة ، وعلى جانب كبير من فنون الحرب والهندسة ، ولكن أحمد باشا لا يسمع لنصحهم ويخشى بالوهم ما يسميه الرأى العام فى أوربا .

وطالما أفهمته أن هذا الرأى العام خرافة وأن أوربا متألبة على الشرق وأنها دبرت مؤامرة منذ عشر سنين لابتلاع قارة إفريقيا شمالها وجنوبها شرقها وغربها .

وكان بجانب الأمناء الثقاة ، الثقاة فى جيشنا بمديرية الشرقية ، خونة يدفعهم الإنجليز ويدفعون لهم ويحرضهم توفيق باشا ويمنيهم بالباطل . وفريق ثالث من الباشوات الشراكسة الذين يحقدون على الجنس المصرى الفلاح ويتربصون بهم الدوائر ، ومن هؤلاء على يوسف (الشهير بخنفس) وقد زعم البعض أنه مصرى صميم ، والحقيقة أنه من حثالة الترك وكان قائد قلب الجيش المصرى للأسف الشديد وهو الذى توسط سلطان باشا فى شراء ذمته للإنجليز فانسحب بفرقته ليفسح الطريق لجنود ولزلى .

ثم عبد الرحمن حسن قائد الخيالة الكشافة (فرقة الاستطلاع السوارى) ، وقد تعمد إغفال تنبيه الجند وتحذير الجيش عندما رأى الغزاة يدبون مشاة فى الظلام .

ثم راغب ناشد بك وهو قائم مقام فى المقدمة ، هؤلاء هم الخونة ، أما الأورطة السودانية التاسعة فقد حاربت حرب الأبطال حتى فنيت عن آخرها ، وصمدت للإنجليز وأذهلتهم .

وطالما نصح محمد عبده وعبد الله النديم ويعقوب صنوع لعرابى أن لا يأمن جانب الشراكسة لأنهم لايعتبرون مصر وطنهم ، ولأنهم يعلمون بغضه إياهم ، ويطيعون الخديوى توفيق ، وقد أعطاهم سلطان باشا أكياسا من النقود الذهبية ، تكشفت لهم بعد الهزيمة نحاساً مموها بالذهب ، وقد ضبط بعضها فى الأسواق وقبض على أصحابها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان معنا فى معسكر التل الكبير الدكتور مصطفى بك طبيب عرابى الخاص وهو رجل صادق شريف راجح الفكر ، وقد عاشر عرابى كما عاشرته واتفق معى على أن عرابى يختلف عمن حوله ، وأنه الوحيد الذى لا غاية له إلا خدمة وطنه وقومه ، وأنه لا يسعى إلى دنيا يصيبها أو منصب يرتقيه ، وأنه متنور فى دينه ، ولا يحمل تعصبا ولا يضمر كيدا لأحد .

ولكنه كان كثير التصديق يبذل ثقته بسهولة ، ويحسن الظن بكل من يبشّ أو يهش فى وجهه ، ومن سلامة نيته وطهارة قلبه أن خدعه سعود الطحاوى ، ذلك البدوى الأفّاق المأجور ، شيخ القبيلة التى أعادها إسماعيل باشا ، بعد أن جلاها سلفه سعيد عن الحدود ، لكثرة فسادها فى الأرض .

وظن عرابى أن سعوداً شيخ قبيلة الطحاوية عربى بالمعنى القديم المعروف أى أنه وطنى مؤمن مخلص صاحب نجدة عارف لجميل ، فإذا به وسلطان باشا يدخلان على رأس الغزاة يحملان المشاعل ، وكان هذا الرجل البدوى يتناول باليدين ، يأخذ من عرابى ومن الإنجليز ويخدم إلهين ويأكل على مائدتين ولم يرع إلا ولا ذمة .

وقد دخل البدو الطحاوية مع الإنجليز قدما بقدم ، وكان منهم من أطلق النار على عرابى باشا نفسه ، وسبّوه أقذع السب فى مواجهته ، وحرضوا بعض الجنود على الفرار من الميدان .

وكان عرابى يخوض غمار المعركة شاهرا سيفه ، ويخطب فى الجنود ويحثهم على الثبات وقد ثبتوا فذبحوا عن أخرهم تلك الليلة القمرية ، ونجا كل الخونة لأنهم دبروا فرارهم قبل خوض غمار المعركة الصورية المزيفة ليعلنها الإنجليز نصرا مؤزرا ، وهم يعلمون أنها كانت تكون لهم هزيمة منكرة لو لم يلجأوا إلى الخيانة والرشوة .

وكنت بجانب عرابى ، وبيدى بندقية ، ولما أوشك الإنجليز أن يطبقوا على عرابى رجوته فى الثبات فاستعد للموت والاستشهاد ، ولكن طبيبه الدكتور مصطفى بك (لا خادمه الخاص) نصح له بالفرار على صهوة جواده .

أما الثبات فلم يكن مستطاعا إلا للسودانيين الذين خندقوا ، وأما موت عرابى، فكان خليقا أن يحفظ اسمه ويخلد ذكره .

وأشهد وأنا أسجل هذه الأحداث عقب حدوثها مباشرة ، وبعد أن نجوت من الموت بمعجزة لأدون ذلك الكتاب المخزى لأعداء مصر ، أن محمود فهمى قائد المدفعية كان عظيما وكذلك كان عبد العال .

أما محمود سامى ويعقوب سامى فجركسيان انضما للحركة الوطنية نكاية فى توفيق ، ولكنهما ضابطان شريفان مخلصان ، بغض الطرف عن الحوافز والدوافع والبواعث ، فلا هما ولا طلبة جمعة تجرأ أحد من مدبرى الخيانة والرشوة أن يتقدم إليهم .

وعندى الآن كل الأدلة والوثائق على أن المؤامرة دبرت ضد مصر قبل يوليو ١٨٨٢ ، وقبل ضرب الإسكندرية بالقنابل ، وكان شريف ورياض (الباشان اللذان توليا الوزارة مرات عدة) مع الإنجليز ، ويضمران للخديو توفيق الاحتقار ، ويسعيان للوصاية على العرش بعد خلعه وانضم إليهما سلطان باشا رئيس مجلس النواب .

وهذا الأخير قد تهتك فى خدمة الإنجليز ورفع نقاب الحياء وافتخر جهرا بنيشان « ميخائيل وجورج » الذى قلده الإنجليز إياه بجانب عشرة آلاف جنيه دفعت له تعويضا .

أما موقعة كفر الدوار ومناورة القصاصين ، ووقوع محمود فهمى باشا فى الأسر، وإصابة حوافر جواد ولى عهد إنجلترا ، ومذبحة طنطا والدور الذى مثله إبراهيم أدهم مدير الغربية الجركسى ، فيجدها القارىء فى مكان آخر من هذا الكتاب» انتهى .

ولا تعقيب إلا ارتعاش الكاتب والقارىء وارتجافهما ارتجاف العصفور، لا الذى بلله القطر ، بل بللته الدموع وعرق الخجل !!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضرب الإسكندرية
يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ (١)

لكى يقف القارىء على مغزى الفاجعة التى أصابت بلادنا بضرب الإسكندرية والشروع فى سلسلة من الاعتداءات على قوميتنا وحريتنا واستقلالنا يجب أن نلخص له الحوادث التى سبقت هذا الضرب ·

فقد كانت فى مصر ثورة ابتدأت برغبة الضباط المصريين فى المساواة مع الضباط الشراكسة والأتراك فى الجيش من حيث الترقيات والعلاوات · وليس فى العالم أعدل من هذا الطلب ، ولكن الخديو بدلا من أن يجيبه عارضه وأصبح له بذلك حزب من الشراكسة والأتراك ·

ثم تنبه الجمهور إلى هذه الحركة فعطف عليها وظهر له زعماء يطلبون إيجاد برلمان ·

وأصبح الجيش والأمة على وفاق فى هذا الطلب ، فاضطر الخديو إلى النزول عليه· وأعلن قانون مجلس النواب وانتخب الأعضاء وسار المجلس فى درس المشروعات المعروضة عليه إلى أن اصطدم بالميزانية · وحينئذ رأى المجلس أن من حقه أن يكون هو الذى يقرر إيرادات الدولة ومصروفاتها بعد استثناء القسم الخاص منها بالديون· وهذا الاستثناء كان منه منتهى الاعتدال ، ولكن إنجلترا وفرنسا رفضتا مع ذلك أن يكون له حق النظر فى شىء من الميزانية ·

ورأت الدولة العلية أن الشقاق يزداد فأرادت أن تنتفع به كما أن الخديو نفسه أراد أن يستند إليها ، فأوفدت بعثة لدرس الحالة فى مصر على رأسها درويش باشا·

وكان درويش تركيا فلم يسعه إلا ممالأة الأتراك والشراكسة فى مصر · فلما

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة البلاغ فى ١٠ يوليه سنة ١٩٣٢·

جاء طلب من عرابى أن يغادر البلاد ويقصد إلى الآستانة حيث يقضى سائر حياته. فرفض عرابى هذا الطلب ، وعاد فرفضه مرة ثانية عندما عرضه عليه قنصل فرنسا بضعفى مرتبه وضمان الإقامة له فى فرنسا .

ورأى خصوم عرابى ورأى الإنجليز معهم أنه لا يمكن إلغاء مجلس النواب وهدم الحركة الوطنية إلا بحادثة كبيرة ، وكانت الإسكندرية تحتوى على عدد كبير من الأجانب لم تكن علاقاتهم بالوطنيين حسنة فى أى وقت من الأوقات . وكان محافظ الإسكندرية عمر لطفى يكره الحركة الوطنية ويشايع الشراكسة والأتراك . ثم جاء الأسطول البريطانى فكان وجوده فى هذه الظروف محركا للضغائن مثيرا للفتن بين الأجانب والوطنيين . وتسلح المالطيون وأغضى عنهم القنصل الإنجليزى كوكسون فكانت جميع الظروف مهيأة لأحداث شغب فى الأسبوع الأخير من شهر مايو أو فى النصف الأول من شهر يونيه .

وحينئذ يروى مستر بلنت أن الخديو أرسل إلى عمر لطفى تلغرافا سريا فى ٥ يونيو قال فيه :

« لقد تعهد عرابى بحفظ النظام وأعلن ذلك فى الجرائد وقبل على نفسه المسئولية أمام القناصل . فإذا نجح فى هذا التعهد فإن الدول يثقن به وعندئذ يضيع اعتبارنا . ثم إن أساطيل الدول موجودة فى مياه الإسكندرية فعقول الناس متهيجة والمشاجرات ليست بعيدة الوقوع بين الأوربيين وغيرهم . فالآن اختر لنفسك هل أنت تنوى خدمة عرابى فتساعده على تعهده أم تنوى خدمتنا ؟» .

وهنا يقول مستربلنت :

« كان فى هذا التلميح ما يجعل عمر لطفى يتخذ إجراءاته . وكان باعتباره محافظا له حق الأمر على المستحفظين وهم يؤلفون بوليس الإسكندرية الشبيه بالحربى . وبواسطة هؤلاء أمر أن تجمع النبابيت فى أثمان الأقسام لكى توزع فى الوقت المعين . ثم أعدّ الإعدادات الأخرى اللازمة لإحداث الاضطراب المقصود » .

وقد أنكر الخديو توفيق باشا أنه أرسل هذا التلغراف الذى يعزوه إليه عرابى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومستربلنت ، كما أنكر أنه كان له ضلع فى مذبحة الإسكندرية التى حدثت بعد ذلك. ولكن عرابى وأنصاره أكدوا فى كل وقت أنه هو المسئول عن المذبحة وأن عمر لطفى كانت له يد فيها وأن الإنجليز كانوا من ورائهما .

وعلى كل حال لقد حدثت المذبحة فى يوم الأحد ١١ يونيه وكان سببها أن أحد المالطيين ركب عربة وأخذ يدور بها على حانات الخمر فى الحى الأوربى إلى أن وصل إلى قهوة كانت تسمى « قهوة القزاز » . وكان هذا المالطى سكران فأعطى سائق العربة قرشا واحدا فاستاء السائق وطلب منه الأجرة التى يستحقها فغضب المالطى وأخذ سكينا من سكاكين القهوة التى تستعمل لقطع الجبن كانت مربوطة فى خيط كبير متصل بخوان القهوة ثم طعن بها السائق . فكانت الطعنة قاتلة لأنها أصابت أحشاءه . ثم جاء رجل لمساعدة الجريح فقتله يونانى . وحينئذ ثارت مشاجرة قتل فيها خباز يونانى كان يعيش فى البناء الملاصق للقهوة .

وكان معاون قسم اللبان - وهو القسم الذى حدثت فيه هذه المشاجرة - إيطاليا، فلم يفعل شيئا جديا لإيقاف المشاجرة فانتشرت حتى صارت مشاجرات فى كل مكان . وهذه المشاجرات هى التى سميت مذبحة الإسكندرية .

وكان مسيو جون نينه - وهو كاتب سويسرى كان ينصر الحركة الوطنية المصرية ويؤيد عرابى والجيش - فى الإسكندرية فى ذلك اليوم فكتب يصف ما شاهده بعينه فقال [١]:

« كنت فى الإسكندرية فى يوم الأحد وكانت المدينة فى سكون تام . وعند الساعة الثانية بعد الظهر أرسلت خادمى السودانى ليحضر لى عربة أتوجه بها إلى مركز قيادة الحامية . وكان القائد شركسيا اسمه خورشد باشا ولكنه رجل طيب ، وكان من أتباع إسماعيل باشا ولذلك كان معاديا للخديوى توفيق . وبعد أن تأخر

---

(١) انظر المقال السابق ، ص ٣٢٠ - ٣٢٤ من هذا الكتاب .

خادمى فى هذه المهمة نصف ساعة عاد وطلب إلىّ ألا أذهب إلى حيث اعتزمت لأن هناك مشاجرة عند قهوة القزاز فى شارع الأخوات ، وهى بقعة يتجمع فيها عادة فى أيام الآحاد جميع أوباش الأوربيين والحمالون والأعراب . وقال لى أيضا إن اثنين من المسلمين قتلا .

وبعد ذلك توجهت إلى المكان على قدمىّ ولكنى لم أخترق الميدان بل سلكت شارعا خلفيا فوجدت شارع الأخوات مملوءا بالمخلوقات من إفرنج ومسلمين ولم أر اقتتالا بالقرب منى . ولكن على بعد مائتى ياردة شاهدت الجماهير تموج كالبحر ورأيت طلقات نارية تنطلق من النوافذ . ولم تلبث المعركة أن تقدمت إلى ناحيتنا فتراجعنا إلى أن وصلنا إلى مدرسة الرهبان حيث رأيت أمام قهوة من القهوات حوالى اثنى عشر روميا مدججين بالبنادق . وحينما تركنا الطريق بدأ هؤلاء الأروام فى إطلاق النيران على الجماهير بدون حساب ، وفى هذه اللحظة رأيت عربة بداخلها جندى من جنود البوليس مجروحا أو قتيلا . ويظهر أن هذه كانت إشارة الخطر ، لأنه حدث بعدها مباشرة أن حضر مندفعا إلى مكان الحادث جمهور من المسلمين من كل ناحية وأغلبهم من البرابرة والأعراب من أهل الصعيد حاملين العصي . وعندئذ أصبحت الطلقات النارية عامة فى كل مكان ، ولذلك عدت إلى منزلى . ولاقيت فى طريقى عربة بها المستر كوكسون (قنصل إنجلترا فى الإسكندرية) وكان فى منزل رجل مالطى قبل ذلك بقليل وأن هذا المنزل نفسه هو الذى أطلق منه الرصاص على الأهالى .

وحينما كان المستر كوكسون خارجا من هذا المنزل ضربه الأهالى لأنهم اعتبروه مسئولا عن إطلاق الرصاص ، والمعروف أنه كان قد نصح للمالطيين قبل ذلك بأن يحموا أنفسهم فى حالة حدوث هياج .

ثم قابلت بعد ذلك عند الساعة الثالثة عمر لطفى يتمشى فى ملابس عادية مع نفر من البوليس وسألته عن السبب الذى منعه من إيقاف الاضطراب فقال : « كنت مع القنصل الإنجليزى الذى ضربه الأهالى » فقلت : « ولكن لماذا لم تذهب فى لباسك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرسمى ومعك خمسون رجلا من البوليس السوارى وتوقف الاضطراب » فقال إنه لم يعثر على قنديل رئيس البوليس . فقلت : « ولكن الجند ؟ لماذا لا يقومون بالعمل هم أنفسهم » فأجاب « إنهم يعقدون اجتماعا الآن » فسألته لماذا لم يرسل تلغرافا لمندوب السلطان (أى درويش باشا) فأجاب فى غلظة « وما شأنك أنت وهذا؟» إلى أن قال مسيو جون نينه :

ولقد أحدث وصول الأسطول الإنجليزى إلى مياه الإسكندرية شعورا عدائيا شديدا بين المصريين والجالية الأوربية . فالأوربيون رأوا فى حضوره مقدمات أولى الحرب فأصبحت معاملاتهم للأهالى على شىء كبير من العنف وكانوا يقولون « الآن سترون ماذا نفعل » . وبالنسبة للمصريين أصبح الحادث موضع حديثهم اليومى وأثيرت بينهم احتمالات كثيرة . وانتشرت فكرة جديدة هى أن الجنود ستنزل من الأسطول إلى البر وأن البلاد ستحتل بالإنجليز . وكثيرا ما سئلت فى هذه الأثناء عما إذا لم تكن هذه نية الأسطول الحقيقية . وازداد هذا الظن رسوخاً عندما عرف أنه كتب عقد بين الأميرال سيمور والمسيو كنراد لتموين الأسطول لمدة ثلاثة أشهر. وأصبح الناس ولا حديث لهم إلا ذلك الهياج ... وقد سبب هياج الافكار هذا فزع الأوربيين وخصوصا الإنجليز والمالطيين منهم الذين كانوا دائمى الاستشارة لقناصلهم فى الطريقة التى يتبعونها لحماية أنفسهم فى حالة حدوث اضطراب .

وقد أخبرهم مستر كوكسون بأن يستعدوا لحماية أنفسهم فى أواخر مايو أو أوائل يونيه ، وعرف فى الوقت نفسه أنه أرسلت آلات نارية من بلاد اليونان لتسليح الأروام بالإسكندرية . واشترى الإنجليز كل ما عثروا عليه منها فى المدينة . وعلمت من موظفى مصلحة الجمارك أن بنادق ومسدسات من ماركة شليدر أرسلت إليهم من الأسطول ، وبناء على ذلك أصبح حدوث معركة من المسائل المؤكدة تقريبا».

هذه هى الحادثة التى سميت « مذبحة الإسكندرية » وقد حدثت فى ١١ يونيه . وفى مثله من شهر يوليه ضرب الأسطول الإنجليزى مدينة الإسكندرية . فكأنما كان مقدرا على هذه المدينة أن يكون يوم ١١ يوم شئوم عليها وعلى مصر فى الشهرين .

ومن هذه البيانات يتضح أن عمر لطفى من جهة ومستر كوكسون من جهة أخرى كانت لهما يد فى تدبير وقوع هذا الحادث ومهدا السبيل للسياسة الإنجليزية للوصول إليه لتتخذ إنجلترا منه ذريعة للتدخل والاحتلال .

وكان عرابى لا يعلم بالمذبحة فى أول الأمر ، فلما علم بها شعر بأن خصومه سيلقون مسئوليتها عليه ليقولوا إنه عجز عما تعهد به من حفظ النظام ، فأمر الجيش بأن ينزل إلى المدينة على عجل وأن يسكن الاضطراب ، فعمل الجيش بأمره ولم يكد يظهر فى شوارع المدينة حتى هدأت الثائرة وعاد كل شىء إلى السكون .

* * * * *

ومنذ ذلك الحين أخذ الأميرال سيمور قائد الأسطول الإنجليزى يتأهب للتدخل العسكرى . فانقضت المدة ما بين ١١ يونيه و ١١ يوليه فى التأهب فانتقل الخديو توفيق باشا من القاهرة إلى الإسكندرية وانتقل الأوربيون من أهل الاسكندرية إلى سفن الأسطول الإنجليزى وغيرها من السفن الراسية فى الميناء . ورأى المصريون هذا الانتقال فلم يخطئوا فى فهمه بل أيقنوا أن القنابل ستضرب المدينة .

وغدا نقول كيف كان هذا الضرب وماذا حدث فيه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذكرى ١٤ سبتمبر
لئلا تنسى !! (١)

—

بلسان الإنجليز أنفسهم عبارة بليغة حفظناها فى مدارسهم (لأن المدارس المصرية كانت لعهد الدكتور دوجلاس دنلوب مدارس إنجليزية) وتلقيناها على أيدى أساتذة منهم ، وقد اتخذها بعض شعرائهم المشهورين عنوانا لقصائدهم الغزلية أو الوطنية ، فليسمحوا لنا أن نتخذها عنواناً لهذا الخاطر من خواطر المساء « لئلا تنسى »، لعل القراء يتخذونها شعاراً لهم فى ذكرى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ! وهو ذلك اليوم الذى حدثت فيه معركة التل الكبير ، ودخل الإنجليز ، بالمكر والحيلة ، مخترقين سياج المعاهدات الدولية وحيدة قنال السويس – بجيوشهم الأراضى المصرية وحاربوا فلول الجنود العرابية وكانت هذه الهزيمة المصطنعة بداية عهد الاحتلال والهوان والحماية وما تلاها من الويلات والمصائب التى عانيناها منذ خمسين عاماً .

إن الأوربيين والأمريكان علمونا تخليد ذكرى الهزيمة والنكبة ، كما تخلد ذكرى الانتصار والفرح . وها هى فرنسا لما فقدت الألزاس واللورين فى حرب السبعين نصبت لهاتين المقاطعتين تماثيل فى كل عاصمة وحاضرة من حواضرها ليتذكرها الأبناء والأحفاد ، وما زالوا ينادون بالانتقام حتى فازوا بعد الحرب العظمى باستردادهما ، ونحن يجب علينا أن نخلد ذكرى التل الكبير حتى نمحو عاره بمفخرة الاستقلال التام .

وإنك لتسير بالقطار فى ذلك الوادى المكفهر المحزن الذى يمتد شرقا من الزقازيق عاصمة الشرقية إلى قنال السويس ، فتكاد تمس شبح الموت والفناء يرفرف على جوانبه وتشعر برهبة تتلوها قشعريرة فتسأل نفسك عن السبب ، فإذا بمحطة

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بعامود المؤلف « خواطر المساء » فى جريدة المساء ، سبتمبر سنة ١٩٣٢ .

جرداء سوداء تقطع عليك تأملات ذلك الحلم المزعج ، فإذا قرأت اسمها انتقلت فوراً من عالم الخيالات والأشباح إلى عالم الحقيقة المزعجة ، وتلك المحطة هى « التل الكبير» ... وحولها وأمامها وخلفها وعن يمينها ويسارها لا تلقى إلا أكواما من الرمال وتلالا من التراب القاتم الضارب للزرقة ، وبضعة قبور مبعثرة لعلها تضم رفات بعض الشهداء الذين ذبحوا ذبح الشاة فى تلك الليلة المقمرة (ليلة ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢) ، فقد كتب مؤرخو الإنجليز أنهم ذبحوا عشرين ألفا من جنودنا فى ضوء القمر ، ورووا بصراحة ما كان من خيانة بعض الأعيان والأعراب ممن لم يكن للحق والشرف على أنفسهم (سلطان) [١] .

فهل لنا أن نرفع نصبا ولو قطعة من صخر صلد نحفر عليه التاريخ واليوم واسم المعركة وعدد القتلى !

لقد رأينا فى بورت سعيد والسويس تماثيل وأنصابا لعشرات أو مئات من جنود الهند وأستراليا ونيوزيلاندا الذين استشهدوا فى سبيل الإمبراطورية ، وتلك تماثيل أقيمت لجنود أجنبية فى بلادنا ، أفلا نقيم تمثالا لجنودنا الذين ماتوا فى سبيل الدفاع عن وطننا ووطنهم وقتلوا غيلة ، والله بالسر عليم ؟ ألا يوجد لمصر جندى مجهول مدفون فى تلك البادية المقفرة الموحشة نقيم له ذراعا من الحجر المنقوش ؟!!

التل الكبير ! لئلا ننسى ! ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢!

تذكار عشرين ألفا من المصريين والسودانيين ماتوا فى سبيل الوطن .

لئلا ننسى !

---

(١) لايخفى على القارىء مغزى وضع المؤلف هذه الكلمة بين قوسين تلميحاً إلى أحد هؤلاء الخونة وهو سلطان باشا !

شهر يوليو من كل عام (١)

هو السابع من الشهور تبعاً للتقويم الجريجورى ، وقد سمى تخليدا لذكرى «كايوس يوليوس قيصر » ، الطاغية الرومانى الشهير ، الذى بدأ حياته خادماً أمينا للجمهورية ، وختمها ديكتاتوراً يعرض عليه التاج والصولجان فيأباهما تصنعاً لا تعففاً ، على أنه لم يكن فى حاجة إليهما مادام هو المتصرف فى العباد ! وقد أطلقوا اسمه على الشهر السابع لسببين ، الأول أنه كان من مواليد هذا الشهر الخطير ، والثانى لأنه أصلح التقويم السنوى وعدل تقسيم الأشهر والأيام ، فكان جديراً بأن يطلق على أحد الشهور اسمه الميمون .

نقول إن شهر يوليو ذو خطورة لأنه السابع ولعدد السابع عند المسلمين وعند فلاسفة اليونان شأن جليل بل كان هو أساس فلسفة فيثاغورس الكبير ، أما فى التاريخ الحديث فإن لهذا الشهر ، شأنا يذكر فى سجل كل أمة من الأمم فى الشرق والغرب على التقريب .

ففى ٤ يوليو من كل عام تحتفل أمة الولايات المتحدة بعيد استقلالها المجيد ، لأنه فى ٤ يوليو سنة ١٧٧٦ أعلنت أمة تلك الجمهورية ، التى كانت مستعمرة بريطانية ، استقلالها القومى ، وعاشت حرة من ذلك التاريخ إلى الآن وستبقى هكذا إلى ماشاء الله بعد أن اشتد ساعدها وبورك فيها ، وأصبحت من أعظم أمم العالم إن لم تكن أعظمها ، وكان الفضل فى ذلك الاستقلال لاتحادها ولقائدها العظيم جورج واشنطون وهو يوم عيد وفراغ فى تلك الجمهورية العظيمة ، يمرح فيه الشعب ويفرح ، راتعاً فى بحبوحة الحرية التى لا تعادلها أية نعمة أخرى !

وهذا الشهر السابع (يوليو) له مكانته فى فرنسا أيضا ، فإن يوم ١٤ يوليو يوم سعيد ، ذو شهرة عالية ، إذ يحتفل به الفرنسيون حيثما كانوا فى سائر أنحاء

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بعامود المؤلف « لعل وعسى » بجريدة البلاغ فى ٢١ يوليه سنة ١٩٢٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العالم لأنه ذكرى لسقوط حصن « الباستيل » فى سنة ١٧٨٩ ، وبسقوطه تهدم آخر صرح من صروح الظلم فى فرنسا ودق ناقوس العهد الملكى فى أرض «ماريان»! وتأسست الجمهورية الأولى ، وأعلنت حقوق الإنسان التى قلدتها جميع الأمم وأطلقوا عليها : Déclaration des droits de l'homme et du Citoyen

ولم يكن يوليو شهر سقوط الباستيل ليس غير ، بل كان شهر الثورة الفرنسية الثانية فى ١٨٣٠.

*****

ولكن هذا الشهر لا يحمل ذكرى السعادة القومية لكل الأمم ! فقد تمر أيام من أيامه بالغم والنكد على بعضها ، وقد ترى بعينها الغرباء والأضياف يحتفلون بأعيادهم ويذكرى أيامهم الجليلة. وهى لا تملك لنفسها حق البكاء والتصريح بالألم !

ولقد أخطأ من قال إن الأيام تتشابه ، وكذلك الليالى والأسابيع والشهور والأعوام ، أخطأ حقا ، لأن الأيام تلبس لبوس السعد للبعض ، وللبعض لبوس الشقاء ، بيد أن الأمم التى لديها مايحزنها من ذكرى الأيام ينبغى لها أن تكون أكثر حرصا على الذكرى من الأمم الهنيئة بأعيادها، وإننا فى مصر نعانى الآلام حقاً من سنة ١٩١٤ إلى هذا العام ، خمس عشرة سنة سلخناها من أعمارنا وأعمار أبنائنا بدموع الألم الدائم والأمل الخائب !! فقد كانت الحرب العظمى وويلاتها ، ثم جاءت الهدنة ومعاهدة فرساى ، وتلتها سنة ١٩١٩ فنهضنا وتجلدنا ، وكافحنا ، وجاهدنا ، وتألمنا ، وحلت فترة المفاوضات ، ومشروع ملنر المعلوم وتصريح فبراير سنة ١٩٢٢ والبرلمان الأول ، ومقتل السردار وضيعة السودان ، وتعطيل البرلمان وهكذا إلى آخر عهدنا بتلك الحوادث ، وها نحن فى ١٩٢٩ فى يوليو ذلك الشهر الحزين وقد تحركت فيه خواطر الماضى !! فهل نسينا أم نحن ذاكرون ؟

ففى هذا الشهر من سنة ١٨٨٢ ، ضرب سيمور ثغر الإسكندرية بالمدافع ، ومن عجائب الأقدار أن مستر لويد جورج الذى كان حديث عهد بالبرلمان فى سنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٨٨٢ لأنه كان منتخباً فى ذاك العام أول مرة ، جعل خطبته البكر التى افتتح بها حياته السياسية احتجاجا على ضرب الإسكندرية بالقنابل ، ووصف هذا الفعل بأنه وحشى وأنه عمل غير سياسى وسيعود على الإمبراطورية بالويلات إلى آخر ما أملى عليه فكره الخصب وضميره الشريف ، وعقيدته النقية فى ذلك الزمان ، قبل أن تغيره الحوادث ، وكان فى ذلك يسير على خطوات السياسى الإنجليزى الشهير جون برابط وهو من فحول النواب الذين غضبوا لتلك الفعلة الشنعاء .

ولأمير البحر سيمور فاتح الإسكندرية (تمثال) نصفى مرفوع فى حديقة الكنيسة الإنجليزية فى ميدان محمد على بالمدينة التى غزاها وشتت شمل أهلها . وما رأينا أمة تمجد محاربيها القدماء والحديثين مثل هذه الأمة ، وإننا نسأل الإنجليز هل يقبلون أن يكون للجنرال هندنبرج أو لأمير البحرفون تربيتز تمثال فى (ترافلجار سكوير ؟) أم يحب الفرنسيون أن يكون للمارشال فون مولتكه نصب فى ساحة أنقاليد ؟!!

هذا هو شهر يوليو الذى يذكر أمماً بسعادتها ويذكر أخرى بشقوتها وفقد حقوقها، فلعل الأيام تسعدنا بتغيير فى دورة الأفلاك ، وتعدل طالعنا من برج الإنكيس إلى برج الأسد الفتاك !!!

شهر يوليو من كل عام ؟[1]

لست أدرى أسرار الشهور ، ولا أدعى العلم بطوالع الأيام !

ولكننى أدرى أن شهر يوليو من شهور السعد لبعض الممالك ، وهو يعود على مصر بالويلات تقريبا فى كل عام .

ففى يوليو سنة ١٨٨٢ ضربت الإسكندرية بالقنابل ، وكان ذلك بداية الحوادث التى انتهت بالاحتلال وفقد حريتنا النسبية التى كنا بها قانعين ... إلى حين .

وفى شهر يوليو منذ عامين حدث الانقلاب المعروف وحرمت مصر حقوقها النيابية .

وفى شهر يوليو من هذا العام ، وهو الذى بدأ وكاد ينتصف ، قد حدثت حوادث جسام[2] . وفى يوم ٢١ منه سيكون فيصل التفرقة بين الحق المهضوم والحق المنشود .

أما هذا الشهر نفسه فله فى الأمم الأخر شأن آخر ، ولله فى خلقه وفى شهوره شؤون !

ففى ٤ يوليو من هذا الشهر استقلت ولايات أمريكا المتحدة التى كانت قبل ذلك مستعمرة إنجليزية ، وأعلنت استقلالها وكونت اتحادها القومى بهمة جورج واشنطون القائد العظيم .

وبعد أن كانت تلك الولايات أشبه الأشياء بأستراليا ، تمردت وامتنعت عن الانضواء تحت العلم البريطانى . وكل من يقطن تلك النواحى إنجليزى سكسونى ، إما نازح من الجزر البريطانية وإما مولود فى أمريكا من والدين إنجليزيين ... فلم يكونوا غرباء ولا أجانب من شعب إنجلترا بل كانوا أعضاء الأسرة البريطانية ،

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بعامود المؤلف « لعل وعسى » فى جريدة البلاغ فى ١٤ يوليه سنة ١٩٣٠.

(٢) يقصد المؤلف انقلاب إسماعيل صدقى وإلغاء البرلمان وتعطيل دستور سنة ١٩٢٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورعـايا التـاج الإنجليـزى وبينهم وبين سكان الجـزيرة روابط الدم وأواصـر القـرابة والنسب . ولم يكن هناك فـرق بين إنجليـزى لندن وإنجليـزى نيـويورك أو سـان فرنسيسكو . ولكن هذه العلاقات المتينة لم تعم القوم عن حقوقهم ولم تنهض حجة فى وجوههم دون المطالبة بتلك الحقوق ، فنهضوا رجلا واحدا ، ومازالوا تارة بالسلم وطوراً بالحـرب حتى خلعوا نير الحكم الأجنبى ، ولعمرك إنه لحكم إخوتهم وأبناء عمومتهم .

فـإذا كان الإنجليز أنفسهم إذا اغتربوا لا يطيقون حكم ذويهم عن بعد ... فكيف يطيقه القوم الغرباء عنهم وطناً وجنساً ولغة ومعقولية وبيئة ومعتقدات ؟!

وفى ١٤ يوليو اليوم تحتفل فرنسا بعيد الحرية والإخاء والمساواة . وهو تاريخ سقوط سجن بل حصن الباستيل فى أيدى الشعب وهو الذى كان معداً لحبس رجال السياسة والعلم والآداب من النبلاء وغيرهم . فكان معقلا للاستبداد وكان ملوك فرنسا يرسلون إليه خصومهم والمغضوب عليهم من رعاياهم مصحوبين بمكتوب مغلف مكتوب وممهور بختم جلالة الملك ، فيستقبل محافظ السجن ضيوفه ويحتجزهم إلى حين غير معلوم مدة مجهولة ...فيبقون تحت تصرف ذلك الذى أمر بسجنهم ... ولم تكن هناك محاكمة ولا دفاع ولا يحزنون ، بل كان غضب فسجن .

فلما سقط سجن الباستيل كان ذلك إيذاناً بالثورة وافتتاحاً للعهد الجديد . فلم يكن الملك بعد ذلك يستطيع أن يرسل أحداً إلى الأنقاض ، وذاق لويس السادس عشر نفسه هو وأهله ذل السجن فى حصن تامبل حيث فقد ولده وولى عهده ، ومن هناك خرجوا إلى المحاكمة فالمقصلة وانتهى عهد الموناركية وبدأ عهد الجمهورية فى أرض ماريان . لأجل هذا ترى الفرنسيين يمجدون هذا التاريخ ويحتفلون به فى أنحاء العالم .

وفى ٢١ يوليو (أيضا) يحتفل أهل بلجيكا بذكرى مرور مائة عام على إعلان استقلال وطنهم الصغير الجميل ذى النشاط الدائم والحركة التى لا تفتر . ولم تفقد بلجيكا استقلالها إلا لمركزها الجغرافى ، فقد كانت نقطة احتكاك واصطدام بين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وكانوا قابضين عليها بحجة الخوف من وقوعها في يد إحدى الدول الثلاث فتنقلب على الدولتين الأخريين ... ولكن استقلال سويسرا التام وهى بين لفيف من الدول الحربية ، كان من أسباب استقلال البلجيكا واليونان .

لعل الله يجعل لنا من شهر يوليو عيداً ويبدل أحزاننا بالأفراح !!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويلفريد سكوين بلنت
صديق مصر والعرب والإسلام (١)

كان اسم بلنت يذكر دائماً مقروناً باسم موسيو ديلونكل النائب الفرنسي الشهير، وكان بعض الحاقدين على الوطنية المصرية يطلقون على بلنت اسم «محرر مصر نمرة ١» وعلى ديلونكل «محرر مصر نمرة ٢»، وذلك من قبيل السخرية والتهكم، لأن اسم بلنت اقترن بالحركة العرابية، وبالدفاع عن عرابي في قضيته الشهيرة، كما اقترن اسم ديلونكل بمصر في مجلس نواب فرنسا، وصحافتها التي كانت إلى ما قبل ١٩٠٤ (تاريخ المعاهدة الإنجليزية الفرنسية) تعطف على مصر وتشاركها في مواقفها الدولية، وتمد يد المعونة إلى بعض الوطنيين المصريين الذين رفعوا صوتهم بالدفاع عن مصر في أوربا في أواخر القرن الماضي .

وبعد أن انتهى الدور الأول، دور التهكم والسخرية من بلنت لأنه ظهر بمظهر المدافع عن الاستقلال المصري، وبذل في سبيل ذلك المال والوقت والذكاء، جاء الدور الثاني دور النميمة والوشاية والاتهام الكاذب، فادعى لفيف من الكتاب السوريين المقيمين في مصر، أن بلنت لم يكن مخلصاً للوطنية المصرية، وإنما كان جاسوساً للإنجليز، وكان وكيلاً مهيجاً Agent provocateur وأنه هو الذي أشعل نيران الثورة العرابية ليمهد السبيل لدخول الإنجليز مصر، وغاية أرباب هذه الشائعة الذميمة أن يبغضوه إلينا، وأن يجعلوه ممقوتاً في نظر المصريين الوطنيين ليحرموه عطف أصدقائه في هذه البلاد، كما حرم العطف في وطنه من كبار قومه !

---

(١) مقال نشر بالبلاغ الأسبوعي في ٨ يناير سنة ١٩٣٠ تحت عنوان : «ويلفريد سكوين بلنت صديق مصر والعرب والإسلام ، بمناسبة مضي ثمانين عاماً على ميلاده»، كما نشر بكتاب المؤلف «قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد»، ص ٢٦٦ – ٢٧٣ ، عالم الكتب، سنة ١٩٩٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واستمر هذا الدور، طول المدة التي قضاها المنفيون العرابيون خارج هذه البلاد، ولما عاد بعضهم أمثال المرحوم الشيخ محمد عبده والمرحوم محمود سامي البارودي ونشر بلنت مذكراته و «تاريخ الاحتلال البريطاني في مصر» للمرة الثانية (مايو سنة ١٩١٧)، وهو الكتاب الذي نقلته إدارة البلاغ للغة العربية، ومهد له الأستاذ عبد القادر حمزة بمقدمة بليغة، بدأ الجيل الحاضر يعيد النظر في كل ما علم وسمع عن بلنت، وأخيراً ظهر الحق واستقر قرار الكتاب والمؤرخين في جيلين متعاقبين من الإفرنج (أمثال دكتور كوشرى في كتابه «المركز الدولي لمصر والسودان»). والمصريين، أمثال المرحومين مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك، أن بلنت لم يكن مهيجاً، ولا مستعمراً ولا مستفيداً، إنما كان شريفاً إنجليزياً مخلصاً للإنسانية والعروبة والإسلام والوطنية المصرية، كما كان مخلصاً للشعر والأدب والفلسفة وللوطنيتين الهندية والأيرلندية، وقد أثبت ذلك بما قاساه في هذا السبيل من سجن وتنكيل واضطهاد من أقرب الناس إليه ومن مليكه إدوارد السابع ومن فصيلة الأشراف والأعيان الذين كانوا يخالفونه في مشربه، وقد استمر على مبادئه الإنسانية السامية إلى أن توفي رحمه الله في صيف سنة ١٩٢٢ بعد أن رأى انتصار مصطفى كمال على جنود اليونان في سهول الأناضول، وكان لدى موته في الثانية والسبعين من عمره، وقد أوصى بأن يغسل ويكفن ويدفن على شبه الطريقة الإسلامية، وطلب إلى ممرضيه بأن لا يلبسوه ثياباً، وأن لا يضعوه في صندوق، بل ألحدوه في قبر فرش بالرمل، على سجادة شرقية ثمينة. وقد نفذت ممرضته التي حضرت وفاته وصيته بمنتهى الدقة .

كان عصر اليوم الأخير من شهر أغسطس سنة ١٩٠٩ عندما رأيت المرحوم بلنت للمرة الأولى [1] في قصره العتيق الفخم واسمه « مقر المباني الجديدة»

---

(١) سجل لطفي جمعه زيارته لبلنت في مذكراته المعنونة « شاهد على العصر » ، ص ١٨٧ - ١٩٤ ، رقم ١٨٢ من سلسلة تاريخ المصريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٠ م .

=

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

New building place بجوار هورشام بسسكس بجنوب إنجلترا الشرقى، فقد وصلت مع رفيقى فى السفر فى الساعة الخامسة، بناء على دعوة من رب الدار، فسافرنا إلى لندن «محطة كلايهام جنكشن» إلى هورشام حيث غيرنا القطار، وركبنا مركبة يجرها جياد الخيول العربية لمسافة ساعة تقريباً فى وسط الحقول والأحراش النضرة .

ولما بلغنا الدار استقبلنا رئيس الحشم Butler وأبلغنا تحية السيد، واعتذر لنا بأنه نام بعد الظهر ليقوى على السهر معنا، فصعدنا إلى غرفنا، وأخبرنا أن العشاء يكون بثياب التدخين «سموكنج» .

وفى الساعة السابعة مساء دخل علينا فى غرفة الانتظار الرحبة رجل مديد القامة نحيف ذو لحية كثة، يلبس الثياب العربية من عباءة وكوفية وعقال وقفطان، وبيده عصا طويلة كالعكاز، ولكنها إلى رقة العود أقرب منها إلى ضخامة الهراوة، فحيانا باللغة العربية بصوت جميل رقيق كأنه صوت فتى فى مقتبل العمر، وقال لنا إنه يفضل أن يلبس الثياب العربية فى منزله، ثم جلسنا على المائدة لتناول العشاء، وقد بهرنا ذكاء الرجل وحضور بديهته ووافر أدبه وحلو حديثه، وكان يتكلم أثناء الطعام عن مشاهير من عرفهم من المصريين كلاماً وجيزاً يدل على شديد حبه لمصر وأهلها .

وبعد العشاء انتقلنا إلى قاعة الجلوس، وهى قاعة فسيحة جداً وعالية جداً يكاد ارتفاع سقفها يكون سبعة أمتار (عشرين أو واحداً وعشرين قدماً)، وقد زينت بأثاث قديم، يدل على عراقة أصحاب القصر فى النبل والثروة، ولها مدفأ من المرمر الملون ضخم جداً، نقلوا إليه شجيرات بأسرها للإحراق، فكان منظر تلك الشجيرات وهى

= كما سجل بلنت فى مذكراته اليومية زيارة لطفى جمعه له يوم ٢١ أغسطس سنة ١٩٠٩ ودعوته إلى حضور مؤتمر الحزب الوطنى بجنيف فى سبتمبر من تلك السنة - (انظر يوميات بلنت ، ج ٢ ، ص٢٧٨ ، ٢٨٣ ، لندن ، سنة ١٩٠٠ - ١٩١٤).

تحترق وذلك الشيخ الجليل العربى الثوب والمنطق وهو يتكلم فى ضوء تلك النار، وذكرياته القديمة الجلية الواضحة، الجليلة بصدقها ودقتها، يجعلنا نتخيل أننا فى إحدى خيام أمراء العرب الكرام، الذين مثلوا فى تاريخ الإنسانية دوراً عظيماً، وقد عادوا إلى بيوتهم ليقضوا الأيام الأخيرة من حياتهم بعد طول الجهاد فى هدوء وسلام، ويروون على أخصائهم ما يذكرون من أيام الشباب والكهولة الناضجة.

لقد دام هذا المجلس خمس ساعات من الساعة الثامنة إلى الساعة الأولى صباحاً، ولا أذكر أننى قضيت أمتع منها، ولا أنفع ولا أكثر لذة، وقد كان شوقى الشديد لرؤية هذا الرجل العظيم الذى كان قطعة حية من تاريخ مصر العزيزة، وصدقه فى روايته، وتحمسه مع شيخوخته لكل ما فيه نفع لمصر من أكبر العوامل على جعل ذلك المجلس من ألذ المجالس وأمتعها وأنفعها .

كان الحديث عبارة عن أسئلة وأجوبتها، أسئلة منا وأسئلة منه، كل يريد أن يقف على الحقيقة من صاحبه فى مسائل تحيره وتهمه. سألناه عن رأيه فى عرابى (وكان لا يزال على قيد الحياة، وقد قضى بعد ذلك بثلاث سنوات)، فقال :

لقد انقطعت المراسلات بينى وبينه من زمن طويل، وآخر اتصالى به كان بشأن مراجعة ترجمته التى كتبها بيده، ونقلتها إلى كتاب «التاريخ السرى» وقد أرسل إلىّ بعد ذلك برسائل، لم أتمكن من الرد عليها، لقد كان عرابى صادقاً ومخلصاً فى وطنيته حقاً، ولكنه كان كثير الكلام قليل العمل، وكان ذا استعداد خطابى عظيم، ولكنه كان ضعيفاً فى السياسة والحرب He was a mediocre captain ويظهر أن لتعليمه الدينى دخلاً فى تكوين حالته هذه، لقد كنا نود جميعاً أن يموت فى ساحة الوغى، لأن فراره وطاعته لخادمه (ذلك الخادم دخل فى خدمة بلنت بصفة بستانى فى ضيعته بالشيخ عبيد بالقرب من المطرية، وبقى بها إلى أن مات منذ بضع سنين، وهو فى خدمة شركة مصر الجديدة بصفة رئيس البستانيين). قد أساءت سمعته فى نظر الأجانب والمصريين معاً، ولم يكن عرابى مطلقاً خائناً، ولا مرتشياً، ولا بائعاً وطنه، ولكنه كان شديد التردد وشديد الخوف من أوروبا .

سألناه : ماذا يجب على المصريين نحو هذا الرجل ؟

أجاب : لا يجوز لهم أن يحقروه أو يمقتوه، ولا يليق بهم أن ينصبوا له تمثالاً ! بل يكفى أن يقفوا على تاريخه ويعذروه، ومعاملته بالاحترام والتسامح أولى وأجدر

سألناه : هل كان دخول الإنجليز مبنياً على غلطة من عرابى، أم أنه كان أمراً محتماً من حيث الحرب والسياسة ومنطق الحوادث ؟

أجاب : الخطأ الوحيد الذى أدى إلى دخول الجيوش البريطانية، اقترفه عرابى بمخالفته رأى المجلس العسكرى العالى الذى عقد قبل التل الكبير بأيام، وهو الذى حضره أركان حربه، وعبد الله النديم، وچان نينيه المؤرخ السويسرى المحب للمصريين، فقد أجمع رأى هذا المجلس على تعطيل قناة السويس تعطيلاً مادياً يمنع الجيش الإنجليزى من الوصول إلى الشاطئ الغربى لها، فأرسل عرابى تلغرافاً إلى ديليسبس يخبره بأن الإنجليز يخرقون حياد القناة، وأنه مضطر لتعطيلها، مادامت دخلت فى ميدان الحرب، فرد عليه فردنان ديليسبس بتلغرافه الشهير «لا تلمس قناتى بسوء، وأنا الكفيل لك بإنزال عسكريين فرنسويين مع كل عسكرى إنجليزى» ...

فتمسك عرابى بهذا التلغراف وقال له أعضاء المجلس «إن ديليسبس هذا مجنون وكاذب، وليس فى قدرته أن يفى بوعده وليس تحت سلطته قطّان فرنسيان فضلاً عن الجنود وأنه لا نفوذ له فى بلده، وأن أعمال الهندسة شئ والحرب والسياسة شئ آخر... » فلم يعمل عرابى بنصحهم، وقال «أنا خائف من أوربا !!» وفى الليلة التالية دخل الجيش بدسيسة بعض الضباط، وبعض الباشاوات المصريين (وهنا ذكرهم لى واحداً واحداً، وكان أحدهم رئيساً لمجلس النواب، وصار فيما بعد من أكبر الأغنياء...) .

سألناه عن المرحوم مصطفى كامل، وكان قد توفى منذ عام لنقف على رأيه فيه لأننا كنا نعلم ما بينهما من الصداقة والمعونة فى خدمة مصر فقال :

لقد كان هذا الشاب عجيباً Miraculous وكان له حدة ذكاء ونشاط لم أرَ مثلهما عند كبار الرجال الأوربيين، فقد كان عندى هنا فى سنة ١٩٠٦ (عام

دنشواى) وكانت صحته ضعيفة ولكنه بعد الغداء، استمر يكتب أكثر من خمسين رسالة ومكتوب لأصدقاء مصر باللغة الفرنسية التى كان يجيدها كأحد أبنائها (كان المرحوم بلنت نفسه يتقن اللغة الفرنسية حديثاً وكتابة، وقد أنشأ بها، وبالقلم الرصاص الخطاب الشهير الذى تلى فى مؤتمر بروكسيل فى ١٤ سبتمبر ١٩١٠ ونقلته جميع صحف العالم)، وقد أسفت كثيراً لموته قبل الأوان لأنه كان يرجى على يديه لمصر خير كبير.

وتكلم عن علاقته بالخديوى السابق فقال إن علاقتى به قد انقطعت منذ بضع سنين، فقد عرض علىّ أن يزور مربط خيلى Stud فى الصيف وفى يوم الأحد، فدعوت لفيفاً من أكبر أهل إنجلترا رأشرافها وساستها وأنفقت مبالغ طائلة لاستقباله، وقامت ابنتى على ترتيب الاحتفال، واستأجرت قطاراً خاصاً، لأن مصلحة السكة الحديدية تمنع الأسفار على خطوط الضواحى أيام الأحد، وفى اللحظة الأخيرة، أرسل إلىّ بتلغراف يعتذر فيه عن الحضور ... فكان مركزى حرجاً جداً أمام أضيافى الذين حضروا للاجتماع بسموه، فقد علمت بعد ذلك، أنه أطاع فى هذا الخلف أمر جلالة ملك الإنجليز السابع الذى نهاه عن زيارتى لأسباب سياسية، فلما علمت بهذا العذر، أرسلت لسموه الذى كان لى قبل ذلك صديقاً حميماً أقول «إنه إن كان يطيع أمر جلالة ملك الإنجليز، وهو ليس من رعاياه فأنا بطاعة جلالته أولى مرات، لأننى حقاً من رعايا جلالة ملك بريطانيا»، قد حاول سمو الخديوى تجديد المودة بعد ذلك فلم تمكنه من ذلك الظروف ...

وتكلم عن فريد بك الذى كان على قيد الحياة فقال : إننى معجب به بوصف كونه رجلاً مهذباً من أسرة شريفة Gentleman ولكنه سيئ الحظ لأنه خلف زعيماً عظيماً بنفسه، ولم تكن لديه مواهبه، إن فريد بك رجل طيب فحسب، وهو صادق أيضاً .

وسألناه عن رأيه فى بلاد العرب : فقال إنه ينتظر للجزيرة مستقبلاً عظيماً، ولابد أن يتحد العرب لتأسيس أعظم أخلاق فى العالم، ولهذا فهو لا يخشى عليها

ضياعاً ولا استعماراً٠

ثم سألنا هو عن بنيامين موزلي وظهر لنا أنه لغاية ١٩٠٩ لم يكن يعرفه ولم يره، ولم يعلم بالدور الذى مثله موزلى فى السياسة المصرية بمعونة الخديوى وبعض رجال سياسة إنجلترا، فأفدناه ما نعلمه عن الرجل وحبه لمصر ورغبته فى اتفاقها مع إنجلترا على قدم المساواة، وحبه لسمو الخديو حباً شخصياً وبغضه للورد كرومر وحقده عليه، فكتب ذلك فى مذكراته ، وقد مات موزلى هذا فى سنة ١٩١٧ فى مدينة نيس بجنوب فرنسا٠

ثم توسط بلنت بيننا وبين مستر روتستين ليسافر مندوباً عن بعض الصحف الإنجليزية ليصف المؤتمر [١] ويكتب عنه ما يجب أن يكتب خدمة لمصر، لوقوفه على المسألة المصرية وقوف خبير صديق، ودفع الدين الذى كان فى عنق صحف الحزب الوطنى لروتستين، مذ كان مكاتباً لها فى لندن. وأخبرنا أن روتستين يعد كتاباً عظيماً عن مصر، وقد نشره فعلاً، واسمه خراب مصر Egypt's Ruin ودفع بلنت سائر نفقات طبعه، وقد نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ٠

واستأذنا فى نهاية المجلس مراعاة لصحته وشيخوخته وكان يطيب لنا أن نبقى معه أياماً متتالية، ولم تغمض لنا عين بعد فراقه، وكانت الغرفة التى نمنا بها حافلة بمؤلفات بيرون حميه فقرأنا فيها حتى الصباح ٠

وفى الصباح أفطرنا معه، وزرنا بقيادته مربط أفراسه وكان يذكر لنا كل جواد باسمه ولقبه وسلسلة نسبه ووصفه العربى كقوله : «هذا محجل اليمين» وهذا «الأغر» وهكذا، وبينها خيول بيعت بألوف الجنيهات فى أمريكا ٠

وزودنا بصورته بإهدائه بخطه، وهى تحمل تاريخ أول سبتمبر سنة ١٩٠٩، [٢]

---

(١) هو مؤتمر الحزب الوطنى الذى عقد فى جنيف سنة ١٩٠٩ برئاسة محمد فريد وكان لطفى جمعه سكرتيراً له ٠

(٢) نشرت هذه الصورة فى كتاب المؤلف« تذكار الصبا ،ذكرى ١٩ مارس » ، ص١٤٩ ،مكتبة عالم الكتب، القاهرة ، سنة ١٩٩٩ ٠ (ر٠ل٠ج)٠

وقد علمنا منه عرضاً أنه يعيش منفصلاً عن زوجته (لادى آن بلنت حفيدة لورد بيرون) وأن ابنه البكر مات فى السابعة عشرة من عمره وأن ليس له سوى بنت واحدة، وقد حدثت بينهما قضايا مدنية بشأن ميراث الزوجة بعد وفاتها فى سنة ١٩١٧ وقد تركت ثروة طائلة، وهى التى كانت وهبت أرضاً للشيخ محمد عبده بنى بيته بعين شمس على جزء منها، وباع جزءاً منها، وكانت لها ترجمة جيدة للمعلقات السبع بالإنجليزية معتمدة فى جامعة أكسفورد، وكانت سيدة قصيرة القامة، بالغة منتهى الكبر، كثيرة التجاعيد فى الوجه والجبين، وعاشت فى مصر وصحبت بلنت فى أسفاره وأتقنت العربية .

وقد أصيب بلنت فى حياته بدائين من الأدواء العضالة ، الأول حمى الملاريا التى عانى منها أهوالاً شداداً وصفها فى مذكراته الأخيرة (١٩٢٠) ومرض الشلل النصفى ، فلم يقعده عن العمل والتأليف إلى ما قبل وفاته بعامين ، ولم يزر مصر بعد سنة ١٩٠٢ رحمه الله رحمة واسعة بقدر ما أحسن إلى مصر وأهلها بقلمه وقلبه وماله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بريان والمسألة المصرية
حادثة تاريخية عن مؤتمر ١٩١٠
لا يزال بعض أبطالها أحياء [(١)]

عقد الوطنيون المصريون مؤتمرهم الدولى الأول فى مدينة جنيف سنة ١٩٠٩، وحصل انشقاق بين الحزب الوطنى واللجنة المستديمة، فسعى الحزب الوطنى فى عقد المؤتمر التالى فى باريس وحدد لانعقاده ١٤ سبتمبر ١٩١٠، وانفض الناس عن اللجنة المستديمة فى جنيف وتحولت الجهود والأنظار نحو باريس ووفد عليها الوطنيون المصريون من أنحاء أوربا ومصر واتخذت اللجنة التحضيرية واللجنة التنفيذية للمؤتمر مستقراً لها فى فندق «قاميلى هاوس» بشارع جاليليه عدد ٤٤.

وكان فى خدمة المؤتمر امرأة فرنسوية اسمها عزيزة رشبرون انتحلت الإسلام وادعت الشروع فى نشر مجلة للدفاع عن الشرق ومصر. وكانت فى الحق شديدة الذكاء واسعة الاطلاع ولكنها دميمة وشريرة وكانت لجنة المؤتمر تستخدمها كاتمة أسرار وكاتبة على الآلة «الطابعة». وكان من أعضاء اللجنة البارزين المرحومون محمد فريد بك وأحمد لطفى بك وعثمان غالب باشا وغيرهم، وقد شهدت بنفسى الحوادث التى أرويها الآن للمرة الأولى وقد دونتها وقت حدوثها [(٢)].

كان طالبان يشغلان وظيفة السكرتارية للمؤتمر[(٣)]، وكانا يلازمان مقر اللجنة لمقابلة الأعضاء وإعداد المواد وتقديم المعلومات لمن يحب من الغرباء.

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة البلاغ فى ٢٠ مارس سنة ١٩٣٢.

(٢) سجل المؤلف هذه الحوادث فى كتابه « تذكار الصبا ، ذكرى ١٩ مارس » ، ص ٢٤١ – ٢٤٦ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٩.
كما سجلها أيضاً فى مذكراته المعنونة « شاهد على العصر » ، ص ٢٩٠ – ٢٩٨ ، رقم ١٨٣ من سلسلة « تاريخ المصريين » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٠ م.

(٣) كان لطفى جمعة أحد هذين الطالبين أما الثانى فهو المرحوم حامد العلايلى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ففى يوم ٤ سبتمبر شعرا بأن دار المؤتمر تراقب مراقبة شديدة بواسطة رجال ونساء، يطوفون حولها، ويغشاها بعضهم بحجة الاستعلام، ورغبة الانضمام للمؤتمر.

وكان المرحوم الدكتور منصور رفعت قد تأكد من هذه المراقبة فلفت إليها نظر اللجنة وثبت أن بعض الجواسيس أجانب عن فرنسا. وفى يومى ٧، ٨ سبتمبر ظهر أن لعزيزة روشبرون اتصالاً خفياً ببعض المتجسسين ، وفى يوم ٩ صباحاً وصل إلى مقر المؤتمر ثلاثة مكاتيب من وزارة الداخلية الفرنسية أحدها باسم فريد بك واثنان باسم الطالبين السكرتيرين، وهما لا يزالان على قيد الحياة فى مصر، فلما وصلت هذه المكاتيب الثلاثة تناولتها عزيزة روشبرون وخاطبت الشابين بقولها «أيها الثوريان (على سبيل المزاح) لقد وصل اسمكما إلى وزارة الداخلية وعرفت عنوانكما»، وضحكت ضحكة صفراء، وفى كل من الخطابين دعوة لمقابلة وزير الداخلية فى الدار رقم ٦ بميدان بوفو، وكان فى ذلك الوقت هو مسيو إريستيد بريان الذى توفى من أيام ، وفى الساعة ١١ ذهب ثلاثتهم إلى مقر وزارة الداخلية حيث قابلوا رئيس مكتب الوزير (مسيو چيمو) وكان رجلاً فى الخمسين أحمر الوجه، ودار بينهم الحديث الآتى:

رئيس المكتب : علمت الحكومة أنكم قائمون بعقد مؤتمر وطنى مصرى فى باريس .

فريد بك : نعم وسيعقد فى صالة جمعيات العلماء (سوسيتى سافانت) يوم ١٤ سبتمبر أى بعد بضعة أيام .

رئيس المكتب : هل أخذتم إذناً بذلك من الحكومة كنص القانون ؟

فريد بك : إن الحكومة تعلم باجتماعنا وكثير من أعضائها ومن النواب والشيوخ مدعوون لحضور المؤتمر .

رئيس المكتب : هل يمكنك أن تذكر لى أسماءهم ؟

فريد بك : مسيو جوريس، مسيو روانيه، مسيو بانقليه ...

رئيس المكتب : تعنى الإشتراكيين !

فريد بك : إنهم على كل حال نواب فرنسيون ·

رئيس المكتب : الحكومة تحب أن تلفت نظركم إلى ضرورة نقل اجتماعكم إلى مكان آخر غير باريس ·

فريد بك : هل هذا طلب رسمى ؟

رئيس المكتب : اعتبروه كما تشاءون ·

أحد الشابين[1]: نحن لا نعتبره رسمياً إلا إذا كان صادراً عن رئيس الحكومة نفسه، وحيث أن الدعوة صادرة لنا باسمه فنحب أن نراه ونسمع منه ما يريد الإدلاء به ·

رئيس المكتب : إذن عودوا إلى هنا فى الساعة الخامسة بعد الظهر لعلكم تتمكنون من مقابلته·

فانصرفوا، وعند خروجهم وجدوا فى فناء الوزارة جيشاً من الجواسيس تبينوا بينهم بعض الذين كانوا يترددون على دار المؤتمر باسم الرغبة فى الانضمام إليه وباسم حب الإسلام والشرق ومصر، وما إلى ذلك من الدجل والغش !

وأراد الجواسيس تتبعهم، فالتفت إليهم أحد الشابين وقال لهم : أيها السادة إننا كنا فى مكتب الوزير، وسنعود فى الساعة الخامسة لمقابلة مسيو بريان. فلا فائدة من اقتفاء أثرنا. فلم تجد تلك الخطبة نفعاً عند الجواسيس وتبعوهم ·

وفى الساعة الخامسة عادوا وقابلوا مسيو بريان بحضور رئيس مكتبه ودار بينهم الحديث الآتى بعد التحية :

موسيو بريان : علمت مـــا دار بينكم وبين رئيس مكتـــبى وأنكم تطلبـــون منى تصريحاً بصفتى رئيس الحكومة ·

فريد بك : أليس لنا الحق فى ذلك خصوصاً وأن فرنسا تخالف سنتها للمرة الأولى مع المصريين الذين تربطهم بها مودة قديمة وتقليدية · · ·

---

(١) يرمز لطفى جمعه لنفسه « بأحد الشابين » ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحد الشابين : ولا يزال عدد كبير من المصريين يقصدون فرنسا للتعليم والإقامة ويعتبرونها وطناً ثانياً، ومصدراً للحرية وملجأ لكل مظلوم .

بريان : هذا صحيح، وهل أنت أحد الطلاب فى جامعاتنا ؟

أحد الشابين : نعم، ولى الشرف، وأعلم أن القانون لا يمنع اجتماعنا مادام فى حدود النظام .

بريان : ألم تجتمعوا فى العام الماضى فى چنيف أو لوزان، لست أدرى، فلماذا لا تجتمعون هذا العام فى دولة صغيرة مجاورة ؟

فريد بك : إذا تركنا باريس فلا ندرى أين نجتمع، وسوف يكون لقراركم صدى سئ الأثر فى العالم كله ...

بريان : نحن لا نريد منعكم، ولكننا فى نفس الوقت لا نريد أن نؤثر فى عواطف الأغيار. فإن دولة أخرى ربما كانت محبة لفرنسا تتألم من اجتماعكم فى عاصمتنا فنرجوكم أن ترحلوا ... بالذوق ... وأن لا تلجئونا إلى ....

أحد الشابين : لم نعلم أن الأمر وصل بحكومة سعادتكم إلى تهديدنا بالطرد، وإن كنا قد لاحظنا أن الحكومة الفرنسية سمحت لأشخاص أجانب ربما كانوا ينتمون إلى تلك الدولة الأجنبية أن يتجسسوا علينا فى نفس عاصمتكم وفى الدار التى اتخذناها مقراً لمؤتمرنا.

مسيو بريان : (بغيظ مكظوم) لم يصل إلى علمى ذلك، ومع هذا فإنه خارج عن موضوع هذه المقابلة، ونحن إلى الآن لم نخرج عن المألوف فى معاملتكم ...

أحد الشابين : ولا ينسى سعادة الوزير أن أعضاء من جميع برلمانات أوربا...

فريد بك : (مكملاً) نعم إن نوابا من جميع برلمانات أوربا مدعوون إلى المؤتمر، وسيحضرون إلى باريس، ولا نملك الآن، فى بضعة أيام

تغيير خططهم، وقد تكلفنا جهوداً شاقة، ولم يبق بيننا وبين المؤتمر سوى ثلاثة أيام أو أربعة ٠

بريان من هم هؤلاء الأعضاء ؟

فريد بك من البرلمان الإنجليزى مستر كير هاردى ومستر بارنز ومستر كتل ومستر هيزلتون، ومن الصحفيين مستر روتستين ومن البرلمان الفرنسى موسيو چوريس وموسيو روانيه ومن البرلمان الألمانى الهر أوجست بيبل ...

بريان (ببرود تام) : عندى خبر ! ولكن هذا لا يغير فى عزم الحكومة ، يمكنكم أن تذهبوا إلى جمهورية أخرى بجوارنا إذا شئتم ...

فريد بك : سنذهب إلى إيكس لاشاپل فى ألمانيا، لأنها أقرب بلد إلى الحدود٠

أحد الشابين : وسننشر هذا الحديث بحذافيره، وكل ما جرى بخصوصه، وما سوف يحدث لنا من الآن إلى أن نغادر أرض فرنسا الكريمة ٠

فريد بك : ولا ريب أن النواب الفرنسيين على الأقل سيطلبون من الحكومة حساباً عن هذه المعاملة، ونستأذنكم فى الانصراف ٠

بريان : أيها السادة ! أستودعكم الله وأعبر لكم عن أسفى الشخصى ولكن ...

فريد بك : ولكن ... دولة أخرى صار لها فى فرنسا أكثر من نفوذ الحكومة الفرنسية نفسها. أليس كذلك ياسيدى الوزير ؟

وخرجوا، حيث كانت الساعة السادسة وربع، فقد دامت المقابلة ساعة وربعاً، وكان بريان إذ ذاك فى عنفوان قوته ومجده، وحدث فى خريف تلك السنة (١٩١٠) إضراب عمال السكة الحديد، فجندهم جميعاً لمصلحة الشركات وأرباب رؤوس الأموال وقال فى البرلمان عذره المشهور :

«عندما يكون الوطن فى خطر، فلى الحق أن ألجأ إلى الحكم العرفى ومخالفة القانون Recours a l'illégalité»٠

وبعد أن انصرف الثلاثة المصريون نقلوا المؤتمر بجملته إلى بروكسيل، عاصمة بلچيكا وعقد في موعده، وحضره إنجليز وفرنسيون وألمان وهنود وفرس وإيطاليون وغيرهم .

ومما يؤسف له أن الدهر دار دورته ، وأن عزيزة دي روشبرون بعد أن طردت من المؤتمر وثبت تجسسها ، نشرت في الطرق إعلانات احتجاج كبرى لمصلحة مصر لا ندرى من أين جاءت بنفقاتها ! ثم اشتغلت مع مصرى شهير وقيل إنه تزوج منها وأقام معها في إصطامبول وجاءت مصر قبيل الحرب، ثم ظهر أنها كانت لها صلة لقاء بأمير شرقي كبير، واتصلت بالألمان وبلغت ضد شارل همبير صاحب مقالات (ذخيرة ومدافع !) في الجورنال وشهدت في المجلس العسكرى لمصلحته في سنة ١٩١٩ ، وشتمها رئيس المجلس، ثم اختفت وانقطعت أخبارها عن الصحف .

وظاهر من هذا الخبر أن بريان ساعد حكومة الإمبراطورية على مطاردة الوطنيين المصريين من باريس، ولم يسمح لهم بالاجتماع ولم يجاملهم ولم يتبع القانون في معاملتهم وكان في أول أمره اشتراكياً متطرفاً ثم صار معتدلاً ثم حكومياً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بزوغ فجر جديد
بعد ليل دامس طويل
من مذكرات المرحوم مصطفى كامل[1]

قال حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق وهو يزور قبر المغفور له والده يوم الجلاء عن العاصمة ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع ، « هذا يوم كان والدى رحمه الله يود أن يراه » .

وكان كبار المصريين من الجيل السابق يتمنون ، تبعا لسنة العاهل العظيم الراحل ، ولا سيما المجاهدين منهم ، أن يشهدوا هذا اليوم ، ففرحت أرواح مؤسس الأسرة العلوية وأولاده وأحفاده وفيهم إسماعيل العظيم وعباس حلمى الذى خلع ونفى وتوفى بعيدا عن وطنه فعليهم الرحمة جميعا .

وكان كتاب الجيل السابق ولا سيما المرحوم إبراهيم المويلحى وحافظ إبراهيم يطلقون على حلفائنا السابقين صفة « حمر الوجوه ، وحمر الثياب » ، أما حمرة وجوههم فمعلومة ، وأما حمرة الثياب فلأن ملابسهم كانت فعلا حمراء ، ولم يغيروا لونها إلا فى الحرب العالمية الأولى مجاراة لفن التغمية وهو اتخاذ ملابس وقبعات ، يمكن اندماجها فى ألوان الأراضى والجبال والأتربة فى ميادين القتال .

ولهذا نعود أبناء عهد الاحتلال أن يقولوا فيما بينهم « اللهم إنى أعوذ بك من ثلاث الموت الأحمر والرداء الأحمر والكتاب الأحمر » ، وهو مجموعة القوانين العسكرية التى انطوت على أحكام المحاكم العسكرية المخصوصة التى كان يحاكم بها كل مصرى وأجنبى غير إنجليزى ينسب له التعدى بالقول أو الإشارة أو بفعل على جندى من جنود الاحتلال أو ضابط من ضباطه .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة الدستور فى ١١ مايو سنة ١٩٤٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال المرحوم زعيم الوطنية الأول مصطفى كامل باشا بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٥ ما نصه :

« جاء فى الأمر العالى المؤذن بتشكيل محكمة مخصوصة للفصل فيما يقع من الأهالى من الجنايات والجنح ، على جنود جيش الاحتلال وضباطه :

(١) تشكل محكمة مخصوصة للفصل فيما يقع من الأهالى فى القطر المصرى من الجنايات والجنح على العساكر ورؤسائهم التابعين لحكومة جلالة الملكة البريطانية أو على رجال البحرية البريطانية الراسية فى أحد الموانىء وتعقد هذه المحكمة جلساتها فى نفس الجهة التى وقعت فيها الجناية أو الجنحة .

(٢) تؤلف تلك المحكمة من ناظر الحقانية بصفته رئيسا والمستشار القضائى ، قاضى إنجليزى من قضاة محكمة الاستئناف الأهلية يختاره ناظر الحقانية ، من يكون قائما بأعمال المحاماة والقضاء فى جيش الاحتلال بالقاهرة أو الإسكندرية ، من يختاره ناظر الحقانية من رئيسى محكمة مصر أو الإسكندرية الابتدائيتين أعضاء.

(٣) إلقاء القبض على المتهمين يكون بناء على أمر حكمدار بوليس مصر أو حكمدار بوليس الإسكندرية (وهو دائما إنجليزى) أو مندوبهما ، وإجراء التحقيق يكون أيضا بمعرفتهما أو بمعرفة مندوبهما .

(٤) ترفع الدعوى أمام جلسة علنية بالمحكمة ، بمجرد إتمام التحقيق ، وتكون المرافعة شفوية ، ويختار البوليس (كذا) محاميا لإثبات التهمة على المتهمين ، ويجوز للمتهمين أن يستعينوا بمن يدافع عنهم أمام المحكمة ، ويبدأ بسماع شهود الإثبات ثم سماع شهود النفى ، وتراعى المحكمة الأحوال المقررة فى قانون تحقيق الجنايات الأهلى ، متى كانت نصوصه أو أحكامه لا تعيق سرعة السير فى الدعوى.

وتصدر الأحكام فى نفس الجلسة التى رفعت إليها الدعوى ، ولا يقبل الطعن فيها بأى وجه كان من الأوجه المنصوص عليها فى قانون تحقيق الجنايات المذكور آنفا ، وتكون الأحكام صادرة من المحكمة المخصوصة واجبة التنفيذ فى الحال .

(٥) لاتكون المحكمة المخصوصة مقيدة بأحكام قانون العقوبات بل تحكم بعقاب مرتكبى الجنايات والجنح بالعقوبات التى ترى لزوم الحكم بها بما فيها عقوبة الإعدام والأشغال الشاقة المؤيدة والمؤقتة ٠

هذا هو نص القانون الشاذ الظالم الذى فرضته سلطة الاحتلال على الأمة المصرية ، بعد خمس عشر سنة من وجود الجيش الإنجليزى فى مصر ، وهو قانون أقسى وأفدح من القوانين العرفية التى تطبق فى ميدان القتال ٠

وكتب لورد كرومر إلى الحكومة المصرية تبليغا رسميا جاء فيه :

« حضرة صاحب السعادة وزير الداخلية

إن القانون الدولى يخول لجيش الاحتلال ، إقامة الأحكام العرفية على جميع القاطنين فى القطر المصرى من وطنيين وأجانب ، لمحاكمة المعتدين على عساكرنا ، وقد سبق وتشكلت محكمة مخصوصة لمحاكمة بعض أعراب الجيزة لتعديهم على جيش الاحتلال ، وإنى مع اعترافى بعدالة أحكام المحاكم الأهلية فى قضية البحارة أرى إقامة محكمة مخصوصة أفضل لنا وأضمن وأطيب تشكيلها من خمسة أعضاء ثلاثة إنجليز واثنين وطنيين برياسة سير سكوت !! (المستشار القضائى)٠

والعجيب فى الأمر ، أن السفير البريطانى (لورد كرومر) نسى فى تسرعه ، النص على القانون الذى يحاكم بمقتضاه المعتدون ، وأى الجرائم يعاقب عليها سوى ذكر لفظ الجنايات والجنح ، وسمح باختيار ما ينفعه من مواد قانون تحقيق الجنايات ٠

وفى ذكر العقوبات لم ينص إلا على الإعدام والأشغال الشاقة ، وهى أقسى العقوبات وأقصاها ، وذكر أنه يطالب بالضمان للمجنى عليهم ومخالفا بذلك كل تشريع إنسانى ، وكل تشريع يسعى فى الضمان للمتهم لا للمجنى عليه » ا٠ هـ٠ المذكرة ٠

وكانت المحكمة المخصوصة سلاحاً ذا حدين ، الحد الأول وقع كالمقصلة على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعناق بعض الفلاحين الأبرياء مثل أعراب الجيزة وشهداء دنشواى(١).

والحد الثانى انقلب حبلاً من مسد وضعته العناية الإلهية فى جيد الذى وضع نظام المحكمة المخصوصة فأقصاه عن مصر وأبعده وهو الذى أنذر ببقاء الاحتلال الإنجليزى إلى الأبد فى خطبته الأخيرة (٧ مايو سنة ١٩٠٧ بدار الأوبرا) فظهر أن الأبد الكرومرى أو آخر الدهر الذى حدده الغاصب لم يزد على أربعين عاماً يوماً بيوم وساعة بساعة ولله البقاء والدوام.

واليوم وقد تم جلاء الإنجليز عن العاصمتين وأشرقت شمس نهار جديد بعد خمس وستين سنة من احتلال غاشم حق لنا أن نغتبط بتحقيق هذا الجلاء الجزئى الذى اغتبط له جلالة الملك ودولة رئيس الوزراء.

وقد تحررت البلاد فعلاً من حمر الوجوه، وما جلبوه من الشقاء والفاقة والجهل والعذاب باسم المدنية الأوربية الظافرة وبريطانيا العظمى ، وخلصت إلى غير عودة بإذن الله من القانون الأحمر ومن تلك المشاهد الأليمة التى كانت تنفطر لها نفس كل مصرى، فشعرنا الآن بأن الأعراض الأولى لداء الاحتلال الذى كان مستعصياً ومزمناً وظاهراً لا دفيناً ، ورأينا أن آثار النكبة الإنجليزية التى حلت ببلادنا فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ قد أخذت فى الزوال، فلا ضير علينا إذا اعتبرنا هذا الحادث التاريخى الذى وقع بإرادة الله ثم بجهود وكفاح الأمة ، بزوغ فجر جديد، وطلوع نهار ضاح سعيد وفاتحة عهد مبارك من العزة القومية والكرامة الوطنية، وأن لا نلقاه بالنكد والطيرة، لأن بعض هؤلاء الحمر مازالوا متشبثين بصحراء القناة تشبث الأخطبوط البحرى، وأخيه البرى الذى يسميه العامة «بأبى شبت» لتعدد خراطيمه وأطرافه الطفيلية.

ونحن لا ننسى وهم لا يجهلون، أن الجلاء مازال ناقصاً، ولابد أن يتم فى أقرب وقت الجلاء العاجل عن الأراضى المصرية كافة، بدون قيد ولاشرط فتتحقق أمنية

---

(١) انظر بحث المؤلف عن « حادثة دنشواى » ، ص ٢٥٨ من هذا الكتاب .

مصر الكبرى، ويصبح الاستقلال كاملاً، بل طبيعياً لاتشوبه شائبة .

لأن الأصل فى الأمم والأراضى الحرية والجلاء، أما الاحتلال فشذوذ وفساد وانحراف فى الطبيعة وفى السياسة، يؤذى المعتدى أضعاف المعتدى عليه.

وإن تكن السياسة البريطانية تبدو لنا مذبذبة مترددة، حائرة، ولهانة بين الاقتداء بالمنظمات الدولية، ومسايرة الأمم المتحدة، وبين التشبث بالمبادئ الاستعمارية البالية المنقرضة ، ولكن إنجلترا قد وقعت فى الفخ الذى نصبته لها مطامعها، فقد أعلنت نيتها فى مايو سنة ١٩٤٦ للجلاء عن بلادنا براً وبحراً وجواً. وقد نفذت هذا الجلاء منقوصاً، فأصبح مركزها بين الدول قلقاً مفضوحاً، ولذا فإنها لن تبقى طويلاً فى حالة القلق والحيرة والذبذبة، ولابد أن نصل قريباً إلى التسليم بحقائق الأشياء والخضوع للواقع والاقتناع بأن الاستعمار والاحتلال الحربى قد صارا من آثار العهد البائد والعصر المنقرض ، وما علينا إلا أن نطمأن وأن نواصل جهادنا وإننا واصلون بإذن الله إلى غايتنا وظهور حقنا وعدالة دعوانا أمام الدول وأمام العالم قاطبة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حادثة دنشواي [1]

مضى على قضية عرابى ثلاثة أرباع القرن[2] كان الإنجليز أثناءها يروّضون المصريين على الذل والخضوع التامين ، وزعيمهم كرومر (بارنج سابقاً من أسرة يهودية هولاندية) وقد وصل إلى الجاه والنفوذ درجة يعجز عنها تيمور لنك الأعرج وجنكيز خان حتى كان ينزل بمفرده فى الليل يتفقد أحوال الرعية كأنه هارون الرشيد فى عصره تتبعه مركبة يجرها جواد واحد وحوذى وسائس ينادى يا ولد ! ، يجوس خلال الأسواق .

وماتت مصر لولا وطنية المغفور له خديوها عباس حلمى الثانى وصديقه الحميم وشريكه فى إحياء الوطنية المرحوم مصطفى كامل باشا .

وسافر كرومر إلى إنجلترا فى أجازة الصيف وترك « الأبعادية » أو العزبة لمستشار الداخلية .

وحدث فى يوم الاثنين ١١ يونيه سنة ١٩٠٦ أن غادرت كتيبة مكونة من ١٥٠ جندياً إنجليزياً القاهرة متجهة بطريق البر إلى الإسكندرية ، وكانوا كلما قربوا من قرية أكرمهم أهلها بالطعام والشراب والفاكهة على عادة مصر المضيافة الجوادة المسرفة .

ووصلوا يوم الأربعاء ١٣ يونيه إلى منوف ، ويظهر أنهم سأموا أكل الإوز والبط والخراف الحولية واشتاقوا إلى نوع من الفطير اسمه بلغتهم Pigeonpie وهو الفطير المحشو بالحمام واشتهرت منوف وضواحيها بهذه الطيور لاسيما الزغاليل ، فأبلغ خمسة من ضباط الكتيبة الإنجليزية مأمور المركز المصرى أنهم يرغبون الصيد فى قرية « دنشواى » التابعة لنقطة بوليس الشهداء بمركز شبين الكوم

---

(١) بحث مخطوط لم ينشر كتبه المؤلف حوالى سنة ١٩٤٨ .

(٢) الصحيح أنه كان قد مضى حوالى ٦٥ سنة عند كتابة المؤلف هذا البحث .

عاصمة المنوفية (وما كان أحكم واضع اسم هذه النقطة وأبعد نظره ، فقد صارت القرية قرية الشهداء حقا !!).

وقد اشتهرت دنشواى بكثرة حمامها وجودة صنفه ، وعلم الضباط الإنجليز هذا من سابق مرورهم بهذه الناحية ، وهؤلاء الضباط هم كوفن وبول وبورتر وسميث وبك والطبيب البيطرى بوستك .

فطلب المأمور من أحد أعيان بلدة الواط أن يعدّ لهواة الصيد مركبات عند السكة الزراعية الموصلة لدنشواى ففعل .

فلما وصلوا إلى كمشوش ، عسكروا بها مع بقية الجند ، واستقل الضباط الخمسة المركبات ومروا بسرسنا إلى دنشواى ، وذهب ترجمان مصرى وأومباشى مصرى إلى العمدة ليبلغه خبر قدوم الضباط ليمنع الاحتكاك بينهم وبين الأهالى ، ولكن الضباط لم ينتظروا عودة الترجمان والأومباشى وأخذوا يصيدون الحمام على السكة الزراعية من خلال الأشجار ، وأخذ بعضهم يجوس خلال أجران القمح ، وشهر يونيه هو شهر الحصاد .

وحدث أن حمامتين حطّتا على جرن مؤذن القرية المرحوم محمد عبد النبى ، فصوّب أحد الضباط بندقيته إلى الحمامتين ، فطلب إليه شيخ كبير عمره خمس وسبعون سنة كما ثبت فى القضية اسمه المرحوم حسين على محفوظ وكان شقيقاً لأحد القضاة المصريين – طلب من الضابط أن يكف عن إطلاق البندقية خوفاً من احتراق الجرن ، كذلك طلب شحاتة عبد النبى شقيق المؤذن خوفاً على جرن أخيه ، فلم يعبأ الضابط الإنجليزى وأطلق العيار النارى فأخطأ الحمام وأصاب زوجة المؤذن المرحومة أم محمد حرم محمد عبد النبى ، كما أصاب الجرن ، فوقعت المرأة جريحة تتخبط فى دمها وكانت إصابتها للأسف فى أسفل البطن ، واشتعلت النار فى الجرن.

فلما رأى صهرها شحاتة ما حلّ بزوجة أخيه وجرنه ، استغاث وصاح وهجم على الضابط مدافعاً عن الحياة والمال ، وتجاذبا البندقية ، فأقبل الرجال والنساء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والأطفال يصيحون : الخواجة قتل المرأة وحرق الجرن!

وجاء بقية الضباط لإنقاذ زميلهم ، وكان بين الواصلين لنجدة الفلاحين شيخ الخفراء ومعه الغفراء ، وأهم واجب عندهم هو تفريق الجماعات وإنقاذ الضباط ، فظن الضابط الإنجليزى أن الرجال جاءوا للانتقام ، فأطلق هو وزملاؤه النار على الأهالى فأصاب شيخ الغفر فى فخذه فسقط على الأرض ، وأصاب اثنين من الغفر ، فصاح الناس : الخواجة قتل شيخ الغفر والغفراء !.

فهجم الأهالى على الإنجليز بالعصىّ لأنهم لايحملون سلاحاً نارياً ، فأصيب واحد منهم بجرح فى ذراعه وجرح اثنان جروحاً خفيفة ، فتقدم بعض الغفراء وأحاطوا بالضباط لحمايتهم وجردوهم من أسلحتهم وحجزوهم فى أمان حتى وصل ملاحظ بوليس النقطة وأوصلهم إلى المعسكر .

وكان الرعب قد دب فى قلب الكابتن پول وفى قلب الطبيب البيطرى ، ففرا جرياً مسافة ٨ كيلو متر فى حمّارة القيظ ، فوصل الكابتن پول إلى باب سوق سرسنا وسقط من الإعياء ومات متأثراً بضربة الشمس كما أثبته الطبيب الشرعى الإنجليزى.

أما الطبيب البيطرى لما رأى زميله پول يسقط ، تركه وأخذ يجرى حتى وصل إلى معسكر الكتيبة بناحية كمشوش .

ولما وصل الخبر إلى الجنود ، هبوا لنجدة ضابطهم المقتول بضربة الشمس والجرى فى شدة القيظ ، فرأوا فلاحاً مصرياً هو المرحوم سيد أحمد سعيد واضعا رأس الجريح على ركبته وهو يسقيه بكوز من الماء ، فظنوه أنه قاتله فأنحوا عليه ببنادقهم ضرباً وطعناً ووخزاً حتى هشموا رأسه فمات بين أيديهم وذهب دمه هدراً ولم يحاكم أحد من قتلته ، وقد عرف هذا القتيل بصفة « شهيد سرسنا » .

ولما وصلت الأنباء إلى القاهرة وشبين الكوم ، عول رجال الاحتلال على الانتقام من أهل القرية انتقاما ذريعاً شنيعاً دون أن يعلموا شيئاً من الوقائع ولم يسألوا شاهداً ولم يحققوا مع متهم ، وذهب المستر ماتشيل مستشار الداخلية (أى وزيرها)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى دنشواى وأجرى تحقيقاً سريعاً ، وأخذ رجال الحكومة المصرية يقبضون على الأهالى جزافا .

ونشرت جريدة المقطم فى يوم ١٨ يونيه - قبل أن ينتهى التحقيق - أن الأوامر صدرت بإعداد المشانق وإرسالها إلى مكان الواقعة ، وأيقن الجمهور المصرى أن أحكام الإعدام ستصدرها المحكمة المخصوصة فى غاية السرعة وأن المحاكمة ستكون مهزلة صورية .

والمحكمة المخصوصة محكمة عرفية سياسية صدر دكريتو الخديو فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بتأليفها للحكم فيما يقع من الأهالى على عساكر الإنجليز من الجنح والجنايات . وينص الدكريتو الذى صدر بأمر الإنجليز على تأليفها برياسة وزير الحقانية (العدل الآن) وهو مصرى طبعاً ، والمستشار القضائى (وهو إنجليزى) وقاضى إنجليزى من محكمة الاستئناف الأهلية والقائم بأعمال المحاماة والقضاء فى جيش الاحتلال ومن يختاره وزير الحقانية من رئيسى محكمة القاهرة والإسكندرية الابتدائيتين ، أى أن الأغلبية فيها الإنجليز . ولم يجعلوا لها قانوناً خاصاً ، بل جعلوها لا تتقيد بأحكام قانون العقوبات أو تحقيق الجنايات .

وكان أول من احتج على تأليف هذه المحكمة المرحوم مصطفى كامل ونشر احتجاجه فى عدد ٤ مارس سنة ١٨٩٥ من جريدة الأهرام[١] . ولم يبال بهذا الاحتجاج أحد من رجال القانون أو من رجال السياسة فى مصر حتى ولا الوزراء !

وفى ٢٠ يونية سنة ١٩٠٦ أى بعد هذه الحادثة بأقل من أسبوع أصدر بطرس غالى باشا وزير الحقانية بالنيابة قراراً بتشكيل المحكمة المخصوصة لمحاكمة المتهمين فيها برئاسته شخصياً وعضوية المستر هيترو بوند وكيل محكمة الاستئناف والقائمقام لادلو (رجل القانون الإنجليزى) وأحمد فتحى زغلول بك ، وحددوا

---

(١) انظر مقال « بزوغ فجر جديد بعد ليل طويل دامس ، من مذكرات المرحوم مصطفى كامل» ، ص ٢٥٣ من هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لانعقادها يوم ٢٤ يونيه ، وعينوا عثمان بك مرتضى من كبار موظفى وزارة الحقانية كاتباً للجلسة ، كما عينوا المرحوم الهلباوى بك مدّعياً عمومياً لإقامة الدعوى على الفلاحين ، كما ندبوا عنهم بعض المحامين المصريين ، وبلغ عدد المتهمين ٥٢ متهما قدّموا جميعا مقبوضاً عليهم وسبعة من الغائبين .

وانعقدت المحكمة بسراى المديرية بشبين الكوم يوم الأحد ٢٤ يونيه وكان يحيط بها جو من الرهبة تملأ النفوس رعباً !

وثبت من شهادة المرحوم الدكتور نولن الطبيب الشرعى الإنجليزى أن وفاة الكابتن بول راجعة مباشرة إلى ضربة الشمس وأنه لو لم يجر ثمانية كيلو متر لما مات من الإصابات التى قيل إنه أصيب بها فى المعركة.

وكان تحامل المحكمة على المتهمين ظاهراً أثناء سماع الشهود حتى إنه حين شهد عبدالعال صقر بما يدل على تحذيره الضباط الإنجليز من الصيد داخل القرية ، قال له المستر بوند - وكان مشهوراً بإتقان اللغة العربية :

- ألا تعرف يا شاهد أن هذه المحكمة تعاقب شهود الزور ؟

فأجاب الشاهد : نعم

فقال المستر بوند : أنا أعرف المصريين أمثالك كيف تكون شهادتهم !

واستمرت المحكمة ثلاثة أيام ثم أصدرت حكمها فى اليوم الرابع ٢٧ يونيه بإعدام أربعة شهداء شنقاً فى دنشواى أولهم الشيخ على محفوظ وعمره ٧٥ سنة !

وثانيا بالأشغال الشاقة المؤبدة على أحد أولاد محفوظ وعلى محمد عبد النبى مؤذن القرية زوج المرأة الجريحة المشروع فى قتلها وصاحب الجرن المحترق وعلى واحد بخمسة عشر سنة بأشغال شاقة ، وعلى سبعة ، منهم اثنان من عائلة محفوظ ، بالأشغال الشاقة سبع سنوات ، وعلى أربعة بالحبس مع الشغل سنة وجلد كل واحد منهم خمسين جلدة ، وأن ينفذ الجلد أولاً بقرية دنشواى ، وعلى ستة بالجلد خمسين جلدة بدنشواى .

فكان عدد المتهمين المحكوم عليهم ٢١ شخصاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولما كانت رغبة السادة الإنجليز أن ينتهوا من القضية قبل آخر الشهر ، فقد تم التنفيذ بالإعدام والجلد فى يوم ٢٨ يونيه فى نفس المكان الذى مات فيه الكابتن بول وفى مثل الساعة التى وقعت فيها الحادثة !

وكان تنفيذ الحكم بطريقة وحشية فاقت المحاكمة فظاعة وفاقت كل ما يتصوره العقل من وسائل الانتقام والتعذيب !

وقد نفذ الحكم أولاً فى كل متهم محكوم عليه بالإعدام على مرأى ومسمع من أهله وذويه ، وبقى كل مشنوق معلقا بينما كان اثنان من المحكوم عليهم يجلدان خمسين جلدة وهكذا حتى تمت المجزرة فى الساعة الثالثة بعد الظهر !!

وبالطبع جمد دم كل مصرى قرأ أخبار هذه القضية منذ اثنين وأربعين عاماً ، وكان رجال هذا الجيل شباناً يقرأون الصحف ويسمعون الأخبار ويتأثرون بعهد الإرهاب الذى جعل الشنق علنياً وأعاد الجلد بالكرباج .

وقال المرحوم قاسم أمين بك يصف يوم دنشواى :

« رأيت عند كل إنسان قابلته قلباً مجروحاً وصوتاً مختنقاً وصدمة عصبية ودهشة شديدة فى الأقوال والأفعال وكان الحزن بادياً على جميع الوجوه ... حزنا ساكناً مستسلما للقوة ، مختلطا بالذهول ، وكانت الأمة كلها فى مأتم وكأن أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان » .

وألقى المرحوم مصطفى كامل خطبة فى لندن ، فكان صوت مصر الناطق وقد وصل إلى أعماق القلوب حتى اضطرت الحكومة الإنجليزية إلى الإفراج عن الأحياء المحبوسين ، وألف المرحوم بلنت كتاباً عنوانه « فظائع العدل البريطانى فى مصر» ، وكتب مستر برنارد شو مسرحية باسم « جزيرة جون بول الأخرى » ، يقصد أيرلندا ، وجعل لها مقدمة طويلة عن حادثة دنشواى . وكتب كتاب كثيرون فى فرنسا وإنجلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا كثيراً من المقالات وألقوا الخطب .

وكان لحادث دنشواى تأثير شديد فى مصر نظراً إلى المجهود الذى بذله مصطفى كامل فى تنبيه الأذهان إلى مساوىء الاحتلال فى أوربا ، وقد فتح هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجهود أعين المصريين الذين كانوا يغطون فى النوم !

وقد تعود المصريون أن يتأثروا بكل مايرد عن أوربا حتى فيما يخصهم شخصياً ، وقد أكبروا جهاد مصطفى كامل فى سنة ١٩٠٧ فى أوربا ، وكان لدنشواى أثر عظيم فى تأسيس الحزب الوطنى .

وتحركت عواطف الشعراء وهم قلب الأمة النابض ومقياس حرارتها وصدى صوت شعورها ، فنظم شوقى بك قصيدة ذكرى دنشواى قال فيها :

نيرون لو أدركت عهد كرومر	لعرفت كيف تنفّذ الأحكام
نوحى حمائم دنشواى وروعى	شعبا بوادى النيل ليس نيام
السوط يعمل والمشانق أربع	متوحّدات والجنود قيام
والمستشار إلى الفظائع ناظر	تدمى جلود حوله وعظام

ولكن المرحوم حافظ إبراهيم الذى يوصف بأنه شاعر الوطنية لعدم اتصاله بأية سلطة من السلطات ، نظم قصيدتين ، إحداهما فى وصف الحادثة والثانية فى عتاب كرومر .

ومن الغريب أن هذا الشاعر الذى ذاق ويلات الاحتلال بوصفه ضابطاً فى السودان ، كان يصف الإنجليز بأنهم « القائمون بالأمر فى مصر » ، ويصف المصريين بأنهم « حمام يجوز صيده كحمام دنشواى ! » ، ويرجو الإنجليز أن يحسنوا القتل !!

فليس بعد هذا الذل ذل !

وهذا نفس ما أراده الإنجليز من الأمة لاعتقادهم بحق أن إذلال الأنفس يصرف الأمة عن المطالبة بالحقوق ويوفر عليهم الجنود والسلاح ، وقد بلغوا بعض أمانيهم عندما قال الشاعر :

ليس فيهم إلا كلام وإلا	حسرة بعد حسرة تتهادى

ولكن حملة حافظ - بدلاً من أن يوجهها إلى الإنجليز - وجّهها إلى المرحوم الهلباوى ، فوصفه بأنه جلاد وأنه ألبس أمته الحداد وأنه ساد فى غفلة الزمان

وشاد! •

وذلك كله لأن الهلباوى بك وقع عليه الاختيار ليكون مدعياً عمومياً مقابل بضع مئات من الجنيهات •

أما قصيدة حافظ إبراهيم الثانية التى رفعها إلى كرومر رسمياً عند قدومه مصر بعد حادثة دنشواى ، فقد جاء فيها :

علمتنا معنى الحياة فمالنا   لانشرئبّ لها ومالك تغضب

أنقمت منا أن نحس وإنما   هذا الذى تدعو إليه وتندب

أنت الذى يُعزى إليه صلاحنا   فيما تقرره لديك وتكتب

إن أرهقوا صيّادكم فلعلهم   للقوت لا للمسلمين تعصّبوا

ولربما ضن الفقير بقوته   وسخا بمهجته على من يغضب

وأنذر حافظ الإنجليز بزوال الحب بين الأمتين • قال :

طاحوا بأربعة فأردوا خامساً   هو خير ما يرجو العميد ويطلب

حب يحاول غرسه فى أنفس   يُجنى بمغرسها الثناء الطيب

وختم قصيدته للأسف بقوله :

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم   هى أمة تلهو وشعب يلعب !

واستبق غفلتها ونمْ عنها تنمْ   فالناس أمثال الحوادث قلّب

الظاهر من شعر حافظ أنه كان ناقماً على الظلم ومغيظاً من أمته التى ضعفت حيال الأجنبى الغاصب ، وهذا ما تأباه المروءة •

وبالجملة كان لدنشواى آثار كثيرة معظمها نافع فى إيقاظ شعور الأمة وفى نجدة الوطنية المصرية •

ومن أهم آثارها زعزعة أريكة كرومر حتى إنه أرغم على الاستقالة بعد هذه الغلطة الكبرى ، فزعموا أنه مريض وأن الأطباء نصحوا له بعدم الإقامة فى مصر•

فأقاموا له حفلة فى ٤ مايو سنة ١٩٠٧ لتوديعه حضرها كل أعيان مصر من وطنيين وأجانب ، وخطب كرومر خطبة جارحة للكرامة الوطنية امتدح فيها كل من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استسلم استسلاماً مطلقاً لسياسة الاحتلال وسبّ وقذف فى حق كل من قاومها ، ورمى المصريين جميعاً بنكران الجميل ، وقال فى هذا الصدد : « إن أولاد العميان يولدون عادة مبصرين » ، مؤملاً أن الجيل المقبل سيعترف بفضل الاحتلال ، فكان نبياً كاذباً ، فإن الجيل المقبل لعن الاحتلال وقاومه بكل قوة ٠ وزعم كرومر أيضاً أن الاحتلال باق إلي الأبد ! فلم يصح تنبؤه لأبعد من أربعين عاماً ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زوال الإمبراطورية البريطانية
حقيقة تاريخية طبيعية
كانقراض جرم من دورة الفلك [1]

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير »

آل عمران

إن زوال الإمبراطورية البريطانية حقيقة تاريخية طبيعية كانقراض جرم من دورة الفلك ... أو انطفاء كوكب بلغ غايته ، وأمسى صخرة مظلمة بعد انعدام الحياة من عناصره التكوينية ، وقد جاء أجله فلا يستقدم ولا يستأخر .

ولكن هذا الموت الأمبراطورى أو الإعدام الاستعمارى ، قد سبقته علامات وأمارات وإشارات ، ولو كانت إنجلترا أسدت إلى العالم خيرا أو جعلت لها عند الله والناس يدا لأسف بعضهم على زوالها ونعوها كما ننعى دولة كبيرة تركت وراءها أثرا نافعا أو برا لا ينقطع .

ولكن كتابا كثيرين من الإنجليز أنفسهم عبروا عما تكنّه ضمائرهم من الارتياح لزوال الإمبراطورية يكاد يكون شماتة وتشفيا .

قال أحدهم « سيزول لقب إمبراطور عن الملك جورج السادس ، ذلك اللقب الذى كان مرتبطا بنظام قديم ، ذهب الآن وذهبت معه ذكريات تاريخية عن الاستبداد والاستعمار ، وللمرة الأولى منذ ألفى سنة أى عشرين قرنا ، لن يكون فى العالم حاكم يحمل لقبا من ألقاب قياصرة الرومان ولن يكون فى بريطانيا شعور بالأسف على زوال لقب لم يكن محبوبا فى يوم من الأيام (هكذا)» .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة الدستور فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٤٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قلنا إن هذا الموت لم يفاجيء أحدا ، في إنجلترا أو في سواها من بلاد العالم ، غير الحمقى والنوكى من عبيد الأوهام .

خطب سير ويليام مولزورث أحد الوزراء السابقين فقال : « ينبغي لنا أن ننظر إلى مستعمراتنا ، واعتبارها أجزاء من الإمبراطورية ، يسكنها رجال لهم الحق في أن يتمتعوا في أوطانهم ، بما يتمتع به كل إنجليزى في إنجلترا ، ومادام هؤلاء المستعمَرون (بفتح الميم الثانية) لايتدخلون في شئوننا الداخلية ، كذلك لايجوز لنا أن نتدخل في إدارة شئونهم المحلية ، إن لنا الحق في إدارة شئون الإمبراطورية العامة ، لأن الاحتفاظ بإدارة تلك الشئون ضرورى لصيانة الوحدة الإمبراطورية ، ولأننا أغنى وأقوى جزء في الإمبراطورية » انتهت خطبة مولزورث.

وهذه الفكرة تبدو في ظاهرها متناهية في الحرية والتسامح ، ولكنها تنطوى على المكر الشديد ، والخوف من انقلاب المستعمرات على الظلم الصادر عن لندن ، كما انقلبت الولايات المتحدة ، فتظاهر السياسة الزعماء بالتساهل ليأمنوا عواقب الثورة، لأنهم يعلمون بالطبع أن من أخلاق بنى جنسهم المقيمين في المستعمرات أنهم لايخضعون طويلا للظلم والإذلال ، خضوع أمم الشرق . وإن ثاروا فإن حكومة لندن لاتجرؤ على قمع فتنتهم ، كما تقمع ثورات الأمم الغربية عنها .

وكان من الساسة الإنجليز رجال يبغضون الاستعمار لأسباب اقتصادية واجتماعية ومنهم ريتشارد كويدان زعيم الفرقة الحرة في مانشستر ، ومن أقواله المأثورة : إن أسعد يوم في تاريخ إنجلترا هو اليوم الذى لا يكون لها فيه فدان أرض في آسيا ، كما كانت عظمى أمانية أن تقطع كل علاقة سياسية بين إنجلترا وكندا في أسرع فرصة ممكنة .

ولكن أطماع اللوردات وكبار أرباب رؤوس الأموال ، وأصحاب المصانع توصلوا إلى السلطة في البرلمان الإنجليزى ، فعاودهم الطموح ، ورغبوا في التغلب على الآراء الحرة ولو في مظهرها فتوطد حب الإمبراطورية في قلوب الإنجليز ، وصار مبدأ ثابتا، لدى الأحرار والمحافظين جميعا.

فألقى غلادستون خطبته الشهيرة فى أدنبرج ليطمئن المستعمِرين (بكسر الميم الثانية) وليثبت قلوب الأرستوقراطية فى تعلقهم بحزب الأحرار ، وأن المحافظين الأحرار سواء فى التمسك بالإمبراطورية ، التى معناها الغنى والأسلاب والاستغلال للشعب البريطانى فقال وهو زعيم الأحرار :

أعتقد أننا جميعا متحدون فى تعلقنا بالملكة العظيمة التى ننتمى إليها وتلك الإمبراطورية الكبرى التى وضعت أمانة فى أعناقنا ، وماهى إلا أمانة وتكليف من العناية الإلهية (!!) وأخص وأكرم ما كلف به فريق من الجنس البشرى . وكلما أذكر تلك الأمانة ، وذلك التكليف أشعر بأن الألفاظ تعوزنى ، وأن الكلام عاجز عن التعبير عما يخالج نفسى ، لا أستطيع أن أصارحكم بما أعتقده من نبل الميراث العظيم الذى كا من نصيبنا ولا عن قداسة الواجب علينا فى الاحتفاظ به ، ولن تسمح نفسى بالتنزل بهذا الواجب المقدس (الاحتفاظ بالإمبراطورية) إلى مستوى الجدل السياسى ، لأنه جزء من كيانى بل من لحمى ودمى ، ومن قلبى وروحى (ياله من دجال كبير !) ولأجل بلوغ هذه الغاية عملت دائبا ، طوال شبابى ورجولتى ، وأكثر من ذلك إلى أن شابت كل شعرة فى رأسى ، وفى هذه العقيدة والقيام بالواجب المقدس حييت وعشت وانتعشت ، وبهذه سوف أقضى بينكم بقية حياتى » انتهى.

إنك لا تسمع وزيرا ورجل دولة يتكلم ، ولكنك تسمع كاهنا أو واعظا يبشر ، وهو مقتنع ومؤمن ، رجل خالط حب الاستعمار لحمه ودمه ، وملك قلبه وروحه ، ويدعى أن الاستعمار أمانة وتكليف سماوى ! كما كان يعتقد ملوك فرنسا وإنجلترا فى القرون الوسطى أنهم إنما يحكمون الشعب باسم الله وإرادته ، وهو ما أطلقوا عليه «الحق الإلهى للملوك » . وكما كان يعتقد إمبراطور الصين أنه ابن السماء .

ومن هو الذى يتكلم ؟ هو غلادستون زعيم أحرار إنجلترا العظيم ، الذى رسم بهذه الخطبة خطة الاستعمار ، لا لحزبه وحده بل لجميع الأحزاب ، من محافظين وأحرار حتى الأحزاب التى لم تكن ولدت بعد كحزب العمال كما أثبتت الحوادث فى عهد رامزى مكدونلد وآتلى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما غلادستون فلم يكن مخلصا ولا صادقا ، بل كان مشعوذا غليظا ودجالا كبيرا ، وقد دلت سيرته على ذلك ، فإنه اتخذ الانتساب إلى الأحرار حيلة ووسيلة للاشتغال بالسياسة ، ولم يكن فى قلبه ذرة من حب الحرية ، بدليل الأعمال التى صحبت عهده ، وكلها مظالم وفضائح ومنها :

(١) إخلاء السودان بإرغام مصر على التخلّى عنه . (٢) ضرب الإسكندرية بالقنابل . (٣) احتلال مصر (٤) اعتذاره لمصطفى كامل عن الوفاء بوعود الجلاء لخروجه من رياسة الوزارة ! (٥) زعمه كذبا أن العناية الإلهية كلفته بأمانة الإمبراطورية وقدسية هذا الواجب ، وهى سفسطة وشعوذة ، لأن العناية الإلاهية لا ترضى عن إذلال الشعوب أيرلندا والهند ومصر والسودان واغتيال الماس والذهب وتبديد شمل الجمهوريتين الهولنديتين فى جنوب إفريقيا (ترنسفال وأورانج).

ولكن تغيير الأحوال وتنور الأمم وكوارث الحرب العالمية الأولى التى أشعلت نارها إنجلترا ، ودفعت إليها فرنسا البلهاء المغرورة دفعا ، وانكشاف ستر إنجلترا وافتضاح أمرها فى أنحاء العالم هى التى أرغمت إنجلتر على التفكك والانحلال والتخلى مغلوبة على أمرها عن الأمانة والواجب المقدس ، وظلم الشعوب بتكليف من العناية الإلاهية (أستغفر الله) وذلك فى سنة ١٩٣١ ، فقد وافق البرلمان البريطانى على قانون جديد أطلق عليه اسم « دستور وستمنستر »[١]، وهو يقتصر على تثبيت القرارات التى أصدرها المؤتمر الإمبراطورى الذى انعقد فى لندن سنة ١٩٢٦ ، ومن جملتها التصريح الآتى :

« إن بريطانيا العظمى والدومنيون طوائف مستقلة فى داخل الإمبراطورية البريطانية وجميعها فى مستوى واحد ، غير خاضع بعضها لبعض فى أية ناحية من ناحيات أمورها الداخلية أو الخارجية ، على أنها مرتبطة بولاء مشترك نحو التاج ،

---

(١) للوقوف على مزيد من المعلومات عن دستور أو قانون وستمنستر ، انظر كتاب المؤلف « حياة الشرق ، دوله وشعوبه وماضيه وحاضره » ص ١٧ - ٢٠ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٣٢.

وشريكة حرة فى الجامعة البريطانية ، وبعبارة أخرى إن دستور وستمنستر يعلن بصفة قاطعة أنه ليست ثمة حكومة إمبراطورية ولا برلمان إمبراطورى ، وأن كلمة إمبراطورية نفسها لم تعد قابلة للتطبيق على جماعة الأمم الإمبراطورية التى يطلق عليها الآن (فى سنة ١٩٣١) بمقتضى هذا القانون وللمرة الأولى فى التاريخ «اسم الكومونولث البريطانى للأمم » .

ولفظ كومونولث معناه اللغوى والسياسى « دولة حرة أو جمهرة الشعب سواء أكانت حكومة جمهورية أم لا ، ولكنها على كل حال ليست دولة أوتوقراطية أو استبدادية » .

فهذا القانون قضى على الإمبراطورية البريطانية ، وعلى الروابط التى كانت تجمع شمل أجزائها ولم يبق منها إلا الرابطة المعنوية ، ورابطة المنفعة ، وإن هذا التحلل أو التفكك حصل على الطريقة الإنجليزية ، أى فى حدود القانون وبتشريع أصدره البرلمان ، ولسان حالهم يقول « بيدى لا بيد عمرو » .

فهو نتيجة التطور لا الثورة وليست العبرة بالوسيلة وإنما العبرة بالنتيجة وهى زوال الإمبراطورية البريطانية من الوجود والحمد لله .

الشيخ أبو الهدى الصيادى
وهل تسبب فى سقوط الدولة العثمانية
وهل كان من نوع راسبوتين ؟
كتاب جديد عن عهد السلطان عبد الحميد [1]

من الشخصيات الشرقية التى كان لها شأن عظيم فى أواسط عهد السلطان عبد الحميد وأواخره ، الشيخ أبو الهدى الصيادى الذى لعب دوراً مهما فى تاريخ الدولة العثمانية . وكان اسمه واسم الشيخ ظافر يترددان على الألسن وعلى رؤوس الأقلام فى سائر أنحاء الدولة العثمانية مدى ثلاثين عاما ، ولايزال كل مؤرخ أو مفكر شرقى عاش فى الأستانة أو احتك بالحكومة التركية أو المابين يذكر ما كان لأبى الهدى من البأس والبطش والنفوذ فى يلديز وفى غير يلديز من دوائر الحكومة العثمانية .

وأصل الرجل من بليدة اسمها خان شيخون فى جوار حلب ولد ونشأ فيها هو وأبوه الذى أطلق عليه فريق من حاشية أبى الهدى لقب « نبى الله حسن » ، ولم يكن نبى الله حسن هذا سوى درويش بسيط يضرب بالدف أحيانا ويقول « يارفاعى ياكيلانى الجوة الجوة» يقصد القوة ! القوة ! كما يقول دراويش مصر مدد ياسيدى فلان . . .

ولما كان أبو الهدى كثير التمجيد لأبيه بعد موته وينسب إليه الكرامات وخوارق العادات والثروة الواسعة والقدرة النادرة على كل شىء ، فقد أطلق رجال حاشيته على أبيه اسم « نبى الله حسن » ليكون ذلك الوصف كاملا شاملا لكل المناقب الخيالية التى يريد الولد أن ينسبها إلى الوالد .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٣٧ ، المجلد الثالث ، العدد ٧٤، ص ١٦ - ١٧ ، ٤٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان من الطبيعى أن يتدروش الابن كما تدروش الوالد ولكن بعد أن تعلم علوم الدين ، وفى الحق أن جميع معاصرى أبى الهدى ومعاشريه عرفوا عنه العلم الواسع فى الفقه والحديث والتفسير وأصول الشريعة وعلوم اللغة . وبالجملة كان عالما لغويا وشرعيا وكان شديد الذكاء ، قوى الذاكرة ، وهذا الذكاء الخارق وذلك النبوغ الفطرى هما اللذان أقنعاه بعدم فائدة العلم المجرد من الحيلة فى مثل الدولة العثمانية وفى مثل العهد الذى عاش فيه ، فقد أدرك أنه لو رضى بالعلم الشرعى وحده فإنه يموت جوعاً أو يرضى بالكفاف فى خان شيخون . ولكن نفس الرجل كانت تصبو إلى المال والمجد والشهرة والنفوذ . ولم يكن يرضى بأدنى عيشة يعيشها عالم عادى. ورأى فى وجود السلطان عبد الحميد على العرش فرصة سانحة لظهور مواهبه وبلوغه أمانيه ، لأنه فطن بذكائه الخارق أيضا إلى أن الملك المستبد لابد أن يكون ذا عقلية خاصة ولابد أن يكون أبداً فى حاجة إلى أدوات وآلات خاصة ولم يكن الشيخ مخطئاً .

ولئن بلغ عزت العابد باشا عند السلطان درجة من النفوذ يحسد عليها مع عدم تبحره فى العلوم وعدم عنايته بأى فن من الفنون التى أتقنها أبو الهدى أو سواه ، فقد كانت الفرصة السانحة لأبى الهدى نفسه عظيمة . ومن عجب أن يحدث ذلك فى الوقت الذى كان فيه أعاظم رجال الشرق الإسلامى أصحاب المجد الصحيح وأصحاب العلم والإخلاص والأفكار الخارقة إذا بلغوا عتبات السلطان يعاملون معاملة عادية أو جافة حتى يرحلوا أو يستبقيهم السلطان أسرى ، أمثال خير الدين التونسى [١] والسيد جمال الدين الأفغانى والسيد عبد الرحمن الكواكبى والسيد عبدالعزيز الثعالبى وعبد الله النديم وغيرهم عشرات . لأن هؤلاء يحملون فكرة الإصلاح الحق والإصلاح يقتضى الحرية والإخلاص فى النصيحة ، ولكن «النغمة» فى القصر كانت على عكس ذلك . وليس معنى هذا أن السلطان أو حاشية السلطان

---

(١) انظر مبحث المؤلف عن « خير الدين التونسى » ، صفحة ٤٠٨ من هذا الكتاب .

لم تكن تميز الخير من الشر والعدل من الظلم . كلا إنما كان المطلوب هو تنفيذ برنامج الحكم المطلق وإهمال ما عداه ، فلا يمكن أن يتقدم فى مثل هذا العهد إلا الذين يصلحون لتنفيذ هذا البرنامج أو يساعدون على تنفيذه ، أما الفضلاء فلهم زمان آخر وبرنامج آخر وقد ينظر إليهم حينا بعين الرضى وحينا بعين المقت والسخط .

وشد الشيخ أبو الهدى الرحال إلى الأستانة ولجأ إلى بعض المعاهد الدينية وتمكن من القرب عن طريق رواية الأحلام السعيدة والرؤى المبشرة لجلالة الخليفة «ظل الله على الأرض خاقان البرين وسلطان البحرين السلطان ابن السلطان ... إلخ » !

وكان باب التصوف والتقوى والصلاح هو الذى دخل منه الشيخ ، ويكفى أن يتكهن بأمر يكون قد أعد له عدته أو خدمته الظروف فى مطابقته للواقع حتى يعتقد فيه السلطان ويحل منه المحل الأول فتقطع له الإقطاعات وتجرى عليه الأرزاق وتخصص له القصور وتنهال عليه الأموال والهدايا والنياشين والرتب والألقاب ، ويفتح له باب الالتماس فى دواوين الحكومة أى الباب العالى ، ومعنى هذا أن يكتب توصيات لرؤساء المصالح تقوم مقام الأوامر ، وقد أحصى له كامل باشا الصدر الأعظم فى شهر واحد عشرين ألف التماس نقل خبرها إلى السلطان فى شىء من الاحتجاج والغيظ والغيرة على نظام الحكومة الذى يجب أن يقوم على المساواة والعدل ونفى « الخطراتشن » من الدواوين ، فلم يأبه السلطان لاحتجاج كامل باشا وكان هذا سبباً فى عزله وإسقاط وزارته .

وكان أبو الهدى محسوداً وكان له أعداء ومزاحمون كثيرون ولكنه كان يستعمل ذكاءه الخارق فى محاربتهم والفوز عليهم ، وكان له فى ذلك طريقتان : الطريقة الأولى بذل المال ، كان الرجل يحصل على مئات الألوف من الليرات العثمانية فى كل شهر من مخصصات وهدايا ومكافآت وعلامة رضى إلخ . ولكنه كان دائما مفلسا ، وكان دائما يقترض ، وكان دائما فى حاجة للمال . لأنه كان نهابا وهابا

لم يقصده أحد فى أمر إلا وأعطاه ، وهو بذلك يرمى إلى امتلاك قلوب الرجال ، وفعلا كان له جيش من الأنصار والأعوان والجواسيس والمحسوبين ، وكان بعض هؤلاء منتشرين فى أنحاء الأمبراطورية العثمانية تنفيذا لخطط أبى الهدى . وكان رجاله بالطبع يعرفون نقط الضعف والخروق التى تظهر فى دروع خصوم مولاهم ، فيوافونه بها ويعملون ويقولون ما يأمرهم به بلا تردد فلا يفوز خصم على سيدهم مطلقا .

وكان أشد مزاحميه الشيخ أحمد ظافر المدنى وهو أيضا كان متصوفا وكان يعيش فى مصر تارة وفى الأستانة طوراً وكان محبوباً عند السلطان لأنه فسر له رؤيا وتكهن له بمسألة فاعتبره الخليفة من الأولياء وأهل الكشف .

والطريقة الثانية التى كان يلجأ إليها الشيخ أبو الهدى فى توطيد مركزه هو احتفاظه دائما وأبدا بسجلات منظمة ومستوفاة بحوادث المملكة وماجريات الأحوال يوما فيوما تبعاً « للجورنالات » ، فقد كان يحفظ التقارير السرية اليومية التى يوافيه بها أتباعه وجواسيسه كما كان يدون فى سجلاته أخبار المشاهير وحركاتهم وسكناتهم وأقوالهم واجتماعاتهم وماضيهم وحاضرهم وسائر أحوالهم ، أى أنها أشبه شىء بصحيفة سوابق متسعة ودائرة معارف للشخصيات البارزة والمتوسطة التى تعيش فى كنف عاصمة الخلافة وتحت لواء « خليفة رسول الله » !

وكان يستعمل هذه المعلومات للدفاع عن نفسه فيسرد مايحتاج إلى سرده مؤيداً بالتواريخ والأسماء والوقائع وشهادة الشهود .

كان هذا الرجل نوعاً من الجبرتى ، ولكن لا للمصلحة العامة بل لمصلحته الخاصة وكان عنده من يدون ويقيد كل شاردة وواردة .

وكانت صلاته بالسلطان تتراوح بين الرضى والغضب ، ومعنى الرضى أن السلطان يدعو الرجل المرضى عنه كل يوم مرة أو مرات إلى السراى فيبقى ماشاء جلالته . وقد يدوم المجلس ساعة أو ساعتين أو بضع ساعات .

أما إذا غضب الخليفة على أحد هؤلاء الرجال المقربين ، فكل شىء من نفوذ الرجل وأرزاقه وأبهته وسلطته فى الدواوين تبقى له وتبقى له كرامته واحترامه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومنصبه فى الحكومة إن كان له منصب ولا ينقص منه شيء ، إلا فى مسألتين ، الأولى لا يدعى إلى صلاة الجمعة مع السلطان وهى التى كانت حفلة السلاملك ، والثانية لا يدعى إلى المابين أى لا يحظى بشرف المثول بين يدى السلطان · وهاتان العلامتان كانتا قاصمتين لظهور العظماء وكان كل منهم يتّقيها ما أمكن ·

ومما تحسن الإشارة إليه أن مسألة العشرين ألف التماس التى شكا منها كامل باشا الصدر الأعظم حدثت فى وقت كان أبو الهدى مغضوبا عليه فيه ·

ومدة الغضب كانت تتراوح بين أسبوع وثلاثة أشهر وأطولها مدة ستة أشهر قاساها أبو الهدى وذاق فيها العذاب ألواناً حتى كان لا ينام الليل · وكان واسع الحيلة يعالج حالات الغضب علاجا يدل على ذكائه وفطنته ، ففى إحدى المرات أرسل مصوغا وجواهر لترهن فى بنك الرهونات ، فلم يكد يصل الخبر إلى المسامع الشاهانية (من كلمة شاهنشاه) حتى ردت إليه فى مساء اليوم نفسه الجواهر المرهونة ومبلغ ألف جنيه ومركبة سلطانية تحمله إلى المابين علامة الرضى ·

وفى المرة الثانية ادعى المرض فعادته لجنة من كبار الأطباء وقررت إجراء عملية وهى خلع ضرسين ، وفى عصر اليوم نفسه رضى عنه وجاءته مركبة حملته إلى القصر وعاد منها يحمل هدايا تقدر بألوف الجنيهات · وروى ثقة أن الضرسين اللذين خلعا كانا سليمين ولم تكن بهما عاهة ولم يكن الرجل مصابا بحمى سوى حمى القلق من سخط السلطان !!

وكان الشيخ يتقن التركية وقيل إنه كان يتكلم الفرنسية وكان بحراً زاخراً فى العربية ، وكان ينظم الشعر بسليقته فى أى معنى يشاء وينسبه أحيانا إلى بعض الأشخاص ليكون الشعر المنتحل دليلا على صدق روايته · فإذا وصف مثلا وليمة خيالية ادعى حدوثها فى بيت أبيه ، جعل على لسان بعض الشعراء أبياتا من الشعر تصف البيت والكرم وعدد الأضياف الذين طعموا واستظلوا ونعموا ومرحوا فى كنف والده · ويصل به الذكاء الخارق والقدرة على الإثبات أن ينظم قصيدة أخرى ويدعى أن فلانا الشاعر عارض بها الشاعر الأول فلا يبقى عند أحد شك فى صدق روايته ·

ويظن بعض الناس أن السلطان عبد الحميد كان من البساطة بحيث يستسلم لأمثال أبى الهدى ويعتقد فيه الولاية ، وذهب بعضهم إلى أن السلطان نفسه كان درويشاً ومتصوفا ، وكل هذا خطأ ووهم ، والحقيقة هى أن السلطان كان يعرف هؤلاء الناس بصفاتهم الصحيحة . ولكنه كان محتاجا إليهم لأن عهده كان يحتاج إلى مظاهر الإيهام وجمع الكلمة والتجسس على الرجال فى الشرق ، ومعرفة حركات الساسة والثائرين والناقمين . فكان الشيخ رئيس قلم الاستعلامات الإمبراطورى مثل الذى فى دول أوروبا ولكنه على الطريقة الشرقية ، وكان السلطان عبد الحميد فى حاجة لأمثال أبى الهدى فى اختراع فكرة كفكرة الجامعة الإسلامية وتغذيتها والترويج لها ، كما كان فى حاجة لأمثاله فى إحباط مشروعات مثل الخلافة العربية.

شىء من السياسة العليا وشىء من السياسة السفلى ، شىء من الأفكار العامة وشىء من الشخصيات الحقيرة ، هكذا كانت الخطة العامة لسياسة الدولة العثمانية التى سيّر عبد الحميد دفتها حتى ذهبت أجزاء المملكة كأوراق الخرشوف وانطوت خريطتها عقداً فعقداً بل عاماً فعاماً ، ولو كان أبو الهدى فى دولة حرة وأرادوا الانتفاع بمواهبه لكان مظهراً من أعظم مظاهر الدولة ، ولكن الوسط الذى عاش فيه كان وسط دسائس وفتن وجهل وادعاء وانتفاع يخجل الناس ومروءتهم وانتهاز للفرص، فسار الرجل فى هذا التيار وسبح فيه .

كيف يصل هذا الرجل إلى التاريخ ، وعلى أية صورة يعرفه أحفادنا وأحفاد أحفادنا؟ . هل كان راسبوتين شرقياً استولى على أذهان الرجال والنساء فى يلديز؟ الجواب كلا فإن البله لم يصل فى وقت من الأوقات فى حاشية عبد الحميد إلى ما وصل إليه فى عقل نيقولا الثانى وزوجته وحاشيته . كان عبد الحميد أدهى من أن يخضع لأبى الهدى أو سواه . ولكن أعمال أبى الهدى وحياته وأفكاره أثرت فى القصر والحكومة ولم يكن السبب المباشر فى سقوط الدولة كما كان راسبوتين.

ويقول ثقة إنه اجتمع عند الشيخ أبى الهدى أربعة وسبعين مؤلفاً مطبوعاً فى ذكر مناقبه كتبها أتباعه ومأجوروه والمحسوبون عليه ، فى حين أنه لايوجد إلا أربعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو خمسة كتب طبعت فى هجائه منها كتاب المسامير الذى ألفه عبد الله النديم وطبع فى مصر فى مطبعة المؤيد وكان له قضية وقصة وتاريخ . ويظن راويتى أن أبا الهدى سينزل إلى الأخلاف فى صورة الرجل العظيم والمتصوف المبرور والولى الورع. وظنى على العكس فيكفى أن يكتب رجل أو رجلان صفحات عن حقيقة الرجل فتذوب المجلدات السبعون أمام الحق كما يذوب الثلج أمام حرارة الشمس . فأين هذا المؤرخ ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جمال الدين ومحمد عبده
وسكرتير الجبرتى[1]

—

قليلون هم المصريون الأحياء الذين رأوا المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى رأى العين ، وقد أدركنا أحد الأعيان المتأدبين الذين عاشوا فى آخر القرن التاسع عشر ورأوا السيد جمال الدين ووصفه لنا وصفا دقيقا قال[2] :

أدركت الشيخ (كذا) جمال الدين الأفغانى منذ أكثر من خمسين عاما وكان وسطا بين الرجال فى جسمه ، لا طويلا ولا قصيراً ، ولا بادنا ولا نحيفا ، ولكنه كان عريض العظام ، واسع الهيكل ، وكان وجهه عريضا ، وله عظام بارزة فى الوجنتين بروزاً واضحاً وكانت جبهته بقدر نصف هذه المائدة (وأشار إلى مائدة من المرمر المستطيل من الذى يكون عادة فى القهوات) وكان لونه زيتونياً ، وشعر لحيته أسود، وكان يلبس عمامة عالية ، وجبة وصدرية وسراويل مثل علماء الأتراك .

وكان يتهادى فى مشيته ، ويتكلم بغاية التأنى بصوت أقرب إلى صوت الشباب منه إلى صوت الرجولة ، أى أن صوته كان أصغر من سنه ، وكان عندما أدركته ، فى الخمسين من عمره ، وكانت عيناه واسعتين وحركات وجهه تدل على كل ما فى نفسه ، فلم يكن يستطيع إخفاء عواطفه .

وكان ساحراً خلابا بلفظه وأسلوب كلامه ونظراته . ولم أكن أعلم شيئا عن حياته الخاصة ولا أين يسكن ، ولا كيف يعيش ، ولكن كنت أراه يأتى كل يوم إلى قهوة متاتيا وكانت أجمل قهوة فى مصر ، فيجلس تحت إحدى بوائكها ، ويشرب الشاى ، ويدخن نارجيله ، وبعد نصف ساعة من حضوره وجلوسه ، يحضر نحو

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٩.

(٢) سجل المؤلف هذا الحديث فى يوميات سنة ١٩٢٢ من مذكراته المعنونة « شاهد على العصر ، مذكرات محمد لطفى جمعه » ، الجزء الأول ، رقم ١٨٣ من سلسلة تاريخ المصريين ، ص ٥١٦ – ٥٢٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ٢٠٠٠م .

مائة شخص فيجلسون حوله فى حلقة عجيبة الشكل ، وكان أقربهم إليه المرحوم الشيخ محمد عبده والمرحوم إبراهيم اللقانى والمرحوم الشيخ حسن الطويل ، وكان فلان بك المحامى يحضر أيضا وهو يلبس عمامة و« عريا » فى غاية القذارة .

وكان الشيخ جمال الدين يبدأ بالكلام لمن حوله ، فيلقى محاضرة أو درسا ، ولم أكن فى ذلك الوقت أعى شيئا مما يقول ، ولكننى كنت أدرك أنه لو كتب كاتب كل ما كان يلقيه لأخرج للناس كتابا حسنا .

وكان أعيان مصر ونبلاؤها يتهافتون على مجلسه ، ويسعون فى التقرب منه ، ويتشرفون بمعرفته ، وممن أذكرهم ثابت باشا ، وكان (الشيخ) فى كلامه يحض على الثورة والعصيان ضد المظالم ، ويطعن على استبداد إسماعيل باشا ويهيج أفكار المصريين .

وقد أتيح له أن يلقى دروسا فى الأزهر الشريف ، فحصل عليها إقبال شديد ، ولكن الوزير رياض باشا منعه من الاستمرار . ولما استفحل أمره ، صدر الأمر بنفيه ، وسفّرته الحكومة ليلا إلى السويس .

وكان الشيخ جمال الدين طروبا ويحب مجالس الغناء ، وكان يتكلم باللغة العربية الفصحى فى كل مكان وفى كل ظرف ، ولم يلجأ مطلقا للغة العامة (المحكية) وكان يصفها بأنها اللهجة المخنثة ، ويمقتها .

وقد حضرت مجلسه مرة فى محفل غناء ، حيث كانت تغنى القوم المرحومة (ألماز) الشهيرة وكانت عادتها أن تغنى دوراً ، وتستريح فترة فيقف مطيّب لها ، كان اسمه حسن الصدفجى ، وكان مهرجا ، فيقول بعض النكات لإضحاك الجمهور وإشغاله ريثما تستعيد مولاته قواها لتغنى الدور الثانى أو الثالث ، وفى تلك الليلة طرب الشيخ كثيرا ، ووضع يده على جبينه ، ثم انقطع الغناء ، وبدأ حسن الصدفجى يهرج ، فنهض الشيخ جمال الدين وقال « ياحسن يا صدفجى !»

فأجابه الصدفجى بصوت المستهتر ولهجته : « نعم يا صيدى !»

فقال الشيخ : من تحب أكثر الحب وأعظمه ؟

أجاب المهرج : امرأتى !

فضحك الشيخ وقال : أقصد من أولياء الله

الصدفجى : سيدنا الحسين !

الشيخ : أقسمت عليك به أن تنتهى عن التهريج والمسخرة فإما غناء باستمرار ، وإما سكوت تام فى فترة الاستراحة .

وعند ذلك أخذ المدعوون يهمسون باسمه ، وينهون المطيب عن الاستمرار فى تهريجه إكراما للشيخ فانتهى .

ويغلب على ظنى أن الشيخ حضر إلى مصر مرتين ، وأقام فى كل مرة مدة طويلة ولولا ذلك ما تمكن تلاميذه من التفقه عليه ، فقد اقتضى تفقههم عليه مدة حسنة .

وقد أنشأ الشيخ أثناء إقامته ، جريدة « القاهرة الحرة » وهى غير جريدة « العروة الوثقى » وإن لم يكن هو صاحب القاهرة الحرة ، فقد كان له أكبر نصيب فى تحريرها وإدارتها .

ويرجع إقبال المصريين على الشيخ وعظم تقديرهم إياه إلى أنه كان منفردا بعلمه ، وكانت معارفه واسعة جداً بالنسبة لأهل زمنه ، وكان المصريون فى غاية الجهل ، وكانوا يكتبون هكذا :

« بمشيقة الله ، سيمر الباشا لتفاد الأحوال » ، وكان النفر مَن الأذكياء فى زمنه، متعطشين لعالم مثله ، وأعتقد أنه لولا حضوره وزيارته مصر ، ما كان أحد ممن ظهروا ليظهر بعد ذلك بالعلم أو بسعة الفكر كالمرحوم الشيخ محمد عبده وأصحابه وتلاميذه .

وكانت عقيدته غير الإسلام الصريح وإن كان يتظاهر به[١] ، ولا يمكننى الحكم على عقيدة أتباعه .

---

(١) جاء فى صفحة ٥١٨ من المذكرات المشار إليها آنفاً على لسان المتحدث للمؤلف وهو محمد نافع باشا عضو شورى القوانين كلمة Athée أى أن الشيخ الأفغانى كان ملحداً .

وقد سمعت أنه ذهب يوما لزيارة أحد الباشوات فى عيد الأضحى ، وكان معه باشا آخر ، فلما دخلا إلى بيت الباشا الذى يقصدون إلى زيارته ، تقدم صاحب الدار إلى الباشا الزائر وقبله وهنأه وأهمل الشيخ ، فنبهه الزائر إليه فأقبل عليه رب الدار يحييه فرفض الشيخ مصافحته ، وسلقه بألسنة حداد وأنّبه على أنه أقبل على الباشا وأهمله ، مع أن الباشا يعد نفسه تابعا له ، مع أنه أكبر سنا من الاثنين، وهو يعد غريب الديار ، وقادم للمرة الأولى لزيارته ، فاضطرب الباشا صاحب الدار وارتج عليه ، وأخذ الحاضرون يعتذرون للشيخ ويطلبون منه العفو ، فلم يتمكنوا من إقناعه بالصفح ، وخرج من الدار بمفرده غاضبا ، فهرع القوم فى أثره ، ولم يدركوه .

وكان رياض باشا قد أمر بأن يصرف له فى الشهر عشرة جنيهات مصرية وهى تعادل الآن أربعين جنيها ، وكانت له مصادر رزق أخرى ، ولكنه ما كان يكترث بالمال وكان يقول قولا مأثورا كلما تهددوه بالنفى ، أو الإبعاد عن مصر « إن الأسد يجد فريسته أنّى ذهب ... » ولم يستطع رياض فى أى وقت من الأوقات أن يخضعه لرأيه أو يأسره لأنه يجرى عليه رزقا ويكرم وفادته ، بل تبقى الشيخ طول مدة إقامته مستقلا ، متمتعا بحرية إرداته ، بل ثائراً ناقما ، كعادة الفلاسفة المتطرفين.

وقد علمت من بعضهم ، أنه كان يسكن بيتا علويا فى الداودية أو المغربلين بباب الخلق ، وأنه كان يستخدم رجلا فى إدارة شؤونه البيتية ، وكان يحضر إليه كثيرون من تلاميذه فى تلك الدار فيقرأون عليه بعض كتب الفلسفة المستعملة فى الأزهر وغيرها .

ولم يكن الشيخ متزوجا ، ولم تعرف له علاقة بالنساء ، وكان يمقتهن ، ولا يذكرهن بخير ، ويقول « إن المرأة خير حليف للشيطان ، إن كان هناك شيطانة» .

وكانت له صداقة بالمرحوم إبراهيم بك المويلحى ، وكان الشيخ حسن النية ، سليم الطوية ، وكان المرحوم المويلحى صاحب دهاء وحيل ، وكان يعكر فى بعض

الأحيان جو العلاقات بين الحكومة والشيخ ، وكانت الحكومة تثق فيه لجهل رجالها فيعتقدون أنه لايوجد من يفهم أفكار الأفغاني غير المويلحي ، ومادام المويلحي قال «إن هذه الأقوال مضرة بالخلق ، وخادشة للأذهان » فيجب تصديقه ، ومازال رياض يتحين الفرص حتى نفى جمال الدين ، وقطع بذلك حبل الأمل في الإصلاح ، ولكنه لم يكن يعلم على كل ما أوتى من الحذق ويعد النظر المستقادين من أصوله « الوزانية » أن جمال الدين ترك تلاميذ لايستهان بهم ، مثل الشيخ محمد عبده بصفة خاصة .

فقد كنت أراه كما أسلفت لك في صباه ، إذ كان يغشى مجلس الشيخ جمال الدين ، وهو في مقتبل العمر ، وعليه علائم الذكاء الخارق ، وكانت له هيبة وجلال على الرغم من شبابه ، وكان أقرب المقربين للشيخ ، وكان يعطيه اسما خاصا ، كأنى به « روح الجماعة » أو « عقل الحلقة » أو ما أشبه ذلك .

واستطرد الباشا محدّثي إلى ذكر الشيخ محمد عبده إذ صار بعد ذلك بثلاثين عاما مفتي الديار المصرية ، وعضوا في مجلس شورى القوانين ، حيث كان الباشا نفسه عضوا فقال :

لقد أوجد الشيخ محمد عبده في المجلس لنفسه مركزا ممتازاً وذلك بعلمه وفصاحته ، واهتمامه بالمناقشة ، وعدم تدخله إلا عند النقطة المهمة من المباحثة ، فلا يتكلم لغواً ، ولا يسهب ، ولا يقترح اقتراحا مستحيلا ، أو منفراً للأعضاء ، وكان يدخل إلى قاعة الجلسة ، وقد وضع على عينيه « نظارة » « عوينات » وحول رقبته مزوء وفي إحدى يديه قفاز ، والأخرى عارية وفيها لفيفة كبيرة (سيجار) من طبقات هافانا ، وكان يسير نحو قاعة الاجتماع وهو يقرأ عادة كتابا أو جريدة في يده التي فيها السيجار ، ويستمر في قراءته إلى أن يبلغ منتصف القاعة ، فينهض جميع الأعضاء لتحيته ، ويتهافتون عليه ويبسطون له أكفهم مرحبين ، فيلمس تلك الأكف المبسوطة بأطراف بنانه ، وكان لقاؤهم للشيخ ، وهم أعضاء المجلس التشريعي الوحيد في البلاد ، أشبه بتشريفة الخديوي ، ولعلهم كانوا يعنون بلقاء المفتي أكثر من لقاء الأمير .

وكان الأستاذ الإمام رحمه الله يظهر الكبرياء لبعض الناس ، ويتلطف مع آخرين ، وروى لنا حادثة وقعت بين فضيلته وبين أحد أعضاء مجلس الشورى من أعيان الفيوم الذين كانوا ينتمون إلى لورد كرومر ويفتخرون بذلك ، وكيف أن الشيخ محمد عبده أهانه ، وأفهمه أنه لايأبه له ولا لمولاه البريطانى ... فأثار دهشة الجميع ، وقد كشفت الأيام عن صدقه .

وتكلم عن التصريحات التى أفضى بها الشيخ لدى جورفيل الصحفى البلجيكى قبيل وفاته بعام فقال إنها وقعت موقع الغرابة عند الجميع ، لأن الناس كانوا يظنون خطأ أن الشيخ كان يمالىء الإنجليز ويدافع عن سياستهم ، فلما نشرت هذه المحادثة بعد وفاته بأشهر كانت بمثابة وصية سياسية فإذا هو ناقم على الإنجليز وعلى سياستهم ، ويسمى مجلس الوزراء « مجلس الصم البكم » .

ووصف زيارة له فى مرض الموت فى بيته بعين شمس فقال إن الزيارة كانت مجلس علم ، وكان الشيخ يتكلم إلى طالب أزهرى نجيب فى مسألة علمية مدارها تحرى النبى (صلى الله عليه وسلم) فى أمور وتطبيق قواعد العلم عليها دون الاكتفاء بالصلاة والصيام والدعاء ، قال محدثى وكانت ابنته الصغيرة (عائشة) تحمل إليه ورداً من الحديقة وقد أجلسها بجواره على السرير .

ويعزو الباشا موت الشيخ إلى الكمد الذى أصابه من الدسيسة التى دبرها الشيخ على يوسف والعلماء الرجعيون فى الأزهر ، وكانت تؤدى إلى دعوة العلماء فى قصر عابدين ، حيث يخطب سمو الخديوى السابق خطبة قارصة مملوءة بلواذع الكلم موجهة كلها إلى الأستاذ ومما جاء فيها « نحن لانريد فلاسفة ، بل نريد علماء فى الدين لأن الفلاسفة مفسدون فى كل زمان ومكان ، أما العلماء المخلصون فمصلحون ».

قال الباشا : ولعل هذه النبذة لم تنشر فى الخطبة الرسمية التى نشرها المؤيد وحلاها بإطار تشريفا لقدرها لأنها « من كلام الملوك » ولعل الشيخ على هو منشئها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد علل محدثي كراهية الشيخ على يوسف رحمه الله للأستاذ الإمام باختلافهما في النشأة والمشرب والذكاء واتجاه المطامع ، ووجهات النظر للحياة الخاصة والعامة ، وإليك ما أوردناه ملخصا :

لقد كان الشيخ محمد عبده من أصل أجنبى وكان كريم الطبع حر الضمير ، خاطر بحياته في الثورة العرابية وهو فى مقتبل العمر ومال إلى تعلم اللغة الأجنبية كما أظهر كفاءة فى تفهم أسرار اللغة وتعرف كنهها فشرح بعض معضلاتها وانطلق قلمه البليغ بأثمن ما احتوته الجريدة الرسمية ، كما أنه كان أقرب تلاميذ الأفغانى إليه، وكذلك تمكن من كسب ثقة المرحوم ويلفريد سكوين بلنت ، وكان معاديا بالفطرة للاستبداد ، فقاوم حكم إسماعيل وتوفيق ، وأتقن الفرنسية وهو فى الأربعين من عمره وطاف أنحاء العالم الأوربى ، وأظهر حرية فى الرأى تناولت جميع المسائل الاجتماعية والمعاشية والسياسية التى تشغل بال الأمم الإسلامية ، وسار فى تفسير القرآن على خطة حديثة جميلة جمعت حوله أفضل العناصر المصرية .

وكان من طبيعة مثل هذا الرجل أن يكون منظورا إليه بعين البغضاء من القصر الذى كان يجلس على عرشه خليفة « محمد توفيق » ، ولكن الشيخ على يوسف الحسيب النسيب رحمه الله رحمة واسعة كان من خطته السياسية أن يسترضى الجالس على الأريكة الخديوية ، حتى يتاح له أن يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شؤون الدولة ، حتى إنه صرح بعد تأسيس حزب الإصلاح بأنه « فرغ الساعة من تأليف الوزارة فى قصر عابدين » وهى الوزارة التى كان فيها المرحوم حشمت باشا وزيرا للمرة الأولى .

وشتان بين العقليتين والنفسيتين ، حتى إن الشيخ على عندما توفى المرحوم الأستاذ الإمام رثاه بكلمات مختصرة قاسية (وكان المرحوم مشهوراً بالنيل من أعدائه بعد وفاتهم ، فلم يترك أحدا من خصومه دون أن يناله بما يشفى نفسه ، حتى حميّه وسلفه على سجادة السادة الوفائية ، السيد عبد الخالق السادات) .

نقول تعقيبا على هذه النبذة إن الأستاذ الإمام مات رحمه الله بسرطان فى الكبد ، ولم يكن الكمد أو الحزن سبب وفاته الوحيد .

وانتقل محدثى إلى الكلام على الشيخ محمد درويش شريك المرحوم الجبرتى فى تأليف التاريخ الشهير فقال :

كان يوجد رجل شهير اسمه محمد بك سيد أحمد وهو والد المرحوم أمين باشا سيد أحمد ، الذى توفى على ظهر باخرة فى طريقه إلى أوربا ، وكان محمد بك يشغل منصبا مهما فى الحكومة (ولم يذكره محدثى) وكان فوق ذلك مشتغلا بالعلوم والآداب ، فعلم بوجود رجل عالم فى بلدنا (وهى دمديط) وهذا الرجل كان شريك الجبرتى أو كاتب يده فأراد المرحوم محمد بك سيد أحمد الاستعلام منه عن مسألة معينة وردت فى التاريخ المذكور ، فحضر محمد بك سيد أحمد إلى بيت محدثى فى قرية (دمديط) فاحتفى به ، فطلب البيك العالم مقابلة الشيخ درويش ، وكان الشيخ المذكور يسكن كوخا فى حارة معروفة باسمه (حارة الشيخ درويش) وكان رقيق الحال جداً ، شيمة العلماء (هذه عبارة محدثى).

فلما علمتُ بقصد البيك من زيارته ، قلت « إن الشيخ يحضر إليك هنا فى منزلى » ، فقال البيك كلا ! لابد من ذهابى إليه ، وقد عرضت ذلك لعلمى بخلو بيت الشيخ مما يجعله مستعداً لزيارة الأجانب ، فأرسلت بعض الخدم بسجاجيد وطنافس ففرشوها ، وبعد قليل قمنا إليه ، وكان الشيخ عبارة عن قفص عظام ، ولكنه كان يستطيع النظر والقراءة إلى آخر عمره ، وكانت سنه إذ ذاك مائة وعشرين سنة، فلما دنونا وضع يده على جبهته ليحجب الأشعة التى تعوقه عن حصر نظره فى وجوه القادمين ، ثم سأل عن البيك فلما علم باسمه قال له : « أنا أسمع بأنك محب للعلم ، ومشتغل به » ، ثم لمسه بيده وباركه ودعا له ، وسأله البيك عن النقطة التاريخية (والمحدث لا يعلمها ولم تعها ذاكرته ولعله لم يدركها أو أنه أراد إخفاءها عنا) فرواها له الشيخ وقال له « إننا كتبناها أولا على الصورة الفلانية وهى الحقيقة، ولكن الباشا (يقصد المغفور له جنتمكان محمد على باشا) أرسل إلى الشيخ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(الجبرتى) فى بيته فى شبرا ، وطلب إليه أن تكتب العبارة الفلانية وغيرها على صورة مخالفة للحقيقة وموافقة لهواه (الباشا) ففعل الشيخ ما أمر به » . انتهى كلام الشيخ درويش .

ولدى الانصراف قبّل محمد بك سيد أحمد يد الشيخ ، وكان الشيخ محمد درويش لايدخن ، ولا يفرط فى شىء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشيخ محمد عبده
وصف مجلسه وأحاديثه وبعض آرائه (١)

وصلت إلى يدنا حديثا رسالة التوحيد تأليف المرحوم الشيخ محمد عبده منقولة إلى اللغة الفرنسية ، وقد اشترك فى ذلك العمل الجليل النافع الأستاذ ب. ميشيل والشيخ مصطفى عبد الرازق فصدّراها بترجمته ، ويلوح لنا أنهما أخطآ فى نسبة الشيخ إلى الجنسية المصرية ، ولم يحققا نقطة ذات شأن ، فقد كان أبوه واسمه الشيخ خير الله كردياً ، وكل ماجاء على لسان الأستاذ الإمام فى وصف أبيه من إبائه الظلم وفراره من بيته فى أواخر عهد محمد على وعودته إليه فى عهد عباس الأول ، وإتقانه ركوب الخيل وحسن الرماية ، وما كان يبدو على سيماه من دلائل الكبرياء والوقار ، يدل على انحداره من جنس شرقى أجنبى عن مصر ، ولعل هذه الجنسية هى سبب الصداقة المتينة التى كانت تربط الشيخ بالمرحوم قاسم أمين الذى كان كردياً صميماً ، وهى التى جعلته يبادر إلى التلقى عن جمال الدين الأفغانى ، فكان أحب تلاميذه إليه ، وكان رفيقه فى حله وترحاله وشريكه فى تأليف كتبه ورسائله وتحرير مجلته ، ولعل الشيخ محمد عبده أكثر المصريين إفادة من جمال الدين ، وإن فى نفور محمد عبده من التعليم النظامى ، والخروج على قيوده ، وحبه ركوب الخيل وحياة الطبيعة الحرة الطليقة ، وانتحاله فكرة الثورة وصيرورته روحها ومرشدها ، وفى التجائه إلى التصوف فى بداية أمره ثم عدوله ، واكتفائه من الدين بالعبادة المفروضة والمستنة ، ثم ظهوره بفكرة الإصلاح فى مجلس الشورى وفى الأزهر وفى القضاء وفى الأدب ، فى ذلك كله أدلة على امتزاج الأصل الأجنبى

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ١٠ يوليه سنة ١٩٢٩.

كما نشر أيضا بكتاب المؤلف « قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد » ، ص ٣٠٧ - ٣١٢ ، عالم الكتب ، سنة ١٩٩٨.

الشرقى بالعنصر المصرى الكريم الفلاحى ، فإننا لا ننازع فى مصرية أمه ، التى كانت فضلى الأمهات .

كان الشيخ محمد عبده الذى أدركته عام ١٩٠٢ « ربعة » بين الرجال أسمر اللون ، أبيض الشعر ، حديد البصر ، ليس نحيفا وليس بادنا ، وكانت تقاسيم وجهه تحببه إلى من يلقاه ، دع عنك خفة الروح والجاذبية القوية التى كانت تشع عنه دأب كل عالم وعظيم ، وكان صوته هادئاً جميلا ، يتكلم بتؤدة وبساطة ويتأنى فى حديثه ، مع استمرار النظر إلى المخاطب كأنه يحاول غرس أقواله فى أعماق نفس محدثه ، وقد تعرفتُ إلى الشيخ بغير واسطة فكتبت إليه خطابا ثم زرته وتكررت زيارتى له مرات [١] ، وكان مجلسه يحفل بكبراء مصر وأدبائها وبعض الأجانب كما أن بيته فى عين الشمس ملجأ الكثيرين من ذوى الحاجات وطلاب المقاصد الشريفة . وكانت بين الشيخ وبين المرحوم ويلفريد سكوين بلنت أواصر مودة قوية ، وكان بلنت يقيم فى قصر فخم ذى حديقة غناء فى « الشيخ عبيد » على مقربة من عين شمس ، وهو الذى أقطع الشيخ الأرض التى بنى عليها بيته بالطوب اللبن «الآجر الذى لم تنضجه النار » وكان يزور الشيخ لابساً عباءة وعقالا، ومعظم حديثهما بالفرنسية ، وكان الأستاذ يدعو بعض نجباء المصريين ويجمعهم لدى بلنت ليأنس إليهم ومنهم محمد المويلحى وعلى يوسف وحافظ إبراهيم ، وكان بلنت يفيد من أحاديثهم ، وكثيراً ما أمد الجمعية الخيرية الإسلامية بماله خفية لوجه الله .

وكان الشيخ محمد عبده فى أيامه الأخيرة مريضا بسرطان فى الكبد متبرما بالحياة ضجرا من الذى عاناه فى حياته التى كانت سلسلة جهاد وكفاح ، ومما سمعته منه ودونته قوله :

---

(١) عن المكاتبات المتبادلة بين لطفى جمعه والشيخ محمد عبده ، انظر كتاب « حوار المفكرين ، رسائل أعلام العصر إلى محمد لطفى جمعه خلال نصف قرن » ، ص ٦١ – ٦٧ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ٢٠٠٠م.

« لا يوجد فى الوقت الحاضر رجل أشقى حظا من الرجل المتميز المنور فى مصر إذا كان مصرى الجنس ، لأنه مقصوص الجناح مقلم الأظفار ، فى سائر الناحيات التى يمكن أن يكون بها نافعاً . فإن عناصر الخيبة ، والفشل ، وعدد المحاربة الموجهة إليه من الأوساط المختلفة ، لا تمكن مقاومتها مطلقاً . والأدهى والأمر من هذا أن الفوضى الضاربة أطنابها فى جميع مظاهر الحياة المصرية تنقلب نظاما عجيبا محكما لدى حشد جيوش المقاومة للرجل النافع أو الرجل العظيم ، وتعمل ضده قوى من قوى الظلام التى تبدو للغير الخبير لا شيء ، وهى في الحقيقة قوى عظيمة خفية غامضة ، كأنها شيطانية أو سحرية ، وكأن بين جميع الأفراد والجماعات تفاهماً سرياً على الوصول إلى نتيجة واحدة وهى تخييب جميع مساعى الفرد النافع، فى كل اتجاه يقصده !! وقد تصل المحاربات المذكورة إلى درجة تجعل حياة الشخص وعقله وكيانه المعنوى فى خطر ، و لكن الحياة تنجو باتفاقات القضاء والقدر ، وعقله ينجو مصداقا للنظرية القائلة « بأن العقل السليم لا يتهدم أمام الحوادث مهما عظمت ، وإن كان يعتريه ألم أو اضطراب ، ولكنه لا يفقد مطلقاً توازنه ولا يتأثر جوهره » ، كذلك كيانه المعنوى يحتفظ بقوة إرادته .

ومهما يكن الرجل نابغا أو موهوبا ، ذا صفات فعالة فى عالم الماديات أو الأدبيات فلن يجد ميداناً لأعماله ولن يجد متسعاً لجهاده ، بل سوف يجد سخرية ممن هم أجدر الناس بتشجيعه وأحوجهم إلى جهوده ، وسوف يجد تثبيطا من قرنائه وأصدقائه وأحبابه وأهله ، وسوف يجد النكران والمعاداة والمصادمة من الذين كان ينظر إليهم بعين الرجاء والعشم ، وسيمر به الأشخاص مرور المحبين للاستطلاع كأنه بعض عجائب المخلوقات وسيشيرون إليه بالبنان كما يشيرون إلى الكائنات الشاذة ، وهم يعلمون تميزه وظهوره ولكنهم يحاولون قهره وإذلاله والتقليل من قدره لقتل عظمته فى مهدها ، لغيرة خفية فى نفوسهم ، وإن كانوا يعلمون أنهم لن يبلغوا شأوه ، ولحقد طويت عليه ضمائرهم لا يمكنهم تعليله أو تفسيره ، ولعله من بين الرذائل الموروثة . وهم بالجملة ينظرون إلى ذلك الرجل المتميز نظرهم إلى إنسان

غريب عنهم ، وعن أخلاقهم ، بعيد عن إحساسهم وعن طبيعتهم .

ومن غرائب الظواهر التى ظهرت أخيراً فى مصر وصارت واضحة فاضحة بعد الحوادث العرابية بعشرين عاما ، أن كل واحد من الزعانف والصعاليك والمقززين (ترجمة صحيحة للفظ Snobs) والإمعات أصبح يزاحم بالمناكب أرباب الخصال الحميدة والمواهب الظاهرة والفضائل المحمودة ويقول « لماذا يكون فلان أفضل منى أو أعقل أو أكرم ؟ إننا فى زمن المساواة ! » ولعمرك ما هذا القول إلا دليلا على تردى قائله فى مهاوى الجهل ، لأن الأمم التى سادت لديها نظريات المساواة والتى نحكيها تقليداً ، هى أعظم الجماعات تكبيراً للعظماء وتقديراً لفضلهم وخضوعا لإرادتهم وتسليما بمواهبهم واستسلاما لهم بضمائر خالصة ، وهذه الأمم تساعدهم وتعضدهم وتأخذ بأيديهم وترفعهم على رؤوسها وتعطيهم حقوقهم وتملكهم قيادها ، فعلة سقوط الشرق محاربة شعوبه لعظمائه والتواطؤ على هلاكهم » اهـ.

وكان الأستاذ الإمام يتكلم متدفعاً كالسيل ولكن فى هوادة ورقة ، ولئن شعر السامع بقوة الحديث وكلامه وتدفقه فإنما يشعر أيضا بأنه ماء السيل عذب سلسبيل، تزينها نبرات الصوت المطربة ، وكان الشيخ عدا أحاديثه فى المسائل العامة على هذا الأسلوب الشائق يتفكه أحيانا ويروى ملحا يطلق عليها اسم « لطائف » ومعظمها مقتبس من الآداب الأجنبية ، ومما نذكره ملحه أطلق عليها اسم « لطيفة فارسية » قال رحمه الله :

« مر رجل فارسي بآخر كردى جالسا إلى جدار وبجواره جراب ممتلىء ، وأمامه كلب مريض يتلوى ويتضوّر ، والكردى ينظر إلى الكلب العليل الذى يعوى عواء النزع ، بألم ظاهر ويقلب فيه أجفانه بلوعة ظاهرة ويشفق عليه بألفاظ رقيقة ، فاستوقف هذا المنظر العجيب ذلك الفارسى ، فحيا الكردى في رفق وسأله عن الكلب ماذا تكون حاله ؟

فأجاب الكردى : إنه كما ترى كلب يموت !

الفارسى : ومم يموت يا سيدى ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكردى : من الجوع

الفارسى : ولمن يكون هذا الكلب المسكين ؟

الكردى : هو بلا ريب كلبى ...

الفارسى : وما هذا الجراب الذى بجوارك يا سيدى ؟

الكردى : هو جرابى الذى أنقل فيه أمتعتى

الفارسى : أراه منتفخاً فما به ؟

الكردى : مآكل ومطاعم وأقوات وزاد وذخيرة

الفارسى : الحمد لله ! إذا كان الكلب كلبك والجراب بما فيه ملكك ، وأنت مشفق على هذا الحيوان الأعجم الذى يجود بنفسه جوعاً ، ولديك ما يسد رمقه ، فلماذا لا تعطيه فتحييه ؟

الكردى : لم تصل بيننا المودة إلى هذا الحد !! » اهـ .

وكان الشيخ رحمه الله يضحك لدى الفراغ من روايته هذه اللطيفة ، وهو يستخرج مغزاها بنظراته وإيمائه اللطيف ، ويستدرج السامع ليستنتج بنفسه جمال المعنى وحسن تطبيقه على بعض أمم الشرق التى تجود بالأقوال الفياضة والعواطف المتدفقة وتضنّ بالمال والفعال ، فهم ذو دين ووطنية يملآن القلوب ولكنها لا تصل إلى الجيوب .

وكان الشيخ رحمه الله يتمثل أحياناً ببعض الشعر ، ومما دونته عنه قول شاعر لا أذكره :

ذرتى وأشياء فى نفسى مخبّأة ... لألبسنّ لها درعا وجلبابا

والله لو ظفرت نفسى بطلبتها ... ما كنت عن ضرب أعناق الورى آبى

حتى أطهّر هذا الكون من دنس ... وأوجب الحق للسادات إيجابا

وأملأ الأرض عدلا بعد ما ملئت ... ظلماً وأفتح للخيرات أبوابا

وكان يفسر « السادات » بأنهم أرباب النفوس السامية والمواهب العليا ومن يقصدهم الفرنسيون بقولهم Les ames bien nées .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ودخل عليه مرة المرحوم حمودة عبده شقيقه وقاطعه ليخاطبه فى شأن جماعة جاءوا لشراء قطعة من الأرض مما كان يملكه الشيخ من أصل هبة بلنت إياه ، فغضب الشيخ وتهاون فى فرار فرصة تلك الصفقة دون قطع حديثه ، وغضب حمودة لذلك واحتد ، فلم يأبه الشيخ لغضبه واستمر فى حديثه متمثلا ببيتين للنمر بن تولب:

أعاذل إن يصبح صداى بقفرة ... بعيداً فآتى صاحبى وقريبى

ترى أن ما أبقيت لم أك ربه ... وأن الذى أنفقت كان نصيبى

واتصل بالشيخ الإمام أن أميراً شرقياً كبيراً تخلى عن زعيم سياسى كان يصادقه ويساعده ويعضده [1] ، وقد وقف الزعيم جهوده على الدفاع عن ذاك الأمير وصيانته ، وكان سبب التخلى وشاية شيخ صحفى ، لمسألة زوجية شهيرة حدثت فى أوائل القرن التاسع عشر ، فأسف الأستاذ لما حدث بين الأمير والزعيم وقال : يحق لفلان باشا (وذكر اسم الزعيم الشاب) أن يتمثل بقول الشاعر :

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى ... وأشمتَّ بى من كان فيك يلوم

وأبرزتنى للناس ثم تركتنى ... لهم هدفا أرمى وأنت سليم

ولو أن قولا يكلم الجسم ، قد غدا ... بجسمىَ ، من قول الوشاة ، كلوم

وكان لهذه الأبيات وقع شديد فى نفوس سامعيها لدقة ظروف التمثيل بها ، وصدق المناسبات التى تذكر فيها حتى يخيل إلينا أن الشيخ رحمه الله هو ناظمها .

ومن أعجب ما علمنا من الصحف أن أرملة الشيخ عاشت أكثر من عشرين عاما بمرتب شهرى قيمته مائة وخمسون قرشا صاغا ، ولكن ليس فى مصر شىء عجيب لأنها بلد العجائب !

---

(١) هو الزعيم مصطفى كامل والخديوى عباس حلمى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين المرحوم الأستاذ الإمام
الشيخ محمد عبده
والشيخ على يوسف [1]

نشرت بعض المجلات والصحف صوراً شتى تمثل المغفور له الشيخ على يوسف فى إبان مجده الدنيوى ، وقد حلّت صحيفة صوره بالأوسمة والنياشين وشارات الشرف التى حازها من حكومات تركيا ومصر وإيطاليا واليونان وغيرها . وذكرت بحق أنه كان عصامياً نابغاً وأنه تمكن من تحقيق أحلامه منذ وطئت أقدامه أرض القاهرة التى هبطها منذ نيف وتسعين عاماً (لأنه توفى فى منتصف العقد السابع منذ ربع قرن تقريبا) وكانت الآمال محصورة فى الغنى والعظمة والأبهة فقاسى فى هذا السبيل ما قاسى ونال من عز الدنيا ومجدها ماشاء اجتهاده وسعيه وما شاءت الظروف التى كانت محيطة بالأوساط الاجتماعية والسياسية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وكانت لهذا الرجل النابغ وقائع حال مع معظم كبار الأمة المصرية وفى مقدمتهم المرحومون الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين ومحمد المويلحى والسيد عبد الخالق السادات والشيخ أحمد أبو خطوة وعشرات ممن هم أقل من هؤلاء شأناً .

وعندما استحكمت حلقات الخلاف بين الإمام وبين سمو الخديو عباس حلمى الثانى ، فكر الشيخ على فى طريقة تبلغ الأمير أمنيته وهى إقصاء المفتى عن الأزهر، وعن منصب الإفتاء ، فأسفر تفكيره وتفكير المرحوم السيد توفيق البكرى عن إقامة حفلة فى قصر عابدين يسمع فيها المفتى بأذنيه عبارة البغض الذى يكنّه أمير البلاد فى نفسه ، وقد نفذوا هذه الخطة المدبرة بحذافيرها على الوجه الآتى :

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية ، العدد ٨٠ فى ١٩٣٧/١٢/٢٥ .

تحدد يوم ١٧ محرم سنة ١٣٢٣ للاحتفال باستقبال فضيلة الشيخ عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الأزهر الجديد رسمياً في سراى عابدين وإلباسه بين يدى الجناب العالى الخديو الخلعة السنية التى من عادة سموه خلعها على كل من يتولى منصب المشيخة الجليل وكانت حفلة عظيمة ، فلما جاءت الساعة العاشرة صباحاً توافد على السراى حضرات العلماء الأعلام وكلهم من أصحاب كساوى التشريفة يتقدمهم قاضى مصر والشيخ حسونة النواوى ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد عبده والسيد السادات والسيد البكرى نقيب الأشراف وجلس القاضى على يمينه وشيخ الأزهر الجديد على يساره والمفتى أمامه كالعادة ، ثم جيء بالقهوة فشربوها ثم ألقى الخديو النطق الآتى مخاطباً الجمع بما مغزاه :

« إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر علوم الدين الحنيف في مصر وجميع الأقطار الإسلامية ، فيأتيه المسلمون من كل جهة ليأخذوا أمور دينهم وليكونوا علماء بالشريعة الغراء ولينفعوا قومهم ويرشدوهم للدين الصحيح حتى إذا رجعوا إليهم أفادوهم ، وكنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً ، ولكن من الأسف رأيت أنه وجد فيه من يخلطون الشغب (كذا) بالعلم ، ومسائل الشخصيات بالدين ويكثرون لذلك من أسباب القلاقل [(١)] .

وأول شيء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر الشريف والشغب بعيداً عنه فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار ، لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شيء . لقد قبلت استقالة السيد على الببلاوى الشيخ السابق ، وقد جريت منذ ١٣ سنة على هذه القاعدة ، وهى أن أقبل استقالة كل من يستقيلنى من وظيفته ، فبناء على هذه القاعدة قبلت استقالته ، ومن يستقيلنى من وظيفته سواه (ونظر إلى جهة المفتى) فأنا مستعد أن أقبل منه الاستقالة جريا على العادة التى اتبعتها في ذلك .. ومن كان

---

(١) هذه هى ألفاظ الخديوى بنصها .

يحاول بث الشغب بالوساوس والأوهام أو الإيهام بالأقوال أو بواسطة الجرائد والأخذ والرد فيها ، فليكن بعيداً عن الأزهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء (يرمى إلى صاحب مجلة إسلامية شهيرة ينتمى إلى القطر السورى الشقيق) [1] ، فأولى له أن يرجع إلى بلده ، ويبث فيها ما يريد من الأقوال والآراء المغايرة للدين ولمصلحة الأزهر والأزهريين » ا٠هـ ٠خطبة الخديو ٠

وانفض المجلس وكان لهذه الخطبة أثر سيء فى الأوساط العلمية والعقلية ، وأخذها المؤيد بنصها وعلق عليها مديره الشيخ على سوف الذى كان محور هذه الحركة فى ٢٦ مارس سنه ١٩٠٥ بمقال طويل جاء فيه (أن هذه الخطبة السنية (كذا) قد تضمنت معانى جمة ومرامى كبيرة و انتقاداً شديداً ، وتعريضاً طويلاً عريضاً وحكماً على بعض الأشخاص والأعمال تطأطيء له الهامات !! وقد كتب بعض الصحف يقول إن الجناب العالى لم يقصد بقوله « ومن يستقيلنى من وظيفته سواه– أى سوى البيلاوى – فأنا مستعد أن أقبل منه جرياً على العادة التى اتبعتها – سوى دعوة فضيلة مفتى الديار المصرية إلى الاستقالة ، واتفق أن فضيلته .كان قد رفع استقالته من عضوية مجلس إدار ة الأزهر الشريف قبل الظهر بساعتين من الزمان (الحفلة عقدت الساعة ١٠ صباحاً) وفضيلة الشيخ عبد الكريم سلمان الذى كان على منهج فضيلة المفتى فى إدارة الأزهر قد استقال أيضاً من عضوية مجلس الإدارة، وحصلت فتنه كبيرة) ا٠ هـ٠ تعليق المؤيد ٠

وانسحب الأستاذ المصلح لأنه فكر فى الإصلاح ، وخطب ولى الأمر ما خطب به لأن أهل الشر أوقعوا بينهما وسعوا بالفتنة٠٠٠ وخرج المصلح الكبير من القصر محموماً ومحمولاً فرقد فى بيته فى ضاحية عين شمس وما لبث أن هاجمه المرض الخطير الذي قضى عليه فى يوم الأربعاء ١٢ يوليه سنه ١٩٠٥ ، وحينئذ انبرى الصحفى الأزهرى الذى كان محور هذه الحركة من أولها لتحبيذ خطة الخديو ونقد

---

(١) هو الشيخ محمد رشيد رضا صاحب « المنار » ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذين اعتبرهم خصومه أمثال من ذكرنا والسيد رشيد رضا صاحب المنار لأنه كان تلميذ الإمام ومريده ولسان حاله فى مجلته ، فكان سبباً فى معظم ما أصابهما من البلاء ، وجرد يراعته التى كانت تنفث ما تنفث من الغيظ طوال مدة مرضه ورقاده فى رمل الإسكندريه إلى أن مات المفتى رحمه الله فكتب هذه الجملة العجيبة فى جريدته قال :

« قضى الله أن يفدح الحادث وينزل الكارث وتقع المصيبة العظمى والفاجعة الكبرى، المؤلمة للنفوس ، المبكية للعيون ، المقرحة للأكباد والجفون بعد ما خانت الراقى رقيته والحكيم حكمته ! قضى المفتى صاحب الأيادى البيضاء على الكثيرين، والفوائد الجلى على المسلمين ، فكم دافع عن الدين (فى مسألة هانوتو وأضرابها) ما لم تستطع الجماعة الكثيرة من العلماء ، وكم سعى لفائدة الفقراء بما لم يأته الجمع من الأغنياء، وكم كانت له من أمان يضرب بخطواتها فى الآفاق ، غير خاش من إخفاق ، كان عظيم الهمة كبير النفس يحاول أن يغالب الدهر إن عارضه ، ويستهين بكل صعب اعترضه ، ومما يؤثر عنه فى مثل هذا قوله « إننى لا أخشى سوى الموت لأنه يقطع علىّ خط السير » .

وقد قيل فى ذلك الوقت : « من الصحفيين من يقتل القتيل ثم يسير فى جنازته، فأى أمل للشرق فى الإصلاح » ، ولكن فى هذا القول بعض المبالغة لأن الذين قالوه اشتهروا بمخاصمة المرحوم الشيخ على يوسف رحمهم الله جميعاً .

هذه صورة من الحياة العامة فى مستهل القرن العشرين تدل على كثير من تاريخنا وأخلاق رجالنا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذكرى المرحوم الشيخ على يوسف [1]

كان أمس موعد الحفلة التى نظمتها نقابة الصحفيين للاحتفال بذكرى المغفور له السيد على يوسف باشا صاحب المؤيد ، فما وافت الساعة السادسة والنصف مساء حتى اكتظت نقابة الصحفيين بجمهرة كبيرة من الصحفيين ورجال العلم والأدب .

وفى الساعة السابعة وقف الأستاذ حافظ محمود سكرتير النقابة فتحدث عن المعنى النبيل الذى من أجله أقيمت هذه الحفلة وهو الوفاء بذكرى رجل من عظماء رجال مصر علما وفضلا وأدبا هو المرحوم السيد على يوسف باشا ، وتمنى أن تقام حفلات لتكريم ذكرى من توفاهم الله من أفذاذ الصحفيين ، ثم قدم للحاضرين الأستاذ محمد لطفى بك المحامى فتحدث عن نشأة الفقيد الكريم من يوم تلقى دروسه بالأزهر إلى أن اختاره الله للرفيق الأعلى متدرجا معه فى جميع المراحل التى مر بها الفقيد الكريم فكان موفقا كل التوفيق و فيما يلى نص هذه الكلمة القيمة :

دعيت لإلقاء كلمة وجيزة بمناسبة مرور ثلاثين عاما على وفاة المرحوم السيد على يوسف صاحب المؤيد فأتاحت لى نقابة الصحافة فرصة جميلة لإحياء بعض الذكريات القديمة وسداد بعض الدين الذى فى عنقى لرجال الجيل السالف من أساتذة السياسة والقلم والصحافة .

ولما كانت مصر بلداً قصير الذاكرة تنسى كل شىء بعد حين ، فهذه العاطفة الجميلة لخليقة بالشكر والتمجيد .

لم أكتب فى جريدة المؤيد إلا مرة أو مرتين فى تعزية للشيخ طنطاوى جوهرى

---

(١) نص محاضرة ألقاها المؤلف بنقابة الصحفيين للاحتفال بذكرى السيد على يوسف صاحب المؤيد ، وقد نشرت بجريدة الدستور فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٤٣ ، كما أعيد نشرها بكتاب المؤلف « قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد » ، ص ٢٠٣ – ص ٢١٢ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٧ .

لأنه كان أول من فكر فى محاربة عادات المآتم عند وفاة زوجته ، ثم فى الرد على رجل اسمه يوسف المويلحى فى مسألة وطنية خاصة بمؤتمر جنيف ، ولكنى عرفت المرحوم الشيخ على معرفة جيدة ووثيقة على مدى عشر سنوات على الأقل .

وكان المرحوم محمد مسعود صديقى وكنت من المعجبين بمقالاته وتقويمه وتقويم المؤيد الذى أنشأه فى ظل الجريدة الشهيرة وكان من محرريه المرحوم سيد بك كامل عم الدكتور محمود عزمى بك وجميل المدور نجل صاحب كتاب حضارة الإسلام فى دار السلام ، وسليم سركيس صاحب المجلة المعروفة باسمه والسيد عبد الحميد الزهراوى وكان يوقع مقالاته بحرف «ز» وكان منشئاً فحلا ومفكراً إسلامياً عميق التفكير ورجلاً شريف المقاصد مخلص القلب ، وأخيراً محمد كرد على وزير المعارف بسوريا سابقاً والشيخ عبد القادر المغربى رئيس المجمع اللغوى أو العلمى العربى بدمشق

وكانت تربطنى بهم جميعاً أواصر الصداقة والمحبة فعرفت الشيخ عن هذه السبيل .

كان المرحوم الشيخ على يوسف رجلا قصير القامة غير بادن أسمر اللون تقاطيع وجهه جميلة مجتمعة ، أعم الجبين ، ضيق العينين رومانى الأنف ضيق المنخرين صغير الأذنين دقيق الأنامل ناعم الأكف هادىء الصوت خافته ، شديد الأناة فى حركاته يغلب عليه الصمت والسكون ، وقد لا يتكلم إلا مجيباً ولا يجيب إلا بعد تأمل طويل وتفرس فى وجه مخاطبه . وكان يبدو لكل من رآه كأنه يكتم أسرارا وآمالا غامضة ولا يبوح بكل ما انطوى عليه صدره . وكان شديد الحذر يقظ الضمير شديد الظنون كثير الحسبان للأمور والأشياء ، صادق التقدير للواقعات والرجال، يحسن معاملة أعوانه وموظفيه ويصنع الخير كلما استطاع اليه سبيلاً ، وكان ملتحياً طول حياته معتماً يتقن لبس الثياب القومية ويتفنن فى لف العمامة وفى اختيار أزهى الألوان وأغلى الثياب وتمتاز جبته بنفاسة صوفها وسعة أكمامها وقد اتخذ فى أواخر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيامه غلالة من الصوف للجبة على نسق علماء الأتراك وتقليدا لما كان عليه فضيلة المرحوم الشيخ محمد عبده ، وكان مظهر الشيخ يدعو إلى المهابة والاحترام ، فإذا تكلم ازداد في نظر محدثه مكانة وتوقيراً وازداد محدثه تأملا وتفكيراً .

هذه صورة قريبة جداً من الحقيقة كما رأيتها في أوائل هذا القرن ومايزال كثير من الأحياء يذكرونها . ولما بلغ سدانة الأشراف وحل محل مشايخ السادات رأيته جالساً مجلسهم في بهو بيت السادات بدرب الجماميز وقد تحلّى بثياب تاريخية وعمامة ضخمة وقبض على مسبحة ثمينة وأغمض عينيه ، وقد ضاع في الغرفة بخور العود والندّ وبعض العطور المحترقة في مباخر فضية ، فكان المريد يجلس بين يديه فيسأله الشيخ عن اسمه ثم يخلع عليه كنية كأبي الخير وأبي الفضل ، وقد لوحظ أنه لو سبق أن كنى شخصاً فيخلع عليه الكنية القديمة ولا يخطىء .

نشأته :

الشيخ على يوسف مصرى صعيدى من قرية بلصفورة وقصد إلى الأزهر الشريف لتلقى العلم ثم تحول إلى الجامع الأحمدى وهناك اتصل بأسرة تيمور وكان المرحوم توفيق بك تيمور قاضيا بطنطا وعميد العائلة أثناء حياة المرحومة السيدة عائشة التيمورية فلازم الشيخ هذا البيت الكريم . وهناك تفتحت مواهبه الشعرية فقال كثيراً من الشعر وله ديوان مطبوع على الحجر ، ولذا ظل طوال حياته يكرم الشعراء ويقدر نظمهم وقد فتح صدر صحيفته لقصائدهم الرنانة .

ومعظم شعر الشيخ أول أمره فخر وآمال وطموح إلى المعالى وبعض الغزل وكان طموحه مظهر الأمل الغامض الذى لازمه طول حياته وهو رغبته فى مساواة أكابر الرجال ، وقد وافته الأقدار برغباته كلها ، ففى عالم الصحافة صار الصحفى الأول وصاحب أكبر جريدة عربية إسلامية قبل ظهور اللواء لصاحبه المرحوم مصطفى كامل باشا ، وصار من أكبر الأغنياء وشاد لأسرته قصراً فخما فى حى المنيرة . وبنى لصحيفته ومطبعتها عمارة كبيرة . وكانت المنيرة وشارع محمد على أشهر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأحياء فى زمنه ، وجهز قصره بأجمل الأثاث وأغناه وأغلاه وأفخمه ، وكان يقيم فيه الولائم لمدعوّيه وأصدقائه ، وقد بلغت أحياناً درجة الولائم التى نقرأ عنها فى كتاب الأغانى واتخذ من الخدم والحشم أندالا ووصيفات من كل جنس ولون ، وصار فى عالم السياسة لسان حال حاكم البلاد وعضواً فى الجمعية التشريعية ومنادياً بالدستور ومعضدا لمشروعات الدولة العثمانية سواء فى حروب البلقان وطرابلس الغرب أو فى الدعوة لإتمام سكة حديد الحجاز .

وفى النسب اتصل بالمصاهرة ببيت السادات وورث مجلس حميّه وصهره المرحوم الشيخ عبد الخالق السادات وكان ذا شخصية تاريخية مثيرة للعواطف .

وفى السياسة الخارجية سافر إلى الأستانة ومنح أرقى الألقاب القلمية التى تعدل الباشوية وهى التى نالها من قبل أحمد شوقى بك .

وسافر إلى إنجلترا وتعرف إلى وزرائها وكبار زعمائها ، وفى الفن الصحفى كان لايحرم قراء جريدته من قلمه ولا سيما فى الأزمات السياسية وفى وصف الرجال أثناء رثائهم ، فكتب « قصر الدبارة بعد يوم الأربعاء » تناول فيه حادثة دنشواى بحرارة ونقد السياسة الداخلية ، فاجتمع الرأى على تقديم هدية شعبية إليه وهى دواة وأقلام من الذهب لحسن ما أبلى فى تدبيج هذه المقالات .

وكانت له بطانة من خيرة رجال مصر ودهاتها أمثال المرحومين حشمت باشا ومحمد مسعود وحمادة بك وحافظ عوض بك والمويلحيين ، وكانت جريدته تقرأ فى الهند والصين والمغرب الأقصى وسورية وقد نشر نسخة فرنسوية لم تعمّر طويلا .

ومن أهم المقالات التى نشرت فى جريدته مقالات المرحوم الأستاذ المفتى فى الدفاع عن الإسلام فى حادثتين :

الأولى : مقالة هانوتو عن قبر النبى عليه الصلاة والسلام .

والثانية : الدفاع عن الإسلام وكونه أوسع صدراً للفلسفة بقلم الشيخ محمد عبده ردا على مقالات المرحوم فرح أنطون فى مجلة الجامعة .

وفى سنة ١٩٠٧ عقد تحت إشرافه مؤتمر إسلامى دعا إليه المرحوم السيد

إسماعيل غصبارنسكى من زعماء مدينة بغجة سراى بجزيرة القريم وللمؤتمر أعمال مدونة .

وكان أول من نشر خلاصة للمؤيد فيها أشهر المقالات والبحوث الباقية ، ونشر للمرحوم السيد عبد المحسن الكاظمى الشاعر العراقى قصائد رنانة فلما قدم مصر أكرم وفادته وعرفه بالأدباء .

وكان أول عامل على تحسين أسلوب الكتابة العربية فى الصحافة المصرية وجعل من جريدته مدرسة لتقويم الأقلام ، ومن مشاهير من كتبوا فيها المرحوم عبد الحميد الزهراوى – محمد كرد على – شكيب أرسلان – إبراهيم الهلباوى (إلى أى طريق نحن مسوقون ؟!) – الشيخ محمد عبده – محمد مسعود – مصطفى كامل (فى العهد الأول قبل نشر اللواء).

وقد صارت المعركة بين هذين الصديقين الوطنيين بسبب مزاحمة خفية اتخذت شكلها الحاد فى قضية الزوجية سنة ١٩٠٣ ، وكان أهم أسبابها بجانب التطاحن على الحرفة ، الصلة بالأريكة الخديوية . وكان الشيخ على يرى أن من أبواب العظمة والمجد الاتصال المباشر الدائم بالجناب العالى كما كانوا يسمون سمو الخديو ، وكان مصطفى كامل يرى المجد والعظمة فى التحدث باسم الشعب والمطالبة بتحقيق آمال الشعب وكانت ثقافة الرجلين مختلفة ، وكان الشيخ على يكتب المقال الشديد وهو يذكر الصداقة القديمة .

فلما انتقل مصطفى إلى رحمة الله سنة ١٩٠٨ أظهر الشيخ على من النبل والوفاء والإخلاص والمحبة للفقيد الراحل ما ذهب بأحقاد الخصوم الذين أبغضوا الشيخ على بسبب حملته على صاحب اللواء ، فاستمر على الكتابة فى رثائه أربعين يوماً .

ولأجل أن نعرف مكانة الشيخ على فى نظر مصطفى كامل نقول إن صورته بجانب صورة مصطفى واضحة فى الصورة الزيتية التاريخية التى قدمها مصطفى كامل للبرلمان الفرنسى وفيها مصر تتضرع وتطلب المعونة وقد حمل علمها كل من

مصطفى وعلى يوسف .

ولم يعلم عن الشيخ على من سوء فى مسلكه أو التقليل من كرامته ولم يتدن قط إلى طريق معوج لجلب المال وإن يكن تحمل الشدائد فى كثير من أطوار حياته ، وعند اشتداد المرض عليه ربح قضية رفعها على وزارة الأوقاف وتقاضى مبلغاً كبيراً صرفه فى الاستشفاء فى أوربا ، وقد قابلته سنة ١٩١٢ فى محطة جنيف وكان ضعيفا ومريضا بالقلب . وقد شاهدت له حادثا عجيبا فى جنيف وهو تكليف خاطره وأسرته فى زيارة أسرة الأستاذ على الغاياتى وأسرته فى الدور السابع بإحدى العمارات ، مع مرضه بالقلب . وغرابة هذا الأمر ليس فى أنه تكلف وخاطر بحياته بل لأنه قام بهذا العمل ليمحو هفوة بسيطة وقعت منه منذ ثلاث سنوات أو سنتين .

وكلنا نذكر ديوان وطنيتى الذى وضعه الغاياتى فى سنة ١٩١٠ وضمنه قصائد وطنية شديدة على الطريقة القديمة كالإشادة ببعض الحوادث التى يؤسف لها وهجاء بعض الزعماء من رجال الحكومات السابقة إلخ ، وقد كتب له مقدمة كل من المرحومين فريد بك والشيخ جاويش والكتاب كله يقع تحت طائلة العقاب ، ولكن الغاياتى بسلامة نية وتهاون تام فى مصلحته ومصلحة زعيميه لأنه كان من كتاب الحزب الوطنى ، طبع الكتاب ونشره وحمل النسخة الأولى (حامية من الفرن) إلى مكتب الشيخ على بدار المؤيد. فتقبله منه تقبلاً حسناً وأكرم وفادته وودعه إلى الباب. كل هذا حسن .

ولكن لم يكد على الغاياتى يدير كتفيه حتى شرع الشيخ المرحوم في تصفح الكتاب فرأى ما هاله وزعزعه فى مقعده وأطار لبه ، فتناول قلمه وكان مغموساً فى محبرة من النار ونقد الكتاب نقداً شديداً ونقل بعض قصائده ولفت نظر الحكومة والعدل والنائب العام .

ومن هنا بدأت القضية ، فصودر الكتاب وبحثت الشرطة السرية عن الغاياتى وكان الشيخ بدل ثيابه ولبس ثياب الطلاب الترك ووضع على عينيه نظارة سوداء واتخذ مظلة (شمسية) وسافر إلى الإسكندرية وركب باخرة مبحرة إلى دار السعادة

(إصطمبول) . وهناك تلقاه رجال الحزب الوطنى بالترحيب والمعونة فلم تطب له الإقامة طويلا ، فشد رحاله إلى جنيف حيث استقر وارتزق ونجح وأسس عائلة كريمة. فلما علم الشيخ على بحاله وشعر أنه كان السبب فى تشتيت شمله من وطنه، عمد إلى زيارته والتخفيف عنه وكسب رضاه ونيل عفوه وصفحه مع أنه قام بواجب عام فى نقد الكتاب الذى أصبح الآن مباحاً ومنشوراً ويباع ببضعة قروش . وكان هذا قبل موت الشيخ على ببضعة شهور .

لم تقم الأمة المصرية بواجبها نحو الشيخ على فى أثناء مرضه ولا عند وفاته . وقد بخل أصدقاءه وأعوانه ، واشتغل أهم محررى صحيفته بجريدة المنبر وانفض من حوله طلاب الحاجات والذين كانوا يرجون رفده ومعونته ظنا منهم أن الخديوى غض عنه الطرف وأنه لا مجال للتوفيق بين السلطات الثلاث (الخديوى والحكومة والاحتلال) لوجود اللورد كتشنر فى مركز الوكالة البريطانية ، ولم يعد فى مجلسه باشاوات ولا أعيان ولا أعضاء مجالس تشريعية ، وتهافت أصحاب الحقوق كعادتهم فى الأزمات ، ولم يكن الشيخ يستحق إلا التكريم والاعتزاز ، فطالما استعمل قلمه وبلاغته فى الذود عن حقوق البلاد ورفع عقيرته فى الجمعية التشريعية بطلب الدستور للبلاد وأسس حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية قبل أن يؤسس حزب الأمة والحزب الوطنى .

غير أن الحزب الوطنى كان موجوداً بالفعل برئيسه وأعضائه وصحفه ولا ينقصه إلا الإعلان الرسمى بتأليفه ، وفى غداة تأليف حزب الإصلاح اليوسفى عين أحمد حشمت باشا أحد وكيليه ناظرا للمعارف فكان فاتحة خير لأمثال الباشا فالتفوا حول الحزب التفافا أفلاطونياً ريثما يغمزون شيص الوظيفة . ومن حسنات تعيين حشمت باشا أنه تفقد صديقه القديم المرحوم حافظ إبراهيم فقلده منصباً فى دار الكتب الخديوية فأنعم عليه الخديوى برتبة وأقام له المرحوم أحمد شوقى بك حفلة تكريم فى يونيو سنة ١٩١٢ بفندق كونتننتال خطب فيها مشاهير الخطباء وأنشد فيها معظم الشعراء قصائدهم الطنانة . وبعض الخير خير من لا شىء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشيخ على يوسف والقضاء :

كان للمرحوم ثلاث مسائل قضائية مهمة خدمه فيها الحظ ، الأولى شرعية والثانية سياسية والثالثة مدنية وقد تركت كل منها أثراً فى البيئة الوطنية ، الأولى قضية الزوجية الشهيرة وتاريخها سنة ١٩٠٤ وورد فيها ذكر أشخاص الشيخ محمد عبده ثم الشيخ أبو خطوة ثم المرحومان السيد توفيق البكرى والسيد عبد الخالق السادات والسيدة المصونة كريمته ، كانوا كالكواكب السيارة وحولها نجوم صغيرة كالمرحوم الشيخ عثمان الفندى المحامى الشرعى الذى ترافع عن الشيخ على وكان محامياً بسيطا فاشتهر وأثرى ولعلها كانت أكبر قضاياه فى حياته وسبب علاقته بالشيخ أنه من بلده وكان صاحب المؤيد يثق به ثقة شديدة .

وقد عرفت هؤلاء الأشخاص جميعا وعاصرت القضية وقرأت وسمعت كل تفصيلاتها وعلى حداثة سنى شغفت بقراءة كل ما كتب عنها ، وكان الشيخ على أول من نشر الحكم فى جريدته يوم صدوره بغير تعليق غير احترامه ليتقى شماتة خصومه الذين يبادرون إلى نشره .

ولا نطيل فى ذكر القضية إلا من ناحية أنها من نوع Romqntique قربت إلى أذهاننا أفكار القرون الوسطى وحرمان رجل عصامى كبير المقام والعقل من الاتصال بطريق المصاهرة بأسرة دينية شريفة وهو فى ميدان الحياة لا يقل عنها شرفاً ، فهذا نزاع بين الطبقات انحاز فيه القضاء إلى جانب الأرستوقراطية ولكن العبرة بتنفيذ الأحكام لا بصدورها .

وقد حل الشيخ بعد بضع سنين محل الذى كان يقاومه ويكافحه ، وجرت الدعوى وراءها حادثين مهمين :

الأول : المقاطعة بين صاحب اللواء وخديوى مصر بخطاب مشهور .

والثانى : زوال الموانع القومية بين الطبقات على الرغم من الحكم ، وحوادث صغيرة أخرى كاشتداد الخصومة بين مصطفى كامل وعلى يوسف وانشغال الشعراء والأدباء ، فنظم حافظ إبراهيم قصيدته التى مطلعها :

وكم ذا بمصر من المضحكات　　　　كما قال فيها أبو الطيب

وتلاه عام الكفء وعام الكف ... إلخ .

والقضية الثانية - قضية تلغرافات بالسودان وملخصها أن عاملا بالتلغراف كانت تربطه بالشيخ صداقة وثيقة اسمه توفيق أفندى ساعد الشيخ على نشر تلغرافات خاصة واردة باسم الحكومة .

وكان من أكبر مساعدى الشيخ المرحوم محمد فريك بك وهو رئيس نيابة الاستئناف فأدى ذلك إلى استقالته واشتغاله بالمحاماة ، ولعل الشيخ حفظ هذا الجميل للمرحوم فريد بك طول حياته .

والقضية الثالثة - أدت إلى صدور حكم مختلط شهير يعتبر الصحفى فنانا لا تاجرا ولذا لا يجوز الحكم بإفلاسه فخدم هذا الحكم جميع أهل هذه الصناعة الشريفة .

وكان المرحوم الشيخ على محاطاً بالمحامين الأهليين والشرعيين يستفتيهم ويستشيرهم فى كل صغيرة وكبيرة ، وقد كلف المرحوم محمد مسعود - وكان من أكثر الصحفيين اشتباكاً مع القضاء - بحصر الأحكام النهائية المهمة ونشرها فى تقويم المؤيد .

وقضية أخرى كان المرحوم مجنياً عليه فيها من رجل مشهور بإقراض المال بالفوائد فأخذ منه الشيخ ٥٠٠ جنيه فى أحد شؤونه فاستكتبه سنداً ثم طلب منه ضامناً مع أن الرجل كان ممن لا يحتاجون إلى ضامن لشهرته وغناه وعقاره المملوك فى المنيرة وشارع محمد على (دار المؤيد) ، فخجل وطلب إلى الدائن أن يعفيه ، فأطرق الدائن قليلاً ثم قال له : والله فكرة ! خطرت ببالى الآن تمنع التعرض للغير وطلب الضمان وهى أن تحرر عليك سنداً آخر بمبلغ ٥٠٠ جنيه وهكذا سعادتك تضمن سعادتك !

فحرر المرحوم سنداً وطالبه الدائن بالسندين معاً .

وكان الشيخ على أزهريا متديناً متنوراً (وقد طبع فى داره كتباً كثيرة منها

رسائل إخوان الصفا) وكان وطنيا ذا نخوة وهمة .

وكان حار العاطفة فى الصداقة ، مر العداوة جداً ، وكان واسع الحيلة صبورا على الدهر ، وكان يعجب بأمثاله الذين لايتركون الأمور على غواربها ، وقد سمعته مرة يستشهد بشعر ثابت بن جابر :

إذا المرء لم يحتل وقد جدّ جـده أضاع وقاسى أمره وهو مدبـــر

ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا به الخطب إلا وهو للقصد مبضر

فذاك قريع الدهر ماعاش حـوّل إذا سدّ منه منخر جاش منخـــر

وكان أديباً كبيراً ويتذوق كل ماينقل عن اللغات الأجنبية ويوصى محرريه بنقل أهم المقالات والفصول السياسية والأدبية فى المجلات الأوربية الكبرى وكان من أوائل من عنوا بنشر القصص المترجمة عن الإنجليزية بقلم الأستاذ حافظ عوض بك وعن الفرنسية بقلم محمد مسعود كروايتى هى أو عائشة .

وكان أحق الناس وأخلقهم بإلقاء هذه الكلمة حافظ بك عوض لأنه الوحيد من محرريه الذى مد الله فى أجله وعاش بعد رئيسه وشيخه ثلاثين عاماً كاملة وكان المؤيد مدرسته العليا التى تلقى فيها السياسة الشرقية والغربية وإن كانت طرقهما قد افترقت فى سنة ١٩٠٧ .

ولأجل التدليل على عظمة على يوسف نذكر موت جريدته بموته وقد اتخذت كل وسائل الإسعاف والمعونة لإنعاش الصحيفة فلم تفلح ولم تعش بعده ، فجىء لها بسيد كامل بك وبحافظ عوض بك وبالشيخ حامد إبراهيم فأسلمت الروح على يديه ، فدل ذلك على أن الصحافة تعيش فى مصر بأشخاص أصحابها وأقلامهم ما لم يكن خلفاؤهم من الحزم والمكانة والغنى والاقتدار الفنى بحيث يعوضون السلف الصالح.

ولم يعقب الشيخ ولداً وقد رزق بصبى أسماه إبراهيم قضى نحبه فى حياة أبيه فرثاه بالحديث الشريف الذى فاه به النبى عليه الصلاة والسلام لدى وفاة وحيده من السيدة مارية المصرية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خير الدين التونسي [1]

كان خير الدين باشا التونسى مملوكا شركسياً ، اشتراه وزير تونسى اسمه فرهاد فى العاشرة من عمره ، فلما ظهرت نجابته وهبه للباى أحمد أمير تونس فأدخله مدرسة الحربية فتفوق الفتى على أقرانه وتخرج من المدرسة فى الفروسية وعين رئيساً لفرقة الراكبية ، ثم أرسل إلى مدرسة سان سير بفرنسا فنبغ فيها وأتقن اللغة الفرنسوية والعلوم الحربية والهندسية وعاد إلى تونس ومازال يترقى إلى أن صار قائداً للواء السوارى ، وقد تزوج من كريمة مصطفى الخازندار باشا رئيس وزراء الباى . وقد أراد خير الدين إدخال المبادىء الحديثة فى بلاده لجعلها فى مصاف الأمم الراقية ، فألف حزبا سرياً من الجراكسة المتميزين وعقدوا النية على تأليف دولة تونسية وأقسموا الأيمان على وضع الدستور وقد أطاعهم الباى فى ذلك وفتح البرلمان التونسى فعلاً .

وكان الخازندار قد طال عهده فى الوزارة فثارت الأمة ضده وسقطت وزارته وتعين خير الدين مكانه وكان مثالاً للعدل والعمل الجدى والشرف والأمانة وحب الخير لوطنه حتى إنه كان يبدأ عمله فى ديوانه كل صباح قبيل الفجر صيفاً وشتاءً وعند الظهر يذهب للغداء فى إحدى المدارس ومحادثة التلاميذ والطلاب ويحثّهم على الجدّ والمثابرة ويعلمهم أنهم أمل المستقبل ويجب عليهم الاستعداد لخدمة أوطانهم ، وكان ينظر كل الأعمال بنفسه حتى أعمال التنظيم فى المدينة فأنشأ مدينة تونس الحديثة بفكره وهندسته وتنفيذه .

---

(١) مخطوط بهذا العنوان كتبه المؤلف فى سنة ١٩٣٢ ولم ينشر .

وللوقوف على مزيد من المعلومات عن خير الدين التونسى ، راجع كتاب الأستاذ أبو القاسم محمد كرو « خير الدين التونسى » من سلسلة « أعلامنا » ، رقم ٣ ، ط ٢ ، دار المغرب العربى ، تونس ، سنة ١٩٧٣.

ومازال يعمل في عهد الباى محمد والباى أحمد والباى الصادق ، وكان الباى الصادق رجلا خليعاً من طراز الخليفة الأمين يحب أن يحيط نفسه بجيش من الشباب أهل الجمال ويمتع نفسه بالحرية المتناهية فى ملاذه ٠ وكان خير الدين باشا يكره ذلك حتى إنه قابله مرة والباى فى ثياب التفضل والمباذل ، فقرّعه خير الدين على ذلك وقال له لا يليق بالباى أن يقابل رئيس حكومته فى تلك الثياب ، وأرغمه على تبديلها ، وكان الباى يحقد عليه لشدته وحبه الحق وصراحته ، ومن نوادر عدله وإيثاره مصلحة الدولة على مصالح أقرب الناس إليه ، أنه عزل على بك نجل الوزير فرهاد سيده الأول الذى اشتراه مملوكاً ، لأن علياً كان متلافاً مقصراً ومعتمداً على نفوذ والده ، فذهب إلى خير الدين يحتج على عزله وقال له : أنت تعزلنى ؟ وأنت مملوك أبى بمثابة عبدى وقد اشتراك أبى وهو الذى جعلك فى المكانة التى أنت فيها؟

فأجابه خير الدين : نعم هذا حق ولك كل ما تطلب من مالى وعتادى ، لأننى أملك ذلك ولكن ليس لك أن تعبث بأموال الدولة لأنها من حقوق الشعب ٠ وأصر على طرده وأعطاه ماشاء من المال ٠

ويظهر أنه بعد أن سار البرلمان التونسى أمداً ، ووقف فى عهد مصطفى الخازندار صهر خير الدين ، ظن الناس أن خير الدين عندما يتولى الوزارة سيعيد البرلمان والعمل بالدستور ، ولكنه لم يفعل واحتج بأن الأمة التونسية ليست صالحة فى ذلك الوقت للدستور وأنه تعجل فيه قبل الأوان ، ويجب إعداد الأمة اجتماعيا قبل منحها الحقوق السياسية ٠ وقد انقسم الناس فى عمل خير الدين هذا فريقين ، فريقا يحبذه ويعتقد صدق رأيه وسلامة نيته وحسن اعتقاده، وفريقا يلومه ويرميه بالظلم والتعسف واحتقار الأمة ٠ ومن هذا الفريق الأخير حسن باشا الفريق أحد الوزراء وزوج ابنة خير الدين باشا نفسه ، فإنه ترك تونس وذهب إلى إيطاليا وطلق ابنة خير الدين وأرسل وثيقة طلاقها إلى أبيها مشفوعة بلائحة يقول فيها « لا أريد أن تكون لى علاقة مصاهرة برجل ظالم يحارب دستور بلاده »٠ وكان هذا آخر الأمر بينهما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومات الفريق فى إيطاليا ٠

أما خير الدين فكان له حزب قوى فى البلاد وقد ساعده على الاستمرار فى إصلاحه ، ولكن الباى الصادق كان يبغضه ويعمل الدسائس للنكاية به ، وكان فى حاشية الباى الصادق شاب اسمه مصطفى إسماعيل كان أجمل أهل زمانهم وأشدهم رقاعة وخلاعة ، وكان أقرب الناس إلى قلب الباى ، فأراد تعيينه وزيراً فى وزارة خير الدين فأبى خير الدين واستكبر وله كل الحق فى ذلك فاستقال ٠

وكان من أنصار الباى فى تلك الآونة المرحوم الشيخ محمد بيرم الذى كان رجلاً شديد الذكاء والتنور وكان حلالا لكل عقدة ، وكان عالما فى الفقه والتاريخ والسياسة ، وكان عظيم التكوين الفكرى ويرمى إلى الطموح إلى المعالى ، ويود من صميم قلبه الوصول إلى السيادة العليا فى البلاد من طريق الوزارة ، وهو نفسه الذى لجأ إلى مصر وعاش فى وادى النيل أمدا وأثنى عليه اللورد كرومر (ص ١٨١ ج ٢) ووصفه بأنه من أعز أصدقائه وأنه أجمل وأكمل وأعلم وأذكى وأخلص من رأى من الشرقيين ، وقال إنه يمتّ بالقرابة إلى الأسرة المالكة فى تونس من ناحية أمه وإلى خلفاء الأندلس من ناحية أبيه ، وأنه كان سيداً بمعنى الكلمة وكان رقيق الإحساس دقيق الشعور إلى الدرجة القصوى ، وكان يجلس إلى كرومر بالساعات ينعى حظ الإسلام وتدهور دوله وشعوبه ، وكان البحث الذى يشغله هو كيف السبيل إلى إعادة الإسلام إلى مجده القديم والتوفيق بين معتقداته وبين الحضارة الحديثة ، وكان الإسلام فى نظره دين الفطرة السليمة من كل شائبة الخالص من كل عيب وأن قواعده الأساسية من القوة والمتانة بحيث لايقارعها الدهر ولا تغلبها تقلبات الحدثان، ولكن الذى يشوبه هو ما نشأ حوله من الافتيات والجهل والتقاليد الباطلة والتأويلات السخيفة التى حجبت ضياءه وكدرت صفو بساطته الأولى ٠ وأن الإسلام لولا ما دبّ إليه من عوامل الفساد التى تشبه الطفيليات التى تنمو على النبات القوى، لما أصابه ما أصابه من المحن والتدهور ٠ وأن الفساد جاءه من الداخل وأنه لا خوف على الإسلام من تقدم أوروبا مادامت مبادئه الأدبية والأخلاقية وفوائده

المادية مصونة، ولو أن المسلم احتفظ بصفاته الأصيلة وأخلاقه الموروثة فلا خطر عليه مما قد يناله من جرائم الأوربيين المغامرين أو المتلصصين الطامعين فى ثروته . ولكنه كان يخشى دائما من مبادرة الشرق إلى تقليد أوروبا ، فإن الجندى الغربى بسلاحه يتلو مظاهر المدنية الخلابة ، وما صوت النفير الأوربى إلا نذير بالحرب التى يعلنها الغرب على الشرق . فأين الحكمة وأين الفهم ؟ وكان يجيب نفسه على هذا السؤال بأن مخافة الله هى رأس الحكمة وترك الشر هو منبع الفهم والإدراك .

ولكن على الرغم من قوة عقيدة المرحوم السيد بيرم ومن مشاركته كرومر له فى حزنه على الإسلام ، فإن كرومر كان يرى أن الإسلام قد يعيش قرونا بحالته الحاضرة ، يجرر أذيال الضعف ، ويبدو شبحاً أو هيكلا تتردد فيه أنفاس ضئيلة ولكنه مقضى عليه بالفناء مهما اجتمع لعلاجه أهل الذكاء وأهل الفطنة والإخلاص من بنيه لأنه مريض سياسيا واجتماعيا .

وكان بيرم يناقش هذا الرأى ويدحضه ويفنده ولكنه لم يكن يزعزع كرومر المتعصب عن عقيدته ، وهو من أكبر المعاول فى هدم الإسلام . وقد رثاه عندما مات وقال إن قطيع الباشوات والمشايخ الذين لاهم لهم إلا الجرى وراء المنافع والمناصب ، لم يشعروا بوجود الشيخ بيرم بينهم ولم يودعوه يوم موته مع أنهم لم يكونوا يستحقون أن يحلّوا شراك نعاله ! ولو أنهم عرفوا قدره ، ووقفوا على مقدار غيرته على الإسلام والمسلمين ، ولو أدركوا مقدار ذكائه وعلمه وقوة إيمانه ، لوضعوا ذلك العالم فى المكان اللائق به ، ويزعم كرومر أنه لم يتأثر فى حياته بشعور الألم من المجتمع السياسى المصرى ، بقدر ما تألم لإهمال الشيخ بيرم من معاصريه فى مصر، وعندما توفى الرجل لم يعرف منهم إلا القليل أن قد هوى نجم كان ساطعا فى أفق الحياة المصرية ولعله لو عاش فى أفق أرقى من الأفق المصرى لكان كوكبا لامعاً فى سماء الإسلام ، ولم يجد القنصل البريطانى لرثائه أصدق من شعر پوپ :

أيها السياسى ياصديق الحق يا مخلص القلب

أمينا فى العمل وشريفا فى المنهج والمسلك

يامن لم تخلف وعداً ولم تخدم مصلحة خاصة

يامن لم تخز منصباً ولم تفقد صديقا

وإن الذى قاله كرومر عن المرحوم السيد بيرم ينطبق على الحقيقة كما علمناها من مؤرخين صادقين عرفوا الرجل فى وطنه وفى منفاه فى مصر ، ولكن كرومر يلوم المصريين على عدم تقديرهم الشيخ بيرم وهو لا يعلم أنه هو نفسه كان سبب هذا الإغفال من المصريين لأن كل من كان يقربه كرومر كان يعتبره المصريون عدواً لهم. فلم يكونوا إذن جاهلين بقدر الشيخ ؛ ولكنهم كانوا غير محبين له . ولو أنه انضم إلى صفوف الأمة المصرية وجاهد بذكائه وعلمه ومكارم أخلاقه فى سبيل تحريرها وإعلاء شأنها لكان له معها شأن آخر . ومصر تعرف الجميل لكل من يخدمها سواء كان من القرباء أو الغرباء وربما كان ميلها للغرباء أعظم لما فطرت عليه من حب الضيف وإكرام مثواه .

وعند كرومر وسواه مثال واضح فى شخص المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى الذى كان غريبا كالشيخ بيرم ولكنه كان فى صف الأمة المصرية فأخلص لها وخدمها بعلمه وعقله ، وعلم أبناءها وحاول إصلاح شؤونها السياسية والاجتماعية. ولايزال كل عالم شرقى مسلم أو غير مسلم يحلّ مصر ينال إكرام المصريين ومحبتهم.

وهكذا كان نصيب الأفغانى والكواكبى وغيرهم من الأحياء كثيرون حتى رجال أوروبا المحبين لمصر أو الذين لاينالونها بأذى ، فمصر تحبهم وتكرمهم وترد جميلهم جهد طاقتها . وربماخشى الشيخ بيرم أنه لو أظهر محبته للمصريين ، وهو تونسى منفى وتابع لسلطة فرنسا فربما أضره ذلك وأدى به إلى النفى والتشريد كما كان نصيب الأفغانى ، ولذا فهو اختار الانضمام إلى صف الأجنبى القوى ولعله حاول تخفيف ظلمه أو تخفيف وقع سلطته على المصريين بطريقة التفاهم . ولم يكن فى وسعه كبعض المشايخ المصريين أن يجمع بين الأمرين أو الثلاثة أمور فيخلص للإنجليز وللمصريين ولغيرهم .

هذا هو الفساد الذى أردنا رفعه فى تاريخ بيرم رحمه الله ٠

ونرجع الآن إلى أعماله فى تونس، فإنه كان فى عهد وزارة خير الدين حوالى ١٨٧٥ وزير الأوقاف وكان طموحا على رغم صداقته لخير الدين ، فلما أراد الباى توزير محبوبه مصطفى إسماعيل ، عضده بيرم سراً ضد خير الدين ، حتى استقال خير الدين ، وبادر الباى إلى تعيين مصطفى إسماعيل فى منصب الصدارة أو رياسة الوزراء ، وكان الشيخ بيرم يظن أن الأمور لن تستقيم لمصطفى إسماعيل لعجزه وضعفه ، فيلجأ الباى إليه ويعينه وزيراً أكبر ٠ وهذا مطمح لاغبار عليه فى مجال السياسة لأن السياسة لاتعرف الفضائل غالبا ، وإذا كان بيرم استعمل الدهاء والحيلة للوصول إلى غايته ، فهو فى حل من ذلك لعله ظن نفسه أقدر من غيره على إدارة دفة الأمور فى وطنه ٠ ولكن الأقدار كانت تنوى غير ما انتواه بيرم وغير بيرم ٠

فإن خير الدين لم يلبث فى استقالته طويلا ، حتى استدعاه السلطان عبد الحميد إلى اصطامبول ، وعينه صدراً أعظم وكان أول ما عالجه من المسائل بعد توليه الصدارة بسنة أو سنتين مسألة خلع الخديوى إسماعيل (١٨٧٩) وانتهز الفرنسيون وأعوانهم فى تونس هذه الفرصة وأدخلوا فى روع الباى الصادق أنه سيعمل على خلعه هو أيضا كما خلع إسماعيل والى مصر ، وقد صادف هذا التخويف هوى فى نفس الباى الصادق ، فقد علم من أمر خير الدين أنه كان يقاومه وهو وزيره ، فكيف به الآن وهو رئيسه ووزير الدولة التى عينته واليا من قبلها ، ولا سيما أنه عارف ببواطنه ودخائله وواقف على جميع خفاياه وأسراره ، ولذا بادر الباى إلى تسهيل دخول الفرنسويين تونس فدخلوا فى عهده وعهد محبوبه مصطفى إسماعيل ٠ وفى سنة واحدة دخل الفرنسيون ومات الصادق ، ونفى مصطفى إسماعيل ولجأ الشيخ بيرم إلى مصر ٠

أما مصطفى إسماعيل فقد فر بسبعين مليونا من الفرنكات ذهبا ، وحمل معه أغلى وأعظم تحف الأسرة المالكة وهى التى نالها وسرقها من قصر الباى مولاه

وصديقه . وكان سفره أولا إلى فرنسا حيث أحب امرأة فرنسية وأنفق ثروته الطائلة على أسباب اللهو والترف وما أتت به الرياح ذهبت به العواصف . وعاد فقيرا طريداً إلى اصطامبول مقر الخلافة ، حيث أجرى عليه السلطان عبدالحميد معاشا شهريا قدره خمسون جنيها ومازال بها حتى مات .

أما خير الدين باشا فقد استمر برهة قصيرة فى الصدارة العظمى ، وقد حاول إجراء الإصلاح وتنفيذ آراءه بالشدة والعنف ، وكان متكبرا شامخا بأنفه شاعراً بتفوقه ونفوذه ، ولكنه اصطدم كما قدمنا مراراً بحثالة القصور والسفهاء من الباشوات الملقين والمشايخ المنافقين والأغوات والطواشية والمصاحبين والمابينجية والباشكُتّاب ، وبهذه القطعان من المخلوقات السامة الضارة التى جعلت فى قصر يلديز ومن الباب العالى ومن المابين فى عهد سلطان البرين وخاقان البحرين وظل الله على الأرض « جحر أفاعى ، وعش دبابير ، ومسقط ذباب ، ومقلب قمامات لا مثيل لها فى تاريخ العالم .

فأين يذهب ذكاء خير الدين وإخلاصه وعلمه وعلو همته وحبه للإصلاح ؟! ، إن ألف خير الدين كانوا يغرقون فى هذه الهاوية ولا يتركون أثرا ، ونحمد الله على أن خير الدين عندما استقال ترك وشأنه يعيش آمنا فى سربه ولم ينله من الوشايات ما أدى إلى نفيه أو سجنه أو هلاكه فى مياه البوسفور أو فى صحراء العراق أو نجد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملك عبد العزيز آل سعود (1)

مقدمة :

لقد شهدت مصر منذ فجر الحضارة من مواكب الملوك ما لم تشهد بلاد سواها وذلك لمكانتها بين الأقطار وعراقة تاريخها وجلال ذكرها وجمال واديها ونهرها ٠ ولم يبلغ ذروة المجد ملك أو عاهل ، لم يرد مصر زائراً أو خاطباً صداقتها متودداً إليها وباسطاً لها يد الإخلاص ٠

ومن كبار ملوك المسلمين أقبل عليها العباس ضيفاً كريماً والدولة العباسية إذ ذاك فى عنفوان شبابها ، وفى القرن الماضى أقبل عليها السلطان عبدالعزيز خليفة آل عثمان فى عهد إسماعيل العظيم ، ومصر فى عنفوان قوتها وسمت عظمتها الحديثة وهى إذ ذاك إمبراطورية شرقية عربية ٠

ولكن لم يسبق لمصر أن رحبت بملك انشرح له صدرها وتفتح لمقدمه قلبها وتدفّقت من جوانبها ينابيع المحبة والوفاء لمقدمه بمثل ما تستقبل به فى هذه الآونة مقدم الملك الجليل وبطل العروبة وباعث مجدها عبد العزيز آل سعود ملك نجد والحجاز ومحرر جزيرة العرب وصاحب نهضتها ٠

وقد تمايزت مصر منذ عرفت العروبة والعرب والإسلام بصبغتها العربية وحماستها القومية وثقافتها الإسلامية وحرصها على الحضارة الشرقية ، وذلك الحرص وتلك الغيرة بقيا من أخص صفات الاجتماعية المصرية والشخصية المصرية، فكان لهما أكبر الأثر فى صيانة لغة القرآن الكريم والمحافظة على مجد العروبة منذ صدر الإسلام حتى هذه الأيام ، فكان طبيعياً أن يحبها عبد العزيز

---

(1) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة الدستور فى ١٩٤٦/١/١٨ بمناسبة زيارة الملك عبد العزيز آل سعود لمصر فى ١٠ يناير من تلك السنة بمناسبة إنشاء الجامعة العربية ، وقد نشر هذا المقال بكتاب المؤلف «الأيام المبرورة فى البقاع المقدسة ، رحلة الحج والزيارة إلى الأراضى الحجازية فى عهد الملك عبدالعزيز آل سعود » ، ص ٢٥٧ – ٢٦١ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٨٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويعجب بها وأن تحبه وتعجب به ، ولاسيما بعد أن تبادل الملكان العظيمان ما تبادلا من صداقة حميمة ومودة عميقة وإخلاص ووفاء لأحدهما ولا فضل فيها لأحد غير سبحانه وتعالى :

البشرى بالنهضة :

نشأ عبد العزيز آل سعود وترعرع وصلب عوده فى أول القرن الرابع عشر الهجرى وأواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، وكانت رسالته فى الحياة على ظاهر الأمور بمقتضى أحوال أسرته وقومه ووطنه أن يستعيد مجد وطنه نجد وأن يسترد عاصمة آبائه الرياض ، وقد وفى هذه الغاية وزاد عليها ، وبسط نفوذه على الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً ، لا فاتحاً وغازياً ولا فارضاً قوته على ملوك العرب وأمرائهم ، ولكن حليفاً أليفاً وجاراً كريماً شريفاً وصديقاً وفياً ذائداً عن الحياض ، مدافعاً عن الحقوق ، متمسكاً بالكرامة العربية ، داعياً إلى الوحدة والإخاء والحرية ، فأثبت بتاريخ حياته المديدة إن شاء الله أن قيمة الحياة لا تقاس بأغراضها القريبة وإنما تقاس بمقاصدها البعيدة التى قد تكون سراً مضمراً فى فؤاد الدهر أو سطراً ناصعاً فى لوح القدر .

فقد بزغ كوكب عبد العزيز ثم علا ولمع فى العصر الذى ذهب فيه سلطان للعرب وكسرت شوكتهم وتقصّفت قناتهم وحكمتهم أجيال مختلفة ، وكانت نشأة عبد العزيز مع القرن الرابع عشر الهجرى ، والقرن الرابع عشر فى كل الحضارات القديمة والحديثة قرن البعث والإحياء والنهضة ، فانظر إلى هذا القانون التاريخى الثابت الذى يبدو لمن يقنع بظاهر الأمر أنه محض مصادفة ، ولكن فى الحقيقة قاعدة قعّدها الله وقانوناً قنّنه وسنّة سنها ولم تجد لسنة الله تبديلاً ، فتجدد شباب العروبة ونفضت عن كاهلها غبار الماضى وتيقظت من رقدة طويلة كالنسر ينهض من غفوته ليلحق بجناحيه فى عنان السماء .

زيارته لمصر :

فليس عجباً إذن أن تكون لزيارة الملك الجليل ذلك الشأن العظيم فى مصر بل وفى المشرقين بل وفى العالم كله ، فإنه من بعض حقوقه أن تهزنا رحلته إلينا وإقباله علينا هزة الفرح والاستبشار والتفاؤل بالخير ، لأنه أول ملك من ملوك الإسلام والعالم يقصد إلى مصر فى ضيافة ودية وقد امتلأ قلبه الكبير بالحب والإخاء والإخلاص لجلالة الفاروق وللأمة المصرية على بكرة أبيها ، وهو يزورنا مكرماً رداً لزيارة ملكينا المحبوب تلك الزيارة الأولى فى ظلال رضوى وقد توثقت أثناءها روابط الود والوفاء واستحكمت أواصر الصداقة والإخاء بين عاهلين كانا ومازالا معقد آمال العرب والشرق الأوسط ، وبفضل ألفتهما وألفة شعبيهما نبت زرع الوحدة العربية وأخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع .

ويزيد هذه الزيارة الكريمة قدراً مجيئها فى أحوال دولية على جانب عظيم من الخطورة ، ولكنها فى مناسبة مواتية لتوثيق وحدة الأمة العربية بجميع شعوبها.

وها هو قلب مصر يخفق بحبه وعين مصر ترنو إليه وتتبعه بنظرة الشوق والتقدير وعنق مصر يشرئبّ ويتطاول وصوت مصر يرتفع بالدعاء والتهليل والتكبير ، ويد مصر مبسوطة بالترحيب والتحية لشخصه الكريم وذاته العزيزة المحبوبة .

ولسنا نبالغ إن قلنا إن الملك عبد العزيز قد أحس بفيض الحب والولاء حتى أثناء زيارته الخاطفة فى العام الماضى وكانت ضرورات الحرب تقتضى التكتم والتستر والعجلة ، فما بالنا وقد أصبح الملك العظيم فى مصر ملء الأعين والأسماع والأفئدة ، يرانا ونراه عياناً بغير حجاب ولا خفاء ونستمع إلى صوته ويستمع إلى هتافنا ودعواتنا الحارة للمليكين ولذلك الشرق العربى الذى صهرته الأحداث بعد أن أحاطت به محنة الحرب والسياسة من كل جانب ، وأصبح فى أشد الحاجة للتعاون والتعاضد والتساند فى عالم مضطرب لاينفع فيه التمسك بالوعود والعهود إن لم تكن بجانبه قوة تدعمه وبأس يشد أزره ويؤيده .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملك والوحدة العربية :

لقد أثبت الملك السعودى أنه من أكثر الملوك اعتصاماً بالعقل والروية ، وقد يرى في الآفاق البعيدة بما جمعه الله له من مواهب ما لا يرى غيره ، ولذا رأيناه يتغلب على العقبات الكأداء فى سبيل الوحدة العربية ، وله فى خدمتها الهمة القعساء واليد البيضاء ، فكانت العقبات باعثة له على مضاعفة جهوده وزيادة الهمة فى السعى ، ووسيلته فى ذلك دوام التآخى وتوثيقه ، وهو يعلم أن مئات الملايين يتطلعون إلى تحقيق أمنيته وأمانيهم فى عودة الأمم العربية إلى سالف عزها وسابق مجدها بالحرية الصحيحة والاستقلال السياسى والاقتصادى ، ويتطلع عاملاً ساهراً دائباً إلى بزوغ ذلك العصر السعيد ، تلوح ملامحه وتدنو مطالعه كنور الشمس قبيل ظهورها تتزايد أشعتها إلى أن يتكامل إشراقها وترتفع إلى سمتها فتغمر العالم بالضياء والدفء والحرارة .

والملك الجليل خبير بالتاريخ القديم والحديث وهو جد عالم بأن أمم الغرب كانت فى عهد الطفولة ، وكان العرب فى طور الرشد الاجتماعى والسياسى ، فكانت العروبة للأمم بمثابة الأساتذة المرشدين ، وعن العرب فى الأندلس وجنوب فرنسا وإيطاليا وألمانيا وفى الشرق ، أخذت أوربا مفاخرها ، وقد آن الأوان للأمم العربية أن تنهض لتستعيد تلك المفاخر ، ومايكون ذلك إلا بالتعاون دون التهاون ، وبالمساواة فى السلم والحرب .

كانت البلاد العربية فيما غبر من الزمان أمماً متفرقة وشعوباً متباعدة ، وأتى عليها حين من الدهر كانت متخاذلة ، وكانت تلك الأعراض داعية إلى قنوط الدعاة إلى الوحدة ، فأراد الله أن يتم الاتصال والتماسك بين أعضاء الجسم الواحد ، فدبت الحياة فى العالم العربى ولم تحل الأبعاد دون نهضته وانتعاشه بعد أن توافرت عوامل البعث وهيأ الله الزعماء لقيادته إلى غايته المقصودة وضالته المنشودة .

ومن مؤيدات اليقظة العربية بعد وحدة المقاصد والأهداف ، وحدة الثقافة وهى المجلى الأولى للحياة ، وبها تتوحد المقاييس وتزول الفوارق ، ومنها الإيمان الكونى

وهو الاستمساك بنواميس الخليقة وسنة الله فى الأمم وبسيادة العقل على المادة ، لأن هذا الإيمان هو سر حياة الأمم ، فإذا آمنت به كان ضمان بقائها وثرائها ونمائها وهنائها .

أعمال الملك فى الحجاز :

ومن محاسن الملك العادل أنه حقق آية الله فى تأمين البيت الحرام وبذل النفس والنفيس فى نشر العدل والرحمة بين أمة الحجاز الكريمة الأعراق ، وأجرى الله الحق على يديه وأفاض الإحسان من ينابيع بنانه ، ومفخرته العظمى فى أرض القرآن الكريم إعلاء كلمة الله وسنة رسوله وإسداء الجميل إلى كل من سكن البلاد أو جاءها حاجاً ومعتمراً أو زائراً متبركاً ، فاجتمعت الكلمة على محبته وتفانى الشعب فى تحقيق أغراضه ، فكل من فى تلك الأرض المقدسة العزيزة على نفوس الملايين من المسلمين آمن مطئمن على حياته وعرضه وماله وكرامته بفضل الشريعة السمحاء أولاً ثم بفضل الملك الذى لاتغمض له عين حتى يرجع كل حق إلى نصابه .

وقد أثبت الملك بعدله ورحمته وعقله وإيمانه ونور بصيرته أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان وكل مكان وأن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن ، وهو يتبع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو من وصفه القرآن العظيم بقوله الكريم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، وهذا دستور عبد العزيز مستمد من كلمة الله سبحانه وتعالى فى صفة نبيه ، فهو قد أعلم الخاصة والعامة رأيه فى استصلاحهم ورد مظالمهم وتفقد أحوالهم وأداء أرزاقهم وأعطياتهم عليهم ، فإن شغب شاغب أو نعر ناعر فلا يسطو عليه سطوة الجبار التى تجعله نكالا وموعظة ، وإنما يأخذه باللين والهوادة والموعظة الحسنة حتى يصل به إلى الهداية والطاعة ، وقد شهد كل من زار أرض الحجاز المباركة ، ثغورها ومدنها ، أن الملك يسهر فعلاً لا قولاً على أمن الأمة وراحتها ويأمر وزراءه وعماله بالجد والتيقظ وتقديم الحزم فى كل الأمور ليلهم ونهارهم ، ويختار لمناصب الدولة من يثق

بطاعته وتضحيته وهيبته عند الأمة ، سواء أكان قريباً أم غريباً ، وسواء أكان في ماضيه عدواً أم حبيباً ، لأن كل مقصده خير الأمة العربية التي ألقت مقاليدها إليه، فكانت أمانة الله في عنقه وهي قبلة أنظار العالم من أقاصي الصين في المشرق إلى أقاصي مراكش في المغرب ، وأن حق الله على من يستودعه مثل تلك الأمانة من أئمة المسلمين وملوكهم ، الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم ومواريث النبوة التي أورثهم وأثر العلم الذي استودعهم والعمل بالعدل والرحمة في رعيتهم والتشمير لطاعة الله فيهم .

وقد اتجه أطال الله عمره إلى إنهاض الحجاز ، فدوّن الدواوين وافتتح المدارس والملاجيء وبعث بعوث الشبان في طلب العلم وجلب الخبراء في الزراعة والصناعة لاستصلاح الأراضي والمساقي وتأسيس المعامل والمصانع ليستغني أهل الحجاز بعلمهم وإنتاجهم بعد زرعهم وضرعهم دون أن يجعلوا موارد الحج وحدها مصدرا لأرزاقهم . أما التجارة فلا حاجة بهم إلى تعلمها فهم بفطرتهم ومرانتهم من أمهر تجار العالم إن لم يكونوا أحذقهم وألبقهم قاطبة .

وقد بذل الملك أقصى الجهد وأنفق من حر ماله على تعبيد الطرق وجر المياه النقية وإضاءة المدن بالكهرباء وتأسيس المستشفيات والمصحات ودور العلاج وتشجيع الأطباء والممرضين والصيدلانية على الإقامة في الحجاز حتى تصح الأجسام بالدواء كما صحت العقول بالتعليم والقلوب بالإيمان ، وقد شهدنا كل ما نكتبه عن كثب ولسنا ولا بسنا ما أثلج صدورنا ، فنحن نتكلم عن معرفة واختبار .

وجلالة الملك عبد العزيز لاينعم بالألقاب ولا يفضل رجلاً على رجل إلا بالتقوى والعلم والخلق الفاضل .

وقد كافأة الله على إخلاصه وخيره ورحمته وعدله فشرح صدره ورفع ذكره وأعلى شأنه ووطد ملكه وثبت عرشه ونشر في الشرق والغرب فضله ، وأنعم عليه بينابيع الزيت الفوارة ومناجم الذهب الزاخرة ، فلم يستأثر بشيء من تلك النعم التي ساقها الله إليه ، بل أشرك العباد من أهل البلاد وجعل لهم حقوقاً في كنوز أوطانهم التي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جعله الله عليها خازناً أمينا ينفق معظمها فى الإصلاح والإحسان وتهذيب الرعية ورفع مستواها والأخذ بأسباب التحضر .

والله نسأل للفاروق وعبد العزيز أن يوفقهما لعزيمة الرشد وصريمته والإقساط فيما ولاّهما الله من عباده برحمته ومنته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لورانس والثورة العربية [1]

لقد عنينا بصفة خاصة بأخبار ذلك الرجل ، الكولونيل لورنس ، لأن أخباره دخلت فى مصاف الأساطير ، ولأنه العامل الأول والأهم فيما يسمى اعتباطاً بالثورة العربية وماهى إلا حركة استعمارية اتخذت هذا الاسم اغتصابا ، كما انتحل لنفسه اسما غير اسمه ولأن فى أعماله وأخباره موعظة للعرب وغير العرب من المخدوعين حقاً ومن الذين ادعوا أنهم مخدوعون ليخففوا مسؤوليتهم أمام الشعوب التى ذهبت ضحية لؤمهم وخيانتهم .

هذا الرجل على ما وصفه الذين رأوه وخالطوه من أبطال « الثورة العربية » ضابط قصير القامة أشقر اللون ذو رأس كبير وجسم حقير ووجه مستطيل وعينين زرقاوين متحركتين تقدحان ناراً ومشية لايكاد صاحبها يمس الأرض ، يمشى كما يمشى الذئب الحذر ، وقد قال عن نفسه إنه عندما دخل على الجنرال كليتون خفيف الخطى لم يسمع كليتون الذى كان مشهوراً باليقظة وقع أقدامه ، وهو فى الحديث لا ينظر إلى وجه مخاطبه ولا يلمح سحنته إلا خطفاً . وهو يتكلم بهدوء يشبه الهمس ويختصر كلامه اختصاراً يدعو إلى الحذر ولكن فيه من الدقة والتعمق وإنعام النظر ما يدل على عقل راجح وإحاطة بالموضوع . وهو يقيم الآن فى سلاح الطيران بالهند على قولهم .

وكان هذا الرجل مخلوقاً ومستعداً بالفطرة لإتقان الخدمة السرية على طريقة جديدة وهى إظهار اليقين للذين يسخرهم فى أغراضه فيفتنهم ويجذبهم بشخصه ثم يعميهم بالمال والعطاء الكثير ، حتى قيل إن إنجلترا أنفقت بسببه على الثورة العربية ستين مليونا من الجنيهات ، وكان عمله الحقيقى الاهتمام الخاص بموضوع الجمعيات العربية السرية التى كانت تعمل لتحرير العرب ، وكان فى سنة ١٩١٦ يعرف منها جمعيتين هما « العهد » و « القحطانية » ، وكان يستقدم كل عثمانى قادم

---

(١) مخطوط بهذا العنوان كتبه المؤلف سنة ١٩٣٢ ولم ينشر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من بلاد تركيا وسوريا ليأخذ منه المعلومات النافعة له ،.وقد اجتمع به من مشاهيرهم شريف بك الفاروقى ونورى بك السعيد والدكتور عبد الرحمن شاهبندر وأحمد مختار الصلح وغيرهم ، وقد انقسم العرب الذين كانوا يجتمعون به إلى قسمين أحدهما يكبر من شأن الجمعيات السرية العربية ، والآخر يصغر من شأنها ، ومنشأ ذلك التناقض اختلافات شخصية ، فكان فريق يرى منفعته فى لورنس ورؤساء لورنس فى تكبير شأن الجمعيات ، وكان الفريق الآخر عكس ذلك .

وكان لفيف من الإنجليز مهتمين بالحركة العربية ، وبعبارة أخرى كان يهمهم أن تحدث ثورة عربية أو أن يوجدوا ميدان قتال عربى ، يهاجم الأتراك والألمان من الجنوب . وكان فى مقدمة هؤلاء الإنجليز الدكتور هوجارث من أساتذة أكسفورد ، وبالرغم من كونه عالما أثريا ، فقد كانت سياسته القضاء على الدولة العثمانية بطريق تهييج العرب ، والسير جلبرت كليتون الذى صار فيما بعد مندوبا للعراق وكورنواليس موظف بالعراق الآن ويونج وهو بالعراق أيضا وأوسموند وولرند سكرتير ملنر وكان مشلولاً ومشهورا فى القاهرة ومكماهون وسير ونجيت وكان لورانس مدار حركتهم وأداة تنفيذهم وإن كان أقلهم ظهورا بين الناس للاستعداد للدور الذى كان سيمثله .

وطبعاً حياته الشخصية لاتهمنا مطلقاً ولكن علمنا أنه ولد فى ١٨٨٨ من عيلة إنجليزية عاشت حينا فى أيرلاندا وتعلم عند الجيزويت الفرنسية ولعله اقتدى بزعيمها الشهيد لويولا ، ومن أخلاق لورنس أنه يحتقر البشر جميعا من أية سلالة كانوا وفى أية بيئة تربوا ولا يرى فائدة من الجنس البشرى ولا يهتم لبقائه ولا يحفل بالإخاء الإنسانى ، وبعد أن تخرج من عند الجيزويت دخل أكسفورد وأعرض عن الألعاب الرياضية وتعلق بفن النحت ويدرس آثار الصليبيين فى الشرق العربى ، والحقيقة أنه اتخذ هذا الدرس وسيلة لزيارة الشرق والاختلاط بأهله والوقوف على لغتهم وأخلاقهم ولتسهل عليه جمع المعلومات عنهم وليكون ذلك تمهيداً للهجوم على الشرق.

ولابد أن تكون مـواهبـه في العـمل السـرى قـد ظهـرت لبـعض نقـاد الرجـال الذين يجوسون خلال الجامعات ليحشدوهم لخدمة الإمبراطورية ، كما أنه كان يلقى بنفسه فى أحضان الخدمة السرية لميله الفطرى ولم يكن له مجال أخصب من الشرق الذى كان طعمة لكل آكل ، وللرجل ميل خاص لمعرفة الرجال والاستقصاء عن داخليتهم ، ومن مـواهبـه التى لفـتت إليـه أنظار الذين ينتـقـون الأشـخـاص الصـالحين للخـدمـة السـرية أنه ينسلت من بين الناس ، فكان يسـافـر من القـاهرة إلى جـزيرة العـرب ويعود إليها من غير أن يشعر به أحد بل إن أسفاره كلها كانت مفاجآت ٠

وطبـعـا لم يجـد طريقـة لدخـول الشـرق والطواف به أفـضل من دعـوى درس الحصون التى بناها الصليبيون والاهتداء إلى آثار الحيثيين وهكذا من القصص الحلوة ٠ وقد مشى على قدميه حاملا آلة التصوير من حيفا بطريق الساحل السورى حتى بلغ جبال طوروس فـأورفه على الفرات ووصل إلى مدينة كرشميس وهـى جرابلس على الفرات ٠ وكانت جامعة أكسفورد تمده بالمال فى الظاهر والله أعلم بالسرائر ، ويؤيد قولنا إنه التفت فى سياحته كثيراً إلى عصابات العمال واهتم بحاجاتهم وكان يعرف جميع العمال بأسمائهم ولايعرفهم بوجوههم ٠ وكانت هذه هى البروفة الأولى التى عملها للاختلاط بالعرب وتفهم أخلاقهم ونفوسهم ٠

وفى سنة ١٩١٣ سـار لورنس مع لنرد وولى فى رحلة إلى شـبـه جـزيرة سـينا بدعوة من الحكومة الإنجليزية لدرس آثارها فى إبّان مسح حدودها وكان المهندس المندوب لهذا المسح المستر نيوكم الذى اشتهر فيما بعد باسم كولونيل نيوكم وذكره لورنس فى كتابه كثيراً وقد أسر فى أواخر الحرب ٠ وقد ظهر أن هذا العمل كان خديعة ومكراً أمر به اللورد كتشنر لغاية سرية حربية (وكان يعرف لورنس من مدة طويلة والتقى به فى القاهرة) تتعلق بمعرفة طبيعة الأرض ، وقد جازت هذه الحيلة على الحكومة العثمانية إذ سمحت برخصة رسمية بالحفر منحتها « جمعية التنقيب الفلسطينية » ولم تكن مسألة العاديات والآثار التى كلف بها لورنس و وولى إلا حيلة فقط توسلت بها إنجلترا ليتمكن نيوكم من رسم الخرائط الحربية المطلوبة ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والآن يجب علينا أن نعذر الفرس والأفغان إذا مانعوا فى كشف الدفائن القيمة المطمورة فى بلادهم لأنه أهون عليهم أن تنطوى صحيفة من تاريخ البشر البائدين من أن تنطوى صحيفتهم من سجل الأمم الحية الباقية ٠

وهو يفتخر بأنه نصب ثلاثة ملوك فى الشرق ٠ وليس له صديق يخلص له ، بل يظهر لكل صديق من وجهة معينة حتى قيل إن هناك ألوفاً من اللورنسات كل منها سطح للبلورة اللورنسية الأصلية فليس له والحال هذه صديق حميم يجوز أن يرى هذه السطوح كافة ٠

ويدعى المدافعون عنه وعمال الدعاية الاستعمارية أنه يميل للضعفاء وينتصر لهم ولو كان الانتصار لهم مناقضا لمصالح الإمبراطورية ، ويروون فيما يروون عنه أنه قال لمن عاتبه على الإخلاص فى خدمة الملك فيصل ، وكان لايزال أميراً « إذا خدم رجل سيدين اثنين وكان عليه أن يسئ إلى واحد منهما فالأفضل أن يسئ إلى أقواهما!! » وكذلك حكاية رده الأوسمة والنياشين ٠ وإعلانه فى الصحف غضبه غضبة سكسونية لأجل العرب الذين نجحت ثورتهم نجاحا كاذباً ٠ كل هذا لا نصدقه ولا نؤمن به ونعتقد أنه عبارة عن ماء وصابون يقصد بهما غسل لورنس أمام العرب وتبييض وجهه الذى سوّده نقض العهود وضياع العرب والترك معاً ٠

قلت إن هذا الرجل كان ينظر إلى الشرق نظر الطامح الطامع ليبنى فيه مستقبله ، وقد رأى سكة حديد بغداد حلقة الاتصال فى تأسيس إمبراطورية شرقية عظمى تهيمن عليها ألمانيا ٠ فخاف على الإمبراطورية البريطانية وهذا يدل على مقدار حبه للاستعمار والتوسع فى الغزو والطموح إلى خدمة الإمبراطورية وقد أرسله رؤساؤه المباشرون إلى كتشنر فى ١٩١١ ليبين له الخطر من تمكين الألمان من الاستيلاء على الإسكندرونه وهى الميناء الواقع فى الزاوية بين آسيا الصغرى وسوريا، فقال له اللورد كتشنر :

« إننى أيها الشاب مطلع على كل شئ وأنه فى غضون ثلاث سنين من هذا التاريخ (١٩١١) ستشهر حرب عالمية تسوى بنتيجتها هذه المسألة الصغرى مع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غيرها من المسائل الكبرى فاذهب أيها الشاب مسرعا ، احفر قبل أن تمطر » ٠

وفى ذلك الحين نفسه تولى لورنس بنفسه تنبيه وزارة الخارجية إلى جميع الارتباكات التى تنشأ عن تساهل الحكومة الإنجليزية فى مسألة الاسكندرونة وإلى طمح الفرنسويين فى سوريا ٠

وهذا يفسر لنا شدة شوقه إلى الوصول إلى العقبة فمعان فدمشق وهو ما وصفه فى كتابه بالتفصيل ومن أول يوم كانت وجهته دمشق ٠ وقد أخذ أصدقاؤه ودعاته يذيعون أنه لايحب المال ولا يخشاه وليس له فى الوقت الحاضر حساب فى المصارف ومما هو معروف عنه عند جميع إخوانه أنه حرص الحرص كله على ألا يربح قرشا واحداً من جميع ما كتبه عن الثورة العربية ٠

ونحن لايهمنا مكسبه أو خسارته ، كما لا يهمنا غناه أو فقره ٠

ولكن إذا كان باسم لورنس أو شو لايوجد مال فى المصارف ، فهل معنى هذا أن ليس له اسم آخر يعرف به فى البنك ، وهل يعدم مثل هذا الرجل الداهية وسيلة للاحتفاظ بماله فى أية خزانة أو عند أى صديق؟ ، وطبعاً إنه لايجاهر به ومن كان فى مركزه لا يعلن عن نفسه أنه ذو مال ٠ غير أن هذا لا يهمنا بقدر ما يهمنا كشف القناع عن حقيقته الخلقية لتكون الأجيال الشرقية المقبلة على علم بنوع هذا الرجل المحب لوطنه المخلص لقومه الذى كافح فى سبيل الإمبراطورية وادعى أنه بغير عقيدة٠

نقول - وقد اعتمدنا فيما نكتبه على ما كتبه هوجارث وروبرت جريفز وما كتبه لورنس نفسه وعلى ما دونه الدكتور شاهبندر وما سمعناه من معظم شهود الرؤية الذين كابدوا معظم الحوادث التى نصفها - إن لورد كتشنر كان يعرف قيمة لورنس وهو الذى اختاره ودربه من بضع سنين وقد قابله فى القاهرة قبل الحرب بخمس أو أربع سنين٠ فلما أعلنت الدولة العثمانية الحرب فى نوفمبر سنة ١٩١٤ أمر لورد كتشنر بعثة الحدود الإنجليزية التى كانت تعمل فى سنة ١٩١٣ فى جزيرة سينا برخصة عثمانية (؟!) وفيها لورنس ولنرد و وولى وينوكوم ، ودرست الجزيرة درسا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حربياً بحيلة البحث عن الآثار - أن تسافر على جناح السرعة إلى مصر ليستعان بمعلوماتها فى رد ما يحتمل من غارات الترك على مصر. وكان لورنس يعرف بعض المقاطعات العراقية والسورية ومطلعاً على جغرافيتها أكثر من الضباط العثمانيين أنفسهم ، والفضل فى ذلك إلى شغله السابق فى الحفريات والتنقيب !!

فكان عمله لما وصل مصر هو جمع المعلومات من الجواسيس والأسرى ليسبكها فى تقارير دورية يقدمها لأركان الحرب عن مواقع الفرق والقطع المتنوعة فى الجيش العثمانى . وكان يعلم كل شىء عن الطرق والمواصلات وشخصيات الضباط الأتراك فيقول الضابط فلان الذى يقود الفرقة الفلانية كسلان ، والجنرال عبد... قائد الفرقة ... ألبانى ومسلول وأخصائى قدير فى الطوبجية ولكنه قابل للبرطيل . وكان لورنس متقنا لفن الرشوة أى أنه يدرس نفسية المرتشين من الشرقيين سواءً كانوا تركا أم عرباً وكان قد جعل من إفساد الذمم فناً جميلاً ، ولهذا انتدبته وزارة الحربية الإنجليزية فى أوائل مايو سنة ١٩١٦ لمهمة سرية خطيرة وهى الاتصال بالسلطة التركية التى كانت تحاصر الجنرال تونزند فى كوت الإمارة فى العراق لاستمالتها بالرشوة لفك الحصار عن الجيوش البريطانية . ولكن خاب لورنس فى مأموريته لأن القائد التركى فى هذه الجهة كان خليل باشا عم أنور باشا وهو رجل شريف .

وكان كتشنر نفسه قد فشل فى العراق لأنه فى أوائل الحرب خاطب زعيمين من زعماء الجمعيات السرية العراقية فى إحداث تمرد فى الجيش العثمانى وإخراج الترك من العراق فلم يوفق . وكانت خطة كتشنر أنه لايخاطر بالحرب إلا بعد أن يجرب جميع الوسائل الأخرى وإذا خاطر بالحرب لا يبدأ بالجندى الإنجليزى ولا يعرضه لأخطار الميدان إلا فى النهاية القصوى .

وكانت توجد فى وجه الإنجليز عقبة كأداء فى محاربة الأتراك وهى أن بعض العرب ولا سيما فى العراق (وهم لم يفسدوا فساد عرب الجزيرة) كانوا ينظرون إلى الإنجليز أو إلى الجنود الهندية نظر الفاتح الأجنبى ، فابتكروا فكرة ثورة عربية

لتنفاد القبائل وراء زعيم عربى . وكان لورنس روح تلك الفكرة وكل زعمائها يعملون بإرادته ، ولذا تراه كان يطلب المشايخ بالاسم فيطلب الروالة ويأتيه زعيمها النورى الشعلان ، وقيمة هذا الرجل كانت لا تقدر للتمكن من شمال بادية الشام ، ثم ترى لورنس يطلب الحويطات فيتقدم إليه عوده أبو تايه وهو أعظم مقاتل فى زعمهم ولكن المهم أن خضوعه كان يؤدى لاكتساب القبائل النازلة بين العقبة ومعان كما رأينا من تلخيص كتاب لورنس ، غير أن الإنجليز قبلوا خطة لورنس فى الجزيرة وسوريا لأنها نجحت وكانوا يرغبون فى ترك الحجاز للحسين ، أما العراق فكان الإنجليز يريدون اغتصابه بمحض قوتهم وبدون مساعدة العرب ليجعلوه جزءاً من الإمبراطورية البريطانية . ولذا كان فشل لورنس فى العراق مزدوجاً أو راجعاً إلى ثلاثة أسباب، الأول قوة شكيمة قبائل العراق وعدم رغبتهم فى الرشوة ، الثانى كراهية العراقيين للإنجليز واعتبارهم كالترك ، الثالث رغبة الإنجليز فى أخذ العراق بأنفسهم بدون إشراك الحسين وأولاد الحسين . أما كونهم تقهقروا بعد ذلك ودعوا فيصلاً للعرش فهذا كان بعد الثورة العراقية وبعد الانتداب الرسمى .

نقول وقد انتهى الأمر فى العراق بهزيمة الإنجليز فى الدور الأول فاستسلم تونزند وعاد لورنس خائباً وأوشكت سنة ١٩١٦ تنتهى على الإنجليز فى الشرق بالويل والثبور ، ففكروا فى جزيرة العرب . وكان مركز الشريف حسين غريبا لأن الناس ظنوا أن الترك منتصرون وسوف يشنقون الحسين كما شنقوا زعماء العرب فى الشام ، واشتد اليأس بلورنس نفسه فطلب راحة عشرة أيام ليبتعد عن الحركة العربية وليحول الأنظار عن نفسه بعد فشل العراق ووشك الفشل فى الجزيرة .

ولم يكن الحسين وحده فى مركز حرج ، بل كان فيصل نفسه الذى وصفه لورنس بزعيم الثورة واقفاً على أبواب المدينة ينتظر بلهفة وهلع المدافع والعتاد التى وعده بها الإنجليز . فكان فى موقف العاجز .

وفى هذا المفترق من طرق الحرب والسياسة ، جاءهم الفرج ... فسافر لورنس وستورز إلى جدة وقابلا عبد الله وفيصل وأرسل المال والسلاح وعين لورنس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مستشاراً حربياً للأمير . وقد تركنا له المجال يروى فيه بقلمه ماشاء من الوقائع والأخبار.

بقى علينا بعض نتف من أخبار عودة أبو تايه ، فقد روى شاهد عيان أنه فى سنة ١٩٢٠ أقيمت حفلة تعارف فى شرق الأردن حضرها الأعيان وهربرت صموئيل حاكم فلسطين اليهودى البريطانى وكان عودة أبو تايه بين الحاضرين ، فالتفت صموئيل إلى عوده وقال له :

- ياشيخ العرب عوده ! هل أنت مسرور بالحل الذى آلت إليه الإمبراطورية العثمانية وألا تظن أن عهد سلم مديد قد ذر قرنه على الشرق ؟

فأجابه عوده بشدة واندفاع : أى سلم هذا مادام الفرنسيون فى سورية والإنجليز فى العراق واليهود فى فلسطين ؟

لأن الشعور بالخيبة من غدر الحلفاء بالعرب كان قويا فى قلب عوده .

ويقول الدكتور شاهبندر الذى حضر هذا المجلس : « ويشهد على هذا الغدر جميع الذين اشتركوا فى الثورة العربية ، ظنوا أن للحلفاء عهوداً مسؤولة ينفذونها وأيمانا يخنثون بها ». ولا غرابة أن ينطق الشاهبندر بهذا القول ، فقد كان من أقوى المساعدين للإنجليز فقد أخذ على عاتقه أن يبث روح الفتنة فى معسكر الأسرى العرب بالمعادى ضد الترك وتمكن بهذه الطريقة من إقناع جعفر باشا العسكرى فحوله من صفوف الترك إلى صفوف الحلفاء مع أنه قائد عظيم وكان قوة لا يستهان بها .

وكأنك أيها القارىء الشرقى تعجب مثلى بلورنس وهو يقضى عيد الميلاد وعيد رأس السنة فى صحراء العرب وهو الذى نشأ وترعرع فى أمة تقدس هذين العيدين وتجعل لهما أعظم شأن بين الأعياد ، وإن كان قد قضى أعياداً مثلها فى القاهرة بعيداً عن وطنه إلا أنه كان يقضيها بين لفيف كبير من إخوانه فى الجنس والدين واللغة والتقاليد . أما أن يقضى عيد الميلاد وعيد رأس السنة فى صحراء العرب فهذا ما لم يسبق له به عهد . ولكنه تحمل ذلك وأشدّ من ذلك فى سبيل نصرة قومه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا عودنا الإنجليزى أنه يستهين بكل شىء مهما عز ومهما عظم إذا كان فى هذه الاستهانة فائدة تعود على وطنه وقومه .

فى ذلك العيد أول يناير سنة ١٩١٧ كان لورنس وفيصل يتشاوران فى الأمر ويدبران الخطط التى تقضى على جيوش الترك فى الجزيرة ، فصمما على نقل جهينة إلى الوجه مع فيصل وأن يضما إليها رجالا من حرب والعتايبة والعجايل لإحداث الوقائع الأخيرة فى شمال الحجاز ونشر خبر فوز الثورة على الترك فى طول الجزيرة وعرضها غربا .

وكانت المراكب الحربية التى تكون منها أسطول البحر الأحمر ترد تباعاً حاملة الذخيرة والمال والمدد ، وفكر قواد الثورة فى استعمال الطائرات الحربية للقضاء على الترك فى تقهقرهم وكان أشد المحبذين لهذا المشروع الأمير عبد الله .

وفى اليوم الذى صح العزم على استعمال تلك الطائرات جاءت الأنباء بوصول الضابطين كوكس وفيكرى اللذين جاءا من لندن للحلول محل لورنس ، وكان ڤيكرى من ضباط السودان الذين خدموا فيه عشر سنين وأتقنوا العربية الفصحى والمحكية ولا يحتاج إلى ترجمان ، وكان العرب فى صف الترك وهو من أعوان أنور باشا وقد لا يقل عن عزيز على المصرى فى الشجاعة والحنكة والتدبير العسكرى ، وطريقة الشاهبندر فى إقناع الجنود العثمانيين بالردة كانت بسيطة على ما رواها هو بنفسه. فقد قدم لجعفر باشا - الذى كان جريحا فى مستشفى المعادى ، وكان متحمساً للأتراك - قدم له الدكتور شاهبندر على طريقة المبشرين الأذكياء الذين ينتهزون فرصة ضعف المريض ليبشروا له بالمسيح ، نسخةً من جريدة الشرق وفيها أسماء الشهداء الذين أعدموا فى بيروت ودمشق فى ٦ مايو سنة ١٩١٦ ، فأظهر جعفر دهشة عظيمة ، ولما وصل إلى اسم صديقه سليم الجزائرى قال جعفر : « كفى يادكتور ، والله لأنتقمنَّ لدمه ولدم إخوانه من هؤلاء الاتحاد بين السفاحين مايروى الظمأ » .

وهكذا تمت تلك المأمورية التى كنا نظنها شاقة فى خمس دقائق ورواها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشاهبندر فى خمسة أسطر فى مقتطف إبريل سنة ١٩٣١ (ص ٤٢٩) وانضم جعفر باشا إلى الإنجليز وسافر ومعه مولود مخلص وراسم سردست ونورى السعيد وغيرهم ، ولم يرو لنا الشاهبندر كيفية التبشير لهؤلاء وهل كانت بإبراز جريدة الشرق وإظهار أسماء الشهداء من أصدقائهم أم غير ذلك .. ولكن الدكتور يروى لنا بصراحة أنه سار على هذه الخطة فى تنوير أذهان الأسرى من العرب حتى تمكن من اكتساب العدد العديد منهم وحملهم على التطوع فى الجيش العربى . وقد رأيت بعض العاطلين من السوريين فى سنة ١٩١٧ وكان يطلق عليهم بين الابتسام والاستفهام « أنهم ملحقون بالجيش العربى » .

وكل هذا وغيره من تحطيم أسنان عوده أبو تايه بحجر بيده نفسه ، قد انتهى بتسليم بلاد الشرق العربى لإنجلترا وفرنسا . وعودة أبو تايه الذى يظهر بمظهر الوطنى الشجاع وغيره الذى يظهر بمظهر النادم الآسف ، قد أكلوا من الذهب الإنجليزى حتى تخموا وطفحوا وهم يعلمون أنهم يبيعون ذممهم (!؟) وأوطانهم ولم يكونوا مخدوعين ولا مغرورين إنما كانوا لصوصاً وخائنين قد أخطأتهم حبال المشنقة ! ، يسمونه فكرى ويظنونه لشدة ذكائهم مسلماً متزيياً بالزى الإنجليزى - ويقولون فيما بينهم « مادام لورانس وفكرى معنا الإسلام بخير!!» .

ونجحت خطط لورنس فوق ما كان يؤمل فأدركه الفرح وأسكره الفوز حتى نسى نفسه أو بالحرى نسى ضبط النفس وقال : « بعد عام من هذا اليوم سندق على أبواب دمشق ».. ولما رأى تأثير كلمته على إخوانه « العرب » فى الخيمة تندم وضعف أمله ، ولكن الأيام أثبتت أنه لم يكن يمنى نفسه بأحلام خيالية ، فقد صحت هذه الأمنية بعد ذلك بخمسة أشهر وبلغ دمشق وصار حاكما عليها .

ولا عجب ولا غرابة ، فقد كانت الجنود والمدافع المصرية وغير المصرية تتهال عليه من كل حدب . وكان فى أركان حربه لفيف من أمراء العرب الغُرّ الميامين أمثال شاكر وناصر ، وقد وصف هذا الأخير بأنه فاتح الطرق وقائد الطلائع وهو أول من أطلق رصاصة فى المدينة ، وكان آخر من أطلق آخر خرطوشة فى المسلمية وراء حلب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عندما طلب الأتراك الهدنة وبالجملة فإن الأمير ناصرا لم يخيب أمل لورنس فيه من البداية إلى النهاية ، وأخيرا أرسلت القيادة العليا إلى لورنس ورفاقه جعفر باشا العسكرى ، وقد روى لورنس تاريخه بإيجاز وأنه تميز بين ضباط الترك والألمان ونظم قوات السنوسي وغلب الإنجليز فى موقعتين ثم أخذ أسيراً واعتقل فى قلعة القاهرة وحاول الفرار فسقط ثم اعتقل ، وأخيراً سمع بثورة الصحراء وقيام شريف مكة ضد الترك فأدرك أنه كان مخطئا فى المحاربة فى صفوف الأتراك فانضم إلى الحلفاء فأرسلوا به إلى الجزيرة ليكون قائداً للقوات المنظمة . وكان لورنس متصلاً بالقاهرة وقد علم بوجود أصدقائه الأقدمين هوجارث وجورج لويد (وقد صار فيما بعد لوردا ومندوبا سامياً) وستورز وديدز وغيرهم ممن لعبوا أدواراً مهمة فى سياسة الشرق الأدنى ، واتجهت جميع الأنظار نحو جزيرة العرب وظهر المحبذون للثورة العربية لاعتقادهم أنها الوسيلة الوحيدة للقضاء على الترك .

وكان من هؤلاء المحبذين سير أرشيبلد موراى والأميرال وميس وونجيت باشا ومكماهون ، وفى حين علا نجم لورنس وتحولت أنظار القيادة العليا ورجال السياسة إليه كان هو يسير حافى القدمين على الصخور والرمال الحامية ليدرب نفسه على شظف العيش وليخشوشن قليلا بعد أن أقام ذلك الأمد الطويل بين العرب المتقشفين. وإنك بعد أن قرأت خبر الضباط الذين جاءوا ليحلوا محله ظننت أنه ودع الجزيرة ... كلا . لقد تعلق به الأمراء وشيوخ القبائل والقواد وكل من كان يرفع راية الثورة لأن لورنس أمسى روحها ولايمكن للجسم أن يعيش من غير روح تحركه .

ولكن كان لورنس ينظر إلى العرب بعين الصغار والامتهان كما ينظر إله إلى جنس البشر (ص ٨٣).

ومن الأمراء الذين تقدموا إلى الثورة يعضدونها بعد أن رأوا نجاحها نورى الشعلان أمير الروالة وهو رابع عظماء الجزيرة بعد شريف مكة وابن سعود وابن الرشيد . وقد حكم قبيلة عنازه ثلاثين عاما بقوة خلقه وقد اكتسب شهرة البأس لأنه قتل اثنين من إخوانه وكان نورى لايزال مواليا للترك ولكنه لما رأى انهزامهم

وانتصار الثورة بدأ يتقرب إلى لورنس ورجاله ٠

وفى الحق إنها لم تعد ثورة ، إنما أصبحت حربا منظمة قد حشد الإنجليز لها أسطولا وقواداً وجيوشا جرارة وجهزوها بكل وسائل الحرب وعتاده ٠ لأن الثورة حركة تبدأ ضعيفة وتتقوى بالعناصر الداخلية مثل ما صنع مصطفى كمال فى الأناضول ، فإنه لم يستعن بأحد من الخارج ٠ ولكن هذه الحركة التى بدأت فى بلاد العرب برصاصة الأمير ناصر فى المدينة وبرصاصة الحسين بن على فى مكة قد أصبحت جيشا عرمرما بمدافع كروب والرشاشات وطائرات حربية وأركان حرب وعشرات القبائل والفيالق والقواد والضباط الاختصاصيين ٠

وقد يعلل لورنس موالاة نورى الشعلان للترك مع الضمان للثورة تعليلا بديعا فيقول إن دمشق وبغداد أهم مراكز أعماله التجارية هو وقبيلته فلو أنه جاهر الترك بالعداء ، فقد يقضون عليه وعلى رجاله ٠ فلذا اختار ان يظهر صداقته لفيصل ولورنس « من تحت لتحت » على أن لورنس لم يكن يطلب الآن من الشعلان مساعدة فعلية إنما كان يطلب حياده حتى يتصل بأعظم محارب عربى فى الجزيرة وهو عوده أبوتايه ٠

وفى أواسط فبراير كانت شهرة لورنس وخيالته قد بلغت أسماع القبائل كلها ، فجاء رؤساءها يتبركون « ويتناولون » ، ففى يوم واحد ورد معسكره خمسة من زعماء الشرارات من صحراء شرقى تبوك ثم جاء ضيف الله أبو طيور ابن عم حمد بن جازى زعيم الحويطات الوسطى ٠ ثم جاء نواف أكبر أولاد الشعلان ثم أبو طجيجة٠ وهكذا أخذ هؤلاء الزعماء يردون ويتشرفون باللقاء والتسليم والتبريك ويخرجون « مجبورى الخواطر » وقد أخذ كل منهم ما فيه النصيب ، ووعد بالحرب وارسال الرجال ٠

وقد روى لى أحد الثقاة أن والى المدينة قابل أحد زعماء العرب ولامه على الانضمام للإنجليز فقال له هذا الأخير : « إحنا ننضم للنيرات (يقصد ليرات) تدفع عشرة نجى معك ، يدفع الإنجنيز(كذا) اثنى عشر نروح معه تدفع خمسة عشر

نيجى معك». وبالجملة فإن القوم ينتهزون فرصة الحرب بين قوتين كبيرتين لتسود بينهم سياسة المساومة للربح . وقد انحصرت تلك الرذيلة فى عرب الجزيرة ولكن عرب العراق لم تدنسهم مثال تلك المطامع الذميمة ، ولازالت نفوسهم شريفة وأيديهم عفيفة طاهرة .

ولما طالت إقامة لورنس بين العرب لم يتمالك نفسه من درس أحوالهم ووصفهم فى نبذة بليغة فى لغته قال (ص ٦٠) « إن البدو شعب عجيب وهم فى نظر الإنجليزى الذى يعيش بنيهم لايحوزون رضاه ولا تعجبه أطوارهم ما لم يكن له صبر واسع وعميق كالبحر . فهم عبيد شهواتهم عبودية مطلقة وليس لعقولهم قوة أو قوام أو أساس ، يسكرون بالقهوة واللبن والماء وذو بطنة ونهم فى أكل اللحوم ويستجدون الدخان بغير خجل . ويقضون الأسابيع فى الحلم بالعلاقات الجنسية قبل أن يحظوا بها وأسابيع بعدها فى تذكرها والحنين إليها . ثم يقضون الأيام فى تهييج أنفسهم وسامعيهم بأحاديث الفسق وأخبار الفجور ، ولو أن ظروف حياتهم سمحت لهم بحياة المتعة ، إذن لكانوا قوما عاكفين على الشهوات البهيمية لا يكفون عنها ولا يلتمسون فى الحياة سواها ، فقوتهم هى قوة الرجال الذين نجوا من الفتنة بفضل مركزهم الجغرافى ، فعفتهم ليست وليدة أخلاقهم ، ولكنها ثمرة ابتعادهم عن الظروف التى تهىء لهم الاندفاع فى الشهوات وتلك عفة إقليمية لا أخلاقية . ومن العفة أن لاتجد . وإن فقر بلادهم جعلهم بسطاء قادرين على الاحتمال والصبر فى الشدائد ولو أرغموا على حياة المدنية لسقطوا كغيرهم من الشعوب المتوحشة فريسة لأمراض التوحش كالدناءة والسحر والشهوات والقسوة والغدر فى المعاملات والنفاق والمداجاة ».

هذا رأى الكولونيل لورنس فى أصدقائه البدو الذى انضم إليهم لينقذهم من ظلم الأتراك ويرفع راية الحرية فى جزيرتهم ، وبعد أن نكث الدمّل قليلا ، ليخرج بعض القيح الذى ينز فيه ، وتكلم مع نفسه وقرائه بصراحة فى أخلاق العرب ، انتقل إلى وصف أحد أبطالهم وهو ذلك الشهم المنتظر عوده أبوتايه المحارب الأعظم

الذى كان ينتظره فيصل نبى الثورة ولورنس ملهم الثورة وموحيها .

ولم يكن عوده ليتأخر عن الورود بعد أن حضر غيره من الزعماء ... وقد كان لمجيئه طنّة ورنّة فى خيام فيصل ، فقد فرح فيصل وبشر لورنس قائلا : « لقد جاء عوده » فأجابه لورنس مستفسرا « هل هو عوده أبوتايه ؟ » فلما علم أنه هو استعد لمقابلته بعين الطريقة الرومانتيك التى قابل بها فيصل وهو نبى الثورة فى نظره . وهى طريقة شعرية مسرحية تعودها كتاب القصص فى بلاد الإنجليز كقولهم :

« فلما دخلنا القاعة الكبرى رأينا وياهول ما رأينا ! رأينا امرأة مديدة القامة بهية الطلعة واقفة كأنها مسحورة وكانت عيناها ... إلخ » .

ولم يشذ لورنس عن هذه القاعدة ، فإننا لم ننس وصفه لفيصل وقد قال إنه روح الثورة وبطلها ونبيها والآن قال عن عودة مايأتى :

« وحينئذ دخل علينا فى الخيمة رجل طويل قوى ذو وجه شاحب هزيل (وكل من قرأ تاريخ هولاندا يتذكر وصف رئيس بلدية لاهاى عند تسليم القلعة للأسبان ولورنس يصف بعض زعماء العرب بشىء من محفوظاته فى المدرسة) وسحنته هووية فاجعة . هذا هو عوده ، ومن ورائه جاء ولده محمد الصغير . فتراه طفلاً فى نظراته وهو فى الحقيقة لايزيد عن أحد عشر ربيعاً . فنهض فيصل من مقعده ودنا منه عوده وقبض على يده وقبلها وقال بصوت أجش : « السلام على مولانا أمير المؤمنين » .

وهناك فى ظلام تلك الخيمة أخذ الرجلان العظيمان نبى الثورة وبطلها المحارب (لم يكن عودة قد أطلق بعد خرطوشة ولا جر سيفاً) يتبادلان النظرات العميقة المؤثرة . ثم جلسا وقدّمنى فيصل إلى عودة فقيدنى بنظرة خارقة وكلمة متزنة بليغة فى سجل ذاكرته » .

لابد للورنس أن يلجأ لهذا الأسلوب الميلودرامى عند وصف مثل هذا الموقف ليعيره القوة المرغوبة . ولكن عودة كان يدخر ماهو أعجب من أسلوب لورنس وأغرب وأدخل فى باب الدهشة . وإليك البيان :

استقر المجلس بلورنس وفيصل وناصب وفايز والشريف ناصر وعوده وغيرهم ٠ وكان لورنس يروى لهم أخبار جيش الأمير عبد الله ٠ وكان هذا المجلس فى الوجه وأخذ لورنس يروى خبر قطع السكة الحديدية وإذا بعوده يقفز من وسط المجلس ويخرج صارخاً : « أستغفر الله » ، فاندهش الجماعة وأخذوا يتبادلون نظرات العجب والذعر ، وطبعاً يتبادر إلى ذهنك أن عودة قد أسف على مالحق بالترك أو أنه أراد أن يعدل عن فكرته فى تعضيد الثورة ٠ فقلق الحاضرون ٠ فإذا هم يسمعون خارج الخيمة دقاً فخرجوا وراء عودة يستبينون الحقيقة ٠ فرأوا عودة منحنياً على حجر يكسر أسنانه ويقول : « أستغفر الله لقد نسيت ! إننى آكل خبز مولاى بطقم أسنان تركى »٠ فلما سألوه الخبر قال : إن جمال باشا صنع لى هذه الأسنان الصناعية ، فلايجوز لى أن أستعملها فى أكل خبز مولاى أمير المؤمنين» ، (يقصد فيصل)، فدهش الجماعة من هذا العربون للصداقة ووثقوا بالرجل الثقة كلها وقد تحمل المضغ على لثته المجردة من الأسنان إلى أن بلغوا العقبة وأخذوها وهى أولى المحطات الحربية الموصلة إلى دمشق فأوصى لورنس به خيراً فأرسل له سير وينجيت طبيب أسنان صنع له طقماً ٠ وهنا يقول لورنس برشاقة ونكتة عميقة «ومازال صابراً يتغذى بنصف طعامه إلى أن استطاع المضغ على طقم من صنع الحلفاء » غير أن محارب الثورة ، لم يبق حائزاً تلك الصفة فى نظر لورنس ، فقد وصفه بعد قليل بصلابة الرأس وشدة العناد والطيش وأنه كان من أهل السطوة الذين يغزون ليسرقوا وأنه كان يبدو فى بعض الأحيان كأن به مساً من الجن يشتعل ناراً ويفيض شراً ، فيروى قصصاً غريبة عن حياته الخاصة ولكنه كان كالطفل فى البساطة والتواضع ٠

وقد دفع فيصل فى مايو سنة ١٩١٧ حوالى عشرين ألف جنيه مرتباً لبعض الجنود ٠ ولكن لا ريب فى أن لورنس دفع مئات الألوف للزعماء وهو يقول ذلك بصراحة فى كتابه « فقبض نورى الشعلان ٦٠٠٠ جنيه هدية لتسامحه فى مرور الجيوش فى أرض سرحان ولكن أبو تايه وغيره أخذوا عشرات الألوف ٠ وقد وافق

وجود لورنس فى أرض سرحان انتشار الثعابين والأفاعى بكثرة مدهشة ، وقد كانت تلك الزواحف من كل نوع ولون ومعظمها سام وكان رجاله يقتلون فى كل يوم نحو عشرين ثعبانا.

وكان لورنس قد حفظ طريقة عودة فى رواية أحاديث مغازيه ومخازيه فصار يقلده فى قوله « بالله وربى بالله الحق » فكان عوده أول الضاحكين على تقليد نفسه. ولم تكن مجالس هؤلاء « الثائرين » لتخلو من البحث العلمى فى النظارات المقربة للكواكب واكتشاف الشموس والسيارات الجديدة وتفوق علماء الفلك فى الغرب ، وفى ختام هذا البحث كان عوده يميل على صاحبه ورئيسه لورنس ويهمس فى أذنه «لابد أنك حاصل لى على مكافأة حسنة من فيصل عندما نأخذ العقبة» ، وكانت العقبة هى قبلتهم الأولى قبل بلوغ دمشق ، وهى الغاية التى كان ينشدها لورنس ويمنى نفسه بها.

وحتى الساعة لم نر عودة محارباً ولا خائضاً غمار موقعة من المواقع ، على الرغم من أن لورنس وصفه بأنه المحارب الأعظم للثورة، وطبيعى أن لا يشترك ذلك البدوى فى القتال مادامت الحرب بين جيش الترك المنظم وبين القوى المنظمة التى يقودها فيصل ويرأسها جعفر باشا العسكرى . فليست الحرب حرب سيوف ورماح ولكنها حرب بنادق ومدافع ودبابات وطائرات . ولكن جموع القبائل كانت تسير فى ركاب الجيش المنظم لتقوم بالاستطلاع أو بعض المناوشات ولتدخل اليأس فى قلوب الترك بإقناعهم بأنهم فى أرض معادية ، وكل عربى فى الجزيرة يبغضهم ويطاردهم ويتجسس عليهم . ولكن إذا بدت شرذمة من فلول الترك فإن عودة أبوتايه كان يطلق عليها الرصاص هو ورجاله فإذا سقط جندى تركى جردوه من ثيابه . وكان عوده لا يصاب بجرح كما هى حالة بعض المجازفين فى الغزوات الفردية وقد أخبر لورنس أنه لا يصاب لأنه محجّب وقد اشترى تميمة منذ ثلاث عشرة سنة بمائة وعشرين جنيها وقدمها للورنس يفحصها فإذا هى نسخة مصغرة بالفوتوغرافيا من المصحف الشريف مطبوعة فى جلاسجو وثمنها ثمانية عشر بنساً . وكان لورنس يحمس عوده

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ورجاله وينسب إليه كثرة الكلام دون عمل ، فلما وقعت موقعة صغيرة بين شرذمة من الترك المنهزمين في واد سحيق بينما كان « الثائرون » في أعلى الجبل أبلى عوده ورجاله بلاءً حسنا ، ولكن تلك الموقعة كانت نتيجة لتحريض لورنس لعودة فقد أنّبه بكلام كأنه رشقه بأحجار ، فجن الرجل وأراد إظهار شجاعة وجازف مجازفة طائشة ولكن كانت نتيجتها حسنة فلم يقتل من الثائرين سوى محاربين اثنين في حين أن الترك فقدوا عددا وفيراً من رجالهم ، وجاء عودة أمام لورنس يفتخر بمحاربته ومحاربة رجاله وقد ترك الثائرون عشرين جنديا تركيا جريحاً يموتون موتا بطيئا بجوار مجرى ماء ، حتى إذا أدركهم الموت استطاعوا إطفاء ظمأهم ، ولكن العرب قد جردوا الموتى والجرحى من ثيابهم ونزعوا أسلحتهم ولبسوها وساروا في ركاب لورنس كأنهم جزء من الجيش التركي .

وكان الترك قد أخلوا مراكزهم وحشدوا كل جنودهم تقريبا في الخضراء وهي مكان محصن بالخنادق غايته حماية العقبة من هجوم عن طريق البحر الأحمر . ولكن من سوء حظهم لم يفكر الإنجليز مطلقاً في هجوم بحرى على العقبة . هكذا يقول لورنس ولكن لعلهم حشدوا المراكب الحربية في خليج العقبة ليخدعوا الترك بالهجوم البحرى ليحشدوا جميع قوتهم حيال السفن ويخلوا نقط الدفاع البرية عن العقبة فيجيء الهجوم الذي يقوده لورنس ومن معه من الشرق والجنوب موفقا، وهذا هو الذي حدث . وقد أدت المراكب الإنجليزية «للثائرين » خدمة حسنة فإنها نقلت إليهم المؤن والذخائر والجنود وشدّت سواعدهم لقربها منهم واستعدادها لنجدتهم بأسرع فرصة ثم إنها أوهمت العدو فجعلته يخلى الجبهة البرية للعريش .

وقد بلغوا العقبة في ٦ يوليو بعد شهرين من مسيرهم من الوجه ، وقد سلكوا إليها طرقا ودروبا غير مسلوكة ، ولم يلتقوا بأحد من جنود الترك إلا نادراً ولم يحاربوا فعلا إلا في مناوشة أو مناوشتين لأن الطرق التي سلكوها كانت خالية من العدو ، ولا يخطر ببال العدو أن يعسكر فيها أو يدافع عنها . فهي وديان وجبال وبضعة آبار وليس بين الوجه والعقبة ما يسترعي اهتمام الجيوش .

وقد كان للاستيلاء على العقبة شأن عظيم لأن لورنس كان منذ أشهر يمنى نفسه ببلوغ هذه الأمنية ، وهى فى نظره باب دمشق . وكان جيش الثوار يبلغ خمسمائة رجل ومعهم ٧٠٠ أسير وينتظرهم ألفان من رجال القبائل الذين ينتظرون المدد والمال والطعام .

وقد أصبح وفاض لورنس خاويا بعد أن انتقل ما كان معه إلى جيوب المشايخ، فصمم على الذهاب إلى السويس للاتصال بالقيادة العليا فى القاهرة فقطع المسافة من العقبة إلى السويس على ظهور الإبل بغاية السرعة ، ثم هو يروى لنا كيف بلغ السويس ونزل بالفندق وهو فى ثيابه العربية وكيف أخذ الحمام الأول وتخلص من الحشرات التى سكنت جسمه وكيف أن جواسيس الجيش كانوا يقظين فأبلغوا خبر وصوله قبل أن تطأ أقدامه عتبة الفندق .

ثم ركب القطار من السويس إلى القاهرة ولقى فى الإسماعيلية فريقا من كبار ضباط الجيش مثل بورمستر ونفيل والأميرال ويميس . وعلم لورنس أن الجنرال موراى قد ترك القيادة بعد موقعة غزة الشهيرة وحل محله الجنرال اللنبى . وكان لورنس يعلم أن اللنبى حديث العهد بالميدان الغربى ولعل اختباره الحربى فى الغرب لا يسهل له إدراك الموقف على حقيقته فى الشرق . ولكنه اعتمد على حسن طالعه وواصل السفر إلى القاهرة بعد أن روى لهؤلاء الضباط العظام خلاصة أعماله وأخذ منهم وعداً بتعضيده .

فلما بلغ القاهرة ووصل إلى فندق سافوى فاجأ جنرال كليتون منكباً على العمل فى مكتبه فدنا منه فرفع الجنرال وجهه من الورق ونظر إليه وأنكره لتغير ملامحه بعد الشدائد التى رآها وأشار بيده إشارة إبعاد وقال بالعربى « مش فاضى » فنطق لورنس فتنبه كليتون ، ورحب به وتلقى تقريره واستفسر منه بإيجاز ثم أخرج من خزائنه ستة عشر ألف جنيه ذهبا وكلف حارسا بنقلها إلى قطار السويس الذى يصل فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكان من الضرورى أن تصل تلك النقود إلى العرب بأسرع فرصة ليتمكن الأمير ناصر من سد ديونه، فقد دفعوا لبعض الرجال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أوراقاً بإمضائهم بمثابة صكوك على الخزينة فلابد من الوفاء بقيمتها لحفظ كرامة الإمضاء .

وكانت هذه المرة الأولى التى قبض فيها العرب سندات خطية لأنهم لايعرفون إلا الذهب وهم لا جيوب فى ثيابهم وليس فى خيامهم خزائن يحفظون فيها تلك الصكوك.

ولما التقى لورنس باللنبى كانت مقابلة عجيبة ، فإن اللنبى دهش لرؤية لورنس بعد الذى سمعه عنه وأدهشه أن يرى ذلك الضابط الشاب اللابس ثياب العرب الحريرية ، ويسير فى نعال من الجلد بدون جوارب وقد لف على رأسه كوفية وعقالا . ثم هو لا يتكلم عن المدافع البعيدة المرمى التى تعود اللنبى أن يسمع حديثها ولكنه يقنع الجنرال العظيم بقدرته على هزيمة الأعداء بمجرد التحريض اللفظى والخطابة إذا أعطته القيادة العليا ذخائر وأسلحة ومائتى ألف جنيه (٢٠٠٠٠٠ جنيه) يتمكن بها من إقناع رجاله العرب والتسلط عليهم .

وكانت دهشة اللنبى عظيمة أثناء تلك المقابلة ، وقد أصغى بين مصدق ومكذب لحديث لورنس ، الذى صار فى نظره لغزاً حتى كاد يرتاب فى صدقه ويحسبه محتالاً، ولكن لورنس لم يكن بطبيعته خجولاً ولا متردداً فاستمر فى حديثه ينشر بين يدى القائد العظيم خريطة بلاد العرب وسوريا الشرقية ويروى له ما تم على يديه حتى الساعة ، وأخيراً نظر إليه اللنبى وقال : « حسن سأفعل لك ما أستطيع ».

وطبيعى أن يدهش لورد اللنبى وهو حديث العهد بالشرق ، ويعتبر الكلام الذى سمعه لغزاً معضلاً . ولكن حل اللغز قد أبداه لورنس نفسه بطلب ٢٠٠٠٠٠ جنيه، وقد عرف اللنبى فيما بعد عندما استولى على القدس وسواها قوة المال فى الحروب الشرقية لاسيما عند عرب الجزيرة .

وإن كان لورنس قد أوجز فى الحديث مع اللنبى فإنه لم يخف شيئاً عن رئيسه المباشر كليتون بل قال له بصراحة إننى أخذت العقبة بناءً على خطتى الشخصية وثمرة لجهودى التى بذلتها وحدى . وصرح برغبته فى أن يكون رئيساً لا يخضع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لأحد لأنه يؤمل أن يحرز مفاخر أخرى ، وقد لاتنال تلك المفاخر إذا كان مرؤوساً لأن طبعه يأبى الخضوع والطاعة ، ولكن كليتون مع تسليمه بجهة نظره ، اعترض بصعوبة تعيينه قائداً وهو فى رتبة أقل من رتب بعض الضباط المرافقين للحملة فإن هذا يحنقهم ويحدث الخلل فى الصفوف ٠

واقترح كليتون تعيين جويس قائدا للعقبة فرضى لورنس بهذا التعيين وفرح به ولعله كان يبغض شخصاً آخر أو ينفر من رياسته ، وربما كان الاسم لجويس والفعل للورنس ٠ فلا بأس من أن يكون هو الرئيس الفعلى ومسائل الشكل لاتهم رجالا مثله لأن كل العرب يعرفون من هو الرئيس الحقيقى ومن هو الذى يدفع الذهب ٠ وصاحب الوليمة هو أمفتريون ٠

وجاءت شكوى من فيصل أيضا ، فهو الآخر يريد الخروج عن رياسة المنقذ الأعظم ، لأنه خرج عن دائرة نفوذه فى الجزيرة وانتقلت الحركة إلى فلسطين فلا لزوم لخضوعه لمكة وأصبح من اللائق أن يعين قائداً للحلفاء تحت قيادة اللنبى ، وقد اتفق على هذا الرأى كليتون وونجيت ولم يبق إلا جانب الملك حسين يخشون رفضه ولورنس يصفه بالعناد وضيق الرأس وشدة الارتياب وقد لا يضحى بمظهر بسيط من مظاهر الغرور فى سبيل الوحدة العامة والعمل المنتج « فأخذت على كاهلى مأمورية إقناع الملك حسين بعد مقابلة فيصل ، وقد تسلحت بخطاب بليغ كتبه الجنرال وينجيت نفسه »٠ ولما قابل لورنس الملك حسين تمكن من إقناعه ثم استبان من حديثه سوء الظن والغيرة التى بدأت تتكون فى بلاط مكة ضد فيصل ، ومما يفسح المجال لأهل الدسائس والوشايات بين الشريف وأحد أولاده ٠

وبينما كان لورنس يدنو من الفوز فى حل مشاكله فى جدة حيث كان يتحدث للملك حسين ، ورد عليه نبأن برقيان من مصر أقلقا راحته وأزعجاه ، أولهما ينبىء بأن الحويطات قد خانته واتصلت اتصالا خائنا بمعان (مقر الجيوش التركية) ، والثانى يخبره بأن عوده هو حلقة الاتصال بين القبيلة العربية وجيش الترك ٠ ولم يكن عند لورنس لمثل هذا الداء إلا دواء واحد ، فقد أسرع بالسفر إلى العقبة وفاجأ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عوده ومحمد الدهيلان وزعال فى خيمتهم يتحادثون ، فتبادلوا التحية والمزاح ثم قدم لورنس لهم جوائز « جلالة الملك » وأخبرهم أن ناصر أخذ أجازة شهر يقضيه فى مكة ففرح ناصر بالأجازة ليزور أهله وكافأ لورنس على ذلك بأن باعه غزالة ناقته الشهيرة التى ربحها من الحويطات ، فصار لورنس وهو مالك غزالة ذا شأن عظيم فى نظر عودة أبو تايه وأخيراً أفضى لهم لورنس بما علمه من خيانتهم فضحكوا جميعا ماعدا محمد الدهيلان فقد بدا عليه الامتعاض ، ولكن عوده كان جديراً بالموقف الحرج فأقر ضاحكاً أن محمداً أخذ ختمه وكتب خطابا إلى حاكم معان يعرض عليه خدمة عوده وترك خدمة الشريف ، فأجاب الحاكم التركى بفرح شديد وواعداً بالهدايا والمنح ، فكتب إليه محمد طالبا شيئاً على الحساب ، ولما وصل رسول الحاكم التركى ومعه الهدايا والنقود قابله عوده وسلبه ما معه وجرده من ثيابه ورفض أن يعطى محمداً شيئاً من تلك الغنيمة الباردة ، وضحك الجميع ضحكا عاليا من تلك النكتة ، ولكن لورنس لم تخدعه الظواهر وظن أن وراء الأكمة ما وراءها . فانتهز فرصة الاعتراف وأخذ يعيد على أسماعهم جملاً من المكاتيب التى تبودلت بين الحاكم التركى وبينهم ليدلهم أنه علم بنصوصها وأنه لايحدث فى الجزيرة شىء لايقف عليه وأنهم وهم رجاله وأنصاره واقعون تحت مراقبة شديدة . وأخبرهم أن فيصل قادم بجيشه وأن اللنبى قد أرسل المدد من بنادق ومدافع ومفرقعات ونقود إلى العقبة وعرض على عوده مبلغا تحت الحساب من المكافأة الكبيرة التى سيعطيها له فيصل عند وصوله فتقبل الهدية بسرور وهو يعلم أنه سينال ربحا وفيراً من فيصل وإذا خانته المصادر الأخرى فإن صلته بالترك لم تنقطع . وعندما خلا لورنس بنفسه أرسل محمد الدهيلان إليه بخادمه عبد الرحمن فأسرَّ إليه أن مولاه يكون مسرورا لو أنه تناول شيئاً خاصاً بنفسه بدون علم عوده ، فلبى لورنس طلبه وبعد قليل وصل المدد من مصر تحت إمرة جوسليت فيلق من العمال المصريين وألوف من الجنود .

وأخذ لورنس يفكر فى نسف القطارات الحربية التى مازال الترك يرسلونها على خط حديد الحجاز فأسعفه الجنرال رايت رئيس فرقة المهندسين بأدوات كهربائية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنسف الديناميت بواسطة أسلاك من الحديد وأرسل إليه جنديين من مهرة الميكانيكيين هما يلز وبروك من مدرسة الزيتون الحربية ونقلت لهم مركب حربية سائر أدوات الديناميت والنسف اللازمة ، وكون لورنس فرقة من العرب والإنجليز للتجربة الأولى ، وكانت الطائرات الحربية تلقى القنابل على فلول الجيش التركية السائرة فى بعض نواحى الجزيرة وقد فقد عايد الشريف الحارثى بصره من قوة الضوء فى الصحراء وجاء إلى لورنس يشكو عماه فلمسه لورنس فإذا هو يرتجف من الحمى والألم وأخبره بأن حرارة الشمس قد أحرقت بصره ولكنه استمر يركب بعيره ويسير فى كنف الحملة .

وفى شهر سبتمبر حاولوا نسف القطار الأول فدفنوا الأسلاك ووضعوا الأداة الجهنمية تحت القضيب وقد اقتضى ذلك عملا مستمراً خمس ساعات وعندما يدنو القطار يعطى أحدهم إشارة بتحريك يد حديدية . وقد طلب سالم عبد فيصل أن يحوز لنفسه هذا الشرف العظيم وقد قضى نصف نهار فى التمرين على هذه العملية حتى أتقنها .

فلما ظهر القطار أخذ سالم يرقص ويصرخ من شدة الفرح ويدعو ربه أن ينجح فى هذا العمل ، وكان القطار مسحوبا بقاطرتين فلما بلغ سائق القاطرة الثانية النقطة المعنية رفع لورنس يده إشارة لسالم فحرك اليد وحدثت الفرقعة ونسف القطار وثار النقع وانطلق الدخان الأسود ثم انجلت الحال عن القطار ممزقا والرجال صرعى وإذا بالجسر الذى كان يمر عليه القطار قد زال ووقعت فى حفرته المركبة الأولى التى كانت ملآنة بالمرضى من جنود الترك وقد قتلوا جميعا ماعدا ثلاثة أو أربعة وتكومت أجساد المجروحين فوق القتلى وكان بعضهم يصرخ في بحران الحمى قائلا «تيفوس»، فعاد لورنس أدراجه بعد أن أغلق عليهم باب المركبة ، وقد أخرج القطار المنسوف أثقاله من ثياب وفراش وأدوات منزلية وساعات وأوان من كل صنف ونوع ، وبجانب الطريق كانت ثلاثون أو أربعون امرأة سافرات هن زوجات بعض الضباط وكن المسكينات يمزقن ثيابهن ويقطعن شعورهن من شدة الألم والرعب ، وقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقد بعضهن عقولهن . أما العرب فلم ينظروا إلى النساء التركيات وأخذوا ينهبون ويسلبون محتويات القطار ويحملون الجمال بكل ما وصلت إليه أيديهم . ولم يعد أحد منهم يبحث عن جملة ليحمله ، بل اختلط الحابل بالنابل وصار كل نهاب يحمل أقرب الجمال إليه وهو يعتبر الأسلاب ملكه وقد أباح لغيره أن يستعمل جمله .

وقد لمح بعض النساء أن لورنس كان واقفا غير منكب على النهب فأدركوا أنه الرئيس أو الزعيم فدنون منه وأخذن يتعلقن بأهدابه ويطلبن منه الرحمة والمعونة ، فطمأنهن واخبرهن « أن كل شيء حسن » ، ولكنهن لم يتركنه حتى خلصه منهن بعض أزواجهن من الضباط الذين مازالوا على قيد الحياة . وقد ضربوا زوجاتهم وركعوا أمامه وتشبثوا بأقدامه طالبين العفو من الإعدام ، ولكن هذا المنظر بدلاً من أن يثير عاطفة الرحمة فى نفسه فقد ملأه احتقاراً وازدراءً للأتراك المكسورين . وقال إنه لم يرَ أذل من التركى المهزوم الخائف على حياته من الموت .

فأخذ يركلهم بقدميه العاريتين على قدر استطاعته حتى نجا من إلحاحهم واسترحامهم .

صدق من قال « ويل للمغلوب !! »

أما سالم الذى أطلق اللغم فُقد فقد وظنوه قتيلا ، وأخيراً وجدوه مجروحا فى العمود الفقرى .

وقد تبقى الطبيعة أحيانا على أمثاله .

وعاد لورنس ومن معه إلى العقبة يحملون الأشياء الثمنية التى غنموها من القطار ، ولا ندرى ما حل بالنساء ولا بالجرحى أو الأسرى . وأسرع الجنديان اللذان قاما بتجربة نسف القطار إلى القاهرة بعد أن هيىء لهما النصر فى موقعة مهمة وهما منفردان ، وعاد لورنس ينقل إلى العرب أن السكك الحديدية قد أصبحت تحت رحمته بفضل طريقة النسف التى تعلمها وجربها بنجاح .

وعندما بلغوا العقبة وصل الأمير عبد القادر الجزائرى حفيد عبد القادر الشهير

وقد جاء متقرباً إلى العرب ، فسبقه إليهم تلغراف من الكولونيل بريموند يحذرهم من خيانتـه وينبئـهم بأنه جاسوس فى خدمـة الأتراك ، ولكن فيـصل قال إنه يعلم أنه مجنون ولكنه صادق وأمين فاستخدموه بحذر ٠ وعمل لورنس بنصيحة فيصل واعتقد أن عبد القادر لا يعيبه إلا تعصبه الدينى وأن جنونه ناشىء من تحمسه الدينى ومن غـروره فى نفـسـه فكان يحـقـد على لورنس لدينه ولأن العـرب يحـتـرمـونه أكـثـر من احترامهم إياه٠

وفى يوم من الأيام جاء عوده وانحنى على أذن لورنس وهمس فيها « احذر من عبد القادر » ، وكان العرب يقبلون على لورنس والشريف على الذى حل محل ناصر فى غيبته ويصرخون قائلين : « اللهم انصر الشريف على واورانس بشير العمل! » ٠

وأخيراً طُلب لورنس إلى فلسطين فسافر إليها بالطيارة وقابل اللنبى ، وجاء نبأ بسقوط أورشليم واستعد اللنبى لدخولها دخول القائد بطريقة رسمية تخيلها دماغ الكاثوليكى مـارك سـايكس ، وقـد تفـضل اللنبى على لورنس بأن عينة أركـان حـرب للجنرال كليـتون فـى يوم دخول أورشليم فـأعدوا له ثياباً تجـعله فـى رتبه الماچور فى الجيش الإنجليـزى ووضـعـوا على رأسه خوذة من النحـاس وعند مروره بباب يافا فى ذلك اليـوم المشـهـور شـعـر بأن هذه اللحظة أعظم مـا مـر به من حـوادث الحـرب ٠ وناهيك بفتح باب المقدس ، فى تلك الحرب الصليبية الأخيرة !!

ولما عاد لورنس إلى العقبة كان صيته قد ذاع وانتشر فـخاف على حياته وألف حرساً شـخـصـيـا يحـمـيه من حـوادث الاعـتـداء لأن الاتراك والألمان صاروا ينسـبـون الزعامـة والقياد فى الثورة العربية للإنجليز (وهل فى هذا شك ؟) كما كان الإنجليز ينسبـون الأعـمـال الحـربيـة التى يقـوم بهـا الترك للألمان : وكان الترك يدفـعـون مـائة جنيـه ثمنا لكل ضـابط إنجليـزى ولما سـقطت العـقـبـة ارتفع ثمن رأس لورنس إلى عشرين ألف جنيه حيا وعشرة آلاف جنيه مقتولا ٠

وإن كـان لورنس شـجـاعـا إلا أنه خـشى مـطامع العـرب فـجـعل حـوله حـرسـا من المتشـردين والخـارجين على القـانون وأغدق عليـهم العطايا فكانوا لا يطيـعـون أحـداً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سواه ويفدونه بأعمارهم . وقد استفاد لورنس من عداوات القبائل ، فكان ذلك مانعا من اتحادهم ضده وكان التفريق بينهم سائدا ، فكانوا يبغضون بعضهم بعضاً ، ويتقدمون إليه دائما بالوشايات ضد بعضهم بعضاً وقد مات منهم ستون فى خدمته.

وقال إن نورى سعيد كان رئيس أركان حرب جعفر باشا وكان يتقن ضرب المدافع الجبلية .

وفى أوائل سنة ١٩١٨ ترأس زيد على الثائرين فكافأ عودة أبوتايه ودفع له ورده إلى صحرائه . ثم دارت معارك حول طفيلة ورسم جعفر باشا خطة لم ترق فى عين لورانس ولم يكتف لورانس بانتقاد خطة جعفر بل أخذ ينتقد خطة الأتراك أنفسهم فى محاربتهم حول طفيلة وقد هاجوا سخطه وغضبه وعكسوا آماله فصمم على الانتقام منهم . وقد علم أن الجنرال حامد فخرى قائد الفيلق الثامن والأربعين فى قطاع عمان جمع أركان حربه وأمر كل رجل بالهجوم وقال إنه قضى أربعين عاماً فى الجندية ولم ير ثائرين يحاربون كهؤلاء (يشير إلى رجال لورنس وهذا ثناء خفى) ولكن فرصة الأتراك قد ضاعت ونجحت خطة لورانس التى رسمها بنفسه بعد أن انتقد خطة جعفر باشا .

وتبين أن لورانس كان يقود فرقة من الأرمن كانوا مسلحين بالخناجر وكانوا مختبئين عن العرب ، فلما رأوا الدائرة تدور على العرب جردوا خناجرهم ونظروا إلى بعضهم شزرا ورطنوا بعض الرطانة التركية وهجموا على فلول الأتراك يذبحونهم وينتقمون لأبائهم وأمهاتهم . ولكن هذه المعركة لم يكن لها ثمرة ولا أثر فى نتيجة الحرب ، وقد ضحى لورنس بسدس قوته فى سبيل القضاء على ألف تركى . أما الأرمن فإنهم لم يبقوا على أحد من الترك فأجهزوا على الجرحى وسلبوا الغنائم . وكان لورنس يود أن يضع حداً لتلك المذبحة ولكنه كان متعباً فلم يتمكن .

وأخيرا وصل إليه ثلاثون ألف جنيه من العقبة وقد نقلت فى أكياس كل كيس منها يحوى ٢٠٠٠ جنيه ويزن ٢٢ رطلا .

وكان اللنبي يدعوه إلى فلسطين ليستشيره وقد أفضى إليه أن الحلفاء فى حاجة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى الانتصار فى الغرب ولابد لألنبى من أخذ دمشق وحلب بأسرع فرصة ليقضى على تركيا ويخرجها من حومة الوغى . فقال له لورانس « لابد لنا أولاً من أخذ معان لنتقى خط الهجوم من عمان فلابد لنا من النجدة والمعونة فاقتنع اللنبى برأيى وعدت إلى العقبة حيث لقيت فيصل وبشرته بأن اللنبى وضع تحت تصرفى وفى حسابى الخاص ثلاثمائة ألف جنيه مكافأة على البحر الميت وأبا اللسان وذهبت إلى القاهرة وعدت بكل ما كنت أرجو وأرتقب من مال ورجال وذخيرة ».

وكان جمال باشا فى الصلت منتصرا يشنق العرب الذين رحبوا بالإنجليز وكان الترك يطاردون اللنبى من الأردن .

وفى إبريل سنة ١٩١٨ حل على لورنس الصيف السابع فى الشرق .

ويذكر لورنس داوناى أحد الضباط الممتازين بالحنكة والاختبار وقد كان له فضل عظيم فى معارك المدوره ودرعا .

وإذ كان لورنس راكبا فى طريق العقبة وهو يمر بقرية إتم وخلفه ستة حراس بكم لاينطقون يسيرون كأنهم أشباح ، شعر بالحنين إلى الوطن فى وسط تلك الصحراء القاحلة المجدبة ، وشعر بخطورة حياته بين هؤلاء الأعراب ، وقد صار مقصياً عن وطنه وقومه ، وهو يستثمر أعظم مثلهم العليا وحبهم للحرية ليكون ذلك كله إحدى أدوات النصر للإنجليز على أعدائهم ، كل هذا وفيصل فى خيمته مختف عن الأنظار ليبقى الزعيم المهاب ونبى الثورة المقدس !

ولأجل هذا فلا يصح أن يراه الناس وقديما قالوا من وطأته الأنظار وطأته الأقدام .

سرَّ اللنبى من أعمال جعفر باشا قائد جيش العرب الشمالى فمنحه وساماً .

ووصل الخبر إلى أذان المنقذ الاعظم فكذب هذا الخبر فى جريدته القبلة التى كان يكتبها بنفسه ويشرف على طبعها ونشرها وتوزيعها وكتب مقالا جاء فيه :

« منشور ملكى : إن المجانين يصفون جعفر باشا بأنه القائد الأكبر للجيش العربى فى الشمال والحقيقة أنه لايوجد منصب بهذا الوصف ولاتوجد فى الجيش

العربى رتبة أرقى من رتبة يوزباشى وليس الشيخ جعفر إلا كغيره من الجنود قائما بواجبه نحو النهضة » ٠

وقد كتب الملك حسين هذه النبذة ليغيظ الضباط العراقيين والسوريين الذين كانوا يحاربون فى صفوف الجيش العربى لإنقاذ أوطانهم لا ليعطوه الملك والدولة اللذين كان يحلم بهما ٠

فلما قرأ جعفر هذا المنشور تقدم إلى فيصل باستقالته وتبعه سائر الضباط فرفض فيصل هذه الاستقالات وأرسل إلى مكة يحتج وينسب لنفسه أنه صاحب السلطة فى جيش الشمال ، فأجابه المنقذ الأعظم ببرقية يقول فيها إنه خائن وعاق على القانون (ص ٣٤٥) فرد فيصل على ذلك السب بالاستقالة فقبلها المنقذ الأعظم وعين بدله أخاه الأمير زيد فرفضها زيد فصارت برقيات الحسين تترى مضطربة بالغضب والحنق الشديد ٠ وأخيراً اتفق الإنجليز على استرضاء الحسين والحصول منه على اعتذار منهم وتغيير فى نصوص بعض البرقيات ، وانتهت المسألة عند هذا الحد بتدخل اللنبى وويلسون ووساطتهما لدى المنقذ ، وصار لورنس يقطع أسلاك التلغراف التى تصل مدن جنوب فلسطين بمعان ودمشق والمزاريب ، وأهدى فيصل إلى لورنس بندقية مذهبة أهداها إليه أنور باشا وهى غنيمة لى أنفيلد من الدردنيل وأخذت الطيارات الحربية تفتك بفلول الأتراك فى الجبال والوهاد وظهر عوده من جديد وسطا على الغزالة وأسر قطاراً فيه مئتا جندى بعضهم ألمان ، وبلغ نورى شعلان بأنه أخذ ٤٠٠ أسير ببغالهم ومدافعهم الرشاشة ولما بلغوا إحدى القرى التى فعلت بها الحرب فعالها ورقد القتلى مكدسين فى طرقها ، روى لورنس قصة مؤثرة ، فقد نهض من وسط القتلى والأشلاء شبح صغير يحاول الهرب من بنادقهم واسلحتهم فإذا هو طفل لايزيد عن ثلاث أو أربع سنين وقد لطخت ثيابه بالدماء من جرح عميق هائل بين العنق والكتف كأنه طعنة رمح نجلاء ٠

فجرى الطفل (وقد تبيّناه فإذا هوينت) وصرخ بصوت قوى ، جمع فيه كل ما بقى به فى البدن من حياة وقال : « بابا لا تضربنى » ورفع يديه إلى السماء ،

فترجل عبد العزيز وصرخ من أعماق قلبه لأن القرية قريته ولعل الطفلة من قريباته ٠ فانزعجت الطفلة لما رأته وحاولت الفرار ولكن قوتها فارقتها فسقطت على الأرض جسماً ميتا لاحراك به !!

وفى هذه الوقعة لقى طلال حتفه وهو يحارب ليلبى نداء لورنس « أفضلكم عندى من يجىء لى بأكبر عدد من قتلى الأتراك» ٠

ومازال عوده يقتل ويسلب حتى مطلع الفجر ، وكانت هذه الموقعة الأخيرة التى قضى فيها على الجيش الرابع الذى كان واقفا فى طريق لورنس منذ سنتين يعوقه عن تحقيق حلمه بدخول دمشق الفيحاء ٠

وأخيراً دخل لورنس دمشق فوجد هو ورجاله أن على رضا وشكرى الأيوبى قد كونوا لجنة للحكم بعد انسحاب الأتراك ٠ وقد تمكن محمد سعيد وعبد القادر الجزائرى من وضع العلم العربى فوق المدينة ، ولما خرج آخر قائد ألمانى حيّ العلم العربى بتهكم واستهزاء ، وعندما دخل لورنس البلد كان فى ركابه ٤٠٠٠ جندى مسلح وقابلهم عند الفجر رسول من شكرى الأيوبى يهديهم التحية ٠ ولما التقى بشكرى الأيوبى أخبره أنه لم يبق فى جانب الترك أحد سوى الأخوان الجزائرى، فلما رأياهم منهزمين وخارجين انقلبا على أعقابهما ودخلا على اللجنة التى تعمل لفيصل بالقوة وتسلما زمامها ٠

وكانت المدينة هائجة مائجة صاخبة بالفرح للخلاص من الترك ، وفى المجلس البلدى حيث كان ناصر ونورى الشعلان ومحمد سعيد وعبد القادر ، فنهض محمد سعيد وصرخ قائلا : إنهما أحفاد الأمير عبد القادر وشكرى سليل صلاح الدين قد شكلوا الحكومة وأعلنوا سقوط دمشق فى أيدى الحسين ملك العرب ٠ وكان لورنس ينظر إلى ناصر ويطلب إليه بلغة الحواجيب واللواخظ أن يخرس هذا التبجح منذ البداية لأنه استبان ضعف شكرى الأيوبى الذى كان رجلا محبوبا ولم يكن سياسيا ، وفى تلك اللحظة قامت معركة عنيفة بين عوده أبو تايه وسلطان باشا الأطرش واستل كل منهما خنجره ونهض رجال كل فريق للمناصرة أو لوضع حد

لتلك المعركة ، وأخيرا تمكن لورنس من فصلهما ولم يبح لنا لورنس بسر ذلك الاشتباك ولعله كان نتيجة عتاب من سلطان لعودة على الدور الذى لعبه وانقلب العتاب تعييراً على أن خان دولته وبلاده وباع ذمته وشرفه بالمال • واقترح لورنس على ناصر عزل محمد سعيد وعبد القادر وتعيين شكرى مكانهما إلى أن يصل فيصل، وأخيرا عقد اجتماعا وأعلن زوال الحكومة المدنية المؤقتة التى أسسها ناصر وأعلن حكومة عسكرية رئيسها الحربى شكرى باشا الأيوبى ونورى السعيد قائد الجيش وعزمى إدجوتانت جنرال وجميل مدير الأمن العام ، يقول لورنس: فنهض محمد سعيد الجزائرى وسبنى قائلا إننى مسيحى وإنجليزى واستنهض همة ناصر ليشد أزره فلم يحرك ناصر ساكنا • فنهض عبد القادر وشتمنى أقذع الشتم واصفر وجهه غضباً وسخطاً علىّ فلم ألتفت إليه فاشتد غيظه وحنقه وجرد خنجره وهجم علىّ يريد قتلى فكان عوده أسرع من البرق فى الهجوم عليه وتجريده من سلاحه، وتقدم نورى الشعلان وأعلن أن قبيلته الروالة هى من أنصارى • فنهض الأخوان الجزائرى وخرجا من الغرفة بغضب شديد • وقد أوعز بعضهم إلى لورنس أن يأمر بالقبض عليهما وقتلهما فلم يصغ لهذه النصيحة لأنه لم يرد الظهور بمظهر الخوف والضعف ولم يرد أن يعلم العرب بأن القتل الاحتياطى وسيلة من وسائل السياسة •

وجاء فيصل ورأى من حسن السياسة أن يتخلص من أصدقائه فى الحرب لأن الثائر بالأمس لا يصلح لأن يكون اليوم من الرعايا أو من الحاكمين •

وختم لورنس كتابه بسماع الأذان فى الفجر وقول المؤذن « لا إله إلا الله محمد رسول الله حى على الصلاة حى على الفلاح الله أكبر ولا إله إلا الله » ويدعى لورنس أن المؤذن أضاف إلى الأذان « وقد أحسن الله إلينا يا أهل الشام ! » ، وقد نهضوا جميعا للصلاة فى يوم الحرية !!

وللخبر بقية وهى أن فيصل أمر بإعدام الأمير عبد القادر الجزائرى ولا غرابة فقد اقترف فى ساعة طيش وحماسة جريمة الشروع فى قتل لورنس روح الثورة العربية !! •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مذكرات تاريخية عن شئون الشرق الحديثة فى السياسة والعمران[1]

ورد على مدينة السويس من بضع سنوات رجل غامض تحير كثير من أهل البلد فى أمره، وهو يتكلم بعض اللغات الشرقية، ويغلب على ظن الذين خالطوه من أعيان البلد وفضلائها أنه عربى عاش فى أقطار كثيرة كتركيا والأفغان والهند وطاف أنحاء كثيرة ودرس أموراً شتى فى الحياة العامة وقد اتصل به السيد إسماعيل الباز أحد علماء البلد وأعيانها ودوّن كثيراً من مناقشاته وأفضى إلينا بكثير منها ووكل إلينا أمر إفراغها فى قالب يصلح للنشر لتنوير الأفكار لأنه يعتبر أقوال الرجل ورحلته من الوثائق الإنسانية وقد آثرنا أن نبقى معظمها فى أسلوبها الأصلى محافظة على روح التاريخ .

ماذا قال عن لورانس ؟ :

قال : كان الكولونيل لورانس [2] رجلاً قصيراً كبير الرأس «كالكردن رأس بلا بدن» (كذا) وقد سمعته يتكلم بالعربية ويتقن اللهجة البدوية إلى حد ما ... وهو يشبه الشركس بوجهه ، والذى يراه، دون أن يعرف شخصيته يظنه شركسياً. أما أخلاقه فهو ثابت الجنان رزين جداً، داهية فى تفكيره باقعة فى تدبيره لا يغلب عقل مناظره عقله ولا تصل حيلة خصمه إلى غور خواطره ، ويخيل إليك وأنت تحادثه أن دماغه مشغول بألف مسألة، ولكن ذهنه لا يغيب عن المسألة التى يعالجها معك، وقد قرأت فى الصحف الأجنبية أن رجالاً يقدرون على لعبة الشطرنج مع أشخاص عدة ويغلبونهم وهذا الرجل كان من ذلك الطراز، غير أنه جعل رقعة الشطرنج بلاداً

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية ، العدد ٧٩ فى ١٩٣٧/١٢/١٥ .

(٢) انظر مبحث المؤلف عن « لورانس والثورة العربية » ، ص ٤٢٢ - ٤٥٠ من هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبيادقها جنوداً وقلاعها وأفراسها حصون الأمم التى خالطها وحاربها ٠

وكانت خطته أثناء الحرب مرسومة له قبل ذلك بأعوام، فلم يرتجل شيئاً سوى «طرائق التنفيذ» وكانت غايته الأولى والأخيرة تغليب العنصر العربى، وإن كل ما اعتذر به عن خيبة أمله فى تحقيق آمال العرب كان نوعاً من الدهاء السياسى ليستبقى ثقتهم فيه وفى خلفائه، ويظن أن اليأس قد استولى عليه فى أواخر أيامه، وهذا الذى دعاه إلى المجازفة بنفسه حتى ذهب ضحية لدراجة بخارية ٠

المغفور له الملك حسين :

قال عنه :

كان شديد الثقة بنفسه قليل الاختلاط بالعالم الخارجى، لا يصدق ما يقال له اعتداداً بعلمه وفطنته، ولما حدثت واقعة الطائف فى سنة ١٩٢٠ قال : «إنه يخرج الوهابيين بعصاه» ، ومن انتقاده للإنكليز أنه عاب عليهم وجود العاطلين، حتى بلغوا مائتى ألف عامل بلا عمل قائلاً : «لا يوجد فى الحجاز عاطل واحد» ووصلت ثقته بنفسه إلى أن قال يوماً إن بعض قواد الحلفاء ينفذون خططه الحربية التى يشرحها فى جريدة القبلة. وتوفى إلى رحمة الله وهو يعتقد أن ملوك الدول يشرفون على تحرير الصحف التى تصدر فى بلادهم كما يشرف هو على تحرير القبلة. قال محدثنا : وهذا يدل على عظيم تقديره للصحافة وأهميتها فى الشعوب والممالك، حتى تستحق أن يباشر تحريرها الملوك ورؤساء الحكومات. واعتقادى (المحدث) أنه كان مجتهداً وفشل وأنه كان حسن الظن بالإنجليز ٠

شرق الجزيرة العربية :

ساح الرجل حتى وصل إلى دبى وأبو ظبى ورأس الخيمة وقطر والمحمرة والكويت. وعرف رجلاً اسمه محمد دملوك بن أحمد فقال له إنه واثق بنهضة العرب إذا ضحوا بالمال ولم يشغلوا بأنفسهم وأنه قبل الحرب بقليل حاول السلطان تيمور

الاتفاق مع الإنكليز فهاج الشعب ودخلوا إلى «الداخلية» واحتلوا الجبل الأخضر واستقلوا به وتركوا السواحل وفى تلك الفترة أدركهم سليمان باشا البارونى (زعيم الأباضية) [(١)] فنظم أحوالهم المالية والسياسية والاجتماعية وأسس مدرسة وجلب لها المال من الخارج فهاجوا عليه وقاوموه وطاردوه فأسقط فى يده لعدم وجود جواز لسفره وما زال يتنقل حتى بلغ «مسقط» مقر الأباضية وهم أهل فرقته (قال المحدث أهل ملته أو نحلته) .

الشيخ خزعل :

ساعد الإنجليز بأربعين ألف عربى قطعوا خط الرجعة على الترك فى الحرب العظمى فأرغموا على ترك البصرة وتقهقروا . أما شيخ الكويت فقد جعل فى بلاده مستودعاً للذخيرة والسلاح طوال مدة الحرب. وبلاده غنية باللؤلؤ والتمر وتجارة الأسلحة. والحياة فيها أسهل وأرغد من أية بقعة أخرى وتباع فيها أفخر البضائع بربع ثمنها بسبب مرور البواخر التجارية ولا سيما البريطانية .

رأيه فى الإسلام :

سبب نجاح الإسلام أنه جعل من عقيدته حصناً للتوحيد (كذا) وكلما ضعفت شوكته فى كنف قوم نهض به قوم آخرون، لا باعتباره حضارة أو مدنية كما يقول المنافقون والجهلاء ولكن باعتباره عقيدة ، هكذا حصل عند العرب فى الجزيرة. ثم فى سورية (الدولة الأموية) ثم فى بغداد (العباسيون) ثم فى شمال أفريقية (الموحدون) ثم فى الأندلس (المرابطون) ثم فى شمال أفريقية (الفاطميون) ثم فى

---

(١) عن علاقة لطفى جمعه بسليمان البارونى ، انظر كتابى « محمد لطفى جمعه وهؤلاء الأعلام » ، صفحة ٢٥٥ - ٣٦٠ ، عالم الكتب ، سنة ١٩٩١ . (ر.ل.ج).

وعن رسائل البارونى إلى لطفى جمعه ، انظر كتاب حوار المفكرين ، رسائل أعلام العصر إلى محمد لطفى جمعه خلال نصف قرن (١٩٠٤ - ١٩٥٣) ، ص ١٥٦ - ١٦٤ ، عالم الكتب ، سنة ٢٠٠٠م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصـر (الأيوبيون) ثم في إستانبول (العثمانيون) ثم النهضة الحديثة في الفرس والأفغان ومصر .

سورة المائدة واليهود :

احتوت هذه السورة الكريمة على آيات تدل على انفراد اليهود بمعاداة الإسلام وأن النصارى أحب إليه وأودّ وإن كان الاختبار التاريخي قد دل على أن الدول الأوربية وهي مسيحية لم تقل في عدائها للإسلام عن اليهود - وكان وقت التنزيل يظهر اليهود أشد عدائهم في المدينة ، وقد صدق القرآن فإن اليهود عادوا فتألبوا للمطالبة بالوطن القومي. أما الآيات التي ذكرها فمنها :

(١) ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل .

(٢) فبما نقضهم ميثاقهم .

(٣) وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله .

(٤) يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود ...

أما الآية الصريحة فهي :

ولتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع . إلخ ... صدق الله العظيم .

تكهنه بحرب عظمى :

يظن الإنسان أن الحرب الكبرى آخر الحروب وهذا وهم فلا بد من حدوث حرب كبرى مقبلة والإنجليز يعلمون ذلك علم اليقين ولذا تراهم يماطلون في حل المشاكل المعلقة مع المستعمرات والمحميات والدومنيون لئلا تفلت من أيديهم الجنود الأجنبية (الملونة) التي لا يستغنون عنها في حروبهم، كما كان يفعل الرومان ، وقد قال لي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رجل هندى إن إنجلترا تفقد دولتها بالتدريج كما يفقد أحد الأغنياء ثروته بإنفاق رأس المال. فإن زمن الصرف من الأرباح ولى وذهب. ولكنه يقدر لحياتها أواخر القرن العشرين [١].

سبب هبوط الشرق :

فقر الشرق سبب هبوطه وقعوده عن الكفاح السياسى وذلك أن أوربا وضعت خطة حكيمة محكمة ، فقد حببت إلى الشرقيين بضائعها وصناعتها و«خلقت لهم عادات» فى عيشة الترف والنعيم لا يستغنون عنها خصوصاً طبقة المياسير، فهى تستنزف أموالهم التى تخرج ثمناً لهذه البضائع ولا تعود إلى بلادهم، والخرج أكثر من الدخل ، فالفقر «المدبر» هو السبب المباشر لعجز الشرق عن النهوض والكفاح، لأن المال عصب الحياة العامة كما هو عصب الحياة الخاصة .

رأى بعض الطلاب العرب فى ألمانيا :

شاهدت طلاباً من العرب فى المدارس العليا فى ألمانيا قبيل الحرب العظمى كانوا موفدين من الحكومة العثمانية وسمعتهم بأذنى يتحدثون و«يحسدون» المصريين على «نعمة» الاحتلال الإنجليزى ويتمنون ولو بجدع الأنف أن يحكمهم الإنجليز لأنهم شعب راق وأقل المستعمرين ضرراً للبلاد المستعمرة. ولا يفكرون فى الاستقلال والعداء والانتقام من الحكومتين كما يفكر غيرهم - وكانوا يصفون أعمال أنور بالمخاتلة ولاسيما الجمعية [٢] التى ضمت جميع العناصر الشرقية وتأسست فى تركيا سنة ١٩٠٩ .

---

(١) انظر مقال المؤلف « زوال الإمبراطورية البريطانية حقيقة تاريخية طبيعية كانقراض جرم من دورة الفلك » ، ص ٣٦٧ - ٣٧١ من هذا الكتاب .

(٢) المقصود هنا جمعية الاتحاد والترقى العثمانية .

أخلاق الشرقيين :

عجبت لما رأيته من أخلاق الشرقيين فى أثناء الحرب العظمى ، فقد كانوا فى تركيا وألمانيا مظهراً للبغضاء والتحاسد والمعاداة ، ولم يثق الألمان بأحد ممن أقاموا فى بلادهم سوى الدكتور ع.ع.[1] الذى أوفدوه لتركيا ببعض المهام السياسية، ولكنه كان موضوعاً تحت مراقبة دقيقة ولم يقبلوا متطوعاً أجنبياً واحداً فى صفوف جيوشهم الجرارة ، وكنت أرى الشرقيين يثقون بكل أجنبى مادام يبتسم لهم ويظهر لهم المودة. ومن أغرب المناظر الجالبة للأسف ما كابدته بشخصى بين المصريين المقيمين فى برلين وإصطامبول من المجافاة والتباغض حتى أن زعماءهم حاربوا بعضهم بعضاً وكنت أعلم أن كلاً منهم يدون مذكرات يومية، وعندما تنشر هذه المذكرات فلن تجدها محتوية إلا على النقد المرير والفخر واللمز والطعن فى بعضهم بعضاً ، وعندما ذهب الشيخ ع.ج. للإحتطاب لشدة الحاجة فى ألمانيا شمت به بعض أغنياء المصريين بدلاً من أن يساعدوه .

وأن الأذكياء منهم والمشهود لهم بالكفاية والحنكة استعملوا فطنتهم فى الدس والهدم. أما الذى كان «يبنى الأخلاق» فلم يكن موجوداً بينهم (كذا) وقد شاهدت فى بعضهم الجشع والسوء والغدر وعدم الثقة والتقلب مع الأهواء والمصالح ولو كان ضرره محققاً ... فتأمل !

هذا ما أمكننا تلخيصه وتدوينه من مفكرات الأستاذ إسماعيل الباز نقلاً عن صاحبه السائح المتنكر الذى عاد فظهر فى أوائل سنة ١٩٣٧ عندما اشتد خطر الحرب فى الشرق والغرب .

---

(١) لعله الدكتور على العنانى الذى تلقى تعليمه فى ألمانيا وكان أستاذاً بدار العلوم (كلية دار العلوم حالياً) . ر.ل.ج.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نهضة الشرق ومصر[1]

بعد الحرب العالمية الأولى تنورت الأمم وثارت على المظالم العامة والخاصة كما فطن الناس إلى حقيقة معانى الألفاظ الخداعة كالديمقراطية وتقرير المصير والمواثيق الدولية ، فلما شارف العالم على الحرب الكبرى المنصرمة ،كان من الطبيعى أن تعلن الدول المحاربة للألمان والطليان واليابان هذه الحرب قائلة إنها بعيدة كل البعد عن مظنة التوسع والتملك، وهذا التبرؤ نفسه اعتراف صريح بأن سياسة الاستعمار شئ يجب التنصل منه كأنه وصمة تأبى الدول أن توصم بها وتهمة لا تريد أن تلحق بها .

نعم تخللت الحرب دعاية جليلة ودعوة إنسانية إلى حرية الشعوب وتحقيق العدالة الاجتماعية والحريات الأربع ومقاتلة الفقر والجهل والمرض وهى أعداء الإنسان الحقيقية ورفع مستوى الشعوب ونشر الثقافة. وقد ملأت هذه الدعاية البقاع والأصقاع وتشبعت بها الأذهان بعد الأسماع ، وانتشرت فى الشرق والغرب والشمال والجنوب وبلغت من الشدة والحدة شأواً بعيداً .

وظهرت ألفاظ حديثة مثل الانتداب والوصاية والمشاركة دالة على أن أدواء قديمة تجب الوقاية منها والحذر من الإصابة بها .

إن مصر تتطلع إلى سوريا ولبنان وتغبطهما ، فقد ضربت دمشق بالمدافع مرتين فى عشرين عاماً ، وبعض أهل لبنان كانوا يسمون فرنسا الأم الرؤوم، فأذن الله أن تنجو دمشق من المدافع وأن تتبرأ لبنان من بنوتها لتلك الأم !

---

(١) محاضرة بهذا العنوان ألقاها المؤلف بنادى سعد زغلول ونشرت فى مجلة الرابطة الإسلامية، س ٢٢، العدد ٢٣ فى ٣٠ إبريل ١٩٤٦ .

وكان عبد المجيد باشا بدر – كما جاء فى المجلة – أحد المستمعين للمحاضرة فأثنى على المحاضر وعلى الجهد الذى بذله فى محاضرته وأشار إلى أهم النقاط فيها وقال « إنى أقرر لكم أنه قد مرت بى أثناء سماع هذه المحاضرة نفحة من نفحات سعد زغلول » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومصر توصف بأنها زعيمة الشرق العربى والداعية إلى الوحدة والمشاركة للأمم الناطقة بالضاد فى آلامها والمناصرة لفلسطين فى محنتها والعراق فى كل ما يصيبها والشقيقة العطوف على الحجاز واليمن بل وشمال أفريقيا ، فكيف تتأخر مصر فى استقلالها وقد تمتعت به كل الأمم المجاورة لها ؟ إن أهل تلك الأوطان أنفسهم يدهشون لما نحن فيه ويشاركون وادى النيل بعواطفهم وقلوبهم ، ولكن الصديق والأخ الشقيق لا يشعر بالحريق الذى يصيب صديقه أو أخاه فى جسمه أو فى بيته ، وإن كان يتألم له لأنه لا يشعر بلذعة النار التى لايحسها إلا الذى انكوى بها .

لما كنت فى سنكم كنت وزملائى نهمس بنهضة الشرق ونتمنى إحياءه من أعماق قلوبنا ، وكنت أمقت من يطلب حياة وطن واحد فى الشرق وأدعو إلى حياة كل الأمم الشرقية ، وأعتقد أن نهضة أمة واحدة لا تكفى ، وأحدّث نفسى بأن الدورة الكبرى فى تاريخ العالم آتية لا ريب فيها، ولم يكن لدىّ ما يثبت تحقيق هذا الحلم سوى نهضة اليابان وهزيمة روسيا أمامها وانبعاث الحياة فى نهضة العرب ضد المظالم التركية ودعوة المغفور له مصطفى كامل فى مصر .

ولكن هذه كانت أحلاما ذهنية وذهبية .

وكنت أحيانا أشعر بأن نهضة الشرق ستكون عامة شاملة بحيث تعم الكافة ، ولكنى اعتقدت أنه ليس بالدعاية وحدها ولا بالتهويش تحيا الأمم وتنتعش وإنما بالعلم والعمل والأخلاق ، وكنا نشعر بتحفز الشباب بروحهم فكدنا أحيانا نلمس نهضة الشرق وبزوغ فجره ثم شروق شمسه ، وكنا نؤيد حلمنا بتاريخ العالم القديم وأن الشرق مبدأ النور فى العالم وأن الشرق سيعود كما بدأ .

ولم يكن واضحا فى أذهاننا الفتية كيف نواجه العالم العربى ونخلص من نكبات الحياة وويلاتها ، ولكن فطن بعضنا إلى أن أصل البلاء هو الاستعمار الذى أحاطنا بنطاق من حديد ، وأن الخلاص من الاستعمار هو أول نهضتنا ، وأن الاستعمار عرض لا مرض سببه ضعف أخلاقنا وجهلنا ، وكان كالوهم فى أذهاننا أن أكبر دعائم الاستعمار هم رجال السياسة المحترفون الذين يعينون الدول علينا

وأن الذين يتصدون للمسائل العامة بينهم كثير من المتواطئين على أوطانهم .

وفى بعض تجارب الحياة العامة رأيت أمورا عجيبة لا أدرى كيف أسميها ، فقد شاءت الأقدار أن أنشأ نشأة فكرية حتى فى التعليم الابتدائى ، فملت إلى المثل العليا من الآداب والأخلاق وإن كنت قصرت كثيرا عن بلوغ غايتى بحكم البيئة ، فقد اعتقدت وما أزال ولن أزال إن شاء الله أعتقد أن الحق والصدق والأمانة والشرف والعفة والاستقامة هى المبادىء الصحيحة التى يجب اتباعها ، وعاشرت قوماً فى مصر وفى أوربا نزعتى كنزعتهم وآراؤهم كآرائى وقد زادتنى ثقة بهذه المبادىء كالمرحومين مصطفى كامل والشيخ محمد عبده والمستر ويلفريد سكوين بلنت وكير هاردى وإدوار لامبير وعبد العزيز الثعالبى وقاسم أمين وغيرهم ممن تركوا آثاراً قوية فى ذهنى .

ورأيت بعضهم منغمساً فى السياسة وبعضهم قد أرغموا إرغاما على خوض غمارها بحكم الحوادث وسلكوا فى السياسة مسلكا ينطبق على أخلاقهم فسلكت مسلكهم واقتديت بهم ، ولكن هؤلاء الناس انفرط عقدهم وبعضهم توفى إلى رحمة الله وبعضهم انسحب من ميدان العمل لأسباب لم أكن أعرفها فى وقتها .

وقد فطنت بعد ذلك إلى تطور خطير فى الحياة العامة ، وأصل هذا التطور ما أطلق عليه الناس اسم الدعاية ، وكنت فى أول الأمر من أنصار الدعاية على أن تكون مقصورة على نشر الحقائق فعملت فى هذا السبيل ولكن رأيت بعد قليل أن الدعاية سواء فى أوربا أو فى الشرق اتخذت خطة عوجاء .

ورأيت رجالاً مشهورين فى العالم يقرون أن الشئ حق ولكن عملهم عمل من يعتقد أنه باطل ، أو يقرون أن الشئ باطل ولكن عملهم عمل من يعتقد أنه حق ، كالذى يعلى من شأن الصدق ويكذب أو من شأن النزاهة ويخالفها ويمدح الوفاء ويميل إلى الخلف أو يشيد بالعدل ويسعى فى سيادة الظلم ومن يظهر العفة ثم يسعى فى نيل درجة أو وظيفة من طريق غير شريف والأمثلة كثيرة .

ثم رأيت الصحافة الشرقية والغربية سواء أثناء الحرب أو السلم تتنازعها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدعايات المختلفة فى الأخبار والآراء، كل أمة تسوق الأخبار حسب هواها ومصالحها لا حسب حقائقها، فأين الحق ؟ لا أدرى .

رأيت كثيراً من الذين أضروا بالأمم وأساءوا إليها يلقون الاحترام والتوقير ، وكثيراً من الذين أحسنوا إليها يلقون نقيض ذلك ، وقد سمعت بنفسى أمثالاً تقال بين الطبقة الراقية تدل على «أن اللبيب من دار» أى أن التقلب والدوران مع الفائدة وتضحية المبادئ دليل على الفطنة ومجلبة للمنافع المادية !

وكان هذا الرأى فى شبابى منبوذاً وصاحبه مخذولاً ، أما فى الوقت الحاضر فقد صار هذا الرأى مقبولاً وصاحبه ناجحاً لأن المبادئ الأساسية فى الحياة تغيرت. وصار من يتمسك بالآراء الفاضلة موصوفاً بأنه جامد أو محافظ أو رجعى. وأن الحديث أو المساير للحياة هو المتغلب .

وعلة هذا التحول ضعف أو مرض أصاب الوعى والضمير .

ولذلك كف العقلاء عن الدعوة إلى الوعى والضمير لثقتهم بأن نتيجة دعوتهم سلبية محضة. والحقيقة أن الدعوة إلى الحق والاستقامة واجبة فى كل الأحوال ولكن باللين واللطف والمنطق ، وقد قال الله سبحانه وتعالى فى محكم قرآنه «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» ، فالحكيم من يدعو إلى الحسنى بالحسنى.

أحب أن أقول قولاً صريحاً أنفى به وهما شائعاً وهو أن الشعب المصرى لا يكنّ البغض لأى شعب فى العالم لأنه مفطور على الحب والصفح والكرم والنسيان .

ولكن الذى نبغضه حقاً هو الذل والظلم أياً كان مصدرهما ، وقد تكون لبعض الأمم عنجهية وكبرياء وتشامخ وهذه صفات بغيضة إلى الناس فى الحياة الاجتماعية كما أنها بغيضة إلى الله سبحانه وتعالى كما ورد فى جميع الكتب المنزلة ولا سيما القرآن الكريم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كيف يحارب الهنود الإنكليز في بلادهم [1]

الحرب حربان ، حرب السيف وحرب البنان . أما الأولى فكل الأحوال لا تسمح بها سيما إذا كان أحد الطرفين ضعيف النكاية في ذلك الزمن الذي أصبحت المادة فيه هي كل شيء كما هي حال الهنود المطالبين بحقوقهم حيال الإنجليز المغتصبين ، فهم بطبيعة الحال مضطرون إلى الإلتجاء إلى الحرب الثانية حيناً .

كان هنيبال يحارب الرومان في وطنهم وقد هزمهم وقهرهم ، وذهب مصطفى كامل يحارب الإنجليز في بلادهم بالقلم واللسان وعاد مكللاً بالظفر ، فأطلق سراح مسجوني دنشواي واستقال كرومر لأسباب صحية .

ولكن الهنود أسبق منا في هذا الميدان وأعرف بأنجح الوسائل الموصلة للغرض المطلوب ، فإنهم يتهذبون في بلاد الإنكليز ويحاربون أعداءهم في وطنهم وبأسلحتهم .

ومن بين زعمائهم الأبطال ، الوطني الغيور شيامدجي كريشنا فارما الذي حاز أرقى الألقاب العلمية من مدارس إنكلترا الجامعة [2] وعيّن محامياً في المحاكم الإنجليزية وهو الآن يرأس جمعية استقلال الوطن الهندي وينشر منذ خمس سنين في لندن عاصمة إنكلترا جريدة « ذي إنديان سوسيولوجيست » يطالب فيها بحقوق وطنه ويحارب على صفحاتها الإنجليز بسيف لا يفل وروح لايكل ، أي بالقانون أو بحرية الصحافة ، وهو يستهلّ كل عدد بالجملتين الآتيتين وقد اتخذهما شعاراً ونعم الشعائر ! :

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة اللواء ، العدد ٢٩٧٩ في ٨ يونيه سنة ١٩٠٩ . وهو من المقالات المبكرة للمؤلف .

(٢) عن علاقة لطفي جمعه بالزعيم الهندي تشيا مدجي كريشنا فارما ، راجع مذكرات المؤلف المعنونة «شاهد على العصر » ، ص ٢٨١ ومابعدها ، العدد ١٨٣ من سلسلة تاريخ المصريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٠ م .

وكذا كتاب المؤلف « تذكار الصبا ، ذكرى ١٩ مارس » ، ص ٢٠٧ ، ٢٢٧ - ٢٤١ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(١) كل إنسان حر فيما يريد ويفعل شريطة أن لايتعدى حرية الغير .

(النبذة ٢٧٢ من كتاب مبادىء الأخلاق لسبنسر)

(٢) إن مقاومة التعدى ليست مبررة فقط ، بل هى واجبة ، لأن عدم المقاومة يستدعى مقابلة مبدأين متناقضين هما مبدأ الأثرة ومبدأ الغيرية.

(من الأنتولوچيا ، الفصل الثامن) .

وهاتان النبذتان تشملان روح السياسة الوطنية فى الهند ، وهما كما يرى القارىء مستمدتان من مبادىء الفلسفة الإنكليزية ، والمبدأ الأول لا لزوم لبيانه لأنه واضح وقد لاكته الألسن وقتلته الأقلام بحثاً ، أما المبدأ الثانى فيحتاج إلى قليل من البيان :

إن الفلاسفة منذ القدم قد انشقوا فريقين ، فريق يقول بمقاومة الشر بالشر ، وفريق يقول ضد ذلك أى مقاومة الشر بالخير ، لأن مقابلته بالشر تزيد الطين بلة . ومن أنصاره أيضاً الدين المسيحى الجليل الذى فيه من التسامح مايذهب بالمقاومة من العالم مرة واحدة .

أما الرأى الأول أى المقاومة بالمثل ، فمن أنصاره كما يرى القارىء سبنسر ومعظم الفلاسفة العصريين والدين الإسلامى الحنيف ذاته ، ونص الآية « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ...» .

وأنصار هذا الرأى - الذى هو فى نظرى أحق بالاتباع - يقولون « إن التسامح مقبول ومستحسن ومفضل على المقاومة ، ولكنه يقتضى اتصاف الناس كلهم أفراداً وجماعات بصفة التسامح ، وإذا اتصفوا بتلك الصفة ذهب المعتدى ، وحيث أن هذا مستحيل لأن حوادث الأيام ترينا أن القوى لا يقهره القانون ولا يرده الحق ، فالمقاومة واجبة لحفظ التوازن الوجودى ، ثم إن التعدى إذا قوبل بالتسامح مرة لا يقف عند حد ويستمر المعتدى إلى أن يتغلب تمام التغلب على خصمه ويقهره ويزيله من الوجود ثم يتفرد هو بنعمة الحياة إلى أن يضعف ويأتى غيره أقوى منه فيعتدى عليه ويزيله ، وبذا يبقى العالم كله فى جهاد وعراك مستمر ، وهذا ما لا

يرضاه العقل ولاتريده الإنسانية . أما إذا قوبل التعدى من أول الأمر بالمثل ، اضطر كل فريق إلى احترام حقوق الغير ، لأن فى ذلك حفظ حقوقه الذاتية .

على هذا المبدأ القويم - مبدأ مقابلة المثل بالمثل - يحارب زعماء الوطنية الهندية الإنكليز فى بلادهم . ولما كان الهنود لا يستطيعون أن يحشدوا الجيوش أو يحركوا الأساطيل ، فهم يحشدون الآراء ويحركون الأقلام إلى أن يأتى يوم ينتصر فيه الحق . ثم إن هذه الطريقة الدستورية تكسب لهم معظم أحرار الإنكليز وأفاضلهم الذين يحبون الحق والعدل ، فإذا اتخذ الهنود يوماً من الأيام وسيلة من الوسائل لاسترداد حقوقهم ، وجدوا لهم فى بلاد الإنكليز ذاتها من يبرر أفعالهم ويرى الحق فى جانبهم .

غير أن الزعماء انشقوا فيما بينهم ، فإن الفاضل « بيبين شاندراياك » منشىء جريدة « باندى ماترام » الشهيرة ، يتنصل اليوم عن رفيقه بالأمس « شيا مدجى كريشنا فارما » ويبنى هذا التنصل على اتخاذ هذا الأخير مبدأ سياسياً جديداً وهو « مبدأ إشعال نار الثورة » ، ويستند فى اتهام صاحبه القديم بهذه التهمة على ما ورد فى كتاب شيا مدجى كريشنا فارما مثل قوله :

« إن حق امتلاك بلاد الهند مادياً وأدبياً من سمائها إلى آخر أرضها تابع بالقانون والعدل لأهلها ، وإنه لايوجد لأحد سواهم حق فى امتلاك الأرض أو سن القوانين ، وإن القوانين التى يسنها غيرهم تعد لغواً وباطلاً ولا ينبغى العمل بها ، وإن ملكية الأرض التى لم يهبوها عن محض إرادتهم لا قيمة لها ، وإن حق الامتلاك الذى سبق ذكره ينبغى أن يحترم وأن يذاد عن حوضه بكل الوسائل التى يستطيعها الإنسان » .

أقول إن الفاضل «بيبين شاندراياك » قد أساء فهم هذه العبارة وتحامل على صديقه عبثاً ، لأن القارىء العادل لايمكنه أن يتهم كاتب هذه الأسطر البسيطة بالدعوة إلى الثورة على الإطلاق . إن الكاتب يقرر مبدأ ملكية الأرض ويقول إنه حق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدس تابع للهنود ، والحكومة الإنكليزية ترى هذا الرأى نفسه في بلاد الهند وفى سائر مستعمراتها التى لا تغيب عنها الشمس ، ثم إنه ينكر العدل على القوانين التى يسنها غير الهنود أنفسهم ، وهذا حق لا سبيل للانتقاد عليه ؛ فإن الأمة الإنجليزية والفرنسوية والألمانية وسائر الأمم المتمدنة تعرف بأن لا حق للأفراد فى وضع قوانين تسير عليها الأمم ، لأن الفرد مهما كان عالماً لا يمكنه أن يعرف حاجات أمة ، ثم إن الإنكليز أنفسهم قد اعترفوا بهذه الحقيقة وعينوا أخيراً فى كل مجلس من مجالس الحكومة الهندية أعضاء من الوطنيين .

بقيت النبذة الثالثة وهى تسخير كل الوسائل الممكنة لدى الهنود فى استرداد حقوق الملكية وسن القوانين .

وحيث إننى قررت فى بداية هذا الفصل أن الهنود لايملكون إلا سبيل المقاومة الدستورية بالقلم واللسان وعقد المؤتمرات الوطنية وما أشبه ذلك ، وحيث إن الثورة التامة التى تقلب سائر النظامات وتعيد لهم حقوقهم فى طرفة عين ليست ممكنة ، فهذه النبذة الثالثة ليست إلا تبريراً للوسائل السلمية التى يتخذها الفاضل شيامدجى كريشنا فارما .

هذا ، وقد سار على خطواته لفيف من الوطنيين الهنود وينشرون فى الولايات المتحدة جريدة دورية اسمها « ذى فرى هندوستان » أى « الهند الحرة » وغايتها غاية الجريدة الأولى وهى تدعو للوئام بين العناصر المنكوبة للأمة الهندية وتنشر أخبار الفظائع الإنكليزية فى بلاد الهند ، كإلقاء القبض على محررى الصحف الحرة وتقهقر البلاد مادياً وأدبياً ، ومن مبادئها السامية تفانى الفرد فى المجموع وذهاب الهنود كلهم واحداً بعد واحد فى سبيل الوطن .

وقد بدأت الصحف الإنكليزية توجس خيفة من تلك الصحف التى أصبح لها أنصار عديدون فى إنكلترا وأمريكا ، ولذا نشرت جريدة استاندارد فى ١٢ مايو الجارى مقالة لخصت فيها مواد العدد الأخير من جريدة « ذى فرى هندوستان » ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وذكرت أن اللجنة القائمة للتحرير والنشر متسترة تمام التستر وأن الاشتراكات ترد على الإدارة من كل صوب وأن الأنصار كثيرون ٠

هذه عجالة أردت أن أصف فيها الوسيلة التى يتخذها الوطنيون الصادقون فى محاربة أعدائهم فى بلادهم ، ولن يغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكفاح فى الهند[1]

لم يشهد العالم كفاحا قوميا كالذى نشهده اليوم فى الشرق ، فقد قام غاندى فى مثل هذه الأيام من العام الغابر ودعا أمته إلى المقاومة السلمية ، وجرد جيش البؤساء لانتهاب الملح وهو حق طبيعى وحاجة ضرورية للحياة ، فكانت مظاهرات ومقاومة ، وقتل وجرح واستشهاد · ومازالت الأمة تعضد الزعيم وتنصره وتشد أزره، وتنضم إليه فى عمله الذى ظاهره بسيط وباطنه عظيم جليل حتى اعتقلوه على أثر الحوادث التى وقعت فى كنبور وأحمد آباد وكلكتا وبناريس ·

كانت دعوته الأصيلة مرتكزة على مطاردة البضاعة الأجنبية ، وأداته فى هذا الجهاد ، ذلك المغزل الغريب الذى جعله رمزا لخلاص الوطن من سيطرة الأجنبى ، وكان من أثر ذلك ، تعطيل مصانع لنكشير السعيدة بشقاء الأمم المستعبدة ·

ودب بفعل الإنجليز دبيب الشقاق بين الهندوس والمسلمين ، فقد استغلوا جهل الفريقين وفرقوا ليسودوا ، ولم يذكر المسلمون أن محمد على زعيمهم الأكبر لفظ أنفاسه الأخيرة فى لندن وهو ينادى بالحرية لوطنه وينصح لقومه بالاتحاد مع بنى وطنهم ، ونجحت حيلة الإنجليز التى صاغوها فى قالب النصح للهندوس فقالوا لهم «احذروا المسلمين فإنهم فاتحون ، وهم غزاة بلادكم قديما وسوف يعودون سيرتهم الأولى إذا تخلّينا عنكم » ·

وفى أواخر عهد لورد أروين ، عز عليه أن يغادر الهند فى فتنة ، فأفرج عن غاندى وعن رفيقه متولال نهرو الذى كان فى النزع فمات خارج السجن ، وتفاوض غاندى وأروين ، وتعاقدا وتعاهدا على أمر خفى ، واتهم غاندى بالتساهل ، وغلا

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بعامود المؤلف « خواطر البلاغ » بجريدة البلاغ فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣١ .

مرجل غيظ الشعب عندما أعدم الإنجليز « بهاجت سنج » وخطب زعيم بأن حفرة هذا الشهيد ، أحدثت بين الإنجليز والهنود هوة سحيقة .

وجاء إلى الهند حاكم جديد وكان أول من لقى غاندى وزوجته وصحبه ، فتودد إليهم ، وتفاءل العالم خيرا واعتزم غاندى السفر إلى مؤتمر المائدة المستديرة ، وبعد قليل تنمر هذا الحاكم الجديد ، ونقض مواد من عهد أروين وغاندى ، فكانت مقابلات ومفاوضات وتردد جديد . وحدثت اعتداءات أنارشية ، وصرح غاندى بأنه عدو لدود للجرائم السياسية ، فإنها لاتفلح بجانب المقاومة السلمية ، وتراخت العلائق من جديد لدى مقتل القاضى « جارليك» ، ونشر غاندى قائمة بفضائح الحكومة وهى ورقة الاتهام ، وعزم الحاكم على مقابلة المثل بالمثل ، فعدل غاندى عن السفر ، ثم رحل الحاكم عن سملا إلى كلكتا ثم عاد فجأة وأرسل إليه غاندى خطاباً جديدا فكف الحاكم عن نشر رد الحكومة ، وعاد غاندى ينوى السفر ، فحتام وإلام هذا الوعد والوعيد ومتى تحل مسألة الهند على يد زعيمها المجيد ؟!!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع أعضاء الوفد الهندى
إلى مؤتمر المنضدة المستديرة
- ١ -
بيان لابد منه للحالة الحاضرة فى الهند [١]

علمنا منذ أسبوع أن الباخرة Moldavia ستصل إلى ميناء بورسعيد قادمة من الهند وعلى ظهرها أعضاء الوفد الهندى إلى مؤتمر المائدة المستديرة . وعددهم خمسة عشر عضواً من الهنادك والمسلمين . كما علمنا أن هذا الفريق يمثل المعتدلين وأن عددهم أقل من أعضاء الوفد السابق لأن هذه هى المرة الثالثة والأخيرة التى سينعقد فيها هذا المؤتمر ليبت نهائياً فى حل المسألة الهندية .

وعلمنا كذلك أن سير محمد إقبال الفيلسوف والمحامى الشهير وشاعر الهند المسلم مر ببورسعيد منذ أسبوعين ولم ينزل بها ولم يخبر أحداً بمروره قاصداً إلى لندن لحضور المؤتمر .

وقد رأينا أن الوقوف على رأى أعضاء هذا الوفد على أعظم جانب من الأهمية بالنسبة لحالة الهند الحاضرة وبالنظر لأن كثيرين من الأعضاء الذين حضروا المؤتمرين السابقين امتنعوا عن الحضور وعن الاشتراك فى هذا المؤتمر ، كما سبق أن قابلنا فى العام الماضى المهاتما غاندى ومن معه من الهندوس وكثيرين من المسلمين لا سيما الأستاذ محمد على جنا المحامى الشهير صاحب برنامج الأربع عشرة نقطة وشوكت على وحاولنا إحداث الصلح بين الفريقين المختلفين فكان نصيبه الفشل التام لاختلاف وجوه النظر فى ذلك الحين [٢].

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة البلاغ فى ١٩٣٢/١١/٩ .

(٢) عن تفاصيل لقاء المؤلف بالمهاتما غاندى ، انظر كتابى « محمد لطفى جمعه وهؤلاء الأعلام » ، المرجع السابق ، ص ٥٣٥ - ٥٤٩ ، سنة ١٩٩١ .

وكذلك انظر مذكرات المؤلف « شاهد على العصر » ، سيوميات ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣١ ، المرجع السابق ، ص ٥٥٤ - ص ٥٦١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أننا لم نيأس مطلقا من حصول التفاهم والصلح بين المسلمين والهندوس وقد صح تفاؤلنا إذ انضوى مولانا شوكت على تحت لواء غاندى بعد طول الخصام،

وكان ذلك عقيب التوفيق العجيب الذى حدث بين الهنادك والمنبوذين ٠ فرأى المسلمون أنهم أمسوا فى عزلة سيئة العاقبة ٠ فكان من حسن سياستهم أنهم مدوا أيديهم إلى حزب غاندى واتفقوا معه حتى أن شوكت على نفسه بعد خطبه الطنانة فى مؤتمر لوكارنو التى أوردت نصوصها جريدة زاميندار الهندية أضرب عن الذهاب إلى مؤتمر المنضدة المستديرة مادام غاندى معتقلا ، بعد ما كان عليه الزعيم المسلم من التحمس فى العام الماضى للذهاب إلى ذلك المؤتمر فى دورته الثانية وتصريحه فى ذلك الوقت بأن غاندى إذا لم يذهب هناك لن تقف حركة الدنيا « قارن موقفه فى العام الماضى (سبتمبر سنة ١٩٣١) وموقفه فى أكتوبر سنة ١٩٣٢» ٠

فلما حل اليوم الذى تصل فيه الباخرة (الأحد ٦ نوفمبر سنة ١٩٣٢) أخذنا نترقبها ، فلما دخلت الميناء توجهنا مع بعض أصدقائنا إلى مركز شركة P.O. وقابلنا الموظف الخاص بإعطاء الإذن للصعود على الباخرة ٠ ولما عرف غايتنا من رغبتنا فى مقابلة ظفر الله خان وهو من أهم أعضاء الوفد المسلمين تردد بعد أن أحضر ورقة الإذن وأخذ أسماءنا ثم اعتذر قائلا إن مدير الشركة غائب وهو على ظهر الباخرة ولا يمكنه (أى الموظف المختص الذى كنا نخاطبه) أن يمضى ورقة الإذن ، ولما احتججنا عليه لهذا الامتناع الذى لايوجد له مسوغ ، قال يمكنكم الصعود على الباخرة بإبداء هذا العذر وسأكون هناك لأساعدكم فى ذلك ٠ فصدقناه وانصرفنا وأسرعنا إلى موقف الباخرة بالمرسى أمام مصلحة « الكورنتينات » ووجدنا بالمصادفة بعض الهنود ينتظرون مقابلة أصدقائهم ومعهم إذن بالمرور – فلما حاولنا صعود سلم الباخرة اعترضنا شاويش مالطى الجنس – ولما عرف غايتنا خاطب كونستبلا مصريا ٠ وبعد أخذ ورد سمحوا لنا بالصعود على السلم ٠ وعند باب دخول الباخرة اعترضنا ضابط كبير وأخبرنا بعد أن عرفنا بنفسه بأنه لايوجد هنود على ظهر الباخرة وأنهم جميعا نزلوا ٠ وفى ذلك الوقت كان بعض الهنود

الحاصلين على إذن قد بلغوا المدخل فاعترضهم ضابط إنجليزى من هيئة الضباط الذين كانوا واقفين على صورة حرس بعدد متوافر خارق للعادة ونهاهم عن دخول الباخرة . وظنوا خطأ أن الهنود كانوا فى صحبتنا - فقالوا لأحدهم أنت الذى أحضرت هؤلاء السادة (مشيرا إلينا) فإن عدت إلى مثل هذا نتخذ معك إجراءات شديدة ، مع أنه لم يكن لنا علاقة بأحدهم ، فنزلنا ولم نفقد الأمل ثم قصدنا إلى محل عام ولم نكد نجلس فيه حتى لمحنا شخصين يبدو عليهما أنهما هنديان فحادثناهما فأخبرانا بأن على ظهر الباخرة Moldavia تسعة من الأعضاء الذين يقصدون إلى المؤتمر ، أربعة منهم من الهنادك وأربعة من المسلمين وواحد من السيخ، أما المسلمون فهم ظفر الله خان (عن مقاطعة البنجاب) ودكتور شفاعت أحمد خان (وهو الرئيس المسلم لقسم التاريخ فى الله آباد) وسير أكبر حيدر وزير مالية ولاية حيدر آباد والرابع مندوب كاشمير . أما الهنادك فعلى رأسهم سير تاج بهادور سابرو وزير الحقانية سابقا ومن أكبر المحامين فى الهند ومقره الله أباد والعضو فى الجمعية التشريعية الهندية وهو من حزب الأحرار ومعه صديقه سير فيروز شاه من سنتا فى بومباى - والأستاذ جيكار المحامى من بومباى وهو من الأحرار والأستاذ كليكار وهو من براهمة الهند ومقره إيديلاى (بونا) . أما ممثل السيخ فهو ساردار تفالج قاضى قضاة باتيا لاستلى .

وأما الشخصان اللذان تقابلنا معهما مصادفة فأحدهما مهندس وله أرض زراعية بأجر والثانى أديب مسلم واسع الثقافة مستوطن دلهى وكلاهما قاصد إلى بلاد الإنجليز لأعمال خاصة به ولا علاقة لهما بالمؤتمر .

وقد تكلم الأول عن الأحزاب السياسية فى الهند فقال : إن أحزاب الهند ثلاثة ، الأول حزب الأغلبية أو رجال المؤتمر الهندى الوطنى بزعامة المهاتما غاندى والثانى حزب الأحرار وهم المعتدلون ويضم سير تيج بهادور سابرو وسير فيروز شاه وهم رسل السلام ووسطاء الصلح والتوفيق بين الأحزاب والحكومة والحزب ، الثالث هو حزب الحكومة ، أما المسلمون فينقسمون إلى قسمين الأول يضم رجال المؤتر الهندى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوطنى وهم رجال غاندى وعلى رأسهم دكتور أنصارى المقيم الآن فى أوربا ولم يدع إلى المؤتمر ورأى هؤلاء توحيد الانتخاب بغير تخصيص لأى فريق من الناخبين ، ويطلبون الاحتفاظ بسبعة مقاعد فى البرلمان ، والفريق الثانى الذى يرأسه السيد محمد إقبال الشاعر والمحامى الشهير فى لاهور ، وهم يطالبون بالانتخاب المنفصل ليضمنوا سبعة مقاعد فى البرلمان . ونقطة الخلاف بين أقلية المسلمين وأغلبيتهم المنضمين إلى الهنادك هو خوف الأقلية من الانتخاب المتحد لئلا ينتج لهم أعضاء برلمان ليس من بينهم مسلم فى نهاية الأمر. فهم يفضلون الانتخاب المنفصل ليضمنوا لأنفسهم سبعة كراسى برلمانية - أما الأغلبية من الطائفتين فتطلب الانتخاب المتحد مع الاحتفاظ للمسلمين بسبعة كراسى برلمانية . وغير خاف أن نظرية الانتخاب المنفصل خاطئة من الوجهة العامة فضلاً عن أنه لن يكون للمسلمين فى هذه الحالة أكثر من سبعة كراسى برلمانية . وهى التى يطالبون بضمانها - أما نظرية الانتخاب المتحد فهى على كل حال أسلم عاقبة لأنها مع ضمان المقاعد السبعة قد تنتج عدداً أكثر من المطلوب ضمانه فى برنامج حزب سير محمد إقبال وهم أصحاب فكرة الانتخاب المنفصل Separal Electorale .

سألنا محدثنا كيف أن رجلاً ذكياً ذا مكانة عالية فى بلاده مثل سير محمد إقبال أو سواه يفضل الانتخاب المنفصل على ما فيه من مظاهر الانشقاق على الانتخاب المتحد مع ما فيه من تقوية للوحدة الوطنية وضمان للسبعة المقاعد البرلمانية فى الحالتين ولا سيما أن الانتخاب المتحد قد ينتج عدداً من المسلمين المنتخبين أكثر من السبعة ؟ فأجاب الرجل : يغلب على ظنى أن سير محمد إقبال رجل من أنصار الحكومة .

وإلى هنا انتهى الحديث بعد أن علمنا منهما بأن بعض أعضاء الوفد الهندى موجودون فى فندق باب الحديد الشهير المطل على الميناء الشرقى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع أعضاء الوفد الهندى
إلى مؤتمر المنضدة المستديرة[1]
- ٢ -

كان لقاؤنا مع اثنين من أعضاء وفد المائدة المستديرة فى شرفة الفندق حيث كانا يتحادثان ، ولما التقينا بهما كان اثنان من مكاتبى الصحف الأجنبية يخاطبانهما باللغة الإنجليزية – فلما انصرفا بعد بضع دقائق جلسنا إليهما ودار بيننا الحديث الآتى ، ولم نشأ أن نسألهما عن اسميهما .

أحدهما – ماهو تاريخ الحركة الوطنية فى مصر . وماهى السياسة الحاضرة ؟

نحن – أجبنا بإيجاز على هذا السؤال وشرحنا وجهه نظر الأحزاب والهيئات السياسية فى مصر .

أحدهما – (وهو أكبرهما) إننا نمثل الحزب المعتدل فى الهند لأن فى الهند حزبين ، حزب المؤتمر وهو الأغلبية وهو تابع للمهاتما غاندى ، والحزب الثانى وهو حزب المعتدلين الذى ننتمى إليه ونمثله ، وأن مشروعنا لسياسة الهند فى المستقبل ينصب على تأليف حكومة اتحادية مكونة من جميع الولايات الهندية البريطانية والولايات المستقلة . ولا يخفى عليكم أن الهند يبلغ عدد سكانها ٣٥ مليون . معظمهم من الهندوس . ونؤكد أنه لايوجد الآن خلاف بين المسلمين والهندوس وأن الأغلبية الساحقة من المسلمين مجمعة على المطالبة بحرية الهند . وأن أكابر زعماء المسلمين منضمون إلى تلك الحركة ولا عبرة ببعض الزعماء الذين يعارضون لأن الخلاف بيننا ليس فى الغاية بل فى الطريقة والخطة التى يجب اتباعها . وبعض الذين ينضمون إلى الفريق الآخر يظنون أنهم بانضمامهم هذا يستفيدون نصيبا أكبر من الحقوق للهند .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة البلاغ فى ١٩٣٢/١١/١٠ وهو تتمة للمقال السابق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نحن - ماهو تكوين المؤتمر الحالى الذى أنتم مسافرون إليه ؟

أحدهما - إن المؤتمر الحالى هو الثالث من نوعه والأخير . وقد حضرت المؤتمر الأول وكان المهاتما غاندى سجينا ، فخطبت فى هذا المؤتمر وحادثت جميع الوزراء الإنجليز وصارحتهم ولا سيما مستر رمزى مكدونلد بأنه لابد أن يوضع نظام الـ rediration وبدونه لا تهدأ الهند . وفشل هذا المؤتمر ، وكنا قد أخذنا كلمة بالإفراج عن المهاتما غاندى ، وفعلا لما وصلنا إلى الهند أفرجوا عنه . وفى المؤتمر الثانى الذى عقد فى العام الماضى وحضره معنا المهاتما غاندى حدث أثناء وجوده فى إنجلترا أن أحد أتباعه المتطرفين وهو مستر جوهارلال نهرو بدأ بحركة عدم دفع الضرائب فى الهند . فأحنق ذلك الحكومة ، فلما عاد غاندى بعد إخفاق المؤتمر وفشله قبض عليه بعد وصوله للهند بأربعة أيام ، أما المؤتمر الثالث المقبل فلم يكن الإنجليز راغبين فى عقدة لعلمهم بأننا حتى نحن المعتدلين متمسكون بنقط جوهرية قد لا تقبلها الحكومة الإنجليزية فى حين أن شعبنا لا يقبل بأقل منها ، وقد أرادوا أن يتقدم بعضنا بملاحظات إلى لجنة برلمانية فرفضنا، ثم تقرر فى النهاية عقد المؤتمر ، وحصروا عدد أعضائه ، كما سيأتى البيان ، وأرادوه على خطة سريعة عملية للاتفاق على تنفيذ مطالبنا .

نحن - ماهو عدد الأعضاء وما طريقة العمل فى المؤتمر ؟

أحدهما - إن المؤتمر مكون من ٤٢ عضوا ، ١٨ يمثلون الولايات الهندية الإنجليزية و١٢ يمثلون الولايات المستقلة و١٢ من الأعضاء الإنجليز ، وطريقة العمل ليست بالتصويت ولكنها بالممارسة والاتفاق وهذه هى عقدة العقد فى الإجراءات لأنها لو كانت بالتصويت لضمنا النجاح فى مهمتنا على الرغم من اختلاف وجهات النظر بين الأعضاء ، ومما يدعو إلى الأسف أن بعض أعضاء المؤتمر من المسلمين يناصرون فكرة الانتخاب المنفصل ، تلك الفكرة المضرة التى لا نرضاها ولا نقبلها بأية حال من الأحوال ، لأنها تسبب تفريق الكلمة وتجعل كل فريق يلجأ فى نهاية الأمر إلى جهات مختلفة فتتمكن بهذه الوسيلة من القبض على زمام الأمور بطريقة

غير مباشرة . وهذه العقدة هي التي كانت بين الهنادك والمنبوذين وقد حلت نهائيا باتفاق Poona الذي كان ثمرة لصيام المهاتما غاندي .

س - بماذا تتكهنون كنيتجة لهذا المؤتمر ؟

أحدهما - نحن متمسكون بجميع مطالبنا لأن الفكرة الوطنية منتشرة في الهند بقوة . ولا تحكم على وطنية الهنود برجال بلغوا سننا ، واعلموا أن الشبان والبنات والرجال الذين في مقتبل العمر والسيدات يريدون حرية الهند ولا ينظرون إلى الفوارق التي بينهم وبين مواطنيهم من أهل الديانات الأخرى لأنهم ينادون أن الوطن فوق كل شيء ، ونحن نريد أن نقنع أعضاء المؤتمر والحكومة الإنجليزية بوجهة نظرنا ، على أن هذا المؤتمر إذا قدر له الفشل وعاد المخلصون بأيديهم فارغة فقد قضى على حياتهم العامة كرجال سياسيين وخرجت الحركة من أيديهم . ولا يعلم إلا الله مايترتب على ذلك من نتائج خطيرة .

س - ماهو موقف الأعضاء المسلمين في المؤتمر ؟

أحدهما - قدمنا لكم أن معظم المسلمين في الهند وزعماءهم منضمون إلى حزب غاندي ولكن بعض الأعضاء يناصرون فكرة الانتخاب المنفصل - وهؤلاء ، نرجو أن يعدلوا خطتهم لمصلحة وطنهم . وإن هؤلاء الأعضاء وإن كانوا في الحقيقة لا يمثلون فكرة إخوانهم المسلمين في الهند - إلا أن الحكومة تعتبرهم مع الأسف ممثلين لإخوانهم ، ولهذا لم تدع أحداً من كبار الزعماء المسلمين أمثال الدكتور أنصاري والدكتور محمود . وكان الدكتور أنصاري أخيراً في ألمانيا وقد يكون الآن في باريس .

س - ماهو الموقف السياسي للمهاتما بالنسبة للمؤتمر الحالي ؟

أحدهما - لقد طلب بعضنا من الحكومة منذ شهر وربع أن يقيم في (Poona) بجوار المهاتما ليتصل به فرفض هذا الطلب ، مع أننا واثقون بأنه لو أقام بجواره وحادثه كان يمكنه إقناعه بوجهه النظر العملية التي قد يصل إليها المؤتمر .

ولا ريب في أن أتباع غاندي يرون عدالة مطالبه وهو يطلب استيلاء الأمة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهندية فى الحال على جميع مرافقها من إدارة مدنية ومالية وحربية - لأن الجيش يستغرق ٤٧.٥ فى المائة من ميزانية الدولة - وإن كان بعض السياسيين العمليين يرون الرضاء بالاستيلاء حالا على الإدارة المدنية والاتفاق مع الحكومة على تحديد ميزانية الجيش لخمس سنوات بميزانية تأخذ فى التناقص بالتدريج إلى أن يتكون ضباط شبان من الهنود من مدارس حربية هندية يراد إنشاؤها - وبذلك تصل الهند فى بضع سنين إلى مايريد المهاتما غاندى تحقيقه حالا .

س - ماهى أهم المسائل التى تشغل بالكم فى الهند ؟

أحدهما - أهم شىء هو مقاومة الانتخاب المنفصل ، ثانيا : فصل النقد الهندى عما سواه وعدم التورط بربطه بعملة أجنبية ، وهى تسمى عندنا مسألة Currency Exchange ولذا نرفض وجود مستشار مالى .

س - وكيف تنتظرون أن يكون البرلمان الهندى الذى يكون نتيجة لهذا المؤتمر؟

أحدهما - سيكون برلمان الهند مكونا من مجلسين . مجلس أعلى ومجلس عموم. وهذا الأخير يكون من ٣٠٠ عضو ، ١٢٠ يمثلون الولايات المستقلة و١٦٠ يمثلون الهند الإنجليزية و ٢٠ يمثلون الأوروبيين .

س - ماهى فكرة التحالف Fediration التى تريدون تحقيقها ؟

أحدهما - نريد تحالفا بين جميع الولايات الهندية ، سواء المستقلة وغيرها ، وقد قبل جميع أمراء ومهراجات الولايات المستقلة الانضمام إلى هذا التحالف على أساس المساواة . ونحن لانريد المساس بحقوق هؤلاء الأمراء ، كما أننا نريد أن يكون التحالف تاما وحقيقيا لأن جميع المصالح الاقتصادية والإدارية مشتبكة ومرتبطة ، من ذلك خطوط السكك الحديدية ومسائل المواصلات ، وسبل تبادل المصالح الاقتصادية ، فأى انفكاك لهذه العروة يعود على الجميع بمضار جوهرية . وإذا كان هذا التحالف معيبا من أية وجهة ، تختل الوحدة ويتعسر التفاهم بين الولايات المختلفة ، وتفقد الحكومة الوطنية المستقبلة توازنها .

س - ماهى حقيقة العناصر فى الأمة الهندية ؟ وماهى نقط الخلاف بينها ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أحدهما- لايوجد خلاف جوهرى فى شىء ما ٠ وإن كان بعض الزعماء من بعض الأقليات يتقلبون أحيانا ونحن ننتظر تلغرافا بنتيجة مايتم فى هذه المسألة ٠

س - بهذه المناسبة ماهو عدد الناخبين الذين تتكون منهم الكتلة الانتخابية Corps eleclora?

أحدهما - خمسة عشر مليونا ولن تكون عندنا فى الوقت الحاضر انتخابات عامة للبالغين Adult Suffiage ٠

س - وهل تظن أن حزب غاندى Congress Men يقبل هذا الحل فى المسألة الانتخابية ؟

أحدهما - إن المهاتما غاندى رجل ماهر ، وهو سياسى محنك ويعلم بمصالح وطنه أكثر من سواه ، كما أننا نعتقد أن ٥٠ أو ٦٠ فى المائة من حزبه يقبلون الحلول العملية التى تمكن المعتدلين من الحصول على أكبر نصيب فى تحقيق الآمال الوطنية. وإن هذا الزعيم العظيم قد قبض على زمام الحركة وأن الاغلبية الساحقة هم من أتباعه سواء أكانوا من الهنادك أم من المسلمين ٠

س - هل سبق لكم زيارة مصر واطلعتم على بعض أحوالها ؟

أحدهما - يهمنا كثيرا أن نقف على أحوالكم بالتفصيل لكثرة الشبه بين حالة الأمتين واتحاد الخطط التى يسلكها الاستعمار فى السياسة وفى القوانين الاستثنائية ٠

نحن - يهمنا أن نخبركم بأنه بجانب المسألة السياسية التى تهمنا فإن الثقافة من وجهة بعض العقائد والمذاهب الصوفية تدل على ارتباط وثيق بين ممالك الشرق العريقة فى المدنية ٠

أحدهما - نحب أن نطلع على بعض الكتب التى فى هذا الموضوع لأنه كلما وجدت أسباب ارتباط بين الأمم الشرقية فى ثقافتها القديمة كان ذلك أدعى للتفاهم بينها وإحداث يقظة وحركة إحياء عامة وهذا يسرنا معرفته ٠

نحن - نستميحكم عذرا فى لفت نظركم إلى كتب ماسينيون Massignon

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في التصوف الإسلامي - ورسالة نيكلسون في شرح تائية ابن الفارض المشهورة ، والمتنورون من المصريين الذين لهم إلمام بهذه المسألة يعتقدون أن التصوف الإسلامي له أصول شرقية ولا علاقة له بالحكمة اليونانية ولا بالمذهب الأفلاطوني المستحدث .

وكانت الساعة العاشرة والنصف عندما حان وقت قيام الباخرة فاستأذنا في الانصراف بعد أن شكرناهما وودعناهما وتمنينا لهما ولبلادهما أحسن التمنيات.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وطنية البارسى فى الهند
ومن تكون مدام كاما ؟ [1]

زار القطر المصرى فى آخر هذا الشهر، الدكتور جال بافرى وأخته الآنسة بايس بافرى من أعيان البارسى ، والدكتور جال بافرى مشهور فى إنجلترا والهند والقارة الأوربية بماله وجاهه وأدبه، ومن دأبه أن يطوف العواصم ويتعرف إلى الملوك والعظماء، وأن يغشى المؤتمرات والمجامع السياسية والعلمية، مصطحباً شقيقته الآنسة ذات الجمال الرائع وهى تعد فى الواقع نموذجاً للجمال البارسى، وإن كان يوجد بين نبيلات جنسها من هن أبهى جمالاً وأروع منظراً، وفى العموم نجد النبيلة البارسية التى تخطر فى شوارع بومباى (وطنهم الصغير) أو تسكن إلى حدائق قصورها الفخمة، خمرية اللون (بلون الحنطة) أو قمحية ، ممشوقة القد، هيفاء، خمصاء، لدنة القامة، ذات تثنّ واعتدال ، وفتنة ودلال، سحرها فى عينيها، وسر إغرائها فى ثناياها وشفتيها، وفى صوتها غنّة، ولها ذكاء تمتاز به عن سائر نساء الهند سواء المتوطنات أو النازحات ٠

أما الرجال فيكونون عادة مستكملى الرجولة، يبدو عليهم النبل والفطنة ومظاهر العظمة المادية والمعنوية، وتراهم لإتقانهم اللغات الأوربية وحسن فطنتهم واندماجهم فى الأوساط الراقية، كأنهم من أكابر الساسة أو رجال الأعمال، وقد يجمع أحدهم بين رقة الشرق، ولين عريكته، وبين كبرياء الغرب وشخوفه وعظمته ٠

ومعظم هؤلاء البارسيين أغنياء، ذوو ثروات ضخمة ومن الخطأ أن يوصف الدكتور جال بافرى وأخته الآنسة بايس بأنهما من الهنود، لأنهما من جنس خاص

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية، ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٧ ، المجلد الثالث، العدد ٧٠، ص ١٢ – ١٥ ، وأعيد نشره ببعض الاختصار فى كتاب المؤلف « قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد» ، ص ٢٣٢ – ٢٣٨ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٨ ٠

نزح إلى الهند منذ ألوف السنين. وبياناً لذلك نقول :

إن كلمة بارسى التى تطلق على الفرس المهاجرين من بلاد إيران إلى الهند (ومعظمهم فى بومباى) ليس معناها زردشتى، ولكن معناها فارسى. وأما كلمة مجوس الشائعة فأصلها بالفارسية «مغ» ومعناها اللغوى (حارس النار المقدسة) وهى تطلق على المبشرين بالدين الزردشتى، فليس البارسى مجوسياً، فإذا قلنا سلمان الفارسى أو البارسى فليس معناها المجوسى بل معناها سلمان الذى أصله من بارس أى من تلك القبيلة التى نزلت إلى جنوب إيران عند رحلة القبائل الآرية التى كانت نازلة قبل التاريخ حول «البامير» فنزح أكثرها إلى أطراف الهند وإيران ، وكانت أكثر تلك القبائل النازحة إلى إيران نفوذاً وقوة قبيلة پارسيان ، فقد نزلت فى جنوب إيران فى القسم الذى يسمى الآن فارس أو بارس واتخذت مدينة «استخر» أو «اصطخر» مستقراً لها وعاصمة لملكها •

وجاء الميديون فانتشروا فى الغرب والشمال الغربى لإيران، واتخذوا مدينة هاكا ماتانا وهى المعروفة الآن باسم همدان عاصمة للكهم، وينسب إليها بديع الزمان الهمدانى. وانتشرت قبائل أخرى على شواطئ بحر الخزر ثم باحترا وبلخ ثم أفغانستان وخوارزم وغيرها، وسموا أنفسهم «أريان»، واتخذوا لهذه الممالك اسم إيريانا ومن ذلك اشتق اسمها الآن وهو «إيران» واسم أهلها «إيرانيان» •

وقد بدأ نفوذ البارسيان يقوى على من عداهم من مجاوريهم منذ سنة ٥٥٠ق.م. حتى أن ملكهم كورش أو قورش الأكبر تمكن من اجتياح بلاد الميديين فخلع سلطانهم استياج وأسس سلطنة هخامنشى :

وانتشرت الديانة الزردشتية بين البارسيين أكثر من غيرهم، وكانوا يعتقدون بوجود إلهين أحدهما نور ومبدأه الخير ويسمونه أورمزاد أو يزدان والثانى ظلام ومبدأه الشر ويسمونه أهرمان أو أهرامن ، وهما فى نظر الفقهاء المجوس متماثلان فى الأزلية والقوة ولكن بينهما عداء وعناداً، فإذا كثرت الشرور فى العالم كان الغالب أهرمان، وإذا ظهر الخير وانتشر كان المتجلى على الخليقة أورمزاد •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والزردشتية أهم فرق المجوس، لأن (زردشت أو زاراثوسترا) ، كان موحداً وأنكر إلهى النور والظلام، وقال بأن الشرور توجد فى العالم صادرة عن طبيعة المخلوقات اللازمة كالظل الذى يصدر عن الأجسام ضرورة، وأنها لا تزال حتى نهاية العالم ، فيقوم الموتى ويحاسب كل إلى عمله لأن الله خلق ملكاً للنور، وآخر للظلام، وأن يوم نهاية العالم وهو يوم الحساب يذهب ملك الظلمة وأتباعه إلى مكان فيه ظلام وعذاب، ويمضى ملك النور وأتباعه إلى مكان فيه نور وهناء دائم، فلا يرون الشر إلى الأبد !! .

وقد قبض زرداشت فى القرن الخامس قبل المسيح ولا يزال أتباعه فى العالم إلى الآن وهم عبدة النار المقدسة ، وقد اضطهدوا فى وطنهم الأصلى فرحلوا منذ ألف سنة إلى الهند وهم طائفة البارسى كفا قدمنا الموجودون فى بومباى ومنها الدكتور بافرى وأخته الآنسة بايس ضيفا مصر فى هذا الشهر .

وقام من البارسيين أفذاذ مجاهدون خدموا الوطن الهندى فى الهند وأوربا وأمريكا وإنجلترا من أوائل القرن العشرين .

ومن خير من أنجبت طائفة البارسى السيدة البارة، والوطنية المخلصة والمجاهدة الكريمة المغفور لها مدام كاما الشهيرة التى جاهدت فى سبيل بلادها ضد الاستعمار وامتد نفوذ جهادها من آسيا إلى أوربا وأمريكا وأيرلاندا وأسست بضع جرائد أشهرها جريدة (باندى ماترام [١]) وأنفقت ثروتها فى قضية الحرية الشرقية وعاشت عيشة الزهد والتقشف فى نيويورك ولندن وشيكاغو ولندن وباريس وجنيف وستوتجارت ولوزان وتوفيت منذ بضع سنين فى السبعين من عمرها فى سويسرا وأحرقت رفاتها على غير مذهبها .

وأول أمر هذه السيدة أنها تعلمت فى وطنها وكانت ذات جمال ومال وأخلاق عالية، فلما ترعرعت وتزوجت وقد رزقت أولاداً، لم تطق صبراً على الاستعمار فعملت

---

(١) كلمة باندى ماترام هندية معناها «نحييك أيتها الأم الرؤوم» أو الوطن .

في وطنها بقدر ما استطاعت، ثم نزحت حوالى ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ إلى أمريكا فأنشأت جرائد باللغتين الهندية والإنجليزية وأخذت تنشر الدعوة للحرية ، فالتف حولها فريق من خيرة شباب الهند، ومكنوا لها من عقد الاجتماعات وإلقاء المحاضرات بالإنجليزية التى كانت تجيدها ، فخطبت فيها واكتسبت جانباً كبيراً من الرأى العام ، فنشرت الصحف الأمريكية صورها وأحاديثها ومحاضراتها ، وفى سنة (١٩٠٧) [١] نشرت «نيويورك صن» مقالاً جاء فيه «أن أميرة هندية تبذل عشرات ألوف الدولارات بسخاء فى سبيل نصرة وطنها وقد حادثناها بعد أن سمعنا محاضرتها التى ألقتها فى «ليبيرال كلوب» فعلمنا منها أنها تنفق جزءاً من ثروتها الواسعة فى تثقيف عشر فتيات بارسيات فى جامعات إنجلترا لتعدهن للكفاح الوطنى فى المستقبل وأنها تساعد كثيراً من الشبان على إحراز شهاداتهم النهائية فى علوم التاريخ والاقتصاد والاجتماع والرياضيات، وأن بعض الممالك ذات المستعمرات الشرقية الضخمة تنظر إلى أعمال هذه الأميرة (رستم كاما) بعين الحذر» ا٠ هـ ٠

كانت مدام كاما سمراء اللون جميلة التقاسيم حلوة الصوت عذبة الحديث قوية القلب حتى لقد نسبوا إليها أعمالاً يعجز عنها كثير من الرجال كما كانت واسعة الحيلة ٠

وقد روى لنا بعض من رأوها رأى العين وعاشروها وحادثوها [٢] أنها كانت ذات هيبة خاصة وفصاحة نادرة ولها سلطان أدبى على كل من يقرب منها. وبعد أن أقامت فى نيويورك وشيكاغو نزحت إلى إنجلترا فى ١٩٠٧ وخضع لها كريشنا

---

(١) مايو سنة ١٩٠٧ وقد ترجمت بنصها فى جريدة اللواء للمرحوم مصطفى كامل ٠

(٢) يرمز لطفى جمعه «بالبعض» هنا إلى نفسه حيث أنه قابل مدام كاما وتعرف عليها بمناسبة انعقاد مؤتمر الحزب الوطنى الذى انعقد فى بروكسل سنة ١٩١٠ (انظر كتاب رابح لطفى جمعه المعنون «محمد لطفى جمعه وهؤلاء الأعلام»، سنة ١٩٩١، ص ٣١ وما بعدها ٠وكذا مذكرات المؤلف المعنونة «شاهد على العصر » ، ص ٢٨١ – ص ٢٨٦ ، رقم ١٨٣ من سلسلة تاريخ المصريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٠ م)٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فارما وهو عالم هندى ورئيس وزراء نظام حيدر آباد سابقاً، تعلم فى إنجلترا وهو هندوكى ورحل من الهند وكان تلميذ هربرت سبنسر الأخص وهو أعظم فلاسفة إنجلترا، فلما مات سبنسر سنة ١٩٠٣ لم يخطب على قبره خطيب غيره لا من الإنجليز ولا من أى جنس آخر، فهو وحده الذى رثاه وأبّنه وتبرع كريشنا فارما من ماله بما يمكّن إدارة جامعة أوكسفورد من تعيين أستاذ لكرسى سبنسر، ولا يزال هذا الكرسى مستمراً من سنة ١٩٠٤ إلى الآن فيما عدا بضع سنوات قطع أثناءها التدريس، لأن كريشنا فارما اتهم خطئاً فى سنة ١٩٠٩ بتدبير مؤامرة دنجرا الشهيرة التى قتل فيها السير كيرزون وايلى وطبيب هندوكى فى حفلة هندية ، فنزح من لندن والتجأ إلى باريس واكتفت الحكومة بهذا النفى الاختيارى ولم تعرض له بسوء ما عدا وقف التدريس من أعلى الكرسى الذى تبرع بنفقته. ولما نسيت مؤامرة دنجرا وسحب الزمان عليها ذيول الإهمال عاد الكرسى إلى العمل !

وقد اتفق كريشنا فارما ومدام كاما على التعاون فى إنجلترا فأسسا جريدة «أنديان سوسيولوچيست» وقد وصفوها بأنها جريدة (هندية ثورية) وكان الكاتب بليغ العبارة، حاضر الذهن خبيراً بتاريخ العالم والاستعمار ولا سيما فى وطنه، وله أحياناً أسلوب كأنه قطع من نار، فنال من بعض الظالمين نيلاً وانتصر لمهاتما تيلاك الذى قام فى الهند قبل مهاتما غاندى وأسس جريدة (كيسارى) أى الأسد وقضى فى السجن بضع سنوات قبل موته. ثم حدث خلاف بين كريشنا فارما وبين مدام كاما للفرق بين الاثنين فى طريقة الجهاد، فإن الأول لم يكن مهيجاً بالمعنى المعروف بل كان زعيماً فكرياً، وثائراً علمياً ، أى أنه يجادل بالعلم والاقتصاد والفلسفة ويقنع العقل ولا يكترث للعواطف ، ولذا كانت تلتف حوله الطبقات الموزونة أو العناصر الرشيدة من الناقمين والساخطين، أما مدام كاما فكانت بيئتها مشتعلة بالشباب والإقدام والتضحية وقد قيل إن من أشبالها هارديال وسافار كار وشاتويادايا، وهم من أشهر رجال النهضة الهندية الحديثة ولأولهما وثالثهما كتب ودواوين شعر وخطب ومواقف لا تنسى وقد خدما القضية قبل أن يتناولها غاندى نفسه. أما سافار كار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فله عملان خلدا ذكره، الأول أنه وضع كتاب تاريخ الاستقلال الهندى ١٩١٠ فى ٥٠٠ صفحة ويعد من أمهات الكتب. وأمره الثانى أنه اتهم سنة ١٩٠٩ فى قضية اغتيال السير كيرزون وايلى، بتحريض دنجرا على قتله ففر من لندن إلى باريس بعد أن هاجم الشرطة بيت الهند الشهير India House الذى كان ينفق عليه كريشنا فارما ومدام كاما من مالهما ليكون مأوى «نظيفاً» للشبان الهنود، فاستقبله أصدقاؤه الهنود فى باريس وعلى رأسهم مدام كاما ونزل ضيفاً مكرماً فى بيتها عدد ٢٥ شارع بونتيو Rue Ponthieu قريباً من شارع شانزليزيه فى أفخم حىّ من أحياء باريس ، ولكنه قلق وصمم على العودة إلى لندن وهو يعلم أن الشرطة تتعقبه حتى فى باريس ، فلما وصل فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٠ إلى محطة تشيرينج كروس بلندن قبض عليه البوليس وقاده إلى السجن وطلبت حكومة الهند من حكومة إنجلترا تسليمه إليها بحسب معاهدة تسليم الجناة Xtradition ولم تطل الإجراءات لأن الطلب كان صورياً وكلتا الحكومتين تريد (تمليص آذانه) ، فسافر على باخرة إنجليزية تحت الحراسة. ولكن تمكن بدهائه عندما رست الباخرة على ميناء مرسيليا أن يغافل الحارس ويهرب من نافذة الحمام وهى دائرة صغيرة لا تكاد تكفى لخروج غزال ... وسبح من الباخرة إلى رصيف الميناء حيث كان ينتظره أصدقاؤه الهنود بسيارتين لمساعدته على النجاة مادام فى أرض فرنسية ، فسبح خلفه الحارس وكان سافا كار ينادى (لاجئ سياسى!) والحارس يقول (لص !) وقبض عليه وبينه وبين سيارة النجاة بضعة أشبار !! فلم تقبل الحكومة الفرنسية بتسليمه لإنجلترا لأن بعض النواب الإشتراكيين تدخلوا لمصلحته وهم جوريس ولونجيه وروانيه. وحدث إشكال دولى بين إنجلترا وفرنسا فاتفقتا على تأليف محكمة دولية انعقدت فى محكمة العدل الدولى بلاهاى عاصمة هولاندا بعد ستة أشهر من اعتقال سافا كار فى أحد سجون فرنسا ، وحكمت المحكمة بتسليم سافا كار، فحكمت عليه محاكم الهند الجنائية بالنفى عشرين عاماً فى جزيرة «لاكاديف ملاديف» وحرمت على أهله «الملح والنار»، أى منعت الأهالى من الاختلاط بهم أو معونتهم حتى فى الأكل والتدفئة

ليموتوا موتاً بطيئاً من الفقر والذل وهى عقوبة تبعية لكل أسرة يخرج منها مذنب سياسى نابغ. وبعد سنة من نفيه نقص وزن سافا كار عشرين كيلو جراماً ثم أخذ فى الهزال حتى كاد يقضى نحبه. فتوسط له بعض الساسة المعتدلين فعفى عنه بعد سبع سنوات وعاد إلى الحياة فى مدينة لاهور. وهو كاتب مجيد وخطيب مصقع، متخرج فى القانون والآداب .

وحضرت مدام كاما جميع المؤتمرات السياسية والاجتماعية التى عقدت فى أوربا من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٤ فى رومة وستوتجارت وباريس وجنيف وبروكسيل ولوزان ولندن (مؤتمرات الشعوب المغلوبة التى كانت تديرها السيدة دراى هيرست ويخطب فيها برناردشو وديلون وكيرهاردى وجريسون وسنودن وغيرهم) ، ومن بين المؤتمرات التى حضرتها واشتركت فيها بعملها وقولها مؤتمرات الوطنيين المصريين فى لوزان وجنيف وبروكسيل ١٩٠٨، ١٩٠٩، ١٩١٠ ولها خطب ثابتة فى محاضر أعمالها وفى الصحف المعاصرة.

وقد روى لنا خبير بهذه الشئون [١] أن مدام كاما اجتمعت بسمو الخديو عباس حلمى الثانى فى صيف ١٩١٣ بباريس (شهر يوليو) فى بافيليون بلو فى قلب بستان بالقرب من قوس نصر (الإيتوال) فى سبتمبر من تلك السنة وكان الاجتماع بناء على طلب سموه، وأقام لها حفلة شاى حضرها بعض خاصة حاشيته ، فلما أقبلت قبّل يدها، ونظر إليها بعين الاحترام والتبجيل ، وكان شوقى بك ويوسف صديق باشا من الذين حضروا هذا الاجتماع عدا اثنين من الأحياء فقالت له : أيها الخديو ! ساعد وطنك ! اخدم بلدك ! امنح الدستور باللين، قبل أن يؤخذ بالشدة! أيها الخديو ! كن مخلصاً لشعبك وانصف المظلومين من قومك» ، وكان الخديو يطأطئ رأسه احتراماً لها، ونهضت وسارت إلى الباب فتبعها وودعها بتقبيل يدها

---

(١) يرمز لطفى جمعه بذلك إلى نفسه .

وقد أعجب بها وعمل فعلاً على الأخذ بنصيحتها لولا أن دهمه كتشنر في ١٩١٢ بقسوته والحرب العظمى بكوارثها .

أما ما وقع لكريشنا فارما بعد أن حل بباريس سنة ١٩٠٩ بعد فراره من لندن ، فإنه انتهز فرصة فيضان نهر السين وإغراقه بعض ضواحي العاصمة الفرنسية، وتقدم إلى رئيس الجمهورية وكان مسيو فاليير بهبة قدرها ٢٥ ألف فرنك (ألف جنيه إنجليزي) فتقبلها الرئيس شاكراً لمعونة المصابين بالطوفان النهري ، فلما طالبت حكومة إنجلترا باضطهاده ومطاردته، أغمضت حكومة فرنسا العين واعتذرت قائلة «إنه رجل محب للخير، ورئيس وزارة سابق، وتلميذ سبنسر الأوحد وصحفي وعالم اجتماعي ولاجئ سياسي وليس عليه وزر جريمة معينة فلا يمكنني أن أطارده أو أطرده!» جريدة الطان .

وعاش كريشنا فارما في حي باسي في باريس وهو من أشهر الأحياء في بيت أنيق ومعه زوجته (ولم يعلم لهما نسل) وهي سيدة هندية عريقة النسب، وكان يزين غرفة جلوسه وقاعة طعامه بتصاوير عظماء الهند، ولا سيما «مهاتما تيلاك» واستمرت جريدته تنشر إلى أن أعلنت الحرب العالمية وتحالفت إنجلترا وفرنسا فعلاً على الحرب فانتقل إلى سويسرا، وتبعته مدام كاما، لأن الحكومة الإنجليزية سمعت في حقها وشاية (أحمد خان بهادور) أحد مشاهير جواسيس الهند من أنها كانت ذات يد طولى في الاعتداءات السياسية التي وقعت في الهند على بعض حكامه، ولا سيما شظايا القنابل التي أصابت لورد هاردنج سنة ١٩١٠ و ١٩١١ وادعوا أيضاً أنها كانت على اتصال ببعض ثوار روسيا القيصرية وخصوصاً بورتزيف الصحفي الثوري الذي رفع القناع عن وجه آزيف الشهير الذي كان أول (آجنت بروفا كاتور) عالمي، ولكن هذه التهم لم تثبت عليها وإن كانت أحرجت موقفها مع الحكومة الفرنسية ، فنزحت هي الأخرى إلى سويسرا سنة ١٩١٤ واستمرت في جهادها إلى سنة ١٩٢٢ فقضت نحبها في نفس السنة التي توفي بها المرحوم محمد فريد بك رئيس الحزب الوطني وكانت بينهما صداقة وكذلك بينها وبين المرحومين الدكتور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منصور رفعت وإسماعيل لبيب بك ويعض زعماء المصريين فى الجركة الوطنية الأولى ·

هذه نبذة عن البارسيين قديماً وحديثاً كتبناها عفو الخاطر بمناسبة زيارة اثنين من أعيان هذه الطائفة ، وقلنا إن مدام كاما قد أحرق جثمانها الغالى على غير مذهبها لأن مذهبها يقضى بأن يوضع جسد المتوفى عارياً بأعلى بناء رفيع يسمى «برج الصمت» ويبقى معرضاً حتى تأكله الطير ، وهذه الطريقة معمول بها إلى الآن فى مدينة بومباى نفسها وقد وصفها كل السائحين ·

بعض المراجع : ماكس مولر - هيرودوت - جويتينو - إدوارد براون - ميرزا رفيع مشكى - حياة الشرق ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مظاهرات أول مايو
حركة قديمة لتحديد ساعات العمل [1]

—

ترد فى كل عام رسائل البرق بمظاهرات دولية يقوم بها العمال فى سائر أنحاء العالم المتمدين ، يطلقون عليها اسم « مظاهرات أول مايو » ، وهى لقدم العهد بها ، لايعرف كثيرون من القراء أصلها ولا تتحرى الصحف حقيقتها ، ويظنها البعض مظاهرات ثورية ، لأن بعض العمال يقابلون تحرش الشرطة بهم ، بالدفاع عن أنفسهم ، وتكون معهم نسوتهم وأطفالهم فتزهق الأرواح ، وتراق الدماء ، وتشج الرؤوس وتهشم الأعضاء ، فيتخيل القارىء الشرقى ، لخلو ذهنه من تاريخ تلك المظاهرات ، أنها فتنة سنوية يقوم بها جماعة الفوضى أو أنصار المشاغبة ، والحقيقة بعيدة عن ذلك لأنها حركة مطالبة بأمر يعتقده العمال حقا مقدساً لهم .

وأصل تلك المظاهرات أن المؤتمر الدولى الذى عقد فى جنيف سنة ١٨٦٦ اتخذ قاعدة « العمل لثمانى ساعات فى اليوم » أساسا لمطالب العمال ، ومنذ ثلاث وستين عاماً تعودت مؤتمرات العمال القومية والدولية الاشتراكية منها وغير الاشتراكية ، أن تجعل هذا المطلب فى مقدمة مطالبها ، لأنها تعتبره قائماً على فكرة عادلة غايتها إنصاف العامل بوصف كونه إنساناً لبدنه عليه حقوق مثل التى عليه لصاحب العمل ورب المال ومدير المصنع . وحقيقة هذا المطلب أنه ليس اشتراكيا فى أصله ، ولكن الاشتراكيين انتحلوا مبدأ المناداة به لثلاثة أسباب جوهرية :

الأول : أنه يقضى على الفراغ والعطل اللذين يئن منهما العمال فى أنحاء العالم ويحل مسألة البطالة .

الثانى : أنه يرفع الأجور ويحسن حالة العامل .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة البلاغ فى (؟) سنة ١٩٢٩.
وأعيد نشره فى كتاب المؤلف « قضايا ومشكلات اجتماعية فى مصر المعاصرة » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثالث : يمنح العمال نصيباً من الفراغ يصرفونه فى تدبير شؤونهم والدفاع عن مصالحهم الخاصة .

ويدعى الاشتراكيون أن الثمانى ساعات هى أقصى ما يجوز تكليف العامل به وأنهم يؤملون أن يصل الإصلاح الاجتماعى بالعامل إلى تخفيض ساعات العمل إلى سبع ساعات أو ست أو خمس ، ولعل هذا من نوع المغالاة فى طلب الكثير حتى ينالوا القليل . فإنهم لاشك قانعون بالثمانى .

ومن غرائب الاتفاق أن واحداً من أكبر أرباب رؤوس الأموال وأعظم المصانع وهو فورد الأمريكى الشهير قد اختصر ساعات العمل إلى أربعين ساعة فى الأسبوع وهى بمتوسط ست ساعات للعمل فى اليوم الواحد ، وأدخل هذا الإصلاح فى مصانعه بمحض إرادته دون إرهاق ولا إرغام ، ولكن رغبة منه فى تحسين حال عماله فضلا عن إصلاحات أخرى ابتدعها وأسبغ نعمتها على عماله فى مساكنهم وأجورهم ووسائل معاشهم وتعليم أولادهم والسهر على صحتهم وتوفير النقود لشيخوختهم .

وقد أسس العمال جريدة لتكون لسان حالهم فى أول مايو من كل عام أسموها Manifestation de Ire Mai أى « مظاهرة أول مايو » ولم يصدر منها سوى عددين الأول فى سنة ١٨٩٢ والثانى فى سنة ١٨٩٤، ولكن الحركة استمرت بدون جريدة ، وفى سنة ١٨٩٢ أصدر المجلس الوطنى لحزب العمال الفرنسى منشوراً خاصا بتحديد ساعات العمل ، جاء فيه أن مطلب الساعات الثمانى أهم مطلب للعمال ، وأنه واجب التحقيق فوراً لأن تلك الساعات كافية للإنتاج إذا استخدم كل شخص قادر على العمل بدلا من أن يستغل أفراد بقيمة زهيدة ليبقى الكثيرون عاطلين وليفيد أرباب رؤوس الأموال الفرق فى الجهود والنقود ، على أن أرباب الأموال وأصحاب المصانع أنفسهم ينتفعون من تحديد ساعات العمل بتقليل المزاحمة الناشئة من الإكثار من الإنتاج والمضاربة بإنقاص الأثمان وهى نتيجة محتمة للإفراط فى الإنتاج وعرض المصنوعات والبضائع بكثرة مهولة على أسواق بليت بالكساد . ثم إن راحة العامل وتحسن حاله يعودان على العمل نفسه بالفائدة لأن

العمل الذى يخرج من يد عامل منهوك القوى لايعدل العمل الذى ينتجه الصانع المستريح المطمئن على ذاته وعلى بيته ، المالك قياد إرادته .

وقد ألف الإنجليزى الفاضل جون راى كتابا اسمه « يوم الساعات الثمانى » ونقله إلى اللغة الفرنسية جيوشتارك وجعله مبحثاً للمقارنة بين النتائج التى أسفر عنها تطبيق تلك القاعدة فى الجمهوريات والممالك المختلفة . وثمرة مباحثه الدولية المؤيدة بالإحصاء فى جميع جهات العالم تؤيد فوائد تحديد ساعات العمل ، وفى الطبعة الأخيرة من هذا الكتاب (باريس جياروبريين سنة ١٩٠٠) فصل ختامى عن التقدم الذى أحرزته تلك الحركة فى إنجلترا وهى وطن المؤلف وأعظم مركز للعمل والعمال فى العالم بالنسبة لمساحتها وعدد سكانها ويعد هذا الكتاب أساساً علمياً للمطالبة بتحديد الساعات .

وقد ذكرنا جريدة مظاهرة أول مايو الفرنسية التى ظهر منها عددان فى ١٨٩٢و١٨٩٤ ، ولايفوتنا أن نذكر جريدتين أخريين أنشئتا للدفاع عن هذا المطلب سبقتا تلك الصحيفة بسنين ، الأولى أمريكية تحرر باللغة الإنجليزية وتنشر فى مدينة بوسطون منذ سنة ١٨٦٩ أى بعد مؤتمر جنيف الدولى الذى قرر المناداة بهذا المبدأ بثلاث سنين واسمها Eight Hours League ، والثانية تنشر بالفرنسية أسبوعياً منذ ٧ ديسمبر سنة ١٨٨٩ وتظهر فى مدينة زوريخ السويسرية واسمها يوم الساعات الثمان La journée de Huit heures وينفق عليهما العمال خاصة .

ومما يذكر فى هذا المقام بمناسبة تشريع العمال أن الحكومات المصرية يجب عليها أن تعنى بتحديد ساعات العمل ، وأن تنظم عمل النساء والأطفال مراعية فى حالتهم ضعف المرأة وحاجاتها للراحة البدنية فى أوقات معينة ، كذلك يجب عليها حماية الطفولة من مطامع أرباب الأموال لئلا تعجز أجسام الصغار عن النمو فلا يعودوا صالحين للحياة فى المستقبل ، وطفل اليوم والد رجل الغد كما يقول الإنجليز فى أمثالهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صفحة من حياة العمال فى أوربا[1]

- ١ -

فى هذه الدنيا أشياء ، إذا رآها الإنسان ، لا ينساها ، ولا يزول أثرها من ذهنه ، مهما مضى عليها من زمن وانقضت أيام وليال ، تلك هى التى تلابس حياة الجماعات فى سبيل المقاصد السامية ، لا سيما ما كان منها عادلا ، وقد يمر المرء بجانب أعظم الحوادث وأعجبها دون أن يدرك معناها أو يقف على حقيقتها .

وإليك ماكتبه الكاتب البلجيكى الفلامندى دى نستر فانر عن الهجوم على الباستيل ، قال : حالما كان الكونت دى بواسونيير راكبا مركبته وقاصداً إلى موعد غرام ، للقاء حبيبته البارونة مينيون ، وكان مسرعا لأنه تأخر بضع دقائق فى غرفة التواليت مرّ بجماعة صاخبة ، ورأى بعض الرجال والنساء من الشعب يصرخون ، وقد علاهم الغبار ، فلم يستبن جلية الأمر وهو منشغل بموعده ، فأمر الحوذى بالوقوف ، ثم نادى على أحد المارة ، فتقدم إليه فى خضوع وأدب ، فسأله الكونت : ماذا جرى ها هنا ؟ فأجابه : إن الشعب يهاجم الباستيل ، فقال الكونت : هذا كل ما فى الأمر ؟! « سوق يا أسطى !» .. وهكذا مر الكونت بأعظم حوادث التاريخ الحديث دون إدراك معناها .

وقد لا بسنا الحالة الآتية ورأيناها رأى العين ، فقد كنت فى مدينة جنيف وأردت الخروج لقضاء حاجة لى فسرت وشارع الرون إلى أن بلغت « ساحة بلير » وإذا بأصوات تكاد تصل إلى عنان السماء ، وهم يصيحون بتشيد الأنترناسيُنال وصوتهم يقع فى الأذن كأنه صدى الرعد القاصف منشدين :

هبوا أيها الأسرى ، وفكوا القيود !

فهذا يوم الجهاد الأخير !

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٢٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صوت رهيب جليل ، وكلمات يغلي لها الدم فى العروق ، صادرة كلها عن قلوب هؤلاء العمال مهضومي الحقوق . هؤلاء هم عمال المطابع الذين قضوا أعمارهم في تنوير أذهان الناس بمعاناة حرفة شاقة هي صف الحروف وجمع الكلمات وتأليف السطور وتكوين أنهر الصحف وصفحات الكتب فى كل علم وفن .

وكان كل من من يسير إلى جانبي فى الطريق يقصد مصدر تلك المظاهرة العجيبة ليرى العمال فى اجتماعهم المشهود .

وأخيراً بلغت مع السائرين حدود الاجتماع الذى اضطر مركبات الترام للسكون ، وحرك فرقة من الشرطة الراكبة ، وكان يحيط بالاجتماع سلسلة من رجال البوليس ، يبدو عليهم السخط والغضب ، كأنهم هم أصحاب الأموال وأن العمال الهائجين يطالبون بحقوقهم منهم ، ونسى هؤلاء الغلاظ أن هؤلاء العمال هم إخوتهم وإخوانهم وأقاربهم بل إنهم إذا خرجوا غدا من صفوف الشرطة ، لهفوة أو لعاهة، يضطرون لدخول صفوف العمال وقد يناصرون الاعتصاب القادم ، ولكن للخوذة الحكومية وللسراويل السوداء والأزرة النحاسية وللحبل الأبيض الذى يزين صدور تلك الطغمة في جنيف ، هزة وهمية . فهم اليوم أبناء اليوم ، وهم يضربون بسيف صاحب العمل والمال الذى تخدمه الحكومة الجنفاوزية لأنه دعامة وجودها وسلسلتها الفقرية .

كان الاجتماع فظيعاً مهولا ، يضم نحو ألفين من العمال ، ليس بينهم رجل واحد حسن البزة ، ووجوههم قد لفحتها أشعة الشمس ، وشعر لحاهم النابت لأربعة أيام ، وشحوب سحن معظمهم ، وعيونهم الحائرة التى تنظر دون أن تهتدى لمكان ، تدل كلها على أنهم مشغولون عن مظاهرهم الخارجية بقضيتهم الكبرى التى تتعلق بها حياة ألوف من النسوة والأطفال الذين تركوهم وراءهم فى بيوت خاوية من الكساء والطعام !

هيا بنا إلى إدارة التريبيون نحطمها !!

هيا بنا !

كانت هذه الكلمات الفظيعة تتردد على ألسنة بعضهم كما كان البعض قد بدأ النشيد الأول :

« هبوا أيها الأسرى وفكوا القيود ! ... هذا يوم الجهاد الأخير ! »

وتحرك ذلك الجسم المهول ، كأنه حيوان كبير لم يدرس طباعه علماء الحيوان، تحرك هذا المجموع البشرى ببطء كأنه وحش من أسرة الفيل ، ولكنه لا يملك فطنة الفيل ولا ذكاءه ، يملك خرطوم الفيل ، فيمكنه أن يضرب ويقتل كل من حوله ، ويملك أرجل الفيل التى يستطيع أن يدوس بها كل من يعانده ولو كان سيده الأعلى ، الذى ذلّه وركبه ، ويملك أعين الفيل الصغيرة وآذانه الكبيرة ، فهو كالفيل ضعيف النظر حاد السمع !

فلما رأى رجال الشرطة أن المجموع يحاول الذهاب إلى إدارة جريدة «التريبيون» ويحتمل مهاجمة هذا المكان وإيصال الأذى بمن فيه ، تكلم رئيس الشرطة بصوت أجش وقال إنه « لا يسمح لأحد بالانتقال من هذا المكان ، وليس للمعتصبين حق المظاهرة أينما يريدون ، إنما فى شوارع معينة » .

فصرخ أحد العمال وقال : « نحن لسنا معتصبين ، إنما نحن مطرودون !» .

فدنوت من أحد العمال وسألته عن سبب الاجتماع . فنظر إلىّ بدهش كأنه عجب لمن لا يعرف سبب تجمهر هذا العدد العظيم ، وقال لى إن جريدة التريبيون طردت مائة عامل لاستغنائها عنهم بآلة بخارية استحضرتها حديثا ، ولذا اعتصب عمال المطابع على بكرة أبيهم إظهاراً لاستيائهم من سلوك المدير ، ثم جذبته حركة العمال المتحركين الذين ساروا دون اكتراث بإنذار رجال الشرطة ، فتعلق رجال الشرطة بأهدابهم وهجم عليهم الخيالة ، فتخيلت هجوم نمر على فيل وتعلقه بعنقه ، هكذا هجم رجال الشرطة على الجمع العظيم ليفرقوا شملهم أو يعوقوهم عن السير إلى جريدة التريبيون ، خشية حدوث معركة دموية مهولة ! ...

« يهودى قذر ! اذهب إلى أمريكا حيث كنت أيها الخبيث !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنك لا تكتفى بخمسة وعشرين ألف فرنك حتى تريد أن تمتص دماءنا وتنتفع بربحنا القليل !».

كان هذا الكلام موجها من أحد العمال الذين أسكرتهم خمرة الاجتماع إلى شخص موجود فى خياله هو سبب هذا الاجتماع وهو « المستر سنيور » مدير جريدة التريبيون الذى جاء من أمريكا فقيراً ، فدخل بوظيفة كاتب صغير ، وما زال يتسلق المناصب ويتحين الفرص ، ويوقع بخصومه ويخلص من منافسيه ، حتى صار مديراً، ينقد أعظم أجر فيها وصاحب معظم سهامها ، وعن قريب يصير صاحبها المفرد .

ولما طال النضال بين رجال الشرطة ورجال العمل ولم يقو رجال البوليس على إرهاقهم ولم يصدر إليهم أمر بإطلاق الرصاص ، أو الحمل بالسيف المسلول ، كذلك لما رأى العمال عقم المقاومة وهم غير مسلحين ، ولما كان الطريق خاليا من الأحجار التى يستنجد بها العمال فى مثل تلك الأحوال ، ثم نظروا حولهم فإذا بالجند محيطون بهم إحاطة السوار بالمعصم وأمامهم نهر الرون وعن يمينهم وشمالهم مخازن التجارة ، قر قرارهم على التفرق للاجتماع فى مكان آخر يكون السير منه إلى إدارة التريبيون أسهل وأمن عاقبة ، وأقل خطراً على الآخرين . فوقف فيهم «بيرتونى» زعيمهم وأكثرهم تواضعا ، خطيبا ، ونصح إليهم بالانصراف فانصرف معظمهم فى الطرق أفرادا وجماعات تحت مراقبة البوليس وحاول البعض العناد ، ولكنهم كانوا قليلين فلم يطل أمد عنادهم وانصرفوا كبقية إخوانهم .

- ٢ -

وسار بيرتونى ذاته مع بعض رفاقه نحو قهوة على شاطىء البحيرة ، وكان وهو يسير يهتز قليلا لضعفه ، وينظر أمامه بحدة فيبدو وجهه النحيل ، الشاحب ، المستطيل ، وشارباه النازلان على ذقن محلوقة باعتناء ، وكان إذا تكلم يسمع لصوته دوى ، عدا ما يعترى ألفاظه من اللهجة الإيطالية التى سرت إليه من وطنه لأنه من مقاطعة «تيسان» وهى من أعمال سويسرا الإيطالية .

وكان هذا العامل الفقير نظيف الثياب على بساطتها ، يحيط به شيء من الزعامة ، وجمال العظمة ، مع شدة تواضعه وانكساره الظاهر ٠

ولكن الذى يصل إلى ذهنه يرى خلقا قويا ، وإرادة لاتنثنى وقلبا ثا يعتريه خوف ، وصبرا على الجهاد لا يصيبه الضجر ، وقوة بدنية غريبة ساكنة فى هذا الجسم الضئيل ، الذى كان تارة كأنه مصباح صغير فيه شعل لاتريد أن تنطفىء ، وتارة كأنه قطعة من الفولاذ يثنيه التعب ولكن لا يقوى شى فلّه ، أو تحطيمه ٠٠٠

كان بيرتونى معروفا فى عالم العمال بالزعامة ، مع أنه لا يدعيها و إيطاليا يعرف «بالعفريت» لحزمه فى تدبير أعمال حزبه دون أن يعلم به البوليس ، وقد يعلم به البوليس ، وقد يعمل تحت أنوف رجال الشرطة ، وأبصا ومبدأه السياسى هو الفوضوية التى ليس أساسها كما يظن بعضهم قتل الأ لأن قتل الأفراد من مبدأ الإرهابيين ، أما الفوضويون فيريدون فناء النظام ا فى الوقت الحاضر على الهيئة الاجتماعية والاستغناء عنه بنظام طبيعى غير وغير مصطنع ، وهذا حلم مستحيل التحقيق ٠

وتاريخ هذا الرجل لا يختلف فى كثير عن تاريخ غيره من زعماء ال الخيالية فى البلاد الغربية ٠ فإنه نشأ فى أسرة فقيرة وكان محبا للعلم ، فأخ كل ما يقع له من الكتب والرسائل والصحف، ومنذ عهد باكونين إلى الآن ، لدى العمال سوى نوع واحد من الكتب هى الكتب الاشتراكية والاقتصادية تشرح فيها مصائب العمال وحقارة نصيبهم من أطايب الحياة وظلم أصحاب ا وطرق الخلاص من هذا العذاب ، ثم إن الحرفة التى اختارها بيرتونى ، ساعد تكميل تعليمه ، فنشأ هذا الصبى منذ نعومة أظفاره فوضوياً بطبيعته ٠ الطبيعة وهبته قوة خلق وقوة بدن وصوت شديد ورئتين صحيحتين كأنهما صف من النحاس المجلو ، وهو يعمل فى إحدى المطابع الصغرى ويربح مايقوم بنف وأبيه الشيخين وزوجته وولد تبناه ، وما يقوم كذلك بنفقة طبع جريدة « النه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى تصدر باللغتين الإيطالية والفرنسوية ثم هو يجد غير ذلك سعة فى الرزق فيجود بما تبقى على صندوق حزبه الفقير .

وقد لقى من جمهورية جنيف منذ عدة سنين ما لم يلق أشد المجرمين ، فقد سجنوه وعذبوه ثم نفوه ، فلما عاد من منفاه تسامحوا معه وتناسوه ، وكان إذا دخل مطبعة طرده مديرها غداة دخوله عندما يعلم بتاريخه وحوادثه السابقة ، لقى كل هذه المكاره فى سبيل الدفاع عن مبادىء يعتقد صحتها ويعتقد أنها الحق الذى لا قيمة للحياة بدونه والذى لأجله ينبغى للأبطال أن تموت .

وقد كان هذا المبدأ وأمثاله خلايا جذابا فى نظر الفقراء ، لأنه من المبادىء التى سرت فى الإنسانية منذ القدم ، وشرحها أفلاطون فيلسوف اليونان العظيم فى كتابه الشهير « الجمهورية La Republique » ، وإنه لمن الخطر الشديد أن تصل تلك المبادىء للجهال فيسيئون استعمالها ، ولم يكن برتونى وغيره من العمال إلا راغبين فى الرزق وفى تحسين حالهم نوعا ، وليس العطل وحده هو سبب الفتنة ، فإن لدى الإنجليز نحو مليون ونصف من العمال العاطلين ، ولكن حكومة إنجلترا تلافت الضرر بأن أقطعتهم أرزاقا تجرى عليهم فى كل أسبوع فتصونهم من الجوع وبذلك اتقت شرهم ، وكذلك فى جميع بلاد أوربا المتمدينة ، يريد العمال شيئاً من اليسر وبحبوحة العيش ، وقد سار على هذه الخطة فورد فى معامله وحسن حالة العمال فأمن غضبهم وسخطهم ، وأتقى شر الفظائع التى تجرى الآن فى روسيا البولشفية ، التى فشلت فى تجربتها الخائبة [١].

---

(١) وصف المؤلف الثورة الشيوعية فى روسيا بالخيبة بعد قيامها سنة ١٩١٧ بحوالى ١٢ سنة فقط ، وقد حققت الأيام نبوءته بوصف هذه الثورة بالخيبة والفشل وذلك بانهيار الاتحاد السوفيتى بعد ذلك (١٩٩١) أى باكثر من سبعين عاماً فتأمل ! (ر.ل.ج).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ٣ -

سار برتوني ومعه إخوانه إلى القهوة وكان يتبعهم نفر قليل من المتصبين ومن المستطلعين ولكنهم اتقوا تجمهر الناس من جديد بدخولهم القهوة ، فبقى المستطلعون ريثما يتحققون نهاية هذا الفصل من حياة العمال .

وكان بصحبة بيرتونى عامل آخر مطرود من عمال التريبيون اسمه « لينوار » وآخر اسمه « ليكيه » وثالث اسمه « لوبيون » ورابع اسمه « ماردريس » وكانت هذه الفئة تكاد تكون اللجنة التنفيذية لحركة العمال دون أن يصرح أحد منهم بذلك لعدم تعود الفوضوية على الخضوع لرئيس معروف لأن هذا يخالف بطبيعته للمبادىء التى يناصرونها والتى أيدها أفلاطون فى كتابه . فبدأ لينوار بالكلام وكان شخصا كبير الجسم جداً أسمر اللون له رأس يشبه رأس الضبع ، وعيناه تدلان على القوة والقسوة والإقدام ، وله شاربان أسودان وقليل من الشعر تحت الشفة السفلى التى تميزت بغلظتها وبروزها ، وكان الناظر لهذا العامل الفظيع الخلق الذى ملأ ذراعيه وصدره بالوشم لا يصدق مطلقاً أن فريق العمال مهضوم أو مظلوم أو جائع وأمامه ذلك المثل الوحشى الشبعان الريان !

بدأ لينوار بالكلام وكان صوته غليظاً ثقيلاً ، كأنه مصنوع للشتم والصياح ، لا للكلام العذب فقال : « اسمعوا ! أنا لا أعرف إلا العمل المباشر لابد من القضاء على جريدة التريبيون وطرد شنيدر من جنيف ، إن لم يعد إخواننا إلى العمل (يقصد ذاته) ، دخلت بالأمس على هذا الخنزير فقال لى بلهجته الأمريكية وصوته الخارج من أنفه هكذا (وهنا أخذ يقلد لهجة شنيدر) « ياموسيو لينوار أنت من مقاطعة «فو» أليس كذلك ؟ فلماذا لاتعود إلى وطنك وتجد عملا هناك ؟ » هذا قول سديد « بان» (تحوير لفظ bien « بيان » الفرنسوية) لماذا لاتعود أنت يا موسيو شنيدر إلى أمريكا ؟ إن مقاطعة فو أقرب إلى مقاطعة جنيف من نيويورك إلى هذه المدينة ، أليس كذلك ياموسيو شنيدر ؟! فقال لى اليهودى الخبيث ! : إننى أسألك فقط ولم أطلب منك أن تنصحنى ، ونظر لينوار إلى إخوانه وقال لهم : « فهممت به وكنت أريد أن

ألكمه في وجهه الثقيل أو على الأقل أصفعه صفعة شديدة » .

ثم تناول لينوار كأس الجعة التي كانت أمامه وجرعها إلى ثلاثة أرباعها كأنه يطفىء ظمأه بعد هذا الخطاب الطويل الدموى ، وجلس بين التهليل والتصفيق ، ولكن برتوني كان ممتعضاً ، ثم نهض ليكيه فتكلم وكان عاملا أمينا يهتم بإخوانه أكثر من اهتمامه بنفسه وهو رجل نحيف أحمر الوجه ، أزرق العينين هادىء بطبيعته ، يود على الدوام الوصول لغايته بالوسائل السلمية ، ويود ما استطاع الابتعاد عن العمل المباشر ، وكان يعتقد أنه بعمله وعمل إخوانه يؤدى خدمة في سبيل المبادىء الحرة الحقيقية .

فقال : « إن أحسن الأشياء في نظرى هو مقاطعة جريدة التريبيون ، وحث الجمهور على مقاطعتها ، وجعله حكما بينها وبيننا ، فإن كنا محقين فلا ريب في أنها تسقط بطبيعتها لمعاداة الجمهور إياها وبذلك نجد لنا عملا في مطابع أخرى ، دون إقلاق الراحة العامة ، ولكننا إذا اتخذنا طرق العمل المباشر فربما أغضبنا الرأى العام ، وقطعنا على أنفسنا وسائل الرزق وأسأنا إلى الحركة كلها بتنفير العمال المحتاجين » . وجلس في صمت وهدوء ، وقد أظهر بعض العمال ارتياحاً لرأيه الهادىء الرزين .

ثم نهض مارديرس وكان أقدمهم ، وهو كهل في نحو الخمسين ويظهر كذلك أنه أرقاهم بعلمه وفكره ، وهو رجل وسط أسمر اللون لحقه الشيب في شعر رأسه وشاربيه الضئيلين ، وله لحية صغيرة مدببة في أسفل الذقن ، وهو يقى عينيه شدة النور بزجاجتين سوداوين ، تفتآن تهتزان على أنفه كلما تكلم محتداً وصوته خافت يبدو فيه ضعف المتكلم ، وتقدم في السن ، ولكنه كان مسموع الكلمة لا سيما من برتوني الذى كان يجله ويبجله ويحبه حباً لا يعرفه إلا إخوان الضراء الذين تجمعهم المصائب وتريهم حوادث الأيام أنهم مجذوبون نحو بعضهم بعضا بقوة خفية ، وهذا الحب يفوق حب الأهل وناهيك بحب الرفاق في الحرب منذ قديم الزمان وحب الجهاد في سبيل رفعة الأوطان !.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بدأ ماردیروس کلامه بقوله « کاماراد ! » أیها الرفاق !! » إن الرفیق لینوار شدید البأس ، والرفیق لیکیه شدید اللین ، وأنا أخشى أن يكون تقدمى فى السن داعيا لاتهامى لديكم بالرجعية والتقهقر !» .

فقال لينوار متظاهراً بالتكهن بالرأى الذى سيبديه رفيقه الكهل « بان الور » ! (bien alors) ، فقال الرفيق « برتونى » : اسمع يالينوار حتى ينتهى الرفيق ماردیروس من كلامه ! لا نحب المقاطعة ولا نرغب فيها !

فاستأنف الرفيق ماردیروس القول بتؤدة وقال : « إن سبب طرد رفاقنا العمال من مطبعة التريبيون ، هو لاشك استحضار آلة طباعة كبرى ورغبة الموسيو شنيدر ... فاعترضه لينوار: « لاتقل عنه موسيو بل سمه الخنزير شنيدر !» فقال ماردیروس : سمه كيف شئت ولكن هذا لا يمنع من أن إرادته الشريرة هى التى دعتنا إلى هذا الاجتماع وتلك الحيرة ، إنه لاشك راغب فى الاقتصاد وقد أنذرنا منذ عام إذ تمرد بعض الرفاق بحق ، وأنذروه بالاعتصاب ، بأنه سيستغنى بآلة من الحديد عن جلبة العمال ، وقال إن هذه الآلة لن تهددنى ولن تتعصب ، ولن تطلب زيادة فى الأجور ، يشير الرفيق لينوار بالقضاء على الجريدة وإخراج شنيدر من جنيف، وأشار الرفيق ليكيه بمقاطعته وأنا أشير بإيقاف الرأى العام على دخائل الجريدة وفضائحها ، وإنذار الموسيو شنيدر بالأذى إذا لم يردّ العمال إلى أعمالهم ، أو إذا لم يتعهد بنفقة أسرهم ثلاثة شهور ريثما يجدون أعمالا فى غير مطبعته ، وإنا ندعو سائر عمال المطابع إلى الاعتصاب عن العمل حتى تجاب مطالبنا . هذا هو الرأى الذى أراه وسيلة للخروج من مأزقنا الحاضر ».

فقال لينوار متضجراً : « بان الور » Bien alors .

فقال بيرتونى بعد أن نظر إلى رفقائه الثلاثة : إننى موافق على ما يقوله الرفيق ماردیروس ولكن ما هى طريقة النشر للرأى العام ؟

فقال ليكيه الذى كان يميل لهذا الرأى ولكن يخشى التصريح به لئلا يزجره لينوار : إن الصحف الأخرى لاشك تنشر ما نراه .

قال ماردیروس : كلا لابد من طريقة أخرى فإن جريدة « جورنال دى چنيف » وإن كانت تزاحم التربيون إلا أنها تخشى أصحاب الأموال .

ويدأ الجميع يتداولون فى كيفية إيقاف الرأى العام على دخائل التربيون وفضائحها !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صفحة من حياة العمال فى أوربا

كيف مات برتونى الشهير بساحة بلانبليه بمدينة جنيف[1]

-٤-

لقد تمثل فى هذا الاجتماع الذى عقد مصادفة واضطراراً ، جميع ناحيات الفكرة فى سبيل تنفيذ الخطة التى أرادوا تنفيذها ، فقد كان تجمهر عظيم ، يتحداه رجال الشرطة ، ويضيقون عليه الخناق ، وناهيك برجال شرطة جنيف ، فهم أشبه الناس بالقوزاق ، ينتقون عادة من بين الأفظاظ الأشداء ، وكأنهم لتشابههم فى القوة منصبّون فى قالب واحد ، وهم لايعرفون الرحمة ، ويبالغون فى تطبيق القانون ، ومثلهم فى تطبيق القانون مثل ذلك المغربى الذى سئل عما إذا كان يحفظ القرآن الشريف ؟ فأجاب : « نحفظ ونزيد يا سيدى ؟ » ، وهؤلاء الجندرمة الجنيفيون يطبقون القانون ويزيدون ، كما سيظهر من الخفايا فى تلك القضية الشهيرة التى كان لها شأن عظيم فى سائر الأوساط الأوربية .

كان العمال مسالمين ، وفيهم العناصر الميالة للعصيان والعنف وأخذ الحق باليمين دون الركون إلى نصوص القانون وهو ما يسمونه بالفعل المباشر Action directe . وفيلسوف هذا الرأى والمبشر به العلامة جورج سوريال مؤلف كتاب Reflecions sur Le violence .

تركناهم وهم يتداولون فى خير وسيلة للوصول لغايتهم بالطرق المشروعة وقد أيد كل زعيم منهم فكرته ومهد السبيل لخطته ثم نهض برتونى فقال : اسمعوا أيها الرفاق إن أفضل الطرق هى تحرير إعلان كبير وطبعه بالحروف الكبيرة وتعليقه فى شوارع المدينة ، فإذا كان الغد ، عرف أهل البلد مانريد أن يصل إلى علمهم ،

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بالبلاغ الأسبوعى فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٩وهو تتمة للمقال السابق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتحادثوا به في بيوتهم، وهذا أوقع في النفوس من مقالات الجرائد التي تقرأ وتنسى!

قال ماردیروس : ولكن رجال الشرطة لن يسمحوا للناس بتعليق مثل هذا الإعلان فيذهب الغرض المطلوب من أيدينا .

قال برتوني : إذن لابد من تعليقه ليلا دون أن تعلم الشرطة بظروفه .

قال ماردیروس : يوجد قانون يحرم تعليق الإعلانات ليلاً ، لا سيما إذا كانت من هذا النوع وأنت تعلمه ، وقد احتججنا عليه ولم ينفع احتجاجنا !

قال برتوني: (مافوا !) (Ma Foi !) وهي عبارة تعجبية أو تهكمية : يا رباه ! واعجبا ! لابد من قليل من المجازفة في مثل هذه الأحوال .

فقال لينوار : هذا رأى صائب ! لابد من تحرير الإعلان في الحال .

قال برتوني : هل أنتم موافقون أيها الرفاق على هذا العمل ؟

فقالوا جميعاً : موافقون !

فضرب برتوني المائدة بيده ودعا الخادم وطلب إليه قرطاسا وقلماً وأخذ يكتب ، ورفاقه يتحادثون ويجرعون الجعة ، ويدخنون ، ولينوار يضرب الأرض بقدمه تارة ويضرب رخام (مرمر) المائدة بكفه الثقيل تارة أخرى ، ثم يحملق في ليكيه إذا تكلم وأبدى رأيا يخالف آراءه ، كمن يريد أن يلتهمه ، ويكتفي بقوله لماردیروس (بان الور!) Bien alors ، وأخيراً انتهى برتوني من تحرير الإعلان فقرأه لإخوانه وإليك نصه ، كما تلى في محكمة الجنايات :

إلى أهل مدينة جنيف !

أيها الوطنيون الأعزاء (ويتلو ذلك شرح مظلمتهم التي وقفت عليها ملخصة) ، وآخره : وإن للعمال المظلومين وطيد الأمل في همة أهل المدينة ووطنيتهم تلك المدنية التي اشتهرت بمناصرة الضعفاء ، وحماية الأحرار !

وبين البداية والختام قال ماشاء في خصال شنيدر وتاريخ أعماله في جريدة التريبيون وفضائحه ، وإدمانه المعاقرة ، وسوء معاملته للعمال .

ثم قال للعمال ، بعد أن وافقوا على هذا المنشور ، إنه يطلبهم لمباشرة الطبع ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأن النفقة تبلغ نحو ٢٠ فرنكا يدفع هو نصفها ، فاكتتب ليكيه بخمسة وماردیروس بخمسة واكتفى لينوار بجمع النقود ، قائلا : (بان الور) يقصد بها أنه لاحاجة لاكتتابه مادام المبلغ المطلوب قد جمع دون أن يخرج من جيبه مائة صلدى.

ثم نهض الأربعة من القهوة فذهب برتونى إلى المطبعة لجمع الحروف وصفها وذهب ليكيه لشراء الورق والعودة به ووعد ماردیروس بالاجتماع بهما للمناقشة فى طريقة التعليق ، واستأذن لينوار فى الانصراف لمنزله ووعد بالاشتراك فى التعليق ليلا ، لأن فيه شيئا من المغامرة والمجازفة وهو يحبهما ، ويتفانى فى سبيل إظهار قوته !

فلما بلغ برتونى المطبعة فتح بابها بمفتاح معه وأشعل مصباح البترول ، إذ كانت الساعة الخامسة بعد الظهر ، وقد غابت الشمس لأن الفصل كان شتاء ، وأغلق الباب من الداخل وبدأ يصفّ حروف المنشور بالحرف الكبير وهو يسلى نفسه تارة بإلقاء خطب خيالية وتارة بنشيد الأنترناسيونال .

وفى الساعة السادسة ، أخرج التجربة الأولى ، ثم صححها ثم أخرج الثانية فى السابعة وبدأ بالطبع بمفرده فى منتصف الساعة الثامنة ، وهو لم يتناول شيئاً من الطعام . وعندما بدأ يدير يد العجلة الكبيرة وفاحت رائحة المداد الأسود وسمع فى أذنه صوت المطبعة ، سكر سكراً يفوق سكر من يجرعون خمر الكحل ، وذهب عنه التعب ونسى الجوع والبرد ، وقد أنجز بعد ساعتين طبع أكثر من ألف نسخة على ورق أحمر رقيق ، بعث به ليكيه برسول خشية أن يراقبه البوليس فى ذهابه إلى المطبعة .

وبعد ذلك لف المنشور فى ملف كبير ، وخرج يحمله على كاهله ، وكانت الساعة العاشرة والبرد شديداً والهواء يهب جافا فيلقاه العامل فى وجهه كأنه ضربات سوط متتالية . وكان برتونى يخشى سقوط المطر ، خوفا على المنشور المطبوع من التلف ، سار بتلك الأمانة مخترقا شارع هيس ، فبوليفار جورج فافون ، فساحة بلانبليه حتى إذا بلغ شارع سافواز ، حيث يقطن ، سلم الأمانة لرجل كان بانتظاره ، وأرشده

إلى منزله ، لأن بجواره مقر الشرطة ومنزله لايخلو من المراقبة فى وقت من الأوقات !

ثم سار قليلا حتى بلغ شارع برجالون ، ودار دورة فإذا هوببولفار كارل فوجت، حيث كان ينتظره لينوار وماردبروس وليكيه ليتشاوروا فى طريقة التوزيع والتعليق على جدران المدينة . وكان برتونى أكثر رفاقه عملا فكان أصفر منهوك القوى وقد أصابته حمى متقطعة من شدة العمل المصحوبة بالجوع الطويل والانفعال.

فقال لينوار : (بان الور !) يقصد بها هل تم طبع المنشور ؟

فأشار برتونى برأسه ضجرا ، ليفهم صاحبه أن الطبع قد تم ولم يبق إلا أمر التعليق على الجدران .

فاتفقوا على أن يقوم به لينوار وبرتونى فى حى « بلانبليه »وأن يقوم به ماردبروس وليكيه فى شارع « مونبلانك » وما إليه .

وكان العمل الموكول إلى ماردبروس لكبر سنه وضعف بصره ، هو مراقبة الطريق وإرشاد ليكيه ، وهكذا تم بين هؤلاء الزعماء تقسيم العمل لمصلحة الجميع .

وكان برتونى قد أوصى بتعليق خمسمائة نسخة فى ساحة بلانبليه نحو الساعة الواحدة بعد نصف الليل وخمسمائة أخرى فى حى مونبلانك ، وقضوا بقية الوقت فى الحديث والمناقشة .

فلما دقت الساعة الثانية عشرة نهضوا وسار كل اثنين منهما فى جهة متفرقين لتضليل رجال الخفية (البوليس السرى).

وكانت ساحة بلانبليه فى تلك الساعة لسعتها وهبوب الريح فى جوانبها كقطعة من البحر الخضم وبعض مصابيحها الكبرى كأنها المنائر تضىء للسفن الحائرة طريقها فى عرض اليم وفى جوف الظلام ، وكانت السماء ملبدة بالغيوم ، والضباب شامل الساحة ، كأنه ثوب من الدخان البنفسجى ، يتلون تارة بلون سنجابى ، وطوراً بلون أصفر قاتم ، كما أن أعمدة المصابيح تظهر كأنها أشباح رجال ، لكل منهم رجل واحدة وتنبعث عن وجوههم أنوار مخيفة ، ولكنها ضئيلة ، عاجزة عن تبديد سواد الليل الحالك !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان برتونى يخترق هذه الساحة ليصل إلى المنشورات التى وكل إليه أمر لصقها ، وهو يسعل قليلا من شدة البرد ونحول بدنه وكثرة ما عاناه من التعب منذ بداية الإضراب .

فلما توسط الساحة وجد عددا من المنشورات وسلما صغيرا من الخشب ، فحمل المنشورات باليمين ، والسلم بالشمال ، وسار قاصدا شارع « فيوجر ناندييه» حيث التقى بزميله ليكيه ، فلما رأى شبحا صفر له صفيرا خفيا فأجابه الآخر بأن سعل له سعالا مجلوبا . فأخرج برتونى من جيبه مصباحا كهربائيا صغيرا (بطرية) وغمز الزر ليرى عرض الحائط ، ثم وضع السلم وشرع يلصق المنشور ، وإنه لكذلك وإذا به يسمع وقع أقدام مسرعة نحوه ، فالتفت فإذا اثنان من أشداء الجند ، وقد أمسك أحدهما بلاكيه ووضع يديه القويتين على كتفيه وقبض الثانى بكلتا يديه على السلم الذى كان عليه برتونى ، ليتلقفه عند نزوله ، فلم يهتز برتونى لذلك ، ولم ينطق بحرف واحد ، كما أن الشرطيين لم ينبسا ببنت شفة ، غير أن برتونى أخرج من جيبه المصباح الكهربائى وغمز الزر ، ليرى وجهيهما . فرأى هذين الشخصين بثيابهما الرسمية الزرقاء (لون النيلة) وعلى صدر كل منهما شرائط بيضاء وإلى جانبه سيف قصير و« مسدس كبير » فى جراب من الجلد الأسود . وكانت سحنتاهما متشابهتين لعظم الهامة ، وانتفاخ الأوداج ، واحمرار الخدود ، وكثافة شعر الشاربين فى كل ، وكانت رائحة الخمر تفوح من فميهما عن بعد . ولكل منهما بطن كبيرة كأنها كرة من الجلد منفوخة ، ولاشك فى أن رجال الحكومة فى سويسرا وروسيا القيصرية كانوا مختارين من أقوى الرجال بدنا وأشرسهم خلقا ، لاستخدامهم فى الشرطة ، فلا فرق بين بوليس جنيف وقوزاق القيصر!

وهذا من عجائب الظواهر الاجتماعية ، فإن كلا من الجمهورية الحرة ، والإمبراطورية المطلقة محتاجتان إلى نوع واحد من الرجال لوظائف الشرطة !

غير أن شرطة جنيف تسنح لها الفرص الكافية لإظهار تأثير المآكل الممتعة

التى ينفخون بها أحشاءهم الوحشية وكؤوس الكحل التى يفرغونها فى المجمع القذر المسمى تجاوزاً « معدة » ، فيصعد بخارها إلى رؤوسهم فيشل إرادتهم ويوعز إليهم بإتيان كل منكر باسم العدل والنظام البريئين منهم ، وكان عدد عظيم من هؤلاء المردة فى صفوف اللصوص المرهوبى الجانب فاستهوتهم الحكومة وحبّبت ذاتها إليهم بالعفو الشامل والمال ، فأصبح حراميها حاميها ، ولكن لهم فضيلة ، وهى أنهم إذا تابوا لا ينكصون على أعقابهم !

فنزل برتونى ، وسأل الجندى عما يريد به ، فقال له إننى ألقى القبض عليك باسم القانون لأنك تلصق إعلانا ليلاً « بدون تصريح » ، ثم وضع يده اليسرى بعنف حول مؤخر عنق العامل حتى أحناه وحتى خرج من حلق برتونى صوت أجش فكأنه أوزة تذبح أو ديك يخنق !

وبعد برهة من الزمان رفع برتونى رأسه واستعاد شيئاً من قوته ، وقال له : لا داعى أيها الشرطى لاستعمال القسوة والقوة لأننا نسير معك أينما شئت ، فقال له لا يكفى أن تسير معى أينما شئت لأن هذا لاجدال فيه ، بل ينبغى قبل ذلك تأديبكما ، فقال له برتونى : إنك تدوس بأقدامك القانون الذى تدعى تنفيذ أمره! فاغتاظ الجندى من تلك التهمة التى لم يرها فى محلها وهى صحيحة ، وضيق الخناق على العامل قائلا بصوت مكتم : إننى أدوسك تحت أقدامى ! وليس القانون الذى أدوسه ، ثم أحنى برتونى من جديد ، وأخذ يضربه تارة على ظهره ، وأخرى فى مؤخره ، وحينا فى بطنه لئلا يظهر آثار الغلظة على بدن فريسته ، ثم أشار إلى صاحبه فسارا ، وعندما بدآ بالسير ، أخذ كل فريسته من الكتفين وخرجا فى شارع فيوجر نانديه قاصدين أقرب مركز للشرطة ، فلما بلغا حدود ساحة بلانبليه ، قال برتونى لسجانه : إن أقرب نقطة فى شارع شافواز ، فإلى أين تذهب بنا ؟

قال الشرطى : ليس لك أن تلقى علىّ هذا السؤال ، لأننى أعتبر نقطة الكوارترى، أقرب من نقطة سافواز ، ثم إن الفرصة ستكون أطول لتأديبك ، وعند ذلك سمعت صرخة قوية فنظر حارس برتونى خلفه فإذا بلاكيه قد انتزع نفسه من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشرطي الثاني بأن مزق ثيابه ، وخرج منها خروج الثعبان من جلده ، وجرى في سواد الليل، هائما وتبعه حارسه يضرب برجليه الثقيلتين في ظلام الساحة ويخبط فيها خبط الأكمه .

فلما فطن حارس برتوني إلى ماحدث، أخذته نوبة من الغيظ والجنون وأراد الانتقام من برتوني فأخذ يضربه من جديد فانحنى الرجل وسعل سعلة طويلة ، ولم يحاول القيام فحاول الجندى إقامته بلكمة فى عنقه ، فرفع برتوني رأسه فإذا وجهه شاحب كأنه مصنوع من الشمع ، ثم رفع يديه فى الهواء ، وحملق بعينيه ، ولم يتبين الجندى كل هذا ولكن الرعب دخل قلبه ، فتقهقر إلى الوراء ، ولم ير بعد ذلك جسم برتوني الذى هوى فظن أنه الآخر قد تمكن من الفرار ، فأخذ يعدو كما عدا صاحبه فإذا بقدمه الثقيلة ، تصدم جسما لينا ، فظن أن برتوني قد أغمى عليه ، فأخرج مصباحه ، ودنا منه فإذا البدن خامد لا يتحرك ولا يتنفس . وكان أثر الخمر لم يزل فى رأس حافظ الأمن وحارس النظام ، إنما دبت فى عروقه برودة وشعر كمن يشعر فى رؤيا بأنه قتل رجلا، فقال بصوت أجش: «ساكرى نو دى ديو بان طانميه» Sacré nom de Diue ! Bien tant mieux. بالقداسة الاسم الأعظم! خيرا فعل .

ثم سار نحو أدنى نقطة للبوليس ، وأخبر الجندى الساهر بأن برتوني الذى ألقى عليه القبض ، هو وزميله ، وهما يلصقان إعلانات فوضوية بعد نصف الليل حاول الفرار من أيدى حارسه الذى كان يمسك بثيابه . وأنه اعتدى على الجندى وحاول قتله بالهجوم عليه وضربه فى بطنه برأسه ! فاضطر الجندى للدفاع عن نفسه بعد أن أنذر الفوضوى ، ولكن الفوضوى لم يتئد ولم يفلح إنذاره فبدأ الجندى بمقاومته دفاعاً عن نفسه فسقط الفوضوى إلى الأرض مغشيا عليه .

فى الصباح نقلت جثة برتوني إلى البولكينيك وبعد تشريحها نشرت تقريراً يؤيد أقوال ذلك الجندى وقد أمر بدفن الجثة بدون احتفال !

وبعد ثلاثة شهور ، رقى الجندى كوشو نموران إلى درجة ملازم وسلم قيادة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشرطة السرية ، وهو الآن وقد نزع الثياب الرسمية ، ولبس سترة سوداء وسراويل مخططة وأخذ يقبض مرتباً أربعمائة فرنك فى الشهر ، ولكنه يأبى أن يسير ليلا فى ساحة بلانبليه ، لأنه كلما سار فى تلك الساحة القفرة ، تمتلىء رأسه بالأشباح المخيفة ويتذكر تلك الليلة الحافلة بالحوادث وهى جزء من تاريخ جنيف الحديث ، وحياة العمال فيها ، وكفاحهم فى سبيل استرداد حقوقهم المهضومة ·

ومهما حاول الملازم كوشو نموران نسيان تلك الليلة فهو لا يستطيع ، وكثيرا ما ينهض فى وسط الليل مذعوراً ، صارخا : « امنعوه ! امنعوه عنى ! إننى لم أقتله ، هو الذى قتل نفسه ! » ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قضية دريفوس

وكيف ظهر الحق فيها بعد نفى المتهم البرىء إلى جزيرة الشيطان[1]

—

« لقد عرفت شخصياً كثيرين من الأشخاص الذين كانت لهم يد فى كشف القناع عن الحقيقة فى قضية دريفوس » .

بهذه الجملة المؤثرة ، افتتح حديثه معنا المأسوف عليه الموسيو ديكورسى المحرر فى جريدة الهيومانيتى التي كانت لسان حال حزب الاشتراكيين فى فرنسا فى العقد الأول من هذا القرن .

وكان ديكورسى شيخا فى السبعين من عمره قصير القامة أسمر اللون ، ذا لحية بيضاء وتبدو عليه علائم الفقر الذى يحتفظ صاحبه بعزة نفسه وكرامة شخصه ، ذلك الإباء الفطرى الذى لا تغلبه الحوادث ولا تقهره الحاجة الملحّة .

قد عرفته بمناسبة زيارتى للجريدة لنرجو منها معونتنا فى المسألة المصرية ، ودعوناه إلى فندقنا ، فلبّى دعوتنا ، وأخذ يتحدث وهو يدخن لفائف من الطباق (سجاير) يصنعها بيده على الطريقة الشرقية ويتقن صنعها ، وكأن صنعها جزء من «الكيف » الذى يتلذذ به ، وإننى أذكر حديثه كأنه كان يخاطبنى أمس فى غرفة ذلك الفندق الذى لايزال حتى الساعة يحمل اسمه الإنجليزى فى قلب عاصمة فرنسا «فاميلى هوس » بالعدد ٦٣ بشارع جاليليه على قيد أمتار معدودة من ميدان النجمة «إتوال» والشانزليزيه ، أجمل بقعة فى العالم الأوربى المتحضر . قال ديكورسى ما ملخصه :

« لقد عرفت شخصيا كثيرين من الأشخاص الذين كانت لهم يد فى كشف القناع عن الحقيقة فى قضية دريفوس .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بجريدة البلاغ الأسبوعى فى ١٢ مارس سنة ١٩٣٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإنه فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٩٤ صدر حكم المجلس العسكرى على اليوزباشى ألفريد دريفوس اليهودى بالعزل من رتبته والنفى فى قلعة محصنة ، عقابا له على تهمة الخيانة العظمى ، وهى التآمر مع الأعداء على البوح بأسرار الدفاع الوطنى .

وكان كلمنسو ، صاحبا ومحرراً لجريدة « العدل » وكان من أعداء دريفوس الشديدى العداوة ، لا لضغينة شخصية ولكن محافظة على شرف الوطن وحقوقه .

ففى ليلة عيد الميلاد ، من تلك السنة المشئومة (١٨٩٤) نشر مقالة فى جريدته يطلب فيها تطبيق عقوبة الإعدام فى قضية دريفوس .

وإنى أقول لك إن كلمنسو هذا رجل فظيع ، رجل قاس ، لايعرف قلبه الرحمة ولا الحنان ، لأنه خرج من فرنسا طريداً مظلوما ، وقد ظلمه أبوه ، وتربى فى أمريكا وتطبع بأخلاق السكسون والأمريكان ، وهو فى الأصل طبيب وأقول لك إننى لا أثق كثيراً فى شفقة الأطباء لكثرة مايشهدون من الآلام الإنسانية ، فلا يتأثرون بها !.

تخيل أن كلمنسو يقول « إنه يدهش ، لأن المجلس العسكرى لم يحكم بإعدام دريفوس رمياً بالرصاص مع أن المجلس نفسه حكم بإعدام فتى جندى فى ميعة الشباب ، وغرور الفتوة ، لأنه أهان المجلس الذى كان يحاكمه بأن ألقى بزر سترته فى وجه رئيس المجلس !

هذه اللعبة المضحكة ، هذه الفعلة الصبيانية يعاقب عليها بإعدام شاب لم يظهر بعد نبات عارضيه ، ولم يعرك الدهر ولم يكسب أقل اختبار ولا يعاقب بالإعدام رجل وصل إلى أحد المناصب العليا فى الجيش واؤتمن على أسرار الدفاع الوطنى بعد أن تربى سنين طوالا على احترام الراية ، وبعد أن جاوز حدود الثلاثين ، إن هذا لأمر عجاب !!»

هذه أقوال كلمنسو فى مقالته ، ثم إنه يدعى أنه من خصوم عقوبة الإعدام ، ويود محوها محوا من سجل القوانين العسكرية ، ولكنه لايريد حلّ الرابطة الأخيرة التى تجبر الجندى الخائن على الاحتفاظ بالسر !!

وقال كلمنسو أيضا ، إن فرنسا أخطأت فى عدم قتل بازين ، وهو القائد الذى خسر الموقعة الأخيرة فى حرب السبعين وكان يجب إعدامه فى رأى الكثيرين ، لا على تهمة الخيانة ، بل على تهمة الإهمال والجهل .

وقد ادعى كلمنسو فى هذه المقالة أن جريمة دريفوس ليست سياسية ، بل هى من جرائم القانون العام ، جناية عادية لا أكثر ولا أقل .

والأغرب من هذا ، أن كل من قرأ مقالة « النمر » أدرك غايته ، فقد كاد يقول إن رتبة دريفوس فى الجيش حمته من الإعدام ، وإن العقوبات الشديدة ، لاتقع إلا على الصغار والضعفاء أما الكبار والعظماء ، أو من هم فى حكم هؤلاء فلا خوف عليهم ولا هم « يعدمون » ! . . .

ولشد ما ندم كلمنسو على هذه المقالة عند ما غير فكرته ، ووقف فى الصف الثانى ، واستبان له الحق ، واعتقد ببراءة دريفوس ، إذن لو أن دريفوس كان أعدم فأية كارثة كانت وقعت وكيف يمكن تصحيح الخطأ بعد وقوعه ؟

وتعرف جوريس ، جوريس الاشتراكى المتهم دائما بأنه هو وحزبه (أى نحن المحررين فى جريدته وأصدقاءنا) يتهاونون فى مسائل الدفاع الوطنى . . . جوريس هذا ألقى فى جلسة النواب التى تلت الحكم على دريفوس خطابا شديدا ضد الحكومة وضد دريفوس جاء فيه أن الحكومة نزعت سلاح القضاء العسكرى وأن الحكومة لم ترغب فى إعدام دريفوس وأن الحكومة لو لم تظهر رأيها فى الحكم قبل صدوره ولم توعز لأعضاء المجلس برغبتها ، إذن لحكم المجلس من تلقاء نفسه بإعدام هذا الشقى الخائن !!

نفذ الحكم فى دريفوس ، ونقل إلى جزيرة الشيطان ! ومرت الأيام والأسابيع والأشهر ، وانشغل كلمنسو بمسائل أخرى ، ولم يعد يفكر فى دريفوس .

هنا صمت ديكورنسى ، ورفع بيده النحيفة السمراء خصلة من الشعر الأبيض عن جبينه المملوء بالخطوط والتجاعيد ، كأنها مرسومة بقلم القدر ، وتنهد تنهداً عميقاً وأخذ يلف لفافة جديدة من الطباق واستمر فى حديثه وقال :

بعد الحوادث التى سردتها لك بثلاث سنين تقدم ماتيوس دريفوس شقيق ألفريد دريفوس ، للقاء كلمنسو فى إدارة جريدته « العدل » ، ولكن كلمنسو كان دائما يرفض لقاءه ، ولا يعنى بزيارته ويوعز إلى موظفيه أن يتخلصوا من هذا الزائر المرذول المنبوذ ، لأنه شقيق ذلك الخائن اليهودى « دريفوس » .

وإنه لكذلك يشرف على جريدته ، إذا بصديق قديم يزوره وهو إرنست فوجان الذى كان يساعد روشفور فى تحرير « الانترنسيجان» .

وبعد أن تحادثا قليلا ، عرض فوجان على كملنسو فكرة تأسيس جريدة مستقلة تنشر مقالات بأقلام رجال فضلاء خدمة للحقيقة ، وسعيا وراء العدل ، دون أن تكون لسان حال أحد من الأحزاب أو الأفراد ، ودون أن تكون وسيلة لتسلق الوصوليين إلى المناصب .

وقد عرض فوجان على كلمنسو مشاركته فى هذا العمل ، فقبل كلمنسو ، لأن مثل هذه الخدمة للحقيقة ، تعد من مشربه ، فقد مل إسقاط الوزارات ، وهو يؤمل أن تتلو كل وزارة واحدة أفضل منها فكانت كلها متشابهة ، تستوى الحكومات فى مطامع أفرادها وغرابة غايات أشخاصها فى فرنسا ، وكل وعودها لا تتعدى حدود الألفاظ الخلابة ، والخطط المسحورة ، حتى إذا حان وقت التنفيذ والوفاء كنت كمن يسمع جعجعة ولايرى طحنا . فكان ينوى أن يسلك مسلكا جديداً مع فوجان فى الجريدة التى اتفقا على الاشتراك فى تحريرها .

ولم يقصر فوجان مشاركته على كلمنسو ، بل قصد إربان جوهيه ، أحد الكتاب الذين يفضلوت المبادىء على المنافع ، وكان مخلصا فى عمله ، وإن كان من أتباع المبدأ الملكى الذين يودون رجوع العرش والتاج إلى فرنسا . وعرض فوجان المشاركة فى تحرير جريدته على ميلران وجوريس وغيرهما وأخيراً أعلن عن ظهور جريدته باسم « أورور » الفجر ، وقد انضم إلى تحريرها كلمنسو وكاميل موكلير وهو صديق حميم لكلمنسو ولجوستاف جيفروا ولوسيان ديكاف وهو صديق الجميع، وشارل لونجيه والد جان لونجيه الذى تزوج أخيرا ببنت كارل ماركس وجان إجلبر ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك الكاتب الفكه القدير ٠

وتخلى كلمنسو عن « العدل » وتربع فى دست الرياسة فى « الفجر » ٠٠٠ فزاره فى أحد الأيام صديقه القديم رانك ، وأوصاه خيراً بكاتب يهودى اسمه ، برنار لازار، فرفض كلمنسو طلبه ، لأنه صديق لماتيوس دريفوس ، شقيق الضابط الخائن ٠٠٠ ففغر رانك فاه من الدهشة وقال « كيف ! ألا تزال تعتقد بخيانة دريفوس ؟ ألا تعلم أنه برىء ، وأن أصدقاء العدل قد جمعوا الأدلة القاطعة على براءته » ٠

فقال كلمنسو ، وقد قابل الدهشة بالدهشة : كلا ! إننى أسمع هذا الخبر منك للمرة الأولى !

قال رانك : عليك بزيارة شورير كستنر ، وكيل مجلس الشيوخ ، فإنه ينورك فى هذه المسألة ويقدم لك الأدلة الساطعة على براءة دريفوس ، ولم يخالف نصيحة صاحبه وقصد شورير كستنر فأخبره بخلاصة ما وقف عليه ولكنه استمهله فى نشر الحقيقة ٠

وقد تقدم ماتيوس دريفوس ببلاغ رسمى إلى وزير الحربية يتهم فيه إسترهازى بالخيانة وبتلفيق الأدلة ضد أخيه ألفريد ٠ ولكن ماتيوس دريفوس لم يقدم الأدلة المقنعة ضد إسترهازى ، مع أن المستند الوحيد الذى أدّى إلى الحكم على دريفوس كان بخط ذلك الضابط الذى اعترف فى خطاب إلى إحدى معشوقاته بأنه يمت بحبل القرابة والمحبة لألمانيا ، وأنه يتهم الفرنسيين بالجهل والجبن والنذالة ، وأنه يود أن يموت قائداً لفرقة « ا لاوهلان » وهو يحارب الجيش الفرنسى ٠٠٠ واعترف كذلك أن خطه أقرب الخطوط شبها إلى الخط الذى كتبت به « الحافظة » التى كانت سببا فى الحكم على دريفوس وأن تلك الورقة لم يطلع عليها لا دريفوس المتهم ولا محاميه ديمانج ، وقد أيد هذه الحقيقة الموسيو فيلكس فور رئيس الجمهورية نفسه ، وصرح بها لشورير كستنر ، وكيل مجلس الشيوخ ٠ أى أن الحكم صدر على دريفوس بناء على مستند مزور لم يطلع عليه ، ولم يأخذ به محاميه علما ٠

وقد علم بهذه الأشياء كلها الكولونيل بيكار ففاتح وزير الحربية « جونص » فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأمر فأمره بالصمت ، وكتمان الشهادة ، ثم أمر بنقله إلى تونس ، وأيقن بيكار أن نفيه سينتهى بموته ، فكتب وصيته وأرسل بها إلى أصدقائه ، ومن بينهم مارسيل بريفو المؤلف القصصى ، وتنطوى هذه الوصية الغريبة على الحقائق الآتية :

أولا : أن والسن إستيرهازى هو وكيل وجاسوس لألمانيا .

ثانيا : أن كل ما نسب إلى دريفوس قد جناه إستير هازى .

ثالثا : أن قضية دريفوس ومحاكمته قد تمت فى منتهى الرعونة والاستخفاف لأن أعضاء المجلس كانوا مقتنعين مبدئياً بإجرام دريفوس ، فلم ينظروا فى أى دليل ينفى عنه التهمة .

وعندئذ رفع إستيرهازى شكواه ضد بيكار ، فطلب كلمنصو استدعاء بيكار للتحقيق معه فيما نسبه إلى إستير هازى وأظهر اندهاشه من عدم تقديم هذا الأخير للمحاكمة .

وأخيراً ، أحضروا بيكار ، وحاكموا إستيرهازى محاكمة صورية ، وضيق المجلس العسكرى الذى عقد لمحاكمة إستيرهازى الخناق على بيكار ، وحكم فى نهاية الأمر ببراءة إستيرهازى .

فهزم أنصار دريفوس شر هزيمة ، وعندئذ ظهر كلمنصو بمظهر المنصف للمظلوم، وأقام فى أعمدة « الفجر » حربا عوانا على أعداء دريفوس وصار الوطنيون بزعامة ديرل لويد ، يقيمون المظاهرات ضد « الفجر » ويرشقون إدارته بالحجارة .

وفى هذه اللحظة ظهر إميل زولا ، وتقدم إلى كلمنصو بمقالته الشهيرة « أنا أتهم» فأحدثت فى فرنسا جميعها وفى سائر الأوساط حدثا عظيما ، وحركت الأفكار والهمم . وكان من جرائها الحكم على زولا بالسجن عاما ففر إلى إنجلترا ثم أعيد النظر فى قضية دريفوس بعد أن انضم إلى صفوف المدافعين عنه عظماء أمثال أناتول فرانس ، وابن رينان وصهره وكلود مونيه وريشيه وغيرهم.

وعاد دريفوس من جزيرة العفريت أو إبليس ، والتقى بزوجته المسكينة التى لبست عليه الحداد حياً ، وتبدل جمالها ضعفاً وصباها كهولة وابيض شعر رأسها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهى بعد لم تخط العقد الثالث من عمرها . وكان الكولونيل بيكار قد عثر بالأوراق التى تثبت براءته ، ولكن بعض رجال الجيش زوروا ورقة وأثبتوا فيها اسم دريفوس ، وعندما فحص بيكار أجزاء تلك الورقة ظهر له الجزء المزور مكتوباً على صنف من الورق غير الذى به الجزء الآخر ، فشهد بذلك فى محاكمة زولا واتهم الضباط فى وجوههم بالتزوير فعزله وزير الحربية بعد خدمة خمسة وعشرين عاماً .

ثم عقد مجلس حربى آخر فى ليون ، ونظرت محكمة النقض والإبرام فى نقطة قانونية ، ثم استكتبوا دريفوس طلباً بالعفو وإعادة النظر فى القضية . فكان يصرخ من قلبه « أطلب العدل والإنصاف ، ولا أطلب الرأفة ! إننى برىء ! إننى برىء» .

ولكن تذلل امرأته وتوسلها إليه وشكايتها الفراق والعذاب خمس سنين كانت أقوى فى نفس دريفوس من عاطفة الإباء والشمم ، فأمضى الورقة والعالم أجمع يعلم أنه برىء وما تلك الورقة إلا لستر عيوب الظالمين . وأخيراً خرج دريفوس من سجنه وسير به إلى ساحة أنفاليد فى كسوة جديدة وهو يحمل سيفه الذى ردوه إليه وقد أنعمت عليه رياسة الجمهورية بنيشان اللجيون دونور ، وساروا به بالطبل والزمر ، وهو محطم وقد دامت محنته من ١٨٩٤ إلى ١٩٠٦ وكأنها مائة عام . ونفس الشعب الذى صرخ فى وجهه ونادى بسقوطه أو أولادهم هم الذين صرخوا « ليحيى دريفوس البرىء!».

فماذا كانت جريرته وما ذنبه الذى جناه ، وتحت أى كوكب من كواكب النحس ولد هذا الرجل هو وامرأته وولداه ؟ وذنب من من أهله ، أراد الله أن يكفر عنه ، فقد كانت هذه هى عقيدته وهو يهودى ، يؤمن بالقضاء والقدر ويؤمن بما جاء فى التوراة « الآباء يأكلون الحصرم ، والأبناء يضرسون » !!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أشهر القضايا الأوربية فى العصر الحديث [1]

كلمة فى القضايا السياسية :

من القضايا السياسية مايكون أثره الاغتيال وإزهاق النفوس وهو نوع من الجرائم يقترفه « النيهيلست » أو العدميون ، والكلمة روسية وأول من استعملها فى كتبه تورجنيف القصاص المسكوفى الشهير ، فى قصة « الآباء والأبناء » وتبعه مؤلفون آخرون أطلقوا على هذا النوع من الجناة وصف «أنارشيست» أى الفوضيين أى دعاة الفوضى السياسية والاجتماعية وزعيمهم فى روسيا القيصرية ألكسندر هرتزن صاحب مجلة الجرس التى كانت تصدر فى لندن ، وبرنس كورو بوتكين ، وفى فرنسا ڤايان وفى سويسرا برتونى وفى إيطاليا مترينى وغيرهم .

وكان هؤلاء النيهيلست يقتلون القياصرة الروسيين ، وأولئك الفوضيين يقتلون غيرهم من المتوّجين ، فقتل سيزاريو الرئيس كارنو فى سنة ١٨٩٤ فى ليون ، وقتل «جوز لجوز» الرئيس ماكنلى فى أمريكا واعتدى أمثالهما بالقتل على إمبراطورة النمسا سنة ١٨٩٧ فى تريتيه بسويسرا وهمبرتو الأول ملك إيطاليا فى ميلانو سنة ١٩٠١ وأحدث تلك الجرائم عهدا مقتل دومير رئيس جمهورية فرنسا بباريس سنة ١٩٣٢ ومقتل إسكندر الصربى ملك يوغسلافيا وبرتو وزير الأمور الخارجية الفرنسية بمرسيليا فى شهر أكتوبر سنة ١٩٣٤ .

هذا نوع من الجرائم تهرق فيه الدماء بغير حساب ولا نظر إن كانت الدماء بريئة أم لم تكن . والدافع عليه مبدأ سياسى قديم، فقد الآن وبعد الحرب العظمى أغلب أنصاره فى العالم ، ولم يبق متشبثا به إلا بعض الفاقدين لتوازنهم العقلى والخلقى كمن قتلوا المركيز إيتو فى اليابان .

---

(١) نقلا عن العدد الأول والوحيد من مجلة المؤلف المعنونة « سجلّ أشهر القضايا العالمية » ، ص ٣١ ومابعدها ، سنة ١٩٣٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقديما تآمروا على قتل يوليوس قيصر فى رومه وإسكندر الأكبر فى بلاد الفرس وعلى الإمام على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ومعاوية بن أبى سفيان ، فقتل الأول والثانى .

ونوع أخر من الجرائم السياسية لا تهرق فيه الدماء بتاتاً أو تهرق لأسباب معينة معروفة للقاتل ولغير ذات المقتول وليس لكون المجنى عليه ملكاً أو رئيساً ، بل لأنه جمع بين الرياسة أو الزعامة خلة أخرى تبرر القتل فى نظر القاتل ، فمن النوع الأول الذى لاتهرق فيه الدماء بتاتاً قضية دريفوس . ومن النوع الثانى قضية مدام كايو حليلة الوزير الفرنسى السابق جوزيف كايو التى قتلت جاستون كالميت رئيس تحرير جريدة الفيجارو لأنه نشر مكاتيب ومقالات اعتبرتها مهينة لزوجها ولشخصها، ومن تلك القضايا مايحدث فيه القتل عرضا مثل قضية ستافسكى فأصلها فضيحة مالية سياسة جرت وراءها مصرع ستافسكى (منتحرا أو مقتولا !!) ومقتل القاضى برانس (منتحرا أو مقتولا ؟) ، ومن أشهر تلك القضايا مقتل النائب ماتيوتى زعيم الحزب الاشتراكى فى إيطاليا فى بداية عهد الفاشسيت .

قضية دريفوس الشهيرة

١ - ضحايا الحق والحرية :

فى التاريخ القديم والحديث قضايا لها جلالها وروعتها ولعل كل العهود لم يخل أحدها من قضية عظيمة شغلت عقول أهل العصر .

ففى أثينا القديمة ، كانت قضية سقراط أشهر القضايا ، وقد أفرد لها أفلاطون فصلا طويلا من محاوراته ، وقيد دفاع سقراط الذى فاه به أمام قضاته . ولكنه على الرغم من فصاحته وحكمته ، لم يقنع رجال العدل من معاصريه ، فحكموا بإعدامه ، وشرب كأس الساج ، وفيها حمامه ، فتردى وهو يبتسم ، وفارق الحياة وهو ساخر من الحياة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولعل قضايا القرون الوسطى ، نزاع بين العلم والدين ، والعدل والظلم ، والحرية والاستبداد ، فى المحل الثانى بعد قضية سقراط وكان للعلم والحق ضحاياه، فمن دافيل فى سويسرا ، إلى مارى ملكة إيقوسه ، ومن ذلك الطبيب ميشيل سيرفيه الذى لايزال تمثاله فى أنماس (وقد ذهب ضحية التعصب الدينى ، فأعدمه كالفن ، لأنه قال بالدورة الدموية) إلى بوليفار سجين قصر شيلون . شهداء العلم وشهداء للحرية وشهداء المبادىء الشريفة السامية ، وهل نسينا جان دارك أو سافونارولا ؟ فقد حوكما وحكم عليهما بالصلب والحرق ، ثم ذروا رفاتهما المحترق فى الرياح أو ألقوا بالبقية الباقية منه فى الأنهار ، فحملوا تيار الماء عبء تلك الجرائم التى اقترفتها الإنسانية على أفضل أبنائها وأبرهم بها فواأسفاه !

ألم تكن رواية الساحرة من وضع ساردو ، سوى صورة لمحاكمة الأبرياء باسم الدين فى أسبانيا التعسة فى القرون الوسطى ، فكان كل عالم وكل جرىء وكل مؤمن بغير الكثلكة يتهم بالسحر والكفر أو يؤتى به فيحرق بعد السجن الطويل والعذاب الأليم !؟

ومازالت القضايا فى كل زمان ومكان تعطينا صورة من أخلاق أهله ، وأحوال حكامه ، ومكانة العدل من قوانينه ، لأن القضية لم تخرج عن كونها العهد الحكومى حيا يتحرك ، وينفذ إرادته ، ويقول كلماته ويترك أثره مدموغاً على جبين المعاصرين من المحكومين والرعية ، فإذا انتقلنا إلى عهد المدنية الحديثة ، كانت قضايا الثورة الفرنسوية أول ما نلقى ، مظالم ومجازفات ومغامرات باسم العدل والإنصاف ، وجرائم تقترف باسم الإخاء والحرية والمساواة ! ولشد ما صدقت مدام رولان عند ما قالت قبيل أن تطيح برأسها مدية المقصلة ، أداة الإعدام التى لم تشفق على صاحب ولا رفيق ، حتى مخترعها نفسه الدكتور جيوتين كان أول ضحاياها : « أيتها الحرية! ما أكثر الجرائم التى تقترف باسمك وأنت منها براء ؟» .

وإن التاريخ ليحفظ اسم فوكييه دى تنتفيل النائب العام المترافع أمام المحكمة الثورية التى قضت على المئات بالإعدام من روبزبيير إلى دانتون ومن شارلوت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كورديه إلى مارى أنطوانيت ورجلها المسكين لوى كابيه الذى كان لويس السادس عشر .

فياميدان الاتحاد ! وميدان الثورة فيما سلف من الأيام كم هول شهدت ؟ ، وكم مرة وقفت فى ساحتك الحمراء المركبات الضخمة محملة بالأسرى والسجناء ، لتعود بهم بعد قليل أشلاء وقد خلفت رءوسها فى حفرة الجلاد ؟!

٢ - من حكم نابليون إلى ...

وكان العالم يظن أن عهد المظالم قد انتهى بعهد الثورة وعهد الانتقام ولكن سرعان ماجاء عهد نابليون ومحاكمة دوق دانجان وغيره من المتهمين بالمؤامرات على حياة الإمبراطور ، الذى كان بالأمس يدعى الكابورال الصغير وصار ذلك الكابورال بعد أمد قصير خطرا كبيراً على الأمة والأفراد . والمحاكم تعمل بأمره وتحكم بما يرغب ، وما أقبح العدل إذ يسخر للحكومات ، وإقرار المظالم وضياع الحقوق !

وقد تصح فى حقه كلمة مالبرانش :

« آه أيها العدل كم مظالم تقترف باسمك ! »

وإنك إن سألتنى أيها القارىء الكريم عن القضايا التى شهدتها أو تأثرت بها فلا يذهب ذهنى إلى أبعد من أربع قضايا أو خمس ، وقد تتفاوت أسبابها ويختلف مغزى كل منها عن مغزى الأخرى ، ولكن روح الروعة والخوف على العدل ، فى كل منها لم يتبدل ولم يتغير . وكان أول ما أدركت قضية دريفوس ثم قضية أوسكار وايلد ، فقضية ستنهايل وقضية كايو وقد أقامت كل منها العالم وأقعدته ، وكان لها من الشأن ما لم يكن لسواها ، وأحب اليوم أن أحدثك عن قضية دريفوس التى هزت دعائم الحياة العامة فى فرنسا وزعزعت أركان المجتمع ورفعت النقاب عن وجه التعصب المظلم ، وأظهرت للعالم ما يجنيه الغرور تحت لواء الأنظمة الحديثة سواء كان فى الجيش أم فى السياسة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ - قضية دريفوس :

لقد عرفت رجلا أمريكيا اسمه باركر [١] ، كان من أهل الغنى وهواة الفنون وقد عاش فى باريس أمدا ، وصادفته قضية دريفوس فكان اعتقاده ببراءته كاعتقاده بربوبية المسيح فلا تستطيع أن تزعزعه أو تحول إيمانه ، بل كان الرجل يغضب إذا ذكرت عن دريفوس كلمة سوء وقد كان الرجل على حق ، فإن رجالا من عظماء فرنسا تركوا مناصبهم وتخلّوا عن مقاعد التدريس فى السوربون ، وعرضوا أنفسهم لمحكمة الجنايات وظلمات السجون ، كانت لهم تلك العقيدة فى دريفوس ، ومازالوا يكافحون ويجاهدون ويستهدفون للقدح والذم حتى ثبتت براءة الرجل وخرج من سجنه أبيض الصحيفة ، طاهر الذيل كما كان يوم أن دخله وهو من المظلومين . وطالما شبهوه بيوسف فى قضيته الشهيرة ، وقد كان كلاهما من بنى اسرائيل ، ولكن قضية يوسف أعقبته مجداً وملكاً ومالاً عظيماً ، ولكن دريفوس لم يكن نصيبه إلا وسام اللجيون دونور ، والمعيشة فى وطنه موفور الكرامة بضع سنين .

قد تسألنى عن الرجال الذين كان منهم ماذكرت من التضحية فى سبيل العدل والحق ، فأولهم وأشهرهم أناتول فرانس فقد ترك منصبه فى كوليج دى فرانس وأعلن على الحكومة حربا عواناً حتى ظهرت براءة دريفوس ، ويأتى بعده إميل زولا فقد كتب رسالة « أتهم فلانا من الوزراء والقواد » فحوكم وحكم عليه بالسجن ففر إلى إنجلترا ومازال بها إلى أن ظهرت براءة دريفوس وصدر العفو عنهما معاً . ثم كليمنصو وإرنست جوديه والأستاذ لابورى وجان جوريس والكولونيل بيكار وماتيو دريفوس شقيق البرىء وغيرهم من كبار الرجال .

لعل أعظم ما يهتاج النفس ، ويشعلها بنار الغضب ، ويملأها جزعاً وأسى ، وقوع الظلم على الإنسان العاجز الضعيف ، وهو عالم ببراءة نفسه ، ولا يملك لنفسه

---

(١) عن علاقة لطفى جمعه بالفنان المصوّر الأمريكى ستيفن هيلز پاركز ، انظر كتاب المؤلف « قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد » ، ص ١٢٢ - ١٢٦ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٨ .

حولا ولا طولا ، ولا يستطيع لنفسه خلاصا . وقد يلهمه الله الصبر على الشدائد ، فيوطّن نفسه على احتمال المكاره ، ولكن أخاه وابنه وحبيبه وامرأته وصديقه يرون وليّهم رهين السجن ، ولايملكون له نجاة وهم واثقون ببراءته ، والناس أسهل مراسا في تصديق الشر عن الناس ، والإيمان بما يقال فيهم من التهم والشبهات ، وأصعب مايكونون تصديقا بعد ذلك للسيرة الحسنة أو البراءة المؤكدة - وناهيك بتهمة الخيانة العظمى توجه لضابط فى الجيش ، خيانة فرنسا لألمانيا ، فى سبيل المال وصاحبها يهودى !! وشهودها ودعائمها قواد وضباط عظماء من كل كولونيل مجيد وماجور عظيم ومشير خطير ، فمن ذا الذى يجرؤ حيال هذه العظائم على رفع صوته ببراءة الضابط المسكين ؟ فأنت ترى ورقة مكتوبة تذيع سر المدفعية ومعزوة إليه ، وهى فى الحقيقة بخط إستير هازى ، ولم يكن فى مقدور إنسان سواه أن يكتبها لأنه ضابط بالمدفعية وأسرارها لديه ، وإستير هازى أعزب ، مقامر ، سكير عربيد ، زير نساء ، فى حاجة ملحة للمال ، لاتبرد له نار ولا يطفأ له ظمأ ، فى حين أن دريفوس رب أسرة ووالد عيلة ، لايعرف إلا واجبه وبيته ولا يداعب إلا زوجته وأطفاله ، ولا يقضى فراغه إلا بين جدران منزله ، لايعرف السهر ولا الخمر ، ولا يهوى الحسان ولا يعاقر بنت الحان ... وهذا الرجل الأمين البرئ ، يؤخذ وهو يلاعب ولده من الدار إلى النار ، فيلقى عليه القبض ويودع السجن ويوضع المسدس تحت بصره تحريضا له على الانتحار ، ولكن براءته تحول بينه وبين تلك الجريمة الشنعاء .

وعلام قامت التهمة ؟

على مقارنة خيالية قام بها الكولونيل هنرى صديق إسترهازى ، بين خط دريفوس الذى استكتبه غدرا وعلى غير انتظار ، وبين خطاب إستر هازى إلى قنصل ألمانيا وقد تقاضى عليه بدرة من المال . وحينئذ تحمس جنرال أندريه وجنرال مرسييه ، وأقسما أن يوديا بحياة الضابط اليهودى مهما كلفهما ذلك ، وقد عزيت إلى مرسييه كلمة شهيرة مخيفة : هناك متهم ، فيجب إيجاد الدليل على التهمة لتوقيع العقوبة عليه !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤ - خبراء الخطوط !!

ومما يدمى النفوس ويذيبها أن برتيون خبير المحاكم الشهير وخبير الخطوط ، وصاحب معمل باريس ومخترع نظام تحقيق الشخصية ، انتدب لمأمورية المضاهاة ، فكان تقريره ضد دريفوس وشهد بذلك أمام المحكمة . ولكن موقفه أمام الكولونيل بيكار الذى اكتشف التزوير كان مخجلا . وعندما عقد المجلس العسكرى العالى ، وكانت كفة البراءة ترجح كفة الاتهام وكان إستير هازى قد رفع النقاب عن وجهه واعترف بجريمته للكولونيل هنرى ، لم تنفع شفاعة الحق دريفوس ولم تغنه فتيلا ، وقد بعث وزير الحربية إلى رئيس المحكمة العسكرية بخطاب سرى أثناء المداولة فكان ذلك سبب الحكم على دريفوس ، وفى كل مرة ترى هؤلاء الضباط يقولون شرف الجيش ، شرف الوطن ، الضابط يهودى ولا يستحق الإنصاف ! فدلوا بذلك على تشبع أنفسهم بحب الظلم والبعد عن الحق .

وقد أعلن المجلس العالى إدانة دريفوس وقضى عليه بالنفى المؤبد فى جزيرة الشيطان ، وهناك فى تلك الجزيرة التى كأنها جزء من الجحيم قضى دريفوس أربعة أعوام بعيداً عن وطنه وعن أهله وأولاده ، وكان قبل نفيه قد مثلوا به أقبح تمثيل إذ جردوه فى حفلة علنية فى ساحة الأنفاليد من شرفه العسكرى ، فأمروا جنديا من فرقة الفانتاسان بتمزيق أزرته وتبديد شمل أشرطته وعلامات الشرف التى يحملها وكسر سيفه ثم ساروا به ذليلا حقيرا بين هتاف الشعب المعادى ودقات الطبول المؤذنة بالموت المدنى !!

وحظه فى جزيرة الشيطان لم يكن أقل سوءاً من هذه الحفلة المنحوسة ، فقد سجنوه فى أضيق السجون وحرموه الحرية والنور والهواء وحتى الماء كان يعطى له بمقدار .

وبينما كان دريفوس مقيداً بالحديد فى وسطه ويديه ورجليه ، كما هى حال المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فى ليمان طره وأبى زعبل ، وبينما كان ظهره قد انحنى وإنسانيته قد أهدرت حتى أصبح كبعض الحيوان الذى لايدرك ولا يعى ، وقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خمدت فيه قوة الذكاء وانطفأت شعلة العقل ، وأشرف الرجل على الهلاك أسى ، كان الرجال الذين ذكرتهم والذين سخّرهم الله سبحانه وتعالى لإنصافه وإخراجه من الضيق إلى الفرج ، قد جدوا حتى وجدوا وعملوا حتى وصلوا وضحّوا حتى نجحوا، فحكمت المحكمة العسكرية فى رين بإعادة النظر فى قضيته ، وحوكم إستيرهازى، وحكم ببراءته . والله أعلم بما كان يحفظه صدره الدنىء من الأسرار ضد العظماء والكبراء .

٥ - نجاة دريفوس :

وعاد دريفوس من جزيرة العفريت أو إبليس ، والتقى بزوجته المسكينة التى لبست عليه الحداد حياً ، وتبدل جمالها ضعفاً وصباها كهولة وابيض شعر رأسها وهى بعد لم تخط العقد الثالث من عمرها . وكان الكولونيل بيكار قد عثر بالأوراق التى تثبت براءته ، ولكن بعض رجال الجيش زوروا ورقة وأثبتوا فيها اسم دريفوس ، وعندما فحص بيكار أجزاء تلك الورقة ظهر له الجزء المزور مكتوباً على صنف من الورق غير الذى به الجزء الآخر فشهد بذلك فى محاكمة زولا واتهم الضباط فى وجوههم بالتزوير ، فعزله وزير الحربية بعد خدمة خمسة وعشرين عاماً .

ثم عقد مجلس حربى آخر فى ليون ، ونظرت محكمة النقض والإبرام فى نقطة قانونية ، ثم استكتبوا دريفوس طلباً بالعفو وإعادة النظر فى القضية . فكان يصرخ من قلبه « أطلب العدل والإنصاف ، ولا أطلب الرأفة ! إننى برىء! إننى برىء !» .

ولكن تذلل امرأته وتوسلها إليه وشكايتها الفراق والعذاب خمس سنين كانت أقوى فى نفس دريفوس من عاطفة الإباء والشمم ، فأمضى الورقة والعالم أجمع يعلم أنه برىء وما تلك الورقة إلا لستر عيوب الظالمين . وأخيراً خرج دريفوس من سجنه وسير به إلى ساحة أنفاليد فى كسوة جديدة وهو يحمل سيفه الذى ردوه إليه وقد أنعمت عليه رياسة الجمهورية بنيشان اللجيون دونور ، وساروا به بالطبل والزمر ، وهو محطم وقد دامت محنته من ١٨٩٤ إلى ١٩٠٦ وكأنها مائة عام . ونفس الشعب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذى صرخ فى وجهه ونادى بسقوطه ، أو أولادهم ، هم الذين صرخوا « ليحيى دريفوس البرىء! » .

فماذا كانت جريرته وما ذنبه الذى جناه ؟ ، وتحت أى كوكب من كواكب النحس ولد هذا الرجل هو وامرأته وولده ؟ وذنب من من أهله أراد الله أن يكفر عنه ، فقد كانت هذه هى عقيدته وهو يهودى ، يؤمن بالقضاء والقدر ويؤمن بما جاء فى التوراة « الآباء يأكلون الحصرم ، والأبناء يضرسون » !!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زعيم أرلندى
شارليس ستيوارت بارنيل
كيف ذهب ضحية المرأة «أوشاى» [1]

يهم القارئ العربى أن يقف على تواريخ الزعماء فى الأمم التى حاربت فى سبيل تكوينها وسعت بكل ما فى وسعها إلى تقرير مصيرها. وإن تكن أيرلندا أو الجزيرة الزمردية واقعة فى أقصى الغرب الأوربى وتعد بالنسبة لفنلندا وروسيا «مغرباً أقصى» إلا أنها تمت إلى الشرق بصلات عدة وآخرها عهداً وقوف زعيمها الحالى دى فاليرا إلى جانب فلسطين العربية، لأنه لا ينسى أن كثيرين من الوطنيين الشرقيين قد عطفوا فيما مضى على النزاع الذى نشب بين وطنه وبين بريطانيا العظمى. ولأن أيرلاندا كاثولوكية، ولذلك كانت ولا تزال تخالف خصومها السياسيين فى العقيدة وناهيك بما بين شقى المسيحية من ضروب المسائل الخلافية ، وثالثاً لأن أيرلاندا بلاد زراعية فعواطف أهلها تكاد تكون شرقية وقد بقيت تحت الحكم الأجنبى سبعة قرون تقريباً وتحملت قسوة أوليفر كرومويل قاتل الملوك ومغلق البرلمانات ومشتت شمل الأحزاب بل صاحب اليد الحديدية بحق. والغريب فى أمر هذه البلاد أنها لم تنس وطنيتها ولم «تندمج» فى سادتها ، وكان الفضل فى بقائها سليمة القلب وإن كانت مجرحة الجسم إلى عقيدتها ولغتها وزعمائها .

وأشهر الزعماء قاطبة هو موضوع هذه النبذة شارليس ستيوارت بارنيل الذى انحدر من أصل إنجليزى من الشمال وانساق فى تيار الوطنية الأيرلندية بسبب مواهبه أولاً وبسبب امتلاكه أراض زراعية واسعة فى أيرلاندا وبسبب كونه رجلاً كبير القلب رقيق الحاسة سريع التأثر بالعواطف، وهذه الصفات الأخيرة هى التى جنت عليه فى مصرعه السياسى الذى سببته له علاقة غير شريفة بامرأة جميلة فتانة

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية ، العدد ٧٨ فى ١٩٣٧/١٢/١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قوية الإرادة ولكنها كانت مدسوسة عليه هى وزوجها بأيدى الأقوياء الذين لم يجدوا فى درعه مطعناً سوى ضعفه للنساء ، فكانت تلك الشيطانة أداة هلاكه وتحطيمه وتعطيل الاستقلال الأيرلاندى أكثر من ثلاثين عاماً. وهى أقرب النساء إلى «دليلة» التى أهلكت شمشون الجبار ومكّنت منه خصومه اليهود منذ عشرين قرناً. صدق من قال إن التاريخ يعيد نفسه وخصوصاً على حساب الأبطال والعظماء .

كان بارنيل معاصراً لغلادستون وخصماً له ولكنه كان خصماً شريفاً وعنيداً جداً يشد أزره فى البرلمان الإنجليزى نفسه ثلاثة وثمانون عضواً من أهل أيرلاندا ينتخبون للبرلمان الإنجليزى ممثلين لبلادهم التى كانت جزءاً لا يتجزأ من المملكة المتحدة ومقسمة إلى دوائر انتخابية وكان زعيمهم الأكبر بارنيل الذى اتخذ كل الوسائل لتعطيل البرلمان بطريقة عجيبة ولكنها دستورية وهى الإيعاز إلى الأيرلنديين أن يقرأوا نبذاً طويلة من التوراة أثناء الاجتماع ، وبحسب قانون المجلس لا تجوز مقاطعة العضو فى خطبته مهما كان الكلام الذى يقوله أو الكتاب الذى يقرأ منه خارجاً عن الموضوع حتى أنه استبقى المجلس «صاحياً» أربعة أيام بلياليها، ورئيسه لا يستطيع أن يغادر كرسى الرياسة ، فسنوا قانون «منع تعطيل البرلمان» The Obstruction Bill وأرغم غلادستون على وضع مشروع قانون الحكم الذاتى لأيرلاندا المعروف باسم Home Rule Bill وقد مر المشروع بقراءتين ولم تبق له إلا القراءة الثالثة وحينئذ رأت القوة الخطر الداهم وهو استقلال أيرلاندا. ففى ٧ مارس سنة ١٨٨٧ نشرت التيمس سلسلة مقالات بعنوان «بارنلزم والجريمة» مشيرة إلى جريمة «فنيكس بارك» التى قتل فيها حاكم أيرلاندا الإنجليزى عندما كان يتنزه فى البستان الشهير بهذا الاسم وطبعاً كانت الجريمة سياسية، ولكن لم يتجرأ أحد على نسبتها إلى بارنيل لأنه كان زعيماً سياسياً راقياً يحارب الحكومة بالطرق المشروعة ولم يخطر بباله أن يقاومها بالقوة ، وفى ١٨ أبريل نشرت التيمس وهى أكبر جريدة إنجليزية صورة زنكوغرافية من خطاب هذا نصه :

«سيدى العزيز : أنا مندهش من غضبك وصاحبك ولكن يجب عليك وعليه أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعلما أن إظهار سخطنا على القاتل واستنكارنا للجريمة كان الخطة الوحيدة الممكنة وكان الواجب يقضى أن نفعل ذلك فوراً وبغاية السرعة وبدون تردد ولكن أخبر صاحبك والآخرين المتصلين بكم أنني وإن كنت آسف لمصرع اللورد كافنديش (الحاكم المقتول) فأنا لا أخفى موافقتى على هذا العمل وأنا أسمح لك بإظهار بيرك على هذا الكتاب وغيره دون أن تدل أحداً منهم على عنوانى ويمكن أن يخاطبنى بعنوانى بمجلس البرلمان • المخلص لكم

شارلس س. بارنيل

فأوقع ظهور هذا الخطاب فى التيمس – التى كانت تعد بحق «إنجيل الصحافة» الإنجليزية – حزب الأحرار الإنجليزى الذى كان يساعد بارنيل فى حيص بيص وأفقدهم رشدهم ما عدا الفريق الذى كان يعلم أن هذا الخطاب مزور •

فهاج الرأى العام ورمى الساسة بمشروع قانون استقلال أيرلاندا فى الوحل والطين ، ولكن الزعيم الأيرلندى لم يتردد فألقى فى المجلس خطاباً قوياً، وطلب من الأعضاء تأليف لجنة تحقيق سياسية ولكن الحكومة لم توافق على تأليف اللجنة من رجال السياسة، ووافقت على تكوينها من ثلاثة قضاة ليحققوا الأمر تحقيقاً جنائياً ، واجتمعت اللجنة فى سبتمبر سنة ١٨٨٨ فأسفر التحقيق عن تزوير هذه الخطابات بوساطة من يدعى «بيجوت» وهو مغامر سياسى كان يسعى طول حياته للحصول على المال بالتهديد ، فلما فشل فى الحصول عليه من «اتحاد الأراضى الأيرلندى» فعل فعلته. ويضاف إلى هذه الحقيقة أن بيجوت كان مدفوعاً من «رجال أقوياء مختفين» ، فإنه بعد أن اعترف للمحامين والقضاة وتقدم للمحكمة كشاهد نفى لجريدة التيمس «إنجيل الصحافة الإنجليزية» هرب إلى باريس لينقذ شركاءه الأقوياء ويحتفظ بالبقية الباقية من سمعتهم، فلما فشلت هذه الوسيلة فى إسقاط بارنيل استجد له بلاء آخر كانت عناصره مجهزة • فإن المرأة كاترين أوشاى زوجة كابتن أوشاى فتحت دارها لبارنيل ، فأخذ يتردد عليها برغم أنه كان متزوجاً وذو أسرة كريمة وكانت هذه المرأة شهيرة فى الأوساط السياسية، وكانت تدعى أحياناً إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحفلات الكبرى التى تقام فى «قصر دوننج ستريت» مقر مستر غلادستون رئيس الحكومة ، كما كانت لها علاقات غير منكورة برجال من «الخدمة السرية» ، وفى يوم من الأيام تقدم زوجها الكابتن أوشاى إلى الزعيم قائلاً إنه يطلب معونته بتعيينه فى أحد المناصب لأنه لم يتقرب إليه بامرأته (كذا) إلا ليعلو على أكتافه ! فدهش الزعيم وتظاهرت زوجته بالدهشة، فانتهره بارنيل فخرج من الدار وفى اليوم التالى رفع على زوجته دعوى الطلاق مدعياً أنها تربطها علاقة غير شريفة ببارنيل وكان ذلك فى سنة ١٨٩٠ وقد حكم فعلاً بالطلاق. ودمغ بارنيل بأنه زان حسب نص القانون. وقبل الحكم حدث حدث مهم وهو أن المرأة أوشاى قالت لشريكها : إن عندى وسيلة يمكن بها لنا أن ننجو من التهمة وأن نخرج بشرفنا من أدراننا. فقال : ما هى ؟ قالت : أن أقول فى المحكمة إن زوجى وآخرين أكتم أسماءهم أو أبوح بها حسب رغبتك، هم الذين دفعونى وزجوا بى وأمرونى أن أوجد هذه العلاقة الأثيمة وأنك أنت كنت ضحية لى ولهم وهذه الطريقة ترد كيد خصومنا فى نحورهم وتلوثهم إلى الأبد. وأنا أعرف كيف أؤثر على المحكمة والرأى العام فاترك لى العمل، فلن تضام بسبب حبى إياك أبداً .

فرفض بارنيل هذا الدفاع محتجاً بأنه مخالف لمبادئ الشرف. وفى ظنى أنه رفضه لأنه كان يظهره بمظهر الرجل البسيط المخدوع الذى جازت عليه خصومة عن طريق امرأة. ولعله رأى أن الأشرف له أن يصل تاريخه إلى علم الأجيال المقبلة رجلاً شريفاً ضحية الأقدار والعاطفة، لا ضحية الخيانة الأنثوية. وبعد الحكم فى القضية انفض من حوله بعض أعوانه وبقيت الكثرة متمسكة به. ولكن غلادستون بقى متمسكاً بمبدأ «الشرف» فرفض العمل من جديد مع رجل لوث اسمه فى محكمة الطلاق ولعل هذه هى الغاية القصوى التى كان يرمى إليها رئيس الحكومة الإنجليزية نتيجة المؤامرة العميقة التى حيكت خيوطها حول بارنيل .

حقيقة أن المرأة أوشاى حاولت فى آخر الأمر أن تنقذ الموقف ولو بإذاعة السر الأعظم لأنها لم تكن تحب زوجها الكابتن أوشاى ولأنها ندمت على ضياع الرجل

الكبير الذى أحبها. وأن هذا الندم ليعرو كل امرأة فى موقفها ، وقد اعترى دليلة نفسها فجاءت إلى شمشون وهو أعمى ومقيد بالسلاسل فى سجن اليهود وعرضت عليه الهرب لتعيش البقية من حياتها تحت أقدامه، ولكنه رفض فى غيظ وكان من شدة غيظه من تلك الأفعى أن الله استجاب دعاءه وفتح بصره وكسر قيوده ومكنه من هدم الهيكل صارخاً «علىَّ وعلى أعدائى يارب !» ولكن هذه المعجزات لا تتكرر والحياة تسير فى طريقها. ففاز الأوغاد والخونة والدساسون وفاز القواد أوشاى بأربه ونال مالاً ومنصباً وبقيت المرأة تخدم بارنيل عاماً واحداً ، فإنه مات فى سنة ١٨٩١ فى بيت على شاطئ البحر فى بريطونة. أما المرأة فعاشت إلى سن الثمانين ولم تهلك إلا فى سنة ١٩٣٠ أى بعد ثلاثين عاماً من مصرع ضحيتها. وعلى الرغم من كل ما دبر وحيك فإن أيرلاندا استقلت ولم تنس زعيمها. وفى دبلين يقوم له الآن تمثال عظيم يذكر المواطنين بإخلاص الرجل الذى عاش وتألم وفضح فى سبيل حريتهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاغتيال السياسى فى الشرق[1]

—

الاغتيال السياسى وقتل الطغاة قديم فى العالم وقد قتل المصريون والأشوريون والهنود واليونان والرومان طغاتهم لأنه لم يكن لديهم فى تلك الأزمنة السحيقة طريقة مثلى لإقصاء العظماء غير المرغوب فيهم واسترداد السلطة من أيديهم سوى القتل السياسى ، ومازالت هذه الطريقة شائعة حتى أدركت اليابان فى عصر نهضتها ، فكان مصرع المركيز إيتو (١٩٠٩) فاتحة لسلسلة من هذه الجرائم فى الشرق الأوسط (الهند فى ١٩١٠ و ١٩١١ ومابعدهما) إلى الشرق الأدنى . ولكن هذه الطريقة خاطئة وتدل على تقهقر الأمم والجماعات التى تلجأ إليها .

أما فيما يتعلق بمصرع بكر صدقى باشا فقد وصف الأستاذ أمين سعيد صاحب الرابطة العربية كيف كان يعيش قبل مصرعه بل كاد يتنبأ بهذا المصرع لسعة اطلاعه على أمور الشرق العربى ، فقد علم أن الرجل لا يملك مغادرة بغداد فى هذه الظروف العصيبة والابتعاد عنها لأسباب فى مقدمتها كثرة أعدائه وخصومه وترقبهم الفرص للانقضاض عليه والانتقام منه للذين سقاهم كأس الردى من قبل .

أما وصف الأحراس الذين كانوا يحيطون بالرجل قبل وفاته فى بغداد فأقرب شىء إلى وصف حراس لينين فى أخريات أيامه ولياليه لشدة ما كان يلحقه من الرعب من الانتقام . ولكن الله يعصم من يشاء من الناس ويغنيهم عن الحماة والحراس ، فلم ينفع القائد الصريع وصاحبه الطيار حرس ولا جرس ، ولم يقهما الموت جنود ولا بنود ، فإن السيف لايمنع الحتف والمدفع لايرد الردى إذا حانت الآجال ، وقد ينقلب اجتهاد المرء فى المحافظة على نفسه وبالا عليه ، وقبل مصرع هذين الرجلين صبغت شهوات السياسة وجه الأرض بالدماء .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية ، ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٧ ، المجلد الثالث ، العدد ٦٤ ، ص ١٤-١٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان الأقدمون يكرمون الجناة الذين يغتالون الطغاة ويحسبونهم محسنين لأوطانهم . وكان الإغريق يقولون بوجوب قتل الطاغية . ومن أكبر كتابهم بلوطارخوس صاحب كتاب « العظماء »[1] قال في أحد فصوله «إن قتل الطاغية فضيلة قومية » ، وعندما وثق تمليون بأن شقيقه يسعى للطغيان صمم على القضاء عليه . وأقام بعض اليونان تمثالا لإديموس وأرستجتون لقتلهما هيبس . وسار الرومان على هذه الخطة العوجاء في نظرنا والنبيلة في نظرهم ، فحبذها سيسرون وكاتون (من أشهر رجال السياسة والخطابة والقانون).

وكما قتل تيمليون أخاه انتصارا للعدل ، كذلك مد بروتوس يده بالخنجر لقتل متبنيه يوليوس قيصر ، فلما رآه قيصر وكان يقاوم القتلة اصفرت الدنيا في عينيه وقال جملته الشهيرة « حتى أنت يابروتوس إذن هانت الحياة » . ودبر نيرون مقتل أمه أجربينا في قصرها المنعزل ، فلما رأت القتلة يجردون أسيافهم قالت لمقدمهم وقد كشفت عن ملمس عفتها : « اضرب هنا في هذا المكان واحكم الطعن ، جزاء وفاقا لهذا المكان الذى دفع إلى العالم بولد يستبيح قتل الأم ! »[2] .

وقد نقل هذا الكلام إلى نيرون ففرك يديه وقال : « مصلحة الدولة فوق احترام الأمهات ! مسكينة يا أماه لقد ذهبت فداء لمنفعة الوطن » ، ثم تلى عن مصرع «فضلى الأمهات »- وكان هذا لقبها الذى يناديها به - بأنشودة وقعها على قيثارته .

ولم يدر نيرون وهو يقول هذه الكلمة أنها سوف تكون سندا ومرجعا لمن يأتى بعده ، فقد انتشر الاعتقاد بإباحة قتل الطاغية لمصلحة الدولة ومازال سائدا حتى القرون الوسطى ، وفى مقتل مارشال شامبانى ومارشال نورماندى ، خطب زعيم الدهماء (ديماجوج) مارشال فى الجماهير مؤيدا مشروعية قتل الطغاة ، وخاطب

---

(١) نقله إلى العربية الكاتب المرحوم ميخائيل بشارة داود القبطى المصرى وهو أول من أزاح الستار (بعد أحمد كمال باشا) عن تاريخ أخناتون وتوت عنخ آمون .

(٢) ص ٩١ ج ١ حوليات تاسيتوس نسخة إنجليزية مطبوعة إيفرى مانز ليبرارى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ممثلى الشعب المجتمعين فى ساحة المجلس البلدى قائلا : « ألا إن ما حدث إنما تم لمصلحة الدولة ونفعها » ، فأيده الشعب وأقره بالصياح والهتاف والموافقة .

وسخرت أقلام أساتذة اللاهوت والقانون فى جامعة السوربون فى باريس لتبرير مقتل دوق أورليان بأمر دوق بيرغنديا ، ومن الأساتذة حملة العلم والقلم البروفسور يوحنا الصغير ، فكتب رسالة طويلة جاء فيها « أن دوق أورليان قتل تقربا إلى الله لأنه كان عدو الله وفى خدمة الملك لأنه كان أميرا خائنا لمولاه ولمنفعة الدولة لأنه كان ظالما ، ومادام قاتله أتقن الحيلة وحذق فى حبك أطرافها وأنقذ حياة الملك بالقضاء على خصمه فقد خرجت يده بيضاء ناصعة وضميره نقيا ، ومادام بعيدا عن الخطر فهو لا يخشى عاقبة جريمته » .

وإن هذا الكلام الذى يبدو كأنه صدى حوادث القرون المظلمة لينطوى على مبادىء شديدة الخطر والخطورة ، فإنها تبرير للقتل السياسى لا أكثر ولا أقل . وهى نوع من رأى العلماء « دوكترين » الذى يهب الجريمة متكأ وموئلاً وكتفا وظلا وارفا .

وإن الشرقيين ليعذرون إذا كانوا فى القرون الوسطى قد نظموا القتل السياسى فى سبيل إنقاذ أوطانهم من الأجانب أيام الحروب الصليبية ، مادام أساتذتهم فى المدنية قد وضعوا لذلك قواعد وقوانين ودافعوا عنه بألسنة علمائهم وأقلامهم . فإن ثلاثة من علماء الشرق الأدنى اجتمعوا فى القرن السادس عشر فى مدرسة واحدة وهم :

نظام الملك – حسن بن صباح – عمر الخيام ، وهم مزيج من الكرد والفرس والعرب خضعوا لحكم السلاجقة ، فلما كانوا رفاقا فى المدرسة تعاهدوا على « الحب الصافى » والتعاون ، وأن الناجى منهم يأخذ بيد أخيه . ولكن الأقدار فرقت بينهم تفريقا عجيبا . فصار نظام الملك وزيرا وأسس جامعة « النظامية » ودعا إليها أحد رفيقية أو كليهما للتدريس بها فاعتذر ، والخيام صار شاعراً وفلكياً ومجاهدا فى الحروب الصليبية ، أما حسن بن صباح فقد أسس جماعة الفدائية الذين أطلق عليهم وصف « أساسينو » محرفة فى الإيطالية عن الحشاشين ، فقد نسبوا إليه أنه

كان يخدر مريديه وأتباعه ودراويشه بالحشيش ليسلب إرادتهم ثم يوجههم أنى شاء، وقد بنى حصنا عاليا فى رأس الجبل (ولذا سمى شيخ الجبل) وأوهم الغزاة من الإفرنج أن لديه مئات الألوف من الذين يطيعونه طاعة عمياء ، فكان ذلك سببا فى ارتدادهم عن مقر سلطته . وكان يستعمل رجاله فى إرهاب الأمراء وسلاطين الدويلات المجاورة له وابتزاز أموالهم حتى كون دويلته على الحديد والنار والدم [(١)] .

وفى نظرنا أن هذا الرجل لم يكن أقل من دوقات فرنسا ولا بعض قواد الإنجليز (كرومويل) ولا أمراء إيطاليا (أسرة بورجيا الخبيثة الذكر) ، فقد ألف ميكافيلى كتابه الأمير وأهداه إلى قيصر بورجيا بعبارة يدل أسلوبها على الذل والهوان ، ولم يكن يعلّمه إلا اقتناص الممالك بالغدر والقتل ويضرب له الأمثال من التاريخ القديم والحديث .

وإن أوروبا التى ترمينا بأدوائها وتنسل لمخضبة عروشها وقصورها وميادينها بدماء الطغاة أو الأبرياء ، فقد كان القتل يقع عليهم زرافات وأفواجا كما حصل فى مذبحة القديس بارتلميه . وفى القرن الثامن عشر تولت كاترين الثانية عرش روسيا ودافعت عن حقها فى قتل الطغاة ثم أمرت بقتل بعلها بطرس الثالث (لأنه لم يكن يحسن صنعة الحب كما ترغب قرينته وتشتهى ، فاتخذت من السياسة سببا لقتله لتتخذ من تشاء من محترفى الغرام وشهدائه).

وأصدرت منشوراً دافعت فيه عن جريمتها ، فتلقفه «علماء القتل السياسى» وضموه إلى سجلاتهم ، وجعلوا منه سندا جديدا لتأييد نظريتهم ومرجعاً قضائيا عندما تعوزهم « حيثيات الحكم » ! .

ومما جاء فى هذا المنشور العجيب أن بطرس الثالث كان عدو الأمة والدين (الله والوطن) وأن الذين أنقذوا البلاد والملة من شره أبطال يستحقون تقدير الوطن!

---

(١) انظر كتاب موريس باريس Du sang,de feu et du fer

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولما انقسم الثوريون الفرنسيون على أنفسهم وانشقوا الانشقاق الذى دمر صرح ثورتهم وصاروا شيعا كاليعقوبية والجبلية والكونفنسيونية ، قال اليعاقبة بحق قتل الطغاة ، وألف الهاربون من الطغيان حزبا فى خارج فرنسا ونطق بلسانهم كاتب اسمه بلتييه فى صحيفة دورية فقال : « ليس للمغتصب عرش فرنسا حق فى الوجود وقتله واجب » ·

ولم ينج بونابرت وهو فى ذروة مجده من المؤامرات لقتله وأهمها مؤامرة البارود ويظن أنها من تدبير فوشيه رئيس الشرطة السرية وزعيم رجال الخفية فى أكثر من عهد واحد · وقتل كليبر فى مصر بيد سليمان الحلبى بسبب سياسى وكان من أشباه نابوليون فى قوة الأمر والنشاط والذكاء ·

وقد سرت فكرة القتل السياسى للحلبى وهو طالب أزهرى من تعاليم الفرنسيين الذين صحبوا حملة بونابرت وكان لمعارفهم وفنونهم أثر كبير فى أذهان الشرقيين·

وتأسست جمعيات سرية فظيعة غايتها القتل ، ويجب هنا أن ننبه إلى خطأ شائع وهو لا مكان له من الحقيقة · فإن جمعية الماسون أو البنائين الأحرار لم تلوث أياديها فى أى عهد من العهود بشىء من هذه الجرائم لأن قوانينها تحول دون ذلك ، وإن كان خصومها قد اتهموا ظلما بذلك ، وقد اتهموها لعلو نفوذها وخطورة شأن رجالها وأعمالها التى قامت بها فى كل العصور ، حتى أن أعظم منافسيها من الكهنة والقساوسة لم يستطيعوا أن يكتبوا سطرا يؤيدون به هذه التهمة · ولم يساعد على تقوية الشائعات وترديدها إلا أنها جمعية سرية · ولكن السرية شىء والجريمة شىء آخر ·

ومن الجمعيات التى أنشئت فى أوربا للقتل السياسى [1] جمعية أنصار المساواة ، ومنها تخرج دارميس الذى تعدى على لوى فيليب وترافع كنسيه أمام

---

(١) راجع كتاب الجمعيات السرية السياسية فى أوروبا لباكستون طبع لندن ١٩٠٦ The Secert Socities of Europe ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المحكمة بقوله « تربيت ودرجت على فكرة قتل الملوك ورضعت لبان هذه النظرية فى أحضان الجمعيات السرية » . ودافع البيو عن نفسه قائلا ما ثبت على لسانه فى محاضر الجلسات :

« الاعتداء على الملك من حق الرجل الذى لا يستطيع الوصول إلى الحق إلا بيده وإننى حين اعتديت على الملك لم أكن أقل صنعة أو أضعف حقا من بروتوس حين قتل يوليوس قيصر » .

ومازالت أوروبا ترمينا بكل بلية من أمراضها وجرائمها ، ولم تنقطع سلسلة القتل السياسى فى عواصمها ، ففى سنة ١٩٠٢ قتل الملكان إسكندر ودراجا فى ليلة قمرية من شهر يونيو ليصعد إلى العرش مكانهما بطرس قره جيورجوفتش الذى كانت تساعده فرنسا ، وفى سنة ١٩٣٤ فى مرسيليا قتل ملك الصرب ووزير خارجية فرنسا اغتيالا .

وفى إيطاليا سنة ١٩٢٤ قتل ماتيوتى النائب البرلمانى الشيوعى لأنه قاوم الفاشية صراحة ، وفى باريس قتل رئيس الجمهورية دومير سنة ١٩٣٢ ودافع القاتل عن نفسه دفاعا فلسفيا دل على أنه مخبول ، وحاول رجال من اليمن فى سنة ١٩٣٥ أن يقتالوا عبد العزيز آل سعود وهو يطوف بالكعبة ، وشرع جنديان مخدران فى قتل محمد على الكبير فى أحد مواكبه فى سكة الغورية ولم يصب بأذى فأحضرهما وعفا عنهما وقربهما وأغدق عليهما النعيم والرتب وصبر عليهما حتى تذوقا لذة الترف وطعم الزواج والأبوة ثم حاسبهما فجأة على جرمهما القديم وأعدمهما قائلاً:

- كنتما بالأمس صعلوكين لا قيمة للحياة عندكما أما الآن فلها قيمة تستحق أن تسلب منكما [١].

فالاغتيال السياسى فى العالم شرقا وغربا وباء مقيم ليس فى شفائه حيلة إلا

---

(١) ج ٢ ، ص ٢٧ تاريخ الجبرتى ، طبع مصر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بتعرف أسبابه ، وهو فى الشرق أقل خطرا منه فى الغرب ، فإن جناة الغرب يقتلون الملوك والعظماء لأجل مبدأ القتل السياسي ولأنهم لا يريدون ملوكا ولا عظماء . ولذا يتطوع الروسى والإيطالى واليهودى فى قتل الإنجليزى والفرنسى والأمريكى . أما فى الشرق فالدافع هو الانتقام أو الحسد أو تطلع الرجال - الذين يسلحون أيدى القتلة - إلى السلطة التى فى يد المقتول . وداء القتل للمبدأ لايزول بل يشتد وينمو كلما نمت أسبابه وهى اقتصادية واجتماعية وسياسية . أما داء القتل لأجل الانتقام والحسد والبغضاء لأسباب عامة فقابل للشفاء بالقضاء على أسبابه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاغتيال السياسي في التاريخ والأدب والدين[1]

تعاني مصر الاغتيال السياسي منذ نحو من أربعين عاماً حتى أصبح داء مزمناً ووباء فتاكاً ، مقيماً لا ضيفا طارئاً .

ونحن نعالج كل حاجة في وقتها فنتفجع ونذرف الدموع ولا ننظر في علاج قاطع مانع ، ولا نبذل في سبيل الخلاص من تلك الوصمة القومية بعض ما نبذل في محاربة الحميات المهلكة أو وباء « الكوليرا » ، مع أن القتل السياسي إذا استشرى يمسي أشد ضرراً وأوخم عاقبه من بضعة أوبئة وإن اجتمعت . فإن الاغتيال يفتّ في عضد الأمة ويطعنها في صميم حياتها ووحدتها وتضامنها ، ويؤدي إلى تفريق الكلمة وإلى زوال الهيبة والمحبة ، وناهيك بهاتيك المصائب إذا أصابت الوطن المصري !

كان الشرق أقصاه وأدناه وأوسطه طاهراً بريئاً من هذا الداء الوبيل ، وكان نادراً في الغرب نفسه ، فيصفون مقترفيه « بالفوضويين » أو « العدميين » (نهيليست Nihilist) ، وهو وصف روسي كان أول من استعمله الكاتب السياسي والأديب المؤرخ تورجنيف .

ثم شاع هذا الوصف في أوربا وأمريكا ، وأول من لجأ إليه مذهباً وتنفيذاً ، الثائرون الروس في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في زمن القياصرة ، ثم صار علماً على جماعة مستهترة وطبقة فدائية دأبها اقتراف الجرائم والجنايات بالأسلحة الفتاكة حقداً على الطبقة الحاكمة والطبقة الغنية ، أي على المستأثرين

---

(١) بحث مخطوط بهذا العنوان لم ينشر من قبل كتبه المؤلف في ٢٦ يناير سنة ١٩٤٩ بمناسبة حادث اغتيال المرحوم محمود فهمي النقراشي وهو آخر ما خطّه قلم المؤلف قبل مرضه في يوم شم النسيم في شهر مارس سنة ١٩٤٩ حتى وفاته في يونيه سنة ١٩٥٣ .

بالقوة والثراء انتقاما منهم ونكاية بهم وسعياً فى تبديد النظم الاجتماعية السائدة ، وتفكيك عروة الحياة العامة . وكانت خطتهم التآمر والاتفاق الجنائى فى الظلام .

ولم يقدم على الاغتيال السياسى فى أوربا المتحضرة بعد مقتل يوليوس قيصر أحد ، وذلك بتأثير الأديان والمدنية ورهبة القوانين واعتباراً بما حدث للامبراطورية الرومانية بسبب هذه الجناية من الضعف والتشتيت حتى الاندثار ، وقد سجل هذه الجناية وليم شكسبير فى مسرحية شعرية مشهورة باسم بطلها مثلما سجل جناية مقتل مكبث ملك أسكتلندا (إيقوسة).

وفى سنة ١٩٠٩ اعتدى أحد السوقة من غمار الشعب على المركيز إيتو رئيس وزراء اليابان فى ذلك العهد .

ولما كان بعض الشرقيين يميل إلى التقليد ويسهل انتقال العدوى إلى أمزجتهم ، فقد سرت العدوى بهذا الشر إلى مصر ، فقتل المأسوف عليه بطرس غالى باشا فى سنة ١٩١٠ [(١)] ، ثم بدأت سلسلة فظيعة من الاغتيالات تحت ستار الدوافع السياسية ، وغالباً ما يختفى المحرض ويسخر للجريمة والعقوبة شخصاً ضعيفاً بجهله وشبابه وحماسته الضالة ، فيكون حمل الفداء والفاعل الأصيل - وهو المحرض - مختفياً بعد أن جنى على القاتل والمقتول ، وقد يفلت من العقاب . ومايزال المدبر والمحرض والموحى جاثماً فى ركن مظلم بقلبه الأسود يترقب ضحيتين تاليتين !

كان بعض الجناة يسوغون الاعتداء على الحياة بالظلم أو القسوة أو انحراف الزعماء عن سواء السبيل فى الوطنية والحكم ، وإن كان الفاعلون والشركاء لايدرون فى الاجتماع والأخلاق والسياسة كثيراً أو قليلا حتى يميزوا بين الخير والشر ، ولايحق لهم بحال أن يجعلوا من أنفسهم مشترعين وحاكمين وقضاة وجلادين منفذين !

---

(١) انظر ما كتبه المؤلف بعد ذلك عن هذا الحادث ، ص ٥٤١ ومابعدها من هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نعم إن القتل إذا لم يكن قد تم على هذه الصورة الوحشية ، فلا معنى لوصفه بالاغتيال ، لأن الاغتيال ينطوى على الغدر والقسوة والخيانة والخسّة .

فإذا فرضنا أن المذنب القاتل أعرض عن كل اعتبار إنسانى ، فهل أعرض أيضاً عن كل اعتقاد دينى ولم يراع أن للقتيل أهلاً وأطفالاً وأن الله سبحانه وتعالى لابد أن يسأل الجانى عن جنايته كما جاء فى حديث النبى عليه الصلاة والسلام ؟

وفى القرآن الشريف ذكر قابين وهابيل بصفاتهما وحادثتهما دون ذكر اسميهما وذلك فى سورة المائدة (الآيات : ٢٧ - ٣٢).

وقد روينا أخبار بعض جنايات الاغتيال التى وقعت فى تاريخ أوربا وسجلها الشاعر الإنجليزى فى مسرحياته (يوليوس قيصر ومكبث لشكسبير) .

ومن أفجع الاغتيالات المسجلة فى الأدب العربى مصرع الخليفة جعفر بن المعتصم العباسى ووصفه المتوكل على الله .

فقد دبر اغتياله ابنه المنتصر فى شهر شوال ٢٤٧ هـ وتولى بعده العرش والصولجان .

وقد حضر هذه الجريمة وقت تنفيذها البحترى الشاعر الشهير ، وكان فى المجلس يؤاكل الخليفة وينادمه، فاختفى وراء الستور لأنه كان أعزل ورثى المتوكل بقصيدة رنانة جاء فيها :

أكان ولىّ العهد أضمر غدرة   فمن عجب أن ولى العهد غادره!

ولم تطل مدة المنتصر على العرش أكثر من ستة أشهر .

وغير خاف على أحد أن القرآن نص على تحريم القتل صراحة فى مواطن شتى، كما نص على استنكار الاغتيال فى سورة المائدة كما قدمنا ، وكذلك نصت الديانة المسيحية على أن قتل النفس البريئة وانتهاك حرمة الدم المعصوم ظلم وعدوان من أكبر الكبائر وأعظم المآثم ، لما فيه من إشاعة الفساد فى الأرض واختلال نظام العمران .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد بلغ من تغليظ الزجر وتشديد العقاب على من اقترف هذه الجريمة ، أن تحدث النبى عليه الصلاة والسلام فقال : « ليس للقاتل توبة ، يأتى المقتول يوم القيامة معلقاً رأسه فى إحدى يديه ، متلبباً قاتله بيده الأخرى ، تشخب أوداجه دماً حتى يوقف بين يدى الله فيقول المقتول لله تعالى : هذا قتلنى . فيقول الله تعالى : تعست، ويذهب به إلى النار »[1].

---

(١) المراجع : الكتب المنزلة – الأغانى – الشوامخ فى فحول الشعراء – المحاسن والمساوىء – نهاية الأرب– ديوان الحماسة – الفرج بعد الشدة – البداية والنهاية (تاريخ الدولة العباسية) – مسرحيتان لشكسبير.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من حوادث الاغتيال السياسى فى مصر (١)

إن الاحتلال الإنجليزى نفسه هو سبب حوادث الاغتيال السياسى فى مصر ، ما مضى منها مما يشبهها وما قد يلحقها إذا استمرت صلتنا بالإنجليز لا سمح الله بذلك ، فإن أبسط علاقة بيننا وبينهم قد يجعلون منها سبباً أو وسيلة للإضرار بنا وتكدير صفونا .

فإن هؤلاء الناس لا يبالون بعهود أو وعود ولا يراعون إلاّ ولاذمة ، فهم فى السياسة ولا سيما الاستعمار ، إباحيون لا يقيمون للتعهدات أو الحقوق وزناً ولا يجعلون لشعب كرامة .

لقد دأب الإنجليز على إذلال هذه الأمة كبيرها وصغيرها ، ورسموا لذلك خططاً وقعّدوا القواعد وسنوا السنن منذ علاقتهم بمصر فى أواسط القرن التاسع عشر ، أى قبل ضرب الإسكندرية بالقنابل بعشرين أو ثلاثين عاماً .

والناظر فى حوادث الاغتيال السياسى فى مصر يرى أن الدافع إليها هو الاحتلال الإنجليزى ومعاهدة سنة ١٨٩٩ الخاصة بالحكم الثنائى فى السودان ، فالإنجليز حيثما كانوا هم السبب لكل كارثة حدثت فى مصر ، وذلك بالعمل على قتل الروح الوطنية بمحاربة التعليم واضطهاد الطلاب وتخريب مدرسة الحقوق التى تخرج رجال القضاء والعدل ، فقد أرغموا الأستاذ إدوارد لامبير على الاستقالة بعد سنة واحدة من نظارته وعينوا المستر هيل ناظراً عليها وهو رجل إنجليزى كان أصله مدرساً من الدرجة الثالثة للتاريخ فى المدارس الثانوية .

وكل هذا يرجع بنا إلى سلسلة من أعمال الإنجليز فى عهد كرومر وفى عهد الخديو عباس . وكانت قضية الاعتداء على المرحوم بطرس غالى باشا، خاتمة المطاف.

---

(١) مخطوط لم يسبق نشره عن حوادث الاغتيال السياسى فى مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين ، وهو – على مايبدو – تكملة للدراسة السابقة عن « الاغتيال السياسى فى التاريخ والأدب والدين » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(١) حادث اغتيال المرحوم بطرس غالى

كان بطرس غالى باشا من زعماء مصر وساستها وأصحاب العقول والتدبير فيها ، وكان زعيماً روحياً وعقلياً واجتماعياً ، وكان محبوباً من أمير البلاد المرحوم عباس حلمى ومن كثير من العلماء والأعيان لأسباب يطول شرحها ٠

ولكن هذا الرجل وقع قتيلاً برصاص شاب مصرى تعلم الصيدلة فى سويسرا هو إبراهيم ناصف الوردانى ، وصادف مصرعه يوم ١٠ فبراير سنة ١٩١٠٠

وكان لهذه الحادثة رجة شديدة فى مصر وفى أوربا ، فوزير الخارجية الإنجليزية زعم أن الجناية دفع إليها التعصب الإسلامى ٠

وفى مصر خشى العقلاء أن يكون لها أثر فى المحبة والألفة السائدتين بين عنصرى الأمة المصرية خصوصا بعد وفاة المرحوم مصطفى كامل بعامين وبعد وفاة المرحوم الشيخ محمد عبده بخمسة أعوام ، وكانا من العاملين على توثيق عرى المودة بين المسلمين والأقباط ، وحجتهما القوية العلاقات الودية من قديم الزمان والتى لم يطرأ عليها تغيير ولا تبديل ٠ وكان هذان المصلحان من دعاة الاتحاد الوطنى فى كل وطن شرقى والسعى فى تحرير شعوب الشرق من سيطرة الغرب ونبذ الشقاق بين العناصر المؤلفة لأمة واحدة ٠

وكان كثير من نوابغ الشباب القبطى يعاونون مصطفى كامل أمثال المرحومين ويصا واصف ومرقص حنا والأستاذ الطويل العمر وهيب دوس بك ٠

أما الشيخ محمد عبده ، فقد كان من الدعوة إلى التآلف بين جميع الطوائف ما لم يُعهد له نظير ، وكان يرى القبط على أتم الاتحاد والتآلف والتعاون بينهم على ترقية جميع أمورهم الدينية والدنيوية ، وكان يحب أن يجتهد كل فريق بنفسه فى ترقية مصالحهم الملية ويتعاون الجميع على المصالح المشتركة الوطنية ٠

وكان بعض كتاب المصريين حوالى سنة ١٣٠٥ هجرية انتقدوا بطرس باشا بالمحاباة فى بعض الوظائف مذ كان وكيلاً لوزارة الحقانية ، وزعموا أنه كان على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خلاف مع المرحوم النابغة شفيق بك منصور . فلما رأى الأستاذ محمد عبده هذا الشقاق الوطني في الجرائد المصرية - وهو إذا ذاك في بيروت منفياً بحكم المحكمة العسكرية التي حكمت في القضية العرابية - كتب مقالة في جريدة « ثمرات الفنون» وأقام الأدلة على التحام العنصرين بالألفة والمحبة ، وأخذ كل منهم بعضد أخيه عند الشدة ورسوخ ذلك في نفوسهم بالتوارث عن أسلافهم . وأقوى برهان على ذلك وقوفهم مواقف القتال مع مع إخوانهم المسلمين في مواطن الحروب في فتنة كريت وحرب الحبشة والمواقع السودانية وما سبق ذلك وما لحق ، يناصرونهم ، فكانوا حرباً لمن حاربهم وسلماً لمن سالمهم . ولم يحدث الخلاف المذهبي شقاقاً وطنياً في مصر في زمن من الأزمان . ولهذا لم ير أحد للأقباط مسألة سياسية تعنى بها دول أوربا كما يُرى لغيرهم في غير مصر من المسائل » انتهى كلام الشيخ محمد عبده سنة ١٣٠٥ هجرية .

لقد كانت الجناية التي انتهت باغتيال بطرس باشا غير منتظرة ، فحزن لها كل عاقل في مصر وفي مقدمتهم الخديو عباس حلمي ، فإنه ذهب لزيارة بطرس باشا في المستشفى ، فلما رآه جريحاً وفي خطر شديد ، مال عليه وقبله وبلل وجهه بدموعه حزناً على إخلاص بطرس باشا ، لأنه لا يخفى أنه الوزير الأول والأوحد الذي قرر الاحتفال الرسمي بالعيد الهجري في مصر وجعله عيداً قوميا تطلق فيه المدافع .

كما أنه أبلى بلاء حسناً في وزارة الخارجية ولا سيما في حوادث السودان ، وطالما أثبت احتجاج مصر لدى الحكومة البريطانية كما هو ثابت في الكتب الزرقاء المحفوظة في دواوين الحكومة الإنجليزية والمصرية .

لقد كانت الجريمة في غير موضعها ، لأن بطرس باشا كان أول وزير مصري وطني صميم بعد سلسلة طويلة من وزراء أرمن طالما خانوا البلاد ، وآخرين ترك طالما تهاونوا في أمورها وحقوقها ، فكانت خسارة مصر فادحة لولا أن الله عوض علينا بأنجاله وهم واصف غالي باشا ومريت بك غالي وجفري بك غالي ، ولكل منهم على العرب والإسلام ومصر أياد طائلة كريمة في عصبة الأمم وعواصم أوربا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجامعاتها ، سواء في السياسة والدفاع عن فلسطين ، أو في تخليد الأدب العربي والإشادة بمجد الإسلام ، أو في خدمة المسألة المصرية بصفة عامة . فكانوا خير خلف لخير سلف .

ولكن هذه المحنة القومية ذهبت بآثارها وفشلت سياسة التفريق بين العنصرين الكريمين ، وهما أشبه بالعينين في الوجه الجميل ، إذا مرضت إحداهما أصابت الثانية غشاوة .

وبما أننا نتكلم عن قضية، فنقول إن إبراهيم ناصف الورداني بادر بالاعتراف بجنايته وشرح الدوافع إليها بما اتسع له تفكيره في ذلك الوقت ، وكان شابا في العشرين من عمره ، ونظرت قضيته وانبرى للدفاع عنه أكابر المحامين في ذلك العصر وفي مقدمتهم المرحومان الهلباوي بك وأحمد لطفي بك والطويل العمر محمد علي علوبة باشا .

أما الهلباوي فكان راغباً في إزالة أثر ما لصق به من كارثة دنشواي التي ترافع فيها ضد الفلاحين المصريين (١).

وقد دامت المرافعات أسبوعاً على الأقل ، وحكم القاضي « بوند » الذي حكم في دنشواي بالإعدام ورفع عنه نقض ورفض النقض ، ونفذ الحكم في إبراهيم الورداني في شهر مايو من سنة ١٩١٠ .

ولم تكن لهذه القضية أهمية خاصة ، لأن المتهم أراح المحققين والمدافعين والشهود بالاعتراف الكامل التام الصادق المطلق .

وعند كثير من الواقفين على خفايا الأمور أن إبراهيم الورداني وقع تحت تأثير بعض الإرهابيين الروس في جنيف ممن كانوا يحاربون الحكومة القيصرية ، كما أنه تأثر بمصرع المركيز إيتو رئيس الحكومة اليابانية في تلك السنة ، فقد قتله رجل من غمار الشعب ، وكذلك قتل كثير من رؤساء الوزارات القيصرية في روسيا ،

---

(١) انظر دراسة المؤلف عن « حادثة دنشواي » ، ص ٢٥٨ من هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالتهب خيال الشاب وظن أنه يفعل أمراً نافعاً لوطنه بقتل رجل ظنه أنه خائنا لوطنه.

والحقيقة التى أقرّرها للتاريخ أن المرحوم بطرس باشا كان وطنياً مصرياً صميماً مخلصاً لبلده ولأميره ، مراعياً للعدل التام بين عنصرى الأمة ، وله أعمال كثيرة تدل على تلك الحقيقة .

أما الأشخاص الذين وصفوا بأنهم شركاء الوردانى وعددهم سبعة أو ثمانية ، فقد أنقذهم الله على يد المرحوم متولى غنيم بك قاضى الإحالة بحق ولهم قصة .

فقد شاع منذ سنة ١٩٠٨ - بسبب السياسة الإنجليزية - أن تألفت جمعيات سرية كثيرة بين شبان المدارس العليا ، واتبعوا فى تأسيسها خطة الشُعَب أو الخلايا، خمسة خمسة ، كما أن بعضهم أخذ يكتب عقود اتفاق بأسماء الأعضاء ، وقصد الجمعية أن تنال مصر حقوقها ولو بالقوة المادية . وشاعت هذه العادة التى دلت فى ذاتها على بساطة عقول الأعضاء ، لأن الجمعية السرية فى أوربا لاتوجد عندها أوراق ولا عقود ولا تثبت أسماء أعضائها على حقيقتها ، وكانت إحدى هذه الأوراق التى وقعت فى يد البوليس والنيابة سبباً فى تقديم السبعة أو الثمانية شبان الواردة أسماؤهم بصلب العقد الذى يؤدى إلى الهلاك .

وإنما الكارثة التى ورثناها عن هذه القضية هى المادة ٤٧ مكررة أو مادة الاتفاق الجنائى فى قانون العقوبات ، فقد تنبه واضع القوانين المصرية إلى عدم وجود نص فى القانون يبيح محاكمة الشركاء ، فوضع مستشار الحقانية الإنجليزية وهو السير ملكولن ماكراليس تلك المادة التى وافق عليها مجلس شورى القوانين مذ كان المرحوم سعد زغلول باشا وزيراً للحقانية .

وكان محقق القضية والمترافع فيها مدعياً عمومياً هو عبد الخالق ثروت باشا .

ومن المصادفات الغريبة أننى بعد عودتى من أوربا ، رأيت صيدلية مدهونة باللون الأسود فى شارع عابدين بجوار قسم البوليس اسمها أجزاخانة وادى النيل لصاحبها إبراهيم ناصف الوردانى !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٢) مقتل السردار القضية السياسية الأولى فى العهد الجديد

لم يحدث اعتداء على الإنجليز إلى سنة ١٩١٠ إلا خلسة .

وقد حصّنوا أنفسهم فى عهد كرومر بالمحكمة المخصوصة وزيادة جيش الاحتلال من وقت إلى آخر ، واستولوا على سادة البلاد بالتنويم المغنطيسى وبمراعاة التقدم المادى فى الزراعة ليحصلوا على الأقطان والمحصولات ، فألهوا الأغنياء بالمال « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » ، وأوجدوا طبقة أصحاب المصالح الحقيقية أى أرباب الأطيان والأموال ، وبالدعاية الواسعة لكرومر ، فسكتت كل الأصوات ماعدا صوت الخديو عباس حلمى ومصطفى كامل . عباس حلمى وقف لكرومر بالمرصاد ، ومصطفى كامل أيقظ الأمة بالجريدة والخطبة ، أى بقلمه ولسانه.

وتمكن الإنجليز من التفريق ، فأخذوا لجانبهم بعض علماء الأزهر ، وكانوا يدعونهم فى ليلة القدر - التى هى خير من ألف شهر - إلى شرب الشاى وأكل الحلويات فى دار الوكالة البريطانية ، واشتروا بعض الجرائد (المقطم) وقد اغتنى أصحابها حتى صاروا أصحاب ملايين ، وضمنوا الوزراء وموظفى الحكومة ، واستولوا على المدارس بالخوجات الإنجليز ، وعلى المديرين بمفتشى الداخلية ، وعلى الوزراء بالمستشارين ، وعلى الخديوى بتهديد الخلع والنفى ، ولكنه رحمه الله لم يكن يبالى بالوعيد ، وكان يذكّر كرومر دائماً أن المبرر للاحتلال كان المحافظة على الأريكة الخديوية !

وما زالت الحال فى إرخاء وشد حتى سنة ١٩٢٤ ، فحدثت الحرب الأولى ورفعت بريطانيا الأقنعة السبعة من النفاق وأعلنت الحماية ، ونهبت الأرزاق وجندت الرجال باسم التطوع حتى تغنى المتطوعون المرغمون بأغانيهم :

ياعزيز عينى أنا بدّى أروّح بلدى ولدى يا ولدى .... إلخ .

ثم نهضة سنة ١٩١٨ وثورة سنة ١٩١٩ ومحاكمات ١٩٢٠ ، ١٩٢١ فى جميع أنحاء القطر . فكانت قضايا سياسية بالجملة ، لأنها أعقبت اعتداءات على الإنجليز

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سواء أكانوا حربيين أم مدنيين .

وبالجملة من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢٤ قامت حركة كبيرة وجرت مفاوضات وتغير وجه العالم ، وتألف حزب الوفد وصدر دستور وانتخب برلمان وكان سعد باشا رئيس الحكومة والهدوء سائداً ، وفى ٢٤ نوفمبر فجأة قتل السردار سير لى ستاك فى رابعة النهار فى الساعة الأولى بعد الظهر فى شارع الطرقة الغربى على قيد خطوات من وزارة الحربية .

وهذه القضية بدأت بالغموض فى الدافع لها ، وانتهت بالغموض حتى بعد تنفيذ أحكام الإعدام فى جميع المتهمين كما طلبت الحكومة البريطانية .

كانت القضية منظورة فى شهر مايو سنة ١٩٢٥ وكان المتهمون نحواً من عشرين شخصاً وهم أنواع وأجناس : (١) العمال (٢) الطلاب (٣) رجال الأعمال (٤) محام واحد (٥) موظف واحد .

وكان القضاة عرفان باشا ومظهر بك ومستر كيرشو ، وفى مقعد النيابة طاهر نور باشا . واستمرت المحاكمة أسبوعين وكان عدد الشهود عشرين شاهداً وخبير واحد ، وكان المحامون سبعة عشر محامياً بعضهم أحياء ، وبلغت أوراق الملف ٢٥٠٠ صفحة وثمنه ٢٥ جنيها .

لم توجه إلى المتهمين تهمة الاتفاق الجنائى ، وأخذت الاعترافات قسراً من عبد الفتاح عنايت فى برج العرب ، ومن بعضهم فى السجن بالضرب بقفازات البوكس الإنجليزية ، وقيل استعملت مخدرات .

ومازالت هذه القضية غامضة فى نواحى كثيرة :

(١) لماذا قتل السردار مع أن الوفد كان حاكماً ؟

(٢) ماذا كان دخل بعض الباشوات العظماء الذين حقق معهم بعد القضية ؟

(٣) من وعد محمود إسماعيل بالعفو ؟

(٤) كيف علم شفيق منصور بالجريمة قبل حدوثها ولم يبلغ عنها محافظة على موقف الوفد وسعد باشا ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٥) كيف لم تعارض الحكومة المصرية فى الطلبات الظالمة التى طلبها الإنجليز مع أن الحركة الوطنية كانت فى عنفوانها ؟

(٦) كيف أبيح لألنبى أن يتعدى حدوده ولم تصحح إنجلترا موقفها ؟

(٧) هل كان المقصود قتل السردار لذاته مع أنه لم يعمل عملاً ظاهراً ، أم كان المقصود إسقاط حكومة الوفد ولو بتضحية سير ستاك كما حصل فى مصرع غوردون فى الخرطوم سنة ١٨٨٤ لأخذ السودان ؟

(٨) أين اختفى المتهمون فى يوم الجناية وبعدها حتى لم يهتد إليهم أحد مع اهتمام البوليس والنيابة والإنجليز بالعثور عليهم ؟

وعلامات استفهام أخرى كثيرة .

العلاقة بين قضية السردار وقضية ١٩٢٦ التى اتهم فيها المرحوم الدكتور أحمد ماهر باشا :

كان بين المتهمين فى قضية السردار عامل اسمه على إبراهيم محمد كانت له نواح غريبة كثيرة :

(١) كان سبباً فى اتهام رئيس جمعية العلم الأبيض السودانية ستة أشهر وقرار الدكتور محجوب ثابت إلى الشام ، لأن ذلك المتهم يشبه كل الشبه رئيس تلك الجمعية الذى زار مصر فى تلك الفترة ونزل ضيفاً عند الدكتور ، ولكن لم يكن له علاقة بالقضية .

(٢) كان على إبراهيم محمد درويشاً للطريقة الخطابية ووجدت معه كناشة فيها بعض الأحاديث النبوية وبعض أبيات من الشعر عن الجهاد ، فرأى المدافع عنه [١]

---

(١) كان لطفى جمعه هو المدافع عن المتهم المذكور (انظر كتاب شاهد على العصر ، مذكرات محمد لطفى جمعه ، ج ١ ، ص ٣٥٤ - ص ٣٥٥ ، العدد ١٨٣ من سلسلة تاريخ المصريين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ٢٠٠٠ م).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن يستدعي الشيخ خطاب شاهد نفى على بعض الوقائع ، فقصد إلى بيته ومسجده ورجاه أن لا يكتم الشهادة فرفض الشيخ !

(٣) زعم على إبراهيم محمد أن الحاج أحمد جاد الله العامل بالعنابر - وهو شيخ متصوف - كان يفرّق المسدسات على العمال ويحضّهم على استعمالها . وكان جاد الله نفسه مسجوناً ، فطلبنا إحضاره شاهداً للنفى أو الإثبات للمتهم على إبراهيم أوله ، فرفضت المحكمة لسبب غير ظاهر لنا فى ذلك الحين . والحقيقة أنها أرادت أن تستبقيه ليكون خميرة للقضية الثانية التى نظرت فى سنة ١٩٢٦ ، وكان المتهمون فيها المرحوم ماهر باشا وغيره من المشاهير والعظماء ، وحكم لحسن الحظ ببراءتهم، لأن الدفاع أظهر مخزيات كثيرة للجواسيس الذين بلغ التلفيق منهم أنهم كانوا يدفنون بجوار منازل المتهمين صناديق ملآنة بالأسلحة والذخيرة لتكون أدلة على إجرامهم وهم أبرياء !!

وفى ظنى أن هذه هى القضية الأولى التى تدرب فيها بعض رجال البوليس المصرى وصاروا بوليسا سياسياً بالمعنى المعروف الآن ، لأن بعض حيثيات البراءة بنيت على ظهور التلفيق .

وكان أحمد جاد الله شخصية بلدية استمر يزهو بمكانته نحواً من عشر سنوات ، وكان بطل الدفاع فيها المرحوم الأستاذ أحمد لطفى بك وقد لقى من العنت والمشقات ما أدّى إلى مرضه ثم وفاته بعد بضعة أشهر ، ولكنها على كل حال كانت سببا فى زوال الأكدار وحلول الصفاء بين الحزب الوطنى وبين الوفد بعد أن تولدت تلك الأحقاد من سنة ١٩٢٠.

وقد أدت هذه القضية (قضية مصرع السردار) إلى ضياع السودان وترحيل الجيش المصرى وغطرسة اللنبى الذى دخل على سعد بجيش شاهر سلاحه وتلا عليه إنذاراً خبيثاً ودفعت الخزانة المصرية نصف مليون جنيه لم تأخذ منه أرملة ستاك باشا شلناً واحداً كما حصل التصريح به فى البرلمان الإنجليزى .

وبعبارة أخرى انتهزوا فرصة للانتقام لامثيل لها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ظهر بعد ذلك أن اللنبى تعدّى حدوده وقال وفعل أكثر مما كانت تبيح له الأوامر والنواهى ، ولكن ساسة لندن سكتوا عليه ونقلوه بعد مدة وراح على مصر ما اغتصبه اللنبى فى ساعة جبروت وطغيان ، لأن بعض المتهوسين من ساسة الإنجليز أسفوا لأن اللنبى لم يشنق سعد باشا !

وفى هذه المرة ظهر من يدعى محمد الهلباوى شاهد إثبات وأخذ مكافأة ١٠ آلاف جنيها لأنه مثل دورا عجيباً بعد وقوع الجريمة ليأخذ اعترافات جديدة ، فكان نوعا من Agent Provoctor، وقد ترقى على أمثاله الذين ظهروا فى سنة ١٩٢١ أمثال عبد الظاهر السمالوطى وزكى المغربى ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣) قضية القنابل سنة ١٩٣٢

هى القضية الأخيرة من قضايا الاغتيال السياسى فى مصر ، وما تزال أضخم دعوى جنائية سياسية فى تاريخ مصر الحديث ، فقد استمر نظرها ستة أشهر متوالية فى الجلسات ماعدا سنة ونصف فى التحقيق والاستعداد والتأجيلات .

وكان قضاتها المرحوم محمد نور بك وإبراهيم ثروت بك والأستاذ محمد نجيب سالم بعد تنحى محمود غالب باشا ورجل النيابة فيها محمود منصور بك وعدد المتهمين نحواً من ثلاثين ، منهم الطلاب والعمال والأعيان ورجال الأعمال ، وهى القضية الأولى التى ظهر فيها Agent Provoctor علانية فى شخص إبراهيم الفلاح ، وقد ترافع فيها اثنان وثلاثون محامياً [١].

هذه القضية كانت ملفقة من أولها إلى آخرها ، وقد اشتد ساعد البوليس السياسى ونما وزكا كالزرع النابغ ، وأتقنوا نوعاً من الاعتراف جديد وهو الاعتراف الأتوماتيكى ، فإبراهيم الفلاح يقول أنا ذهبت مع المتهم الثانى وفعلت كيت وكيت ، والثانى - وكان اسمه عبد الرسول - يقول أنا والمتهم الثالث والرابع فعلنا كيت وكيت ، والثالث يقول عن الخامس والسادس وهكذا ...

ولم يرحموا فى نهاية الأمر إلا الدكتور نجيب إسكندر باشا بعد سجنه عاماً ورجلا من أعيان بولاق وأعيان الوفد اسمه محمد حسن صاحب مطحن لأنه كان يتصدق على إبراهيم الفلاح لوجه الله لا ليتقى شره .

وفى آخر يوم سقطت القضية كما يسقط بيت مصنوع من ورق الكوتشينة واعترف الفلاح بكل شىء وكان يوماً رهيباً ظهر فيه ثبات أخلاق بعض الرجال .

---

(١) كان المؤلف أحدهم عن الدكتور نجيب إسكندر وتوفيق العزب ، لمزيد من التفاصيل عن هذه القضية راجع مذكرات محمد لطفى جمعه ، المرجع السابق ، ص ٣٦١ - ٣٧٠.

وحكم على الفلاح بالسجن سنة واحدة وقبض جائزة الألف جنيه التى وعد بها .

أما الدوافع فقد بقيت غامضة ، الدافع الظاهر هو الغضب على حكومة صدقى باشا ، والدافع الباطن هو إرهاب الأمة وإظهار حاجة الحكومة للبوليس السرى ، والتدليل على أن رجال الوفد هم الذين يحرضون على الجرائم .

وكانت المرافعات نموذجية والقضاة من الطبقة الأولى ، وقد جلسنا نحواً من ٢٠ جلسة خلال ستة أشهر مستمرة ، وكانت الدعوى ملأى بالمفاجآت .

إن الناظر فى وقائع هذه الدعاوى وقضايا الاغتيال السياسى فى مصر يرى أن الدافع إليها هو الاحتلال الإنجليزى كما قدمنا ، فالإنجليز حيثما كانوا هم السبب لكل كارثة حدثت فى مصر ، لأن المعاصر والمؤرخ والعدو والحبيب لا يستطيع أحدهم أن يجد لهذا الاغتيال دافعاً يدنيه للعقل مهما كان ضعيفا أو يردّه إلى المنطق عند أقنع الناس وأقلهم قبولاً للمقدمات والنتائج - ما لم يرد حوادث هذه الاغتيالات إلى الاحتلال الإنجليزى نفسه وإلى سياسة الإنجليز الاستعمارية واستهتارهم بحقوق الأمم ، وغايتهم من ذلك ترك الأمة المصرية فريسة للفقر والجهل والمرض وقتل النفوس المصرية ومحاربة عاطفة الحرية وتشجيع التجسس والخيانة وإذاعة الفوضى فى البلاد والإخلال بالأمن وإظهار الأمة المصرية بمظهر الأمة العاجزة عن الإصلاح.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عاقبة إمبراطور
كيف كانت خاتمة فردينان مكسميليان
من كتاب حديث للمؤرخ الفرنسى شارل موريان [1]

توفيت فى العهد الأخير ، فى أحد قصور البلجيك الإمبراطورة شارلوت كريمة الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا الأسبق ، وأرملة الإمبراطور فردينان جوزيف مكسميليان دوترش . قضت هذه الأمبراطورة البائسة بعد أن قضت أكثر من خمسين عاماً فى جنون مطبق ، أصابها فى ريعان الشباب ، عند ما نعى إليها قرينها المنحوس حظه فى سنة ١٨٦٧ ، وقد مات بعيداً عنها فى مدينة مكسيكو عاصمة بلاد المكسيك . وقد كان لولايته ونضاله ومحاولة الحكم ثم مصرعه طنين ورنين فى العالم ، فى فترة من أهم فترات التاريخ الحديث ، وهى التى سبقت حرب السبعين بين ألمانيا وفرنسا ، وآلت إلى سقوط الإمبراطورية الفرنسية الثانية ، فثورة الكومين، فتأسيس الجمهورية الثالثة .

ولم يشتغل المؤرخون والكتاب بمقتل رجل سياسى أو حاكم مرتقب انشغالهم بمصرع ولى عهد فرنسوى جوزيف فى مايرلنج (قبل كارثة سيراجيفو بثلاثين عاماً) ثم مقتل الإمبراطور مكسميليان فى مقر ملكه الزائل .

وأصل المأساة أن الأمير النمسوى الذى كان عرساً حديث العهد بالزفاف إلى الأميرة البلجيكية ، كان مرعىّ الجانب فى ظلال نابوليون الثالث الأخرق ، وقرينته أوجينى (الراقصة الأندلسية التى صارت فيما بعد إمبراطورة فرنسا)، فأرادا أن يرفعاه إلى عرش مملكة عظيمة فى أواسط القارة الأمريكية ، كانت تلتهمها نيران الثورة واشتهر أهلها بالشغب ومداومة الفتن والدأب على مناوئه الرؤساء والحكام ،

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر فى مجلة الرابطة العربية ، العدد ١٢٥ ، ص ١٢ - ١٥ فى ١٩٣٨/١١/٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لنزوعهم إلى تحقيق أغراض سياسية واجتماعية تكاد تكون مستحيلة ، فلما صحت عزيمة المغامر الأعظم نابوليون الثالث وشريكته فى التهتك السياسى الإمبراطورة أوجينى على نصب الشاب وارتجاله إمبراطوراً فى دولة نائية ، زجّا به بمفرده ، دون أن تصحبه عروسه الفتانة إلى فيافى المكسيك المجدبة . ولم يكن استجلابه إلا على أيدى حزب عسكرى خاسر ، صمم زعماؤه على المضاربة بالأمير النمسوى ، وإلقائه فى جحيم الخصومة السياسية . وكان الرجل فى الثلاثين من عمره ، بهى الطلعة ، طويل القامة ، حلو التقاسيم ، وديع الأخلاق ، مخلص السريرة ، ذا طموح إلى المجد . وقد مانعت قرينته الجميلة فى سفره ، وحالت فى بداية الأمر دون ارتحاله ، متوسلة إليه بجمالها ومالها ، ومستشهدة على مخاوفها بتكهنات السحرة والمنجمين الذين أنذروها بسوء العواقب . كانت فى شهر العسل تمرح فى بساتين كارلسباد ، وهى سماء تشع فيها كواكب المجد والعظمة والجمال ، فاعترضت طريقهم امرأة بوهيمية (غجرية) وتناولت كفها ، وقرأت خطوطه فى حالة انجذاب روحانى تشبه الغيبوبة ، ثم قالت لها : « عما قريب يدخل قلبك حزن عميق ، وتفقدين أعز الناس لديك، ثم يضل روحك ضلالا لا هداية بعده . لقد أنذرتك فحولى بعزمك دون السفر البعيد ، فإنها مغامرة خاسرة . الوحوش والشياطين المجنحة تهزأ وتضحك ، والملوك الشامتون يقهقهون ويتركون الدموع لك وحدك ! » .

فضحكت الأميرة العزيزة أولا ، ونفحت المرأة ألف فرنك ، ثم أجهشت بالبكاء وسارت فى طريقها ، ثم نسيت إنذار الكاهنة إلى أن حال الحول وعرض العرش والتاج على بعلها فتنبّهت فجأة بين حلم السعادة ، ومانعت وعارضت فلم يصغ إليها أحد ، فسافرت إلى فرساي ومثلت بين يدى الإمبراطورة أوجينى وتوسلت راكعة بين يديها أن تكف وزوجها العالى القدر عن التطويح بزوجها . فعبست أوجينى وزنجرت وقالت لها : « أيصل بك الجبن حتى الاستماتة والوقوف فى طريق زوجك دون اعتلاء العرش وتتويجك إمبراطورة على شعب عريق فى الحضارة الهندية الأسبانية ؟ لو أن زوجى جبن فى ليله ٢ ديسمبر سنة ١٨٥٠ ، ولو لم أكن بجانبه أشجعه وأشد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أزره، مابلغنا هذه المرتبة من المجد . انهضى وأعدى لزوجك معدات السفر !» .

قالت أوجينى هذه الكلمات الجافة ، وهى لا تعلم مستقبلها هى وزوجها العالى المقام بعد بضعة أعوام ، فقد دبرا معاً جريمة الحرب التى آلت بهما إلى السقوط والفشل والذل والمهانة ، قال موسيو أوليفيه وزير خارجية فرنسا فى كتابه « حرب السبعين » :

« كانت جلالة الإمبراطورة (أوجينى) فرحة بالحرب ، جد متفائلة ، وكانت تقول إذا عارضها أحد اتركوا لى حربى الصغيرة المعززة » .

فلما نشبت الحرب وظهرت عواقبها ألقت مسؤوليتها على كاهل زوجها العاجز المغرور وقالت : « إنه متردد جبان » ، فلما سمعت الأميرة شارلوت ، زوج مكسميليان رد الإمبراطورة ، صانت كرامتها ونهضت باكية واعتكفت ، وسافر زوجها مشيعاً بالطبل والزمر وتحيات الوزراء والجنود ، وأبحر من ميناء بوردو ، وقلب العروس المحزونة يحدثها بأنه لن يعود !

لما كان الأمبراطور مكسيمليان فى كورتيارو (مدينة فى المكسيك) ، كان الجنرال إسكوبيدو رئيس جيش جوارز ، نازلا قبالة المدينة فى جبال كورتياز الشماء، وكانت طلائع جيشه منبثة فى الوادى المنبطح الفسيح بين كورتياز ولاكرورزو، وهو دير عظيم واسع الأرجاء وهو أحصن معاقل المدينة وأعزّ حصونها ، وكان الإمبراطور نازلا فيه بمن معه من قواد الجيش وأركان حربه وأمراء عساكره[١] . فلما كان ليل الرابع عشر من مايو (١٨٦٧) عقد الإمبراطور مجلساً حربياً ، لأنه رأى أن المؤونة قد كادت تنفد فلم يكن للعساكر مايكفيهم من القوت اللازم ، فكانوا يذبحون الخيل والبغال ليتقوّتوا بها . فكان من رأى الإمبراطور أن يخرج بالعساكر ويوقع بالعدو استهلاكا ، لأن الإمبراطور وإن لم يكن فى الذروة من

---

(١) الحقيقة أن الإمبراطور وجنوده كانوا محاصرين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العلم الحربى والخبرة بفنون القتال ، كان متحلياً بالشجاعة وعلو الهمة ورغبة الاستبسال ، يخشى ملامة أصدقائه وشماتة أعدائه ويرجو أن يسعفه سعد الطالع بنفحة من حسن الحظ فيظفر بخصومه على أهون سبيل ... إلا أنه بدا من أمراء عسكره من التقاعس والتباطؤ ، ما أخر عزيمته هذه .

وفى تلك الليلة تم للويز [١] الخائن ما كان واطأ عليه إسكوبيدو زعيم الجيش المعاند للإمبراطور ، وهو أن يمكِّن له من الدخول إلى المدينة ويأخذ فى مقابلة ذلك ثلاثة الآف أوقية من الذهب (٣٨ ألف دولار) ثمنا لخيانته ، ولويز هذا كان أميراً للفيلق المعروف بفيلق الإمبراطورة ، أى زوج مكسميليان (يالسخرية الأقدار !) وعنده مفاتيح المدينة ، وإليه فوضت محافظة الدير أيضا . فلما كان الليل تقدمت طلائع إسكوبيدو ، حتى وصلت أمام الدير من دون أن يشعر بهم أحد ، فأمر لويز عسكره بأن يضعوا سلاحهم على الأرض ، ثم فتح الباب لعسكر إسكوبيدو فدخلوا ، وكان الإمبراطور راقداً فى جهة منفردة من دير ، فلما انتبه ، نبه معاونه البرنس سام سام وأخذا فى الانحياز إلى جهة ما ، فما كادا يصلان حتى أحدقت بهما جماعة من العسكر بقيادة الكولونيل رانكون وكان بصحبتهم لويز الخائن ، فلما بصر بالإمبراطور قال للعساكر : « دونكم الرجل فاقبضوا علي» ، فتقدم رنكون إلى الإمبراطور وقال له : «أنت لست من العساكر فنحن ليس لنا كلام معك ، فالزم شأنك »، ثم دفعه خارج الدير لأن هذا الكولونيل الكريم الشهم كان منكرا لما فعله لويز فأراد أن يسهل للإمبراطور سبيل النجاة ، فسار الإمبراطور مسرعا ، وكأنه أدرك غاية الكولونيل رنكون من قوله وفعله ، إلى طرف المدينة الأقصى وهو مكان حصين وتبعه البرنس سام سام والجنرال ميجيا وغيرهما من الضباط العظام ، إلا أن الفرار لم يغن عنهم شيئاً ، فأدركتهم على الفور أربعة فرق من الأعداء تحت رياسة الجنرال كورنا فلم يسعهم غير الاستسلام لهم ، فجيء بهم إلى الدير ومن

---

(١) جاسوس إسبانى مثل رواية يهوذا الأسخريوطى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هناك أرسلوا إلى دير سانتا تيريزتيا (القديسة طريز الصغرى) ، فوضعوا فى حجر لا فرش فيها فكانوا يرقدون على الأرض ولم يكونوا ينالون من الطعام مايكفيه حتى جاءت زوجة البرنس سام سام وتشفعت فيهم عند إسكوبيدو ، وهى شاكية باكية ، فنقلوا من هناك إلى دير آخر وسمح لأصدقائهم أن يأتوهم بالطعام والشراب والثياب . والفضل عائد إلى شفاعة هذه الأميرة النبيلة . وقد حكى عن جراءتها ما يتعجب منه ، فإنها اخترقت صفوف عساكر جوارز مرتين ورميت بالرصاص ، ثم حبست يومين ثم أعطى لها جواز لتسافر من البلاد ، ومع ذلك فإنها لم تكفّ عن السعى حتى اجتمعت بجوارز وإسكوبيدو ، حتى أن الإمبراطور لما بلغه مافعلت بكى كالطفل وتذكر زوجته الأميرة الشابة التى تنتظر عودته عبثاً .

ووصلت إلى أوربا أنباء فتح كوريتارو وأسر الإمبراطور ، فأرسلت الدول إلى سفرائها فى وشطنون بأن يلحّوا على حكومة الولايات المتحدة أن تسعى فى نجاة الإمبراطور.

وقالت فيكتوريا ريجينا ملكة إنجلترا إن حياة الإمبراطور عزيزة عليها ، ولا سيما لكونه صهرها . وجميع هذه الوسائط لم تجد عند جوارز شيئاً ، فإنه زعم أنه مادام الإمبراطور على قيد الحياة فإن بلاد مكسيكو لاتنال الراحة ، ويبقى حزبه أبداً مثيراً للشغب والفساد .

وقد رضيت جمهورية الولايات المتحدة « العادلة » هذه الحجة ، وباطن الأمر أنها كانت تكره الحكم الإمبراطورى أو الملوكى فى شعوب أمريكا الوسطى والجنوبية، لكونها جمهورية وتفضل أن تجاور الجمهوريات وتخشى من تدخل دول أوروبا فى قارتها عملا بمذهب مونرو « أمريكا للأمريكان » ، فهى تقبل أن تعين على تطهير البلاد من الحكم الأوتوقراطى ولو بتضحية واحدة .

وقد لهجت الصحف بأن الإمبراطور أخطأ فى ترك مقر الحكومة والقدوم إلى كورتيارو ليكون فيها محصوراً .

ولما انتشر خبر الهزيمة في فيراكروز فشل الحزب المنتمي إلى الإمبراطور فسلموا المدينة من غير شرط ، وكذلك وقع في قاعدة المملكة (مدينة مكسيكو) .

أصبح جوارز رئيس الجمهورية بعد أسر الإمبراطور وخلعه فأعلنه بأن الدعوى تقام عليه في مجلس حربي . فعارض الإمبراطور بمذكرة قائلا : « إنه ليس لأحد حق في إجراء الحكم عليّ إلا مجلس أكابر البلاد الذين دعوني لأتملك عليهم » ، فجاءه الرد من جوارز بأن رئيس الجمهورية لم يعترف بذلك المجلس حتى يكون حكما .

وفي ١١ يونيو عقد المجلس العسكري وكان من أعضائه إسكوبيدو الذي تواطأ مع لويز على الخيانة ، وصدر الحكم بإعدام الإمبراطور ومن كانوا معه من قواد جيشه ماعدا البرنس سام سام (وأصله من الهنود الحمر) ، فصادق جوارز على تنفيذ الحكم بعد أسبوع في ١٨ يونيو سنة ١٨٦٧ ، وقيل إن جوارز كان يميل أولا إلى تسريح الإمبراطور اكتفاء بما لحقه من الحبس والذل والخلع والهوان ، ولكن روميرو سفيره بواشنطون حرضه على قتله (وقد قيل إن ذلك بإيعاز من حكومة أمريكا المركزية) فأخبروا الإمبراطور بالاستعداد للموت فطلب أن لا يفرق بينه وبين رفيقيه وهما القائدان ميجا وميرامون فأجيب إلى طلبته .

وكان ميرامون المسيحي المكسيكي منكسر النفس مبتئسا ، وميجا طروبا لأنه كان مثل البرنس سام سام من الهنود الحمر ومن اعتقادهم أنه إذا مات أحدهم مع سيده كان ذلك له فخراً .

ولما كان الليل حضر القسيس لمقابلتهم ، وتعزيتهم على استقبال الموت ، فطلب الإمبراطور ورقا وقلما وكتب إلى أمه الأرشيدوقة صوفيا ، وإلى زوجته ، ثم اجتز خصلة من شعره وبعد أن قبّلها وضعها في رسالة إلى حرمه . وفي الفجر تقدم أحد القواد وأراد أن يضع منديلا على عيون المحكوم عليهم ، فأبى الإمبراطور أن يفعل ذلك ، فسلم عليه القائد معجباً بشجاعته ، وانحاز إلى العسكر ثم ساروا جميعا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى وصلوا إلى « الجلجلة »[١] ، وقال الإمبراطور للقسيس فيشر : قل لزوجتى إنى مت وعيناى تنظر إلى صورتها فهى كانت سلوانى فى آخر عمرى ٠

ثم التفت إلى رفيقيه وعانقهما عناق الوداع ، فخر ميرامون كالمغشى عليه مدهوشا ، وعانقه ميجا وقال له بعض كلمات بالهندية لم يعرف معناها ، ثم جاشت نفس الإمبراطور وقال للأسقف : « قل للويز إنى قد سامحته على خيانته ، وقل لسكيكو إنى عفوت عن ذنبها » ، فبكى القسيس وبكى كثير من الحاضرين ٠ ثم قال الإمبراطور لرئيس العسكر : « اقضوا ما أمرتم به ولا تشوهوا وجهى ٠ وأطلقوا على صدرى » ثم قال : « مسكينة شارلوت! » ، وهو آخر ما نطق به ، ثم سقط على صليب كان وراءه ، وفى الحال أخذت الجثث الثلاث وجعلت فى توابيت ودفنت تو الساعة ٠

وكانت شارلوت زوجته ، مذ بلغها خبر أسره وسجنه قد مرضت وهو يعلم ذلك ٠ أما الجنون المطبق ، فلم يصبها إلا بعد أن علمت بمصرعه ٠

وإليك ماجاء فى رسالته إلى زوجته :

« ياعزيزتى المحبوبة شارلوتات ، إن سمح الله بشفائك واطّلعت على هذه السطور، علمت سوء حظى الذى لم يفارقنى قط بعد فراقك ، فقد أخذت معك روحى وكل آمالى ، فياليتنى كنت سمعت نصيحتك ، فيالها من فواجع ويالها من رزايا قد ذهبت بكل مآربى حتى صار الموت عندى خلاصاً مما أعانيه لا ألما ٠ نعم إنى أموت ولكن ميتة عسكرى وملك مغلوب غير مشين بما يعيب شرفه ، وإن كان مرضك عضالا وشاء الله أن يلحقك بى شكرته على هذه اليد التى رزأتنا معاً !

فردينان »

وكانت الرسالة بالفرنسية ٠ ولما وصلت إلى مستقرها قرأتها الأميرة شارلوت ، وجنت جنوناً مطبقاً إلى آخر حياتها ٠ وعاشت بعد زوجها خمسين عاما ٠

---

(١) إشارة إلى الموضع الذى قيل إن المسيح صلب فيه ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انظر الآن إلى الانتقام الإلهى من الفرنسيين ، فإنه لم ينقض عامان على تلك الفاجعة حتى هزموا فى سيدان وحصل شقاق فظيع بين نابوليون وحليلته التى كانت خليلته والتجأ فى ذل وصغار إلى إنجلترا التى تشفت فيهما لأنهما من أعقاب نابوليون بونابرت عدو إنجلترا اللدود ، وتطوع ابنهما (الذى كان مرشحاً لأن يكون الإمبراطور نابوليون الرابع) فى حرب الزولو بجنوب أفريقية مدافعاً عن الاستعمار البريطانى ، فقتل شر قتلة فى غابة بطعنة من فارس زولوى . وقضى نابوليون الثالث نحبه فى الصغار والهم وعميق الأسى وفرط الندم . وعاشت أوجينى حتى بلغت أرذل العمر ، بلا وطن ولا عرش ، تنفق من الأموال الطائلة التى ادخرتها مما اغتصبه زوجها من دماء الفرنسيس وعاشت شارلوت لتشهد هذه النكبات ولكنها كانت منكوبة فى عقلها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العالم واليهود فى العصور الحديثة

كتب جديدة مع اليهود وعليهم[1]

—

بجانب الحركات السياسية التى محورها اليهود فى الشرق والغرب ، تقوم حركة أدبية واسعة النطاق ، فاليهود من جانبهم يدافعون عن أنفسهم ضد التهم التى توجه إليهم فى ألمانيا وهولاندا وبولونيا والنمسا وفرنسا وفلسطين ، كما أن خصومهم وأعداءهم ينشرون الكتب والرسائل فى تحذير العالم منهم ، وإظهار كثير مما يسمونه فضائح ومخازى ، فمن الكتب الأولى التى نشرها اليهود للدفاع عن أنفسهم (وسيأتى الكلام عليها بالتفصيل) كتاب « أمة الموت » تأليف أنطون فان ميلر[2] وهو مكتوب بلغات أوروبية شتى ، منها الفرنسية والإنجليزية ، وقد وصلت إلينا منه نسخة مرسلة من باريس من مجهول ، وهو مجلد ضخم فى أكثر من أربعمائة صفحة . ومن كتب الهجوم عليهم رسالة « اليهود فى العالم » وهى ألمانية ومصورة ، فيها فصل افتتاحى عن « أصل اليهود » ونشأتهم وإقامتهم بمصر ، ثم طردهم منها . ثم أخذ المؤلف يسرد أعمالهم ويصف أشخاصهم على مر الأجيال فى الخير وغيره فإذا بكفتهم فى هذا الأخير ترجع على كفة ما عداها ، والخير هنا ما يجلبونه لأنفسهم من المنافع أو ما يصيب العالم عرضا من أعمالهم ، عندما يكون أحد أفرادهم نابغا فى العلم أو البحث ، وهم نادرون ، لأن مجموعهم يعمل فى عالم المال واستغلال الشعوب لمصلحتهم ، ومن أوائلهم فى القرن الماضى سوس واسمه (يهوداسوس أو بنهايمر) وكان خطراً على بلاط مولاه كارل إسكندر أمير فرتمبرج وقد مات مشنوقا بعد حياة كلها دسائس وفتن واندفاع فى شهوات البدن[3] .

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ٩٣ ، ص ١١ - ١٤ ، فى ١٩٣٨/٣/٣١ .

(٢) المؤلف هولندى لأن لقب فان هولندى لا ألمانى .

(٣) أخرج كونردات فايدت شريطا سينمائيا لهذا اليهودى .

كما حصل بعض اليهود من البنوك على مبالغ طائلة كانت مودعة من اقتصاد الجماهير واشتغل منهم فريق بأوراق اليانصيب وتجارة الماس والأزهار والمواد الغذائية وكانوا يتمكنون من الحصول على الأموال الطائلة باتصالهم ببعض الحكام الذين لا يراعون قواعد القانون مراعاة دقيقة ، فيتواطؤون معهم ، ومنهم هارون إستافسكى وأصل اسمه إسكندر وهو من أهل أوكرانيا أصلا وأقام فى فرنسا خمس عشرة سنة، لعب أثناءها بالنضار ، وأدخل الارتباك على حياة ألوف من الناس ، وانتهى بالانتحار فى مدينة شامونيكس عقيب فراره ، وزيجموند بوزيل ، ابن أحد رجال الدين من غاليسيا وقد صار من أغنى الناس لسلوكه طرقا غير مشروعة ، وصموئيل أنصول الذى شغل الشرق والغرب أعواما بعد فراره من أمريكا والقبض عليه فى تركيا وتسليمه إلى حكومة الولايات المتحدة ، وقد أسفرت الاجراءات الطويلة عن الحكم ببراءته (١) وكان قبل فراره وإفلاسه ملكا للغاز والكهرباء وغيرهما .

وقد اشتهر بعض أفراد الجنس السامى بالصبر على الفقر والفاقة حتى إذا سنحت فرصة للكسب ، قفزوا إليها ولم يدخروا وسعا فى انتهازها والانتفاع بها ، بدون مراعاة للعواطف .

ومن صفاتهم المحافظة الشديدة على شرائعهم وتقاليدهم حيثما حلوا وأنّى رحلوا ، حتى إنهم فى مدينة نيورك وهى أمريكية سكسونية ، محافظون على يوم الاثنين (أى ليلة الثلاثاء) وقد كتبوا ذلك على واجهة الحمام باللغة العبرية (٢) ، ويظن أنهم مع محافظتهم على الشريعة والتقاليد فيما يخصهم ويهم عقائدهم ، أول من حث على استعمال الأزياء الحديثة و (المودات) وأدوات الزينة والتبرج وثياب الاستحمام، لعلمهم بأذواق السيدات ، ورغبة منهم فى الحصول على الأرباح من وراء التجديد فى كل ماله علاقة بحياة المرأة وجمالها وأناقتها كالعطور ومساحيق

---

(١) كلفت قضيته حكومة الولايات المتحدة مئات ألوف الجنيهات .

(٢) كان فى حى اليهود فى القاهرة حمام الثلاث الشهير .

الزينة، وأصباغ الشعر وما إلى ذلك ، ومن دأبهم أن يكسبوا النفوذ بالمال كما فعلت فى أول أمرها أسرة روتشيلد التى اشتهرت بغناها وتدبير أفرادها وقبضهم على زمام الأمور الاقتصادية فى أنحاء العالم ٠

ومن مشاهيرهم السير إرنست كاسل الذى بدأ بمال قليل وانتهى بامتلاك الملايين ، وهانس فون بلايش رويدر ، وجيمس سباير ، وهم من سادة المال فى نيويورك ، ولهم رياسة الغرف التجارية والمصانع الكبرى ٠

كما قبضوا على ناصية الفنون ، ومن رجالها عندهم مندلسون وابنته دوروثى ، وهزيتا هرتز ، التى كانت زعيمة المجتمع البرلينى الراقى ، وقد جلست على عرش القلوب وفتنت عدداً كبيراً من الرجال ، وراشيل ليفى غانية بوتسدام ، ومنهم فون بلوتيز المكاتب السياسى الحربى فى سنة ١٨٧٠ وكان من أكبر العقبات فى طريق بيسمارك ، فقد تمكن من الحصول بالحيلة ورشوة الخدم على نسخة من معاهدة برلين الشهيرة قبل أن تنتشر ، وأرسلها بالبرق إلى جريدته فى انجلترا وكان اسمه الحقيقى هنريش أوبرت وقد غير اسمه مثل معظمهم ليخفوا شخصياتهم الحقيقية ويتقوا انتقاد أعدائهم ٠

ومن رجالهم فريق يحترف أفراده تأليف كتب التاريخ فيكتبونه على هواهم لخدمة مصالحهم القومية ، ولا يكترثون لتشويه الحقائق أمثال رودولف موسه ، وجورج برنار وبرنار أولشتاين ، ومنهم من يصبغ الأعمال الأدبية بصبغة تروقه مثل أرنولد تزفايج وأخيه ستيفان تزفايج ، وقد ألف عن الثورة الفرنسية وهنرى بلزاك ومارى أنطوانت وماجيلان النجار المكتشف البورتغالى ٠

ومن كتابهم فى ألمانيا ماكسميليان هاردين وقد أصدر مجلة المستقبل ، وفيها أظهر فضائح بعض أمراء أسرة هوهنزولرن بسبب ما زعمه عن ميولهم الشاذة (البرنس أويلتبرج) وكانت لهم قضية جنائية شغلت المحاكم أكثر من عشر سنوات فى برلين ٠

وبسبب ما اشتهر عنهم من سعة الحيلة والطمع فى المال والظمأ إلى السلطة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تراهم موضع التهم فى كل ماله علاقة بالسياسة والفنون الجميلة والجرائم المتصلة بالأرباح المشكوك فى عدالتها ، وكثير منهم يغيرون معتقداتهم وأسماءهم ، فبتغيير العقيدة ينسى الناس صفتهم الأولى التى تميزهم عن جميع الأجناس ، فمثلا ديزرائيلى يصير لورد بيكونسفيلد ، وكوهين يصير كوجين ، وبراونشتين يصير تروتسكى ويلومفيليدن يصير بلوم وجولدنبرج يصبح جولدنج وهكذا .

ومن أقوى اليهود وأظهرهم ماكس نورداو[1] وهو يهودى نمسوى الأصل حذق العلوم والآداب واللغات وتخرج فى الاجتماعيات والاقتصاديات والسياسة وانبرى لتأليف كتب عجيبة ينتقد فيها نظم الحضارة الأوروبية الحديثة ومعاهدها ومبادئها وآدابها وفنونها وأدبائها على طريقة لم يسبق لها مثيل ، وقد نجحت تلك الكتب نجاحا عظيما ، وأثرى بسببها مؤلفها المتحيز لإقبال المنتقدين أنفسهم على شرائها وقراءتها على مدى خمسين أو ستين عاماً منذ ظهر أول كتاب منها إلى الآن وقد أعيد طبع معظمها عشرات المرات .

ويحدث أحيانا أن يقع ظلم على أحد أبناء تلك الملة ، كما يقع الظلم فى كل عصر ومصر على عشرات بل مئات الناس ، فيذهب المظلوم من الأجناس الأخرى ضحية خطأ أو انتقام ويأسف الناس عليه ، وهم عاجزون عن إنصافه أو الأخذ بثأره . ولكن اليهود إذا ذهب أحدهم فريسة الظلم أو الخطأ فإنهم يقلبون الدنيا رأسا على عقب ، ويقيمون العالم ويقعدونه حتى ينتصفوا له ويظهروه على الناس بريئا ، ولهم فى ذلك أقوال مأثورة ، ذلك أن تاريخهم بدأ بخطأ قضائى ومظلمة صارخة ، وهو الاتهام الذى ذهب ضحيته سيدنا يوسف بن يعقوب ، فكان جزاءه ما وصل إليه من العظمة والمجد والثراء والصولة فى نفس البلاد التى ظلم فيها ، ولكنهم ينسون أن سيدنا يوسف لم يكن يهوديا لأن اليهودية جاءت بعده على يد النبى موسى كما أن سيدنا يوسف كان نبياً ، فلما حدثت مسألة دريفوس انشقت فرنسا

---

(١) كان مكاتبا للتايمس ومراسلاً فى ميدان الحرب سنة ١٨٧٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علـى ذاتها بل انقسم العالم كله [١].

وكان لتلك القضية من الشأن ما كان لها ولعله لم يسبق للقضاء والرأى العام أن شغلا بمثل ماشغلا به فى قضية هذا الضابط الإسرائيلى الفرنسى .

وكل الناس الآن يعتقدون أن دريفوس كان مظلوما حقيقة ولذا اندفع فى نصرته رجال عظماء أمثال أناطول فرنس وإميل زولا وجان جوريس وهؤلاء لم يكن لهم غرض سوى انتصار الحق ، ولكن مئات من رجال الجيش والقانون والصحافة خدموا دريفوس بعقولهم ومواهبهم ، ولاشك أنه كان للمال شأن كبير فى معونتهم ، فإن أغنياء اليهود لا يترددون لحظة فى مد أيديهم بالمال لنصرة بنى جلدتهم فى كبار الحوادث . فمن ذلك أن ديزرائيلى عندما أراد شراء أسهم قناة السويس من إسماعيل باشا ، قدم له بيت روتشيلد ملايين أربعة من الذهب الإسترلينى ليتقى خذلانه ، وليرفع من شأنه فى نظر دولته وشعبه والعالم كله .

وكم جر اليهود من هذه الأموال بعد ذلك ، فإن الأربعة ملايين صارت أكثر من مائة واحتلال مصر كان بسبب ديون جوشن ورروتشيلد وشركائهم . ثم بيع أراضى الدائرة السنية وتأسيس البنوك وبناء الخزانات وكانت كلها مشروعات مالية وقد عادت على أصحابها من أهل هذه الملة بما لا يحصى من الأموال المنقولة والثابتة والمناصب العالية ، والفوائد السياسية والاقتصادية فى الشرق الأدنى وقد استخدموا أصحاب أعظم المواهب فى تحقيق تلك المشروعات .

وكان تجار الماس والجواهر فى جنوب إفريقية هم أصل البلاء الذى حل ببلاد الترنسفال وسبب حرب البوير الشهيرة ، فإن بعض رجال الحكومة أطاعوهم وأشعلوا نار تلك الحرب ليضمنوا أرباحهم الطائلة ، وكان لهم كتاب وصحفيون للدعاية ، وقيل إن أحد اللوردات الذين توفوا حديثا (بعد أن شغل منصبا ساميا فى جنوب إفريقيا وإنجلترا) كان منهم - لعله لورد ملنر ؟

---

(١) انظر كتابات المؤلف عن قضية دريفوس ، ص ٥٠٨ - ٥٢٣ من هذا الكتاب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويزعم صاحب الرسالة المصورة « اليهود في العالم » أن شارلي شابلين نفسه يهودي هاجر من غاليسيا إلى أمريكا وأن اسم أمه (تونيشتاين) وأن ادعاء نسبته إلى لندن وولادته من ظهر رجل إنجليزي في حي هويت تشايل محض دعاية ، يقصد بها التحبب للجمهور الإنجليزي ، وأن هذا هو سبب عزوفه عن التكلم في السينما الناطقة لأن نطقه لابد يخونه ، وقد ضم إليه جامي كوجان وهو طفل يهودي وحقيقة اسمه يعقوب كوهين ، وشابلين يبتز أموال الناس بإضحاكهم والضحك من غفلتهم وغبائهم ، ويصفه القائمون بأمر الإعلان عنه من اليهود بأنه الفيلسوف الذي يملأ العالم ضحكا وقلبه فريسة الحزن والأسى ، وحقيقة أمره أن جميع أشرطته تزعزع العقائد في صلاحية المجتمع الحديث في الغرب ، وتصرف الناس عن العواطف والإحسان وتصف انغماسهم في الشهوات والماديات ، وهذا الجانب من الحياة العامة الأوربية وإن كان صحيحاً ، إلا أنه يؤدي إلى هدم كيان الحضارة الحديثة .

ومن علمائهم الأفذاذ إيرليش (مخترع ٦٠٦ وسلفرسان) وأينشتين ، والموسيقى مايربير ، ومن نسائهم اللواتي ظاهرن الشيوعية وكافحن في سبيلها روزا كوكسمبرج التي قتلت في شوارع برلين [1] ، ماعدا الرجال من نوعها مثل فردنيان لاسال وتروتسكي . أما كارل ماركس صاحب « إنجيل العمل ورأس المال » فقد نزع رداء اليهودية عن منكبه وتنصر كأبيه من قبله . ومن علمائهم سيجمون فرويد الذي ابتكر نظرية التحليل النفسي ، وزعم أن كل أعمال البشر وأخلاقهم راجعة إلى الغزيرة الجنسية ، ومن ساستهم باول سنجر رئيس الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني لمدة عشرين عاما ، وبرنارد فايس وفالتير راتناو ، أحد وزراء ألمانيا أثناء الحرب والهدنة .

ولما وصل هيتلر إلى زعامة ألمانيا ، كان أول ما اتجه إليه ذهنه معاندة اليهود

---

(١) بعد الحرب وكانت من دعاة المشاغبة ووصفت بأنها ثائرة هيسترية المزاج والصق خصومها بها كثيراً من الشنائع الخلقية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتخلص منهم لاعتقاده أنهم وضعوا أيديهم على مرافق البلاد ، وكانوا سبب خسارة الحرب العظمى فقسم سكان ألمانيا إلى آريين وغير آريين وسن قوانين قاسية لمعاقبة الاختلاف بين الأجناس ، وقيد الحرف والصناعات والمناصب ومنع إخراج المال وصارت تلك القوانين نموذجا يتمنى كثير من ممالك أوروبا اتباعه ، ولكنهم لم يملكوا أن يضعوا تشريعا مثله لأسباب كثيرة ، فأظهروا إرادتهم بمعاكسة اليهود فى بولونيا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا .

ولكن أعقد المسائل التى لها علاقة بهم كامنة فى فلسطين ، فهناك ميدان للنضال بين العرب وبينهم ولم يسبق له مثيل إلا فى تاريخ اليهود أنفسهم عندما حاولوا فتح بلاد كنعان والاستيلاء على أرض الميعاد ، وعندما حاولوا تأسيس وطن قومى فى قبرص قبل العهد المسيحى بمائتى عام ، وقد ذبح فى هذا السبيل عشرات الألوف من المقاومين لهم حتى وصلت دماؤهم إلى شواطىء البحر الأبيض (راجع ج١ من كتاب أسس القرن التاسع عشر تأليف شارلس هوستون تشامبرلين)(١) .

---

(١) قال شمبرلين « وصلت دماء ضحاياهم إلى الإسكندرية !! » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحضارة واليهود[1]

—

قال بلا كنهيم : « لا الذكاء والمكر ولا الجمال والنقود ، بقادرة متفرقة أو مجتمعة ، على أن تعيد مجد اليهود الذى فقدوه بأطماعهم وأثرتهم واستغلالهم للبشرية على مدى الأجيال والقرون » .

وقال برنزويك : « إن سبب كراهية الإنسانية لبنى إسرائيل كراهية لا يوجد لها مثيل بين شعوب الأرض ، اعتقاد هذه الطائفة السامية أنها شعب الله المختار ، وأنها ملح الأرض وأنها الأمة الفضلى على كل الأمم ، وأن الله اختصها بالعناية الفائقة والتوفيق الدائم والنجاح المستمر ، فانتفخت أدمغتها وظنت أن أمم العالم مسخرة لخدمتها ، وأن العالم ضيعة ورثتها وتركة هبطت عليها من السماء تتصرف فيها تصرف المالك فيما ملك ».

وقال الراباه ليفى فى شرحه على التلمود العراقى[2] :

« إن إلهكم أعطا كم عهداً أن تملكوا الأرض وأن تكونوا ذوى السيادة العليا عليها من بعده ، فأنتم خلفاؤه بحق ، بشرط واحد وهو أن تطيعوه وتنفذوا مشيئته ، وأن لا تحيدوا عن وصايا أنبيائكم وأن يطلق أيديكم فى الوجود ، وأن ما قد يلحق بكم من الأذى ، فلا دخل للناس فيه ، إنما أصبع الرب هى التى تعمل عقابا لكم على خطاياكم وعصيانكم » .

وقال يواقيم هانس من علمائهم الذين ارتدوا وانتحلوا المسيحية : «أصل اليهود قبيلة سامية ، جاءت من وسط جزيرة العرب فى فترة من تاريخ العالم لم يدركها التاريخ ، فعبروا نهر الشريعة (ولذا أطلق عليهم اسم العبريين من العبور) فحطّوا رحالهم ، ورعوا إبلهم فى أماكن خصبة ، ثم هجموا على الشعوب المتحضرة هجوم

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة الرابطة العربية ، العدد ٩٤ ، ص ١١ – ١٤ ، فى ١٩٣٨/٤/٦ .

(٢) كتب تلمودان واحد فى العراق وآخر فى فلسطين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القبائل البربرية التى شوهدت فى القرون الوسطى ، فكان دخولهم إلى مصر بالحيلة والتسرب ، فإن يوسف [١] ابن يعقوب الذى صارع أعظم قوة فى الكون ، فى ظلام الليل ، ولم يعتقها حتى باركته [٢] ، هو الذى مهد لهم السبيل . وعبّد طريق الاستعمار فى مصر . وتمكن اليهود من السلطة فى عهد فرعون ضعيف ، يؤمن بالغموض وانخفاء وتفسير الأحلام . ويطمع فى استغلال الشعب والتحكم فيه بالإفقار والتجويع . وقد وجد فيهم خير معنى على بلوغ مآربه ضد شعبه ولكن إضعاف المصريين وكسر شوكتهم بالقحط والإدقاع لم يكن لصالح فرعون ، بل كان وسيلة لإدخال قبيلة أجنبية جائعة ، لم يكن لها شرع ولا قانون . فلما زال حكم هذا الفرعون وانقرض النسل النابغ من آل يعقوب ، حدث رد الفعل المنتظر فتحكم المصريون فى أنسال الذين أرادوا إذلا لهم . وتحت ضغط المصريين حكومة وشعبا، شعر اليهود بحاجتهم إلى القيادة والقانون . فبعث الله لهم نبيا وشريعة . وهنا نقطة مظلمة فى التاريخ وهى هل طرد اليهود من وادى النيل ونفوا من المرتع الخصب إلى الصحراء المجدبة ؟ أم إنهم فروا بليل يطلبون النجاة ؟ الرأى عندنا أنهم طردوا وأخرجوا قهرا ، وتبقى مطاردة المصريين لهم ، إن كانوا طردوهم فلا يعقل أن يقتفوا أثرهم ولأن هذا يفسر أيضا بأن المطاردة حدثت لأنهم احتالوا على المصريين وسرقوا أكبر نصيب من الذهب .ولم يخلص اليهود من ظلم المصريين وحسب بل نجا المصريون من استعمارهم » ا .هـ.

وقال هوستن شمبرلين [٣] « مازالت الأساطير الفاجعة والنميمة البشعة والتشنيع الأليم يتبعهم أينما حلوا ، فهم رمز للتيه والضلال ، فاليهودى التائه ليس

---

(١) سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام .

(٢) فى التوراة نص بوصف هذه المصارعة وأحرار الفكر من اليهود يزعمون بأن المصارع الآخر شخص يمثل العناية الإلاهية !!.

(٣) أسس القرن التاسع عشر مترجم إلى كل واللغات هو ينقل عن مؤرخيهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شخصا خياليا ، بل هو فى اعتقاد البعض فى القرون الوسطى كائن حى ، وضحية خالدة يجوس خلال العالم ، لايقر له قرار ولا يحتويه مكان بعينه ، لا يسعه الزمان ، ولا تحتضنه مدينة ، كتب عليه الشتات والحيرة ، والتنقل الخاسر من بيئة إلى بيئة ، ومن وطن إلى آخر . ويزعم البعض من أقوياء الخيال أنه رآه رأى العين ، بوجه كاسف ، وجبين باهت ، ولحية طويلة كثة ، يحمل على كتفه خرجاً فيه كنوزه ، وفى يده عصا ، يأوى كل ليلة إلى مرقده ثم ينهض مع الفجر ليواصل سيره الأبدى ! وقالوا عنهم تهمة شنيعة أخرى وهى التضحية بصبى غير يهودى عشية بعض الأعياد . وهى خرافة لاشك فيها وأسطورة مفتعلة ولكنها رمز إلى استغلال الأمم ، وذكرى صارخة لصلب المسيح » أ.هـ.

وقال بيلمان فى كتابه (اليهود المعاصرون) ، لقد حاول اليهود أن يهدموا حضارتنا ، فقضية دريفوس علمتنا كثيراً[1] ، نحن الآن لا نشك فى أن هذا اليهودى بالذات ، كان بريئاً ، ولكن التهمة لم تلصق به تعصبا ، ولكن مصادفة ، ونتيجة لخطأ ناشىء عن فساد خلقى فى نفوس بعض الضباط ، ولكن لو لم يكن يهوديا ، لم يكن لينجو من جزيرة الشيطان ، فإن دأب اليهود أن ينقذوا رجالهم مهما كلفهم الإنقاذ من مال وجهد ، مثلهم كمثل الكرات البيضاء فى الدم البشرى ، تبادر إلى مكان الجرح فى الجسم لتطرد العدو المهاجم سواء أكان جرثومة مرضية أو عنصرا غريبا عن البدن ، فقد دفع روتشيلد أكثر من مليونى جنيه فى قضايا دريفوس ، ودفع أرباب هذا البيت الغنى عشرة ملايين روبل ذهبا لإنقاذ بوجروف اليهودى الروسى الذى اتهم فى أوديسا سنة ١٩١٠ بأنه ذبح صبيا ليلة العيد ليخلط دمه بفطير الفصح، وكان بريئا ، ولكن تعصب الأرثوذكس فى روسيا القيصرية أدى إلى تطويل القضية ، فأحرج موقف اليهود فى العالم ، ونظرت إليهم الدنيا شزراً من جديد

---

(١) انظر كتابات المؤلف عن هذه القضية ، ص ٥٠٨ – ٥٢٣ من هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكـانت هذه المأسـاة تتـجـدد فـى كل عـام فـى بقـعـة من بقـا ع الأرض أو أكـثـر ، فـفـى أسبانيا الكاثوليكية ، وفى دمشق الإسلامية وفى فلسطين وفى مصر ، ويحدث أن تقع جريمة فردية من يهودى ، قد يكون مجنوناً أو مجرما بالفطرة ، فترد جنايته إلى تهمة قوميـة وما ذلك كله إلا بعض مظاهر البغض العام والكراهية المطلقة التى نزلت لعنتها على الشعب المختار » ١٠٠هـ٠

وقال مـينسكى فى تاريخ الوطن القومى : « إنهم يبـحـثـون عن وطن منذ الخليـقـة إلى الآن ، فـحـاولوا الاسـتـقـرار فى الـعـراق وأرض الكلدانيين ، وفى اليـمن وسـهـول روسيا وتركيا واليونان وسوريا وبولونيا وإنجلترا وجاليسيا وكل بلد تظله السمـاء ، ولكنهم دائمـا فى قلق وحيرة لا يشـعرون بالهدوء ، وبجـانب قـصـورهـم الشـامـخـة التى تغلق أبوابها الفخمة على أجمل النساء وأفخر الرياض وأغلى الحلل ، توجد (الجيتو) أو حارة اليـهـود حيث الفقر المدقع والشيـخـوخـة المعوزة والجـمـال الضـائع والاخـتـلاط المريب ٠ طلبـوا الوطن فـى أرض كنـعـان فـأهلكوا الزرع والنسل وأبادوا الشـعب تقـريبـا ، ثم نزحـوا إلى أورشليم فـهـدمـوها وفى سـنة ٢٠٠ قـبل المسـيح أغـاروا على قـبـرص وذبحـوا فى يوم وليلة مـائتى ألف نفس حـتى صـبـغـوا مـيـاه البـحـر الأبيض بالدماء ٠ ولم يظفروا بالوطن القومى ٠

ومع ذلك فـإن اليـهـود المتـمـسكين الآن بوعـد « بلفـور » بـإنشـاء وطن قـومى لهم فى فلسطين أرض الميـعـاد على حـد زعـمـهـم ، قد طبـعـوا على نقض العـهـود فى كل زمـان ومكان حتى عهود الله ومواثيقه لم يرعوها ١٠٠هـ٠

وقـال لوكـهـارت « إن الأدب العـالمى قـد يكون مـدينا لـبـعض كـتّـابهـم بتـراث ذى قيـمـة، فـإن مـؤلفات مـاكس نوردو وفـرويد وهـويتـمـان وتومـاس مـان وأخـيه هـنريش مـان ودامنسكى وديزرائيلى ومـوروا قـد أضـافت ثروة جـديدة لثـمـرات العقـول ، ولكن شـرهـا أكثر من نفعها وإثمـها أكبر من خيرها ، فإن هينه أفسد أخلاق باريس (؟) ، ونوردو حلل المبادىء والنظـم التى تدعم مدنيتنا وأظهـر كسادها وتعفنها وركودهـا ، كما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنذرنا أوزفالد شبنجلر [١] بقرب زوال حضارتنا وزاد نوردو وكان من زعماء الصهيونية ، بأن قتلنا بتهكمه الجارح وسخريته اللاذعة ، فتوهم حضارتنا أضحوكة وهزؤا .

أما فرويد فقد خلق الإباحية الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية ، ومجد الغريزة بحيث أطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسدهما ماشاء الشبق الكامن فى حنايا ضلوعهما . فالتهتك الجنسى لاحد له فى رأيه والولد يغار على أمه من أبيه ويود لو يموت الوالد ليحل محله (مركب أوديب الملك) ، أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاغتلام وعلاقة الجنس فيها شفاء من كل داء !!

ويرر توماس مان عشق الذكور (الموت فى البندقية) ووصف مرضى الصدر حيوانات متعاشقة تتخذ من يأس الشفاء عذراً للتسافد ، فمصحات الجبال مواخير للمرضى ، تحت مراقبة الأطباء الذين لايملكون منعهم (الجبل المسحور) ، نعم إنه كتب تاريخا جديداً ليوسف ، ولكنه إحياء لبعض أسفار التوراة بطريقة فنية جديدة فهو بعث للتوراة » ا.هـ.

يرى القارىء العربى مما تقدم وهو قطرة من بحر مما وعيناه ونقلناه أن رأى العالم فى اليهود ليس على ما يودون ، وقد تحركت مسألتهم بسبب غزو النمسا ومطاردتهم فيها وكأن العناية الإلاهية تنتقم من اليهود فى أوربا وأمريكا بسبب ما صنعوا ويصنعون في فلسطين ، فهم يحاولون طرد العرب من وطنهم ، هؤلاء العرب الذين آووهم وأكرموهم وحموهم وأفسحوا لهم مجالا فى كل مكان خفقت عليه الراية العربية فأعزوهم فى بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وطليطلة ، كان ميمونيد (الفيلسوف ابن ميمون) الذى يسمونه موسى الثانى محترما فى الأندلس ثم نزح إلى مصر فاتخذه السلطان طبيبا وأقامت له الأمة المصرية وحكومتها منذ عامين حفلة كبرى لإحياء ذكراه فى دار الأوبرا الملكية خطب فيها المرحوم أحمد زكى باشا

---

(١) كتاب « انحلال الغرب » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والدكتور نجيب محفوظ باشا وأحمد عيسى بك وصبحى بك والشيخ السكندرى وعشرات من فطاحل العلماء والأدباء المسلمين ، وقديماً أواهم السلطان محمود من ظلم أسبانيا فى دولته وحماهم خلفاؤه من اضطهاد بعضهم البعض [١] ، فلما اشتموا رائحة القوة نكلوا بالعرب أيما تنكيل واستعدوا عليهم بلفور وقومه مسلحين بوعده المشئوم ولم يذكروا أنعم الله عليهم ولا نعمة المسلمين ، فابتلاهم بهتلر الذى عاد إلى وطنه ودخل برلين دخول الغزاة الفاتحين بعد أن اعتقل عظماءهم وسادتهم فى الشهرة والمال ، فهل هو متعظون ؟!

---

(١) منه البقية فى سلانيك واسمهم « دونمة » وكان منهم جاويد بك وغيره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حفلة التتويج [1]

في صدى الأصوات المتصاعدة إلى عنان السماء ، الواصلة إلينا من أبعاد لا يقطعها المسافر براً وبحراً إلا في بضعة أيام ، وهي مسموعة لدينا لساعتها وعند خروجها من حناجر الصاخبين والهاتفين بها ·

وعلى وقع أنغام الموسيقا ، وقرع الطبول ونفخ الأبواق والمزامير ، وقرقعة العجلات وهتاف الجماهير ، نكتب هذه السطور · وهاهى أقواس قزح من الألوان تغمر الأعين بزهائها · فالذهبي والأرجواني والفضي والبنفسجي والبرتقالي والأزرق السماوي والأحمر القرمزي والأبيض الجليدي ، وهاهي مركبات الملوك والملكات · الزوجات والأمهات · ورئيس الكنيسة ورأس الوزارة والدوقات والبارونات · وحملة المفاتيح والأختام ، وأمراء اليابان والهند والقواد والحكام والدوقات والبارونات واللوردات العظام ·

قصة ملوك ثلاثة في عام ونصف عام ، وفاة واعتزال وتتويج وختام ·

الملك الأول يحكم ربع قرن يصعد إلى العرش والعالم هادىء مطمئن ثم يخوض غمار حرب عظمى تنطفىء نارها ولايزال رمادها حاراً ، ويغادر العالم وهو يغلى كالمرجل ، ويتقدم ولده الأكبر الذى قضى مدة كمدته في ولاية عهده وقد شاطر شعبه الأفراح والأحزان وشاركهم السراء والضراء ، وقاسمهم النصر والهزيمة في ميادين

---

(١) مخطوط بهذا العنوان لم ينشر ، كتبه المؤلف في ١٢ مايو سنة ١٩٣٧ بمناسبة تنازل ملك إنجلترا إدوارد الثامن عن عرشه مضحياً به بسبب حبه لمسز سمبسون التى قال عنها فى خطبة وداعه لشعبه «··· إنكم جميعا تعلمون الأسباب التى ساقتنى إلى التخلى عن العرش ، ·· لقد حاولت فى مدى خمس وعشرين سنة لما كنت ولياً للعهد ثم لما كنت ملكا أن أخدم وطنى والإمبراطورية بيد أن عليكم تصديقى كما أود حينما أخبركم أنى وجدت من المستحيل علىَّ أن أحمل عبء المسئولية الثقيل والقيام بواجباتى بصفتى ملكا كما أود أن أقوم بها من دون مساعدة المرأة التى أحبها وبغير تعضيدها ··· والآن أترك الشئون العامة تركاً تاماً وألقى العبء جانبا ·· وإذا وجدت نفسى فى أى وقت فى المستقبل صالحاً لخدمة صاحب الجلالة بصفتى الشخصية ، فإنى لن أتوانى» (ر·ل·ج)·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحرب والسياسة والاجتماع ، حتى لقد عبدوه أو كادوا وشادوا له فى قلوبهم محاريب وهياكل ، وجعلوا له فى كل دار صورة يلتفون حولها ويعجبون بجمالها ، يمجدون رجولته ويمتدحون شجاعته ، ويصفون مغامراته كما توصف أعمال الأرباب عند اليونان - هل هو أپولو أم چوپيتر أم الإلهان معا ، جسد واحد اجتمع فيه روحان!؟

وفى طرفة عين ارتفعت رأس الدسيسة وهبت العاصفة من دوننج ستريت ومنبر الكنيسة ، ولبس الوزير مسوح الرهبان وتكلم بلسان الفضيلة ، وأخذ على عاتقه حماية العرش والتاج والصولجان وادّعى الصداقة العريقة لفتى الفتيان وتظاهر بالقدرة على صحة التكهن بالسليقة . فهو وحده الذى يقف حائلاً بين العفة والابتذال والكرامة والضياع !

ها هى الموسيقا توقع الأنغام « اللهم احفظ الملك ، ميراث الأمة العظيم ، احكمى يادولتى وسودى على سائر الأقطار » ، هاهم الهنود المدهوشون ، عمائم زرقاء وثياب خضراء وحمراء . هذا هو الملك فى الكنيسة . مسرح التتويج ، الملك والملكة قد دخلا بهدوء ، دوق جلوستر ودوق كنت . رجل يراقب الملكين . الثياب ثقيلة جداً إنها مدهشة للغاية ، مثقلة بالديباج والقصب ونقوش الذهب والجواهر اللامعة .

البرنسيسات المحبوبات كوايت لوقلى ! الملكة ... ملك النرويج .

القسم الأول رجال الكنيسة رجال وستمنستر . كانتر بورى . ثم الفرسان لورد ونلجدون ، نياشين وقلائد أمراء الهند ثياب بملايين الجنيهات ، حكام المستعمرات والأملاك ، إفريقا ، كندا ، أستراليا . وستمنستر هول !

لقد خلع اللورد القفاز وألقى به متحديا من يعارض فى تتويج الملك ، لم يجرؤ واحد على التحدى . وسادة حمراء . إدوار الثالث ، وسام ربطة الساق . اللون الأزرق لون السجادة ، الكواكب المضيئة ، جواهر الوسام ربطة الساق . أزرق بلون المداد القاتم ، دوق إيڤركورن لورد لندندرى - لاتنسوا أن هذا هو التاريخ نراه أمامنا يُطهى . رئيس أساقفة يورك ... أرجو أن ... صهيل الخيل ... لورد شانسلور أوف إنجلند . هو رئيس الموكب وهو جالس على وسادة من الصوف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانتربورى أعين عميقة . كوكب الملكة . الذهب والأرجوان . موكب الملك . دوق يحمل الصولجان . القباء القرمزى . الوسادة . زنبقة الكريز . الملكة خوذات حرس ... هذا هو العلم الذى حمله لورد كتشنر فى التتويج السالف ... كان ميرياخور لچورج الخامس . الملك . أحمر وذهب وأزرق . ثلاثة أساقفة يحملون الأرغن . منظر الأساقفة فى ثياب مبهجة ، أسقفان فى خدمة الملك ، أسقفان فى خدمة الملكة . رجال الكنيسة فى معبدهم . يضعون أيديهم على العرش دقائق معدودة ، الملكان فى ضيافتهم كما كان آباؤهم وأجدادهم .

وعندما صمم الملك على الاعتزال لم يتلكأ ولم يتردد ولم يضع العقبات فى الطريق ، فبعث برسالة إلى المجلس وقرأها الوزير وتناقش فيها النواب وحرموا الكلام على من يريد أن يظهر الوفاء والإشفاق . وأخرجوه بليل على ظهر طراد بعد أن ودّع شعبه بخطاب رقيق عند نصف الليل ، كان صوته يتهدّج . أتمنى الخير لأخى. مستعد لأعود إلى الوطن العزيز إذا احتاج إلىَّ . لا أستطيع أن أحمل عبء الحياة بدون معونة المرأة التى أحبها . إن قلبى موزع وأنا أحب الصراحة ... مع السلامة . ليس يمنعه أحد من البقاء فى حدود وطنه ... ولكن إقامته من اختصاص وزير الداخلية والنائب العام ، ملك غير مرغوب فيه ... يالها من مصيبة! هاهو يودع شواطىء بلاده واقفاً على ظهر السفينة فى ظلام الليل وراءه حرس من الشرطة وكلابه الأمينة . محطات الأوطان الأجنبية تتلقاه مظلمة ومحروسة ومقفلة فى وجوه المستقبلين . كانتر بورى لايتركه يودعه بخطاب أليم . لقد أعلن الملك الراحل أنه لا يستطيع القيام بواجبه واحسرتاه عليه ! ها أنا ألقى عليه حجراً قد لا يدركه ولكنه يحدث دوياً عظيما فى البحار التى تحتوى المدرعة التى تحمله .

الملك ينظر إلى الباب الغربى . يبدأ الاحتفال .

وعندما وصل الملك إلى أواسط أوروبا فى قصر اليهودى الغنى ، فتح له أبواب قصره وأبواب خزائنه . وقال له : أنت ملك هنا وملك على القلوب فخذ من مالى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماشئت ما داموا يبخلون عليك ويحرمونك .

ولكن الملك كان غنياً فلم يمد يده إلى خزائن صاحبه وقد شكره على وفائه وصداقته .

وكان الملك يتنزه فى الجبال والحقول والغابات وعلى شواطىء البحيرات ، وكأنه نسى المرأة ذات الجمال والدهاء التى ودّع لأجلها شواطىء بلاده ... فقالوا لم يكن الحب دافعه إلى هجر الوطن وترك العرش العظيم ، ولكن حبه الفقراء وعطفه على العمال أحرج الصدور عليه وأغضب قلوب رجال الدين والدنيا ، ولم تكن المرأة إلا وسيلة وهدفاً .

الملك ينتقل من مجلسه إلى وسط مسرح التتويج ليتعرف عليه الناس وينظروا إليه من أدنى مكان ما هو واقف وحده ليراه الشعب .

ورئيس الأساقفة يتجه نحو الشرق ويقدم الملك چورچ للشعب .

إن وكيل الله على الأرض يعرّف صاحب العرش للرعية :

- ها أنا أقدم لكم الملك چورچ ملككم الذى لاشك فيه وأنا أعترف به . فهل تعترفون به مثلى ؟

يتجه إلى الغرب :

- أنا أقدم لكم الملك چورچ ملككم . هل تعترفون به وتجلّونه ؟

يتجه رئيس الأساقفة للشمال :

- أنا أقدم لكم الملك يحبيكم ويكرمكم فهل تقابلونه بالمثل ؟

يعود الملك إلى عرشه ويتجه رئيس الأساقفة إلى المذبح الذى عليه الصليب والشمعدان . الكتاب المقدس والصليب والشمع .

- اللهم سدد خطى الملك .

الكواكب الذهبية رمز الفروسية .

الصولجان . وسادة المركيونيز .

ينتقل إلى القَسَم ، قسم التتويج .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأسقف : هل تستعد للقَسَم ؟

الملك : نعم

- هل تقسم إنك تحكم بالعدل فى بلادك فى إنجلترا وأسكتلندا وكندا ونيوزيلاندا وأستراليا وجنوب إفريقيا وأملاكك وراء البحار وإمبراطورية الهند ؟

الملك :

- أنا أقسم بإخلاص أن أفعل ذلك .

- هل تحكم بالعدل وبالرحمة فى كل ماتقدم ؟

- سأفعل .

- هل تنفذ قوانين الرب والكتب المنزلة وتحترم الديانة وتمجد كنيسة إنجلترا وتحفظ حقوقها وامتيازاتها ؟

- كل هذا أعد به أن أفعله .

يمد الملك يده إلى الكتاب المقدس ليقسم فيقبّل الكتاب ويوقع على القسم .

الملك الآن جالس على عرشه ويتجه نحو أسقف كنتربورى ليتوّجه :

- أنا چورج السادس بإخلاص وثقة فى الله أزكى وأصرح أننى ملك . وأن أنفذ أعمالى بكل قوتى وفقا للقانون .

الملك يوقع على تصريح البرلمان .

يعود الأسقف إلى الهيكل .

الأسقف : ليبارك الله عهدك كما بارك عهد والدك . هذا هو وقته نطلب من الله النجاح والرخاء إلهنا الواحد . أسقف لندن .

* * * * *

وطاف الملك المعتزل بالحقول والجبال والقصور القديمة والآثار ، وكان يبدو تارة حزيناً وطوراً فرحا ومبتهجاً . ولكنه كان فى كل مكان محببا إلى القوم الذين يمر بهم فيهتفون له ويتعلقون به لأنه مخلوق خفيف الروح ، وقد خلعت عليه الحوادث رداء الشهداء ، ولأنه أحيا سنة ماتت فى العالم منذ مئات السنين ، فمن ذا الذى يضحى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأعظم عرش في العالم في سبيل حب امرأة ٠٠٠ ولو في ظاهر الأمور ٠٠٠؟ ولكنه فعل غير هياب ولا وجل ولا متردد ٠

وعندما دنا موعد التتويج سارع إلى كانديه في ضواحي تور والتقى قبيل الاحتفال العظيم الذي يقام لأخيه في عاصمة البلاد بتلك التي ترك لأجلها شواطىء بلاده ٠٠ إلى الأبد ٠٠ أو إلى حين ٠

إنه يوم عجيب ٠

.*****

الملك والملكة ينهضان تأهباً ٠

الأسقف يأمر بالعزف على الأرغن نشيد الرجال ٠ نشيد النساء ؛ الملائكة ذكور وإناث ٠ ملائكة ملتحون وملائكة مرد ، والكل يرفعون عقيرتهم إلى عنان السماء ٠ ملائكة هابطون من السماء ليحكموا الأرض ولا تغيب عن ملكهم أشعة الضياء٠

- ها أنا أمسح رأسك بالزيت وأجعلك ملكاً وراعياً وقسيساً ٠٠٠ وأنت الآن ممسوح الرأس بهذا الزيت وروح القدس يعطيك روح الحكمة والعقل والشجاعة والصبر والعدل حتى تحرك دفة ملكك إلى النهاية ٠

ينتقل الملك إلى عرش الملك إدوارد ٠

الساعة الأولى بعد الظهر ٠

- الزيت المقدس ٠ أنا أمسحك على رأسك بالزيت المقدس أعطيك أن تحكم وتسود باسم الأب والابن والروح القدس،آمين ٠

الأسقف يعلن البركات ويمنحها :

باسم السيد المسيح أعلن البركة وقد وضع التاج على رأسك والصولجان في يدك ، أن تحكم بعدل ويعد حياة دنيوية طويلة سعيدة مباركة تصعد إلى السماء في مملكة السيد المسيح

الملك يركع على ركبتيه ثم ينهض ثم يجلس على عرش الملك إدوارد القديم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتحت قدميه الحجر العتيق . فرسان ربطة الساق يضعون على جسمه ثوبا من الكتان وقميصا من الذهب . ويحزمون وسطه بمنطقة من الذهب .

يعود الملك إلى العرش فيجلس .

لورد شمبرلين راكع أمام الملك وهو يمس أقدام جلالته .

سيف يقدم له فى حمائل ، ثم يرد إلى الهيكل .

الأسقف : أقدم إلى الملك هذا السيف يستلمه وهو أحد خدمة الرب .

يتسمله رئيس الأساقفة ، ويضعه فى يد الملك اليمنى :

- ها نحن نقدم لك السيف فى يدك اليمنى .

يقف الملك وقد ربط السيف حول خصره ثم يجلس .

- بهذا السيف تدافع عن مملكة الرب وتحافظ على السلام فى مملكتك وأن تضىء بنور العدل فى ليالى الظلام المقبلة .

ينتقل الملك إلى المذبح ويضع السيف عليه .

ويتقدم بماية شلن فى كيس عملا بعادة قديمة .

وينقل السيف مجردا من غمده أمام الملك .

عاد الملك جورج إلى عرش إدوارد .

الأساقفة يحيطون به من كل مكان ، دين وستمنستر . أسقف يورك ، أسقف لندن ، أسقف باث ورئيسهم الذى ودع الملك .

جلس الملك :

- تذكر أن العالم كله خاضع لملكة السيد المسيح مخلصنا .

الصولجان فى متناول رئيس الأساقفة . صولجان الصليب والصولجان الآخر .

- العدل والرحمة . لحظة التتويج قد حانت !! يارب العدل والعظمة ! ساعدنا فى هذا النهار وساعد الملك على أن يحمل على رأسه ذلك التاج المصنوع من الذهب .

الملك جلس على عرش إدوارد .

دين وستمنستر يحمل التاج .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرئيس يأخذه ويضعه على رأس الملك بلطف

جميع اللوردات يضعونى التيجان على رؤوسهم ٠٠٠

جلالة الملك جورج السادس يتوّج ٠٠٠ ! موسيقى

الأسقف يخطب ويبارك ويهنىء ٠ ويقدم الإنجيل للملك ليقبله

يرد الملك الكتاب المقدس إلى رئيس الأساقفة

الأسقف : هل تقبلون الملك وتعدون بالوفاء له والولاء لعهده ؟

الشعب : آي آي آي ٠

انتقل الملك إلى المسرح ٠ على درجات العرش ٠ اللوردات يحملون السيوف ٠ يبدأ تقديم الطاعة ٠

خطبة رئيس الأساقفة :

– ياجلالة الملك ٠ باسم الله القدير الذى أقوم أنا والأساقفة بخدمته ٠ فى هذا اليوم الجليل ، تشرق سلطتك كأشعة الشمس٠

ترتيل الرجال ، ملائكة ذكور

ترتيل النساء ، ملائكة إناث

فى طرفة عين تمت المراسيم التى تجعله ملكا على مدى الأعوام ٠

فمنذ دخوله لم تقف له حركة ولم يهدأ له قدم ولم يستطع التنفس ٠ فها هو يعرض للشعب للتعرف عليه ثم يقسم اليمين وتبدأ حفلة العماد ثم المسح بالزيت وتقديم المهاميز والسيف وتقليده بحمائله ونجاده ٠

ثم قربان السيف على المذبح مجرداً من غمده ، وإلباس السوار والثوب الملكي وتسليم الكرة ثم رفع التاج على الرأس والتبريك والصعود إلى العرش ، فتتويج الملكة والصلوات ، وها هو الجزء الأعظم من الحفلة ، عماد الملك والملكة بينهما وبين الله ، يخلع الملكان تاجيهما ذكرى للملك العظيم الذى قال : لن أضع على رأسي تاجا من الذهب بعد أن وضع السيد المسيح على رأسه تاجاً من الشوك ! ٠

– اللهم أعطهما غذاء الروح ولتعطهما القوة والسلام والمحبة حتى يتمكنا من خدمة

الممالك والشعوب . فلنعد إلى الصمت والتأمل . ليقدس الرب عهده ببركة ألف وخمسمائة عام من عبادة مسيحية . اللهم سدد خطاه .

ترتيل الملائكة . . .

يتقدم رئيس الأساقفة إلى الهيكل . ويعود الملك والملكة إلى عرشيهما . صلاة الأسرة فى الكنيسة المسيحية عبادة الرب . ترتيل .

أبانا الذى فى السموات اقبل برحمتك قربانا إليك الذى نقدم فى ذل وخضوع. وها نحن نقدم إليك يارب أنفسنا وأرواحنا ولعل صلواتنا إليك تمحو سيئاتنا وتؤدى إلى غفران ذنوبنا . أبانا الذى فى السموات هبنا الوحدة فى العمل والتوفيق فى الخطوات والسداد فى الآراء آمين .

ترتيل . . . ملائكة ذكور وإناث .

تتويج الملكة على المذبح ، تتقدم لتتلقى التاج وتركع

رئيس الأساقفة :

- اللهم ساعدنا مساعدة مقدسة فى تتويج جلالة ملكتنا العزيزة واجعل عهدها سعيداً وليكن منها لزوجها عضداً وعونا على الحكم العادل والرحمة باسم الآب والابن والروح القدس .

والآن تمسح رأسها بالزيت المقدس .

- اللهم اجعل هذا المسح بالزيت مباركاً ومقدساً .

رئيس الأساقفة يتناول من أعلى المذبح تاج الملكة وينزل من على درج المذبح ، وحول الملكة أسقفان للمساعدة :

- فى اسم المجد والشرف والفرح ومعا أنا أضع التاج الذهبى على رأسك فى نور السعادة والفرح الدائم ، إلهنا آمين .

يضع السيدات تيجانهن على رؤوسهن .

يضع الأسقف الصولجان فى يمينها والكرة فى شمالها :

- أيها الرب أعطها الكمال ، أعطه لملكتنا ذات الفضيلة والكمال والكرامة آمين .

انتهى تتويج الملكة ٠ ولايزال الأسقفان فى خدمتها ، تنهض وحولها الوصيفات من نساء اللوردات ، تنهض جلالتها لتصل إلى عرشها وتمر بعرش الملك فتنحنى له ثم تلمس يده اليسرى ، خضوع وحب وذكرى ٠

تغنى الخورس أناشيد الدين بطرس وماتيوس ٠

يقدم الملك الخبز والنبيذ للعماد والملكة تتلقاهما من يده ٠

* * * * *

وعندما وصل الملك المعتزل إلى محطة تور فى جنوب فرنسا لم يكن أحد بانتظاره سوى ناظر المحطة ورئيس الشرطة وسائق المركبة ، فحيّاهم برفع قبعته وكان يلبس ثيابا جديدة ٠ وها هو قد صار على مسافة قصيرة من تلك التى فارقها منذ نصف عام وقد صارت الآن حرة طليقة مطلقة بحكم المحكمة لا يعترض أحد على اتصاله بها ولايدعيها رجل آخر لنفسه ٠ وهاهى تنتظره فى القصر الذى اشترته بماله ليسعد فيه بقربها ٠ بروج مشيدة وظلال ممدودة وحدائق فيحاء وهدوء شامل ٠ هناك فى إحدى غرف ذلك القصر المدفون فى الخضرة الدائمة وعلى ضفة الغدران الجارية وفى هدوء الليالى المقمرة ، تجلس المرأة الذكية اللعوب التى أرادت أن تكون خليفة لإليزابث وآن وفيكتوريا وإلكسندرا ومارى ، وإن لم يؤهلها دم أزرق يجرى فى عروقها ، فقد أهلّها جبينها العريض العالى بما وراءه من دهاء وذكاء وحسن تدبير ، وعيناها الضيقتان وفمها الدقيق وقامتها الضئيلة التى تنطوى على روح وثاب وفكر ثاقب وقلب خافق بالحب والوفاء ٠٠٠ وكانت قريبة جدا من العرش المنشود وكانت رأسها عما قليل تنحنى لتحمل التاج الموعود بعد أن تحلّت بحلى السابقات من ملكات العهود السابقة ٠٠٠ ولكن ٠٠٠

* * * * *

وقبيل أن تبلغ المدرعة التى أقلته شواطىء فرنسا ، أذاعت صحف الصباح أن الشعب التف بمرونته المعهودة حول ملكه الجديد ٠ صدق العصفور الذى نصح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصائد: لاتصدق ما لا يقبله العقل ولا تندم على مافات . وهكذا كانت المناصب حتى عروش الممالك تقليداً لاتخليداً ، وحب الشعوب خبا لا حباً ، واحترام الوزراء والقساوسة واللوردات للملوك خديعة لا وديعة ، وتعلق الرأى العام مجموعة أوهام ، وإخلاص الأمة وعد ليل ، الويل ثم الويل لمن يثق ببقائه حتى الصباح !!

- بركة الله الآب والابن والروح القدس تهبط عليكما وتلازمكما أبداً

الملك والملكة يحملان الصولجانين وينتقلان إلى معبد الكنيسة ، وهما يحملان التيجان !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

توديع رجل عظيم كان ملكاً [١]

لم أر وجهه إلا فى الصور ، ولم أسمع صوته إلا فى المذياع عقيب صعوده إلى العرش ، فملك عواطفى لرقته وفصاحة نطقه ورزانة إلقائه ، ولكننى أحببته لحريته وعطفه على الضعفاء من شعبه ولروح المجازفة والشجاعة التى لازمته فى أسفاره ورياضته . وقد يكون عجيبا أن وطنياً مصريا يعجب برجل كان ملكاً لدولة حاولت إذلال وطنه ، ولكن الذى يعلم مكانة الملك فى إنجلترا ، يدرك أنه فى فى معظم الأمور، إن لم يكن فى كلها ، مسيّر لا مخيّر ، وقد لايكون له رأى نافذ إلا فى فعل الخير ، كما صنع چورچ الخامس فى الحث على العفو عن المرحوم عرابى باشا ورفاقه فردّه من المنفى فى سيلان إلى وطنه .

فالعاقل لا ينظر إلى الملوك بالعين التى ينظر بها إلى الحكومات، وقد يكون معظمهم كارها للحروب والاعتداء على الشعوب وقد يحزن للحرب كما حزنت الملكة فيكتوريا لحرب البوير التى أقضّت مضجعها وكانت السبب الظاهر فى القضاء على حياتها .

فنحن ننظر إلى ذلك الرجل الذى كان بالأمس جلالة الملك إدوارد الثامن وأصبح اليوم مستر إدوارد وندزور بعين الاحترام بعد أن رفع على رأسه هالة من المجد - إن لم تفق فى قيمتها قدر التاج - فلا تقل عنه بهاءً وعظمة .

لا لأنه فضّل الحب والقران بمن أحب على العرش فأطاع هواه وعصى واجب الملك ، ولكن أحببناه لفضيلة الإخلاص والصراحة والحرية التى تحلى بها فتجلت فيه فاحتمل ألم التنزل عن العرش مع عزة النفس على لذة الملك تصحبها مذلة القهر

---

(١) مخطوط بهذا العنوان لم ينشر ، كتبه المؤلف فى يوليه سنة ١٩٣٧ بمناسبة نزول الملك إدوارد الثامن عن العرش ، وهو متصل بالموضوع السابق « حفلة التتويج » .

فصار ملكاً على القلوب ، لا فى بريطانيا وما يليها بل فى العالم كله ، وإذن لا يرجع عمله إلى ضعف العاشق الولهان ، ولكن إلى قوة الرجل المستقل برأيه المتمسك بشخصيته . قد يكون الرجل العظيم مخطئا فى نظر البعض ، ولكنه مصيب فى نظر الكثرة الغالبة ممن يقدرون الأخلاق السامية قدرها ويسمون بالأرواح والمعانى على الأشباح وصور المادة .

سوف يزاح الستار عن حقيقة المواقف الرهيبة بعد قليل أو كثير من الزمن، ويظهر ما كان مستوراً وخفيا وراء المظاهر ، وإلى أن تعلن الأيام ما بطن لن نصدق أن التنازل عن العرش بتلك الوثيقة الفذة التى تقدم بها إدوارد إلى شعوب الأرض ناتجاً عن مشكلة الزواج بسمبسون أو غيرها من بنات حواء مهما غلا فى تقدير جمالها أو الإعجاب بذكائها ، فإن المرأة التى تغرى ملكا مثل إدوارد بترك صولجان الملك لم تلدها حواء . فلابد من أسباب أقوى وأعظم وأفعل ، وقد اتخذ سبب الحب ستاراً أو انتهز فرصته لتنفيذ هذا الأمر . وقد قيل إنه شديد العطف على العمال والفقراء وإنه تحدّى وزارته بنقد الحكومة ووجوب الإسعاف والنجدة . ولو كان هذا السبب وحده ما رأينا زعيم العمال ورئيس المعارضة فى المجلس ينضم إلى المحافظين ويتضامن معهم ، إذن لأكل العمال وجهه وفقأوا عينه لأن عطف الملك عليهم لا يستهان به ولا يؤدى إلى تسهيل تنازله عن عرشه .

ويغلب على الظن أن حب إدوارد للسلام ومقاومته لروح الحرب كان لها أقوى أثر فى تنازله وإحلال أخيه محله . فإننا إذا رجعنا إلى حادثة محاولة الاعتداء عليه وهو فى قمة مجده وحب الشعب له ، وتذكرنا مالهجت به بعض الألسن من أن المعتدى مدفوع من بعض أنصار الحرب وتجار السلاح ، وإلى خطبة الملك أثناء عرض فرقة من جيشه وهى التى لمح فيها إلى رغبته أن لا يعانى العالم حربا كبرى كالتى وقعت سنة ١٩١٤ وذاق مع أبيه مرارتها ، ثم أضفنا إلى ذلك رحلته الصيفية التى زار فيها شرق أوروبا ووطد أثناءها أواصر المودة مع بعض الدول التى قد تنضم إلى بريطانيا فى حالة الحرب ، وفسرنا هذه المحاولة منه بأنها تهديد مستور للدول

المعادية التى قد تحدتْها نفسها بالحرب ، كانت هذه كلها قرائن على إظهار كراهيته لإهراق الدماء.

وإذن يكون حزب الحرب فى إنجلترا قد تحقق من نيته فأيقن أنه ليس الرجل الذى يستهان به أو يستدرج لخوض غمار حرب طاحنة تحرق اليابس والأخضر ولا سيما بعد أن استعدت لها الدول استعداداً جعل بولدوين نفسه يصفه بأنه «جنون لابد منه » ، قال ذلك فى خطبة رنانة فى وسط شهر نوفمبر .

فإذا تضافرت تلك الأسباب أو القرائن ، وكان بعض الوزراء أهم عامل فيما سبق التنازل ولحقه ، أدركنا أن الحقيقة هى رغبة إدوارد عن الحرب لا رغبته فى الحب هى التى ألجأته إلى ترك العرش .

ومما يدعو إلى الإعجاب به صراحته التى أطراها خصومه ، وكان فى وسعه أن يطاولهم ويتظاهر بالجفاء لمن اختارها للقران حتى يظفر بالتاج والصولجان ثم يفعل مايشاء ، ولكن شممه وإباءه اقتضيا صراحته ولو كان فيها الزهد فى الأرجوان وفى العرش والصولجان ، وهذا الذى يرفع قدره فى نظر الإنسانية .

فأى عقل جبار وأى قلب من الفولاذ وأى نفس تنزهت عن حب الدنيا والسلطان يستطيع صاحبها أن يخلع رداء الملك فى يوم وليلة ويهجر قصوره وقلاعه وألقابه وحقوقه ليعود مواطناً بسيطاً يحمل لقب المستر بعد أن كان ملء أسماع الدنيا وأبصارها ؟!

وعبثاً يحاول الرسميون أن يقنعونا بأن للسيدة « وليس ولدروف سمبسون » ذلك الشأن الأعظم . لأنه ثبت اتصالها بالملك منذ أربع سنين وكان فى الإمكان إقصاءها ولفت نظره بالتصريح أو التلميح منذ صلتها به وإعلانه مرة أنه يريد أن يوضع فى قاعة التتويج عرشان بدلاً من عرش واحد . كما أنها كانت تدعى إلى القصر علانية ويقيد اسمها فى سجل التشريفات وتسير فى ركابه حتى فى أسفاره وتنشر صورتها إلى جانب صورته . فلماذا لم تحرك تلك المناظر همة المحافظين على علاقة الملك بالعامة من شعبه فى بداية الأمر قبل أن يشتد ساعد كوبيد فيلقى سهمه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأخير الدامى ؟

ولماذا لم يحرك ذلك الشعب المتمسك بشخص ملكه والمجنون بحبه ساكناً وكانوا بالأمس يقولون لا نرضى عن إدوار ملكنا بديلاً ، وقد شبوا على حبه مذ كان وليا للعهد وكان يأسر القلوب بجماله وظرفه وتواضعه وروحه الرياضية . أيمكن أن تتغير النفوس وتحول القلوب فى أسبوع ، ثم يترك الملك ليسافر إلى مكان مجهول ليس هو الذى لجأت إليه تلك التى لازمها كوكب النحس فاقترن اسمها بزوال الملك عن خطيبها الملوكى ؟

قد يكون الملك المتنازل أسعد حظاً مما يتوهم بعض قصار النظر ، فإن أعباء الملك وثقلها على كاهله وقد حملها صبيا ورجلاً وكهلاً - وشيكة أن يضاف إليها هموم الحرب المقبلة[1] ، وتلك الأقدار التى أنقذت ألبرت الأول ملك بلجيكا ودفعت بولده ليوبولد إلى إعلان حياد مملكته ، هى التى أنقذت إدوار الثامن من تحمله تلك المسؤولية التى سوف تلدها الأيام فى العام المقبل فى شكل عاصفة على أوربا !!

وإن مصر لتذكر إدوار الثامن وتحفظ ذكراه قريبة من قلوبها لعدة أمور ، الأمر الأول عطفة الشديد على ملكها الشاب فاروق وغمره بلطفه وإكرامه أثناء إقامته القصيرة فى عاصمة ملكه وحسن تعزيته لدى وفاة والده ، والثانى أنه لم ينس توقيع المعاهدة فى أثناء انشغال باله ... وفى هذه اللحظة - التى نكتب فيها هذه الأسطر - خطبة الملك التى ودّع بها وطنه وأسرته ودعا فيها لأخيه بالنصر ولشعوب الإمبراطورية بالسعادة ، وقد كان صوته متهدجاً مصحوبا بنغمة الحزن والتأثر الشديد ، وهذا ليس بالغريب على من قضى الأيام الأخيرة فى حيرة مؤلمة تخفيها عزة النفس ورغبة الظهور بالهدوء فى وسط الحوادث التى تعصف بأكبر العقول وأقوى الأفئدة ، وقد كان كعادته رزينا منظماً فى سياقه وأسلوبه . وإنها لموعظة كبرى لمن سمع خطبة استقباله الحكم منذ بضعة أشهر . ومازالت كلمة العرب

---

(١) كتب المؤلف هذا الكلام قبل سنتين من نشوب الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صادقة فإن الليالى حبالى يلدن كل عجيبة ، ولكن تلك العجيبة التى ولدتها وحولت بها حظ رجل كان يؤمل أن يكون من أعظم الملوك جاهاً ووجاهة لمن أعجب العجائب وأغرب المفاجآت .

ومازالت الأقدار تنفذ مشئيتها وتتحكم فى حظوظ البشر من أكبر كبير إلى أصغر صغير على صورة لا تخطر على قلب بشر ولا ينفع معها الحذر ولا يصدق فى التكهن بها منجم مهما كان علمه . وحق القول بأن الغيوب لا يطلع عليها إلا من بيده مفتاح خزائنها ولوحها وقلمها ، يمحو مايشاء فيها ويثبت سبحانه بيده الملك يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زفاف ملكة القلوب
ويلهلمينا الهولندية[1]

أخى الأستاذ صاحب الرسالة

تفضلت فطلبت إلىَّ أن أكتب فصلاً يتصل بزفاف أحد ملوك الغرب ، وأول ما خطر ببالى زفاف ملكة هولندا ويلهلمينا وزوجها الأمير ألبرت وقد شهدته بنفسى إذ كنت فى سياحة فى تلك البلاد العجيبة[2] التى هى أقرب إلى القطر المصرى بوديانها وخضرتها ومزارعها الناضرة وأخلاق أهلها الوادعين ، وكانت الأميرة ويلهلمنا نفسها تدعى (ملكة القلوب) لما حباها الله من الجمال والجلال ورقة الحاشية ، فكانت محبوبة من شعبها ، وإن نسب الحاسدون إليها شيئاً من الكبر والخيلاء وزعموا أنهما زالا مع الزمن بعد أن أحسنت القيام على حكومتها فى رفق ولطف سياسة ، وأصبحت بصيرة بوجوه التدبير والإدارة ، خبيرة بتصريف الأمور ، حتى كتب (ڤان كيكم) أحد وزرائها عقيب زفافها يقول : إن ملكتنا أعقل أهل المملكة ، ووافقه على ذلك من رفاقه الوزراء من كان لايزال يرقب الملكة عن كثب ويدرس أحوالها وينظر إلى مستقبلها فى أسطرلاب الحوادث المغيبة .

كان البرنس ألبرت خطيب الملكة من صفوة أشراف الطراز الأقدم ، وكان قد ورث ثروة طائلة عن آبائه واتخذ لنفسه معلمين من الإنجليز بعد أن نال إجازات من جامعتى برلين وأكسفورد ، وأوى إلى ضياعه التى يملكها فى هولندا فغرس بستانا على نمط جديد ، وابتنى لنفسه قصرا على خطة من بنات فكره ، وجعل ينفق فى

---

(١) مقال بهذا العنوان نشر بمجلة الرسالة ، العدد ٢٣٨ ، السنة السادسة ، ٢٤ يناير سنة ١٩٢٨ .
وقد كتبه المؤلف بناء على طلب صاحب الرسالة بمناسبة قران الملك فاروق بالملكة فريدة سنة ١٩٣٨ .

(٢) تسمى هولاندا «مصر أوروبا» لأنها تضارعها فى الخصب والزراعة وتزيد عليها أن لها مستعمرات كبيرة فى الشرق من بقايا أيام قوتها وهى تنتج الكاكاو والأرز والشاى وأنواع العطارة والبخور .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سبيل العناية بالمثوى وتعهد البستان وتنظيمه ماشاء الجمال وحسن الذوق ، حتى استنبت أزهارا نابغة من الخزامي والورد الأزرق ، وكان يعلم أن الملكة الشابة تحبهما وتختارهما وتفضلهما على غيرهما من الأزهار ، فأهدى إلى جلالتها كل ما أخرجه البستان من الورد الأزرق الغض والخزامى ، فأصبح من أقرب الأمراء إلى البلاط ، وقبلت الملكة ووالدتها دعوته إلى حفلة شاى أنيقة أقامها فى عيد ميلادها فى قصره ، وكانت الملكة الوالدة قد آمت(١) من زوجها وكسرت شبابها على تربية ابنتها (ويلهلمينا) وتثقيفها وإعدادها للعرش إذ كانت ولية العهد والوارثة الوحيدة بعد أبيها، وفى تلك الحفلة ظهر البرنس ألبرت أجمل مظهر وأبدعه وأروعه ، وكان فتى رشيق القد ممشوق القامة يختال فى حلة عسكرية فائقة ٠ ولما علم بدنو موكب الملكتين (الوالدة والجالسة على العرش وهى التى زفت إليه بعد قليل) امتطى صهوة جواد سابح ينهب الأرض وراح يستقبل موكب المركبة الملكية ، ولم تكن السيارات قد ملأت العالم كما هى الآن ، فوقع من قلب الملكة الشابة خير موقع ، ورنت إليه بعين الرضى والسرور حتى إنه أثناء الحفلة أوعز لأمه الأميرة بياتريس أن تلمح إلى الملكة الوالدة لتجس نبضها فى الخطبة، فانتهزت الأميرة فرصة الرضى وفاتحتها ، فابتسمت وقالت (إن فى أمور الدولة مايشغلنا عن استعجال المتوقع وفى انتظار الفرص مايصرفنا عن استدراج البعيد) ، ثم أسرت لابنتها ما أسرّت ، فتهلل وجه الملكة الشابة التى مازالت ترنو إلى الأمير وتخالسه النظر فى إعجاب وحياء ٠ وفى الواقع أن الأمير كان خير من يصلح للملكة على الرغم من إقبال الأميرات الأجنبيات عليه ومبالغتهن فى إظهار ميولهن وأمانيهن بأن تكون واحدة منهن عروسا له ٠ ولكنه كان عنهن منصرفا لايكاد يكترث لهن ، فأولن ذلك بأنه لابد أن تكون لقلبه سيدة استأثرت باحتلاله وامتلاكه والتربع على عرشه ٠ وكن فى حديثهن صادقات ٠

---

(١) يعنى ترملت وأصبحت أيّما ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكذلك كانت فئة كبيرة من الأمراء يعللون أنفسهم بحظوة القرب من الملكة الشابة والارتباط ببيتها المالك برابطة المصاهرة والنسب ، ولكن والدتها ووزراءها والقيّمين عليها كانوا يفضلون أميرا من خلاصة الشعب وسلالته.

وكانت ويلهلمينا الملكة الشابة فى السابعة عشرة من عمرها . كان يضىء محيّاها الجميل عينان زرقاوان براقتان كأنهما نبعان من ينابيع ماء الحياة ، ومن العجب أن ترى جذوة النار فى زرقة البحر ! ولها من شعرها الأصفر البراق ضفائر يضل النظر فى استحسان دقتها وغزارتها ، وقد صدق من وصفها بأنها تمثال فاتن من صنع الإغريق بقى مكنونا فى صميم صدر الدهر حتى كشفت عنه الطبيعة المنعمة، وأظهرته العناية الملهمة ، فبدا ملكاً على الأفئدة قبل أن تكون صاحبته ملكة على العرش والتى كانت وحيدة أمها ، وولية العهد ، وصاحبة التاج المرموق الذى يهيمن على ستين مليونا من البشر فى آسيا الجنوبية ، غير خمسة ملايين من أهل بلادها الأصلاء[1] هى على جانب عظيم من الثقافة والغنى ومكارم الأخلاق وكرم النفس والوداعة والرحمة ، على عكس ما قال الحاسدون ، فكانت أمها وأقاربها ورجال حكومتها وأهل البلاط يبالغون فى ترفيهها وتدليلها . وكان ينتظر من وراء ذلك وبسببه أن يكون لها على أهلها وحاشيتها وخدمها وكل من لابسها وجالسها ، فرط جرأة وتكبر ، ولكن الأمر كان على العكس ، فقد كانت وادعة متواضعة ، شديدة الحياء والإيمان والتوقير لكل كبير ، جمة الحنين لذكرى أبيها الذى مات وتركها فى المهد صبية ، وكان يتمنى أن يسهر على تنشئتها فيشهد زفافها ، ولكن توفاه الموت قبل أن يدرك غايته .

---

(١) ومعنى هذا بلغة الاستعمار أن لكل هولاندى من رعاياها اثنى عشر رجلا من الأندونوسيين الذين ترى أشبالهم فى معاهد العلم بالقاهرة، وأندونوسيا مجموعة جزائر وحواضر من أغنى بلاد الشرق وأخصبها، وقد اخترع الهولنديون طائرات سريعة للوصل بين العاصمة والمستعمرات النائية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد اختلفوا فى البائنة التى قبضها (البرنس كونسورت) أى الهر الملكى الذى أسعده الحظ بزواجها ، فقيل مليون كورون ذهبا وقيل مليونان . ولكن الصحيح أنه قبض ثلاثة ملايين وتسلم زمام إحدى الجزائر المملوكة للتاج بغير شريك وهى تدر خيرات كبرى من الزرع والضرع والكنوز .

وبعد قليل من تلك المقابلة صار الأمير بمكانة الزوج المنتظر ، ولم تمض بضعة أشهر حتى تم الزفاف فى مدينة لاهاى (ذى هاج) عاصمة هولاندا . وكان ذلك فى صيف عام ١٩٠٦ . وقد قضى العروسان شهر العسل على شاطىء سكفينينجن [١] وهى ضاحية الاستحمام والاستجمام تبعد عن العاصمة بضعة أميال . وكان عقد الزواج فى هيكل القصر . ومن أبدع مظاهر زينته أولئك الفتيات القرويات ذوات الفتنة الضاحكة والسذاجة المستملحة وسحر البساطة المستعذبة اللواتى اشتهرن فى أنحاء أوروبا بجمالهن وعفافهن وميلهن للمداعبة البريئة . وقد رغبت الملكة الشابة أن يشتركن فى زفافها ، لشدة حبها لشعبها وعطفها على رعاياها ولا سيما من كان منهن فى سنها ومن جنسها اللطيف .

فكنت ترى بجانب جورج الخامس (وكان ولى عهد بريطانيا لأن الملك إدوارد السابع ورث العرش عن والدته الملكة فكتوريا) بثيابه الرسمية المرصعة بالجواهر والأوسمة الرفيعة ، والسيف المحلى بالذهب والحجارة الكريمة ، والحمائل العسجدية من المخمل الثمين ، وقد وضع على رأسه خوذة من الذهب الخالص وزانت وجهه لحية شقراء ، وليوبولد الثانى وهو الآخر شيخ همّ أبيض الشعر وردى الوجنتين أزرق العينين ، وقد أبى إلا أن يلبس ثيابا هولاندية مبالغة منه فى التقرب الذى يقتضيه حسن الجوار ، وانفرد بين الملوك بهدية من تحف الكونجو ، وهى تماثيل من الأبنوس والعاج مكفّتة بالذهب تمثل آلهة وفرسانا وغزلانا وأيائل وفيلة وطيورا من أجمل وأروع

---

(١) من أجمل وأروع شواطىء الدنيا وأجمل من أوستند وأطهر وبها فندق مشيد من الحديد المموه بلون براق ورماله ذهبية هينة المنحدر لينة الملمس وهو على مقربة من لاهاى كرمل الإسكندرية .

ما وقعت عليه العين ٠ وكان ليوبولد الثانى يملك ولايه الكونجو الحرة ملك السيد المطلق لا تشاركه فيها حكومة ٠

وكان ليوبولد الثانى بقدر قسوته على رعاياه الإفريقيين ، ذا حنان وشفقة على رعاياه الأوربيين وكان يعطف على جارته ملكة هولاندا لشبابها ، ويرى أن يفرط فى مجاملتها والحلول فى نظرها محل والدها الذى كان من أصدقائه الحميمين ٠

وكانت من المدعوات الإمبراطورة أوجينى بجلالة قدرها وعبرة شيخوختها ، أتت من لندن مستندة إلى ذراع دوق كونت وقد اتشحت ثيابا بيضاء موشاة (بدنتله) بروكسيل ، قدرت ببضعة ملايين من الفرنكات ، ووضعت على رأسها تويجا من الزمرد الأخضر المتلألىء على شعر جبينها الأبيض ، وزينت صدرها (بمنياتير) صورة مصغرة لولدها الأوحد (نابليون الرابع) الذى اغتاله المقاتلون فى زولولاند وهو يحارب متطوعاً تحت راية الإنجليز بعد أن فقد والداه عرش فرنسا عقيب حرب السبعين ٠

وقد أهدت الإمبراطورة إلى العروس حليا وعقودا من خزانة كنوزها ، وإلى العرس (برنس ألبرت) سيفاً من سيوف نابوليون بونابرت ٠ وأرسلت جمهورية فرنسا هيئة شرف حربية ومدنية من الوزراء والسفراء والنواب وقد لبسوا الثياب الملكية وشارة الجمهورية (شريط مثلث الألوان) وحملوا على صدورهم نياشين الجمهورية ووسام « زايد وزى » وهو أرفع وسام هولاندى ، وأرسلت مستعمرات هولاندا فى الشرق الأقصى (جزيرة جاوى وأندنوسيا) وفودا من سلاطينها وأمرائها ، وقد زانوا الاحتفال بثيابهم الشرقية الفضفاضة وعمائمهم المرصعة بالجواهر ، وكان أجملهم وأظهرهم غنى ووقارا السلطان محمود بن تبنى حليف هولاندا وصاحب عرش جزيرة بيهالو - هوى ، وكان حاكما شرقيا مسلما شديد الشكيمة واسع الحيلة ، لم تستطع واحدة من دول الاستعمار إخضاعه ، فحالفته محالفة الند للند ، وكان يزين نحره وصدره بجواهر لاتقدر بمال ، وأهدى إلى العروسين تحفاً قيمة منها سيوف هندية ولوحات منقوشة ومرصعة وأقداح من الذهب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للشاى وصناديق من العاج لصيانة الحلى ٠

وكان هذا السلطان الشرقى يسير فى مكان ظاهر من الموكب وحوله بقية الأمراء من وطنه ، وكفاهم فضلا أنهم سافروا فى البر والبحر أربعين يوما ليشتركوا فى المهرجان قبل اختراع الطائرات ٠

وكانت تحمل أذيال الملكة العروس ، وهى من الفراء الموشاة بالذهب والدر المنضد ، فتيات وأطفال كاللؤلؤ المنثور ، نشأوا فى الهواء الطلق تحت ظلال أشجار البلوط ورضعن ألبان أمهات صحيحات الأبدان قويات البنية فكانوا وكن زينة الموكب ٠ ولا مراء فى أن لكل أميرة أو قرينة وزير أو وعقيلة سياسى مشاركة فى الاحتفال أن تبتسم من سلامة الفطرة التى كانت متجلية فى وجوه الهولانديات ، لأن العزلة والحرية والصحة الشاملة استنبتت ونمت قبل الأوان فى قلوبهن عواطف ونزعات وأهواء وشهوات لاتحسها ولاتدركها فتيات أوروبا الغربية ٠ فكنت ترى بعض الأميرات والوصيفات وسيدات الشرف يضحكن فى خفر ضحكا بريئاً لايؤثر فى بساطة الجمال الهولاندى وجليل محامده التى لولاها ما ظهر فى تاريخ تلك البلاد (منذ الاحتلال فى عهد فيليب الثانى) مثقال ذرة من العظمة الإنسانية [١].

ولما كانت الملكة احتجاجية (بروتستنت) وكان الأمير كاثوليكيا ، فقد عقد العقد مرتين وألقى خطبة الزواج بالهولاندية والإنجليزية والألمانية والفرنسية ڤان كروب مترجر كبير أساقفة لاهاى أمام الهيكل الذى شهد زواج والدة الملكة وجدتها وحفلة إعلان استقلال (نيذرولاند زاوبيياس - الأرض الواطئة) من حكم أسبانيا الذميم٠

---

(١) ألف أحد مؤرخى الإنجليز كتابا فى خمسة مجلدات عن تاريخ هولاندا وعظمتها وانحدارها وما وقع لها من الحروب مع فرنسا وإنجلترا وأسبانيا ومن أروع صحفه خطبة البرجومستى وهو يسلم عاصمة الملك للأسبان ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد ذرفت الملكة الوالدة دمعتين من دموع الفرح والذكرى لفراق زوجها وهو والد العروس وكانت تتمنى أن يكون على قيد الحياة ليقدمها لعرسها ، وقد حل محله الملك الشيخ ليولولد الثانى لأن له من الحظوة والزلفى والدالة والوجاهة عند ملوك أوروبا منزلة رفيعة وشأنا عظيما . وكان الأمراء الشرقيون على غاية السرور ، ولم يحسوا شيئاً من التجانف والتجافى اللذين يلقونهما فى بلاد الشرق من الحكام الهولانديين والإنجليز ماعدا السلطان محمود ، فقد كان آية فى الجد والوقار كأنه لايخلو من التفكير والشجون على فرط اكتراث الملوك واحتفالهم بشأنه ولكنه ممن لاتفتنهم مظاهر الأبهة ولا تأخذ بألبابهم فخفخة الحياة الدنيا .

وكان الشعب مشاركا فى الأفراح ليلا ونهارا ، ولم تبق شيخه أو كهلة أو فتاة فى بيتها ، وكن يلهجن بذكر العروسين ويفضن فى شرح حالهما وأمرهما حتى أصبحا مجال البحث وموضع الحديث فى كل شارع وطريق وزقاق ومحفل .

ومن أساطير ذلك الزفاف الملكى أن الملكة العروس دست على خطيبها فتاة ذات حسن رائع من وصيفاتها وقالت لها (اذهبى وانظرى ألبرت خطيبى وافحصيه فحصا ثم عودى فخبرينى أى امرىء هو ، وصفيه لى وانعتى خلاله ومزاياه وشمائله وسجاياه).

ونسى واضع الأسطورة أو واضعتها أن الملكة إنما خطبت عرسها على عينها وتخيرته بنفسها وأحبته للوهلة الأولى ، ولكن ما الحيلة فى أخلاق الشعوب وخصوبة أخيلة النساء وثرثرتهن حتى فيما ليس لهن به من علم ؟ وحتى لو كن من أهل الشمال الأوربى البعيدات القاصيات النائيات عن الشرق وأساطيره . ولكن المرأة هى المرأة فى كل زمان ومكان من شمال القطب حيث يقطن الإسكيمو إلى جنوب أرض النار (تيراد بلغويجو).

وما أنس لا أنس الزينات التى قامت على قدم وساق فى البر والبحر ، فقد أمرت الملكة ألا يخرج صائد ولا باحث عن رزقه بين الأمواج خلال أسبوع الزفاف ، وأجرت على الفقراء والعائلين أرزاقا أغنتهم عن خوض غمار البحار فى سبيل القوت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والصيد ، فحشدوا سفائنهم ومراكبهم وزوارقهم وزينوها بالأعلام والمصابيح ، وأقاموا مراقص شعبية تسمى بالهولاندية كيرمس أو (دعكة) يشربون فيها الجعة والجبن اللاذع ، ويختالون فى سراويلات ملونة ويحتذون أحذية من الخشب المنحوت ، وهم بين كهل وفتى يراقصون الفتيات على أنغام الموسيقى الهادئة ذات الحنين الشجى، ولايدرى مقدار ما يجمل أولئك الفتيات البحريات من أهل ساحل هولاندا من فتنة السذاجة المستملحة وسحر البساطة المستعذبة إلا من رآهن رأى العين . وقد كان هذا الزفاف فى عرفهن طارئا عظيما وحادثا جليلا ، وقد اتخذن من التحلى والتزين له واقعة وتاريخا وذكرى خالدة . وقد صورت الصحف مناظر الموكب والأفراح والمراقص ، وما أزال أذكر صورة بالألوان البهيجة تمثل امرأة عانسا فى الأربعين من العمر دهنت وجهها وزججت حاجبيها لترقص مع شيخ بحار من صائدى الحيتان وقد اصطنع لنفسه لحية تحيط بذقنه وعارضيه دون أن تدنو شعرة واحدة من شفتيه ووجنتيه ، واتخذ على رأسه قلنسوة خضراء ذات صنع عجيب ووضع أعجب ، وفى فمه غليون ضخم قصبته من خشب القرو ، وخزانة الطباق ويسمونها (الفرن) من القيشانى .

أما الشوارع فى يوم الزفاف وليلته فكانت تعج بمئات الألوف من أهل البلاد والسائحين والمصورين والصحفيين ، وأقاموا متاحف ومعارض لمتاجر البلاد ومنتجاتها من خيرات البر والبحر ، ومن متاحف تلك الفترة مجموعة فريدة من تصاوير رمبراندت الهولندى ومؤسس تلك المدرسة العريقة فى إتقان الألوان ومحاكاته الطبيعة فى درس علم التشريح وقد يبلغ ثمن بعضها مئات الألوف من الجنيهات .

(من ذكريات قديمة) **محمد لطفى جمعه**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفهرس

الصفحة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤلفات محمد لطفى جمعه

أولاً : المؤلفات المطبوعة :

المؤلف	المطبعة	السنة
١ - فى بيوت الناس (قصص) - نفد		١٩٠٤
٢ - فى وادى الهموم (رواية) - نفد	مطبعة النيل	١٩٠٥
٣ - تحريرمصر(سياسة - مترجم) - نفد	مطبعة النيل	١٩٠٦
٤ - محاضرات فى تاريخ المبادىء الاقتصادية والنظامات الأوروبية (اقتصاد ونظم الحكم) - نفد	مطبعة النيل	١٩١١
٥ - الحكمة المشرقية (يضم ثلاثة كتب هى : حكم فتاح حوتب وروضة الورد للشيرازى والتعليم الراقى للمرأة اليابانية) - ترجمة ودراسة - نفد		١٩١٢
٦ - حكم نابليون (مترجم) - نفد	مطبعة البيان	١٩١٢
٧ - ليالى الروح الحائر (أدب) - نفد	مكتبة التأليف	١٩١٢
٨ - الأمير « ليكاڤللى » (ترجمة ودراسة)- نفد	مكتبة التأليف	١٩١٢
٩ - مقدمة قانون العقوبات ومبادىء العلوم الجنائية (قانون - مذكرات فى القانون الجنائى لطلاب السنة الثانية من قسم الحقوق بالجامعة المصرية) - نفد		١٩١٧
١٠ - تاريخ علم الاجتماع (اجتماع) - نفد		١٩١٩
١١ - مائدة أفلاطون (دراسة فلسفية - مترجم)- نفد		١٩٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٢ - الشهاب الراصد (نقد كتاب « فى الشعر الجاهلى » لطه حسين) - نقد .	مطبعة المقتطف والمقطم	١٩٢٦
١٣ - التحقيق الجنائى Lecture on criminal investigations, polis officer's Club, 22-7-1926. (قانون محاضرة باللغة الإنجليزيـــة ألقيت بنادى ضباط البوليس)	نادى ضباط البوليس	١٩٢٦
١٤ - تاريخ فلاسفة الإسلام (فلسفة إسلامية)- طبعة أولى - نقد	مطبعة المعارف	١٩٢٧
طبعة ثانية	عالم الكتب	١٩٩٩
١٥ - الشيخ محمد عبد السلام (سيرة متصوف مصرى) - نقد	مطبعة حليم	١٩٢٧
١٦ - حياة الشرق ودوله وشعوبه وماضيه وحاضره (سياسة وتاريخ) - نقد	دار إحياء الكتب العربية	١٩٣٢
١٧- سجل أشهر القضايا العالمية (قانـون - عدد واحد) - نقد	مطبعة حجازى	١٩٣٤
١٨ - بين الأسد الإفريقـى والنمر الإيطالـى (سياسة - بحث تاريخى اجتماعـى فى المشكلة الحبشية - الإيطاليـة) نقد	مطبعة المعارف	١٩٣٥

سلسلة مسامـرات الشعـب

(روايـات مترجمة) :

١٩ - الساحر الخالد- عـدد ٤٠ ، مسامرات الشعب ، نقد

٢٠ - الانتقام الهائل - عدد ٤١ ، مسامرات الشعب ، نقد

٢١ - الكنز الدفين لكونان دويل - عـدد ٤٧ ، مسامرات الشعب ، نقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٢ – الجسد والروح – عدد ٤٨ ، مسامرات الشعب ، نفد .		
٢٣ – ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله (سيرة الرسول ﷺ– الجزء الأول) – نفد	مطبعة الحلبى	١٩٤٠
٢٤ – ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله (الجزء الأول مضافاً إليه باقى الأجزاء كاملة) – نفد	مطبعة النهضة المصرية	١٩٥٩
٢٥ – نظرات عصرية فى القرآن الكريم (تفسير)	مكتبة عالم الكتب بالقاهرة	١٩٩١
٢٦ – مخطوطات مسرحيات محمد لطفى جمعه – الجزء الأول – المسرحيات المؤلفة (قلب المرأة – خضّر أرضك – فى سبيل الهوى – يقظة الضمير – الأم المتعبة)	مكتبة زهراء الشرق القاهرة	١٩٩٧
٢٧ – قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد – تراجم مصرية وأجنبية	عالم الكتب بالقاهرة	١٩٩٨
٢٨ – نحو أدب روائى عالمى جديد (عولس لجيمس جويس – أدب ونقد)	عالم الكتب	١٩٩٨
٢٩ – مع الكتب، فى سبيل المعرفة ، تاريخ تكوين عقل (أدب ونقد)	عالم الكتب	١٩٩٩
٣٠ – الفلاكة والبوهيمية فى الأدب القديم والحديث (أدب)	عالم الكتب	١٩٩٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العنوان	الناشر	السنة
٣١- مباحث فى الفلولكلور (أدب ومأثـــورات شعبية) ، طبعة أولى	عالم الكتب	١٩٩٩
طبعة ثانية ، سلسلة مكتبة الدراســـات الشعبية رقم ٣٤	الهيئة العامة لقصور الثقافة	سنة ١٩٩٩
٣٢ – الأيام المبرورة فى البقاع المقدســـة (رحلة الحج والزيارة النبوية فى عهـد الملك عبد العزيز آل سعــود) – أدب رحلات	عالم الكتب	١٩٩٩
٣٣ – تذكـار الصبا ، ذكـــرى ١٩ مارس (جزآن – مذكرات وسيرة فى الرحلـة وللسياسة والأدب والفنون)	عالم الكتب	١٩٩٩
٣٤ – الأسلوب والخطابة (أدب)	عالم الكتب	١٩٩٩
٣٥ – شاهد على العصر ، مذكرات محمد لطفى جمعه ، الجزء الأول (١٨٨٦ – ١٩٢٧)، سلسلة تاريخ المصريين ، رقم ١٨٣	الهيئة المصرية العامة للكتاب	٢٠٠٠
٣٦ – فى الأدب والنقد (أدب ونقد)	عالم الكتب	٢٠٠٠
– حوار المفكرين ، رسائل أعلام العصـر إلى محمد لطفى جمعة خلال نصف قرن (١٩٠٤ – ١٩٥٣)	عالم الكتب	٢٠٠٠
٣٧ – مباحث فى التاريخ	عالم الكتب	٢٠٠١

ثانياً : مؤلفات تحت الطبع :

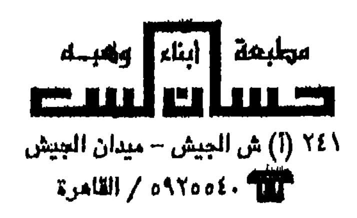
- شاهد على العصر ، مذكرات محمد لطفى جمعه (١٩٣٨ – ١٩٥٣) ، الجزء الثانى
- قضايا ومشكلات اجتماعية فى مصر المعاصرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- كيف السبيل لإحياء الشرق والإسلام ؟
- خطرات أفكار
- عولس لچيمس چويس (ترجمة لحوالى ثلث الرواية)
- عايدة (رواية)
- مختارة (رواية)
- الفتى العادل (رواية)
- سوسن هانم (رواية)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رقم الإيـــداع بدار الكتب ٢٩٧٣ لسنة ٢٠٠١
الترقيــم الدولــى I.S.B.N. 977-232-258-2




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

